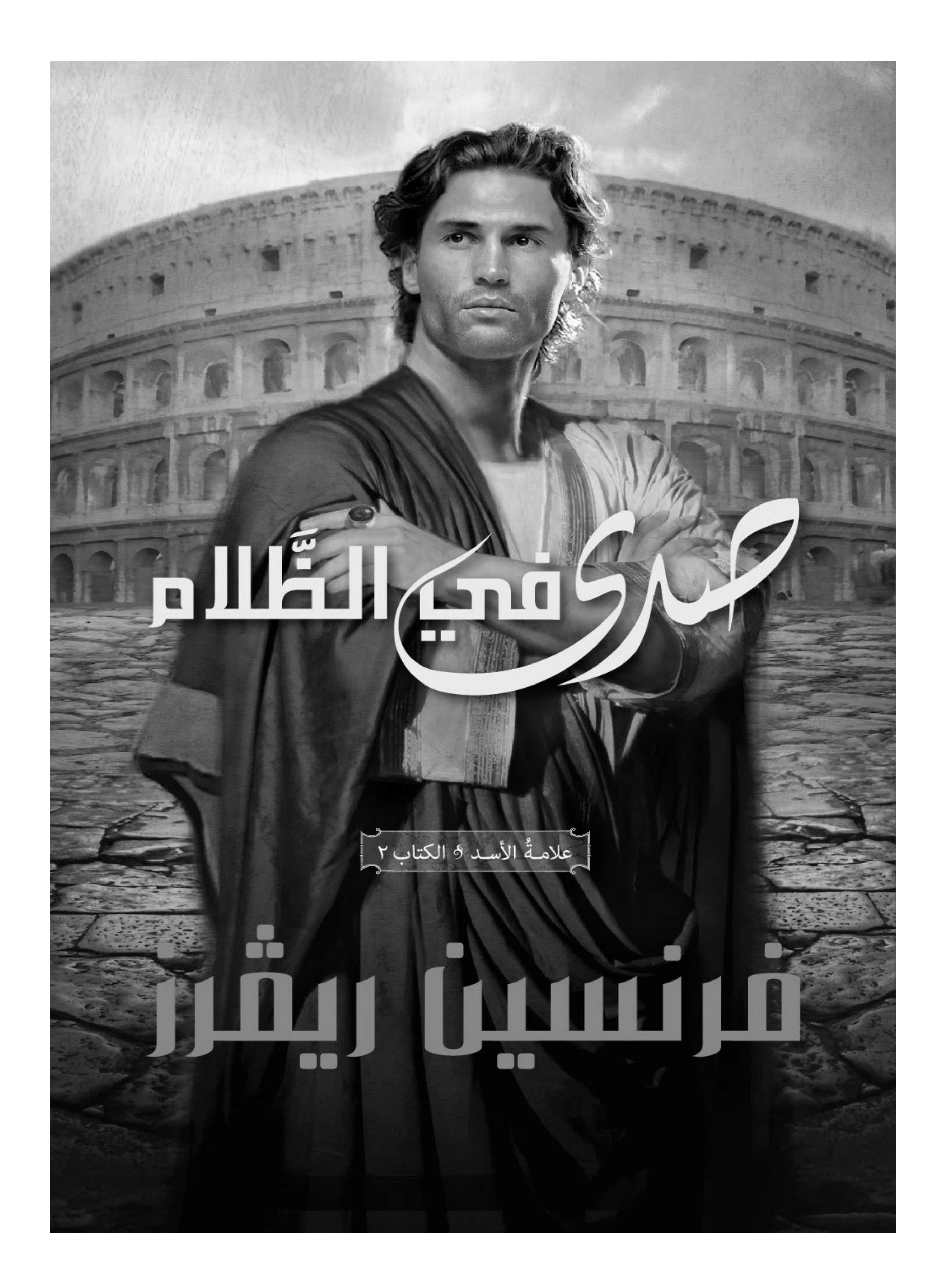
صدى في الظَّلام

علامةُ الأسد - الكتاب ٢

فرنسين ريفرز


صدى في الظَّلام
علامةُ الأسد ٥ الكتاب ٢
فرنسين ريفرز

صدى في الظَّلام

فرنسين ريڤرز

ترجمة: سعيد باز



An Echo in the Darkness

Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC.

صدى في الظلام

تم نشرها باللغة العربية بالترتيب مع براون آند ميلر لتراري أسوسيتس. إل. إل. سي.

صدى في الظلام

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٣

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الاردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ١٩٠٧/ ٦/ ٢٠١٣

ISBN 978-90-5950-168-7

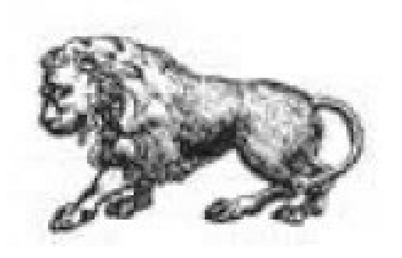

كنوز
KONOOZ
منصّة النشر المسيحي الإلكتروني

أُهدي هذا الكتابَ إلى:

پَـغي لينش (Peggy Lynch) ولِن موفِت (Lynn Moffett)،

صديقتيَّ المحبوبتَين، ومحاربتَيِ الصلاة.

الفهرس



تمهيد

وقف ألِكسندر ديموسيدِس أماندينوس عند ذباب الموت، مُنتظِرًا الفُرصة لتعلُّم المزيد عن الحياة. وحيث إنَّه لم يكُن يستمتعُ قطُّ بالألعاب، فقد جاء مُتمهِّلًا. غير أنَّه الآن شُلَّ حِيالَ ما كان يشهَدُه، مذهولًا في أعمق أعماق كِيانِه. وحدَّق إلى الفتاة الصريعة، فأحسَّ انتصارًا لا يُفسَّر.

لطالما ملأته حِدَّةُ الرَّعاع المسعورةُ دائمًا بانزعاجٍ شديد. كان والدُه قد قال إنَّ بعضَ الناس يختبرون انفراجًا في مُشاهَدة العُنف ينزلُ بالآخرين، وقد تذكَّر هو ذلك إذ رأى بين حينٍ وآخر فَرَجًا شِبهَ مَرَضيٍّ على الوجوه بين جُمهورِ المشاهِدين: في روما، وفي كورنثوس، وهنا في أفسُس. لَرُبَّما كان أولئك الجالسون شاكرين بينما يشاهدون كلَّ تلك الأهوال؛ لأنَّهم لم يكونوا هُم مَن يُواجِهون الأسود، أو يُقاتِلون مُحارِبًا مُدرَّبًا، أو يسقُطون ضحايا مِيتةٍ أُخرى أشدَّ غرابةً وقذارة.

بدا كأنَّ الآلافَ جاءوا ليَجِدوا تنفيسًا في إراقة

الدِّماء، حتَّى إنّ مُعايَنةَ التشويه المقصودِ حَمَت كُلًّا منهم من الفوضى المتفاقِمة في عالَمٍ فاسِدٍ وعشوائيّ على نحوٍ مُتزايِد. ولم يبدُ أنَّ أحَدًا لاحظَ أنَّ نتانةَ الدَّمِ لم تكُن قطُّ أقلَّ من نَتَن الشهوة والخوف اللَّذين يتخلَّلان حتَّى الهواءَ الذي تنفَّسوه.

تشبَّثتْ يدا ألِكسندر بقُضبان الحديد وهو يقتربُ إلى الرَّمل حيثُ كانت الشابَّة مُلقاةً. لقد مَشَتْ إلى الأمام مُنفصِلةً عنِ الضَّحايا الآخرين، السائرين إلى مَوتهم، هادئةً وفَرِحةً فرحًا غريبًا. لم يكُن في وُسعه أن يُشيحَ بنظرِه عنها، لأنَّه رأى فيها شيئًا يفوقُ المعتاد- شيئًا يستَعصي على الوصف. وكانت قد ترنَّمَت، فإذا بِصَوتها العذب يتماوَجُ لحظةً على الهواء.

وما لبث صُراخُ الرَّعاعِ أن طغى على ذلك الصَّوت العذب، إذ تعالى الصُّراخ دفعةً واحدة، فيما هي تُواصِل تقدُّمها، ماشيةً على الرَّمل بِرَزانة، مُتوجِّهةً مُباشرةً إلى حيثُ كان ألِكسندر واقفًا. وأخذَ قلبُه يدقُّ دقَّاتٍ أشدَّ مع كلِّ خطوةٍ خَطَتها. كانت بالأحرى بسيطةَ المظهر، ومع ذلك اكتنفَها

تألّقٌ ما، هالةُ نُورٍ أحسَّها بدلَ أن يراها. أم كان ذلك من نسج خياله فحسْب؟ لـمَّا ضربَتها اللَّبوة، شعرَ ألِكسندر بالضربة هو نفسُه!

والآن، كانت لَبوتان تتقاتلان على جسدها الهامد. فأجفلَ ألِكسندر إذ شاهدَ إحداهُما تغرز براثِنَها عميقةً في فَخِذِ الفتاة وتبدأُ بجرِّها بعيدًا. وقد وثبَتِ اللَّبوة الأُخرى، فتدحرجَتِ الاثنتان وأنشبَت كِلتاهما مخالِبَها في الأُخرى.

حينئذٍ ركضَتْ فتاةٌ صغيرةٌ تلبسُ تُنكًا مُتَّسِخًا مُهلهَلًا زاعقةً بمُحاذاة البوَّابة المشبَّكة بالحديد. فصرَّ ألِكسندر بأسنانه، مُحاوِلًا أن يُقسّيَ قلبَه حِيالَ وَقعِ تلك الصَّرخات المفعَمة بالرُّعب. وفي مُحاولةٍ من الأُمِّ لحماية الفتاة، صرعَتها لَبوةٌ ذاتُ طَوقٍ مُرَصَّع بالجواهر. وشُحِبَت يدا ألِكسندر على الباب المشبَّك بالحديد فيما طاردت لَبوةٌ أُخرى الفتاة. **اركُضي، يا بنتُ، اركُضي!**

إنَّ منظر هذا المقدار البالغِ من العذاب والموت انقضَّ عليه وأصابه بالغَثَيان. فألصق جبينَه بقُضبان الحديد، وقلبُه يخفق بشدَّة.

كان قد سمع جميع الحُجَج المؤيِّدة للألعاب. فالذين يُرسَلون إلى ساحة المحارِبين كانوا مُجرِمين يستحقُّون الموت. وأُولئك الذين أمامه الآنَ ينتمون إلى ديانةٍ تُحرِّض على إطاحة روما. على الرُّغم من ذلك لم يتمالكْ نفسَه عن التساؤل: ألا ينبغي أن يُقوَّضَ مُجتَمعٌ يقتُلُ الأولادَ الذين لا حول لهم ولا قوَّة؟

بثَّتْ صَرَخاتُ الفتاة الصغيرة قُشَعريرةً في بَدَنِ ألِكسندر. فكان شِبهَ شاكِرٍ لـمَّا أطبقَ فكَّا اللَّبوة على تلك الحَنجرة الصغيرة، وأخرَسا صوتَها. وزفرَ ألِكسندر نَفَسَه، وهو لا يكادُ يعلم أنَّه كان يحبسُه، وسمعَ الحارسَ من ورائه يضحك ضِحكةً خَشِنة.

''بالكادِّ تشكِّلُ تلك الصغيرةُ لُقمةً واحدة!''

اهتزَّت عَضَلة في حنك ألِكسندر. وأرادَ أن يُغمِضَ عينَيه لئلَّا يرى المجزَرة أمامه، ولكنَّ الحارسَ بات يُراقِبُه الآن. وكان في وُسعه أن يُحِسَّ البريقَ الباردَ في تَينِك العينَين القاتمتَين يشعُّ من وراء واقيةِ الوجه على الخُوذة المصقولة. لقد كان

يُراقِبُه تحديدًا. وما كان ألِكسندر ليُذِلَّ نفسَه بإبداء الضَّعف. فإنْ كان ينوي أن يصيرَ طبيبًا جيِّدًا، يجب عليه أن يتغلَّبَ على إحساساته وتوجُّساته. أمَا كان مُعلِّمه، فليغون، قد حذَّره مِرارًا كثيرة؟

فإنَّ فليغون قال له أكثر من مرَّة، والازدراءُ يرنُّ في لهجته: ‘‘عليك أن تُقَسِّيَ قلبَك حِيالَ هذه المشاعر الرقيقة، إذا شئتَ أن تنجحَ في مهنتك. وعلى الرُّغم من كُلِّ شيء، فإنَّ مُشاهَدةَ الموت هي جزءٌ من نصيب الطبيب في الحياة’’.

لقدعَلمَ ألِكسندر أنَّ أُستاذَه الأكبرَ سنًّا على حقّ، كما عَلمَ أيضًا أنَّه لَولا الألعاب ما كانت تُتاح له فُرصةٌ للمُضيّ قُدُمًا في دراسته عِلمَ التشريح البَشَريّ. إنَّه قد بلغ حدًّا وافيًا في دراسته للرُّسوم والمكتوبات. وليس في وُسعه أن يتعلَّم المزيدَ إلَّا بمُمارسته تشريحَ الأحياء. من هنا كان الطبيبُ العتيقُ عنيدًا، لعِلمه الوافي بنُفور ألِكسندر من تلك الممارسة، فأوقعَه في شَبَكةٍ من المنطق.

وقال له مُتحدِّيًا: ‘‘تقولُ إنَّك تريدُ أن تكونَ طبيبًا. فقُل لي إذًا، أيُّها الطالب النجيب، هل تودُّ أن يُجريَ الطبيبُ عمليَّاتٍ جراحيَّةً دون معرفةٍ أوَّليَّة مُباشِرة بالتَّشريح البَشَريّ؟ إنَّ الخرائطَ والرُّسوم ليست مِثلَ الاشتغال بكائنٍ بشريّ. فكُن شَكورًا لأنَّ الألعاب تُتيحُ لك فُرصةً كهذه!’’

شَكورًا؟ أخذ ألِكسندر يُراقِب، بينما الضحايا يسقطون واحدًا تلو الآخر، إلى أن حلَّ محلَّ أصواتِ الرُّعب والألَم المروِّعة ذلك الهدوءُ النِّسبيُّ الذي واكبَ تناوُلَ الأُسودِ طعامَها. شكورًا؟ هزَّ رأسَه. لا، إنَّ ذلك شيءٌ لن يشعُرَ به أبدًا تُجاهَ الألعاب.

وفجأةً بدأ يُهَمهِمُ صوتٌ آخرُ أخطرُ من زمجرة الأُسود. وقد ميَّزه ألِكسندر سريعًا: خَريرُ الضَّجَرِ وتزايُدُ عدمِ الرِّضى بين المشاهِدين. لقد انتهَتِ المباراة! فلتَنصرِفِ الوحوشُ إلى التهامِ فرائسها داخِلَ أقفاصها المظلِمة، بَدَلَ أن يُفرَضَ على المشاهِدين أن ينظروا استِمتاعَها المضجِرَ بالأشلاء. وسرى بين المقاعِد اضطِرابٌ قاتِم سَرَيانَ النار في الهشيم.

وسُرعانَ ما لبَّى مُنسِّقُ الألعاب رغبةَ الجمهور.

وسمعَتِ الوحوشُ الأبوابَ تُفتَح على مصاريعها، فغرزتْ مخالِبَها وأنيابَها بضراوةٍ أشدَّ، بينما اقتربَ سائسون مُسَلَّحون كي يُعيدوها عنوةً إلى أقفاصها. عندئذٍ، صلَّى ألِكسندر إلى مارْس، طالبًا أن يؤدِّيَ الرجالُ عملَهم بسُرعة، وإلى أسكليپيوس عسى أن تكونَ رُوحٌ في ضحيَّةٍ واحدةٍ على الأقلّ. وإلَّا، اضطُرَّ إلى البقاء هنا حتَّى تلوحَ فُرصَةٌ أُخرى.

لم يُعنَ ألِكسندر بمسرحيَّة فصل الأُسود الآكلة عن فرائسها. واكتسحَتْ حَملَقتُه الرَّمل، بحثًا عن أيِّ ناجين، على الرُّغم من تشبُّثه بقليلٍ من الأمل في العثور ولو على ناجٍ واحد. ثمَّ وقَعَتْ عيناه على الشابَّة الفتيَّة من جديد.

لم يكُن بقُربها أيُّ أسد، فاستغربَ ألِكسندر ذلك، إذ كانت بعيدةً عن الرِّجال الذين يدفعون الوحوشَ نحو الأبواب. ثمَّ رأى حَرَكة ضئيلة. وإذ مال إلى الأمام، حدَّق بتركيزٍ تحتَ وَهَجِ الشمس. لقد تحرَّكت أصابِعُها فعلًا!

وما لِبثَ أن قال للحارس: ‘‘انظَر هناك، قُربَ المركَز!’’

‘‘كانت أوَّلَ مَن تعرَّضَ للهجوم. إنَّها مَيْتة’’.

‘‘أُريد أن أُلقيَ نظرةً عليها’’.

‘‘كما ترغَب’’. وتقدَّمَ الحارس إلى الأمام، فوضعَ إصبعَين على شفتَيه، وأصدرَ صَفرتَين حادَّتَين سريعتَين. لقد أعطى الحارسُ إشارةً للرَّجُل المتنكِّر بِزِيِّ شارُن ذي الرِّيش والمِنقار، وكان يرقُص من جُثَّةٍ إلى أُخرى. وشاهدَ ألِكسندر الممثِّلَ المتنكِّر يقفزُ ويستديرُ نحو الفتاة المطروحة أرضًا. ثُمَّ انحنى شارُن قليلًا، فيما رأسُه ذو الرِّيش والمِنقار يتلفَّت كما لو يُصغي بانتِباه إلى صوت أو علامة يدلَّان على وُجود حياة، وهو في أثناء ذلك يُلوِّحُ بمِطرقته الكبيرة في الهواء بطريقةٍ مسرحيَّة، مُستعدًّا لأن يهويَ بها إذا كان في الضحيَّة رُوح. وإذِ اقتنَعَ، على ما يبدو، بأنَّ الفتاةَ مَيْتة، أمسَكَ بِذراعها وجرَّها بفظاظة نحو باب الموت.

في تلك اللحظة عينها، انقلبَت لَبوةٌ على السائس الذي كان يسوقُها نحوَ نَفَق. فهبَّ الجُمهور واقفين، صائحين باهتِياج من فَرْط الحماسة. وبالكادِّ استَطاعَ الرجُل أن يتَفادى من هجوم اللبوة الغاضبة، مُستخدِمًا كِرباجَه بمهارةٍ لإبعادها عن الولد الذي كانت تلتَهِمُه، وسَوقِها نحو النَّفَق المؤدِّي إلى الأقفاص.

فانتهزَ الحارسُ الانشِغال، وفتحَ البوَّابة عند باب الموت على مِصراعَيها. وصاح بِشارُن: ‘‘هيَّا!’’ فركضَ هذا، ساحِبًا الفتاةَ إلى الظِّلال. ثُمَّ فرقعَ الحارسُ إصبعَيه، فسارعَ عبدان وأمسكا بالفتاة من ذراعَيها ورجلَيها، وحملاها إلى الدِّهليز المضاء إضاءةً قاتمة.

قال ألِكسندر بغضب: ‘‘على مهل!’’ إذ طرحاها بقُوَّة على طاولةٍ وَسِخة مُضرَّجة بالدِّماء. ثمَّ دفعَ العبدَين جانبًا، مُتيقِّنًا بأنَّه لو كانت الفتاةُ حيَّة لأعدَمَها هذان الأخرقانِ بمُعاملتِهما الفظَّة.

أطبقَتْ يدُ الحارس القاسيةُ على ذِراعِ ألِكسندر بإحكام، وقال ببرودة: ‘‘إليَّ بسِتَّة سَستَرسات

قبل أن تبدأ بتشريحها''.

''هذا غالٍ قليلًا، أليسَ كذلك؟''

فردَّ الحارس مُبتسِمًا بخُبث: ''ليس على تلميذٍ للطبيب فليغون... لا بُدَّ أن يكونَ صُندوقُك ملآنًا بالذَّهب حتَّى تتمكَّنَ من هذه التَّلمذة''. ثمَّ بسطَ يدَه.

أجاب ألِكسندر بجفاء، وهو يحلُّ الصرَّة المعلَّقة على خَصره: ''الصُّندوق يفرغ بسُرعة''. إذ لم يعلَمْ كم من الوقت سيُتاحُ له حتَّى يشتغِلَ بالفتاة قبلَ أن تموت، ولم يُرِد أن يُبدِّد أيَّ وقتٍ مُساوِمًا على قِطَعِ نَقدٍ قليلة. فأخذَ الحارسُ الرِّشوة وتوارى، بينما بقيَت ثلاثُ قِطَعٍ نقديَّة لأجل شارُن.

ركَّز ألِكسندر انتِباهَه على الفتاة من جديد. كان وجهُها كُتلةً داميةً من اللَّحم الممزَّق والرَّمل، كما كان تُنكُها مُضرَّجًا بالدَّم. والحقيقة أنَّ الدَّمَ كان كثيرًا جدًّا، بحيثُ تأكَّد للطبيب الشابِّ أنَّها قد ماتت فعلًا. وإذِ انحنى ووضعَ أُذنَه بقُرب شفتَيها،

أذهلَه أن يُحِسَّ نَسَمةَ حياةٍ هادئةً دافئة. إذًا، ليس لديه وقتٌ كثيرٌ للعمل.

أومأ لِعَبدَيه، وتناولَ مِنشفةً فمسحَ بها يدَيه. "انقُلاها إلى القِسم الخلفيِّ بعيدًا عن هذه الضجَّة. **بِرِفق!**" فامتثلَ العبدان حالًا، فيما وقف ترُواس- عبدُ فليغون- جانِبًا يُراقِبُ أيضًا. وانزَمَّ فمُ ألِكسندر. لقد كان مُعجَبًا بقُدراتِ ترُواس، ولكنْ ليس تصرُّفه البارد. ثُمَّ فرقعَ ألِكسندر بإصبعَيه، قائلًا: "إلَيَّ بضَوء!" فقُرِّب مشعلٌ فيما انحنى فوقَ الفتاة الممدَّدة على لَوحٍ في ظُلمات الدِّهليز المعتِمة.

كان ذلك ما جاءَ لأجله، الغَرَض الوحيد الذي جعلَه يحتملُ الألعاب: أن يسلخَ الجِلدَ والعَضَل إلى الوراء عن مِنطقة الجَوف، ويدرُسَ الأعضاء التي تنكشِف. فصلَّبَ عزيمتَه، وحلَّ الحقيبة الجِلديَّة، وفتحَها بسُرعة، كاشفًا أدواتِه الجراحيَّة. ثُمَّ انتَقى سِكِّينًا رفيعةً حادَّةً، وأخرجَها.

كانت يدُه تُفرزُ عَرَقًا. والأسوأُ أنَّها كانت ترتجف. وقد تصبَّب العَرَقُ من جبينه أيضًا. وكان في

وُسعه أن يُحِسَّ ترُواس مُراقِبًا إيَّاه بعَين ناقدة. فكان عليه أن يتحرَّك بسُرعة ويتعلَّم كلَّ ما يستطيعُه في أثناء الدقائق القصيرة القليلة، قبل أن تموتَ الفتاةُ من جرَّاء جِراحِها أو إجراءاته.

لَعَنَ ألِكسندر في سرِّه القانونَ الرومانيَّ الذي مَنَعَ تشريحَ الأموات، مُرغِمًا إيَّاه بذلك على تلك الممارَسة المروِّعة. ولكنْ بأيِّ طريقةٍ أخرى يتعلَّمُ ما يجبُ أن يعرفه عن الجِسم البشريّ؟ وبأيِّ طريقةٍ أخرى يمكنُه أن يُحرِزَ المهارةَ التي يجب أن يُحرِزَها لإنقاذ حياة الناس؟

ثُمَّ مَسَحَ العَرَقَ عن جبينه، ولعنَ في سرِّه ضعفَه الذاتيّ.

وقال ترُواس بهدوء: ‘‘لن تشعُرَ الفتاةُ بشيء’’.

فصرَّ ألِكسندر بأسنانه، وقطعَ طَوقَ العُنُقِ من التُّنك المضرَّج وشقَّه حتَّى الحاشية، وبسطَه مفتوحًا بحَذَرٍ كي يقومَ بتخمينه المِهْنيّ. وبعدَ لحظة، تراجعَ مُتَجهِّمًا. فمن الصَّدر حتَّى المفصل عند أعلى الفَخِذ، كانت عليها فقط آثارُ جُروحٍ

سطحيَّة وكَدَماتٍ قاتِمة.

ثُمَّ قال آمِرًا: ‘‘قَرِّبِ المشعل!’’ فيما انحنَى من جديد نحو جُروحِ رأسها ليفحصَها ثانيةً. فإذا أخاديدُ عميقةٌ مشقوقة من حدِّ شعرها حتَّى ذقنِها، وقد طوَّقَ حَنجرَتَها جُرحٌ آخرُ كاد أن يُصيبَ شِريانَ نَبضِها. وانتقلت حَملقتُه نزولًا ببُطء، كاشِفةً الجِراحَ العميقة الغائرة في ساعِدِها الأيمَن، حيثُ كانتِ العِظامُ مكسورة. ولكنْ أسوأ الكُلِّ كانت الجِراحُ في فَخذِها، حيثُ غرزَتِ اللَّبوةُ بَراثِنَها وحاولت جَرَّها. واتَّسعَت عينا ألِكسندر. فقد كان مُمكِنًا أن تَنزِفَ الفتاةُ حتَّى الموت لو لم يُخَثِّرِ الرَّمل جِراحَها مُوقِفًا سَيلَ الدَّمِ على نحوٍ فعَّال.

تردَّد ألِكسندر. شَطبةً واحِدةً من سِكِّينه، سريعةً وبارعة، فيتمكَّنَ أن يبدأ دراستَه. شَطبةً واحدة، سريعة وبارعة، فيقتُلَها!

تصبَّبَ العَرَقُ نازلًا على صُدغَيه، وأخذَ قلبُه يخفقُ بشِدَّة. وإذ راقبَ صُعودَ صَدرِها وهبوطَه، والنَّبضَ الضعيفَ في حَنجرَتِها، أصابَه الغَثَيان.

وقال ترُواس ثانيةً: ‘‘لن تشعُرَ الفتاة بشيء، سيِّدي، إنَّها فاقدةُ الوَعي’’.

فرمقَ ألِكسندرُ العبدَ بنِظرةٍ قاتمة، وقال بحِدَّة: ‘‘أستطيعُ رؤية ذلك!’’ ثُمَّ تقدَّم أقربَ، ورفع السكِّين. كان يومَ أمسِ قد اشتَغلَ بجسَدِ مُحارِب، وتعلَّم في تلك الدقائق القليلة عن تشريح الجِسم البشريِّ أكثرَ ممَّا تعلَّمه في ساعاتٍ من المحاضَرات. ومن الخير أنَّ الرَّجُل المائتَ لم يفتَحْ عينَيه قطّ. غيرَ أنَّ جراحَه كانت أسوأ بكثير جدًّا من جِراح هذه الفتاة.

ثُمَّ أغمضَ عينَيه، مالئًا صدرَه بالعزم والتصميم. لقد شاهدَ فليغونَ في أثناء عمله، وما يزال في وُسعه أن يسمَعَ ذلك الطبيبَ الخبيرَ مُتكلِّمًا، وهو يُشرِّح الجَسَد بمهارة: ‘‘عليك أن تشتغلَ بسُرعة، على هذا النَّحو. إنَّهم يكونون أمواتًا تقريبًا حين تتسلَّمُهم، ويُمكِنُ أن تُوديَ بهم الصَّدمةُ في الحال. فلا تُبدِّدِ الوقتَ مُتسائلًا هل يشعرون بشيء. يجبُ عليك أن تتعلَّم كلَّ ما تستَطيعُه في أثناء أيِّ وقتٍ قصير تُعطيك الآلِهةُ إيَّاه. فما إنْ يتوقَّفُ القلبُ حتَّى تُضطَرَّ إلى

الانكِفاء، وإلّا كُنتَ عُرضةً لغَضب الآلِهة والقانون الرومانيّ". وقد عاش الرجُل الذي كان فليغون يشتغلُ به بِضعَ دقائقَ فقط قبل أن ينزفَ حتَّى الموت؛ غيرَ أنَّ صَرَخاتِه ما زالت تَرِنُّ في أُذُنَي ألِكسندر.

والتفتَ إلى ترُواس، خادم فليغون النفيس. فحقيقةُ كون فليغون قد أرسَله لمواكبة ألِكسندر أفصحَتْ بجلاءٍ عنِ الآمال التي كانت لَدَى ذلك الطبيب الأُستاذ من جِهة مُستقبَل ألِكسندر شخصيًّا. وكان ترُواس قد عاوَنَ فليغون مِرارًا كثيرة في الماضي، وباتَ يعرفُ من شؤون الطبّ أكثرَ ممَّا يعرفه مُعظَمُ الأطبَّاء الأحرار الممارِسين. وهو كان مصريًّا داكِنَ البشرة، ذا عينَين مُهدَّلتَيِ الأجفان. فلعلَّه ادَّخرَ أسرارَ شعبه.

وجدَ ألِكسندر نفسَه مُتمنّيًا لو أنَّه لم يُمنَحْ هذا الشَّرَف الرفيع.

"كم مرَّةً أشرفتَ على القيام بهذا، يا ترُواس؟"

فأجاب المصريُّ، لاوِيًا فمَه بابتِسامةٍ ساخرة:

‘‘مئةَ مرَّة، ورُبَّما أكثر. أتودُّ أن تقِفَ جانبًا؟’’

‘‘لا’’.

‘‘إذًا، أكمِلِ العمل. إنَّ ما تتعلَّمه هنا اليومَ سيُنقِذُ حياةَ كثيرين غدًا’’.

عند ذلك أنَّتِ الفتاةُ وتحرَّكت على الطاولة ففرقعَ ترُواس إصبعَيه، وتقدَّمَ خادِما ألِكسندر، فقال لهما ذاكَ آمِرًا: ‘‘أمسِكاها بمِعصمَيها وكاحِلَيها، وأبقِياها ثابتة’’.

وما إنْ جُذِبَت ذِراعُها المكسورة، حتَّى أطلقَت صرخةً خشِنةً حادَّة، قائلةً بصوتٍ هامِس: ‘‘يسوع!’’ ثمَّ انفتحَتْ عيناها طارفتَين.

حدَّق ألِكسندر من عَلُ في عينَين بُنِّيَّتَين داكِنتَين طافِحتَين بالألم والارتباك، ولم يقوَ على الحَراك. فهي لم تكُن مُجرَّدَ جِسمٍ يَشتَغِلُ به، بل كانت كائنًا بشريًّا مُتألِّمًا.

وقال ترُواس بحزم زائد: ‘‘سيِّدي، عليك أن تشتغلَ بسرعة’’.

تمتمَتِ الفتاةُ بشيءٍ ما بِلُغة غريبة، واستَرخى جسمُها. فسقطَتِ السكّينُ من يد ألِكسندر ورنَّت على الأرضيَّة الحجريَّة. فخطا ترُواس حولَ طاولة التشريح والتقَطَ السكّين، وناولَه إيَّاها من جديد. "لقد أصابَها إغماء. يُمكِنُك الآن أن تشتغِلَ بلا قَلَق".

"إليَّ بِطستِ ماء!"

"ماذا تنوي أن تفعل؟ أن تُنعِشَها مُجدَّدًا؟"

فحدَّق ألِكسندر إلى ذلك الوجهِ المتهكِّم. "أتجرؤ على استِجوابي؟"

ولمح ترُواس الغطرسَةَ في الوجهِ الفتيِّ الذكيّ. وإنْ كان ألِكسندر ديموسيدِس أماندينوس مُجرَّد طالِب، فإنَّه كان **حُرًّا**. وبصَرفِ النَّظر عن خبرة المصريِّ أو مهارتِه، كان يُقِرُّ مُستاءً بأنَّه هو نفسه ما زال عبدًا، ولم يجرؤ أن يمضيَ في تحدِّي الشابِّ الأصغر سنًّا. فابتلعَ غيظه وكبرياءَه، وتراجعَ إلى الوراء، وقال دونَ انثِناء: "اعتِذاراتي، سيِّدي. ما قصدتُ إلَّا تذكيرَك بأنَّها محكومةٌ

بالموت’’.

‘‘يبدو أنَّ الآلِهة قد أنقذَتْ حياتَها’’.

‘‘لأجلك **أنت**، سيِّدي. لقد أبقَتْها الآلِهةُ حيَّةً، حتَّى يتيسَّرَ لك أن تتعلَّم ما يجب أن تعرفه لتَصيرَ طبيبًا’’.

‘‘لَن أكونَ الشخصَ الذي يقتلُها!’’

‘‘هلَّا تكونُ مَنطقيًّا! بأمرٍ من البرُوقُنصُل، هي مَيِّتة أصلًا. لستَ أنتَ مَن قتلَها. فهي لم تُرسَلْ إلى الأُسود بأمرٍ منك’’.

تناوَلَ اَلِكسندر السكِّين منه، وردَّها إلى مكانها بين باقي الأدوات الجراحيَّة في حقيبته الجلديَّة. ‘‘لن أُخاطر بالتعرُّض لغضب أيِّ إلَهٍ أنقذَ حياتَها بانتزاعِها منها الآن’’. ثمَّ أمالَ رأسَه نحوَها. ‘‘كما يُمكِنُك أن ترى بجَلاء، لم تُفسِدْ جِراحُها أيَّ عُضوٍ حيويّ’’.

‘‘أتُفَضِّلُ أن تتركَها تموت ببطء من جرَّاء التلوُّث والالتِهاب؟’’

فتصلّبَ ألِكسندر. ‘‘لن أدعَها تموتُ البتَّة!’’ لقد كان ذهنُه مَحمومًا، إذْ ظلَّ يُبصِرُ الشابَّة فيما كانت ماشيةً على الرَّمل مُرَتِّلةً، وذراعاها مبسوطتان كما لو أنَّها تضمُّ السماءَ بعَينِها. ‘‘علَينا أن نُخرِجها من هنا’’.

فقال ترُواس مُستَهجِنًا: ‘‘أأنت مجنون؟’’ وهو ينظر إلى الوراء ليَرى هل سمعَه الحارس.

وقال ألِكسندر مُتمتِمًا: ‘‘ليس لديَّ ما أحتاجُ إلَيه لِمُعالجة جِراحها أو تجبير ذراعها’’. ثُمَّ فرقعَ إصبعَيه، مُصدِرًا أوامر مهموسة.

أمسك ترُواس بذراع ألِكسندر، ناسِيًا نفسَه. وقال بصَوت حازم، شِبهِ مكبوت: ‘‘لا يُعقَلُ أن تفعلَ هذا!’’ ثمَّ أومأ برأسه مُستَسِرًّا نحو الحارس. ‘‘إنَّك تُعرِّضنا جميعًا لخَطَر الموت إذا حاولْتَ إنقاذَ سجينةٍ محكومٍ عليها بالموت’’.

‘‘إذًا، يحسُنُ بنا أن نُصَلِّيَ إلى إلهها حتَّى يحميَنا ويُساعِدَنا. فالآن، كُفَّ عن مُجادَلتي، وأبعِدها من هنا حالًا. وما دمتَ تبدو خائفًا من الحارس، فأنا

سأتولّى أمرَه، وألحقُ بكَ بأسرعِ ما يُمكِنني".

حملقَ المصريُّ إليه، وعيناه السَّوداوان غيرُ مُصدِّقتَين.

"تحرَّك!"

فأدرك ترُواس أنَّ مُحاجَّةَ ألِكسندر غيرُ مُمكِنة، فأومأ بسُرعة للعبدَين الآخرَين. وفيما همسَ المصريُّ بمزيدٍ من الأوامر، طوى ألِكسندر الحقيبة الجِلديَّة بسرعةٍ دون ترتيب، إذ كان الحارس يُراقِبُهم بفُضول. ثمَّ تناوَلَ المنشَفة، فمسحَ الدَّمَ عن يدَيه، ومشى بهدوءٍ نحو الحارس.

قال الحارس بجفاء: "لا يُمكِنُك إخراجُها من هنا".

فكَذَبَ ألِكسندر قائلًا: "إنَّها مَيْتة، وهم يتخلَّصون من الجُثَّة". ثُمَّ اتَّكأ على البوَّابة المشبَّكة بالحديد، ونظر إلى الرَّملِ الساخِن خارجًا. "إنَّها لم تكُن تستحقُّ ستَّة سَستَرسات. إذ كانت قد باتت أسوأ حالًا من أن تنفَعَني".

وابتسم الحارس ببرودة. ''أنتَ انتقَيتَها!''

فضحك ألِكسندر ضِحكةً باردة، وتظاهَرَ بأنَّه مُهتمٌّ بمُحارِبَين كانا يتَقاتَلان في الساحة. ''كم ستَدومُ هذه المباراة؟''

وقدَّر الحارس قُدراتِ الخصمَين. ''ثلاثين دقيقة، ورُبَّما أكثر. ولكنْ لن يكونَ ناجٍ هذه المرَّة''.

فتجهَّم ألِكسندر بنَفادِ صَبرٍ مُصطنَع، ورمى المنشفة المضرَّجة بالدَّم جانبًا. ''في هذه الحالة، سأمضي لأشتريَ لنَفسي شيئًا من النبيذ''.

وإذ مشى بمُحاذاة الطاولة، التقطَ حقيبتَه الجلديَّة وحملَها. وسارَ بخُطًى واسعةٍ في الدهاليز المضاءة بالمشاعل، كابحًا رغبتَه في السُّرعة. وكان قلبه يدقُّ مُتَسارعًا مع كُلِّ خطوة. ولـمَّا خرجَ إلى ضِياء الشمس، مسَّت وجهَه نَسَمةٌ لطيفة.

"**عجِّل! عجِّل!**" التفتَ إلى الوراء مَذهولًا. لقد

سمع هاتَين الكلمتَين بوُضوح، كما لو أنَّ أحَدًا كان يهمس في أُذنه بإلحاح. ولكنْ لم يكن هُنالِك أحَد.

وفيما قلبُ ألِكسندر يخفقُ بشدَّة، انعطفَ نحو بيته وشرعَ يركضُ، يحثُّه على المضيِّ صَوتٌ في الريح، هادئٌ وخفيف.

الصدى

١
بعدَ سنةٍ واحدة

مشى مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان عبرَ مَتاهةٍ من الشوارع في المدينة الخالدة، راجيًا أن يَجِدَ مَلاذَ سلامٍ داخِلَ نفسه. إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من ذلك. فقد كانت روما قابِضةً للصَّدرِ. وهو قد نَسِيَ نَتانةَ نهرِ التَّيبر الملوَّث والاختلاط البشريَّ الضاغِط. أو لعلَّه لم يُلاحِظْ ذلك قطُّ في ما مضى، إذ صرفَه عن الاهتمام انهِماكُه المفرِطُ في شؤون حياته وأنشطته الخاصَّة. وعلى مدى الأسابيع القليلة الماضية التي أعقبَتْ عَودتَه إلى المدينة التي وُلِدَ فيها، أمضى ساعاتٍ يطوفُ في الشوارع ويزورُ أماكِنَ طالما تمتَّع بها من قبل. أمَّا الآن فقد كان ضَحِكُ الأصدقاء خاويًا، والانصِرافُ المسعورُ إلى تناوُل الطعام والشراب مُضنيًا بَدَلَ أن يكونَ مُمتِعًا.

وإذ كان مُكتئبًا ومُحتاجًا إلى التَّسلية، وافقَ على حضور الألعاب مع أنتيغونُس. وقد باتَ صديقُه هذا

الآن شيخًا ذا نُفوذ، ومن حقِّه أن يجلس في مكانِ شَرَفٍ على الپوديُم. وحاولَ مَرقُس أن يُهدِّئَ مشاعِرَه إذ دخلَ صُفوفَ المقاعد وعثرَ على مقعدِه. إلَّا أنَّه لم يستَطِع أن يُنكِرَ أنَّه شعرَ بالانزعاج عندما بدأتِ الأبواقُ تصدَح. وقد ضاق صدرُه وصارت مَعِدتُه عُقدةً صُلبةً لـمَّا بدأ الاستعراض.

لم يكُن قد حضرَ الألعابَ منذُ كان في أفسُس. وتساءَلَ هل يقوى على هَضْم مُشاهَدتها الآن. فقد كان واضحًا على نَحوٍ مؤلِم أنَّ أنتيغونُس باتَ مَهووسًا بالألعاب الآن أكثرَ منه لـمَّا غادرَ مَرقُسُ روما، وقد راهنَ بحماسةٍ على مُحارِبٍ من بلاد الغال.

انضمَّت إلَيهما بضعُ نساءٍ تحت الظلَّة. كُنَّ جميلاتٍ ومُنقاداتٍ إلى الشَّهوات، وبيَّنَّ في غضون لحظات بعد قُدومِهنَّ أنَّهُنَّ كُنَّ مُهتمَّاتٍ بمَرقُس اهتمامَهُنَّ بالألعاب. وانبعثَ داخِلَ مَرقُس شيءٌ ما لـمَّا نظرَ إليهنَّ، ولكنَّه سُرعانَ ما تلاشى مثلَما جاء. لقد كانت هؤلاء النِّسوة مياهًا ضحلةً مُلوَّثة لدى مقارنتها بخمرة هَدسَّة

الصافية المسكِرة. فلم يجدْ أيَّ سُلوان في أحاديثهِنَّ الباطلة الخاملة. حتَّى أنتيغونُسُ الذي كان يُسَلِّيه دائمًا بدأ يشدُّ أعصابَه بتَشكيلةِ نكاتِه البذيئة. وتساءلَ مَرقُس كيف حسبَ يومًا مِثلَ تلك القِصَص الداعرة مُسَلِّيةً، أو شعرَ بأيَّة شفَقة حِيالَ تَكرار أنتيغونُسَ أخبارَ ويلاته الماليَّة.

ضحِكَت إحدى النِّساء قائلةً: ‘‘احكِ لنا واحدةً أُخرى’’. وكان واضحًا أنَّها استمتعَتْ بالنكتة السَّمِجة التي حكاها أنتيغونُس لهُنَّ تَوًّا.

فنبَّه أنتيغونُس، وعيناه ترتقِصان: ‘‘ستشتعِلُ أذناكِ!’’

وقال الجميع: ‘‘واحدةً أُخرى!’’

الجميعُ ما عدا مَرقُس. فقد ظلَّ قاعِدًا صامتًا، مُفعَمًا بالاشمئزاز. وجالَ في فكره، إذ راقبَهُنَّ جميعًا، هذا الخاطِر: **إنَّهُنَّ يلبِسْنَ كالطواويس المُغترَّة، ويضحَكْنَ كالغِربان الفظَّة!**

انتقلَت إحداهُنَّ كي تتَّكئ بجانبه. وضغطَتْ جنبَه

بِوَرِكِها لإغرائه. ثُمَّ قالَت مُخَرخِرةً برِقّة، وعيناها السَّوداوان شاخِصتان إليه: ‘‘إنَّ الألعابَ تُثيرُني دائمًا’’.

فتجاهلَها مَرقُس مُشمَئزًّا. وشرعَتْ تتحدَّث بشأن واحدٍ من عُشّاقها الكُثُر، مُراقِبةً وجهَ مَرقُس لرؤية أمارِاتِ اهتِمام. إلّا أنَّها ما زادَتْه إلّا غَثَيانًا. فحدَّقَ إليها غيرَ باذلٍ أيَّ جَهدٍ لِكَتم مشاعِره، ولكنَّها تغافلَتْ عن ذلك. ولم يكُن منها إلّا أن واصلَتْ إغراءَها المقصودَ بكُلِّ دهاءِ نَمِرةٍ تتظاهَرُ بأنَّها هرَّةٌ أليفة.

في أثناء ذلك كُلِّه، استمرَّتِ الألعابُ الداميةُ بِلا كَلَل. وكان أنتيغونُس والنِّساء يتَضاحَكون ويسخَرون ويكيلون الشتائمَ جَهرًا على الضَّحايا في ساحة المحاربين. وتوتَّرَتْ أعصابُ مَرقُس بشِدَّةٍ إذْ راقبَ أصحابَه، وإذْ أدركَ أنَّهم يتمتَّعون بما يجري أمامهم من عذابٍ وقتل.

لجأ مَرقُس إلى الشَّرابِ للهُروب، وقد أمرضَه ما كان يُشاهِده. فتجرَّعَ كأسَ خَمرٍ بعدَ أُخرى، جاهِدًا بيأسٍ لإغراقِ صَرَخاتِ الذين في ساحة

المحاربين. ومع ذلك، لم يَستطع أيُّ مِقدارٍ من السائل المخدِّر أن يحجبَ الصورةَ التي ما تزالُ تخطرُ في باله... صُورةَ مكانٍ آخرَ وضحيَّةٍ أُخرى. لقد كان يرجو أن تُبلِّدَ الخمرةُ إحساسَه، ولكنَّها بالأحرى جعلَته أكثرَ وَعيًا بشكلٍ أشدَّ حدَّةً.

حَوالَيه، ازدادَت حُشودُ الناس سُعرًا من فرطِ التأثُّر. وتشبَّثَ أنتيغونُس بإحدى النِّساء، وتشابَكا. ودونَ استِدعاء، وافَتْ مَرقُس رؤيا جليَّةٌ... رؤيا أُختهِ جوليا. فتذكَّرَ كيف اصطحَبَها إلى الألعاب أوَّلَ مرَّة وضَحِكَ من التأثُّر المضطرم في عينَيها الداكِنتَين.

"لن أُخزِيَك، يا مَرقُس. قَسَمًا! لن يُغمَى عليَّ عند رؤية الدَّم". ولم يحصُلْ لها ذلك فعلًا.

لا آنذاك.

ولا في ما بعد.

عندها نهضَ مَرقُس، غيرَ قادِرٍ أن يحتملَ بَعد.

شقَّ طريقَه عُنوةً عبرَ الجمهور المنتَشي، وأخذَ

يصعَدُ الدَّرَج. وما إنْ تمكّنَ من الأمر، حتَّى آخذ يركُض... كما كان قد فعلَ في أفسُس. لقد أرادَ أن يهربَ من الجَلَبة، من رائحةِ الدمِ البَشَريّ. وإذ توقَّفَ لِلحظةٍ كي يلتَقِط أنفاسَه، أسندَ كَتِفَه إلى جدارٍ حجريّ، وتقيَّأ.

وبعدَ ساعاتٍ من انتهاء الألعاب، كان ما يزالُ في وُسعه أن يسمعَ الرَّعاعَ المتعطِّشين إلى الدِّماء صارخينَ لأجلِ مزيدٍ من الضَّحايا. وتردَّدَتْ أصداءُ الصَّوت في ذهنه، مُعَذِّبةً إيَّاه.

ولكنْ عندَئذٍ كان ذلك هو كلَّ ما عرفَه منذُ مَوتِ هَدسَّة: العذاب، وفراغٌ قاتِمٌ رهيب.

بعدَ بضعة أيَّام، جاء أنتيغونُس يزورُ مَرقُس، وقال له: "أكُنتَ تتجنَّبُنا؟ لم تأتِ إلى وليمة كراسُس البارِحة. كان الجميع يتوقَّعون مجيئك".

"كان لديَّ عَمَلٌ أُؤَدِّيه". وكان مَرقُس قد فكَّر في العودة إلى روما نهائيًّا، راجيًا رُغمَ قِلَّةِ الرجاء أن يعثُرَ على السلام الذي طالَما تاقَ إليه تَوقًا بالِغًا. وقد عَلِمَ الآن أنَّ آمالَه كانت باطلة. فنظرَ إلى

آنتيغونُس وهزَّ رأسَه: ‘‘سأبقى في روما فقط بِضعةَ أشهُرٍ أخرى’’.

فقال أنتيغونُس: ‘‘كنتُ أعتقد أنَّك عُدتَ كي تبقى’’، وقد بدا جليًّا أنَّه فوجئَ بما قالَه مَرقُس.

أجاب مَرقُس باقتِضاب: ‘‘لقد غيَّرتُ رأيي’’.

‘‘ولكنْ لماذا؟’’

‘‘لأسبابٍ أُفضِّلُ ألَّا أبحثَ فيها’’.

غامَت عينا أنتيغونُس، وقطرَ صَوتُه تهكُّمًا لـمَّا تكلَّم. ‘‘حسنًا، أرجو أن يتَّسعَ وقتُكَ لحضورِ الوليمة التي نَوَيتُ أن أقيمها **على شرفِك**. ولماذا تبدو مُنزَعِجًا جدًّا؟ قَسَمًا بالآلِهة، يا مَرقُس، لقد تغيَّرتَ منذُ ذَهابِك إلى أفسُس. فماذا جرى لك هناك؟’’

‘‘لديَّ عَمَلٌ أقوم به، يا أنتيغونُس’’.

‘‘يُعوِزُكَ أن تُسلِّي نفسَك لتَبديد هذه الأحوال النفسيَّة الكئيبة التي لَدَيك’’. ثُمَّ غدا مُتمَلِّقًا

جدًّا، حتَّى عَلمَ مَرقَس أنَّه سُرعانَ ما سيَطلَبُ مالًا. ‘‘لقد رتَّبتُ تسلياتٍ تضمنُ طَرْدَ أيَّة أفكارٍ سوداءَ ابتُلِيَ بها ذِهنُك’’.

وإذْ نَفِدَ صبرُ مَرقُس بانتِظار رحيلِ أنتيغونُس، قال له: ‘‘طيِّب، طيِّب! سآتي إلى وليمتك الدامية’’. تُرى، لماذا لا يفهم أحَد أنَّه أرادَ أن يُتركَ وشأنَه؟ ‘‘ولكنْ لا وقتَ لَدَيَّ اليوم للأحاديث السخيفة’’.

فقال أنتيغونُس هازئًا: ‘‘قَولٌ لَبِق!’’ ثُمَّ نهضَ ليُغادِر. وقد لَمَّ أذيالَ ثيابِه حَولَه، وتوجَّه نحو الباب، ثُمَّ توقَّفَ والتفَتَ إلى صديقه بانزِعاج. ‘‘أرجو مُتيقِّنًا أن تكونَ أحسنَ مِزاجًا مساءَ غَدٍ’’.

إلَّا أنَّ مَرقُس لم يكُن كذلك.

كان أنتيغونُس قد أغفلَ أن يقولَ له إنَّ أرِيا ستكونُ بين الحُضور. وبعد لحظاتٍ من وُصول مَرقُس، رآها. فرَمَقَ أنتيغونُس بنظرةِ انزِعاج، إلَّا أنَّ الشَّيخَ اكتَفى بأنِ ابتسمَ باعتِدادٍ ومالَ نحوَه بخُبث. ‘‘لقد كانت عشيقتَكَ نحوَ سنتَين تقريبًا، يا مَرقُس’’. وضحِكَ ضِحكةً خافتة. ‘‘إنَّك تبدو

مُستاءً. لم تُخبِرْني بأنَّك افترقتَ عَنها بشكلٍ وُدِّيّ".

كانت أرِيا ما تزال جميلة، وما تزال مُصمِّمةً على كسبِ افتِتان كلِّ ذَكَرٍ في الغُرفة، وما تزال غيرَ آبِهةٍ بالأخلاق ومُتشوِّقةً إلى أيَّة إثارةٍ جديدة. إلَّا أنَّ مَرقُس لاحظَ تغييراتٍ خفيَّة. فقد حلَّ محلَّ مظهر الشباب الرقيق دُنيويَّةٌ أقسى حَدًّا. ولم يَشتمِل ضَحِكُها على تهلُّلٍ أوِ سُرور، بل بالأحرى انطوى على صِفَةِ صَفاقةٍ وفجاجةٍ تُثير الانزِعاج. وقد حامَ حولَها عِدَّةُ رِجال، وهي بالتَّعاقُب عذَّبَت كُلًّا منهم، مُنَكِّتةً عليهم، ومُقدِّمةً تلميحاتٍ مهموسَةً تفتقر إلى الاحتِشام. وأجالَت نظرَها عبرَ الغُرفة، ثُمَّ نظرَت إلى مَرقُس نِظرةَ استِفسار. فعَلِمَ أنَّها تتساءل عن عدم وُقوعه في شَرَكِ الابتِسامة التي أبدَتها له لَدَى دُخولِه. غيرَ أنَّه عَلمَ تلك الابتِسامة على حقيقتها: طُعمًا لِسَمَكة جائعة.

ومنَ النَّكَد على أرِيا أنَّ مَرقُس لم يكُن جائعًا. ليس في ما بَعد.

مالَ آنتيغونُس مُقترِبًا إليه آكثر. ‘‘انظَر كيف ترنو إليك، يا مَرقُس. في وُسعِك أن تستعيدَها بفَرقَعةٍ من إصبعَيك. إنَّ الرجُل الذي يُراقِبُها مثل كلبٍ أليفٍ هو صَيدُها الحاليُّ، مَترودورُس كراتيواس ميرولا. وما يعوِّضُ عن افتقاره إلى الذَّكاء ما لديه من المال. فهو يكادُ أن يُوازيَك غنًى، غير أنَّ صغيرتَنا أرِيا تملكُ مالَها الخاصَّ هذه الأيَّام. فإنَّ كِتابَها أثارَ مَوجةَ إعجابٍ ملموسة’’.

فقال مَرقُس: ‘‘كِتاب؟’’ وأطلقَ ضِحكةً ساخِرة. ‘‘لم أعلَم أنَّ أرِيا تستطيعُ أن تكتبَ اسمَها، ناهِيكَ بحَبْكِ كَلِماتٍ كافية لإنشاء جُملة’’.

‘‘من الجَليِّ أنَّك لا تعرِفُ شيئًا عمَّا كتبَتْه، وإلَّا فما كُنتَ تستخفُّ به. لا يكادُ الأمرُ أن يكونَ مَوضوعَ ضَحِك. فقد كانت صغيرتُنا أرِيا تملِكُ مواهِبَ سرِّيَّةً مجهولةً عندَنا. وقد صارَتْ سيِّدةَ آدابٍ، أو أدَبٍ إباحيٍّ مُثير، بتعبيرٍ أدَقّ. إنَّها مجموعةُ قِصَصٍ مَدارُها فعلُ كُلِّ شيء والإفصاحُ عن كُلِّ شيء. قَسَمًا بالآلِهة، لقد أثارَتِ البَلاء في أوساطِ كِبار القَوم. حتَّى إنَّ واحدًا من

الشُّيوخ فَقَدَ زوجتَه من جرَّاء الكِتاب. ليس أنَّه بالى بفُقدان المرأة، ولكنَّ روابِطَها العائليَّة كلَّفَته غاليًا. ويُشاعُ أنَّه قد يُرغَمُ على الانتِحار. إنَّ أرِيا ما كانت يومًا امرأةً يُمكِنك أن تَدعوَها كَتومًا. والآن، أعتقِدُ أنَّها باتَت مُدمِنةَ فضائح. ولَدَيها كَتَبةٌ يشتَغِلون ليلَ نهارَ لإصدار نُسَخٍ من كِتابها الصغير. وثَمَنُ النسخَةِ الواحدة باهِظٌ".

فقال مَرقُس بجَفاف: "وأنتَ دفعتَه بِلا شكّ".

قال أنتيغونُس ضاحِكًا: "ولكنِّي بالتَّأكيد أرِدْتُ أن أرى هل تذكُرُني. وهي قد ذكرَتْني فعلًا. في الفصل الحادي عشر. ولكنْ روَّعَني أنَّه ذِكرٌ خاطِفٌ بالأحرى". ثُمَّ التفَتَ نحو مَرقُس بابتِسامةٍ عابِثة. "لقد كتبَت عنك بالتَّفصيل، وبإسهاب. فلا عَجَبَ أنَّ ساراپيز كانت مُتَيَّمةً بِك في الألعاب منذُ بضعة أيَّام. إذْ أرادت أن تتيقَّن بأنَّك كلُّ ما وصفَتكَ به أرِيا". وابتسمَ ابتِسامةً عريضة. "ينبغي أن تشتريَ لكَ نُسخةً وتقرأها، يا مَرقُس. فلعلَّها تستعيدُ لك بعضَ الذِّكرَيات الحُلوة".

‘‘رُغمَ كُلِّ جمالِ آرِيا الفاتِن، فهيَ مَنسِيَّةٌ تمامًا وعلى النَّحو الأفضل’’.

فقال أنتيغونُس مُتفحِّصًا إيَّاه: ‘‘تقديرٌ قاسٍ بالأحرى لامرأةٍ أحبَبتَها في ما مضى، أليس كذلك؟’’

‘‘ما أحبَبتُ أرِيا قَطّ’’. وصرفَ مَرقُس انتِباهَه ناحيةَ الفتيات الراقصات المتَمايِلاتِ أمامَه. فإذا بالجلاجِلِ على كواحِلِهِنَّ ومعاصِمِهِنَّ تُصَلصِلُ فتُثيرُ أعصابَه. وبَدَلَ أن تُثيرَه جَسارةُ رقصِهِنَّ الشَّهوانيِّ وأجسادُهنَّ المكسوَّة بالثياب الشَفَّافة، شعرَ بالخَيبة والخِزي. وتمنَّى لو ينتهي أداؤهنَّ فيُغادِرن.

مدَّ أنتيغونُس يدَه ليُمسِكَ بإحدى النِّساء، وجذبَها إلى حِضنه. وعلى الرُّغمِ من مُكافحتِها، قبَّلَها بشَغَف. ولـمَّا انكفأ، ضَحِكَ وقال لمرقُس: ‘‘اِنتَقِ واحِدةً لنفسك!’’

زعقَتِ الفتاةُ العَبدة، فجعَلَ الصوتُ أحشاءَ مَرقُس تنقَبِض غريزيًّا. لقد رأى تِلكَ النِّظرة على وجه

الفتاة من قبل... في عينَي هَدسَّة لـمَّا أطلقَ العِنانَ لأهوائه فاضطرمَتْ حتَّى فَقَدَ السيطرةَ عليها.

"أفلِتها، يا أنتيغونُس".

كان الآخرون يُراقِبون أنتيغونُس، مُتضاحِكين وحاثّين إيَّاه على التَّشجُّع. وإذْ كان أنتيغونُس ثمِلًا ومُثارًا، باتَ أصلَبَ في عزمه على المُضِيِّ في سبيله. وزعقَتِ الفتاة.

وجدَ مَرقُس نفسَه واقفًا على قدمَيه. "أفلِتها!"

سادَ الغُرفةَ الصَّمتُ، وحدَّقَت جميع العيون إلى مَرقُس ذُهولًا. أمَّا أنتيغونُس، وهو ضاحِك، فرفعَ رأسَه ونظرَ إلى مَرقُس باندِهاشٍ يَسير. ثُمَّ تلاشَتْ ضِحكتُه. وإذ توجَّسَ خَوفًا، انقلَبَ إلى جانبٍ واحد، وأطلَقَ الفتاة.

فوقفَتِ الفتاةُ على قدمَيها مُتعثِّرةً، وهي تبكي بُكاءً هِستيريًّا، ثُمَّ فرَّتْ مَذعورةً.

رَمَقَ أنتيغونُسُ مَرقُسَ مُغايِظًا. "اعتِذاراتي،

مَرقُس. إذا كنتَ ترغبُ فيها رغبةً شديدةً جدًّا، فلماذا لم تقُل ذلك قبلَ الآن؟''

أحسَّ مَرقُس عينَي أرِيا شاخِصتَين إليه كجمرتَين مُتأجِّجتَين تضطرِمانِ غَيرةً. وتساءل على نحوٍ عابِرٍ أيُّ عِقابٍ ستتلقَّاه تلك الفتاةُ العَبدة على يَدَي أرِيا من أجلِ شيءٍ لا علاقةَ لها به. وقال بإيجاز: ''لم أرغَب في الفتاة، ولا في أيَّة واحِدةٍ أُخرى في هذه الغُرفة''.

تموَّجَتِ الهَمَسات، والتفتَتْ بِضعُ نساءٍ إلى أرِيا، وتكلَّفنَ الابتِسام.

وتجهَّمَ وجهُ أنتيغونُس. ''إذًا، لماذا تطفَّلتَ على متعتي؟''

''كُنتَ على وَشكِ اغتِصابِ الفتاة''.

فضحِكَ أنتيغونُس بخُشونة. ''اغتِصاب؟ لو أُتيحَت لها لُحَيظاتٌ أُخرى، لاستمتعَت بالأمر''.

''أشكُّ في ذلك''.

تبدَّد ظَرَفُ أنتيغونُس، وقدحَت عيناهُ شَرَرًا إزاءَ الإهانة. ‘‘منذُ متى تهمُّك مشاعِرُ عبدَة؟ لقد شاهدتُك تقتنِصُ متعتك بطُرقٍ مماثِلة مرَّةً أو مرَّتَين’’.

اجترعَ مَرقُس ما بقيَ من خمرٍ في كأسِه، وقالَ مُكَشِّرًا: ‘‘لا أحتاجُ إلى تذكيري بذلك. إنَّما أحتاجُ **فعلًا** إلى نَسَمةِ هواءٍ مُنعِش’’.

ثُمَّ خرجَ إلى الحدائق، ولكنَّه لم يَجِد هُناكَ أيَّ فَرَج، إذْ لحِقَتِ به أرِيا، وميرولا إلى جانبها. فصرَّ مَرقُس بأسنانه، وتحمَّلَ وجودَهما على مَضَض. وتحدَّثَت أرِيا بشأنِهما الغراميِّ كما لو كان قدِ انتهى أمسِ، لا قبلَ أربعِ سِنين. وحدَّق ميرولا إلى مَرقُس، فأخذَتْ هذا الشَّفقةُ على الرجُل. فإنَّ أرِيا استمتعَتْ دائمًا بتعذيبِ عُشَّاقِها.

قالَت بصَوتٍ يقطرُ عَسَلًا: ‘‘هل قرأتَ كتابي، يا مَرقُس؟’’

‘‘لا’’.

‘‘إنَّه جيِّدٌ تمامًا. ستَستمتعُ به’’.

فأجابَ: ‘‘لقد فقدتُ تذوُّقي للأمور التافهة’’، وحَملَقتُه تتموَّج عليها.

قدحَت عيناها شَرَرًا، ثُمَّ قالت، ووجهُها مُلتَوٍ من الغَيظِ: ‘‘لقد كذَبتُ بشأنك، يا مَرقُس. إنَّك كُنتَ أسوأَ عاشقٍ كنتُ معه يومًا’’.

فردَّ عليها بتكشيرةِ استِهزاء جافية: ‘‘ذلك لأنِّي كنتُ الوحيدَ الذي مضى مُبتعِدًا عنك وفي عُروقهِ دَمٌ بَعد’’. ثُمَّ أدارَ لها ظهرَه، وتمشَّى مُبتعِدًا.

مُتجاهِلًا الألقابَ التي رشقَتْه بها، غادرَ الحديقة. وإذ رجعَ إلى المأدُبة، التَمَسَ التسلية في مُحادَثة المعارفِ والأصدقاء القُدامى. غير أنَّ ضَحِكَهم آلـمَه؛ إذ كانت تسليتُهم دائمًا على حسابِ شخصٍ آخَر. وقد سمعَ الحقارةَ من وراء مُلاحظاتِهم الساخرة، وتلذُّذِهم لَدى روايةِ مآسٍ جديدة.

وإذ تركَ المجموعة، اتَّكأ على أريكة، حيثُ شَرِبَ

باكتئاب، وأخذَ يُراقِبُ الحُضور. فلاحظَ الألعابَ التي يلعبونها بعضُهم مع بعض. وكانوا يرتَدون أقنِعةَ التمدُّن، إلَّا أنَّهم نَفَثوا السُّمَّ كلَّ حين. ثُمَّ خطرَتْ له خاطرة: أنَّ مثلَ هذه الحفلات والولائم كانت في ما مضى جُزءًا كبيرًا من حياته، وكان **يتلذَّذ** بها.

أمَّا الآن، فتساءل عن سبب وجوده هُنا... عن سبب رجوعه إلى روما أصلًا.

ثُمَّ اقتربَ أنتيغونُس إليه، مُطوّقًا بِذَراعه دونَ مُبالاةٍ فتاةً مُرتدِيةً ثيابًا فاخِرة، ذاتَ بَشَرةٍ باهتة. وقد كانتِ ابتِسامتُها شهوانيَّة، ولها مُنحَنياتُ أفروديت. واستَجابَ جسدُه لحظةً لِحدَّةِ عينَيها القاتمة. لقد مضى زَمَنٌ طويل منذ اختلَى بامرأةٍ آخِرَ مرَّة.

لاحظ أنتيغونُس تقييمَ مَرقُس، فابتسمَ مسرورًا بنفسه. "إنَّها تُعجِبُك. لقد علمتُ أنَّك ستُعجَبُ بها. فهي مُغرِية جدًّا".

وإذْ نزعَ ذراعَه عن المرأة، دفعَها دفعةً رقيقة، مع

أنَّها لم تكَن في حاجةٍ إلى أيِّ دفع. فهَوَت برِفقٍ على صدر مَرقُس، وحملقَت إليه بشفتَين مُنفرِجتَين. وابتسمَ أنتيغونُس، راضيًا عن ذاته في ما يبدو. ‘‘اسمُها دِيدَيما’’.

أمسكَ مَرقُس بكَتِفَي دِيدَيما، وأبعدَها عنه، مُزَوِّيًا فمَه بابتسامةٍ لأنتيغونُس. فأجالَتِ المرأةُ نظرَها من مَرقُس إلى سيِّدها مُستَفسِرةً، وهزَّ أنتيغونُس كَتِفَيه مُستَهجِنًا. ‘‘يبدو أنَّه لا يُريدُكِ، يا دِدي’’. ولوَّح بيَده دونَ مُبالاة، صارِفًا إيَّاها.

حطَّ مَرقُس كأسَه بثَبات. ‘‘إنِّي أُقدِّرُ هذه البادرة، يا أنتيغونُس...’’

فقال بسُخرِيَة هازًّا رأسَه: ‘‘ولكنَّك تُحيِّرني، يا مَرقُس. لا اهتِمامَ بالنِّساء. ولا اهتِمامَ بالألعاب. ماذا جرى لك في أفسُس؟’’

‘‘شيءٌ لن تفهمَه’’.

‘‘جرِّبني’’.

ابتسمَ مَرقُس له ابتِسامةً ساخِرة. ‘‘ما كنتُ

لأضَعَ حياتي الشخصيَّة في عُهدَة رجُلٍ اجتماعيٍّ نظيرِك’’.

فضاقت عَينا أنتيغونُس. وقال برِقَّة: ‘‘في كُلِّ كَلِمةٍ تقولُها هذه الأيَّامَ لَسعةٌ حادَّة. بِمَ أسأتُ إليك حتَّى تَقِفَ مثلَ هذا الموقِفِ الانتقاديّ؟’’

هزَّ مَرقُس رأسَه. ‘‘لستَ أنتَ المشكِلة، يا أنتيغونُس. إنَّها هي بجُملتها’’.

فسأل أنتيغونُسُ مُتحيِّرًا: ‘‘وما هي بجُملتها؟’’

‘‘إنَّها الحياة. الحياةُ اللعينة!’’ فالمتعُ الحسِّيَّة التي تلذَّذ بها مَرقُس في ما مضى باتَتِ الآنَ تُرابًا في فَمِه. ولـمَّا ماتَتْ هَدسَّة، ماتَ معها شيءٌ ما في داخلِه. فكيفَ يستطيعُ أن يشرحَ مثلَ هذه التغيُّرات العميقة المؤلِمة داخِلَ نفسِه لِرَجُلٍ نظيرِ أنتيغونُس- رجُلٍ ما زالت الأهواءُ الجسديَّةُ تُلهِبُه وتَستحوِذ عليه؟

كيف يستطيع أن يُفسِّرَ أنَّ كلَّ شيءٍ قد فقدَ المعنى في نظره لـمَّا ماتَت فتاةٌ عَبدةٌ من

العامَّة في ساحَةِ مُحاربينَ أفسُسيَّة؟

ومن ثَمَّ قال بفتور، وهو يقومُ ليُغادِر: "أعتَذر، فصُحبَتي رديئةٌ هذه الأيَّامَ".

تلقَّى مَرقُس دَعَواتٍ أُخرى على مدى الأشهُر الستَّة التالية، ولكنَّه رفضَها كلَّها، مؤثِرًا بالأحرى أن ينهمكَ في مشاريعِ عمله. ولكنَّه لم يجدْ أيَّ سلامٍ هناك أيضًا. فعلى الرُّغم من تعبه واجتهاده، فقد ظلَّ مُعذَّبًا. أخيرًا، عَلِمَ أنَّ عليه أن يتحرَّرَ من الماضي، من روما، من كلِّ شيء.

ومن ثَمَّ باعَ مَقلعَ الحجارة واتِّفاقيَّاتِ البناء الباقية- بربحٍ ضخم لكِلَيهما- غير أنَّه لم يشعُرْ بأيِّ فَخرٍ من الرِّضى في ربحه. والتَقى مُديري المستَودَعات الثاليريانيَّة على نهر التِّيبر، وراجَعَ الحِسابات. وكان سَكستوس، أحَدُ مُعاوني أبيه منذ زمنٍ طويل، قد أثبتَ أنَّه مُخلِصٌ للمصالح الثاليريانيَّة على مدى سنين كثيرة. فعرضَ عليه مَرقُس مَنصِبَ الـمُشرف على الممتلَكات الثاليريانيَّة في روما، بنسبةٍ مئويَّة سخيَّة من الرِّبح الإجماليّ.

صُعِقَ سَكستوس. ‘‘ما كُنتَ قطّ كريمًا هكذا، سيِّدي’’. وكان في كلماته هذه تَحَدٍّ خَفِيٌّ وارتيابٌ مكتوم.

‘‘لك أن تُوزِّعَ الأموالَ كما تَراه مُناسِبًا، بغيرِ أن أُحاسِبَك’’.

فقال سَكستوس بفظاظة: ‘‘ما كنتُ أتكلَّم بشأن المال، بل بشأن السَّيطرة. فما لَم أكُن مُسيئًا الفهم، أعتقِدُ أنَّك تُسلِّمُني مَقاليدَ مُمتلكاتِك التجاريَّة في روما’’.

‘‘هذا صحيح’’.

‘‘هل نسيتَ أنِّي كنتُ في ما مضى عبدَ أبيك؟’’

‘‘لا’’.

قيَّمه سَكستوس بعينَين مزمومتَين. كان قد عرفَ دَسِمُس جيِّدًا، وعَلِمَ منذ زمن طويلٍ أنَّ مَرقُس قلَّما جلبَ لأبيه غيرَ الغَمّ. فإنَّ طموحَ الشابِّ الفَتِيِّ طالما كان مثل حُمًّى في دمه، مُحرِقًا ضميرَه حتَّى التلاشي. فأيَّ لُعبةٍ كان

يلعبُ الآن؟ ‘‘أما كان هدفكَ أن تُسَيطِرَ على مُمتَلكات أبيك كما تُسَيطِرُ على مُمتلَكاتِك؟’’

اِلْتوى فَمُ مَرقُس بابتسامةٍ باردة. ‘‘أنت تتكلَّم بصراحة’’.

‘‘أما كُنتَ ترغبُ في أن تكون الأُمور على هذا المنوال، سيِّدي؟ إذًا، قُل لي الحقيقة بأيِّ ثَمَن، ولك منّي الإطراء المتملِّق’’.

تشنَّجَ فَمُ مَرقُس، غيرَ أنَّه تمالكَ طَبعَه. وأرغمَ نفسَه كي يتذكَّرَ أنَّ هذا الرجُل طالَما كان مُخلِصًا لأبيه. ‘‘أبي وأنا عَقَدنا صُلحَنا في أفسُس’’.

وظهرَ في سُكوتِ سَكستوس عدم تصديقه.

فحدَّق مَرقُس مُباشرةً في عينَي الرجُل الآخر وثبَّتَ حَملَقَتَه. وقال ببرودة: ‘‘إنَّ دمَ أبي يسري في عروقي، يا سَكستوس. لم أُقدِّم هذا العَرضَ بلامُبالاة، كما أنّي لا أُضمِرُ أيَّة دَوافعَ خَفيَّة تُشكِّلُ خَطَرًا عليك. لقد فكَّرتُ في الأمر مَليًّا في غضون الأسابيع القليلة الماضية. وأنتَ تولَّيتَ أمَر

الحُمولاتِ التي جُلِبَت إلى هذه المستودَعات طَوالَ سبعَ عشرةَ سنة. وتعرِفُ بالاسمِ الرجالَ الذين يُفرِغون حُمولةَ السفن ويخزنون البضائع. وقد قدَّمتَ كلَّ حين حِسابًا دقيقًا عن كلِّ صفقة. فمَن لي أفضلُ منك أستأمِنُه؟'' ثُمَّ مدَّ يدَه بالاتِّفاقيَّة المكتوبة. ولكنَّ سَكستوس لم يتحَرَّكْ لأخْذِها.

فقال مَرقُس: ''لك أن تقبلَ أو ترفض، كما تراه مناسبًا. إنَّما اعلَمْ هذا: أنِّي بعتُ مُمتلَكاتي الأُخرى في روما. والسببُ الوحيدُ الذي من أجله لم أبِعِ السُّفُن والمستَودَعات هو أنَّها كانت جزءًا من حياة أبي إلى أبعدِ حدّ. فقد كان عَرَقُه ودَمُه هُما ما بنى هذا المشروع. لا عَرَقي ودَمِي أنا. إنّي أعرضُ عليك هذا العَرضَ بسبب كفاءتك... إنَّما الأهمُّ أنَّكَ كُنتَ صديقَ أبي. فإنْ رفضتَ عَرضي، سأُدبِّرُ الأمر. لا تُساوِرْكَ شُكوكٌ بشأنِ هذا، يا سَكستوس''.

ضَحِكَ سَكستوس ضِحكةً خَشِنة. ''حتَّى لو كُنتَ جادًّا بشأنِ البيع، ما كان ذلك في وُسعِك. إنَّ روما تُكافحُ في سبيل البقاء. فالآن الآن، ليس

لَدَى أحَدٍ أعرفُه المالُ لشراء مشروعٍ بهذا الحجم وهذه الضخامة''.

بدا الفُتورُ في عينَي مَرقُس. ''أنا أعلَمُ ذلك يقينًا. إنِّي لستُ ضِدَّ التخلُّص من أُسطولي سفينةً فسفينة، ومن أملاك الميناء مَبنًى فمَبنى''.

أدرك سَكستوس أنَّه يعني ما يقول، وصعقَه تفكيرٌ انتِهازيٌّ كهذا. كيف يُعقَل أن يكون هذا الشابُّ هو ابنَ دَسِمُس؟ ''لَدَيك أكثرُ من خمس مئة شخص يشتغلون عندَك! أحرارٌ، في مُعظَمهم. ألستَ تهتمُّ بهم وبخَير عائلاتهم؟''

''أنت تعرفُهم أفضلَ ممَّا أعرِفُهم أنا''.

فقال سَكستوس، مُلَمِّحًا إلى ما اشتُهِرَ به مَرقُس من حُبٍّ للمال: ''إذا بعتَ الآن، فلن تحصُلَ إلَّا على كَسْرٍ يسيرٍ من قيمةِ هذا كلِّه. أشكُّ في أنَّك ستُكمِلُ الأمرَ حتَّى النهاية''.

''جَرِّبني''. وطرحَ مَرقُس الاتِّفاقيَّةَ المكتوبةَ بينهما على الطاولة.

تخوَّف سَكستوس من الصَّلابة في وَجه الرجُل الأصغر سنًّا، وثباتِ حَنكِه، وتأمَّلَه وقتًا لا بأسَ به. إنَّه لم يكُن يُخادع. "**لماذا؟**"

"لأنِّي لن أُبقيَ حَجَرَ الرَّحى هذا حولَ عُنُقي حابِسًا إيَّايَ في روما".

"وهل تنوي أن تمضيَ إلى هذا الحدِّ البعيد؟ إذا كان ما قُلتَه صحيحًا، وقد عقدتَ صُلحَك مع أبيك، فلماذا تهدمُ ما أمضى أبوك عُمرًا كي يُنشئه؟"

فأجابَ مَرقُس ببساطة: "ليس ذلك هو ما أُريد أن أفعلَه، ولكنِّي سأقول لك هذا، يا سَكستوس: في نهاية المطاف، رأى أبي كلَّ شيءٍ على أنَّه باطِل، وأنا الآن أتَّفِقُ معه في الرأي". وأشار إلى الاتِّفاقيَّة. "ما جوابُك؟"

"سأحتاجُ إلى وقتٍ كي أُفكِّر".

"لَدَيك الوقتُ الذي يستغرقُه خُروجي من ذلك الباب".

تصلَّب سَكستوس حِيالَ غَطرَسةٍ كهذه. ثُمَّ

استرخى. والتَوى فمُه قليلًا. وزفَرَ نَفَسَه وهزَّ رأسَه، مُطلِقًا ضِحكةً رقيقة. ‘‘أنتَ مِثلُ أبيك إلى أقصى حدٍّ، يا مَرقُس. حتَّى إنَّه بعدما أعطاني حُرِّيَّتي، كان يعرفُ دائمًا كيف يجعَلُ الأُمورَ تجري على طريقته’’.

فقال مَرقُس بغموض: ‘‘ليس في كلِّ شيء’’.

أحسَّ سَكستوس ألَمَ مَرقُس. لعلَّه عقدَ **فعلًا** صُلحَه مع أبيه في آخِر المطاف، وهو الآن نادمٌ على سِنِي العِصيان التي ضاعَتْ. ثُمَّ تَناوَلَ الاتِّفاقيَّة، ونَقَرَها نَقرًا خفيفًا على كفِّه. وإذ تذكَّرَ الأبَ، تأمَّلَ الابنَ، وقال: ‘‘إنِّي أقبَل، بِشرطٍ واحِد’’.

‘‘حدِّدْه’’.

‘‘سأتَعامَلُ معك كما سبقَ أن تعامَلْتُ مع أبيك’’. ثُمَّ طَرَحَ الاتِّفاقيَّةَ على الجَمرِ المتأجِّج في الكانُون، ومدَّ يدَه.

فأمسكَ مَرقُس باليد، وفي حلقهِ غُصَّة.

وفي اليوم التالي، عند شُروق الشَّمس، أبحرَ مَرقُس إلى أفسُس.

على مدى أسابيع الإبحار الطويلة، أمضى ساعاتٍ واقفًا على مُقدَّمِ السفينة، والرِّياحُ المالحةُ تهبُّ على وجهه. وهنالك أخيرًا سَمَحَ لأفكارِه بأن تتوجَّه إلى هَدسَّة من جديد. فتذكَّرَ وقوفَه معها على مُقدَّم سفينةٍ كهذا، مُراقِبًا شعرَها الأسودَ الناعم مُتطايِرًا حولَ وجهِها، وسيماؤها جِدِّيَّةٌ إذْ تكلَّمتْ عن إلهِها غيرِ المنظور: "**اللَّه يتكلَّم... بصوتٍ في الرِّيح، هادئٍ وخفيف**".

تمامًا كما بدا صوتُها مُتكلِّمًا إليه الآن، هادئًا وخفيفًا، هامِسًا له في الريح... داعِيًا إيَّاه.

ولكنْ إلامَ؟ اليأس... الموت.

لقد تمزَّقَ بين الرَّغبة في نسيانها والخَشيةِ منه. وبدا الآن كما لو أنَّه- وقد فتحَ ذِهنَه لها- لا يستطيع أن يُغلِقَه مُجدَّدًا.

كان صوتُها قد باتَ حُضورًا مُلِحًّا، مُطلِقًا أصداءَه في أرجاء الظَّلام الذي يعيشُ فيه الآن.

٢

عند النُّزول من السفينة في أفسُس، لم يخطر بِبال مَرقُس أيُّ شعورٍ بالرُّجوع إلى الدِّيار، أو أيُّ فَرَجٍ لانتهاءِ الرِّحلة. وإذ تركَ مُقتنَياتِه في أيدي الخُدَّام، توجَّه على الفَور إلى دارةِ أُمِّه القائمة على مُنحدَرِ أحَد الجبال في مكانٍ غير بعيدٍ من وسط المدينة.

رحَّبَ به خادِمٌ أعلمَه أنَّ والِدتَه في الخارج ولِكنَّ عَودتَها مُتوقَّعة في غضونِ تلك الساعة. ولكونه مُتعَبًا ومُكتئبًا، دخلَ إلى الفِناء الداخليِّ كي يستَريحَ وينتظر.

كانت أشعَّةُ الشمس مُتدفِّقةً من السقف المكشوف إلى داخل **الأتريوم**[١]، مُلقيةً ضوءًا خفَّاقًا على المياه المتَرقرِقة في البِركة المزخرَفة. وقد تلألأ الماءُ وتراقَصَ، وتردَّدتْ أصداءُ النافورةِ المريحةُ في أرجاء الأروقة السُّفلى. غير أنَّه هو لم يَنَلْ راحةً إذْ قعدَ في الظِّلّ.

أسندَ رأسَه إلى الجِدارِ وراءَه، مُحاوِلًا أن يَدَعَ الصَّوتَ الموسيقيَّ يَغمرُ روحَه المتألِّمة ويُسَكِّنُها. ولكنْ بَدَلًا من ذلك، انتابَته ذِكرَياتُه فتَعاظَمَ أساه حتَّى شعرَ بأنَّه يكادُ أن يخنقَه.

لقد مرَّت أربعةَ عشرَ شهرًا على مَوت هَدسَّة، إلَّا أنَّ ما نجمَ عنه من كَرْبٍ اجتاحَه كما لو كان قد حدثَ أمسِ. وهي غالِبًا ما كانت تقعدُ على ذلك البَنك بعَينه، مُصلِّيةً إلى إلهها غير المنظور، ومُحرزةً سلامًا ما زالَ يروغُ منه. وكان في وُسعه تقريبًا أن يسمعَ صوتَها... هادئًا، عَذْبًا، مُطَهِّرًا، مِثلَ الماء. وكانت قد صلَّت لأجل أبيه وأُمِّه. وقد صلَّتْ لأجله هو، وصلَّت لأجل **جوليا!**

أغمضَ عينَيه، مُتمنِّيًا لو يستطيعُ أن يُغيِّرَ الماضي. لو كان ذلك فقط هو كلَّ ما يلزمُ للإتيان بهَدسَّة مُجدَّدًا. تمنِّيات! لو أنَّ كَرْبَ الشُّهور المنصَرمة، بفِعلٍ سِحريٍّ ما، يُمكِنُ أن يُبدَّد، وإذا بها تجلسُ هُنا بقُربه، حيَّةً ومُعافاةً. لو أنَّه يستطيعُ أن يلفظَ اسمَها، مِثلَ رُقيَة، فيجعلها- بفَضلِ سُلطانِ حُبِّه- تقومُ حيَّةً من بين الأموات.

وتمتمَ بصَوتٍ أجَشّ: "هَدسَّة... **هَدسَّة**". ولكنْ بَدَلَ أن تنهضَ هيَ من ضَبابِ خَيالِه، طلعَت صُوَرُ مَوتها المهولةُ العنيفة، وتَبِعَها اضطِرابُ نفسِه الجائشة: الهولُ والكَرْبُ والذَّنْب، وجميعُها تتهدَّمَ في خِضَمِّ غضبٍ عميقٍ لا يَلين، بدا الآن رفيقَه الدائم.

أيُّ خَيرٍ عادَت به الصلاةُ عليها؟ هكذا تساءلَ في مرارة، مُحاوِلًا أن يطمسَ رؤيا مَوتِها في ذهنه. لقد وقفت بكلِّ هدوءٍ لـمَّا هَجَمَ الأسدُ عليها. ولو صرخَت، لما سَمِعَ صُراخَها فوقَ جَلَبةِ الأفسُسيِّين الهاتِفين... وقد كانت أختُه بالتَّحديد واحِدةً منهم!

كانت والِدتُه قد قالَت، قبلَ مُغادرته إلى روما، إنَّ الزمَن يشفي جميعَ الجِراح. ولكنَّ ما شعرَ به ذلك اليومَ بينما شاهَدَ هَدسَّة تموتُ ما باتَ إلَّا أثقلَ وأصعَبَ من أن يُحمَل، لا أسهلَ وأيسَر. فالآن كانَ ألَمُه كُتلةً صُلبةً ثابتةً داخلَ كِيانه، تجعلُه ينوءُ ويرزح تحتَها.

ثُمَّ وقفَ مُتنهِّدًا. لا يُعقَلُ أن يسمَحَ لنَفسه بإطالة

الوُقوف على أطلال الماضي. ليس اليومَ وهو مُنهَكٌ ومُرهَقٌ حتَّى العَظمِ من الرِّحلةِ البحريَّة الطويلة المملَّة. إنَّ ذهابَه إلى روما لم يفعَلْ أيَّ شيءٍ لطَمْسِ الجمود الذي يشعرُ به؛ بل إنَّه جعلَ الحياةَ أسوأ فحسْب. وها هو الآن قد عادَ إلى أفسُس، في حالٍ ليسَتْ أفضلَ البتَّةَ من حالته يومَ غادرَها.

وبينَما هو واقِفٌ في **پَريستايْل** دارةِ والدته على مُنحَدر الجَبَل، غَمَرَه حُزنٌ مُؤلم لا يُوصَف. لقد كان البيتُ ملآنًا بالسُّكون، رُغمَ وُجودِ خَدَمٍ في الدار. ومع أنَّه أحسَّ حُضورَهم، فإنَّهم كانوا حُكماءَ كفايةً بحيثُ حافَظوا على بُعدِهم عنه. ثُمَّ انفتَحَ البابُ الأماميُّ وانغلَق. وسمعَ أصواتًا خافِتة، ثُمَّ وَقْعَ خُطًى سريعةٍ مُقبِلةٍ نحوَه.

قالت أُمُّه: ‘‘ مَرقُس!’’ راكِضةً إليه ومُعانِقةً إيَّاه.

فقال: ‘‘أُمِّي!’’ مُبتسِمًا ومُمسِكًا إيَّاها على بُعْدِ ذِراعٍ منه ليَرى كيف صارَت أحوالُها في غِيابه. ‘‘يبدو أنَّكِ بِخَير’’. وانحنى فقبَّل كِلا خَدَّيها.

سألَته بالقَول: ''لماذا رجعْتَ عاجِلًا هكذا؟ خُيِّلَ إليَّ أنِّي لن أراكَ طَوالَ سِنين''.

''لقد أنهَيتُ عملي. ولم يكُن داعٍ إلى التأخُّر''.

''هل كُلُّ شيءٍ كما رَجَوتَ أن يكون؟''

''أنا الآن أغنى ممَّا كنت عليه قبلَ سنةٍ مَضَت، إنْ كان هذا ما تقصدينَه''.

افتقرَتِ ابتِسامتُه إلى العاطفة القلبيَّة. ونظرَت فيبي في عينَيه، فرقَّت سِيماؤها. ورفعَتْ يدَها برِفقٍ إلى خدِّه، كما لو كان طِفلًا مُوجَعًا. ثُمَّ قالَت بصَوتٍ غاية في الحنان: ''آهِ مَرقُس! إنَّ سَفرتَك لم تجعَلْك تنسى''.

فتراجعَ عنها قليلًا، مُتسائلًا أفي وُسعِ كُلِّ أُمٍّ أن تنظُرَ إلى داخل نَفسِ وَلَدِها كما في وُسعِ أُمِّه هو. ''لقد عهدْتُ إلى سَكستوس بإدارةِ المستَودَعات''. قالَ هذا برَشاقة، وأضاف: ''إنَّه ذو كفاءة وجديرٌ بالثِّقة''.

جارَتْهُ فيبي في مُرادِه. وقالَت بهدوء، مُراقِبةً إيَّاه:

‘‘لقد كانت لك دائمًا غرائزُ أبيك بشأن الناس’’.

فقال بتَثاقُل: ‘‘ليسَ في جميع الأحوال’’. ثُمَّ صرفَ أفكارَه بعيدًا عن أُختِه. ‘‘لقد أعلمَني إيوليوس أنَّكِ كُنتِ فريسةً للحُمَّى عدَّةَ أسابيع’’.

‘‘نعم، ولكنِّي الآن بخَير’’.

فتفحَّصَها مَرقُس عن قُربٍ أقرب. ‘‘قال لي إنَّكِ ما تزالين تتعَبين بسُهولة. أنتِ أنحفُ ممَّا كُنتِ حينَ رأيتُكِ آخِرَ مرَّة’’.

وضحِكَت. ‘‘لا داعيَ لأنْ تقلقَ عليَّ؛ فإنَّك إذ عُدتَ الآن إلى البيت، ستَزدادُ قابليَّتي حَتْمًا’’. وأمسكَتْ بيَده. ‘‘أنت تعلَم أنِّي كنتُ دائمًا أقلَقُ حينَ يكونُ أبوك قائمًا بواحدةٍ من سَفراته الطويلة. فأظنُّ الآن أنِّي سأكونُ على الحالِ ذاتِها بالنِّسبة إليك. إنَّ البحرَ يستَعصي على التَكهُّن تمامًا’’.

قعدَتْ هي على البَنك، أمَّا هو فظلَّ واقفًا. ورأتْ أنَّه كان مُضطَرِبًا وأنحَف، وقد غدا وجهُه أصلَب.

‘‘كيف كانت روما؟’’

‘‘كحالِها كُلَّ حينٍ تقريبًا. لقد رأيتُ أنتيغونُس وحاشيةَ المتملِّقينَ المولَعِين بالأمور التافهة حَوالَيه. وكانَ ينتحِبُ بشأنِ المال، كما يفعل دائمًا’’.

‘‘وهل زوَّدتَهُ بِما طلبَه؟’’

‘‘لا’’.

‘‘لِمَ لا؟’’

‘‘لأنَّه طلبَ ثلاثَ مئةِ ألفِ سَستَرس، وكلُّ سَستَرسٍ منها سيُنفَق على ضَمانِ الألعاب’’. وأشاحَ بنظره بعيدًا. كان من شأنه ذاتَ مرَّةٍ أن يُوافِقَ دونَ وَخزِ ضمير، وأن يستَمتعَ فِعلًا هو نفسُه بالألعاب. ولا شكَّ أنَّ أنتيغونُس كان سيُبدي عِرفانَه للجميل بتأمينِ اتِّفاقيَّاتِ بناءٍ حُكوميَّة والإتيانِ بالأرِستُوقراطيّين الأغنياء الذين يطلُبون داراتٍ أكبرَ وأكثرَ إتقانًا.

إنَّ سياسيًّا مِثلَ أنتيغونُس كان مُضطرًّا إلى

كَسبِ رضى الرَّعاع. وكانت أفضلُ طريقة للحصول على ذلك هي رِعايةَ الألعاب. فلم يكُنِ الرَّعاعُ مَعنيِّين قطُّ بمواقف الشَّيخ وبالقضايا التي يُناصِرُها، ما داموا يتسلَّون ويتَلهَّون عن قضايا الحياة الحقيقيَّة: عدمِ تَوازُنٍ في التجارة، اضطِرابٍ مَدَنيّ، مجاعة، مَرَض، عبيدٍ يتَقاطَرون من الأقاليم ويشتَغلون بمِهَنِ الأحرار.

ولكنَّ مَرقُس لم يعُد يُريد دَورًا في أيِّ شأنٍ من ذلك كلِّه. وقد ساورَه الخِزيُ لإعطائه أنتيغونُسَ مئاتِ آلاف السَّستَرسات في الماضي. فكلُّ ما فكَّر فيه آنذاك كان مصلحتَه التجاريَّة في حيازةِ صديقٍ من ذوي المناصِب العُليا. ولم يُفكِّر قطُّ مرَّةً واحدةً في ما تَعنيه أفعالُه على صعيد الحياة البشريَّة. والحقيقة أنَّه لم يُبالِ بذلك. فقد كان تمويلُه لأنتيغونُس نَفعيًّا. إذِ ابتغى اتِّفاقيَّاتٍ للبناء في مَناطقِ روما الأغنى المحروقة، ولَطالما كان حَشوُ كِيسِ أنتيغونُس بالسَّستَرسات أسرعَ سبيلٍ إلى النجاح الماليّ. فإنَّ الرِّشوة قدِ اشترَت له الفُرَص؛ والفُرَص جلبَت له الثَّراء. لقد كان إلهَهُ هو إلهُ الحَظِّ والثَّروة.

والآن، كمَن ينظر في مِرآة، رآى نفسَه كما كان في الماضي: سَئمًا ومُعاقِرًا الخمرةَ مع الأصدقاء، في وقتٍ يُصلَبُ فيه أحَدُهم على صليب؛ آكِلًا أطايِبَ يُقدِّمُها عَبدٌ، في حين أنَّ رِجالًا يُوضَعون بعضُهم مُقابِلَ بعض ويُرغَمونَ على التقاتُل حتَّى الموت. ولأيِّ سببٍ؟ لتَسلِيَة رَعاعٍ جِياعٍ يشعُرون بالضَّجَر- رَعاعٍ طالَما كان هو فَردًا مُمَوِّلًا بينَهم. وها هو الآن يدفعُ ثمنًا أغلَى بَعدُ: عِلمَه بأنَّه أدَّى دَورًا في مَوتِ هَدسَّة، شأنُه شأنُ الجميع تمامًا.

وتذكَّر أنَّه ضَحِكَ فيما كان رَجُلٌ يركُض مَرعوبًا، في مُحاوَلة لِلهُروب من زُمرَةِ كِلابٍ حين كان الفِرارُ مُستحيلًا. وكان ما يَزالُ في وُسعه أن يسمَعَ أصواتَ الآلافِ صارخين وهاتِفين بضَراوة إذ مزَّقَتِ اللَّبوةُ لَحمَ هَدسَّة. فماذا كانت جريمتُها سِوى حِيازةِ طهارةٍ عذبةٍ ضربَت ضميرَ عاهِرٍ فاسِدةٍ وأثارَت غَيرتَها. ولم تكُن تلك العاهِرُ سِوى أُختِ مَرقُس...

جلسَت فيبي صامتةً على البَنك في الظِّلّ، وتأمَّلَت وجهَ ابنها المقطَّب. "سألَت جوليا عن مَوعِد رُجوعِك".

فانقبَضَ العَضَل في حَنَكِه عِندَ ذِكرِ اسمِ أختِه.

"إنَّها تُريد أن تراك، يا مَرقُس".

لم ينبِس بكَلِمة.

"إنَّها بحاجةٍ لأنْ تراك".

"إنَّ حاجاتِها لَفي أدنى درجةٍ من اهتمامي".

"وإذا كانت تُريد أن تُجرِيَ إصلاحات؟"

"إصلاحات؟ كيف؟ هل تستطيع أن ترُدَّ هَدسَّة إلى الحياة؟ هل تستطيع أن تُبطِلَ ما قد عَمِلَته؟ لا، أُمَّاه. ليس من إصلاحاتٍ مُمكِنة لِما قد عَمِلَت".

فقالت برِقَّة: "إنَّها ما تزالُ أُختَك".

"قد يكونُ لكِ ابنةٌ، يا أُمِّي، ولكنِّي أُقسِمُ لكِ إنَّه ليس لي أُخت".

لمحَتِ الضَّراوةَ في حَملَقَتِه، وصلابةَ حَنَكِه غيرَ

المهاوِدة. وقالَت مُتَوسِّلةً: "أليسَ في وُسعِك أن تضعَ الماضيَ جانِبًا؟"

"لا".

"ولا أن تُسامح؟"

"أبدًا! أقولُ لكِ إنِّي أدعو أن تنزِلَ كلُّ لعنةٍ تحت السماء على رأسها".

فاغرَورقَت عينا أُمِّه. "رُبَّما إذا حاولْتَ أن تتذكَّرَ كيف عاشَت هَدسَّة بَدَلًا من طريقة مَوتها".

ضربَت هذه الكلماتُ قلبَه، فأشاحَ وجهَه قليلًا، غاضِبًا لِتَذكيرِه بذلك، وقال بخشونة: "أتذكَّرُ كلَّ شيءٍ جيِّدًا جدًّا".

فقالت فيبي برِقَّة: "لعلَّنا لا نتذكَّر الأُمور في الضَّوء نفسِه". ورفعَت يدَها لِتلمسَ القِلادةَ المخبَّأةَ تحت **پالُسِها**، وكان عليها شِعارُ إيمانِها الجديد: راعٍ يَحمِلُ على كَتِفَيه خَروفًا ضالًّا. وما كان مَرقُس يعلَم بالأمر. ثُمَّ تردَّدَت، مُتسائلةً إنْ كان ذلك هو الوقتَ المناسِبَ لإعلامه.

كان غَريبًا أنّ فيبي، بمُشاهَدَتِها هَدسَّة، وجدَتِ السبيلَ الذي يجبُ أن تسلُكَه حياتُها الخاصَّةُ مُنبسِطًا أمامَها بكُلِّ وضوح. فقد صارَت مسيحيَّة، مُعمَّدَةً بالماء وبِرُوح الله الحيّ. وهي لم تَخُض صِراعًا في ذلك، كما خاضَ دَسِمُس، إذِ انتظرَ حتَّى آخِرِ حياته تمامًا كي يقبلَ السيِّد المسيح. والآنَ كانَ مَرقُس، الشَّبيهُ بأبيه كثيرًا، هُوَ مَن يُحارِبُ الروحَ القُدُس. مَرقُسُ الذي لم يُرِد أيَّ سيِّدٍ على حياته، ولَن يعترِفَ بأيِّ سيِّد.

وإذ نظرَتْ إليه، فإذا بيَدِه تنقبِضُ ثُمَّ تَرتَخي، علِمَت أنَّ ذاك ليس هو الوقتَ الملائمَ للتكلُّم بشأن السيِّد المسيح وبشأن إيمانها به. فلا بُدَّ أنَّ مَرقُس سيَغضب. ولَن يفهم. وسيخافُ منها، ويخشى أن يفقدَها كما فقدَ هَدسَّة تمامًا. آه، ليتَه يقدرُ فقط أن يرى أنَّ هَدسَّة لم تُفقَد قطّ. أمَّا **هو** فكان مفقودًا.

‘‘ماذا كان من شأنِ هَدسَّة أن تُريدَ لك القيامَ به؟’’

فأغمضَ مَرقُس عينَيه. ‘‘لو قامت بالأُمور على

نحوٍ مُختلِف، لكانَت ما تزال حيَّة''.

''لو كانت مُختلِفةً، يا مَرقُس، ما أحبَبتَها قَطُّ كما تحبُّها، بكُلِّ قلبك وفكرِك ونفسِك''. كما كان يُمكِن أن يحبَّ اللّٰه، إلَّا أنَّه لم يَستطِع أن يُدرِك أنَّ **الرُّوح** داخِلَ هَدسَّة هو الذي اجتذبَه.

وإذ لاحظَتْ فيبي ألَمَ ابنها، تألَّمَت من أجله. ثُمَّ قامَت عن البَنك، وذهبَت إليه. ''أيكونُ نُصُبَكَ التذكاريَّ لهَدسَّة هو بُغضُكَ الذي لا لِينَ فيه لأُختِك؟''

فقال بصَوتٍ أجَشَّ: ''دَعكِ من هذا الأمر، أُمَّاه''.

وردَّت بأسًى: ''كيف أستطيعُ ذلك؟ أنتَ ابني، ومهما فعلَت جوليا فهي تَبقى ابنتي. إنِّي أُحِبُّكما كِلَيكُما. وأنا أُحِبُّ هَدسَّة''.

فحدَّق إليها من عَلُ، قائلًا: ''هَدسَّة مَيْتة، أُمَّاه. فهل ماتت بسبب جريمة ما ارتكبَتها؟ كلَّا! لقد قُتِلَت بدافعٍ من الغَيرَةِ الدنيئة لدى عاهِر''.

وضعَت فيبي يدَها على ذِراعه. ''هَدسَّة ليست

مَيْتةً بالنِّسبة إليَّ. ولا بالنِّسبة إليك’’.

فقالَ بكآبة: ‘‘ليست مَيْتة! كيف يُعقَلُ أن تقولي هذا؟ أهيَ معنا هنا؟’’ ثُمَّ انتَقَلَ مُبتعِدًا عنها وقعدَ على البَنك حيثُ كانت هَدسَّة قد قعدَت أغلبَ الأحيان في سُكون الأمسِيَة وهُدوءِ ما قبلَ الفَجر. وبدا مُرهَقًا، وظهرُه مُسنَدٌ إلى الجدارِ وراءه.

فأقبلَت فيبي وقعدَت على البَنك بجانبه، وأمسكَتْ بيَدِه. ‘‘هل تتذكَّر ما قالَتْه لأبيكَ قُبَيلَ مَوتِه؟’’

‘‘أمسكَ يَدي ووضعَها على يدِ هَدسَّة. لقدِ انتمَت إليَّ’’. وكان ما يَزالُ في وُسعه أن يرى النظرة في عينَيها الداكِنتَين إذ أطبقَ يدَه بشِدَّةٍ على يدها، مُتَسلِّمًا ملكيَّتَه. هل عَلمَ أبوه آنذاك أنَّها كانت تحتَ الخَطَر؟ أكان يقولُ له أن يحميَها؟ لقد وَجَبَ عليه أن يأخذَها من عند جوليا في ذَينِك الزمان والمكان، بدلًا من أن ينتظرَ الفُرصَةَ المناسِبة لها. فإنَّ جوليا كانت حامِلًا حينَذاك، وعشيقُها قد رَحَل. وأخذَته الشَّفقة عليها في

ذلك الوضعِ، غيرَ مُدرِكٍ الخطرَ على الإطلاقِ. فلو كان حكيمًا، لكانَتْ هَدسَّة ما تزالُ حيَّة. ولَكانت زوجتَه.

‘‘مَرقُس، قالت هَدسَّة إنَّك إذا آمنتَ وقبِلتَ نعمة الله فحَسْبُ تكون حتمًا مع السيِّد المسيح في الفِردَوس. وقد قالَتْ لنا إنَّ كلَّ مَن يؤمن بالرَّبِّ يسوعَ المسيحِ لن يهلِكَ، بل تكونُ له الحياة الأبديَّة’’.

فكبَسَ على يدِها. ‘‘كلامٌ لتَعزية رجُلٍ مُحتضَرٍ رأى حياتَه عديمَة المعنى، يا أُمَّاه. ليسَ من حياةٍ بعد الموت، بل تُرابٌ وظلامٌ فَحسْب. إنَّ كلَّ ما لَدَينا هو هنا الآن. ونوعُ الحياةِ الأبديَّة الوحيدُ الذي يمكن أن يتوقَّعه أيُّ شخصٍ هو في قلبِ آخَر. فإنَّ هَدسَّة حيَّة، وستَبقى هكذا ما دمتُ أنا حيًّا. إنَّها حيَّةٌ فيَّ’’. ثُمَّ ارتسمَتِ القَساوةُ في عينَيه. ‘‘وبسبَب حُبِّي لها، لن أنسى أبدًا كيفَ ماتَتْ ومَن سبَّب موتَها’’.

فقالت فيبي، والدَّمعُ يتلألأ في عينَيها: ‘‘هل تُدرِكُ أصلًا لماذا ماتت؟’’

“إنِّي **أعلَمُ** لماذا. لقد قُتِلَت بدافعٍ من الحَسَد والحِقد. فإنَّ طهارتَها فضَحت نجاسةَ جوليا”. ثُمَّ سحبَ يدَه من يدها، مُتَوتِّرًا ومُقاوِمًا المشاعِرَ الجائشة في داخله. لم يُرِد أن يصبَّ جامَ غَيظه على أُمِّه. فلم يكُن غلطةً منها أنَّها ولدَت أفعى سامَّة. ولكنْ لماذا اضطُرَّت إلى التحدُّث بهذه الأُمور الآن، بينما يشعرُ هو بأنَّه غايةٌ في الألم؟

طأطأ رأسَه واضعًا إيَّاه بين يدَيه، ومسَّدَ جبينَه كما لو أنَّ رأسَه يؤلمه من الذِّكريات، قائلًا: “أتمنَّى أحيانًا لو أستطيعُ أن أنسى. قالت لي مرَّة إنَّ إلهَها كان يتكلَّم إليها في الرِّيح، ولكنِّي لا أسمعُ أيَّ شيءٍ سوى صَدى صَوتها الواهي”.

“إذًا أصغِ”.

“لا أستطيع! لا أستطيعُ أن أحتمِل”.

“ربَّما كان ما تحتاجُ إليه هو أن تطلُبَ إلهَها كي تنالَ السلام الذي طالما تحدَّثتَ بشأنه”.

فرفَعَ مَرقُس رأسَه بِحدَّة، وأطلقَ ضِحكةً خَشِنة.

‘‘أطلَبَ إلهَها؟’’

‘‘إنَّ إيمانَ هَدسَّة بذلك الإله كان جَوهرَ هُوِيَّتها، يا مَرقُس. وأنت تعرفُ ذلك يقينًا’’.

عندئذٍ وقف مَرقُس وابتعدَ عنها بعضَ الشَّيء. ‘‘أين كان إلَهُها القديرُ هذا لـمَّا واجهَتِ الأُسود؟ إذا كان مَوجودًا، فهو جَبان، لأنَّه تخلَّى عنها!’’

‘‘إذا كنتَ تُصدِّق ذلك حقًّا، فعليك أن تبحثَ عن السَّبب’’.

‘‘كيف أقوم بذلك، يا أُمَّاه؟ هل أسأل الكَهَنة في هيكلٍ لم يعُدْ مَوجودًا؟ لقد دمَّرَ تيطُس مدينة القُدس. وبِلادُ اليهوديَّة خَرِبة’’.

‘‘عليك أن تذهبَ إلى إلهها وتسأل’’.

فقطَّب حاجبَيه، وحَملقَ حملقةً نفَّاذة. ‘‘هل بدأتِ تؤمِنين بيسوعَ البَغيضِ هذا؟ لقد قلتُ لكِ ما جَرى له. إنَّه لم يكُن شيئًا أكثَر من نجَّارٍ وقفَ موقِفًا مُناقِضًا لليهود. وقد أسلَموه كي يُصلَب’’.

‘‘كَنتَ تُحِبُّ هَدسَّة’’.

‘‘ما زلت أُحِبُّها’’.

‘‘أفلا تستحقُّ هي إذًا أسئلتَك؟ ماذا كانتَ لِتُريدَ منك أن تفعل، يا مَرقُس؟ أيُّ شيءٍ واحدٍ كانَ عندَها أهمَّ من الحياة بذاتها؟ عليك أن تطلُبَ إلهَها وتسألَه عن سبب مَوتِها. فهو وَحده يقدرُ أن يُعطِيَك الأجوِبةَ التي تُعوِزُك’’.

اِلْتَوى فَمُ مَرقُس بابتسامةٍ ساخرة: ‘‘كيف يطلبُ المرءُ وجهَ إلهٍ غيرِ منظور؟’’

‘‘مثلَما فعلَت هَدسَّة. صَلِّ!’’

فغمرَهُ الأسى، وما لَبِثَ أن أعقبَه توًّا الوَجَعُ المرُّ والغَضَب. ‘‘وحياةِ الآلِهَة، يا أُمَّاه، أيُّ خيرٍ نفعَتها به الصلاةُ أساسًا؟’’

وحِيالَ أَمارات الذُّهول على وجهها وسِيمائها المكتئبة، عَلمَ أنَّه جرحَها في الصَّميم. فأرغمَ نفسَه على الاسترخاء، واعتِماد المنطِق. ‘‘أُمَّاه، أعلَمُ أنَّكِ تُحاولينَ أن تُعزّيَني، ولكنْ لا عزاء. هل

تفهمين؟ لعلَّ الزَّمَنَ يُغيِّرُ الأمور. لستُ أدري. ولكنْ لن يؤتِيَني أيُّ إلهٍ خيرًا’’. ثُمَّ هزَّ لها رأسَه، وقد هَيمَنَ الغضبُ على صَوته مُجدَّدًا. ‘‘منذُ كنتُ وَلَدًا صغيرًا، أتذكَّرُ كيف كنتِ تَضَعين قرابينَكِ قُدَّامَ آلِهتكِ البيتيَّة في **اللَّاراريوم**. فهل أنقذَ ذلكَ أولادَكِ الآخرينَ من الحُمَّى؟ وهل أبقى الوالِدَ حيًّا؟ وهل سَمِعتِ مرَّةً صَوتًا في الرِّيح؟’’ ثُمَّ تَلاشى غَضَبُه، مُخلِّفًا شُعورًا بالفراغ الرَّهيب فحسْب. ‘‘لا وُجودَ للآلِهَة’’.

‘‘إذًا، كلُّ ما قالَته هَدسَّة كان كذِبًا’’.

فأجفَل. ‘‘كلَّا! لقد آمنَتْ بكُلِّ كَلِمةٍ قالَتْها’’.

‘‘هل صدَّقَتْ أُكذوبةً، يا مَرقُس؟ وهل ماتَت لأجلِ لاشيء؟’’ ورأتْ يدَه تتكوَّرُ قبضةً إلى جنبِه، وعلِمَت أنَّ أسئلتَها آلـمَته. ولكنَّ الألَمَ الآن أفضلُ من الموت إلى الأبد.

ثُمَّ نهضَتْ وذهبَتْ إليه ثانيةً، واضعةً يدَها برِفقٍ على خدِّه. ‘‘ مَرقُس، إذا كنتَ تؤمِنُ حقًّا بأنَّ إلَهَ هَدسَّة خَذَلَها، فاسألْه لماذا يفعلُ أمرًا كهذا

بشخصٍ مثلها".

"وماذا يهمُّ ذلكَ الآن؟"

"إنَّه يهمُّ. إنَّه يهمُّ أكثَر مِمَّا تعلَم. فبأيِّ طريقةٍ أُخرى يُمكِنُك أن تنعمَ بالسَّلام حِيالَ ما جرى؟"

اِعترى وجهَه الشُّحوبُ والفُتور. "السلامُ وَهْم. ليس من سلامٍ حقيقيّ. فإذا مَضَيتُ يومًا أبحثُ عن إلهِ هَدسَّة، يا أُمَّاه، فلن يكونَ ذلك لكي أحمَدَه كما كانت هي تفعل، بل لِكَي أُجدِّفَ عليه في وجهه".

لم تَزِد فيبي كلمةً واحدة، ولكنَّ قلبَها صَرَخَ في كَرْب. **أيُّها الربُّ الإله، اغفرْ له. إنَّه لا يدري ما يقول.**

لقد تحوَّلَ مَرقُس مُبتعِدًا عنِ العزاء، مُعتقِدًا أنَّ كلَّ ما بقيَ له كان الصَّدى العذب لصَوت هَدسَّة في الظلام الذي قد أطبقَ حَوالَيه.

١. نلفتُ عناية قرَّائنا الكرام إلى وجودِ مسردٍ للمصطلحات ابتداءً من صفحة ٤٩٣ أدُرجَ فيه عددٌ من المصطلحات التي شاعت في تلك الحقبة التاريخيَّة (الناشر).

٣

أشارَتْ جوليا ڤاليريان بِيَدها إلى مِعزاةٍ بُنِّيَّة صغيرة في المربَط خارجَ الهيكل تمامًا: ‘‘تِلكَ المعزاة هُناك. البُنِّيَّة الداكنة. أهي مُمتازة؟’’

قال التاجر: ‘‘جميعُ عَنزاتي مُمتازة’’، شاقًّا طريقَه وَسطَ القطيع المحشور داخِلَ الحظيرة، ومُمسِكًا بتلك التي طلبَتها جوليا. ثُمَّ عَقَدَ أُنشوطةَ حَبلٍ حولَ رقَبَتِها، وقال: ‘‘هذه الحيوانات بِلا عَيب’’، حامِلًا الحيوانَ المكافحَ وعائدًا إليها، فيما حدَّد السِّعر.

ضاقَتْ عَينا جُوليا غيظًا. وأجالَت نظرَها من البهيمة المهزولة إلى التاجر الجَشع. ‘‘لن أدفعَ لك هذا الثَّمنَ الغالي لِقاء مِعزاةٍ صغيرة جدًّا!’’

جَرَت حَملَقتُه الثاقبةُ على پالُسِها الصُّوفيِّ الناعم، واستقرَّت على اللآلئ في شعرها، وقِلادةِ العقيق الأحمر حولَ عُنقِها. ‘‘يبدو أنَّكِ قادِرةٌ على شرائها، ولكنْ إن كُنتِ تطلُبين

صَفقةَ، فَليَنقلِبِ الأمرُ على رأسِك''. ثُمَّ وضعَ المعزاةَ أرضًا، ووقفَ مُستقيمًا. ''لن أُبَدِّدَ وقتي في المساوَمة، يا امرأة. أترَين هذه العلامة على الأُذن؟ هذا الحيوان كرَّسَه للتَّضحية واحِدٌ من عرَّافي الهيكل (**هاروسپَكس**). والعرَّافون يوفِّرون هذا المعروف لأجل مصلحتِك. فالمال الذي تدفعينَه لِقاءَ هذا الحيوان يذهبُ إلى العرَّاف وإلى الهيكل. هل تفهمين؟ فإذا أردْتِ أن تشتري عَنزةً أرخصَ من أيِّ مكانٍ آخر وتُحاوِلي الإتيان بها أمامَ الآلِهة ومُمثِّليهم المعيَّنين، فافعَلي هذا الأمر مُتحمِّلةً عواقِبَ المخاطَرة''. وقد عذَّبَتها عيناه القاتِمتان.

ارتجفَت جوليا حِيالَ كَلِماته. لقد كانت عالِمةً تمامًا أنَّها تتعرَّض للغِشّ، ولكنْ لم يكُن بيَدِها خِيار. فالرجُل البغيض كان على حقّ؛ إذ إنَّ الغبيَّ وحدَه يُحاوِلُ أن يخدعَ الآلِهة، أو العرَّافين الذينَ قد اختارَتْهم الآلهة لقراءة العلامات المقدَّسة المخبوءة في الأعضاء الحيويَّة التي لِلحيوان المقرَّب بصفته تضحيةً. ونظرَتْ جوليا إلى المعزاة الصغيرة بنُفور. فهي جاءت لكي تتبيَّن ما يُوجِعُها، وإذا كان معنى ذلك أنَّ عليها أن تشتريَ حيوانَ

تضحيةٍ بسعرٍ باهظ فلا بُدَّ آن تفعَلَ ذلك. ومن ثَمَّ قالَت: ‘‘أعتذرُ! سأشتريها’’.

نزعَت سوارَها، وفتَحتِ العُلَيبة المركَّبة فيه. وعدَّتْ ثلاثة سَسترساتِ في يد التاجر، مُحاولةً أن تتجاهَلَ اعتِدادَه بنَفسِه. فمسحَ قِطَعَ النَّقد بينَ إصبعَيه، ودسَّها في الصُّرَّة المعلَّقة على خَصرِه. وقال، مُسلِّمًا إيَّاها الحَبْلَ: ‘‘إنَّها لكِ، وعسى أن تجلبَ لك تَحَسُّنَ الصحَّة’’.

أمرَت جوليا يوديماس بحَزم: ‘‘خُذيها!’’ وانتحَتْ جانِبًا حتَّى تتمكَّن عَبدَتُها من جرِّ الحيوان المكافح بعيدًا عن المَربَط المُزدَحِم. وأخذَ التاجر يُراقِبُ ويضحك.

ولـمَّا دخلَت جوليا الهيكل مع يوديماس والمعزاة، شعرَت بدُوار. فإنَّ رائحةَ البَخورِ الثقيلةَ المتخِمة أخفقَتْ في أن تَطغى على رائحةِ الدَّمِ والموت. وقد انقلبَت مَعِدَتُها. واحتلَّتْ مكانَها في الصفِّ وراءَ آخَرينَ ينتظرون. وإذ أغمضَتْ عينَيها، ابتلعَت غَثَيانَها. وتقطَّرَ العَرَقُ البارِدُ على جبينها. فهي لم تستَطع أن تكفَّ عن التفكير في الليلة

السابقة وخلافها مع پريمُس. قال پريمُس: ‘‘لقد صرتِ مُمِلَّةً جدًّا يا جوليا. أنتِ تفرضينَ كآبتَكِ على كُلِّ وليمة تحضُرينَها’’.

‘‘كم هو لطيفٌ منكَ، يا زوجي **العزيز**، أن تُفكِّر في صِحَّتي وسعادَتي’’. ونظرَتْ إلى كالاباه التِماسًا للعطف، إلَّا أنَّها رأتها تُومئ لِيُوديماس كي تُقرِّبَ صينيَّة أكبادِ الوزِّ أكثر. وإذِ انتقت كَبِدًا، ابتسَمت بطريقةٍ جعلَتِ الفتاةَ العَبدة تتورَّدُ ثُمَّ تُشحَب. فلوَّحتْ بِيَدها للفتاة كي تبتعِد، وراقبَتها تحملُ الصينيَّة إلى پريمُس. ولم تكُن كالاباه قد لاحظَت حتَّى الآن أنَّ جوليا كانت تُراقِبُها. حتَّى إذا لاحظَتْ ذلك، اكتفَتْ بأنْ قوَّسَتْ حاجبًا، وعيناها الباردتان القاتِمتان خاوِيتان ولامُبالِيَتان. ‘‘ما الأمر، عزيزتي؟’’

‘‘ألا يهمُّكِ كَوني مريضة؟’’

فقالَت كالاباه، وفي صَوتها الهادئ أثَرٌ من نفادِ الصبر: ‘‘دون شكٍّ يُهمُّني. إنَّما أنتِ مَن تبدو غيرَ مُهتمَّة. جوليا، حبيبتي، لقد تكلَّمنا بهذا مرَّاتٍ كثيرةً جدًّا حتَّى صارَ مُضجِرًا. إنَّ الحلَّ بسيطٌ جدًّا،

لكنَّكِ ترفَضين قبولَه. ثبِّتي ذِهنَك على أن تَصيري سليمةً مُعافاة. ولْتَشفِكِ إرادتُكِ. فمَهما ثبَّتِّ ذِهنَكِ عليه، تستطيعين- بإرادتِكِ الشخصيَّة- أن تجعَليه يحدُث''.

''ألا تعتَقدين أنِّي جرَّبتُ، يا كالاباه؟''

''ليس باجتِهادٍ كافٍ، يا عزيزتي، وإلَّا لكُنتِ أحسنَ صحَّةً. يجب أن تُركِّزي أفكارَكِ على نفسِكِ كلَّ صباح، وتتأمَّلي كما علَّمتُك. فرِّغي ذِهنَكِ من كلِّ شيءٍ ما عدا الإدراكَ أنَّكِ أنتِ إلاهةُ ذاتِك، وما جسدُكِ سوى الهيكلِ الذي فيه تُقيمين. إنَّ لكِ سُلطانًا على هيكلكِ. ستكونُ مشيئتُكِ، يا جوليا. إنَّما المشكلةُ أنَّكِ تفتَقرين إلى الإيمان. فعليكِ أن تؤمِني. وحينما تؤمنين، فسوف تَستَحضِرين ما أردتِ''.

أشاحَت جوليا بناظرَيها عن عينَي المرأة القاتِمتَين. فصباحًا بعدَ صباح، كانت قد فعلَتْ تمامًا كما قالت كالاباه. وأحيانًا كانت الحُمَّى تأخذُها في وَسط تأمُّلاتها، فترتجفُ من الضَّعف والغَثيان. وإذ طغى عليها شُعورٌ بانعِدام الأمَل،

تكلّمَتْ بهدوء. ‘‘بعضُ الأمور تتخطّى إرادةَ أيِّ إنسان وتتعذَّرُ السيطرةُ عليها’’.

حدَّقت كالاباه إليها بازدِراء. ‘‘إذا لم يكُن لَدَيكِ إيمانٌ بنفسِك وقُدراتِك الداخليَّة الخاصَّة، فربَّما ينبغي لكِ أن تفعلي كما يرتَئي پريمُس. اذهَبي إلى الهيكل، وقدِّمي أُضحيَّة. أمَّا أنا، فلا إيمانَ لَدَيَّ بالآلِهة. وكلُّ ما أنجزتُه تمَّ بمجهوداتي وذكائي شخصيًّا، لا من خلال الاتِّكال على أيَّة قوَّةٍ غير منظورة خارقةٍ للطبيعة. ولكنْ إذا كُنتِ تؤمنين حقًّا بأنْ لا قُدرةَ ذاتيَّةً لَدَيكِ، يا جوليا، فأيُّ سبيلٍ مَنطِقيٍّ آخرَ أمامَكِ سوى أن تستَمدِّي ما تحتاجين إليه من مكانٍ آخر؟’’

بعدَ أشهُرٍ من العلاقة الحميمة، صُعِقَت جوليا حِيالَ ازدراء كالاباه ولامُبالاتها الفظَّة بمُعاناتها. وراقبَتْ كالاباه تأكُلُ كَبِدًا أُخرى، ثُمَّ تطلبُ من يوديماس أن تأتيَها بالماء المعطَّر لتغسلَ يدَيها. ففعلَتِ الفتاةُ كما أُمِرَت، مُحدِّقةً إلى كالاباه بافتِتانٍ نَشوانَ، ومُتَورِّدةً لـمَّا ربَّتت تلك الأصابعُ الطويلةُ المزدانة بالحُليِّ ذِراعَها قبلَ صَرفِها. ورأت جوليا التَّخمينَ القاتِمَ في عينَي كالاباه إذ راقبَتِ

الخادِمةَ تنصرف. وارتسمَتِ ابتسامةٌ فاتِرةٌ ضاريةٌ على شفتَيِ المرأةِ الأكبرِ سنًّا.

شعرَت جوليا بالغَثَيان. لقد علِمَت أنَّها كانت تُخانُ أمام عينَيها تمامًا، وعلِمَت يقينًا على السَّواء أنَّه لم يكُن في وُسعها أن تفعلَ أيَّ شيءٍ بشأنِ ذلك، سِوى أن يغليَ دَمُها في عروقها. وقد لاحظَ پريمُس أيضًا، وجنى تسليةً فظَّةً من جَعلِ جوليا تعلَمُ ذلك.

ثُمَّ قال پريمُس في قلب السُّكونِ الخانق: ''البرُوقُنصُل يذهبُ دائمًا إلى عرَّافي الهيكل كي يلتمسَ مشيئةَ الآلهة. إنَّهم سيَعرفون إذا كان قد حصل تَفَشٍّ للمَرَض. فعلى الأقلِّ ستَعرِفين إذا كان ما يُمرِضُك شيئًا مُقدَّرًا من قبَلِ الآلهة''.

فقالت غاضِبةً: ''وكيف سيُساعِدُني أن أعرفَ ذلك؟'' وقد كان واضحًا بكُلِّ جلاء أنَّه لا كالاباه ولا پريمُس اهتمَّا حقًّا بما يحصل لها.

وتنهَّدت كالاباه تنهُّدةً ثقيلة، ثُمَّ قامت. ''إنَّ هذا الحديث يُضجِرُني''.

فقالت جوليا مَرعوبةً: ‘‘إلى آينَ آنتِ ذاهبة؟’’

أطلقت كالاباه تنهُّدةً أُخرى، ورمقَتها بِنظرةِ احتِمالٍ للأذى. ‘‘إلى الحمَّامات. قلتُ لِسَفِّيرة إنّي سأقابِلُها هذا المساء’’.

ازدادَت جوليا ضِيقًا بَعدُ عندَ ذِكرِ تِلكَ الشابَّة. فقد كانت سفِّيرة فَتِيَّةً وجميلة، وتحدَّرَتْ من عائلةٍ رومانيَّةٍ مشهورة. وبُعَيدَ لقائهما الأوَّل، قالت كالاباه إنَّها وجدَتْها ‘‘واعِدة’’.

‘‘لستُ أشعر بمَيلٍ لأنْ أذهبَ إلى أيِّ مكان، يا كالاباه’’.

فتقوَّسَ حاجبُ كالاباه ثانيةً: ‘‘لم أطلُب مِنكِ الذَّهاب’’.

وحدَّقَت جوليا إلَيها. ‘‘لماذا لا تأخذين مشاعِري في الحسبان؟’’

‘‘لقد **أخذتُ** مشاعِرَكِ بالحسبان. كنتُ أعلَمُ أنَّك ستقولين «لا»، ولم أرَ سببًا لإشراكِك. فأنتِ لم تُحِبِّي سفِّيرة قَطُّ، أليس كذلك؟’’

فقالت جوليا بلهجةِ اتِّهام: ‘‘ولكنَّكِ آنتِ تُحِبِّينها’’.

أجابت كالاباه بابتِسامةٍ فاترِة- وجوابُها أشبهُ بطعنةِ سِكِّين- ‘‘نعم! إنِّي أُحِبُّ سفِّيرة كثيرًا جدًّا. يجب أن تفهَمي، عزيزتي. فهي غَضَّةٌ وبريئة وملآنةٌ بعالَمٍ من الإمكانات’’.

فقالت جوليا بمرارة: ‘‘مِثلَما قُلتِ عنِّي ذاتَ مرَّة’’.

وباتَت ابتِسامة كالاباه ساخِرة: ‘‘لقد عَرَفتِ ما كُنتِ تتقبَّلين، يا جوليا. **فأنا** لم أتغيَّر’’.

فتأجَّجَت عَينا جوليا بدُموع الغضب. ‘‘إذا تغيَّرتُ أنا، فلأنِّي أردتُ أن أُرضيَكِ’’.

وضحِكَت كالاباه برِقَّة. ‘‘آه، جوليا، عزيزتي. ليس في الحياة إلَّا قاعدةٌ واحدة فقط: أرضِي نفسَكِ’’. وجَرَت حَملَقةُ كالاباه الفاترة على وجه جوليا ثُمَّ نُزولًا إلى جسمِها النَّحيل. ‘‘إنَّكِ تَعنينَ لي الآن بمِقدار ما عَنَيتِ كلَّ حين’’.

وجدَت جوليا قليلًا من العَزاء في هذه الكلمات.

وأمالَتْ كالاباه رأسَها قليلًا، وتفحَّصَتْها بعَينَين قاتِمتَين لا تَطرفان، مُتَحدِّيةً إيَّاها أن تتجاوَب. فبقِيَت جوليا صامتةً، عالِمةً أنَّ التحدِّيَ لا بُدَّ أن يمضيَ بِلا جواب. وقد شعرَت أحيانًا بأنَّ كالاباه كانت فقط تنتظرُ منها أن تفعلَ أو تقولَ شيئًا ما مِن شأنه أن يُوفِّرَ لها العُذرَ كي تهجُرَها نهائيًّا.

قالت كالاباه بِلامُبالاةٍ لَعينة: ‘‘يبدو عليكِ الشُّحوبُ فعلًا، عزيزتي. استَريحي هذا المساء. لَرُبَّما يتحسَّنُ شعورُكِ بشأنِ كلِّ شيءٍ غدًا’’. ومشَت برشاقةٍ إلى خارج الغُرفَة، مُتوقِّفةً قليلًا لتُلامِسَ خدَّ يوديماس برؤوسِ أصابعِها وتهمسَ بشيءٍ ما في أُذُنِ تلك الخادِمة فقط.

ولِعَجزِ جوليا عن منعها من الذهاب، أطبقَت أصابعَ يَدَيها بإحكام. وكانت قدِ اعتقدَتْ أنَّ في وُسعِها الوثوق بكالاباه من صميم قلبها. أمَّا الآن، فقد ملأها الغَضَبُ الشديد.

كانت طَوالَ حياتها قد عانَتِ العَذابَ على أيدي الرِّجال. فأوَّلًا، شكَّلَ أبوها حياتَها وسَيطرَ عليها، مُملِيًا عليها كُلَّ حَرَكاتها، حتَّى زوَّجها

كلاوديوس، ذلك المفكِّر الرومانيّ الذي كان يملك أرضًا في كاپوَا. وقد أضجرَها كلاوديوس حتَّى الخَبَل ببحوثه العقليَّة في ديانات الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وكانَت شاكرةً لأنَّ مَوتًا غير متوَقَّع خلَّصَها من عِيشةِ نَكَدٍ شاقَّة معه.

ثُمَّ هامَت بحُبِّ زوجِها الثاني، كايُس، مُتيقِّنةً أنَّ ذلك كان الزواجَ الذي سيأتيها بكُلِّ ما كانت تَرجوه: المتعة والحُرِّيَّة والحُبّ. إلَّا أنَّها ما لَبِثَت أنْ وجدَتْه أسوأ بأشواطٍ بعيدةٍ ممَّا كان مُمكِنًا أن يكونَه كلاوديوس على الإطلاق. فقد فتحَ كايُس صناديقَ ملكيَّتها، وأنفقَ آلاف السَّسترسات على السباقات والنساء الأُخريات، ساكِبًا عليها هِيَ جامَ حظِّه السيِّئ وطِباعِهِ النَّكِدة. واحتملَت جوليا العَسفَ والظلمَ أطولَ مُدَّةٍ استَطاعَتْها. وأخيرًا، بتَوجيهٍ من كالاباه، تيقَّنت بأنَّ كايُس لن يؤذيَها بَعد. وتذكَّرت بقُشَعريرةٍ مَوتَه البطيء، من جرَّاء السُّمِّ الذي أخذَت تدسُّه في طعامه وشرابه.

ثُمَّ كان هنالك أتريتس... حُبُّها الكبير المفعَم بالشَّغَف! وهي قد أعطَتْه قلبَها، جاعلةً نفسَها

مُنكشِفةً كلِّيًّا، طالبةً فقط ألّا يطلبَ منها التخلِّيَ عن حرِّيَّتها. غير أنَّه هجرَها لأنَّها رفضت طَلَبَه يدَها للزَّواج وتزوَّجت پريمُس لتضمن استقلالَها الماليّ. وقد رفضَ أتريتِس أن يفهمَ لماذا كان ضروريًّا أن تفعلَ ذلك. فإذا بألم لقائهما الأخير الغاضبِ يطعنُها طعنًا هائلًا، فهزَّت رأسَها هِزَّةَ غَضَب. لم يكُن أتريتِس إلَّا عبدًا أُسِرَ في الثورة الجرمانيَّة، **مُحارِبًا** مُصارِعًا. فمَن كان حتَّى يُمليَ عليها ما تفعل؟ أكان يعتَقدُ أنَّها ستتزوَّج به وتتنازلُ عن كُلِّ حقوقها لهَمَجيٍّ غير مُثقَّف؟ لقد كان الزَّواج بپريمُس بمُوجب **يُوسُس** هو السَّبيلَ الأذكى المتَيسّرَ لها- إذْ أعطاها حُرِّيَّةَ كونها امرأةً مُتزوِّجة دونَ أيِّ خَطَر إذ لن يكونَ لپريمُس أيُّ حقٍّ في شؤونها الماليَّة أو ملكيَّتِها- غير أنَّ أتريتِس كان بعيدًا جدًّا عن التمدُّن بِحَيثُ تعذَّرَ عليه أن يفهم.

حتَّى مَرقُس، أخوها العزيزُ المحبوب، خذَلَها في النِّهاية، لاعِنًا إيَّاها في الألعاب لأنَّها أنقذَته من أن يجعل نفسَه مُغفَّلًا من أجل فتاةٍ عَبدة. وقد كان ألَمُ ارتِدادِه عنها الضَّربةَ الأشدَّ هَولًا. وما زالَت كَلِماتُه، المفعَمةُ بالاشمِئزازِ والغضب، ترنُّ

في أذُنَيها. وكان في وُسعِها بَعدُ أن ترى السُّخْطَ المتحَجِّرَ على وجهه إذ تحوَّلَ عنها والتفَتَ إلى كالاباه.

"هل تُريدينها، يا كالاباه؟"

"لَطالما أردتُها كُلَّ حين".

"لكِ أن تأخُذيها".

ومنذُئذٍ رفضَ أن يُكلِّمَها أو يراها.

إنَّ الأبَ والأزواجَ والأخَ قد خَذَلوها. ومن ثَمَّ وضعَتْ نفسَها في عُهدَةِ كالاباه، واثِقةً بها ثِقةً مُطلَقة. وبَعد، أفلَم تكُن كالاباه هي التي أقسمَت لها إنَّها ستُحبُّها حُبًّا لا يموت؟ أوَلَم تكُن هي مَن دَلَّتها وفتحَت عينَيها في الأخير على نقاط ضَعف الرِّجال وخِياناتهم؟ ألَم تكُن كالاباه هي مَن ربَّتها ودلَّلَتها وأرشدَتْها؟

أمَّا الآن، فقد تبيَّن لجوليا أنَّ كالاباه لم تكُن لِيُوثَقَ بها أكثَر من الآخرين، وكانت خِيانتُها أعمقَ وأشدَّ إذهالًا.

ثَمَّ جُذِبَت جوليا بعيدًا عن أفكارها لـمَّا سكبَ بريمُس مزيدًا من الخمر في كأسه ورفعَها لها، وقالَ- مُذكِّرًا إيَّاها بمأبونهِ **(كتامَيت)** الذي فرَّ منه- ‘‘لعلَّكِ الآن تفهمين فَهمًا أفضل كيف شعرتُ لـمَّا اتَّجهَتْ عواطِفُ پروميثيوس إلى شخصٍ آخر. أمَا تذكُرين؟ لقد ابتهجَ أقصى الابتهاجَ بكُلِّ كَلِمةٍ قالَتْها هَدسَّة، وهي أخيرًا سرقَت قلبَه منِّي’’.

فالتمعَت عَينا جوليا، وقالَت مُتظاهِرةً باللَّامُبالاة- مع أنَّ لهجتَها كانت هَشَّة- ‘‘كالاباه حُرَّة في أن تفعلَ ما تشاء، شأنُها شأني تمامًا’’. وأرادَتْ أن تؤذِيَه لتَذكيرِها بهَدسَّة. فإنَّ مُجرَّد اسمِ العَبدة، أشبهَ بلَعنة، كان يُثير دائمًا في جوليا وَحشةً وخَوفًا لا يُسبَرُ غَورُهما.‘‘أضِف، يا بريمُس، أنَّ عواطِفَ كالاباه لا يُمكِن أن تُقارَن بعواطِف پروميثيوس. فهو لم يأتِ إلَيك من تلقاء ذاته، أليس كذلك؟ لقد كان عليك أن تَشتَريَه من أحَد تلك الأكشاك القَذِرة تحتَ مُدَرَّج ساحة المحاربين’’. وإذ رأتْ أنَّ كَلِماتِها أصابَتْ مَرماها، ابتسمَت وهزَّت كتِفَيها بلامُبالاة. ‘‘ليس لَدَيَّ ما يُقلِقُني. إنَّ سفِّيرة هي أكثرُ بقليلٍ من مُجَرَّد

تسليةٍ عابِرة. فكالاباه ستملُّ منها عاجلًا جدًّا’’.

‘‘كما مَلَّت منكِ فعلًا’’.

فرفعَتْ جوليا رأسَها بحِدَّة، ورأتْ عَينَيه تَلمَعان بانتِصارٍ خبيث. فاستَشاطَتْ غضبًا، ولكنَّها كظمَتْ غَيظَها، وتكلَّمَت بهدوء. ‘‘إنَّك تتجاسَر إلى حدٍّ بعيد، نظرًا إلى وضعِك غير الثابت في **بيتي**’’.

‘‘بمَ تتكلَّمين؟’’

‘‘أبي مات. وأخي تنازَلَ عن كُلِّ حقٍّ في السيطَرة عليَّ وعلى أملاكي. فليسَتْ لي **حاجةٌ** بَعدُ إليك بصفة زَوج، أليس كذلك؟ إنَّ ما هو لي فهو لي معك...’’. وابتسمَت ببرودة، وتابعَت: ‘‘أو من دونِك’’.

خفقَت عيناه إذ فَهِمَ تهديدَها، وتغيَّر تصرُّفُه بالسُّرعة التي بها تُغيِّر الحِرباءُ لونَها. ‘‘أنتِ تُسيئين فهمي دائمًا، يا جوليا. إنَّ لِمَشاعِركِ المكانةَ الأُولى في كُلِّ فِكرٍ لَدَيَّ. فما قصدتُ إلَّا

أنَّه إذا استَطاعَ أحَدٌ أن يفهمَ ما تجتازين فيه، فذلك هو أنا. إنِّي أُشدِّدُ على هذا، عزيزتي. أمَا عانيتُ أنا نفسي؟ مَن كان الذي عزَّاكِ بعدما هَجَرَكِ أتريتِس؟ أنا فعلتُ ذلك. مَن نبَّهَكِ إلى أنَّ عَبدتَكِ كانت تسترِقُ عواطِفَ أخيكِ وتُسَمِّمُ عقلَه ضدَّكِ، مِثلَما فعلَت مع پروميثيوس؟”

أشاحت جوليا وجهَها، غيرَ راغِبَةٍ أن تُفكِّرَ في الماضي، كارِهةً پريمُس لتَذكيره إيَّاها به.

وقال پريمُس: “أمرُكِ يَعنيني. فأنا الصديقُ الحقيقيُّ الوحيدُ الذي لكِ”.

صديق؟ فكَّرتْ بمرارة. إنَّ السببَ الوحيدَ الذي من أجله بقيَ پريمُس معها هو أنَّها كانت تدفَعُ نَفَقاتِ الدَّارةِ والثيابِ والجواهر التي يرتَديها، والطَّعامِ الفاخرِ الغنيِّ الذي يحبُّه، ومَسَرَّاتِ الجَسَدِ التي أقبلَ عليها. فلم يكُن لَدَيه مالٌ خاصٌّ به. وما كان يُحصِّلُه من مالٍ قليل جاءَه من أنصارٍ يخشَون أن يُوجِّهَ عَليهم فِطنتَه الفظَّةَ ويفضحَ أسرارَهم. ولكنَّ وسيلةَ الدَّعمِ تلك أثبتَتْ مؤخَّرًا أنَّها أخطَرُ فأخطَر، وقد تضاعَفَ أعداؤه. فهو

الآن يعتمدُ كثيرًا على دَعمِها الماليِّ له. وكانَت الحاجَة المشترَكة لَدَى أحَدِهما إلى الآخر هي ما جعلَ هذا الزواجَ مُناسِبًا في البداية. فهوَ احتاجَ إلى مالها؛ وهي احتاجَتْ لأنْ تعيشَ معه في سبيل احتِفاظِها بالسَّيطرة على مالها.

أو هكذا كانت الحال قديمًا.

أمَّا الآن، فلَم يعُد أحدٌ يهتمُّ بما تفعلُه بمالها، أو بحياتها.

أقبل پريمُس إليها فأمسَكَ بِيَدِها، ويدُه بارِدة. ‘‘يجب أن تُصدِّقيني، يا جوليا’’.

نظرَت في عينَيه، ولمحَتْ خَوفَه. لقد علمَتْ أنَّه تظاهَرَ بالاهتمام لكي يحمِيَ نفسَه فحسْب، ولكنَّها كانت في حاجةٍ ماسَّةٍ جدًّا إلى شخصٍ يهتمُّ بها. فقالت: ‘‘أنا أُصدِّقُك، يا پريمُس’’. إذْ كانت تحتاجُ إلى شخصٍ يهتمُّ.

‘‘إذًا، اذهَبي إلى عرَّافِ الهيكل **(هاروسپَكس)** وتبيَّني ماذا يُسبِّب لكِ هذه الحُمَّى ونَوبات

الوَهَن’’.

وهكذا وجدَتْ جوليا نفسَها في هذا المزار المظلِمِ المضاء بالمشاعِل، تشهدُ طقسًا مُرَوِّعًا. وبعدَما درسَ العرَّاف النُّصوص والألواح، حزَّ نَحْرَ المعزاة الصغيرة المضطرِبة. وإذ أشاحَت جوليا وجهَها فيما أصدَرتْ المعزاة صوتَ ثغاء مُرتاعًا حتَّى صَمَت، ترنَّحَت وكافَحت كيلا يُغمى عليها. وبشَرطةِ خبيرٍ أُخرى، شقَّ العرَّافُ جَوفَ الحيوان وفتحَه ونزعَ الكَبِد. ثُمَّ أزالَ الخُدَّامُ جَسَدَ الذبيحة، فيما وَضَعَ الكاهِنُ العُضوَ الداميَ بِوَقارٍ على صينيَّة ذهبيَّة. وأخَذَ يتلمَّسُه بأصابعه الثَّخينة، دارسًا إيَّاه، واثِقًا بأنَّه سيَجدُ على سطحه الأسوَدِ الأملسِ الأجوِبَةً عن أيِّ مَرَضٍ قد أصابَ جوليا.

أدلى الكاهِنُ برأيه، وصرفَها بفَهمٍ قليلٍ لِما أمرضَها. فإنَّ جُمَلَه الغامضة لـمَّحتْ إلى عَددٍ وافِرٍ من الإمكانات، وهو لم يعرضْ سوى اقتِراحاتٍ قليلة. وعلى الرُّغم من كلِّ النَّفع الذي أدَّته زِيارتُها، كان مُمكِنًا أيضًا أن يقولَ: ‘‘لقد رفضَتِ الآلِهةُ أن تتكلَّم’’، ثُمَّ يصرفَها. وإذْ نظرَت

حَوالَيها، رأتْ آخرين، أكثرَ أهمِّيَّةً، ينتَظِرون: مسؤولين حُكوميِّين قَلِقِينَ بشأنِ تَفَشِّياتٍ مُحتمَلة للمَرَض، أو كوارِث آتية. وفهِمَتِ الواقع. ومَن يهتَمٌّ بمَصيرِ امرأةٍ شابَّةٍ خائفةٍ وتشعر بالوَحدة؟ إنَّ ما يَهُمٌّ كان قِطَع النُّقود الذهبيَّة التي دفعَتْها في المعزاة.

ثُمَّ قال كاهِنٌ مُبتدئ، وهي خارجةٌ: ‘‘لَعَلَّ قُرباناً نَذريًّا يُساعِدُكِ’’.

لأيِّ إله؟ تساءلَت يائسةً. كيف لها أن تعلَمَ أيُّ إلهٍ وسطَ **البانتيون** (مَجمَع الآلِهة) يُمكِنُ أن يتشفَّع لأجلها؟ وإلى مَن يُمكِنُ أن يتوسَّلَ ذلك الإله؟ وإذا كانت قد أثارَتِ استِياءَ إلهٍ واحِدٍ من بينهم، فكيف يُمكِنُها أن تعرِفَ أيَّ إلهٍ تستَرضي بِقُربانٍ أو تقدِمة؟ وأيُّ قُربانٍ يُمكِنُ أن يكفي؟

أصاب صُداعٌ رأسَها من الاحتِمالات التي لا تنتهي.

وقالَت يوديماس: ‘‘سيكون كلُّ شيءٍ بخير، سيِّدتي’’. فوتَّرَت تَعزِيتُها هذه أعصاب جوليا

المشدودةَ أصلًا. وقد كانت جوليا تعلَمُ تمامًا أنّ عطفَ يوديماس يفتقِرُ إلى الإخلاص. فإنَّ هذه العَبدةَ تَظاهَرَتْ بالاهتمام لأنَّ بقاءَها يتوقَّفُ على رِضى سيِّدتِها. وكان ينبغي لجوليا أن تشكُرَ بروميثيوس من أجل الطريقة التي يُعاملُها بها العبيد؛ فقبلَ أن يفرَّ، كان قد أخبرَ كُلَّ عَبدٍ وعبدة أنَّها أرسلَتْ هَدسَّة إلى ساحة المحاربين.

آلـمَتِ الدُّموعُ كثيرًا عَينَي جوليا إذ أشاحَتْ بناظِرَيها عن الفتاة. كان ينبغي لها أن تَبيعَ جميعَ عبيدِ بيتِها وتشتريَ آخَرينَ جُدُدًا جيءَ بهم بحرًا من أرجاء الإمبراطوريَّة البعيدة. غير أنَّها تصرَّفتْ بغَباوة إذِ اختارَت أن تبيعَ قِلَّةً منهم فقط، دون أن تُفكِّر إطلاقًا أنَّ المنضَمِّين حديثًا إلى البيت سيَسمعون عاجِلًا بما حدثَ للعبيد الذين كانوا قبلَهم. وفي غضونِ أيَّامٍ قليلة بعدَ وُصولهم، أحسَّت جوليا خوفَهم كقُوَّةٍ مَلموسة تُحيطُ بها. فلم يجرؤ أحَدٌ منهم قَطُّ أن ينظُرَ إليها في عينَيها، بل كانوا يَنحَنون ويُرجِعونَ إحدى القَدَمَين إلى الوراء احتِرامًا ويُطيعون كلَّ أمرٍ تُصدِرُه إليهم، وباتت تكرَهُهم.

أحيانًا، رُغمَ إرادتِها، كانت تتذكّر ما يَعنيه أن تُخدَم بدافعٍ من المحبَّة. وكانت تتذكَّر إحساسَ الأمان الذي سبقَ أن شعرَتْ به في الوثوق كلِّيًّا بكائنٍ بَشَريّ آخَر، عالمةً أنَّ ذلك الشَّخصَ كان مُخلِصًا لها حتَّى عندَ مواجَهَته الموتَ. ففي مثل تلك الأوقات، كانت وَحشَتُها تبلغُ أشُدَّها، ويأسُها يُوهِنُها أقصى وَهَن.

لقد قالت كالاباه إنَّ شعورَ العَبدةِ بالخوف هو شعورٌ سليمٌ تُجاهَ سيِّدتها. ‘‘مَن كان حكيمًا في طُرُقِ العالَم ينبغي أن يتعلَّم بَثَّ الخَوفِ وتعزيزَه. فلا شيءَ سِواهُ يُعطيكِ مزيدًا من السُّلطة والتَّفوُّق على الآخرين. وعندما تحوزين السُّلطة، عندئذٍ فقط تكونين حُرَّةً حقًّا’’.

علِمَت جوليا أنَّها تملك سُلطةَ الحياة والموت على الآخرين، ولكنَّ ذلك لم يعُدْ يُعطيها أفضليَّةً أو أمانًا. ألَم تكرَهْ أباها لـمَّا كان يُسَيطِرُ على حياتها؟ أوَلَم تكرهْ كلاوديوس، ثُمَّ كايُس، للسَّببِ نفسِه؟ حتَّى إنَّها لـمَّا أُغرِمَتْ بِأتريتِس، باتت تخشى استِحواذَه عليها.

إنّ السُّلطةَ لم تكُنِ الحَلّ.

في غضون الأشهُر الستَّة المنصَرمة، كانت جوليا قد بدأت تتساءَلُ عن الحياة إن كان لها أيُّ معنًى على الإطلاق. لقد كانت تملكُ المالَ والمنصِب. ولم تكُن مسؤولةً تُجاه أحَد. وقد أرَتها كالاباه كلَّ متعةٍ توفِّرها الإمبراطوريَّة، وهيَ أقبلَت على كُلِّ لَذَّةٍ بإسرافٍ بالغ. ولكنْ ما زال شيءٌ ما في داخِلها يصرخُ مُتَشكِّيًا، وبقيَ الفراغُ السحيقُ غيرَ مُشبَع. لقد كانت جائعةً جدًّا، جائعةً إلى شيءٍ لم تستطع حتَّى تعريفَه.

وها هي الآن مريضة، ولا أحَدَ يهتَمّ. ولا أحَدَ أحبَّها كِفايةً بحيثُ يهتمّ.

لقد كانت وحيدة.

وقد زادَ هذا المرَضُ الرهيبُ المزمنُ الأُمورَ سوءًا، لأنَّه جعلَها سريعةَ العَطَب. فعندما تأخذُها نَوباتُ الحُمَّى، تُضطَرُّ إلى الاتِّكال على الآخرين: مثل كالاباه التي كان اشتِهاؤها للحياة يتحوَّل نحو غيرها، وپريمُس الذي لم يهتمَّ بها قطُّ بالدَّرجة

الأولى، ويوديماس وجميعِ الأخرَيات والآخرين الذين كانوا يخدمونها بدافعِ الَخوف.

خرجَت جوليا من الهَيكل، وقد تاقَتْ إلى دِفءِ ضَوءِ الشمس. وساعدَها على اعتِلاء كُرسيِّ المِحفَّة عبدٌ مكدونيٌّ حَسَنُ القَوام، اسمُه ينّيس، كان يُشبع نَزَواتِ پريمُس. وبعدَما أرسلَتْ يوديماس إلى السُّوق لشِراء زُجاجةٍ من الدواء المنَوِّم، أعطَتْ ينّيس إرشاداتٍ تُبيِّن كيف يَصِلُ إلى دارة والدتها. ثُمَّ رفعَها هو والثلاثةُ الآخرون وحملوها عبرَ الشوارع المزدَحِمة.

ولـمَّا كانت جوليا مُتعَبةً من الوقت الصعب في الهيكل، أغمضَت عينَيها. وقد أُصيبَت بالدُّوار من جرَّاء تمايُل الكُرسيِّ، وتصبَّب العَرَقُ من جبينها. وارتجفَت يداها. فأطبَقَتْ أصابع يدَيها بشدَّة في حِضْنها، مُجاهِدةً لإخمادِ مَرَضِها المتَفاقِم. وإذ نظرَتْ إلى الخارج مرَّةً، رأتْ أنَّهم كانوا يحمِلونَها في شارع كُريتِس. فهي لم تكُن بعيدةً عن دارةِ أُمِّها، وجعلَها الأمَلُ تعضُّ شَفَتَها. يقينًا أنَّ أُمَّها لن ترفُضَ أن تُقابِلَها.

لقد جاءت أمُّها لزيارتها في دارَتِها مرَّتَينِ فقط في الأشهُر الأخيرة، وفي المرَّة الأُولى كان الحديثُ مُتَوتِّرًا ومُتَكلِّفًا. فإنَّ نَوادِرَ پريمُس عن كِبار الرسميِّين والشخصيَّات المشهورة أزعجَت أُمَّها. وكانت جوليا قد اعتادَت أسلوبَه وفُكاهتَه الفجَّين، ولكنْ في حضور أُمِّها أحرجَتها كَلماتُه. كما باتَتْ أيضًا مُتنبِّهةً تمامًا إلى رِدَّات فِعلِ أُمِّها المكظومة حِيالَ سلوك كالاباه التَّملُّكيّ والعاطفيِّ على نحوٍ سافِر. وقد بدأتْ جولياَ تتساءلُ عن كَون كالأباه تتصرَّف هكذا مُتعمِّدةً، ورمقَتها بنِظرةِ تَوسُّل. وفوجِئت حِيالَ الغَضَبِ الحاقد المتأجِّج في تَينِكَ العينَين الداكِنتَين.

وفي الزيارة الثانية، لم تبذُلْ كالاباه أيَّ جَهدٍ كي تكون مُتحفِّظةً أو مُتأدِّبة. فإذ أُدخِلَت أُمُّ جوليا إلى **التريكلينيوم** (قاعةِ السُّفرة)، نهضَت كالاباه، وأمالَت ذقنَ جوليا إلى فَوق، وقبَّلَتها في فَمِها قُبلةً مُباشرةً مُفعَمة بالشَّغَف. ثُمَّ اعتدلَتْ وابتَسمَت لأُمِّ جوليا ابتِسامةَ تَهَكُّمٍ وازدِراء، وانكفأت دونَ اعتِذار. ولم يسبقْ قطُّ أنْ رأت جوليا أُمَّها مشحوبةً أو مُنَفَّرةً هكذا، كما وجدَتْ جوليا نفسَها مجروحةَ المشاعِر من تصرُّف كالاباه. وقد

سبَّب ذلك المشهَدُ أوَّل صَدعٍ في افتِتان جوليا بمُدرِّبتها.

وفي ما بَعد، في شقَّتهما بالطَّبقة العُليا، قالَت لكالاباه: ‘‘لقد تعمَّدتِ أن تَصدِميها! كم كُنتِ فظَّة!’’

‘‘ولِمَ أقلقُ بشأنِ مشاعِرِ امرأةٍ مُتمسِّكة بالتقاليد؟’’

‘‘إنَّها أُمِّي!’’

فقوَّست كالاباه حاجِبَها حِيالَ لهجةِ جوليا المتغَطرِسة، قائلةً: ‘‘لا يَهُمُّني مَن تكون’’.

حدَّقت جوليا في سَواد عينَي كالاباه البارِدِ الذي لا يُسبَر غورُه كهُوَّةٍ مُظلِمةٍ سحيقة بِلا قاع. ‘‘أتَهمُّكِ أصلًا ذاتي ومشاعِري بالنِّسبة إلى الأمر؟’’

‘‘أنتِ تطرحين أسئلةً تنمُّ عن غباوة، وتطلبين طلباتٍ لا مُسَوِّغَ لها. لن أتحمَّل حضورَها في سبيل إرضائك. في الواقع أنَّكِ تلقَين من قِبَلي

تدليلًا كافيًا’’.

‘‘تدليلًا؟ أهوَ تدليلٌ أن تُبدي مُجامَلةً مُبتذَلة لقريبَتي الوحيدة التي تُكلِّمُني؟’’

‘‘مَن أنتِ حتَّى تُسائِليني؟ لم تكوني إلَّا طِفلةً ساذِجةً خرقاء لـمَّا قابلتُكِ في روما. حتَّى إنَّكِ لم تَعرفي إمكاناتِك. فأنا وجَّهتُكِ وعلَّمتُكِ. أنا فتحتُ عينَيك على لذَّات هذا العالم، وقد سكِرتِ بِها مُنذُئذٍ. أنا مَن يستحقُّ إخلاصَكِ، وليس امرأةٌ ولدَتكِ بالصِّدفة البيولوجيَّة!’’ ثُمَّ حدَّقَت إليها كالإباه بحِدَّةٍ مُثَبِّطة، وأضافَت: ‘‘مَن هي هذه **الأُمُّ**؟ ما مِقدارُ أهمِّيَّتها إذا قِيسَت **بي**؟ إنَّها مُغفَّلةٌ ضيِّقةُ أفُقِ التفكير، رجعيَّةُ العقليَّة، لم تُوافِق يومًا على الحُبِّ الذي نكنُّه إحدانا للأخرى. إنَّها تنظرُ إليَّ كما لو كنتُ مخلوقَةً شاذَّةً فاسِدة أفسدَتِ ابنتَها. وهي تتحمَّلُني لكي تراكِ. أقولُ لكِ إنَّها تُلوِّثُ الهواءَ الذي أتنفَّسُه، مِثلما فعلَت عَبدتُك الصغيرةُ المسيحيَّةُ تمامًا. إنِّي أحتقِرُها وجميعَ الذين على شاكِلَتِها، وعليكِ أنت أيضًا أن تفعَلي فِعلي. يجب أن يُرغَمَ هؤلاء على الانحِناء أمامي’’.

ارتعدَت جوليا الآن إذْ تذكّرَت وجهَ كالاباه باديًا بمظهرٍ غريب من الحِقد والغيظ. وكانت كالاباه قدِ استَعادَتْ رباطةَ جأشِها سريعًا. أمَّا جوليا فلبِثَتْ مَصدومةً، مُتسائلةً عن كَون ذلكَ الوَجهِ الباسِمِ مُجرَّدَ قِناعٍ لطبيعة كالاباه الحقيقيَّة.

وعندَ إنزالِ كُرسيِّ المِحفَّة، جذبَت جوليا السِّتارةَ جانبًا، ونظَرَتْ إلى الجدار والدَّرج الرُّخاميِّين. لم تكُن قد عادَت إلى هذه الدارة منذُ وفاة أبيها. وإذ فكَّرَت فيه، اجتاحَتْها مَوجةٌ من الاشتياق، وطرفَت بعَينَيها حَبسًا للدُّموع. ثُمَّ قالت بصَوتٍ أجشٍ: "أنا أحتاجُ إلى مُساعدة"، ومدَّت يدَها. ودون تعبيرٍ عن أيِّ شعور، ساعدَها ينِّيس على الترجُّل من المِحفَّة.

نظرت إلى دَرَجِ الرُّخام، شاعِرةً بالوَهَن. ووقفَتْ لَحَظاتٍ طويلةً تستجمعُ قُوَّتها، ثُمَّ بدأتْ تصعدُ الدَّرج إلى دارةِ أُمِّها. ولـمَّا بلغَتْ أعلى الدَّرَج، مسحَتِ العَرَق عن وجهها قبل أن تسحبَ الحَبْل. وقالت لِيَنِّيس: "يُمكِنك أن ترجِعَ وتنتظرَ مع الباقين"، وشعرَت بالفَرَج عندما تركها. فهي لم تُرِد أن يكونَ عَبدٌ حاضرًا إذا أهانَتها عائلتُها

وطَرَدَتها.

فتحَ إيوليوس الباب، وارتسمَتْ على وجههِ المألوف أماراتُ الدَّهشة. "أيَّتُها السيِّدةُ جوليا، إنَّ أُمَّكِ لم تكُن تتوقَّعُ قدومَك".

فرفعَت جوليا ذقنها، وقالَت: "أتحتاجُ الابنةُ إلى مَوعِدٍ لمقابَلة أُمِّها؟" ثُمَّ تقدَّمَت مُتَخطِّيةً إيَّاه إلى غُرفة الانتِظار.

"كلَّا، سيِّدتي، بالتَّأكيد لا. ولكنَّ والِدَتَك ليسَت هنا".

فالتفتَت جوليا ونظرَت إليه. وقالت: "أينَ هي؟" وقد أضفَتِ الخيبةُ على صَوتِها صبغةَ نفادِ الصَّبر.

"إنَّها تُوصِلُ ثيابًا إلى بِضعِ أرامِلَ صارت مؤخَّرًا تهتمُّ بهنّ".

"أرامِل؟"

"نعم، سيِّدتي. كان أزواجُهنَّ يشتَغلون عندَ أبيكِ وأخيك. والسيِّدة فيبي أخذَتْ على عاتقها أن

تُعيلَهُنَّ".

"لِيُعِلهُنَّ أولادُهنَّ!"

"لاثنتَينِ منهنَّ أولادٌ أصغَرُ من أن يشتغِلوا. وابنُ أُخرى هو مع الجيش الرُّومانيِّ في بلاد الغال. والأُخرَيات...".

قالت جوليا: "لا بأس! لا يَعنيني أمرُهنَّ". فآخِرُ شيءٍ جاءت لأجله كان أن تسمَعَ مشكلات الآخرين بينما مشكلاتها الشخصيَّةُ أثقَلُ من أن تُطاق. "متى سَترجع؟"

"إنَّها عادةً ترجع عند حلول اللَّيل".

وإذ كانَت جوليا مُغتمَّةً جدًّا، أرادَت أن تبكي. فليس في وُسعها أن تنتظرَ وقتًا طويلًا كذاك. ذلك أنَّ اللَّيل لن يهبطَ قبلَ ساعات، ولا بُدَّ أنَّ كالاباه سَتُريدُ أن تعرِفَ لماذا تأخَّرَتْ طويلًا في الرُّجوع من عند عرَّافِ الهيكل. وإذا اعترفت بأنَّها جاءَتْ لرؤية أُمِّها، فستُغامِر بتَسبيبِ مزيدٍ من الاستياء لدَى كالاباه.

ضغطَت على صُدغَيها النابِضَين بأصابِعِها.

وقال إيوليوس: ‘‘يبدو عليكِ الشُّحوبُ، سيِّدتي. أتُريدين مُنعِشًا ما؟’’

فقالت: ‘‘خمرًا، وسأشربُها في الپَريستايْل’’.

‘‘كما تشائين’’.

ثُمَّ مشَت في الرِّواق الرُّخاميّ، ودخلَت تحت إحدى القناطر. وقعدَتْ في المختلَى المظَلَّل عندَ الطَّرف البعيد. وأخذَ قلبُها يدقُّ بسُرعة، كما لو أنَّها كانت تركضُ. لقد جلسَتْ هنا يومَ ماتَ أبوها، باكيةً بلا عزاء فيما احتشدَ الآخرون حَوالَيه. فلم تكُن قادِرةً على تحمُّل رؤيتِه مَهزولًا جدًّا من المرض، وعيناه الغائرتان ملآنتان بالألم والأسى. ولم تكُن قادرةً على مواجهةِ خَيبةِ أمله بالحياة. وبها أيضًا.

غمرَتْ عينَيها دموعُ رثاءِ الذات. ففي نهاية المطاف، لم يعُدِ الأمرُ مُهِمًّا على كلِّ حال. ذلك أنَّ أباها، في أثناء تلك اللحظات الأخيرة الثمينة

من حياته، نادى هَدسَّة، ولم ينادِها. وهو قد أعطى بَرَكتَه لِعَبدة، لا لِلحمهِ ودَمِه.

أطبقَت يدَها بإحكام، غاضِبةً من جديد. لا أحَدَ منهم فَهِمَها فعلًا. إنَّهم لم يفهَموها قطّ. وكانَت قدِ اعتقدَتْ أنَّ مَرقُس فَهِم. فهو كان جائعًا إلى الحياة، شأنُه شأنُها، وكان مُمكِنًا أن يَبقى كذلك لو لم يكُن غبيًّا جدًّا بحيثُ أُغرِمَ بعَبدَةٍ مسيحيَّة شنيعة. فماذا رأى فيها أصلًا؟

وتنهَّدَت جوليا. ربَّما كانت كالاباه على حقّ. رُبَّما لم يكُنْ أحَدٌ قادِرًا على فَهمِها، على إدراك الجوع الذي كان يدفعُها، واليأسِ الذي تشعرُ به، والتَّوق والخوف الرهيبَين اللذَين كانا رفيقَيها الدائمَين. فقد كانوا مُكتَفِين بحياتهم الراكدة البسيطة، مُتَعزّين برُوتينهم الفاتِر، مُبَرِّرين ذواتِهم بأعرافهم التقليديَّة. وقد سحَقوها تحتَ توقُّعاتِهم.

تمامًا كما أنَّ كالاباه وپريمُس يسحقانِها الآنَ تحتَ توقُّعاتِهما.

هذه الفكرة التي خطرَت في بال جوليا دونَ

استئذان، وقعَت عليها وُقوعَ صَدمة، فكافحَتْ مَوجةَ الدُّوارِ والغَثَيان التي دَهمَتها. إنَّ كالاباه وپريمُس كِلَيهما اعترفا بأنَّهُما يُحبَّانِها. ولكنْ هل كانا يُحبَّانِها؟ كيف أبدَيا حُبَّهما مؤخَّرًا؟

“لقد صرتِ مُمِلَّةً جدًّا يا جوليا. أنتِ تفرضينَ كآبتَكِ على كُلِّ وليمة تحضُرينَها”.

“ليس في الحياة إلَّا قاعدةٌ واحدة فقط: أرضِي نفسَكِ”.

أغمضَت جوليا عينَها وتنهَّدَت بإعياء. لعلَّ مرضَها هو الذي أثارَ مِثلَ هذه الأفكار المفتَقِرة إلى الوفاء.

أكانَ ذلكَ هو الواقع؟

وتقطَّر العَرَقُ على جبينها، فمسحَته بِقَفا يدِها.

كانت قدِ اعتقدت أنَّها في أمانٍ مع كالاباه، وأنَّ كالاباه كانت صديقتَها الصادِقةَ الوحيدة. واعتقدَت أنَّ كالاباه، كالاباه وحدَها، أحبَّتها كما هي. ولكنْ منذُ عَهدٍ قريب، تساءَلَتْ جوليا عن كَون كالاباه

قادرةً على الحُبِّ أصلًا، وجعلَها التَّساؤلُ قلِقَةً وخائفة. فماذا يكونُ إذا ارتكبَتْ غَلطةً رهيبة؟

منذُ المجادَلة بشأن أُمِّ جوليا، باتَت مُتنبِّهةً على نَحوٍ مُتَزايدٍ إلى الطريقة التي بها ينظرُ پريمُس وكالاباه إلى كُلٍّ واحد، وأحدُهما إلى الآخَر، وإليها أيضًا. فقد بدا كما لو أنَّهما كانا دائمًا يَتَصيَّدانِ تلك الكلمة أو العِبارةَ الطائشة التي يُمكِن أن تنمَّ عن نُفورٍ مَكظومٍ من نَمَطِ حياتِهما. حتَّى إذا برزَ شيءٌ فعلًا، في الواقع أو في تخيُّلاتهما الخصبة، جاءَ الهجومُ فوريًّا وضاريًا. وكان پريمُس يُطلِقُ كلماتٍ قاسيةً ولاذعةً جدًّا بحيث يُجفِلُ سامِعوه، شاكرينَ أنَّهم لم يكونوا همُ الغَرَضَ الذي يُمزِّقُه. أمَّا كالاباه فكانت تلجأ إلى العقلانيَّة لكي تُربكَ المرتابينَ في أخلاقها وأدبيَّاتها، وإلى الازدِراء إذا أخفقَت، صارفةً أيَّ شخصٍ ذي رأيٍ مُعارِض لها باعتباره مُتبلِّدَ الحِسِّ أو ذا طرازٍ عتيق. وإذْ وقفَ پريمُس وكالاباه دائمًا مَوقِفَ الدِّفاع، كانا مُتَسلِّحَين للهُجوم. فلماذا كان ذلك كلُّه ضروريًّا إذا كانا على حقّ؟

تلبَّدَ ذِهنُ جوليا بمَخاوِفَ مُروِّعة لا تُوصَف. **ماذا**

لو كانا مُخطِئَين...؟

ثُمَّ دخلَ إيوليوس البهوَ ذا الأعمدة (البَريستايْل)، مُنقِذًا إيَّاها من أفكارها القاتمة. ‘‘خمرتَكِ، سيِّدتي’’.

فتناولَتِ الكأسَ الفِضِّيَّةَ عن الصينيَّة، ورفعَتْ نظرَها إليه. ‘‘هل سمعَتْ أُمِّي أيَّ خَبَرٍ من مَرقُس؟’’

‘‘إنَّه يزورُها بِضعَ مرَّاتٍ في الأُسبوع، سيِّدتي. لقد كان هنا أمسِ’’.

شعرَت جوليا كما لو أنَّها تلقَّتْ ضَربةً على مَعِدَتِها، وقالت- مُرغِمةً صَوتَها على أن يبدوَ طبيعيًّا- ‘‘حسبتُ أنَّه ذهبَ إلى روما’’.

‘‘أجَل، لقد ذهبَ، سيِّدتي، ولكنَّه رجعَ بعد أشهُرٍ قليلة. وكان رجوعُه مُفاجأةً سارَّةً لوالدَتِك. فهي لم تكُن تتوقَّعُ أن تراه بِضعَ سنين’’.

شدَّت جوليا على الكأس بين يدَينِ بارِدتَين، وأشاحَت بِناظِرَيها. ‘‘متى عاد؟’’

تردَّد إيوليوس، مُنتَبِهًا تمامًا إلى مدى سؤال جوليا ڤاليريان. وقال: ‘‘منذُ بضعة أسابيع’’، مُتسائلًا عن رِدَّة فعلِها الممكنة. فقد كان من عادتها أن تصبَّ جامَ غَضَبِها على مَن يُبلِّغُها خبرَ سوء.

لم تقُل جوليا أيَّ شيء. **منذ بضعة أسابيع**. لقد رجعَ مُرقُس قبل بضعة أسابيع، ولم يُكلِّف خاطِرَه حتَّى إعلامَها. فإنَّ صمتَه كان إعلانًا باردًا أنَّ أيَّ شيءٍ لم يُنسَ؛ أو لم يُغتفَر. وارتعشَتْ يدا جوليا إذْ رفعَتِ الكأسَ إلى شفتَيها وارتشَفَت.

وإذْ فُوجئَ إيوليوس واطمأنّ، لَبِثَ واقفًا. وبدا عليها التوعُّك، فسألها: ‘‘أأُحضِرُ لكِ شيئًا آخر، سيِّدةُ جوليا؟ لقدِ اشترَيتُ كرزًا من هَضَبة البحر الأسود وشيئًا من الخوخِ الأرمنيِّ صباحَ اليوم’’. ولَطالَما كان هذان مُفضَّلَين عندَها.

فقالَت جوليا: ‘‘لا’’، وقد أراحَها قليلًا اعتِبارُه لها. كمِ مضى من الزَّمَن منذُ تكلَّمَ إليها عَبدٌ بتلك الطريقة اللطيفة؟

لم يُكلِّمها أحَدٌ قطّ هكذا منذُ هَدسَّة.

وبثَّتِ الذِّكرى الخِيانيَّة مَوجةَ ألَمٍ في أنحاء جسمها. فقالت: "لستُ أُريد شيئًا".

فتَناوَلَ جَرَسًا صغيرًا عن الصينيَّة، ووضعَه على المقعد بقُربها. وقال: "إذا احتَجْتِ إلى أيِّ شيء، فاقرعَي لي"، ثُمَّ انصرَف.

رشفَت جوليا خمرتها، وتمنَّت لو لم تأتِ. لقد جعلَ فراغُ الدَّارة وحشتَها لا تُطاقُ على نحوٍ مُتَزايِد. فانقبضَتْ حَنجَرتُها، وطرفَتْ بعَينَيها حَبسًا للدُّموع.

إنَّ مَرقُس هنا في أفسُس!

قبلَ رُجوعه إلى روما، بعثَتْ إليه برِسالة بعدَ أُخرى، وقد رُدَّت كلُّها دون أن يُفتَحَ خَتمُها. حتَّى إنَّها ذهبَتْ إلى دارته مرَّةً. فجاء إليها واحِدٌ من خُدَّامه، وقال: "إنَّ السيِّدَ قال إنَّه لا أُختَ له"، وأغلقَ البابَ في وجهها فدَقَّتِ البابَ بشدَّة وصرَّخَتْ بأنَّ مَرقُس له أُختٌ حقًّا، وأنَّ سوءَ

تفاهُمٍ قد حلَّ بينهما ويجب أن تتكلّم إليه. وظلَّ البابُ مُغلَقًا. وباءَتْ بالفَشل جميعُ مَجهوداتها لرؤية مَرقُس ومُكالَمَته.

وتساءلَت أيُحدِثُ فَرقًا أن يعلَمَ مَرقُس بأنَّها مريضة. ففي وُسعِها أن تقصِدَ إلى واحِدٍ من أصدقائه لتَبعثَ إليه خبرًا بهذه الطريقة. وعندئذٍ عسى أن يذهبَ إليها، ويلتمِسَ منها أن تسامِحَه لإعادته رسائلَها ورَفضِه أن يُقابِلَها. سيَقول لها إنَّها أُختُه من جديد، وإنَّه سيَعتَني بها، وإنَّه ما زالَ يحبُّها. وستَجعلُه يُعاني قليلًا قبلَ أن تُسامحَه، ثُمَّ يُلاعبُها ويُضاحِكُها ويحكي لها قِصَصًا مُسَلِّية كما كان يفعلُ دائمًا في روما.

وسالَتِ الدُّموع على خدَّي جوليا الشاحِبَين.

حُلُمٌ رائع، غير أنَّها كانت تعرفُ الوضعَ الحقيقيّ. فقد أوضَحَ مَرقُس الأمرَ بكلِّ جلاء. وإذا عَلِمَ بمرضِها، فسيَقول إنَّ ذلك هو ما تستحقُّه فحسْب. سيَقولُ إنَّها جلبَتْ ذلك على نفسِها. وسيَقولُ من جديد: ‘‘لَعَنَتْكِ الآلِهة!’’

وقد لعنَتها فِعلًا.

لم يَسَعها إلَّا أن تُحاولَ نسيانَ كلِّ شيء. وكان عليها أن تمحوَ الأمسَ من ذهنها. فقد كان اليوم حقًّا أقسى من أن تحتمله. وما كان في وُسعها أن تُرغِمَ نفسَها على التفكير في الغَد.

اشتدَّت قبضَتا يَدَيها على الكأس. ورشفَتِ الخمرَ من جديد، راجيةً أن تُشدِّدَ نفسَها. وإذ حَطَّتِ الكأس، حملقَتْ في السائل الأحمر الدَّاكن، فبدا لها كالدَّم. فطرحَتْه بعيدًا عنها، ووقفَتْ مُترنِّحةً، ثُمَّ مسحَتْ فَمَها بظاهِر يَدِها.

سَمعَ إيوليوس خبطةَ الارتِطام، فدخَلَ البَريستايْل. "أأنتِ بِخَير، سيِّدتي؟" ثُمَّ لمحَ الخمرَ المرشوشةَ على البَلاط الرُّخاميّ، وانحنى كي يلتقطَ الكأس.

قالَت: "كان يجبُ ألَّا أجيء"، مُوجِّهةً كلامَها بالأحرى إلى نفسِها، لا إليه. فإنَّ يِنِّيس عبدَها المرافق سيُخبِرُ بريمُس، وبريمُس سيُخبِرُ كالاباه.

ومِن دون كالاباه، خافَتْ جوليا أن تتحطّمَ حياتُها كلِّيًّا.

٤

صرفَ مَرقُس خادِمَه، وفكَّ الختمَ عن رَقٍّ وصلَه ذلك الصباح. وقرأ ما فيه بسُرعة، مُقطِّبًا. لقد كانتِ الرسالةُ من إسماعيل، وهو مِصريٌّ كثيرًا ما تعامَلَ مَرقُس معه في الماضي. وكلُّ ما قاله الرجُلُ في رسالته كان ما يَزال صحيحًا. فالرَّمل باتَ الآن مَطلوبًا أكثر منه في أيِّ وقتٍ مضى، إذ تعاظَمَ إدمانُ الألعاب. وقد ذكَّر إسماعيلُ مَرقُسَ بأنَّه كَسَبَ أوَّلَ مليونِ **أوريوس** له من الذهب بشَحنِ الرَّمل من مصر إلى ساحاتِ المحاربين الرومانيَّة. وكانت للرَّمل أسواقٌ أيضًا في أفسُس وكورِنثوس وقيصريَّة. فباحتِرامٍ ولباقة مُمتازة، التمسَ إسماعيل السببَ الكامِن وراءَ صَمْتِ مَرقُسَ الطويل.

قبضَ مَرقُس على الرسالة بيَده، ورماها في الكانون. وتردَّدَ صَدى صوتُ أبيه في ذاكرته. "**روما تحتاج إلى الحنطة**". آه، ولكنَّه هو، مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان، في شهوته وحماسته الشبابيَّتين لمتَع الحياة- وفي غُروره

بأنَّه أخبَرُ من أبيه- قدِ استوردَ ما طلبَتهروما بالأحرى: رَملًا لتَشَرُّب الدِّماء.

وإذا بصُورةِ فتاةٍ لطيفة مُمَدَّدة في دَمها على الرَّمل الذي كان هو قد باعَه جعلَتْه يُمشّط بأصابعه إلى الوراء شعرَه القصير. فقام عن الكُرسيِّ وذهبَ إلى النافِذة المطِلَّة على الميناء.

كانت إحدى سُفُنه قد عادَتْ من صقِلّية مُحمَّلةً بالبضائع. فراقبَ **السَّكْراري** يحملون على أكتافِهم أكياسَ الحِنطة، وحُزَمَ الجلود، وأقفاصَ التُّحَفِ الخشبيَّة الفاخِرة. ورأى واحِدًا من الناظرين إليه- وهو عبدٌ مكدونيٌّ اسمُه أُريستِس تدرَّب على يَد والده- واقِفًا يُراقِب ويُدقِّق في الكمِّيَّات والمنتَجات بمُوجب بوليصة الشَّحن. وقد كان أُريستِس يعلمُ ما يعلمُه مَرقُس عن رِحلاتِ ذهابِ السُّفنِ الڤاليريانيَّة وإيابها، كما كان أمينًا ومُخلِصًا لِذكرى دَسِمُس ڤاليريان، مَثَلُه مَثَلُ سَكستوس في روما. وكذلك كان أيضًا بضعةُ رِجال آخرين يعمَلون تحتَ الراية الڤاليريانيَّة، ومنهم سيلُس الذي وقفَ بقُربِ الموازين مع

مِنسُريس يُشرِفون على وزنِ الحِنطة. حقّا إنّ أباه كان حصيفًا في الحُكمِ على الأخلاق.

كان المرفأ شديدَ النشاط: سُفنٌ ترسو وتُقلِع، رجالٌ يصعَدون وينزلون على معابِرَ خشبيَّة مُحمِّلين البضائعَ أو مُفرِغينَ إيَّاها. وكان مُقرَّرًا أن تُغادِرَ اثنتان من سُفُنِه قبل نهاية الأُسبوع، واحِدةٌ إلى كورِنثوس، والأُخرى إلى قيصريَّة. فأحسَّ دافِعًا إلى ركوبِ مَتنِ الأخيرة. لعلَّ أمَّه كانت على حقّ. ينبغي له أن يمضيَ باحِثًا عن إله هَدسَّة. وقد قالت هَدسَّة إنَّ إلهَها مُحِبٌّ ورحيم. فتكوَّرتِ يَدُ مَرقُس في قبضةٍ مُحكَمة. إنَّه يودُّ أن يعرفَ السببَ الذي من أجله يسمَحُ إلهٌ مُحِبٌّ، كما يُفترَض، بأن تُكابِدَ مُتعبِّدةٌ تقيَّةٌ مِيتةً مُذِلَّةً وعديمةَ الرَّحمة إلى أقصى حدّ.

حينئذٍ غادرَ مَرقُس النافذة ورجعَ إلى طاوِلَةِ شُغلِه، بعدما ضَرَبَ بقَبضتِه شَعريَّةَ النافذة ضربةً عنيفة.

حدَّق إلى الرُّقوق التي تُغطِّي الطاولة، وكُلُّ رَقٍّ سِجِلٌّ بالبضائع المجلوبة إلى أفسُس على متن

إحدى سُفُنه في آثناء الأشهُر الماضية: من اليونان أوانٍ من البرونز؛ من ترشيش أواني فِضَّةٍ وحديدٍ وصَفيح ورصاص؛ من دِمَشق خمرٌ وصُوف؛ من روديسيا عاجٌ وأبَنوس. وكانَتِ الحُلَلُ الجميلة، والقُماشُ الأزرق، والمطرَّزات، والبُسطُ المتعدِّدةُ الألوان، تُنقَلُ في قوافِلَ من الشَّرق وتُحمَّلُ على سُفُنهِ المتوجِّهة إلى روما. وقد جيء من بلاد العَرَب بالخِراف والكِباش والماعِز؛ ومن بيث توجَرمة بأَحصِنة السِّباق، وبالجياد الحربيَّة والبغال للجيش الرومانيّ.

ثُمَّ جَرَفَ بِيَده غاضِبًا الوثائقَ عنِ الطاوِلة وبعثَرهُنَّ على الأرض. كان ما يحتاج إليه هو الضَّجيجَ والنشاط، أيَّ شيءٍ كي يُغرِقَ أفكارَه المروِّعة. وإذْ أسقَطَ فِكرةَ امتِطاءِ مِحَفَّةٍ إلى الحمَّامات الخصوصيَّة التي اعتادَ التردُّدَ إليها، توجَّه بالأحرى سَيرًا على قدمَيه إلى حمَّامات ترتادُها عامَّةُ الناس. وقد كانت تلك أقربَ إلى أرصِفةِ الميناء وشيئًا خارِجَ نِطاق اختباره المألوف. فلا بأسَ في أيِّ شيءٍ لأجل التَّسلية.

دفع مَرقُسُ الكُوادرَنسَ النُّحاسيَّة الصغيرة، ودخلَ

غرفةَ تبديلِ الملابسِ الصاخِبةَ، مُتجاهلًا نَظَراتِ العُمَّال المدهوشة. ثُمَّ تركَ تُنكَه المطويَّ على رفٍّ، مُتسائلًا هل يجدُه هُناك عندما يرجع. فقد كان مصنوعًا من أجوَدِ الصُّوف ومُطرَّزًا بالذَّهب وبخَيطٍ أُرجوانيّ، حُلَّةً يشتَهيها حتمًا بعضُ مُرتادي هذه المؤسَّسة الفَوضويَّة التي يأتي إليها العامِّيُّون. ثُمَّ تَناوَلَ مِنشفةً وطرحَها على كتِفه، ودخل إلى **التَّپيداريوم**.

اضطرَبَ حاجِباه قليلًا لـمَّا رأى أنَّ الحمَّامات مُشترَكة. إذ لم يكُن مُعتادًا الاستِحمام مع النِّساء، إلَّا أنَّه افترضَ أنَّ ذلك لا يُحدِثُ فَرقًا في هذا الجَوّ المزدحِم. فألقى المنشفةَ جانبًا ودخلَ البِركةَ الأُولى، عائمًا في المياه الدافئة وآخِذًا دَورَه تحتَ النَّافورة التي كانت جُزءًا من نِظام دَوَران الماء.

ثُمَّ غادرَ البِركةَ الأُولى ودخلَ الثانية. كانت الجِداريَّات مُصَدَّعة، وقد طلعَ العَفَنُ الفِطريُّ في الشُّقوق. وكانت المياه أكثرَ حرارةً بقليلٍ منها في الأُولى، فأتاحَ لجسمه وقتًا كافيًا كي يتكيَّفَ قبلَ أن يدخل البِركة الثالثة من التَّپيداريوم. وقد

كان مُواطِنون من كلِّ نَوعٍ يستمتعون بالحمَّامات، فامتلأتِ الغُرفة بتَنافُرِ النَّغمات الناشئ من اختِلاطِ اللَّهَجات. وكان الضَّجيج يُصِمُّ الآذانَ تقريبًا، إلَّا أنَّ مَرقُس سُرَّ به، شاكرًا لإغراق أفكارهِ السَّوداء في خِضَمِّ الضَّوضاءِ حَواليه.

غاصَ مَرقُس قليلًا، وأسنَدَ رأسَه إلى آجُرِّ الجِدارِ وراءَه. وكان بِضعةُ شُبَّانٍ وشابَّات يُجرون مُباراةَ طَرطَشة. ووقعَ صبيٌّ كان يركُضُ على البَلاط المبتَلِّ، فأطلقَ وَلوَلةً حادَّةً صادِحة. كذلك كان رجُلان يخوضان مُجادَلةً حامِيةً في السياسة، فيما أخذَت بعضُ النِّسوة يتَضاحَكن ويتهامَسْنَ في ما بينهُنَّ.

وإذ أضجرَتِ الجَلَبةُ مَرقُس، دخل غُرفةَ **الكَلِداريوم** الصُّغرى. وكان في الغُرفة بُنوكٌ على مَدارِ الجُدرانِ وجُرنٌ ضَخمٌ في مركَزِه حجارةٌ ساخِنة. وتولَّى عبدٌ نُوبيٌّ يَرتَدي مِئزرًا صَبَّ الماء على الحجارة، مُبقِيًا الغُرفةَ عابِقةً بالبُخار. وكان في الغُرفة شخصانِ آخران فقط، كهلٌ أصلَعُ الهامَة وشابٌّ أصغَرُ سِنًّا من مَرقُس. وقد تلألأ العَرَق على جِسم الشابِّ الحَسَنِ العَضَل، فراحَ

يُزيلَه بِمِكشَطةِ جِلد في أثناء تَحَدُّثه إلى رفيقه الأكبر سنًّا بلَهجةٍ سِرّيَّةٍ وبهمس.

تجاهلَهما مَرقُس، واستَلقى على أحَدِ البُنوك، وأغمضَ عينَيه، راجيًا أن تُخفِّفَ حرارةُ المكانِ الشديدةُ توتُّرَه. لقد كان يحتاجُ إلى ليلةِ نَومٍ بلا أحلام.

ودونَ استِئذان، تسرَّبَتْ إلى وَعيِ مَرقُس كَلِماتُ الشابِّ الجدِّيَّة، وصَوتُه المكظوم مُفعَمٌ بالخَيبة الخانعة. ‘‘لقد ذهبتُ ولَدَيَّ أحسنُ النِّيَّات، يا كاليستُس، إلَّا أنَّ ثِنداشيوس استهزأ بي. لقد استَعملَ تلك اللَّهجةَ اللَّاذِعة التي يلجأ إليها حين يظنُّ أنَّه يعرفُ أكثر من أيِّ شخصٍ سِواه. لقد قال لي: «قُل لي، عزيزي استاخِس، كيف يُمكِنك أن تؤمنَ بإلهٍ يجلسُ على قِمَّة عَرشٍ لا يعلُوه شيء، ومركَزُه في كلِّ مكان، ولكنْ لا يُمكِنُ أن يُقاس؟ كيف يُمكِن أن يملأ إلهٌ السَّماوات، ومع ذلك يكونُ صغيرًا كفايةً بحيثُ يسكُن في قلبِ إنسان؟» ثُمَّ ضَحِكَ عليَّ! وسألَ لماذا يعمِدُ أيُّ شخصٍ يملكُ أقلَّ قَدرٍ من الذكاء إلى الرَّغبةِ في عِبادةِ إلَهٍ جعلَ ابنَه يُصلَب؟’’

تَيَبَّسَ مَرقُس. وحياةِ الآلِهة! حتَّى هُنا، لا يُمكِنُه أن ينجو!

وسأل الرَّجُلُ الكبير: ‘‘كيفَ جاوبتَه؟’’

‘‘لمِ أُجاوِبْه. بعدما عانَيتُ سُخرِيَته، بتُّ أشدَّ غَضَبًا من أن أنبسَ بكَلِمة. لماذا أُعرِّض نفسي لمزيدٍ من الإذلال؟ لقد كان ذلك كلَّ ما في وُسعي أن أفعلَه حتَّى لا أُقحِمَ قَبضتي داخِلَ حَنجَرتِه. وأنا ذهبتُ إليه لتَخليصِ نفسِه!’’

‘‘رُبَّما لم تكُن المشكِلة مع ڤِنداشيوس’’.

فقال استاخِس- وكان واضحًا أنَّه ارتعَبَ من تَوبيخِ شيخِه- ‘‘ماذا تعني؟’’

‘‘لـمَّا قَبلتُ يسوعَ المسيح ربًّا لي أوَّل الأمر، طغَتْ عليَّ الرغبةُ في هداية كُلِّ شخصٍ أعرِفُه. فحملتُ إيماني الجديد إلى العالَم كهِراوة، مُستعِدًّا لضَربِ كلِّ مَن أعرِفُهم حتَّى يؤمِنوا بالبِشارة. لقد كانت دوافِعي خاطئة’’.

‘‘كيف يُمكِن أن تحفزَكَ دوافعُ خاطئةٌ على الرَّغبة

في تخليص الناس؟’’

‘‘لماذا نزلَ الربُّ من السَّماء، يا استاخِس؟’’

‘‘جاء لكي يُخلِّصنا’’.

‘‘كثيرًا ما كلَّمَتني بشأن ﭬِنداشيوس. والآن، أسألُك: هل ذهبتَ إلى هذا الرَّجُل الذي حسبتَه دائمًا مُتفوِّقًا عليك فِكريًّا لكي تغلبَه بالجَدَل والمنطِق؟ أأردتَ له أن يرى بِرَّكَ في المسيح؟ أم ذهبتَ إليه بدافع المحبَّة، كي تَربحَ قلبَه للرَّبِّ لأجل خيرهِ الشخصيّ؟’’

حصلَ صمتٌ طويل، ثُمَّ أجابَ الشابُّ بكآبة: ‘‘فَهِمتُ’’.

فعزَّاه كاليستُس. ‘‘نحن نعرف الحقّ. إنَّه جَلِيٌّ للجميع في خليقة الله. ولكنَّ لُطفَ الله هو الذي يَقتادُ الإنسانَ إلى التَّوبة. فعندما تتكلَّم مع ﭬِنداشيوس في المرَّة التالية، تذكَّر أنَّ مُحارَبتَك ليست ضِدَّه هو. إنَّها ضدَّ قوَّات الظلام الروحيَّة التي تأسرُه. اِلبسْ سلاحَ اللهِ...’’

سكبَ العبدُ ماءً على الحجارة الساخِنة ثانيةً، فأغرقَتِ الهَسهَسةُ كلِماتِ كاليستُس الباقية. ولـمَّا سكنَ الهسيسُ، لم يسمَعْ مرقُس سِوى الصَّمت. وما إنْ نهضَ، حتَّى أدركَ أنَّ الرَّجُلَين قدِ غادرا الغرفة. فالتقَطَ المِكشَطة، وكشطَ العَرَقَ عن جسمهِ غاضِبًا.

سلاح الله، هكذا قال الرجُل الأكبرُ سنًّا. **أيُّ سلاح؟** تساءلَ مَرقُس بمرارة. إذا كان إلَهُ هَدسَّة غيرُ المنظور قد أعطاها سِلاحًا لِتلبسَه، فإنَّه لم يُنقِذها من مِيتةٍ مُرَوِّعة. ولَن يُنقِذَهُما أيضًا. ومن ثَمَّ أرادَ أن يُحذِّرَ الشابَّ من التبشير بإيمانٍ سيجلبُ عليه الموت.

أيُّ نَفعٍ كان في هذا الإله لأتْباعِه؟ أيَّ حِمايةٍ قدَّم لهم؟ قامَ مَرقُس عن البَنك، ناوِيًا أن يلحَقَ استاخِس ويُواجِهَه بالحقيقة. إنَّ إلهَ اللُّطفِ والرَّحمةِ هذا تخلَّى عن مؤمِنيه حين كانوا في أمَسِّ الحاجة إليه!

غادرَ مَرقُس الكَلِداريوم ودخل **الفريجيداريوم**. وقد كان هبوطُ الحرارة فاتِنًا. فوقفَ مَرقُس على

لَوحةٍ مُبَلّطة، واكتسحَتْ حَملقَتُه البِركة، باحثًا عنِ الرجُلَين. إلّا أنَّه لم يَجِدْ لهُما أثَرًا. فأزعجَه ذلك، وغطسَ في المياه الباردة وسبحَ حتّى آخِرِ البِركة. ثُمَّ خرجَ رافِعًا نفسَه برشاقةِ رِياضيٍّ مَرِنة. ونفَّضَ الماءَ عن رأسه، ثُمَّ تَناوَلَ مِنشفةً عن الرَّفِّ ولفَّها حولَ خَصْره، مُتوجِّهًا إلى إحدى طاوِلات التَّدليك.

وفيما هو مُمَدَّدٌ على الطاولة، حاولَ أن يُفرِغَ ذِهنَه من كلِّ شيء ويَدَعَ التَّربيتَ والتَّمسيدَ القَويَّين لعضلاتِه يُريحانِه. وقد صبَّ المدَلِّكُ زَيتًا في كفِّه ومَسَّدَ به ظهرَه وفخذَيه، طالِبًا منه أن يَنقلِب. ولـمَّا فَرَغَ، وقفَ مَرقُس، وكَشَطَ عَبدٌ فائضَ الزَّيت بمِكشَطةٍ أُخرى.

جاوزَ مَرقُس رِجالًا يتمرَّنون ونِساءً مُجتمِعاتٍ حولَ ألعابٍ لَوحيَّة، وتوجَّه إلى غُرَف التبديل. وأدهشَه أن يَجِدَ ثَوبَه حيثُ سبقَ أن تركَه. فارتَدى تُنكَهُ مُتَلوِّيًا، وثبَّتَ الحزامَ البُرونزيَّ. ثُمَّ غادرَ الحمَّاماتِ قَلِقًا مِثلَما كانَ لـمَّا دخلَها.

كانت الأكشاك تملأُ الشارع، والباعةُ الجوَّالون

يُدَلِّلون على مُختلِف البضائع والخِدمات للداخلين إلى الحمَّامات والخارجين منها. وشقَّ مَرقُس طريقَه عبرَ الحُشود. كانَ قبلَ ذلك قدِ اشتَهى جَلَبةَ العامَّة الفَوضويَّةَ لإغراقِ أفكارهِ الشخصيَّة، ولكنَّه الآن أرادَ العُزلةَ والسُّكونَ في دارَته الخاصَّة لإطلاقِ عِنانها تمامًا.

نادى شابٌّ أحَدَهم باسمِه وركضَ لكي يُدرِكَه. وإذ فعلَ ذلك، اصطدَمَ بمَرقُس، فتَراجَعَ هذا خُطوةً وبَربرَ بشَتيمةٍ إذ صدمَ شخصًا وراءَه. ولدى صرخةِ ألَمٍ خفيفةٍ من امرأة، التَفَتَ ونظرَ من عَلُ إلى جِسمٍ ضئيل مَلفوفٍ بحجابٍ رماديٍّ سميك. فترنَّحَتْ وكادت تَسقطُ أرضًا، ويدُها الصغيرة مُتشَبِّثةٌ بعُكَّاز إذ حاولَت أن تستعيدَ توازُنَها.

أمسك مَرقُس بذراعِها، وثبَّتَها قائلًا بسُرعة: "أعتذرُ!" فرفعَت رأسَها بحِدَّة، وشَعَرَ- بَدَلَ أن يرى- أنَّها تُحدِّقُ إليه. لم يكُن في وُسعه أن يُميِّزَ ملامحَ وجهِها تحتَ الحِجاب الرَّماديِّ الداكن الذي غطَّاها من رأسها إلى قدمَيها. وقد طأطأت رأسَها بسُرعة كي تختبئَ منه، فتساءلَ عن العاهةِ الرهيبةِ التي يغطِّيها نِقابُها. يُمكِنُ أن

تكون حتَّى بَرصاءَ. وسحبَ يدَه عن ذِراعها.

ثُمَّ خطا حولَها، ومشى مُبتعِدًا عبرَ الجَمع. وشعرَ بأنَّها تُراقِبه، فالتَفَتَ إلى الوراء. فإذا بتلك المرأةِ المحجَّبة تلتفِتُ إليه، وهي ما تَزال واقِفةً وسطَ نَهرِ الناس. وتوقَّفَ مَذهولًا. فدارَت ومضت تمشي باضطِرابٍ وحَذَر على قارِعة الطريق، عبرَ الجَمع، مُبتعِدةً عنه.

اخترقَ مَرقُسَ، على نحوٍ غريب، مَنظرُ تلك المخلوقةِ المحَجَّبة إذ صُدِمَت وهي تشقُّ طريقها عبرَ جموع الناس المزدَحِمين في الشارع الضيِّق قُدَّامَ الحمَّامات. وراقبَها حتَّى دخلَتْ واحدًا من أكشاكِ الأطبَّاء، مُلتَمِسةً علاجًا، بلا شكّ. ثُمَّ دارَ وتوجَّهَ مُبتعِدًا نحوَ دارَتِه.

رحَّبَ به ليكُس، عبدُه الكورِنثيُّ، وأخذَ عباءته. "لقد دعَتكَ والِدَتُك كي تتعشَّى معها هذا المساء، سيِّدي".

"أرسِلْ إليها خَبَرًا بأنِّي لن أتمكَّنَ من رؤيتها. سأزورها غدًا". ثُمَّ دخلَ حُجرتَه الخُصوصيَّة وفتحَ

الشَّعريَّة الحديديَّة المؤدِّية إلى سَطيحَتِه. فإذا بمنظر الأرطميسيون يَحبِسُ الأنفاس. وكان قد دفعَ ثروةً بِهذه الدَّارة من أجل ذلك المنظر، ناويًا أن يأتيَ بهَدسَّة إلى هنا زوجةً له. وقد تخيَّلَ أنَّه سيُمضي كُلَّ صَباحٍ معها على هذه السَّطيحة المكشوفة للشَّمس والمطِلَّة على جمال أفسُس الذي لا يُوصَف.

وأحضَرَ إليه ليكُس خمرًا.

فقال له مَرقُس دونَ أن ينظُرَ إليه: "ماذا تعرِف عن المسيحيِّين، يا ليكُس؟" وهو كان قدِ اشتَرى ليكُس على أثَر عَودته إلى أفسُس. وقد بِيعَ الكورِنثيُّ خادِمًا، وكان مشهورًا بأنَّه تثقَّف على يد سيِّده السابِق، وهذا يونانيٌّ انتحرَ لـمَّا واجَه الإفلاس. وتساءلَ مَرقُس هلِ اشتَمَلَ تثقيفُ خادمهِ على الشؤون الدينيَّة.

"إنَّهم يؤمنون بإلهٍ واحِد، سيِّدي".

"ماذا تعرِف عن إلهِهم؟"

‘‘فقط ما سمِعتُه، سيِّدي’’.

‘‘قُل لي ما سمِعتَه’’.

‘‘إنَّ إله المسيحيِّين هو مسيحُ اليهود’’.

‘‘هُما إذًا الشَّخصُ نفسُه تمامًا’’.

‘‘يصعُبُ الجَزمُ، سيِّدي. فأنا لستُ يهوديًّا ولا مسيحيًّا’’.

فالتَفَتَ مَرقُس ونظر إليه. ‘‘أيَّ دينٍ تعتنقُ دينًا لك؟’’

‘‘إنِّي أُومِن بخدمة سيِّدي’’.

فضَحِكَ مَرقُس ضِحكةً ظريفة. ‘‘جوابٌ آمِن، يا ليكُس’’. ثُمَّ نظرَ إليه بِرَصانة وقال: ‘‘لستُ أمتحِنُكَ. أجِبني بصفتك إنسانًا، لا عبدًا’’.

صمتَ ليكُس طويلًا، حتَّى ظنَّ مَرقُس أنَّه لن يُجيبَ أبدًا. ثُمَّ قال بصراحة: ‘‘لا أعرفُ يا سيِّدي. لقد عبدتُ آلِهةً كثيرين في حياتي، أمَّا هذا فما

عبدتُه قَطّ’’.

‘‘وهل أعانك أيٌّ منهم؟’’

‘‘أعانَني اعتقادي أنَّهم قد يُعينونني’’.

‘‘بماذا تؤمن الآن؟’’

‘‘بِتُّ أُومِنُ بأنَّ كلَّ إنسانٍ يجب أن يتوصَّلَ إلى تَفَهُّمِ حياتهِ ووَضعِه ويستَفيدَ أقصى الاستِفادة ممَّا يُمكِنُ أن يكونا، سواءٌ أعَبدًا كان أم حُرًّا’’.

‘‘إذًا لستَ تؤمِنُ بحياةٍ بعدَ الموت، على غِرارِ الذين يعبدون **سيبيل**، أوِ الذين يسجدون أمامَ يسوعَ الناصريِّ هذا’’.

سمعَ ليكُس الحِدَّة في صوت سيِّده، وأجاب بحَذَر: ‘‘أمرٌ مُعَزٍّ أن يؤمِنَ الإنسانُ بها’’.

‘‘ليس هذا جوابًا، يا ليكُس’’.

‘‘ربَّما لا أملِكُ الأجوِبةَ التي تلتمِسُها، سيِّدي’’.

فتنهَّد مَرقَس، عالِمًا أنّ ليكَس لن يكونَ صادقًا تمامًا معه. وقد كان شأنًا بسيطًا في سبيلِ البقاء أن يكتمَ العَبدُ مشاعِرَهُ الحقيقيَّة. فلو أنَّ هَدسَّة كتَمَت إيمانَها، لكانَت ما تزالُ حيَّة.

قال مَرقُس: ‘‘لا، لستَ تملكُ الأجوِبةَ التي أحتاج إليها. وربَّما لا أحَدَ يملكُها. أفترِضُ، حسبَما تُلَمِّح، أنَّ لِكُلِّ شخصٍ دينَه الخاصّ’’. ثُمَّ شرِبَ خمرتَه، وقال: ‘‘بالنِّسبةِ إلى بعضِ الناس، دِينُهم هو مَوتُهم’’، وحَطَّ الكأس. ‘‘يُمكِنُكَ الانصراف، ليكَس’’.

غابَتِ الشَّمسُ قبلَ مُغادرَة مَرقُس لِلسَّطيحة. فغيَّر رأيَه بشأنِ زيارة أُمَّه. إذ بدا له أمرًا مُلِحًّا أن يُكلِّمَها اللَّيلة.

فتحَ له إيوليوس البابَ لـمَّا وصل. ‘‘سيِّدي، بَلَغَنا خَبَرٌ بأنَّك لن تأتيَ هذا المساء’’.

وإذ دخلَ الرَّدهة، قال مُرتاعًا: ‘‘يُخيَّل إليَّ أنَّ أُمِّي خرجَت هذا المساء’’. ثُمَّ خلعَ كابَه، وطرحَه بإهمالٍ على بَنكٍ رُخاميّ.

فالتَقطَ إيوليوس الكابَ ووضعَه على ذِراعه. ‘‘إنَّها في لاراريُومِها. رجاءً سيِّدي، استَرِح في التريكلينيوم أو الپَريستايْل، وأنا أُبلِّغُ والِدتَك أنَّكَ هنا’’. ثُمَّ غادرَ مَرقُسَ ودخلَ الرِّواقَ المبلَّطَ الذي ينفتحُ على الپَريستايْل. وكانت الزاوية الغربيَّة تحتضِنُ اللَّاراريوم، حيثُ استقرَّ لأجلِ الخُصوصيَّة والسَّكِينة. كان البابُ مفتوحًا، ورأى إيوليوس السيِّدةَ فيبي جالسةً على كُرسيّ، ورأسُها مَحنيٌّ. فلمحَتْه والتفتَتْ نحوَه. فقال بإخلاص: ‘‘عُذرًا على مُقاطعَتي صَلَواتِك، سيِّدتي’’.

‘‘لا بأس، إيوليوس. حقًّا إنَّ إرهاقي الشديدَ هذا المساءَ يحولُ دونَ تركيزي’’. ثُمَّ نهضَت، وفي ضَوء المصباح رأى إيوليوس خطوطَ تَعَبٍ جديدةً في وجهِها الأنيس. ‘‘ما الأمر؟’’

‘‘ابنُكِ هنا’’.

فقالت مُبتسِمة ‘‘أُوه!’’ وأسرعَتْ مُتخطِّيةً إيوليوس.

تَبِعَها العَبدُ وشاهدَ ابنَها يُعانِقُها. فأمِلَ أن يُلاحِظَ

إعياءَها ويتكلّمَ إليها بشأن إنفاقِها كثيرًا من قوَّتها في الاعتِناء بالفُقَراء. إذ كانت قد ذهبَتْ منذ فجرِ ذلك اليوم ولم ترجعْ إلَّا منذُ سُوَيعات. وقد تخطَّى مرَّةً حدَّه في مُحاولته أن يقترحَ عليها بأنْ تسمحَ له، أو للخُدَّام الآخرين، بأن يُوزِّعوا على الفُقراء ما أرادَتْ إيصالَه إليهم من طَعام ولِباس. إنَّما أصرَّت فيبي على أنَّ القيامَ بذلك هو من دواعي سرورها.

وقد قالت: ‘‘لم يكُنِ ابنُ أثينا بخَيرٍ لـمَّا رأيتُها هذا الصباح، وأودُّ أن أرى هل هو أحسنُ حالًا غدًا’’. وكانت تتكلَّم بشأن امرأةٍ أمضى زوجُها عددًا من السنين مُبحِرًا علِى مَتنِ واحدةٍ من السُّفُن القاليريانيَّة، وانجرَفَ من فوق جانبِ السفينة في أثناء عاصِفَةٍ عاتية. فمنذُ وفاةِ السيِّد، صادقَت فيبي جميعَ العائلات التي فقدَتْ أزواجًا أو آباءً في أثناء خدمتِهم على متن السُّفُن القاليريانيَّة، أو في أحواضها.

كان إيوليوس دائمًا يُرافِقُ فيبي في زياراتها للعائلات المحتاجة. ومرَّة رأى امرأةً شابَّة، ترمَّلتْ حديثًا وروَّعَها ألَّا تَجِدَ سبيلًا لإعالة أولادها،

تنبطحُ أمام فيبي حالَ وُصولِها إلى المسكن الموحِش. فارتاعَت فيبي، وأقامَتِ الأرملةَ الشابَّة حالًا وعانقَتها. فلمَّا كانت فيبي هي نفسُها أرملة، باتَتْ تفهَمُ معنى البليَّةِ والأسى. وقد مكثَت بضعَ ساعاتٍ تُكلِّمُ المرأةَ الشابَّة وتُشارِكُها في حُزنِها الشديد، مُقدِّمةً لها العزاء.

احترمَ إيوليوس سيِّدتَه احترامًا جليلًا، لأنَّها كانت تُعطي بدافعِ محبَّةٍ، لا شعورٍ بالمسؤوليَّة وخَوفٍ من الرَّعاع. فالأرامِلُ والأيتام في المساكن الحقيرة الموبوءة بالجِرذان قُربَ أرصفة السُّفُن في أفسُس كانوا يعلمون أنَّها تحبُّهم، وهكذا أحبُّوها في المقابِل.

فالآن راقبَها إيوليوس إذ أضاءَ وجهَها المتعَبَ حبُّها لابنِها. وقالت: ''أرسلَ خادِمُكَ خَبَرًا بأنَّكَ لن تأتيَ هذا المساء، يا مَرقُس. فاعتقدتُ أنَّكَ مشغولٌ بشيءٍ آخَر''.

وقد لاحظ مَرقُس تعبَها، غير أنَّه لم يُعلِّق أيَّ تعليق. كان قد شجَّعَها على أن تستَريحَ أكثرَ في زيارته الأخيرة لها، وقلَّما نفعَتْها نصيحتُه. ثُمَّ إنَّ

أمورًا أخرى أثقلَتْ ذِهنَه هذا المساء.

‘‘كانت لي بِضعةُ أُمورٍ أردتُ أن أُفكِّر فيها مَلِيًّا’’.

لم تُلحَّ عليه. ودخلا التريكلينيوم، فأخذَها مَرقُس إلى أريكَتِها قبلَ أن يتَّكئَ هو على أُخرى. ورفضَ الخمرةَ التي قدَّمها إيوليوس له، فهمسَتْ فيبي بتَوجيهاتٍ إلى إيوليوس كي يُحضِرَ إليه خُبزًا وفاكِهةً ولَحمًا مُشَرَّحًا، ثُمَّ انتظرتْ بصَبر حتَّى يتكلَّمَ مَرقُس، عالِمةً أنَّ أسئلتَها ستُفهَم بشكلٍ آخر؛ لأنَّ مَرقُس كان يكرَه دائمًا أن يُسألَ أسئلةً عن حياته. فمن شأنها أن تتعلَّم أكثر بواسطة الإصغاء. والآن، بدا راضيًا بتمضِية الوقت في أخبارِ السُّفُنِ الراجعة والبضائع التي جلبَتها.

‘‘رجعَت إحدى سُفُنِنا من قَيصريَّة، وجلبَتْ بعضَ الأقمشة الزَّرقاء الجميلة والمطرَّزات من قافِلَة الشَّرق. يُمكِنُني أن آتيَكِ بأيِّ شيءٍ تُريدينَه’’.

‘‘قلَّما أحتاجُ إلى مُطرَّزاتٍ، يا مَرقُس. ولكنِّي أودُّ الحصولَ على بعض القُماش الأزرق... والصُّوفِ إذا كان لَدَيك’’. فمن ذلك، تستطيع أن تصنعَ أثوابًا

لأرامِلِها.

‘‘وصلَ شيءٌ من دِمشق صباحَ اليوم، من أجوَدِ نوعيَّة’’.

راقبَتْه ينتقي من الطعام قليلًا وهو يتحدَّث بشأن الصادرات والواردات، ورُتوبِ عَمَلِه، وأشخاصٍ قابلَهُم. وطوال مدَّة إصغائها له، علِمَت أنَّه لم يتكلَّمْ بما يشغلُ بالَه فعلًا.

ثُمَّ قال، مُفاجِئًا إيَّاها: ‘‘هل حدَّثَتكِ هَدسَّة يومًا بشأن عائلتها؟’’

يقينًا أنَّه يَعرِفُ أكثَر ممَّا عَرَفت أُمُّه. فقد كان مُغرَمًا بالفتاة العَبدة غَرامًا شديدًا. ‘‘ألَم تتكلَّم معها قطُّ بشأن عائلتها؟’’

‘‘لم يبدُ الأمرُ مُهِمًّا قطّ. افترَضْتُ أنَّهم ماتوا في مدينة القُدس. هل أخبرَتكِ مرَّةً بأيِّ شيءٍ عنهم؟’’

تفكَّرَتْ فيبي في الماضي وقتًا طويلًا. ‘‘إذا لم تَخُنّي الذاكِرة، كان أبوها فخَّاريًّا. لم تذكُرْ لي

اسمَه قطّ، ولكنَّها قالت إنّ الناسَ كانوا يأتون من أنحاءٍ بعيدةٍ كي يُراقِبوه يعمَلُ ويتحدَّثوا معه. وكان لها أيضًا أخٌ وأُختٌ صُغرى. كان اسمُ أُختِها ليئة. وأنا أتذكَّرُه لأنّي حسبتُه اسمًا جميلًا جدًّا. وقد قالَتْ هَدسَّة إنَّ أُختَها ماتَتْ عندما أُخِذَتا إلى خرائب الهيكل اليهوديّ واحتُجِزتا مع الأسيرات في دارِ النِّساء''.

''هل ماتَ أبوها وأُمُّها في الأسرِ أيضًا''.

''لا. قالت هَدسَّة إنَّ أباها انطلقَ إلى المدينة كي يُعلِّمَ عن يسوع. ولم يَرجع قطّ. وقد ماتت أُمُّها في ما بعدُ من الجوع، ثُمَّ قُتِلَ أخوها بسيفِ جُنديٍّ رومانيٍّ عندما سقطَتِ المدينة''.

فتذكَّرَ مَرقُس كم كانت هَدسَّة نحيلةً لـمَّا رآها أوَّلَ مرَّة. كان رأسُها محلوقًا وقد بدأ شعرُها يطلع مُجدَّدًا منذُ عهدٍ قريبٍ جدًّا. وهو قد حسِبَها بَشِعة. وربَّما قال ذلك أيضًا.

قال: ''ابنةُ فخَّاريٍّ في مدينة القُدس''، مُتسائلًا أمِن شأن معرفته ذلك أن تُساعِدَه بأيَّة طريقة.

‘‘كانت عائلتُها من الجليل، لا من القُدس’’.

‘‘إذا كانوا من الجليل، فماذا كانوا يفعلون في مدينة القُدس؟’’

‘‘لستُ مُتَيقِّنة، مَرقُس. يبدو أنِّي أتذكَّر أنَّ هَدسَّة قالت إنَّ عائلتَها كانت ترجعُ إلى مدينة القُدس مرَّةً في السنة إبَّانَ عيد الفِصح اليهوديّ. فقد كانوا يَذهبون كي يحتفِلوا بالشركة المقدَّسة مع مؤمِنين آخرين من أتباع الطريق’’.

‘‘وما الشَّرِكة المقدَّسة؟’’

‘‘هي وليمةُ خُبزٍ وخمرٍ يتشاركُ فيها الذين يقبَلون السيِّدَ المسيحَ ربًّا لهم. إنَّهم يأكلونها إحياءً لِذكراه’’. لقد كانت أكثرَ من ذلك بكثير، ولكنَّ مَرقُس لن يفهم. ورأتِ السؤالَ مُنبعِثًا من عينَيه وتجهُّمِ سِيمائه. فهل ساوَره الشَّكّ؟

‘‘أُمَّاه، يبدو أنَّكِ تعرفين مِقدارًا كبيرًا عن الممارَسات المسيحيَّة؟’’

فلم تُرِدْ أن تُزعجَه، لذا اختارَتِ السبيلَ الأيسر.

''لقد أمضَت هَدسَّة في بيتنا أربع سنين. إنَّها باتَت عزيزةً جدًّا عندي''.

''في وُسعي أن أفهمَ كيف نشدَ والدي على الأرجح الخُلودَ مع نَفَسِه الأخير، ولكنْ...''

''لقدِ الْتَمَسَ أبوك السلامَ، يا مَرقُس، لا الخُلود''.

وقفَ مَرقُس قَلِقًا. لقد أحسَّ التغييرَ في والِدته، وخشيَ ما يَعنيه. ولم يُرِد أن يسأل. لقد خَسِرَ هَدسَّة أصلًا بسبب إيمانها غيرِ المساومِ بإلهِها غيرِ المنظور. فماذا يكونُ إذا كانت أُمُّه الآن تعبدُ الإله نفسَه؟ انعقدَت مَعِدَتُه بمُجرَّدِ أن خطرَت له هذه الفكرة.

''لماذا تَطرَحُ هذه الأسئلةَ كلَّها، يا مَرقُس؟''

''لأنّي أُفكِّر في العمل باقتراحِكِ والذَّهابِ باحِثًا عن إله هَدسَّة''.

سحبَت فيبي شَهقةً خفيفة، وارتقصَ قلبُها فرحًا. ''هل تنوي أن تُصلِّي؟''

‘‘لا، بل سأذهب إلى بلاد اليهوديَّة’’.

فأذهلَها جوابُه، وقالت: ‘‘اليهوديَّة؟ لماذا يجب أن تمضيَ بعيدًا هكذا؟’’

‘‘أيُّ مكانٍ للعثور على إلهٍ يهوديٍّ أفضلُ من بَلَدٍ يهوديّ؟’’

حاولَتْ أن تستَفيقَ من صدمةِ إعلانه، مُتَشبِّثةً بِبَصيصِ الأمَل الذي لاحَ في مضمونِ كلماته. ‘‘إذًا، أنت تؤمن بأنَّ إله هَدسَّة مَوجودٌ حقًّا؟’’

إلَّا أنَّه سحقَها، إذ قال بصَراحة: ‘‘لستُ أدري هل أُومِنُ بأيِّ شيء. ولكنْ رُبَّما أفهمُها فَهمًا أفضَلَ وأشعُر بِأنِّي أقربُ إليها في بلاد اليهوديَّة. عسى أن أعرِفَ لماذا اعتنقَتْ دِينَها هذا على نحوٍ غايةٍ في العِناد’’. ثُمَّ استَندَ إلى عمودِ رُخامٍ وحدَّقَ إلى البِرِيستايْل خارِجًا، حيثُ كان قد كلَّمَ هَدسَّة كثيرًا في ما مضى. ‘‘قبلَما غادرتُ روما أوَّلَ مرَّة وجئتُ إلى هنا معكِ ومع والِدي، كُنَّا أنا وأصدقائي نجلسُ ساعاتٍ طويلةً شارِبينَ الخمرَ ومُتحدِّثين’’.

والتفتَ كي يواجهَها من جديد. ‘‘مَوضوعان كان من المضمون أن يُثيرا نقاشًا مَشبوبًا: السِّياسة والدِّين. وقد تعبَّدَ مُعظَمُ أصدقائي لآلِهةٍ أطلَقوا لهم عِنانَ لذَّاتِهم: إيزيس، أرطميس، باخُس. إلَّا أنَّ آخرِينَ تعبَّدوا بدافعِ الخوفِ أو الحاجة’’.

ثُمَّ بدأ يمشي وهو يتكلَّم، كأنَّما المشيُ يُساعِدُه على التفكيرِ مَلِيًّا في مُختلِف الأفكار فيما هو يطلبُ خُلاصةً سريعة الزَّوالِ راغَت منه. ‘‘أمرٌ مَنطِقيٌّ، أليس كذلك؟ الجنود يسجُدون لِمارْس. الحَبالى يتضرَّعنَ إلى حيرا لأجلِ ولادةٍ سالِمة. الأطِبَّاءُ ومَرضاهُم يرفعون أيديَهم أمامَ أسكليپيوس لإتْيانهم بالشِّفاء. الرُّعاةُ يلجأون إلى إلهِ جِبالٍ وأماكِنَ مُوحِشة، مثل پان’’.

‘‘إذًا، ماذا أنتَ قائلٌ، يا مَرقُس؟ أتقولُ إنَّ الإنسانَ يخلقُ آلِهَةً حسبَ حاجاته ورَغباته؟ إنَّ إلهَ هَدسَّة لم يُوجَد قطُّ إلَّا بدافعٍ من حاجتها إلى فادٍ يُحرِّرها من عُبوديَّتها؟’’

جعلَته أسئلتُها التي تفوَّهتْ بها بهدوءٍ يلجأُ إلى الدِّفاع. ‘‘ما أقولُه هو إنَّ البَلَدَ الذي يسكنُ فيه

الإنسانُ يُقولِبُ طريقةَ حياته. أفيَكونُ أمرًا لا يُعقَلُ إذًا أن يُقَولبَ الإنسانُ إلهًا يَفي بحاجاته؟"

أصغت فيبي إلى نَظَريَّاته بقلبٍ يتفطَّر. لقد كان كِلا وَلَديها ضالَّين، وكلاهما مُعذَّبَين، ولم يبدُ أنَّ في وُسعها أن تفعلَ أيَّ شيءٍ سِوى تَركِهما يسلُكان طريقَهما الخاصَّ. إنَّ مَجهوداتِ دَسِمُس لضَبطِ إقبالِ جوليا الطائش على المباهج باءَتْ بفشلٍ كارثيّ، وهَدسَّة هي التي قرَّبتْ مَرقُس إلى موقِد العائلة. والآن، فيما هي جالسةٌ هنا في التريكلينيوم، تُصغي إلى ابنها، والهدوءُ بادٍ عليها، أرادَت أن تزعقَ وتصرخَ وتنتفَ شعرَها. لقد شعرتْ بأنَّها واقفةٌ على شاطئٍ آمِن فيما كان ابنُها يغرقُ أمامَ عَينَيها في بحرٍ مُظلِمٍ يبتلعُ مَن يُبحرُ فيه.

ماذا أقول، يا ربّ؟ انطبَقَ حَلقُها بإحكام، ولم تستَطع أن تنبِس بكَلِمة.

ماذا سيحلُّ بابنها إذا واصلَ سُلوكَ سبيله الحاليّ؟ إذا كانت هَدسَّة، بكُلِّ حكمتِها ومحبِّتها، لم تتمكَّن من إقناعه، فكيف تتمكَّن هي من

ذلك؟ وهكذا صرخَتْ في قلبها: **اللهُمَّ، إنّ ابني عنيدٌ كأبيه، وشديدُ الشَّغف والجُموح مِثلَ أُخته. فماذا أفعل؟ أيُّها الربُّ يسوع، كيف أنُقِذه؟**

لاحظَ مَرقُس تضايُقَ أُمِّه، فذهبَ إليها. وجلسَ على أريكَتِها، ثُمَّ أمسَكَ إحدى يدَيها بينَ يِدَيه. ‘‘لم يكُن قصدي أن أُسبِّبَ لكِ مَزيدًا من الكَرْب، يا أُمَّاه’’.

‘‘أعرِفُ ذلك، يا مَرقُس’’. لقد شاهَدَتْه يرجع إلى روما، ظانَّةً أنَّها لن تَراه على مدى بضعِ سِنين، ثُمَّ رَجَعَ أكثرَ تضايُقًا من الوقت الذي غادَرَ فيه. وها هو الآن يقولُ إنَّه مُضطَرٌّ إلى الرَّحيل من جديد، وهذه المرَّةَ إلى بَلَدٍ مُبغِضٍ لروما، تُمَزِّقُه الحَربُ. ‘‘ولكنَّ اليهوديَّة، يا مَرقُس. **اليهوديَّة**...’’

‘‘مَوطِنُ هَدسَّة. أُريدُ أن أعرِفَ لماذا ماتَتْ. عليَّ أن أتبيَّنَ الحقيقة، وإذا كان ثمَّةَ إلهٌ فسأجِدُه هناك. ليست لَدَيَّ أجوِبَةٌ، يا أُمِّي، ولا يبدو أنِّي سأجِدُ الأجوِبَة التي أحتاجُ إليها، هنا في أفسس. أشعرُ كما لو كنتُ واقِفًا على رَملٍ يغور.

إنّ صَوتَ الرَّعاع ما زال يرنّ في أذُنيَّ’’.

كانت قد رأتِ الألمَ في عَينَيه قبلَما طأطأ رأسَه، وأرادَتْ بشدَّةٍ أن تُعزِّيَه، أن تحمِلَه على ذراعَيها وتُهَزهِزَه كما كانت تفعل لـمَّا كان وَلَدًا صغيرًا. إلَّا أنَّه رَجُلٌ الآن، وقد منعَها شيءٌ أبعدُ من ذلك بَعدُ وقالَ لها إنَّها قد قالَتْ ما يكفي.

اشتدَّتْ يداه على يَدِها. ‘‘لا أستَطيعُ أن أشرحَ ما أشعرُ به، يا أمِّي. أريدُ لكِ أن تفهَمي، ومع ذلك لستُ أفهمُ بَعدُ الأمرَ بنفسي’’. ثُمَّ نظرَ في عينَيها ثانيةً. ‘‘أتوقُ إلى سَلامِ مُنحدَراتِ جبالٍ لم أمشِ عليها قَطُّ، وإلى رائحةِ بُحَيرَةٍ داخليَّةٍ لم أرَها قطُّ’’. واغرَورَقتْ عَيناه. ‘‘لأنَّهاهي كانت هناك’’.

ظنَّت فيبي أنَّها فَهِمَت ما كان يقولُه ابنُها لها. قد عَلمَت كم كان من شأن هَدسَّة أن تحزنَ إذا عرَفَت أنَّ مَرقُس قد نَصَبَها على قاعِدَةِ صَنَم يُعبَد. فإنَّ هَدسَّة كانَت القَمَرَ عاكِسًا نورَ الشَّمس في كلِّ ما قالَته وفعلَته. لم تكُن هي نفسُها النورَ، ولا ادَّعَت قطُّ أنَّها النور. غيرَ أنَّ ذلك

هو ما قد صارَته بالنِّسبة إلى مَرقُس. لقدِ ارتفَعَت حياتُه بحُبِّه لها. فهل تستقرُّ هنالك أيضًا؟

أرادَتْ أن تقولَ شيئًا ما، أن تتفوَّه بحِكمةٍ ما تُحوِّله عن السبيل الذي يسيرُ عليه، ولكنْ لم يُوافِها أيُّ شيء. فأيُّ خِيارٍ لها سوى أن تَدَعَه يذهبُ وتتَّكِلَ على الله كي يُرشِدَه؟ لقد قال الرسول يوحنَّا للمُجتمِعين إنَّ السيِّد المسيح وَعدَ قائلًا: **اطلبوا، تَجِدوا.**

هكذا قال الربُّ يسوع.

الربُّ يسوع.

وضعَتْ فيبي يدَها برِقَّة على خَدِّ مَرقُس، مُدافِعةً دُموعَها وراسِمةً كلِماتِ الرجاء التي تفوَّه بها السيِّد المسيحُ حوالَيها كتُرسِ حِمايةٍ من الظَّلام الذي قيَّدَ ابنَها أسيرًا.

"مَرقُس، إذا كنتَ تُؤمنُ بأنَّك لن تَجِدَ أجوِبَتِكَ إلَّا في اليهوديَّة، فإلى اليهوديَّة يجب أن تذهب". ثُمَّ تعانَقا، فضمَّته وقتًا طويلًا ثُمَّ أطلقَتْه، مُصلِّيةً

بحرارةٍ صامِتة.

أيُّها الربُّ يسوع، المُخلِّص المُبارك، أُسلِّمُكَ ابني. أرجو أن تحرسَه وتحمِيَه منَ الشرِّير. أيُّها الربُّ الإله، يا أبا كُلِّ خليقة، ادحَرْ خَوفي على ابني وعلِّمني أن أتوكَّل عليك بكُلِّ ثقة.

وإذ تعلَّقَت بذلك، قبَّلَتْ خَدَّ مَرقُسٍ مُبارِكةً، وهمسَت: ‘‘افعَلْ ما ينبغي أن تفعلَه’’. وهي وحدَها علِمَت أنَّ الكَلِمات لم تُوجَّه إلى ابنِها، بل إلى الله غير المنظور الذي توكَّلَتْ عليه بكُلِّ قلبِها.

٥

اتَّكأ أَلِكسَندر ديموسيدِس أماندينُس على البنك في الكَلِداريوم، فيما تابعَ صديقاه نِقاشَهُما بشأن مُمارَسة الطِّبّ. ولم يكُن قد رأى أيًّا منهما مُنذُ مُغادَرتهم وصايةَ فليغون، حيثُ كان الثلاثةُ يَدرسون تحتَ يدِ الطبيبِ الأُستاذ. وكان فِتروفيوس پلاوتُس مِيوزا يَلقى صعوبةً دائمًا في مُجاراة العمل الكتابيّ الذي يطلبُه فليغون، في حين أنَّ سَلسُس فاَيدرُس تيمالخيو تقبَّل كُلَّ كلمةٍ يقولُها الطبيبُ الأُستاذ باعتبارها المرجعَ الحاسم. فبعدَ سنةٍ من التعلُّم على يَدِ فليغون، قرَّر فِتروفيوس أنَّه ابنُ التَّجرِبة، وبحثَ عن طبيبٍ أستاذٍ يُشارِكُه في آرائه. وقد وجدَ كفايتَه، على ما يَظهر، في كليتاس. أمَّا أَلِكسَندر فقد تحفَّظ في مُلاحظاته عليه، مُقرِّرًا أنْ مهما قالَه في هذا الطبيب، فسيَلقى أُذُنًا صمَّاءَ على كلِّ حال.

والآن، جلسَ فِتروفيوس قُبالةَ أَلِكسَندر، مُسنِدًا ظهرَه إلى الجِدار، ومادًّا ساقَيه القويَّتين أمامه، مُصرِّحًا بأنَّ الأطبَّاء الحقيقيِّين ينالون قُدراتِهم

الشّفائيَّة مُباشَرةً من الآلِهة، وهذا رأيٌ لا شكَّ أنَّ كليتاس لقَّنَه إيَّاه. فابتسمَ ألِكسَندر لنفسه، مُتسائلًا إذا كان سَلسُس الشابُّ قد أدركَ أن ڤِتروڤيوس كان يتَباهى بدافعٍ من شعورٍ بالنَّقص. وكثيرًا ما كان فليغون يُهنِّئ سَلسُس على سُرعةِ استيعابِه للمفاهيم الطبِّيَّة، ولا سيَّما تلك التي يُحبِّذُها الأُستاذُ نفسُه.

قال سَلسُس من حيثُ كان واقِفًا بقُربِ الجُرنِ الذي ينبعثُ منه البُخار: "إذًا، أنت الآن تعتقدُ أنَّك هِبَةٌ من عند الآلِهة". وقد كان شاحِبًا، والعَرَقُ يتقطَّرُ من جِسمِه، وليسَ في مِزاجٍ يُتيحُ له أن يتقبَّل تَباهيَ ڤِتروڤيوس: "صلِّ إلى الآلِهَة بقَدْرِ ما تشاء؛ أمَّا أنا فأتمسَّك بما يُعلِّمه فليغون. وهو قد أثبتَ أنَّ المرضَ ينتج من اختِلالٍ في التَّوازُن بين العناصِر التي يتأصَّل كلٌّ منها في النار والهواء والتُّراب والماء".

فقال ڤِتروڤيوس: "قد أُثبِتَ! فقط لأنَّ فليغون يقولُ إنَّ الصحَّة تنتجُ من توازُن سوائل الجسم، تتقبَّلُ أنت ذلك باعتباره حقيقة. ألَدَيك عَقلٌ خاصٌّ بك؟"

أجابَ سَلسُس: ‘‘الحقيقة أنّ لَدَيَّ عقلًا خاصًّا بي، عقلًا يَكفي لعدم تقبُّل كلامِك التَّافِه’’. وانتقلَ إلى مكانٍ أقربَ إلى البُخار الحارِّ المنبَعِث من الحِجارة الساخنة.

‘‘لو كان ذلكَ الشَّيخُ على حقٍّ بشأنِ كيفيَّة مُعالجةِ المريض، لكُنتَ تمكَّنتَ من قَهْر هذه الحمَّى التي تنتابُك وتعانيها منذ دِراستِك في روما. فأنتَ دأبتَ في «مُوازَنة العناصرِ» منذُ الْتقَينا. ولو صحَّت نَظَريَّاتُه، لكُنتَ الإنسانَ الأوفرَ صِحَّةً في الإمبراطوريَّة!’’

فقال سَلسُس مُتصلِّبًا: ‘‘الحُمَّى أخفُّ ممَّا كانت أمسِ’’.

وأطلقَ ڤِتروڤيوس شخرةَ سُخرية، قائلًا: ‘‘آهَه، إذًا ساعدَتْك المقيِّئات أو سَحبُ دمك بالفَصْد. لو كان ذلك كَذلك حقًّا، ما كنتَ واقِفًا هناك ترتجفُ في هذا الجوِّ الحارّ!’’

حدَّق إليه سَلسُس بارتِباكٍ مُتزايد. ‘‘إذا كنتَ مُتيقِّنًا تمامًا بقُدراتِك التي ألهمَتْك إيَّاها الآلِهة،

فقدِّمْ لي بُرهانًا! حَسَبَ مَنطِقِ كليتاس، كلُّ ما يحتاجُ إليه الطبيبُ للقيام بهذا هو أن يتفوَّه بالكَلِمات الصحيحة ويؤدِّيَ خفَّةَ يَدٍ بارِعةً حتَّى يُنتجَ شِفاءً! إذًا، تَمتِم بكلماتك السحريَّة، يا ڤِتروڤيوس، ولنَرَ هل تستطيعُ أن تشفيَ شخصًا مَريضًا **حقًّا**. لِنرَ **مَوهبتَك** هذه في مَيدانِ العَمَل!"

فقال ڤِتروڤيوس بِعَجرَفة: "ليسَت الكلماتُ السِّحريَّةُ إلَّا البداية؛ فالعِلاجاتُ الحيوانيَّة والنباتيَّة..."

ورفَعَ سَلسُس يده. "إذا كنتَ تُوشِكُ أن تقترحَ عليَّ أن أتجرَّعَ شرابًا مُخمَّرًا كذاك الأخير الذي أعدَدتَه بمَزجِ رَوثِ أسَد ودَمِ مُحارِبٍ مُحتَضَر، فاكتُمْ نَفَسَك. لقد كادَ أن يقتُلَني!"

فجلسَ ڤِتروڤيوس مُعتدِلًا. "ربَّما كان ما تفتقرُ إليه هو الاحترام اللائق للآلهة!"

"إذا قبَّلتُ قدمَيك، فهل كان من شأن ذلك أن يُحدِثَ فرقًا؟"

وتوسَّطَ ٱلِكسَندر لـمَّا رأى أنّ ما بدأ بصفته تَبادُلَ أفكارٍ مُفيدًا صارَ الآن مُجادَلة. ‘‘إنَّ ما تُعانيه، يا سَلسُس، هو وَبأٌ عامٌّ يُعانيه كثيرون ممَّن يُقيمون في روما. وأعتقِدُ أنَّ له علاقةً ما بالفَيَضانات النَّتِنة التي تحدُثُ هناك’’.

قلَّب ڤِتروڤيوس عينَيه واتَّكأ إلى الوراء مُجدَّدًا. ‘‘أهذه واحِدةٌ أخرى من نظريَّاتِك، يا ألِكسَندر؟ أتَباحَثْتَ فيها مع فليغون؟ أم ما يزالُ لا يتكلَّم إليك بسبب تَحَدِّيكَ بشأنِ تلكَ الفتاةِ العَبدةِ التي هرَّبتَها من ساحة المحاربين؟’’

وتجاهَلَه ألِكسَندر بينما استمرَّ يتكلَّم إلى سِلسُس. ‘‘لقد درستُ في روما قبل المجيء إلى أفسُس، وكتبتُ مُلاحظاتٍ شاملةً عن مُشاهداتي. إنَّ الحمَّى تأتي وتذهب، تَفصِلُ بين نَوباتها أحيانًا أسابيعُ أو أشهُر. وأحيانًا تتفاقم...’’

فأومأ سَلسُس برأسِه مُوافِقًا: ‘‘هذه أعراضي تمامًا’’.

ونظرَ ڤِتروڤيوس إلى سَلسُس. ‘‘سيقولُ لكَ

ألِكسَندر مرَّةً أخرى إنّ المرضَ تَنشُره جَسَيماتٌ بالِغةُ الصِّغَر، وإنَّه لو سُجِّلَتِ الحالاتُ الطبِّيَّة بأسلوبٍ مَنهجيٍّ مَنطِقيٍّ، لكان في وُسْع المرء أن يجدَ نَمَطًا مُشتَركًا''. ثُمَّ لوَّحَ بيَدِه في مَرَح. ''بواسطةِ الاختبار، أو بُأسلوبٍ قائم على التَّجرِبة والخطأ- إذا شئتَ- يُمكِنُ الاهتداء إلى عِلاجٍ ناجع لأيِّ مَرَضٍ تقريبًا''.

فابتسمَ له ألِكسَندرُ ساخِرًا. ''أحسنْتَ التلخيص، يا ڤِتروڤيوس. من شأن المرء أن يظنَّ أنِّي جعلتُك تَعتَمدُ طريقةَ تفكيرٍ جديدة''.

فقال ڤِتروڤيوس شِبهَ مُذعِن: ''قد تكونُ مُقنِعًا أحيانًا، ولكنَّ إقناعي يستَوجبُ مَنطِقًا أفضلَ من مَنطقك. إنَّ نظريَّاتك، يا ألِكس، لا تبدو معقولةً البتَّة، ولا سيَّما في ضَوءِ كَون جميع الأمراض مخفيَّةً عن الإنسان ومَوجودةً في أيدي الآلهة. ولذلك، فمن البديهيِّ إذًا أنَّ المرءَ ينبغي أن يلجأ إلى الآلهة فقط''.

قوَّس ألِكسَندر حاجِبَيه، قائلًا: ''إذا كان ما تقولُه صحيحًا، فلِماذا تكلُّفُ المشقَّةِ في تدريب أطبَّاءَ

أصلًا؟’’

‘‘لأنَّ الأطِبَّاء يجب أن يكونوا حَسَني الاطِّلاع على ما يسرُّ الآلِهة’’.

فابتَسمَ ألِكسَندر. ‘‘لقدِ اختلطَتْ عليك مِهنتاك، يا صديقي. ما كان ينبغي لك أن تتدرَّبٍ لتَكونَ طبيبًا أبدًا. فبِحَماستك للدِّين، ينبغي أن تكونَ مُرتدِيًا ثِيابَ كاهِنٍ مُبتدئ، أو رُبَّما عرَّافِ هيكل. في وُسعِكَ أن تتعلَّمَ كيف تَنزعُ بإتقانٍ أمعاءَ المواعِزِ البائسة وتقرأُ العلامات التي تُبيِّنُها أحشاؤها’’.

‘‘أتهزأُ بالآلهة؟’’

الْتَوى فَمُ ألكِسَندر بابتسامةٍ ساخِرة. ‘‘إنِّي أعبُدُ أپولو وأسكليپيوس، مِثلَكَ تمامًا، فضلًا عن جمهرةٍ من آلهة الشِّفاء الأُخرى أمثال هايجِيا وپانكِيس. ومع ذلكَ كُلِّه، ما زلتُ أجِدُ من المستحيل أن أُومنَ بأنَّ أيَّ إنسانٍ يستطيعُ أن يؤثِّرَ في إلهٍ ما حتَّى يعملَ له ما يُريد بمُجرَّدِ التفوُّهِ بكلماتٍ سحريَّة وإحراقِ شيءٍ من

البَخُور’’.

وقال سَلسُس: ‘‘أنا أُوافِق’’، لافًّا مِنشَفةً حولَ كتِفَيه، ثُمَّ أضاف: ‘‘ولكنْ ما الحلّ؟’’

‘‘دِراسةٌ أكثرُ تَعَمُّقًا للتَّشريحِ البَشَريّ’’.

فارتسمَ على وجه ڤِتروڤِيوس تعبيرٌ هازئٌ، وقال: ‘‘إنَّ ما يعنيه ألِكسَندر بقَوله «دراسةٌ أكثر تعمُّقًا» هو تلك الممارَسة التي يُناصِرُها فليغون باستِمتاع رهيبٍ جدًّا: تشريحُ الأحياء’’.

‘‘إذًا لماذا درستَ تحتَ يدِ فليغون أصلًا؟’’

‘‘لأنَّه جرَّاحٌ بارِع لامع. في وُسعه أن يبترُ ساقَ إنسانٍ في أقلَّ من خمس دقائق. هل راقبتَه مرَّةً وهو يشتغل؟’’

أجاب ڤِتروڤيوس مُرتَجِفًا: ‘‘مرَّاتٍ أكثرَ من أن أعُدَّها. فما زالَ صُراخُ مَرضاهُ يرنُّ في أُذُنَيَّ’’.

وسأل سَلسُس ألِكسَندر: ‘‘مَن طبيبُك الأُستاذُ الآن؟’’

‘‘لا أحَد’’.

‘‘لا أحَد؟’’

‘‘لقد شرعتُ أُمارِسُ الطبَّ مُستقِلًّا’’.

فقال سَلسُس مَدهوشًا: ‘‘هنا في الحمَّامات؟’’ وكان أمرًا شائعًا إلى حدٍّ بعيد أن يبدأ الأطِبَّاء مُمارَسة مِهنَتِهِم في الحمَّامات العموميَّة، ولكنْ ليسَ مَن كان يتمتَّع بمَوهِبةِ ألِكسَندر وقُدرَتِه. فإنَّه كان قد أعدَّ نفسَه لِقاعاتٍ أفخمَ من قاعات الحمَّامات.

‘‘في سقيفةٍ قريبةٍ خارِجًا’’.

فقال ڤِتروڤيوس: ‘‘أنتَ واعدٌ على نحوٍ أكبرَ بكثيرٍ من أن تكونَ مجرَّد مُمارِسٍ الطبَّ في سقيفة. كَلِّمِ كليتاس. أنا سأُوَصِّي بكَ’’.

جاهَدَ ألِكسَندر كي يكونَ لَبِقًا، فقال: ‘‘كليتاس لا يُمارِسُ الجِراحة، وهو يُناصر نظريَّاتٍ أجِدُها... مُقلِقة’’. وقد شعرَ بأنَّ جوابَه غيرُ مُرضٍ، إلَّا أنَّه لم يشأ أن يقولَ بصريحِ العبارة إنَّه يعتقد أنَّ

كليتاس دجَّال. فالرجُل سمَّى نفسَه طبيبًا أُستاذًا، ولكنَّه كان بالأكثر ساحرًا مُزيَّنًا بأثوابٍ مُثيرةٍ للإعجاب ومَوهُوبًا بصَوتٍ خطيب. صحيحٌ أنَّه كان ناجحًا، لكنَّ نجاحَه يكمنُ في حقيقة كونه قدِ اختارَ دائمًا مرضى كانوا أغنياء جدًّا وغيرَ مُبتلين بأمراضٍ خَطِرة. وهكذا، فإنَّ ﭬِتروﭬيوس- بحُسنِ منظرِه ولهجتهِ الأرِستوقراطيَّة وقلّةِ أخلاقه- سيُحرِزُ نجاحًا ملموسًا في ممارسةِ طِبٍّ من النَّوع نفسِه.

وما لَبِثَ سَلسُس أن قال: ‘‘مهما كان تشريحُ الأحياء كريهًا، فهو أمرٌ لا بُدَّ منه إذا كُنتَ ستَصيرُ طبيبًا’’.

فقال ﭬِتروﭬيوس بازدِراء: ‘‘لستُ أفهمُ كيف يُمكِنُ أن يعملَ تعذيبُ المُواطنين وقتلُهم على تقدُّمِ الطِّبّ’’.

وردَّ سَلسُس بغضَب: ‘‘لم يقترِح فليغون قَطُّ أن نستخدمَ أيَّ إنسانٍ كيفَما كان. فأنا لم أجرِ تشريحَ الأحياء إلَّا في مُجرِمين محكومين من ساحة المحاربين’’.

‘‘هل يصرخون صُراخًا أخفَّ حِدَّةً من صُراخِ الشخصِ العاديّ؟’’

فتصلَّبَ سَلسُس. ‘‘وبأيِّ طريقةٍ أُخرى يُحسِّنُ الطبيبُ مهاراتِه في الجراحة، إنْ لم يُمارِسِ العملَ في شخصٍ ما؟ أم تظنُّ أنَّ شخصًا مُصابًا بالغنغرينا في ساقه ينبغي أن يُعالَج بكلماتِ السحر وبِدواءٍ كريهِ الطَّعم من أجنحة الخفافيش وألسِنَة السمندل؟’’

أصابَتْ سُخريةُ سَلسُس مَرماها. فاحمَرَّ وجهُ ڤِتروڤيوس. ‘‘أنا لا أستعمل أجنحةَ الخفافيش’’.

‘‘هَه، إذًا رُبَّما كان واجِبًا أن تُخمِّرَ قليلًا منها لِتَرى هل تَنفعُ أفضلَ من دوائكَ الأخير... ذاك الذي لم ينفع قطٌّ!’’

وإذ شاهدَ أَلِكسَندر وجهَ ڤِتروڤيوس يزدادُ تجهُّمًا بَعدُ، لوى فمَه بابتِسامةٍ ساخِرة. ‘‘ربَّما ينبغي لنا أن ندخُلَ الفريجيداريوم لتبريد أجسامنا’’.

فقال ڤِتروڤيوس: ‘‘فِكرةٌ جيِّدة’’، ومشى مُتثاقِلًا

إلى خارِجِ الغُرفة الصغيرة.

تفوَّهَ سَلسُس بشَتيمة. وكان قاعدًا على بنكٍ أقربَ ما يكونُ إلى الجُرنِ الذي يَنبعِثُ منه البُخار. وقد بدا عليه الشُّحوبُ واعترَته قُشَعْريرةٌ، وأخذَ العرقُ يتصبَّب من وجهه. "اعتَدتُ أن أُعجَبَ به. والآن أرى أنَّهُ غبيٌّ مغرور".

"ما أُعجبتَ به كان علاقاتِه العائليَّةَ". وتَناوَلَ ألِكسَندر مِنشَفةً أخرى وأتى بها إلى سَلسُس. لقد كان يفهمُ شعورَ سَلسُس بالنَّقص. فهو نفسُه سبقَ أن شعرَ به لدى دخوله كلِّيَّةَ الطبِّ في روما؛ إذ كان الطالبَ الوحيدَ الذي كان أبوه عَبدًا في ما مضى، وهذه حقيقةٌ كان لها في روما، حيثُ توافَرت له موارِدُ ماليَّةٌ ثابتة، تأثيرٌ أقلُّ ممَّا لها الآنَ في أفسُس، حيثُ كان قدِ استهلكَ مُعظمَ ميراثِه. فإنَّ الناسَ كانوا مَيَّالين إلى التَّغاضي عن سُلالةِ المرء على نحوٍ أسهلَ بكثير حينَ يكونُ لَدَيه مَخزنٌ من الثَّراء. وذلِكَ ما لم يكُن لَدَى ألِكسَندر الآن.

ثُمَّ جذبَ أفكارَه رُجوعًا إلى سَلسُس. وناولَه

المنشَفةَ قائلًا: ‘‘ربَّما كانت هذه الحرارةُ الرَّطْبة غير مُلائمةٍ لك’’.

أخذَ سَلسُس المنشَفة ومسحَ بها وجهَه. ‘‘هل تعلَّمتَ كيف تُعالجُ هذه الحُمَّى عندما كُنتَ تدرُسُ في روما؟’’

‘‘وصفَ الأُستاذُ هناك الراحةَ والتَّدليك وضوابطَ حِميَة، إنَّما دونَ نجاحٍ تامّ. فقد ظلَّت الحُمَّى تنتابُ المرضى’’. وأضافَ بعدَ تردُّد: ‘‘لقد بدا لي من مُراجعةِ تواريخِ الحالاتِ التي احتَفَظْتُ بها أنَّ الحُمَّى كانَت دائمًا أسوأ متى كان المريضُ مُتعَبًا وفي حالةٍ بَدَنيَّةٍ رديئة. وقد كان لَدَيَّ بضعةُ مرضى جاءوا إلى سَقيفَتي، فنصحتُ ثلاثتَهم بأن يُعزِّزوا قوَّتهم بين النَّوبات. فحالَما تتمكَّن، اتَّبعْ حِميةَ شَعير ونظامَ تَدرُّب’’.

فقال سَلسُس بضِحكةٍ تفتقرُ إلى المَرَح: ‘‘أتعني أن أتدرَّبَ بصفة مُحارِب؟’’

أجابَ ألِكسَندر غيرَ مُستاء: ‘‘ليسَ تمامًا. فمن الواضح أنَّ المسهِلات والمقيِّئات التي وصفَها لك

فليغون لم تؤدِّ إلّا إلى استِنزافِ قوَّتك’’.

‘‘كان المقصودُ منها أن تُطَهِّرَ بَدَني’’.

‘‘أمَا، وقد طُهِّرتَ الآن، تحتاجُ لأن تُعزِّزَ قوَّتك’’.

‘‘لستُ أدري مَن أُصدِّقُ بَعدُ، يا ألِكسَندر. إنَّ لدى ڤِتروڤيوس آراءَه. لعلِّي لم أُوقِّرِ الآلهةَ كِفايةً، وهم يُعاقِبونني الآن. وفليغون يقولُ إنَّها مسألةُ توازُن. وها أنت الآن تقولُ لي شيئًا آخَر’’. ثُمَّ تنهَّدَ ووضَعَ رأسَه في يَدَيه. ‘‘كلُّ ما أعرفُه هو أنِّي عندما أشعرُ بهذا يكونُ كلُّ ما أُريدُ أن أفعلَه هو أن أموتَ فأستريحَ منه’’.

وضعَ ألِكسَندر يدَه على كَتِف سَلسُس. ‘‘ارجع معي إلى سَقيفَتي، واستَرِحْ قليلًا قبلَ أن تمضيَ عائدًا’’.

ثُمَّ غادَروا الكَلِداريوم. فغطسَ ألِكسَندر في الفريجيداريوم وبرَّد جسمَه، فيما تخطّى سَلسُس ذلك وذهب لكي يُجفِّفَ جسمَه ويلبس في غُرفة التبديل. وعندَما غادرَ ألِكسندر

البِركة، أومأ لِڤتروڤيوس بأنَّه مُغادِر. فأحدثَ ڤِتروڤيوس مُوَيجةً في الماء، وتمدَّدَ على إحدى الطاولات كي يتلقَّى التدليك.

بقيَ سَلسُس صامتًا فيما سارا قاطِعَينِ المسافةَ القصيرةَ من الحمَّامات العموميَّة إلى السَّقيفة، حيثُ كان ألِكسَندر يُمارِسُ الطبَّ يوميًّا. كان حِجابٌ خشبيٌّ مَنصوبًا عبرَ الواجهة. وقد تدلَّتْ على الحِجاب لافِتةٌ صغيرةٌ تُفيدُ أنَّ الطبيبَ لن يرجعَ حتَّى أواخِرِ العَصر. وإذ مرَّ جُنديَّان، حيَّيا ألِكسَندر بإيماءةِ رأسٍ فيما كان يدفَعُ جانِبًا جُزءًا من الحِجاب، جاعِلاً سَلسُس يدخُلُ أمامَه قبل أن يُغلِقَه خلفَهُما.

كان مِصباحُ زيتٍ صغيرٌ مُضاءً ومَوضوعًا على طاوِلة شُغلٍ في الزاوية من القسم الخَلفيّ. وإذ شاهدَ ألِكسَندر سَلسُس يتأمَّل ما يُحيطُ به، سألَه: "حسنًا، ما رأيُكَ في ما تَرى؟"

جلسَ سَلسُس على كُرسيٍّ بِلا ظَهْر، ناظِرًا حَوالَيه داخِلَ السَّقيفة المضاءة ضَوءًا باهِتًا. فمُقارَنةً بالتَّسهيلات التي يملكُها فليغون، كانت

بسيطةً وصغيرة، وشِبهَ بدائيَّة. وقد كانتِ الأرضيَّةُ تُرابًا مَرصوصًا، لا رُخامًا مرصوفًا. ولكنْ، رُغمَ بساطةِ الظُّلَّة الجِلديَّة والجُدران المعمولة من الطين، كانَتِ السَّقيفة حسنةَ التجهيز على نحوٍ مُدهِش بالنِّسبة إلى طبيبٍ شابٍّ باشَرَ مُمارسةَ المهنة منذُ عهدٍ قريبٍ جدًّا.

كان بَنكُ فَحصٍ ضيِّقٌ وحاجِزٌ لتحقيق الخُصوصيَّة مُقامَين إزاءَ الجدار الغربيّ، وبدا أنَّ كُلَّ إنشٍ مُرَبَّعٍ من المكان مُستخدَمٌ على نحوٍ فعَّال. فقد كانت طاولةٌ صغيرةٌ مَوضوعةً بمُحاذاةِ الجدار الخلفيّ. وكان عليها هاوَنٌ ومِدقَّتُه، وموازينُ وأوزانٌ ومكاييلُ دقيقة، وألواحُ مَرمَرٍ لِلَفِّ حُبوبِ الدَّواء. وظهرَتْ على رُفوفٍ فوق الطاولة قنانيُّ صغيرة وقارورات زجاجيَّة، وجِرارٌ، وأباريقُ تقطير، على كلٍّ منها رُقعَةُ تعريفٍ وتصنيفٍ دقيقَين، مثل: عَقُولٌ (قابض)، كاوٍ، مُطهِّر، حاتٌّ (يسبِّبُ الحتَّ)، مُهدِّئ. وعلى رُفوفٍ في الجدار المقابل رُتِّبَتْ بدقَّةٍ أدواتٌ شتَّى تخصُّ مِهنتَهُما: مَغارِف، مَلاعِق، مَباسِط، شفرات، مَلاقِط، كلاليب، مَسابِر، مشارط، مَناظِير، مَياسِم (كاوِيات).

التقط سَلسُس مِشرَطًا، وتفحَّصَه.

فقال ألِكسَندر بفخر: ‘‘مِن مُقاطَعةِ نوريكُم الألپينيَّة’’.

وعلَّق سَلسُس، مُعيدًا الأداةَ إلى مكانها بحَذَر: ‘‘يزعم فليغون أنَّهم يصنَعون هناك أفضلَ الأدوات الجراحيَّة الفولاذيَّة’’.

فقال ألِكسَندر مُتَجهِّمًا: ‘‘وهي تُكلِّف ثروةً ضخمة’’، مُضيفًا وَقودًا إلى الجمر المتأجِّج في الكانُون.

وسأل سَلسُس، مُقَرِّبًا كُرسيًّا بلا ظهرٍ إلى الدِّفء: ‘‘منذُ متى حُزتَ هذه السَّقيفة؟’’

‘‘منذُ شهرَين. وقبلَ ذلك، أمضيتُ مُعظَم وقتي مُعتَنيًا بمريضي الوحيد’’.

فقال سَلسُس مُعترِفًا: ‘‘سمعتُ الإشاعات. هي فتاةٌ عبدَة، أليس كذلك؟’’

‘‘بَلى، مسيحيَّةٌ سبقَ أن طُرِحَت للأُسود’’.

‘‘هل شـفيتَها؟’’

فتردَّد ألِكسَندر. ‘‘ليس تمامًا، ولكنَّها شُـفِيَت’’.

وقطَّب سَلسُس. ‘‘ماذا تعني؟’’

‘‘أعني أنِّي لم أكُن أملِكُ المهارات لمنع التَّلوُّث. فقد تقيَّحَتِ الجُروح في رِجلها اليُمنى والتهبَت. وكان من الضَّروريِّ أن تُبتَر. ولكنْ لـمَّا أعدَدتُها للجِراحة، رأيتُ الجُروحَ نظيفة. وقد قالت إنَّ يسوعَ شـفاها’’.

فهزَّ سَلسُس رأسَه، ناظِرًا حوالَيه. ‘‘مؤسِفٌ أنَّك غُرِّمتَ بفُقدانِ مركَزِك عندَ فليغون لكي تُنقِذَ شخصًا لا يُقدِّر تضحيتَك ولو قليلًا’’.

وقال ألِكسَندر: ‘‘لم أعنِ التلميحَ إلى أنَّ الفتاة لم تكُن شاكرةً’’.

‘‘لكنَّها لا تَنسِبُ إليك الفضلَ في إنقاذِ حياتها’’.

فابتسمَ ابتسامةً عريضة، قائلًا: ‘‘حسنًا، ليس تمامًا. لقد قالَت إنِّي لم أكُن إلَّا أداةً في يَدِ الله’’.

‘‘لقد سَمِعتُ أنّ المسيحيِّين يُعَدُّون مجانين’’.

‘‘إنَّها ليست مجنونة، بل غريبةُ الأطوار قليلًا’’.

‘‘مهما كانت، فقد كلَّفَتْكَ مَسيرةً مِهْنيَّة واعدة. إذا اعتَذرْتَ إلى فليغون، فأنا واثِقٌ بأنَّه يردُّك. لقد قال مرَّةً إنَّك أذكى طالِبٍ مرَّ تحت يَده يومًا’’.

‘‘لستُ أرى حاجةً إلى الاعتذار، وقد خالفْتُ فليغون في الرأي في بضعة مجالات. فلماذا ينبغي أن أعودَ إليه؟’’

‘‘لقد أمضيْتَ ثلاثَ سنواتٍ دارِسًا في المعهد الأبُقراطيّ بالإسكندريَّة. ثُمَّ درستَ في روما على يد كاتُو. وبعدَما تعلَّمتَ كلَّ ما يستطيعُ أن يُعلِّمَك إيَّاه، جئتَ إلى أفسُس هنا، مُلتمِسًا تعليمَ فليغون بسبب شُهرَتِه في جميع أنحاء الإمبراطوريَّة. أمَّا الآن، فها أنت هنا في سَقيفةٍ خارِجَ الحمَّامات العموميَّة!’’

فضحك ألِكسَندر. ‘‘لا تَبدُ مُتضايقًا جدًّا! لقدِ اخترتُ أن أكونَ هنا’’.

‘‘ولكنْ لماذا؟ كان في وُسعك أن تحظى بمُمارَسةٍ مُحترَمة في أيِّ مكان، حتَّى في روما ذاتها لو أردتَ، طبيبًا لأعظمِ الرِّجال في الإمبراطوريَّة. ولكنَّك بدلًا من ذلك تتحدَّى فليغون، وتشرعُ في الممارَسة مُستَقلًّا، ثُمَّ تنتهي هنا في هذا المكان، وعلى هذه الحال. لستُ أفهمُ الأمر’’.

‘‘لقد عالجتُ في الأشهُر الستَّة الأخيرة مرضى أكثر عددًا من أولئك الذين عاينتُهم في سنةٍ كاملة تحتَ يَدِ فليغون. ثُمَّ إنِّي تخلَّصتُ من رِفقةِ تُرواس، وصار لي أن أتنفَّس دون ضيق’’. قال ألِكسَندر هذا مُشيرًا إلى العَبد المصريِّ الذي يخصُّ الطبيبَ الأستاذ، وكان ذاكَ جرَّاحًا ومُعالجًا مَوهوبًا بحُكمِ حقِّه الشخصيّ.

‘‘ولكنْ أيُّ نوعٍ من المرضى يأتون إليك؟’’

فقطَّب ألِكسَندر جبينَه، وقال: ‘‘ناسٌ حالاتُهم تختلفُ عن النِّقرس والبُثور حولَ اللِّحى أو الأمراضِ المهزِلَة التي تُسبِّبُها العيشةُ الباذخة’’. ثُمَّ أومأ برأسه نحوَ كومةٍ من الدُّروج مدسوسةٍ

بترتيبٍ داخل رَفٍّ في الزاوية. ‘‘أينَ يتعلّم المرءُ الطِّبَّ أفضلَ ممَّا يتعلَّمُه بمُعالَجة عامَّة الناس؟’’

‘‘ولكنْ هل يُمكِنُهم أن يدفعوا؟’’

فنظر ألِكسَندر إليه بسِيماءِ سُخريَة. ‘‘نعم، يدفعون... على افتِراضِ أنِّي لا أطلبُ مِنهُم مثلَ الأُجورِ التي يطلبها فليغون. ولكنِّي لم أجئ إلى هنا لكي أصيرَ غنيًّا، يا سَلسُس. فقصدي من وجودي هنا هو أن أتعلَّمَ كلَّ ما أستطيعُه وأستعملَ تلك المعرفة لخَير الآخرين’’.

‘‘أوَلَم يكُن في وُسعك أن تفعلَ ذلك بإشرافِ فليغون؟’’

‘‘بموجبِ شُروطِه، لا. فهو عنيدٌ إلى أقصى حدٍّ في تفكيره’’.

عندئذٍ، بدأ شخصٌ ما يفتحُ القاطع، ثُمَّ تراجَع.

فقال سَلسُس مُتَوجِّسًا: ‘‘ثمَّة شخصٌ يُحاوِلُ أن يدخل’’.

ونهضَ ألِكسَندر مُسرِعًا فدفَع الحِجابَ جانبًا، وقال لِمَن في الخارجِ: ‘‘كان ينبغي أن أترُكَه مفتوحًا لكِ’’. والتفتَ إلى سَلسُس إذ عَبَرَ الفُتحةَ شخصٌ مُحجَّبٌ يعرُج، قائلًا: ‘‘هذه هي المرأة التي كنَّا نتكلَّم بشأنها قبلَ قليل’’.

لم يقُم سَلسُس إذ دخلَتِ المهجعَ الصغيرَ امرأةٌ عرجاءُ مُنقَّبةٌ بحِجابٍ سميك. وأغلقَ ألِكسَندرُ القاطعَ وراءها. وسألها: ‘‘هل أحضرتِ **اللُّفَّاح**؟’’ آخِذًا السَّلَّة الصغيرة التي تُعلِّقُها على ذِراعها وكاشِفًا الغِطاءَ عن مُحتوياتها.

فجاء الجوابَ الرَّقيق: ‘‘نعم، سيِّدي. ولكنْ أقلَّ بكثيرٍ جدًّا ممَّا أردتَ. كان تَتريكُس قد حصل على شيءٍ من **الأُپوبَلسَمُم**، فاستعملتُ المال الذي أعطيتَني إيَّاه لشراء هذا بالأحرى’’.

عبَّسَ سَلسُس، مُصغيًا بتركيز. لقد كان في كلامها تباطؤٌ بسيط، ولكنَّه لم يطغَ على اللَّهجة اليهوديَّة الثقيلة.

وقال ألِكسَندر مسرورًا: ‘‘حسَنًا فعلتِ!’’ ثُمَّ أخذَ

الجَرَّة التي تحوي البَلسمَ الثمين ووضعَ السلّة على طاولة العَمَل. وأمسكَ الجُرَيرةَ بحِرصٍ قُربَ لِسانِ اللهب كي يرى اللَّون الداكن. كان الأُپوبَلسَمُم مصنوعًا من مُفرَزاتِ أشجارِ بَلسَمٍ عديدة، أشهرُها بَلسَمُ مَكَّة أو ‘‘بلسان جِلعاد’’. وكانَ لهذا العَقَّار عَشَراتُ الاستِعمالات، من تنظيف الجروح بصفة حاتٍّ، ومُقيِّحٍ لسَحبِ الصَّديد من جُرحٍ مُلتهِب إلى استِعماله بصفة مُهدِّئ.

سأل سَلسُس: ‘‘أتنوي أن تصنعَ **مِثرِيداتيوم**؟’’ مُشيرًا إلى تِرياقٍ قديم اشتُهِرَ بكونه مُضادًّا للسُّموم التي تدخل الجِسمَ بواسطة اللَّدغات واللَّسعات أو الطعام أو الشراب. وقد سُمِّيَ نِسبةً إلى مُخترِعِه الذي كان مَلِكًا ذكيًّا ومُثقَّفًا في بلاد البُنطُس، مِثريداتِس السادس، وهو قد اعتادَ أن يشربَ السُّمَّ كلَّ يَومٍ بعد أن يتَناوَلَ أوَّلًا أدويةً تُبطِلُ ضرَرَه. ثُمَّ لـمَّا أُمِرَ بوَضْع حدٍّ لحياته، تبيَّنَ أنَّ السُّمَّ لا يؤثِّر فيه، ومات بالأحرى على أثَرِ طعنةِ سَيف.

فقال ألِكسَندر مُتضاحِكًا: ‘‘لرُبَّما يكون مِثرِيداتيوم

مطلوبًا لو كنتُ طبيبَ البرُوقُنصُل أو سواه من كبارِ الرَّسميِّين. ولكنْ ما دمتُ أُداوي العُمَّالَ والعبيد، أُفضِّلُ أن أستخدِمَ الأُپوبَلسَمُم لِشَيءٍ أنفعَ بكثير. فهو أحَدُ المكوِّنات في عدَّةِ كِماداتٍ أصنعُها، كما أنَّه مُفيدٌ أيضًا بصفة عَقَّارٍ مُسَكِّنٍ لِتَهدئة الألَمِ العَصَبيّ. وقد ثبتَ كذلك أنَّه فعَّالٌ بصفة مَرهَمٍ للعيون". ثُمَّ التَفَتَ إلى الفتاة العبدة، وسأل: "أهُوَ راتِينَج؟"

فأجابتِ العبدة برِقَّة: "لا، سيِّدي. لقد كُثِّفَ بالغَليِ من الورق والبُزور والغُصَينات".

وسأل سَلسُس: "هل يُحدِثُ ذلك فرقًا؟"

فأنزلَ ألِكسَندر صُندوقًا برونزيًّا، وأزاحَ غِطاءَه المنزَلِق، قائلًا: "فقط في السِّعر، لا الفعَّاليَّة". ووضعَ الجرَّةَ بحَذَرٍ داخِلَ إحدَى الحُجَيرات الداخليَّة، قبلَ أن يُزَلِّقَ الغِطاءَ ويُقفِلَ الصُّندوقَ من جديد. ثُمَّ ردَّ الصُّندوقَ مُجدَّدًا إلى مكانه على الرَّفِّ الذي كانَ مُحَمَّلًا بعَقاقيرَ ومُقوِّماتٍ دوائيَّةٍ أُخرى.

وإذِ استدارَ ألِكسَندر، لاحظَ أنّ سَلسُس قد نَسِيَ انزِعاجاتِ قُشَعريراتهِ وحُمَّاهُ في غَمرةِ فُضوله بشأن الفتاة المحَجَّبة. وكان كثيرون يُحدِّقون إليها بالطريقة عَينها، مُتسائلين عمَّا تُخفيه وراء الحجاب. ثُمَّ نظرَ إلى الفتاة، فإذا هِيَ مُنحَنيةٌ قليلًا، ويدُها الصغيرةُ قابِضةٌ على العُكَّاز، وقد شُحِبَت أصابعُها مِن جرَّاء الجَهد. فأخذَ الكُرسيَّ من جانب طاوِلَةِ شُغلِه، ووضعَه بقُربِ الكانُون مُقابِلَ سَلسُس. "اقعُدي واستريحي، يا هَدسَّة. سأشتري بعضَ الخُبزِ والنَّبيذ وأرجعُ بعدَ وقتٍ قصير".

توجَّسَ سَلسُس من بقائه وحدَه مع الفتاة، إذ جعلَه الحِجابُ غيرَ مُستريح. وقد جلسَتْ مُنهكَةً على الكُرسيّ، وسمعَ سَلسُس تنفُّسَها الصُّعَداءَ بهُدوء. ثُمَّ ألقَتِ العُكَّاز جانبًا، وفركَتْ رِجلَها اليُمنى. كانت يدُها صغيرةً ورقيقة، ذاتَ أظفارٍ بَيضويَّة نظيفة. وكان ذلك جميلًا، وأُنثَويًّا جدًّا، وشبابيًّا. فدُهِشَ سَلسُس.

وقال فجأةً: "لماذا تلبسين هذا الحِجاب؟"

‘‘إنّ نُدوبي تجعل الآخرين مُنزَعِجين، سيِّدي’’.

‘‘أنا طبيب. أريني إيَّاها’’.

فتردَّدَت، ثُمَّ رفعَتِ النِّقابَ ببُطء، كاشِفةً وجهَها. فعبَّسَ سَلسُس. وهزَّ رأسَه مرَّةً واحدة، مُومئًا لها أن تتغطَّى. لقد كان ألِكسَندر قاسيًا بإنقاذه هذه الفتاة. لو ماتَت، لكان ذلك خَيرًا لها. فأيَّ نوعٍ من الحياة يُمكِنُ أن تعيشَ وهي تبدو على هذه الحال، مُشوَّهةً على هذا المنوال؟ ثُمَّ أيُّ نفعٍ لها بصفتها خادمة، وهي ثقيلةُ الحركة وقليلةُ الرشاقة هكذا؟

وبدأ سَلسُس يرتجِفُ من جديد، فلفَّ كابَه حول جِسمِه، مُحاولًا أن يدحرَ نَوباتِ البَرد. ثُمَّ لَعَنَ في سِرِّه، مُتمنِّيًا لوِ استأجرَ مِحَفَّةً ورجعَ إلى شِقَّته.

نهضَتِ الفتاةُ العَبدة باذِلةً بعضَ الجَهد. وشاهدَها سَلسُس تعرُجُ إلى القِسمِ الخلفيِّ من السقيفة كي تُحضِرَ فِراشًا ملفوفًا من تحتِ طاوِلَة الشُّغل. ثُمَّ حلَّتِ البطَّانيَّةَ الصوفيَّةَ السميكة، وعادَت بها إليه، وألقَتها على كتِفَيه.

“أيُريحُكَ أكثرَ أن تستَلقيَ، سيِّدي؟”

“رُبَّما لا”. ثُمَ شاهدَها تعرُج إلى الطاولة الصغيرة. وصبَّت ماءً في قِدرٍ صغيرة، ثُمَّ حَطَّتها على النار حتَّى تسخُن. ثُمَّ أنزلَتْ عن رفِّ الأدوية بِضعةَ أوانٍ. وبكلِّ دِقَّةٍ وإتقان، وزنَتْ مُقوِّماتٍ من بعضِ تلك الأواني، وأعادَتْها إلى أمكِنَتِها على الرَّفِّ قبلَ أن تدقَّ ما أخذَته بالمدقَّة والهاوَن. وإذ راحَ الماءُ يغلي، رشَّت فيه المحتَويات، وحرَّكَتْها بِعَصًا رفيعة. “اِستَنشِق هذا، سيِّدي”.

كان صوتُها وسلوكُها مُريحَين جدًّا، وأدهشَته مَعرِفتُها. وفيما مالَ إلى الأمام قالَ لها: “أتتصرَّفينَ بحُرِّيَّة في أشياءِ سيِّدِكِ؟”

فكان جوابَها الرقيقَ المثير: “لَن يعترِض!”

وإذ ملأ رئتَيهِ برائحةٍ طيِّبة على نحوٍ مُدهش، أحسَّ أنَّها كانت تبتسِم. “هل تستغلِّين طبيعتَه اللطيفة؟”

“لا، سيِّدي. لقدِ استخدم السيِّدُ هذا العِلاجَ

لِمَرضى بالحُمَّى. ومن شأنه أن يُريدَ لكَ أن تكونَ مستَريحًا".

فقال: "أُوه!" شاعِرًا بشيءٍ من الخزيِ لأنَّه انتقدَها لـمَّا طلبَت أن تَخدِمَ سيِّدها، وإيَّاهُ أيضًا. واستنشَقَ البُخارَ العَطِر، فاسترخَت عَضلاتُه. وقد ضاعفَ ثِقَلُ البطَّانيَّة راحتَه. كانت حرارة الكَلِداريوم قدِ استنزَفَته، والآن نعَّسَه الدِّفءُ من الكانون والبَخورُ الزاكي المنبَعِثُ من القِدرِ الصغيرة. وغَطغَطَ عليهِ النَّوم، ثُمَّ أفاق مُجفِلًا إذ ترنَّحَ على الكُرسيِّ.

ثُمَّ قامَتِ الفتاة، وأحضرتْ فِراشًا ملفوفًا آخر من تحت طاولة الشُّغل ووضَعَتْه على الأرضيَّة الترابيَّة المرصوصة. وأحسَّ سَلسُس ذِراعَها تُطوِّق كتِفَه برِقَّة، وسَمعَ صوتَها الهامس: "تعالَ واستَرح، سيِّدي. ستَشعُرُ بتحسُّنٍ أكثَر بكثير". لقد كانت أقوى ممَّا بَدَت، وساعَدَته على النُّهوض، ولكنَّه لـمَّا استنَدَ بِمزيدٍ من ثِقلِه سَمعَ حَبْسَ نَفَسِها لِلَحظةٍ.

وفكَّر: لا بُدَّ أنَّ رِجلَها تؤلِمُها، ثُمَّ ارتمى ليستَريحَ

على الحَشِيَّة التي أعدَّتها له. وإذ رتَّبَتِ البطّانيَّة ثانيةً فَوقه، ابتسمَ قائلًا: ‘‘لم يفعَلْ بي أحَدٌ مِثلَ هذا منذ كنتُ وَلَدًا صغيرًا’’. ومسَّت برؤوس أصابعِها جبينَه مسًّا رقيقًا، فأحسَّ شعورًا غريبًا بحُسنِ الحال.

ثُمَّ قامت هَدسَّة بصعوبة، وعرَجَت إلى الكُرسيّ، واستراحَتْ عليه. ومسَّدت مُتنهِّدةً العَضَلاتِ المؤلمةَ في رِجلها اليُمنى. وإذ أغمضَتْ عَينَيها، تمنَّت لو تستطيعُ أن تُخفِّفَ بالتَّمسيد وَجَعَ قلبِها أيضًا.

وافَتها الدُّموع على غير توقُّع، وكافحَت لِحَبسِها، عالمةً أنَّ ألِكسَندر سيرجعُ سريعًا فيعرِفُ أنَّها كانت تبكي. ثُمَّ سيُريد أن يعلَمَ هل عادت رِجلُها تؤلِمُها. فإن أجابَتْ بالإيجاب، فسَيُصِرُّ على تَدليكها. وإنْ أجابت بالنَّفي، فسيُجري تحقيقًا دقيقًا بأسئلةٍ ينفرُ قلبُها منَ الإجابةِ عنها.

لقد رأت مَرقُس!

فإنَّه كان قدِ التَقاها مُباشرةً في الشارع خارجًا.

وكثيرًا ما كانت تُدفَعُ بالمناكِب وسطَ حُشودِ المتوجّهين إلى الحمَّامات، بحيثُ لم تحسبْ ذلك أمرًا غريبًا. ثُمَّ إنَّه تكلَّم. وإذ صُعِقَت عندَ سَماعِ صوتِه، نظرَت إلى فوقُ فرأتْ أنَّ ذلك هو نفسُه، ولم تكُنْ ذاكِرَتُها فقط تلعبُ ألاعيبَ معها من جديد.

كان ما يزال وسيمًا على نحوٍ فتَّاك، مع أنَّه بدا أكبَر وأقسى بعضَ الشَّيء. فالفَمُ الذي تتذكَّرُه حِسّيًّا بشكلٍ مُغرٍ باتَ ثابتًا على خطٍّ كالح. وقد خَفَقَ قلبُها سريعًا جدًّا... تمامًا كما تسارَعَ الآن عند تذكُّرِها له. ولـمَّا أمسكَ ذِراعَها كي يُثبِّتَها، كادَتْ يُغمَى عليها.

أمرٌ مُذهِلٌ كيف يمكن أن تُمحَى في لحظةٍ مُدَّةٌ جاوزَت سنةً واحدة. كانت قد نظرَتْ في عَينَي مَرقُس، وإذا بكُلِّ لحظةٍ قد أمضَتْها معه تُعاوِدُها في مَوجةِ اشتياقٍ شديد. وكادَت ترفَعُ يدَها لتَلمسَ وجهَه، غير أنَّه كان قد تراجَعَ قليلًا، وبدا على وجهه ذلك الحَذَرُ الذي غالبًا ما لمحَته كُلَّما نظرَ إليها الناس. فرؤيةُ امرأةٍ مُغطَّاة بحِجاب كان منظرًا مُربِكًا. وإذ حَنَى رأسَه، حدَّقَ إليها من عَلُ

بعُبوسٍ مَقرونٍ بالذّهول. وعلى الرُّغم من عِلمِها بأنَّه لا يستطيع، فقد خافَتْ غريزيًّا أن يرى وجهَها ذا النُّدوب، وطأطأتْ رأسَها سريعًا. في تلك اللحظة، دارَ مُبتعِدًا.

وقفَت هناك وسطَ الجَمعِ المتحرِّك ذهابًا وإيابًا، واغرورَقَت عيناها إذ شاهدَته يمشي مُبتعِدًا. لقد كان يمشي خارجًا من حياتها مِثلَما مشى في ما مضى.

وبينَما هي الآن جالِسةٌ في حِمَى سقيفةِ أَلِكسَندر، ساءلتْ نفسَها هل يتذكَّرها مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان مُجرَّدَ تذكُّر.

همسَت في سُكونِ السقيفة المضاءة إضاءةً باهِتة: ‘‘ربِّ، لماذا سمحتَ بأن يحصُلَ لي هذا؟’’ ثُمَّ حدَّقَتْ عبرَ دُموعِها وحِجابِها إلى الجَمر المتأجِّج في الكانُون، وقد تفجَّرَ من جديدٍ كلُّ ما كانت تكنُّه لِمَرقُسٍ من مَشاعِر، غامِرًا إيَّاها بِحزنٍ مُوجعٍ على ما كانَ يُمكِنُ أن يكون. ومضَت تقول برِقَّة- قارعةً صدرَها بقبضتها قرعًا خفيفًا- ‘‘ربِّ، أشعرُ بأنِّي تحتَ نِيرٍ واحِدٍ معه، تحتَ نِير...’’

وطأطأت رأسَـها.

لقد علِمَتْ أنَّه لم يكُن من عادةِ مَرقُس أن يدخلَ الحمَّاماتِ العموميَّة. فإنَّه كان دائمًا يستحِمُّ في مؤسَّساتٍ خاصَّة محجوزةٍ للذين يستَطيعون أن يدفعوا رُسومَ العضويَّةِ الغاليةَ.

إذًا، لماذا جاء إلى هنا؟

وتنهَّدَت. ما هَمَّ ذلك؟ لقد أزاحَها الله من حياته ووضعَها هنا، في هذه السَّقيفة الصغيرة، معَ طبيبٍ شابٍّ مُتشوِّقٍ إلى تخليص العالَم من كلِّ شيء؛ أيْ كلِّ شيءٍ ما عدا ظلامَه الروحيَّ. إنَّه كان مِثلَ زَوج جوليا الأوَّل، كلاوديوس، لا يشبعُ من المعرِفة في حينِ يبقى أعمى عن الحِكمة.

لقد وجعَها قلبُها. **لماذا لم تَدَعني أموت، يا ربّ؟ لماذا؟** وبكَت بصَمت، صارِخةً إلى الله لأجلِ جواب. ولكنْ لم يأتِ أيُّ جواب. كانت قدِ اعتقدَت أنَّها عرفَتْ قصدَ الله لها: أن تموتَ في سبيله. ومع ذلك فهيَ ما زالت حيَّةً، حامِلةً نُدوبَها السرِّيَّة وراءَ حِجابِها الداكِن. وكلُّ ما لاقَته

في السِّنينَ المنصرمة من صَفاءٍ وقَبولٍ قد تحطَّم. لماذا؟ لأنَّها رأتْ مَرقُسَ من جديد، في لقاءِ صِدفةٍ دامَ أقلَّ من دقيقة.

عندئذٍ أُزيحَ الحِجابُ الخشبيُّ، ودخلَ ألِكسَندرُ الغُرفة. فنظرَت هَدسَّة إليه، وقد أفرجَها حضورُه. إنَّ وجهَه باتَ عزيزًا عِندَها في أثناء أشهُرِ نقاهَتِها. كانت آنذاك في حالةِ مَرَضٍ ووجَعٍ أشدَّ وطأةً من أن تُدرِكَ التضحيةَ التي بذلَها في تهريبِها إلى خارِجِ ساحةِ المحاربين. ولمِ تعلَمْ إلَّا منذُ عَهدٍ قريبٍ أنَّه غُرِّمَ بِخَسارةِ مَركزه عند طبيبٍ أُستاذٍ شهير، كما كسَبَ استِهزاءَ مُعظَمِ أصدقائه، من أجلِ تخلِّيه عن الكثير الكثير من أجلِ مُجرَّدِ عَبدَة.

علِمَت هَدسَّة بلا شَكٍّ أنَّ الله كان قد وضعَ يدَه على ألِكسَندر ذلك اليومَ في ظِلالِ **بابِ الموت**. فقد كان هو أداةً في يَد الله. وإذ راقبَتْه الآن، أقرَّتْ بأنَّ مشاعِرَها تُجاهَه كانت مُربِكةً أحيانًا. إنَّها كانَت شاكرةً، ولكنْ كان في الأمرِ أكثرُ من ذلك. فهي كنَّت له المودَّةَ والإعجاب. وقد كان تَوقُه إلى شِفاء الناس مُخلِصًا من صميم القلب، لا

مسألةَ منفعة أو ربح. وكان يهتمُّ، إلى حدِّ الأسى، إذا فقدَ مريضًا. وتذكَّرَتْ أوَّلَ مرَّةٍ رأتْه فيها يبكي، وقد شعرَتْ بالمحبَّة له تغمرُها. وكان الفقيدُ الذي بكى عليه صبيًّا يافِعًا ماتَ بحُمَّى. لقد علِمَت أنَّها لم تحبَّ ألِكسَندر بالطريقة التي بها ما تزال تحبُّ مَرقُس... إلَّا أنَّها لم تستطعْ أن تُنكِرَ أنَّ بينَها وبين الطبيبِ الشابِّ ترابُطًا وثيقًا.

نظر ألِكسَندر إليها، وتلاقَت أعيُنُهما. وعبرَتْ على وجهِهِ ابتسامةٌ واهِنة. وقال: "سخِّني بعضَ الماءِ بَعدُ، يا هَدسَّة".

"نعم، سيِّدي".

وفعلَت ذلك، ثُمَّ راقبَته يُضيفُ مُقوِّماتٍ شتَّى إلى الماء الساخن، ومن ثَمَّ يجلسُ القُرفُصاء ويُوقِظُ سَلسُس قائلًا: "هيَّا، اجلِس يا صديقي". وقد تأثَّرت بمسحة الحنان في صَوت ألِكسَندر. وقرَّبَ الشَّرابَ المختَّرَ إلى شَفَتَي سَلسُس. ولدى أوَّل رشفة، كشَّرَ سَلسُس وأرجعَ رأسَه عن الشَّراب بارتياب. فضحكَ ألِكسَندر قائلًا: "ليست فيه أجنِحةُ خفافيش ولا ألسِنةُ سمندل". وتُرِكَت

هَدسَّة تتساءل عمَّا عناه ألِكسَندر، فيما تَناوَلَ سَلسُس الكأسَ وتجرَّع ما فيها.

ثُمَّ نهضَ ألِكسَندر. ‘‘لقدِ استأجرتُ محَفَّةً لأخذِكَ إلى البيت’’.

فقال سَلسُس: ‘‘لكَ عِرفاني بالجميل’’، فيما نهض، تاركًا البطَّانيَّتين تتكوَّمان حولَ قدمَيه المصندَلتَين. وإذ مشى مُبتعِدًا، التقطَتْ هَدسَّة البطَّانيَّتين وطوَتهما، ثُمَّ وضعَتهما حيث كانا، تحت طاولة الشُّغل. وسوَّى سَلسُس من جديدٍ كابَه المغَضَّن، قائلًا: ‘‘كنتُ بحاجةٍ إلى الاستِراحةِ قليلًا’’. ونَظَرَ إلى هَدسَّة، ثُمَّ إلى ألِكسَندر مُجدَّدًا. ‘‘قد أُعَرِّجُ عليكَ ثانيةً وأقرأُ بعضًا من حالاتِك’’.

فألقى ألِكسَندر يدًا مُشَجِّعةً على كتِفِ سَلسُس. ‘‘لِيَكُن ذلك في الصباح. فلا يكادُ يتَّسعُ وَقتي لأخْذِ نَفَسٍ في باقي النَّهار’’. ثُمَّ دفعَ القاطعَ جانبًا، واضِعًا أجزاءَه معًا بحيثُ انفتحَ مدخلُ السَّقيفة واسِعًا، دلالةً على أنَّه مُستعِدٌّ لِمُعاينة المرضى.

وكان عددٌ مِنهُم ينتظرون فعلًا في الخارج.

خرجَ سَلسُس وصَعِدَ إلى المحفَّة. وإذ رفعَه العبدانِ، قال: ‘‘مهلًا!’’ ثُمَّ سأل ألِكسَندرَ فيما كان يضعُ طاولةً صغيرة أمام السَّقيفة: ‘‘ماذا احتوى ذلك الشَّرابُ الذي سَقَيتَني إيَّاه؟’’ في حين كانت هَدسَّة تضعُ على تلك الطاولة مِحبَرةً ودُروجًا.

فضحك ألِكسَندر قائلًا: ‘‘شيءٌ من هذا وذاك. أعلِمني إذا نفعَك’’.

أعطى سَلسُس حامِلَيه بعض التَّوجيهات، واتَّكأ إلى الوراء في طيَّات كابِه. ونظَرَ إلى الوراء إذ حَمَلاه مُنطَلِقَين فرأى المرضى قد بدأوا يتقدَّمونَ مُتدافِعين... وتجهَّم، لأنَّهم بَدَلَ الاحتِشاد حول ألِكسَندر، الطبيب، دَنَوا من المرأةِ الهادئة المنَقَّبة.

عمدَت هَدسَّة، دونَ أن تدريَ أنَّها كانت قِبلةَ الأنظار، إلى طَرْحِ سِتِّ حُبَيباتٍ من الفحم المحروق الجافِّ في دَواة الحبر، ثُمَّ أضافَتْ ماءً.

ومزَجَتِ السائلَ بحَذَر، ثُمَّ أمسكَتْ مِرقَمَها الحديديّ. وقالت للرَّجُلِ الذي شغلَ الكُرسيَّ بقُرب طاولةِ الكتابة التي اشتغلَت عليها: "الاسم، من فضلِك". ثُمَّ غمسَتِ المرقَمَ في الحِبر ووضعَت رأسَه على اللَّوحِ المشمَّع الذي تكتبُ عليه المعلوماتِ الأوَّليَّة: الاسم والمرض. كانت هذه المعلومات ستُنقَل في ما بَعدُ إلى دُروجٍ أخرى؛ أمَّا اللَّوحُ المشمَّع فيُمسَح نظيفًا ليُستعمَل في اليوم التالي. وكانت عدَّةُ دُروجٍ قد باتت مخزونةً في القِسم الخلفيِّ من السَّقيفة، وفيها لوائحُ طويلةٌ بأسماء المرضى الذين داواهُم ألِكسَندر، فضلًا عن أمراضِهم البَدَنيَّة وأعراضِها، والعِلاجاتِ المَوصوفةِ لهم ونتائِجها.

أجابها الرجَل بصوتٍ مُنخَفِض: "بُويِثوس... كم سيطول الوقتُ قبل أن تُتاحَ لي رؤيةُ الطبيب؟ ليس عندي وقتٌ كثير".

فدوَّنَتِ اسمَه، وقالت برِقَّة: "سيكون معك حالَما يستطيع". لقد كان لدى كلِّ شخصٍ حاجاتٌ مُلِحَّة، وكان من الصَّعب تحديدُ كم من الوقت

سيُمضي ألِكسَندر مع كلِّ مريض. وكانت حالاتُ بعضهم تَستولي على عقله، فيُمضي مزيدًا من الوقت مُستَفسِرًا وفاحِصًا إيَّاهم.

نظرَت هَدسَّة إلى الرَّجُل من وراءِ حِجابها. لقد كان نحيلًا ذا بَشَرةٍ لوَّحَتها الشمس، وكانت يداه كثيرتَيِ العُقَد ومدبوغتَين من العمل الشاقّ. وكان شَعرُه القصير مَرشوشًا بالشَّيب، والخُطوطُ حولَ عَينَيه وفَمِه عميقةً. ‘‘ما مِهنَتُك؟’’

أجاب باكتئاب: ‘‘كُنتُ جِلفاطًا (**ستُپَاتُر**)’’.

فدوَّنَت هَدسَّة مِهنتَه بجانب اسمه: جِلفاطُ سُفُن. وهذا عَمَلٌ مُتعِبٌ، قاصِمٌ للظَّهر. ‘‘مَرَضُك؟’’ ظلَّ جالِسًا بصَمت، مُحدِّقًا بعيدًا إلى لاشيء. فقالَت، واضِعةً المرقَمَ بين يَدَيها: ‘‘لماذا جئتَ لرؤية الطبيب؟’’

بادَلها النَّظر، ناشِرًا أصابعَه على فَخِذَيه وضاغطًا عليهما بشدَّة كما لو كان يُحاوِل إبقاءَ نفسه مُتماسِكًا. ‘‘لا أستطيع أن أنام. لا أستطيع أن آكل. وقد لازمَني صُداعٌ طَوال الأيَّام القليلة

الماضية’’.

فوازنَت هَدسَّة المرقَمَ من جديد وكتبَتِ التفاصيلَ الدَّقيقة. وشعرَتْ بأنَّه يُراقِبُ كلَّ جَرَّةِ قَلَمٍ تخطُّها، كما لو كان مسلوبَ اللُّبِّ. وما لَبِثَ أن قال: ‘‘واظبتُ على العَمَل حتَّى بضعةِ أسابيعَ مَضَت، ولكنْ لم يتوافرْ لي عملٌ مؤخَّرًا. فالسُّفنُ الراسية أقلُّ عددًا، والنُّظَّارُ يستأجرون الرِّجال الأصغَر سنًّا ليَقوموا بالعمل’’.

رفعَت هَدسَّة رأسَها. ‘‘ألَدَيكَ عائلة، يا بُويِثوس؟’’

‘‘زوجةٌ، وأربعةُ أولاد’’. وتعمَّقَتِ الخطوط في وجهِه، وغدا وجهُه أكثر شُحوبًا بَعد. وعَبَّسَ إذ ألقَتِ اليَراعَ من يَدَها.

‘‘سأجِدُ سبيلًا إلى دَفعِ بَدَلِ خِدماتِ الطبيب. أُقسِمُ على ذلك’’.

‘‘ لا داعيَ لأن تقلقَ بشأن ذلك، يا بُويِثوس’’.

‘‘ سهلٌ عليكِ أن تقولي هذا، ولكنْ إذا مَرِضتُ

حتَّى الموت، فماذا يحلُّ بعائلتي؟’’

فهِمَت هَدسَّة خَوفَه، إذ كانت قد رأت عائلاتٍ لا تُحصى يعيشون في الشَّوارع، مُستَعطِينَ كسرةَ خُبز، فيما كانَ على بُعدِ أقدامٍ قليلة عنهم هَيكلٌ فخمٌ وقصورٌ فاخِرةٌ مبنيَّةٌ على مُنحدَر الجَبَل. ‘‘أخبِرني بشؤون عائلتِك’’.

بدأ بذِكرِ أسماء ابنه وبناته الثلاث. وتكلَّم بشأن زوجته المجتهدة في العَمَل. وقد كان الحبُّ الشديد الذي يكنُّه لها باديًا في كلامِه. وشجَّعَته تصرُّفاتُ هَدسَّة اللطيفةُ وأسئلتُها الهادئة، حتَّى باتَ مُنحَنيًا إلى الأمام، مُفصِحًا عن أعمقِ مَخاوِفِه بشأنِ ما يُمكنُ أن يحصُلَ لأولاده وزَوجته إذا تعذَّر عليه العُثورُ على عملٍ سريعًا. وكان المالِكُ يطلُبُ أُجرةَ المسكن الصَّغير الذي تُقيمُ العائلةُ فيه، ولم يكُن بِيَدِ بُويثوس مالٌ حتَّى يُعطِيَه. فلَم يَدْرِ ما سيَفعل. والآن، زيادةً على أعبائهِ الأُخرى كُلِّها، هو مَريضٌ ويزدادُ مَرَضًا كلَّ يوم.

ثُمَّ قال يائسًا: ‘‘الآلهة ضدِّي’’.

أزيحَتْ سِتارةُ العُزلة، وغادرَتِ امرأةٌ السَّقيفة، وأعطَتْ هَدسَّةَ نقدًا نُحاسيًّا. فنهضَتْ هَدسَّةَ ووضعَت يدَها على كتف بُويِثوس، طالِبةً منه أن يبقى حيث هو.

شاهدَها الرَّجُل تُكلِّمُ شابَّةً واقِفةً وحدَها جانِبًا. ولاحظَ عينَي الشابَّةِ المكحَّلتَين وخلاخيلَها ذاتَ الأجراس الصَّغيرة التي تُجَلجِلُ جَلجَلةً خفيفةً عندَ أدنى حَرَكة، وذلك كلُّه يُفصِحُ عن مهنتها: البغاء (ممارسة الدعارة).

وظلَّ بُويِثوس يُراقِبُ باهتِمام لـمَّا أمسكَت مُعاونةُ الطبيبِ المحجَّبةُ يَدَ البَغيِّ بينَ يديها وتكلَّمت من جديد. فأومأتِ الشابَّةُ برَأسِها على مهل، ومَضَتِ المعاوِنةُ كي تُكلِّمَ الطبيب.

جذبَت هَدسَّة السِّتارة قليلًا، وحاولت أن تُلخِّصَ ما عرفَته عن مريضِ ألِكسَندر التالي: ‘‘اسمُها سَڤرينا، وعمرُها سبعَ عشرة’’. ولـمَّا كان الطبيب لا يُبالي بالمعلومات الشخصيَّة، سألَ عن وَضْع المريضة تحديدًا. فقالَت هَدسَّة: ‘‘هيَ مُصابةٌ بنَزفِ دَمٍ منذُ بضعةِ أسابيع’’.

أومأ ألِكسَندر برأسه، رافِعًا إحدى أدَواته، ومُجَفِّفًا إيَّاها. ‘‘أدخِليها’’.

لاحظَتْ هَدسَّة أنَّه كان مُتعَبًا وذاهِلًا. لعلَّه ما زالَ يُفكِّر مليًّا في ما تبيَّن له عن حالة المريض السابق. وكثيرًا ما كان يقلقُ بشأنِ مَرضاه، مُبتعِدًا عن سريره ساعاتٍ طويلةً في اللَّيل، مُراجعًا وثائقَه ومدوِّنًا مُلاحظاتٍ دقيقةً مُفصَّلة. لم يُحصِ قطُّ نجاحاتِه، وقد كانت كثيرة، بل نظرَ إلى كلِّ شخصٍ يراه باعتِباره تحدِّيًا جديدًا لأمراضٍ ينبغي أن يقهرَها بمَعرفته.

‘‘كانَت بَغِيَّ هَيكل، سيِّدي. وقد قالت إنَّهم أجرَوا لها طَقْسَ تطهيرٍ، ولـمَّا لم ينفَعْ طَرَدوها’’.

ثُمَّ وضعَ الأداةَ على الرَّفّ. ‘‘مريضٌ آخرُ لا يستَطيعُ أن يدفع’’.

ففاجأتْها ملاحظتُه الجافَّة. ونادِرًا ما كان ألِكسَندر يذكرُ المال. فهو لم يُحدِّد رُسومًا لمرضاه، وكان يقبلُ فقط ما يَسَعُهم أن يدفعوه له مُقابِلَ مُساعدته لهم. وأحيانًا لم يكُنِ المدفوعُ يتخطَّى

قطعةَ نَقدٍ نُحاسيَّة. وقد علِمَت هَدسَّة أنّ المالَ كان يهمُّه أقلَّ ممَّا يتعلَّمه وممَّا يتمكَّن أن يُنجِزَه للآخرين بواسطةِ عِلمِه ذاك. ألَم يُنفِقْ كامِلَ مِيراثه على السَّفَر وتَعَلُّمِ كلِّ ما استَطاعَه بشأن مِهنته المختارة؟

لا، لم يكُنِ المالُ هو ما يُقلِقُه.

ثُمَّ نظرَ إلَيها، فلمحَتِ الخيبةَ في عينَيه. ‘‘مواردي تنفَدُ، يا هَدسَّة. وعليَّ أن أدفعَ بَدَلَ إيجار هذه السَّقيفة المستحقَّ صباحَ غَدٍ’’.

فقالَت، واضعةً يدَها على ذِراعِه: ‘‘ألِكسَندر، ألَم يُدَبِّرِ الله بَدَلَ الإيجارِ الشَّهرَ الماضي؟’’

آنسَه استِعمالُها لاسمِه، فابتسمَ لها من علُ بحُزن: ‘‘بَلى، ولكنْ هل إلهُكِ هذا مُضطرٌّ دائمًا إلى الانتظار حتَّى آخِرِ لحظة؟’’

‘‘لعلَّه يُحاوِلُ أن يُعلِّمَكَ التَّوكُّلَ عليه’’.

فقال: ‘‘من النَّكَدِ ألَّا يتَّسعَ وقتُنا لمناقَشةٍ خصوصيَّة’’، مومئًا برأسه نحوَ السِّتارة. وأضاف:

‘‘عندَنا صَفٌّ من المرضى خارجًا ينتظرون أن يُعايَنوا. فالآن، ماذا كُنتِ تقولين عن المريضة التالية؟ أهي بَغِيٌّ؟’’ وقد كان المرضُ الزَّهريُّ مُتفَشّيًا بينهُنَّ.

‘‘كانت بَغِيًّا، سيِّدي. فقد طُرِدتِ من الهيكل، وهي تُقيمُ الآن في الشوارع. ولَدَيها مشكلاتٌ سِوى المرضِ البَدَنيّ...’’.

فرفعَ يدَه، مُسكِتًا إيَّاها، وقد الْتَوى فمُه بابتسامة ساخِرة. ‘‘تلك المشكلاتُ لا يمكنُنا أن نقلقَ بشأنها. أدخِليها، وسأُحاوِلُ أن أُعالجَ ما أستَطيعُه. ولتفعَلْ آلهتُها الباقي’’.

‘‘إنَّ مشكِلاتها الأُخرى تؤثِّر في حالتها البَدَنيَّة’’.

‘‘إذا جعلناها تصحُّ، تتلاشى تلك المشكلاتُ الأُخرى’’.

‘‘ولكنْ...’’

فقال بنَفادِ صَبرٍ تقريبًا: ‘‘اذهبي! في وُسعنا أن نتَناقَشَ في نظريَّتكِ لاحقًا، في وقتٍ أقلَّ

تشويشًا".

فعلَتْ هَدسَّة كما أمَرَ ألِكسَندر، ثُمَّ جلسَتْ إلى الطاوِلة من جديد، مُكافِحةً الإحباط. هل رأى ألِكسندرُ هؤلاء الناسَ على أنَّهم مُجرَّدُ كائناتٍ مادِيَّةٍ في حاجةٍ إلى شفاءٍ سريع؟ إنَّ حاجاتِ الناس كانت مُعقَّدة. فليسَ مَمكِنًا أن تُحَلَّ بدواءٍ أو تدليك أو عِلاجٍ مَوصوفٍ آخر. وقد أخذَ ألِكسَندر في الاعتِبار فقط التَّجلِّياتِ المادِيَّةَ لأمراضِهم المتنوِّعة، دون السَّبَبِ الخفيِّ الأعمق. فكُلَّما مرَّ يومٌ منذُ أن بدأت هَدسَّة تُعاوِنُ ألِكسَندر، باتَتْ مُقتنِعةً أكثَر فأكثَر بأنَّ كثيرين من المرضى الذين شاهَداهم يُمكِنُ أن يُشفَوا بسُكنى الروح القُدس.

ولكنْ... كيفَ يُمكِنُها أن تُقنعَ ألِكسَندر بذلك فيما هو نفسُه كان يلتفِتُ إلى آلهته الشافية بصفتها مَلاذًا أخيرًا فقط، وينظرُ إلى الله القدير باحتراسٍ مَقرونٍ بالرَّهبة؟

ثُمَّ لاحظَتْ أنَّ بُويثوس كان ينظرُ إليها بأمَل. وقد شعرتْ بتلك النَّظرة تخترِقُ لُبَّ كِيانِها، ووَخَزَتِ

الدُّموعُ عينَيها. فحَنَت رأسَها، مُصَلِّيةً بصَمتٍ في غمرة اليأس. **يا ربّ، ماذا أقولُ لهذا الرَّجُل؟ هو وعائلتُه يحتاجون إلى خُبز، لا إلى كلام.**

ومع ذلك، كان الكلامُ هو ما جاءها.

فأخرجَت نَفَسَها. ثُمَّ أمالَتْ رأسَها قليلًا، وتأمَّلتْ وَجهَ بُويثوس المرهَق. "قعدَ والدي مرَّةً على مُنحَدرِ تلٍّ في بِلاد اليهوديَّة، مُصغيًا إلى **مُعلِّمه**. وكان كثيرون قد جاءُوا لِيَسمعوا ما سيَقولُه **المُعلِّم**، وقد جاءُوا من أمكِنة بعيدةٍ ومكثوا طوالَ النَّهار، حتَّى جاعوا أخيرًا. وساورَ القلقُ بعضًا من أتباع المعلِّم، فقالوا له إنَّ عليه أن يصرِفَ الناسَ إلى بُيوتِهم. فطلبَ منهم أن يُطعِموا هُم الناسَ، ولكنَّهم قالوا إنَّهم لا يملكون شيئًا يُعطونَهم إيَّاه".

وابتسمَت من وراء نِقابِها ابتسامةً أنارَت عينَيها. "كان بحَوزةِ صبيٍّ صغيرٍ خبزٌ وسَمَك. فتقدَّم وأعطى المُعلِّمَ ماً لَدَيه، وبواسطة ذلك أطعمَ **المُعلِّم** الجمعَ كُلَّه".

‘‘مَن كانَ هذا المعَلِّم؟’’

قالت: ‘‘اسمُه يسوع’’. ثُمَّ أمسكَت يدَ بُويِثوس بينَ يَدَيها. ‘‘لقد قالَ شيئًا آخر أيضًا، يا بُويِثوس. قالَ إنَّ الإنسانَ لا يحيا بالخُبزِ وحدَه’’. وإذْ مالَتْ نحوَه، بلَّغَتْه بِشارةَ الإنجيل، وقد تكلَّما بهُدوء طَوالَ الوقتِ الذي أمضَته البَغيُّ عندَ ألِكسَندر.

ثُمَّ خرجَتِ المرأةُ وناولَت هَدسَّة قِطعةَ نقدٍ نُحاسيَّة، قائلةً: ‘‘اِحتَفِظي لنفسِكِ بالكُوادرَنسَين الباقيَين’’. فشكرَتها هَدسَّة مدهوشةً.

وراقبَ بُويِثوسُ المرأةَ تمضي مُبتعِدةً بسُرعة.

فقالت هَدسَّة- مُبتسِمةً من جديد- ‘‘أحيانًا، يستَجيبُ الربُّ الصلاةَ بطُرقٍ عاجلةٍ غير مُتوقَّعة’’. ورنا إلَيها إذ قامت وترَكَتْه من جديد لتتكلَّمَ لِلَحظةٍ مع شابٍّ يُعاني سُعالًا حادًّا. وذهبَتْ إلى ما وراءَ الستارة مرَّةً أُخرى.

قال ألِكسَندر: ‘‘ماذا لَدَينا تاليًا؟’’ وهو يغسِلُ

يدَيه في طَسْتِ ماءٍ بارد.

‘‘اسمُه أريوڤِستُس، وعمره ثلاثٌ وعشرون سنة. إنَّه قَصَّار، وبهِ سُعالٌ يأبى أن يُفارِقَه؛ سُعالٌ عميقٌ في صدرِه، وله صوتٌ خَشِن’’. ثُمَّ تناولَتْ صُندوقَ مالٍ عن رفٍّ صغير مَخفيٍّ تحتَ طاوِلَةِ شُغلِ ألِكسَندر. ‘‘لقد أعطَتنا سَقَرينا قطعةَ نقدٍ نُحاسيَّة. وأرادَتْ لي أن أحتفظ بالكُوادرَنسَين الباقيَين’’.

فقال، مومئًا لها برأسه: ‘‘ربَّما كانت شاكرةً أن يتوافرَ لها شخصٌ يُكلِّمُها’’. وإذ رفعَتِ الشُّكر لله، أخذَتِ الكُوادرَنسَين الصَّغيرَين من الصُّندوق، ثُمَّ أعادَتْه إلى مكانه تحت طاوِلة الشُّغل.

كان بُويِثوس ما يزالُ جالسًا على الكُرسيِّ بقُرب الطاولَة الصغيرة خارِجًا. فرفعَ نظرَه حالَما خرجَت من وراء السِّتارة، وقالَ مَشدوهًا: ‘‘لقد فارقَني الصُّداع. لا أعتقد أنِّي مُحتاجٌ إلى رؤية الطبيب بَعد. إنَّما أردتُ فقط أن أنتظرَكِ وأشكُرَكِ على تكلُّمِكِ معي’’. ثُمَّ وقف.

أمسكتْ هَدسَّة يدَه، وقلبَت كفَّها إلى فوق، ووضعَت فيها قِطعتَي النَّقد الصَّغيرتين. ثُمَّ قالت- مُطبِقةً أصابِعَه عليهما- ‘‘منَ الرَّبِّ... خُبزًا لعائلَتك!’’

وإذ كان ألِكسَندر بحاجةٍ إلى دقيقةِ راحة، خرجَ من السَّقيفة. لقد كان يحتاج إلى نَسَمةِ هواءٍ مُنعِش. لقد كان مُتعَبًا، وبدأ الوقتُ يفوت. وألقى نظرةً على المرضى الذين كانوا ما يزالون بانتظار رؤيته، فتمنَّى لو كان أكثرَ من مُجرَّدِ بَشَريّ، لو أنَّه يستطيعُ أن يأمرَ الوقتَ فيتوقَّف. فواقعُ الحال لا يُمكِّنه من أن يُعاينَ كلَّ شخصٍ يحتاجُ إليه. وأُناسٌ كأُولئك، لَدَيهم مالٌ قليل وأَمَلٌ أقلُّ بَعدُ، كانوا يقصدون إلى الطبيبِ باعتِباره مَلاذًا أخيرًا. وقد ساءَه أن يصرفهم دونَ الحصول على العناية التي هم في حاجة ماسَّة إليها. ولكنْ أيُّ تصرُّفٍ آخر كان يستطيعُه؟ إنَّ ساعاتِ النهارِ محدودةُ العدد... وليس من ألِكسَندرَ آخَرَ سِواه؟

ورأى هَدسَّة قد وضعَتْ كُرسيَّها أمامَ امرأةٍ في حِضْنها طِفلةٌ باكية. كان وجهُ الأمِّ مشحوبًا وثابتًا فيما هي تتكلَّم، فخفقَت حَملَقتُها باتِّجاهه على

نحوٍ مُتوتِّر. وكان ألِكسَندر يعلمُ أنّ المرضى يخافون منه غالبًا، يقينًا منهم بأنَّ أيَّ عِلاجٍ قد يَصفُه أو يُجريه لهم لا بُدَّ أن ينطويَ على ألَمٍ كثير. ومن النَّكَد أنَّ ذلك أيضًا كان صحيحًا أغلبَ الأحيان. فليس في وُسعك أن تخيطَ جُرحًا أو تُجبِّرَ كَسرًا دونَ ألَم. وكافَحَ الشُّعورَ بالإحباطِ الذي انبعثَ في داخلِه. لو كان لَدَيه المالُ الكافي، لأعطى المرضى جُرعاتٍ من عقَّار اللُّفَّاح قبل قِيامه بعملِه. ولكنْ- والحالةُ هذه- لم يكُن له خِيارٌ سوى تَوفيرِ العقَّار للاستِعمال في أثناء الجِراحة.

فتنهَّدَ، ثُمَّ ابتسمَ للمرأة، مُحاوِلًا تسكينَ خَوفِها، ولكنَّها طرفَتْ بعَينَيها وأشاحَت بناظرَيها فورًا. فحوَّل انتباهَه، مع هزَّةٍ من رأسه، إلى الدَّرجِ المنشور على طاوِلَة الشُّغل الصغيرة. وأجرى رأسَ إصبعِهِ نُزولًا عبرَ الأسماء المكتوبة بعنايةٍ على الرَّقّ حتَّى وجدَ الشخصَ الذي فرغَ منه توًّا. ثُمَّ نادى باسم المريض التالي.

قال: ‘‘بُويِثوس!’’ وأجالَ نظرَه على الواقِفين والقاعدين حولَ مدخل السَّقيفة. كان أربعةُ رِجال وثلاثُ نساء ينتظرون، ما عدا المرأةَ التي تحملُ

الطِّفلةَ الباكية. وكان قد عاينَ عشرةَ مرضى حتَّى الآن، وعَلِمَ أنَّ الوقتَ لن يتَّسعَ بعدُ لمعايَنةِ أكثرَ من شخصَين أو ثلاثة قبلَ أن يُضطرَّ إلى الإقفال والاستِراحة.

توكَّأت هَدسَّة بصُعوبةٍ على عُكَّازها، ونهضَت.

وقال ألِكسَندر ثانيةً ‘‘بُويِثوس!’’، وكان نافِدَ الصَّبر.

‘‘آسِفة، سيِّدي. لقد غادرَ بُويِثوس. أغريبا هي التالية، ولكنَّها وافقَتْ على السَّماح لإفيخاريس أن تدخُلَ قبلَها. إنَّ ابنةَ إفيخاريس، هيلانة، في قَدَمِها حَبَّةٌ تُسَبِّبُ لها ألَمًا رهيبًا’’.

نظرَ إلى المرأة وأومأ لها قائلًا بجَفاء: ‘‘أدخِليها’’. ثُمَّ دخلَ إلى ما وراءَ السِّتارة.

وما إنْ قامَتِ الأُمُّ لِتَتبعَه، حتَّى زعقَتِ الطِّفلة مُقاومةً على ذِراعَيها. وحاولَت الأُمُّ أن تُطَمئنَها، إلَّا أنَّ خَوفَها الشخصيَّ كان جليًّا: إذِ اتَّسعَت حَدَقتاها وبَرَقَتا معًا، وأخذَ فمُها يرتجف. فتقدَّمَت

هَدسَّة نحوَها، ثُمَّ تردَّدَت، عِلمًا مِنها بأنّ ألِكسَندر لا يُريدُ منها أن تتدخَّلَ في ما يجبُ القيامُ به. وحملَتْ إفيخاريس ابنتَها إلى ما وراءَ السِّتارة.

أرادَتْ هَدسَّة أن تسُدَّ أذُنَيها إذ شَقَّت أصواتُ الرُّعب الهواء. وسمِعَتْ صَوتَ ألِكسَندر نامًّا عن نَفادِ صَبرٍ بالغ.

‘‘وحياةِ الآلِهة، يا امرأة! عليكِ أن تُثبِّتيها، وإلَّا فلا أستطيع أن أشتغِل’’. ثُمَّ تكلَّمتِ المرأة، وعلِمَت هَدسَّة أنَّها كانت تبكي وهي تُكافحُ للقيام بِما طُلِبَ منها. وازدادَ الصُّراخُ شِدَّةً وحِدَّة.

أطبقَتْ هَدسَّة يدَيها إذ تذكَّرَتِ الألمَ الذي شعرَت به لـمَّا أفاقَت بعدَما هَشَّمَها الأسَد. كان ألِكسَندر قد عالجَها على ألطفِ نحوٍ مُمكِن، ولكنَّ الألَم بقيَ مُبَرِّحًا.

وفجأةً أزاحَ ألِكسَندر السِّتارةَ نَترًا وأمرَ هَدسَّة بدخول السَّقيفة. ثُمَّ قال لها- بِوَجهِهِ المشدود والمشحوب- ‘‘أبصِري إذا كُنتِ تستطيعين أن

تفعلي بهما شيئًا’’. وتمتمَ هامِسًا: ‘‘قد يظنُّ المرءُ أنِّي كُنتُ أُجرِي تشريحَ أحياء’’.

سارَت من حوله لِتَقترِبَ إلى الطِّفلة الزاعقة. فجرَتِ الدَّموعُ على وجه الأُمِّ الشاحِب وتشبَّثَت بابنتِها، مُرتَعِبةً كالطِّفلة تمامًا من ألِكسَندر. واقترحَتْ هَدسَّة بِلُطف: ‘‘سيّدي، لِماذا لا تُحضِرُ شيئًا تأكلُه؟’’ ثُمَّ وجَّهَتْه نحو السِّتارة.

وما إنْ مضى، حتَّى خفتَتْ صَرَخاتُ الطِّفلةِ المدوِّيةُ وباتَت بُكاءً مُتقطِّعًا مُنخفِضًا. فوضَعَتْ هَدسَّة كُرسيَّين بقُرب الكانون المتأجِّج. وأومأت للمرأة بأن تقعُد على أحَدِهما، فيما أنزلَت هي نفسَها مُتألِّمةً على الكُرسيِّ الآخر. لقد كان ذلك النهارُ طويلًا، وآلمتْها رِجلُها بشِدَّةٍ بالغة بحَيثُ جعلَتْ كلُّ حَرَكةٍ الألمَ ينتقِلُ على نحوٍ مروِّع، صعودًا إلى وَرِكِها ونزولًا إلى رُكبَتِها. إلَّا أنَّها كانت مُتيقِّنةً بأنَّ ألمَها كان أخفَّ كثيرًا ممَّا كانت تُعانيه الطِّفلةُ المسكينة. فلا بُدَّ من القيام بشيءٍ ما. ولكنْ ماذا؟

إنَّ ألِكسَندر كان توَّاقًا جدًّا إلى استخدام

مشرطه.

وتذكَّرَت فجأةً كيف عالجَتْ أُمُّها مرَّةً حَبَّةً في يَدِ جارة. فعَسى أن تنفعَ الطريقةُ نفسُها الآن.

رجاءً، يا ربُّ، دَعْ هذا العمل ينفع لأجلِ مجدك.

كان ينبغي، أوَّلًا، أن تكونَ الطِّفلة هادئة ومُتعاونة. فنهضَت هَدسَّة مُجَدَّدًا، سائلةً المرأةَ أسئلةً عن عائلتها، فيما صبَّت ماءً عذبًا في طَست ووضعته على الأرض الصُّلبة أمام قدمَي إفيخاريس. فنظرَتِ الطِّفلةُ من عَلُ إلى الماء بارتياب، ثُمَّ أخفَت رأسها في صَدرِ أُمِّها. وظلَّت هَدسَّة تتكلَّم بهدوء، مُشجِّعةً الأُمَّ على الإجابة. فلمَّا تكلَّمت إفيخاريس، استَرخت. ولـمَّا استَرخَت، استَرخَتِ الطِّفلةُ معها، ودارَتْ لتَجلسَ على إحدى رُكبتَي أُمِّها وتُحدِّقَ إلى هَدسَّة بينما كانت تُضيفُ حُبَيباتِ الملح إلى الماءِ المبَخِّر في القِدر على الكانون.

قالَت هَدسَّة: ‘‘لمَ لا تنزِعينَ الضِّمَادةَ عن قدَمِها؟

ستكونُ مُستريحةً أكثر. سأضعُ قليلًا من الماء الساخِنِ في الطَّسْت، ويُمكِنُها أن تنقعَ قَدَمَها. سيُخفِّفُ هذا ألَمَها".

صرخَتِ الطِّفلةُ لـمَّا فعلَت الأُمُّ كما قالت هَدسَّة. "ضَعي رِجلَكِ في الماء، يا هيلانة. الأمرُ بسيطٌ، حبيبتي. أنا أعرِفُ أنَّكِ مَوجوعة. أعرِفُ ذلك. لهذا السَّبب جِئنا إلى الطبيب. حتَّى يتمكَّن من جَعلِ رِجلِكِ أحسنَ حالًا".

سألَت هَدسَّة: "أتُحِبِّينَ أن أحكيَ لكِ قَصَّة؟" ولـمَّا أومأتِ الفتاة برأسها مُستحِيَةً، حَكَت لها عن شابٍّ وشابَّة سافرا إلى مدينةٍ بعيدة لكي يتسجَّلا لأجل الضرائب. كانتِ الشابَّةُ حامِلًا، ولـمَّا حانَ وقتُ وِلادةِ الطِّفل، لم يوجَد لهُما مَكانٌ في الفُندُق. وفي تصرُّفٍ يائس، اصطحبَ الشابُّ الأُمَّ ليأوِيا في مَغارةٍ كانت إسطَبلًا جُعِلَ فيه بَقَرٌ وحميرٌ وحيواناتٌ أُخرى... وهنالك وُلِدَ الطِّفلُ الصَّغير.

"ولـمَّا وُلِد الطِّفل لَفَّه يوسفُ ومريم بأقمِطَة، ووضعَته في مِذود".

سألَت هِيلانة: ‘‘هل شعرَ بالبَرد؟ أنا أشعرُ بالبَردِ أحيانًا’’.

فمسَّدَتِ الأُمُّ الشَّعرَ الأشقرَ مُرجِعةً إيَّاه عن وجه الطِّفلة، ثُمَّ قبَّلَت خدَّها.

وقالت هَدسَّة: ‘‘لقد أبقَتْه الأقمِطةُ والقَشُّ دافئًا’’. ثُمَّ صبَّتْ بعضَ الماء من الطَّست، وأضافَتْ مَزيدًا من الماءِ الساخِن، ووضعَتِ القِدرَ على الكانُون ثانيةً. ‘‘كان الجوُّ ربيعيًّا، والرُّعاةُ قد أخَذوا خرفانهم إلى المنحدَراتِ الجبليَّة. تِلكَ اللَّيلة، في أعالي السَّماء المظلِمة، شاهَدوا نجمًا جديدًا جميلًا- نجمًا مُشرِقًا بضَوءٍ أبهى من باقي النُّجوم جميعًا. ثُمَّ حدثَ أمرٌ عجيب’’. وأخبرَتْهما بشأن الملائكة الذين أرسلَهم الله لتبشير الرُّعاة بالطِّفل. ولـمَّا سألتها هِيلانة، شرحَتْ معنى الملائكة، وأضافت: ‘‘جاء الرُّعاة ليَرَوا الطِّفل ويسجُدوا له على أنَّه مسيحُهم، ومعنى هذه الكلمةِ «الشَّخصُ الذي مَسَحَهُ الله» أي عيَّنَه’’.

وسألت هِيلانة، مُتشوِّقةً إلى المزيد: ‘‘ماذا

جرى بعد ذلك؟’’

‘‘حسنًا، بقيَتِ العائلةُ الجديدة في بلدةِ بيتَ لحمَ مُدَّةً لا بأسَ بها. وقد كان يوسُف نجَّارًا جيِّدًا، فتمكَّنَ من أن يشتغلَ ويُعيلَ عائلتَه. وبعدَ عدَّة أشهُر، جاء بِضعةُ رجالٍ من بَلَدٍ بعيدٍ ليَرَوا الصبيَّ الذي وُلِد تحتَ ذلك النَّجم الجديد. لقد أدركوا أنَّ هذا الصبيَّ كان مُميَّزًا جدًّا، وأنَّه كان أكثرَ من مُجرَّدِ إنسان’’.

فسألت هِيلانة، بعينَين مُتَّسِعتَين: ‘‘هل كان إلهًا؟’’

‘‘كان **هو** الله، وقد نزلَ كي يعيشَ بيننا؛ والرجالُ الذين جاءوا من البَلَد البعيد جلبوا له هدايا: ذَهَبًا لأنَّه كان مَلِكًا، وبَخُورًا لأنَّه كان **الكاهن الأعلى** لجميعِ البَشَر، ومُرًّا لأنَّه سوف **يموت** من أجل خطيَّة العالم’’.

وسألَتِ الطِّفلةُ بخَيبَةِ أمَل: ‘‘هل كان الطِّفلُ سيموت؟’’

فقالَت الأمّ: ‘‘اشْش، هِيلانة. أصغي إلى القصَّة...’’. وقد جذَبَتِ القصَّةُ الأمَّ وأسرَتْها هي أيضًا.

أضافَتْ هَدسَّة مزيدًا من الماء الساخن إلى الطَّست. ‘‘كان هنالك مَلِكٌ شرِّير عَلِمَ أنَّ الطِّفل سيَكبرُ ويصيرُ **مَلِكًا**، وهكذا بحثَ عنه حتَّى يقتُلَه’’. ووضعَتِ القِدرَ على النار من جديد. ‘‘عَرَفَ الرِّجالُ الآتونَ من البلادِ البعيدة بخُططِ الملك، إذ نبَّهَهم ملاكٌ في حُلُم. ثُمَّ ظهر ملاكٌ ليوسُفَ وقال له أن يأخُذَ الأُمَّ والطِّفلَ إلى مِصْر، حيث يكونُ في أمان’’.

وبينما حَكَتِ القصَّة، استمرَّتْ في صَبِّ شيءٍ من الماء الفاتر من الطَّست وإضافةِ أكثرَ فأكثرَ من الماء الساخن، حتَّى تصاعَدَ البُخارُ من الوعاء الذي كانت قَدَمُ البنت فيه. ولم تُسبِّبِ الزِّيادةُ التدريجيَّة في الحرارة أيَّة زيادةٍ في الألم، وقلَّما لوحِظت.

‘‘أخيرًا ماتَ الملكُ الشرِّير، فأرسلَ **إيلُ رُئي**، «الله الذي يَرى ويُدبِّر»، خَبَرًا إلى يوسف ومريم

بواسِطةِ ملاكٍ آخر...''.

أطلقَت هِيلانة الصغيرةُ شهقةَ إجفال وأنَّةً ناعمة. واحمرَّ الماءُ في الطَّست إذِ انفجَرتِ الحَبَّةُ وفرغَت.

ربَّتت هَدسَّة بَطَّةَ ساقِ الصغيرة. ''بِنتٌ عاقلة! أبقي قَدَمَكِ في الماء. دعي الحَبَّةَ تُصَرِّف ما فيها''. قالَت هذا، شاكِرةً اللهَ على رحمتِه. ''ألا تشعُرينَ بتَحسُّنٍ الآن؟'' ثُمَّ توكَّأت بصُعوبة على عُكَّازها، وقامت وعمِلَت كِمادةً من الأعشاب كالكِمادات التي يُعِدُّها ألِكسَندر للمرضى ذوي الجُروح المتَقيِّحة. ولـمَّا انتهَت، التفتَتْ إليهما، قائلةً لهيلانة: ''ستضعُكِ أُمُّكِ على الطَّاولة، وسأُضمِّدُ أنا قدمَكِ''. فقامت إفيخاريس وفعلَت ما طُلِبَ منها.

غسلَتْ هَدسَّة برفقٍ قَدَمَ هِيلانة، ثُمَّ نشَّفَتها، مُتيقِّنةً بأنَّ السائلَ الفاسِد، الأبيضَ الأصفرَ المشُوبَ بالدَّم، قد صُرِّفَ كُلُّه. ثُمَّ وضعَتْ الكِمادةَ برِفقٍ ولفَّتِ القَدَمَ بكَتَّانٍ نظيفٍ لفًّا مُحكَمًا. وغسلَتْ يدَيها، ونشَّفَتْهما. وإذ ربَّتَتْ أنفَ هيلانة،

قالَت بمَرَح: ‘‘ممنوعٌ الرَّكضُ يومًا أو يومَين’’.

جلسَت هِيلانة مُقَهقِهةً. وخفقَتْ عيناها، وانتشرَت على وجهِها الفاتن الصغير سِيماءُ جِدّيَّة. ‘‘ماذا جرى للصَّبيِّ الصغير؟’’

طَوَت هَدسَّة باقيَ الكَتَّان. ‘‘كبرَ وأعلنَ مملكته، واستقرَّتِ الرئاسةُ على كتِفه؛ **ودُعيَ اسمُه عجيبًا، مُشيرًا، إلَهًا قديرًا، أبًا أبدَيًّا، رئيسَ السَّلام’’**. ثُمَّ أعادَتِ الكتَّان إلى مكانه على الرَّفّ.

وقالَت إفيخاريس: ‘‘هيَّا الآن، هيلانة. لقد نجا الصَّبيُّ من كُلِّ أذى’’.

فقالَت هَدسَّة، هازَّةً رأسها: ‘‘لا. نما الصَّبيُّ وصار قويًّا، وقد ازدادَ في الحِكمة والقامة والرِّضى عندَ الله والناس. ولكنَّ البَشَرَ خانُوه؛ إذ لَفَّقوا عنه أكاذيب، وأسلَموه ليُصلَب’’.

تجهَّمَ وجهُ هيلانة وبدا الفَزَعُ على إفيخاريس، وكان واضحًا أنَّها ودَّت لو أنَّ هَدسَّة لم ترو هذا

الجُزءَ من القصَّة.

رفعَت هَدسَّة ذقنَ هيلانة. ‘‘الحقيقةُ أنَّه حتَّى أتْباعُ يسوع لم يفهَموا مَن هو حقًّا. فقد حَسِبوا أنَّه كان مُجرَّدَ إنسان، يا هيلانة. وظنَّ أعداؤه أنَّهم إذا قتَلوه تنتهي سُلطَتُه. وقد وُضِعَ جَسَدُه في قبرٍ قدَّمَه أحَد الأغنياء، وخُتِمَ القبر، وكُلِّفَ حُرَّاسٌ رومانيُّون بحراسته. ولكنْ بعدَ ثلاثة أيَّام، قامَ يسوع حيًّا من القبر’’.

فأشرق وجهُ هِيلانة بابتِسامةٍ عذبة: ‘‘هل قام **حقًّا**؟’’

‘‘نعم، حقًّا قام! وهو ما يزالُ حيًّا اليوم’’.

‘‘احكي لي المزيد!’’

ضَحِكَت إفيخاريس. ‘‘يجبُ أن نمضيَ، يا هيلانة. هناك آخرون ينتظرون. ثُمَّ ناولَتْ مُبتسِمةً هَدسَّةَ كُوادرَنسَين، وحملَتِ ابنتَها هيلانة: ‘‘شُكرًا لكِ على مُعالجة قدَمِها... وعلى القصَّة’’.

‘‘لم تكُن قصَّةً خياليَّة، يا إفيخاريس. إنَّها حقيقيَّة.

لقد كان أبي شاهِدَ عِيانٍ لها’’.

حدَّقَت إليها إفيخاريس مَذهولةً. ثُمَّ شدَّت هيلانة إلَيها أكثرَ، وتردَّدَتْ كما لو أرادَتْ أن تَبقى وتمضِيَ في الحديثِ بَعدُ. إلَّا أنَّها كانت على حقّ. فقد كان آخرون مُحتاجون ينتظِرون خارِجًا. وألقَت هَدسَّة يدَها على ذِراعِ المرأة، قائلةً: ‘‘ارجِعي في أيِّ صباح، وسأُخبِرُكِ بجميع الأُمور التي فعلها يسوع’’.

وقالت هيلانة: ‘‘أُوه، رجاءً، ماما’’... فأومأت إفيخاريس برأسِها مُوافِقةً. ثُمَّ أزاحت السِّتارة وهمَّت بالخروج، فرأتْ ألِكسندر في الخارِج تمامًا، جالسًا على كُرسيٍّ بلا ظَهر. فتلفَّظَت لاهِثةً باعتِذارٍ مُرتبِك، ومَشَتْ مُجاوِزةً إيَّاه. وأدارَت هيلانة رأسَها بعيدًا، مُتشبِّثةً بأُمِّها تشبُّثًا أشدَّ. فحنَت إفيخاريس رأسَها قليلًا، وغادَرتِ السَّقيفة بسُرعة. وراقبَها ألِكسندر تبتعدُ على عَجَل. لقد رأى الخوف في عينَيها وفي عينَيِ الطِّفلة لـمَّا نظرَتْ إليه. غير أنَّهما كِلتَيهما وثِقَتا بهَدسَّة ثقةً تامَّة.

سألَت هَدسَّة: ‘‘أين الآخَرون؟’’

‘‘طلبتُ منهم أن يعودوا غدًا’’.

‘‘أأنتَ غاضِبٌ منّي؟’’

‘‘لا. أنا مَن طلبَ إلَيكِ أن تَرَي ما يمكنُ فعلُه بِهما. غير أنّي فقط لم أتوقَّع...’’. وضَحِكَ ضِحكةً حزينة، وهزَّ رأسَه. ثُمَّ نهضَ ونظرَ إليها من عَلُ. ‘‘سأُضطرُّ لأنْ أُراقِبَكِ بعَينٍ أقربَ، وإلّا تَسرِقي مَرضايَ الآخرين من أمامي مُباشَرةً’’. وجذبَ حِجابَها جذبةً خفيفةً وُدِّيَّة.

وإذ دخلَ السَّقيفة، أغلقَ السِّتارة، وأحضرَ صُندوقَ المال حيث كان مخبَّأً. ‘‘بالمناسَبة، لماذا غادرَ بُويثوس؟ هل شفَيتِه فيما كان ينتظر؟’’

قرَّرَت هَدسَّة أن تُجيبَ بجِدِّيَّةٍ عن سؤالِه المغايِظ. ‘‘أعتقد أنَّ كلَّ ما يشكو منه بَدَنيًّا سببُه الخوف’’.

فرمقَها ألِكسندر باهتِمام: ‘‘الخوف؟ كيف ذلك؟’’

‘‘القَلَقُ، سيِّدي. ليس له عَمَل، ولَدَيه عائلةٌ ينبغي أن يُطعِمَها ويُؤويَها. قال إنَّ أوجاعَ مَعِدَتهِ بدأت منذُ أسابيعَ قليلة. وذلك، كما قال، حينَ كان يشتغل في أحواضِ السُّفُن آخِرَ مرَّة. وقد بدأ صُداعُه قبلَ أيَّام مَضَت، تقريبًا في الوقت الذي فيه قال له المالِكُ إنَّه إنْ لم يحصُلْ على بَدَلِ الإيجار فسيَطردُ عائلتَه إلى الشارع’’.

‘‘مُشكِلةٌ كبيرة، وليسَت بِنادِرَة. هل حَلَلتِها؟’’

‘‘لا، سيِّدي’’.

فقال مُتنهِّدًا. ‘‘إذًا، كان ما يزال يُعاني أوجاعَه لـمَّا غادَر. ربَّما ملَّ الانتظار’’. ثُمَّ أخذَ بعضَ قِطَعِ النَّقد من الصندوق، وسفقَ الغِطاء. وأضاف إذ دفعَ الصُّندوقَ مُجدَّدًا إلى مكانه المغلَق. ‘‘لستُ ألومُه. فلو أمكنَني أن أشتغلَ على نحوٍ أسرَع، لتمكَّنتُ من مُعالَجةِ مرضى أكثرَ عددًا...’’

‘‘لقد قال إنَّ صُداعَه ولَّى’’.

بادلَها ألِكسَندرَ النَّظرَ مَدهوشًا. وعبَّسَ إذِ اعتدلَ،

غيرَ مُستريح. لم تكُن تلك هي أوَّلَ مرَّةٍ يشعرُ فيها شعورًا كهذا في حضورها. وكادَ أن يكونَ أكثرَ خَوفًا من أن يلمسَها بعدَما صحَّت جِراحُها المتقيّحة دون أيِّ تفسيرٍ مَنطِقيّ. يقينًا إنَّ إلهَها قد تدخَّل، وإلهٌ لَه قُدرةٌ كهذه يجبُ ألَّا يُنظَرَ إليه بعَينِ الاستِخفاف. "هلِ استَحضَرتِ اسمَ يسوعِكِ؟"

قالت: "استحضرتُ؟" واعتدلَت قليلًا. "إذا كُنتَ تسألُ هَلِ استخدمتُ رُقيةً، أو كلمات سِحر، فالجوابُ هو لا".

"إذًا، كيفَ، استعطَفتِ إلهَكِ ليفعلَ إرادتكِ؟"

"لم أفعَل ذلك! إنَّ إرادةَ الربِّ هي التي تَستظهِرُ في كلِّ شيء".

"لقد فعلتِ شيئًا ما. فماذا كان ذلك؟"

"لقد أصغَيتُ إلى **بُويِثوس**".

"وهل كان هذا كُلَّ ما في الأمر؟"

‘‘صلّيتُ، ثَمَّ خبَّرتُ بُويثوس بشأن الربِّ يسوع. ثُمَّ عَمِلَ اللّٰه في قلبِ سَفرينا، فأعطتَني الكُوادرَنسَين لأجله’’.

هزَّ ألِكسَندر رأسَه، مُرتَبِكًا تمامًا إزاءَ تفسيرها. ‘‘إنَّ ذلك لا يُفهَم فهمًا مَنطِقيًّا بأيَّة حال، يا هَدسَّة. ففي المقام الأوَّل، أعطتكِ سَفرينا المال لأنَّكِ عامَلتِها بلُطف. وفي المقام الثاني، هي لم تعرفْ أيَّ شيءٍ على الإطلاق عن مَشكلات بُويثوس’’.

‘‘اللّٰه كان يَعرِف’’.

وقفَ ألِكسَندر حائرًا. ‘‘تتحدَّثين على نحوٍ غايةٍ في الحرّيَّة بشأن إلهِك وبقُدرته، يا هَدسَّة. من شأني أن أعتقدَ أنَّكِ بعدَ كُلِّ ما عانَيتِه، أنتِ دون سائر الناس، لا بُدَّ أن تعرِفي أنَّ العالَم هو مثل الملكِ الشرِّير في قصَّتِكِ. فأنتِ لا تعرفينَ أحَدًا من الناس الذين يأتون إلى السَّقيفة، ومع ذلك تُخبِرينهم بشأن يسوعَ بِلا نَدَم’’.

أدركَتْ أنَّه كان جالسًا على قربٍ كافٍ من

الستارة بحيثُ تمكّنَ من سَماعِ كلِّ كلمةٍ قالتها لإفيخاريس وهيلانة. "مهما بدا في الظاهر، فإنَّ العالَمَ ملكٌ للرَّبّ، يا ألِكسَندر. فَمِمَّ ينبغي أن أخاف؟"

"من الموت".

فهزَّت رأسَها. "لقد أعطاني الرَّبُّ يسوع حياةً أبديَّةً فيه. فليَأخُذوا حياتي هنا، ولكنَّ اللّه يُمسِكُ بي في راحةِ يَدِه، ولا أحَدَ يستطيعُ أن يأخُذَني منه". ثُمَّ بسطَت يَدَيها. "ألَا ترى، يا ألِكسَندر؟ لم يكُن بُويثوس يحتاجُ إلى الاحتِراسِ من جانبي. ولا سَفرينا، ولا إفيخاريس، ولا هيلانة. فهُم جميعًا يحتاجون لأنْ يَعرِفوا أنَّ اللّه يحبُّهم كما يحبُّني تمامًا. وكما يحبُّكَ أنتَ أيضًا".

دحرَجَ ألِكسَندر النُّقودَ في يَدِه. كان أحيانًا يخافُ من قناعاتِها. فقد أثبتَتْ فعلًا كم أنَّ إيمانَها مُتجذِّرٌ عميقًا، عُمقًا كافيًا لأنْ تبذلَ حياتَها. وساءلَ نفسَه هل يَحرِمُه إيمانُها إيَّاها يومًا ما...

دفعَ تلكَ الفِكرةَ بعيدًا في الحال، دون أن يتوقَّفَ

كي يُحلِّلَ طَعنةَ الرَّهبة التي اخترقَتْ أوصالَه. فإنَّ فقدانَه لها لم يكُن شيئًا يرغَبُ في التفكُّرِ فيه...

حتَّى إنَّه كان أكثرَ خوفًا حِيالَ السُّلطان الذي لمسَه فيها. أكانَ ذلك لها وحدَها، أم كان هِبةً من إلهِها يُمكِن أن تُستَدعى في أيِّ وقت؟ مهما كان الجواب، فقد كان من شأنها أحيانًا أن تقولَ أشياءَ تبثُّ القُشَعْريرة في بَدَنِه.

ومن ثَمَّ قال: ‘‘أحتاجُ لأنْ أُفكِّر’’، وجاوزَها ذاهِبًا.

وبينما هو يمضي قُدُمًا وسطَ تيَّارِ الناسِ السائرين مُبتَعِدينَ عن الحمَّامات، فكَّرَ مليًّا في ما قالته هَدسَّة بشأن ما يسبِّبُه القَلَقُ للمرضى مُقارَنةً بما يعرفُه من شؤونِ الطِّبّ. وكُلَّما أمعنَ في التفكيرِ في الأمر، ازدادَ فُضولًا للتَّيقُّن بأنَّ ما اقترحَته هَدسَّة يُمكِنُ إثباتُه عبر الاحتفاظ بسِجلَّاتٍ للحالات ذاتِ الصِّلَة. ثُمَّ اشترى خُبزًا وخمرًا وانطلقَ راجعًا، توَّاقًا إلى مُحادَثِتها.

رفعَ ألِكسَندرُ القاطعَ، وأقفلَ السَّقيفة لأجلِ

اللّيل. ثَمَّ أحضرَ حَشيِّتَه الملفوفةَ من تحتِ طاوِلَة الشُّغل، وقعدَ عليها. واقتطعَ جُزءًا من الخُبز، وقدَّمه إلى هَدسَّة إذ قعدَتْ مُقابِلَه على حَشيِّتِها. ثُمَّ أنزلَ الزقَّ المصنوع من جِلدِ المعزى، وسكبَ خمرًا لِكِلَيهما.

وبينما هُما يأكُلان، قال: ‘‘أُريدُ أن أسمعَ المزيدَ عن نظريَّاتك. أوَّلًا، حبَّةَ البنتِ الصغيرة. كيف عَرَفتِ ما ينبغي أن يُعمَل؟’’

‘‘لقد عالجَتْ أمِّي مرَّةً حبَّةً لإحدى الجارات. فجرَّبتُ طريقتَها. **وبنعمةِ الله،** نفعَت’’.

‘‘بِنعمة الله’’. عَقَدَ عزمَه على تذكُّر هاتَين الكَلِمتَين. فلَعلَّهُما مُهمتَّان، أو لعلَّ بعضًا من سُلطانِ هَدسَّة كان كامِنًا فيهما.

‘‘لقد رأيتُكِ تَشفين بِضعةَ أشخاص جاءوا إلى السَّقيفة’’.

‘‘أنا لم أشفِ أحدًا قطُّ!’’

‘‘بل شَفَيتِ حقًّا. وبُويثوس واحِدٌ منهم. لقد

شَفَيتِه. فهو جاء ولَدَيه أعراضٌ شتَّى ثُمَّ مَضَى صحيحًا مُعافًى. ومن البديهيّ أنّي أنا لم أتدخَّلْ في الأمرِ إطلاقًا. حتَّى إنِّي لم أتكلَّم إلى الرَّجُلِ قطّ".

فاضطربَت هَدسَّة. "كلُّ ما قدَّمتُه إلى بُويِثوس هو الأمَل".

اقتطعَ ألِكسَندر جزءًا يسيرًا من الخُبز وغمسَه في خمرته، وقال: "الأمَل؟ لا أعتقدُ أنَّه يُحدِثُ فرقًا كبيرًا، ولكن امضي في حديثِك. اشرَحي". ثُمَّ دسَّ قِطعةَ الخُبزِ في فمه.

فصلَّت هَدسَّة: **يا ربّ، إنَّه مِثلُ كلاوديوس كثيرًا، ولم تكُن لِكلاوديوس قطُّ أُذُنانِ سامعتان.** وإذ أمسكَتِ الكأسَ الخشبيَّةَ بين يَدَيها، صلَّت طالِبةً ألَّا يسمعَ ألِكسَندر فقط، بل أن يفهَمَ أيضًا.

"خلقَ اللهُ البَشَر كي يعيشوا في علاقةِ محبَّةٍ به ويعكِسوا سجاياه. فالناسُ لم يُخلَقوا ليَعيشوا مُستقلِّين عن الله".

فقال: ‘‘تابعي!’’ مُحرِّكًا يدَه، مُتلهِّفًا لِلسَّمْع.

وحَكَت له عن آدم وحوَّاء في الفردَوس وكيف أعطاهُما الله حُرِّيَّة الإرادة، وكيف أخطأا إذ صدَّقا الشَّيطان بدلًا من الله. وأخبرَته كيف طُرِدا من الجنَّة. وحدَّثته بشأن موسى والشريعة، وكيف كانت التقدمات- كلَّ يومٍ وطولَ النهار- تُحرَق لتَغطية الخطيَّة. ومع ذلك، لم تستطعْ جميع تِلكَ الذَّبائح أن تُطهِّر من الخطيَّة إلى التمام. إنَّما الله وحدَه استطاعَ إنجازَ ذلك بإرساله ابنَه الوحيدَ ليَموتَ بصفته الذبيحة الكفَّارية الحاسِمة من أجل البشر جميعًا. فبواسطة الربِّ يسوع المسيح، هُدِمَتِ الجُدرانُ الفاصلة وصارَ في وُسْع الإنسان من جديد أن يكونَ مع الله بالرُّوح القُدس الساكِنِ داخِلَ المؤمِنين.

وقالت مُقتبِسةً إنَّ الله ‘‘بَذَلَ ابنَه الوحيد، لكي لا يهلِكَ كلُّ من يؤمِنُ به بل تكون له الحياةُ الأبديَّة’’. ثُمَّ أضافت: ‘‘ولكنْ رُغمَ هذا كُلِّه، ما زال مُعظَمُ الناس يعيشون في حالةِ انفِصالٍ عن الله’’.

قال أَلِكسَندرُ مَفتونًا: ‘‘وهل حالةُ الانفصالِ هذه هي التي تُسبِّبُ المرض؟’’

فهزَّت رأسها. ‘‘أنت ترى الأُمورَ فقط في المجالِ المادِّيِّ، يا أَلِكسَندر. يمكنُ أن يأتيَ المرضُ حين يرفضُ الإنسان أن يعيشَ في إطار خُطَّةِ الله. سَقرينا، مَثَلًا. لقد حذَّرَ الربُّ من مُمارَسة الزِّنى، ومن الممارَسات الجنسيَّة اللَّاشرعيَّة. وحذَّر من أُمورٍ كثيرة. وجميع الذين يمارسونَ تلكَ يتحمَّلون عواقِبَ خطاياهم. فرُبَّما كانت أمراضٌ كثيرةٌ هي مُجرَّدَ عواقِبِ عدم الطاعة’’.

‘‘وهكذا، فإذا أطاعَتْ سَقرينا قوانينَ إلهِكَ، تصيرُ صحيحةً من جديد. أذلك هو المقصود؟’’

فأغمضَت هَدسَّة عينَها وراءَ نِقابها. يا ربّ، **لماذا أبقَيتَني حيَّةً فيما أُخفِقُ دائمًا في كلِّ شيءٍ تُعطيني إيَّاه؟ لماذا لا أجِدُ الكلِماتِ لإفهامه؟**

‘‘ هَدسَّة’’.

أحرقَت دُموعُ الخيبةِ عينَيها. وتكلّمت بكُلِّ بطء، كما إلى وَلَدٍ صغير. "لقد أُعطِيَتِ الشريعةُ كي يُدرِكَ الإنسانُ أنَّه خاطئ ويرجعَ إلى الربِّ تاركًا شرَّه. أنتَ تَنظرُ إلى البَشَر باعتبارهم كائناتٍ مادِّيَّةً فحَسبْ، وتبحثُ عن الحُلول في العالَمِ المادِّيّ، غير أنَّ الإنسانَ كائنٌ روحيٌّ أيضًا، مَصنوعٌ على صورة الله. فكيف تعرفُ مَن أنتَ أساسًا دونَ أن تتعلَّمَ مَن هو الله". وهنا تهدَّجَ صَوتُها قليلًا، ورأتْه يتجهَّم.

وعضَّت شفتَها قبل أن تُتابع. "إنَّ علاقتَنا بالله تؤثِّر في أجسامنا حقًّا. ولكنَّها تؤثِّرُ في عواطِفِنا وعُقولِنا أيضًا. ثُمَّ أطبقَتْ يَدَيها بإحكامٍ على الكأس الخشبيَّة إذ طأطأت رأسَها. "أنا أُومنُ بأنَّ الشِّفاء الحقيقيَّ لا يمكنُ أن يحصُلَ إلَّا عندما يُرَدُّ الإنسانُ إلى الله..."

بقيَ أَلِكسَندر صامِتًا، مُستَغرِقًا في التفكير. ثمَّ اقتطَعَ قِطعةَ خُبزٍ أُخرى، وغمسَها في خمرته، مُعطِيًا نفسَه مزيدًا من الوقت للتَّفكير مَلِيًّا في ما قالَته هَدسَّة توًّا. وأخذَ قلبُه يخفقُ بِسُرعةٍ كحاله دائمًا عندما تحضُرُ في باله فكرةٌ ما. فأكلَ خُبزَه

على عَجَل، وشرِبَ كلَّ ما بقيَ في كأسه، ووضعَها جانبًا. ثمَّ قام، ونفَّضَ عن يدَيه فُتاتَ الخُبز، وفرَّغَ مكانًا على طاولَةِ شُغلِه. وإذ مَزَجَ بالماء فحمًا محروقًا، أعدَّ حِبرًا كي يكتُبَ به. ثُمَّ انتَقى دَرْجًا فارِغًا، وقعدَ ونشَرَه، واضِعًا عليه ثقَّالاتٍ لإبقائهِ مُسَطَّحًا.

وأمرَ قائلًا: ‘‘قولي لي بعضًا من هذه الشرائع’’، بعدَما كتب ‘‘بنعمةِ الله’’ لتكون الملاحَظة الأولى لديه.

ألَم يسمعْ أيَّ شيء، يا ربّ؟ لا شيئًا على الإطلاق؟ ‘‘الخلاصُ ليس في الشريعة’’.

‘‘لستُ أتكلَّم بشأن الشريعة. إنِّي أتكلَّمُ بشأن مُداواةِ المرضى’’.

‘‘يا الله! لماذا أبقَيتَني هُنا؟ لماذا لم تأخُذْني إلى مَوطِني؟’’ كانَت هذه صرخةَ كَرْبٍ وإحباطٍ خالِصَين، فانتصبَ الشَّعرُ على قفا رَقبةِ ألِكسَندر. إنَّها تبكي، مُتشبِّثةً برأسِها في يَدَيها، والغَلطةُ غلطتُه. فما الذي يمكنُ أن يفعلَه إلهُها

به الآن؟

وقامَ عن كُرسيّه، ثمَّ ركعَ أمامها. ‘‘لا تَستَنزلي غضَبَ إلهِكِ علَيَّ قبلَ أن تسمَعي ما أودُّ أن أقولَه لكِ’’. وأمسكَ يدَيها ومسَّ بهما جبينَه.

فسحبَتْ يَدَيها عنه حالًا، ودفعَتْه إلى الوراء. ‘‘قُمْ عن رُكبتيك الراكِعَتَين لي! أأنا الله حتَّى تحنيَهما لي؟’’

فانكفأ مَذهولًا. ونهضَ وقعدَ على كُرسيِّه من جديد، قائلًا: ‘‘إنَّ إلهكِ قد أفرزَكِ له. فهو يسمعُكِ. وكما قُلتِ لي مرَّةً، لم أُنقِذْ أنا حياتكِ. وليس في وُسعي أيضًا أن أُفسِّرَ كيف حدثَ ذلك. كانت جِراحُكِ مُتقيِّحة، يا هَدسَّة. فحسَبَ جميعِ قوانينِ الطبيعة والعِلمِ التي أعرِفُها، كانينبغي أن تموتي. ولكنْ، ها أنتِ هنا!’’

‘‘وبي نُدوبٌ وإعاقة...’’

‘‘لكنْ سليمةً ومُعافاةً في ما عدا ذلك. فلماذا شاءَ إلهُكِ أن يُنقِذَكِ دونَ سِواكِ؟’’

فقالَت باكتئاب، هازَّةً رأسَها: ‘‘لستُ أدري. لستُ أدري البتَّة لماذا أنقذَ حياتي’’. كانَت قدِ اعتقدَتْ أنَّها علِمَت قَصْدَ اللّه لها: أن تموتَ في ساحة المحاربين. ولكنْ بدا أنَّ عندَ اللّه لها مَهمَّةً أُخرى.

‘‘لعلَّه أنقذَكِ حتَّى تُعلِّميني سُبُلَه’’.

فرفعَت رأسَها ونظرَت إليه من خلال حِجابها. ‘‘وكيفَ أفعلُ ذلك وليست لكَ أُذنانِ تسمعان كلمةً واحدة أقولُها؟’’

‘‘أنا أسمع’’.

‘‘إذًا، اسمعْ هذا. ما أهمِّيَّة الجَسَد إذا كانتِ النَّفسُ ميِّتة؟’’

‘‘وكيف تُعافِينَ نفْسًا إذا كان الجَسَدُ يتحلَّلُ مَرَضًا؟ كيف يتوبُ المرءُ دونَ أن يفهمَ أيَّةَ خطيَّةٍ قدِ ارتكَب؟’’ لقد كان ذِهنُه يُقَلِّبُ أفكارًا أكثرَ تعقيدًا من أن يُمكِنَه سَبرُ أغوارها دفعةً واحدة.

قطَّبَت هَدسَّة إذْ تذكَّرَت أباها راويًا قصَّةَ يُوشيَّا،

مَلِكِ يَهُوذا، ذاك الذي عَثَرَ خادِمُه على سِفرِ الشريعة وقرأه له. فما إنْ سَمِعَ يوشِيًّا كلامَ السِّفر، حتَّى مزَّقَ ثِيابَه، إذ أدركَ خطيَّتَه وخطيَّةَ شعبه بحقِّ الله. فقد جاءتِ التَّوبةُ من خلالِ المعرفة. ولكنْ ليستْ بِيَدِها نُسخَةٌ مكتوبة من التوراة. وليسَت لديها أيَّةُ نُسَخ من مُذكِّرات الرُّسُل. فكلُّ ما كانت تملكُه كان ذاكرتَها.

وقال ألِكسَندر، واضِعًا ريشتَه جانبًا: ‘‘منَ الآن فصاعِدًا، لَن تُعاوِنيني، يا هَدسَّة. سوف نعملُ معًا’’.

فذُعِرَت. ‘‘لم أتلقَّ أيَّ تدريبٍ لأكونَ طبيبة’’.

‘‘رُبَّما ليس بالطريقة التي تدرَّبتُ بها أنا، ولكنَّ لَدَيكِ تدريبًا أكثرَ ممَّا تُدركين. لقد تضلَّعتُ أنا من طبيعةِ الإنسان المادِّيَّة، وقد أعطاكِ إلهكِ بصيرةً نافذةً في العالَمِ الرُّوحيّ. فمنَ المنطقيّ أن نعملَ معًا كي نُعالجَ المرضى الذين عِلَلُهم أكثرُ تعقيدًا من جُرحٍ يحتاجُ إلى مُداواةٍ فوريَّة’’.

لم تتمكَّنْ هَدسَّة من أن تنبسَ بكلمة.

‘‘هل تُوافِقين؟’’

أحسَّت شيئًا ما ناشِطًا في العَمَل أعمقَ من أن تفهمَه هي أو يفهمَه ألِكسَندر. أمِنَ الله كان هذا العَرضُ أم من الشرّير؟ وقالَت مُتَلعثِمةً: ‘‘لستُ أدري. ينبغي لي أن أُصَلّي...’’

فقال ألِكسَندر مسرورًا: ‘‘جيّد. ذلك هو تمامًا ما أُريدُ منكِ أن تفعَليه. اسألي إلهكِ، ثُمَّ أعلِميني...’’

وقالَت بسُرعة، إذ بثَّتْ كَلِماتُه الخوفَ في داخِلها: ‘‘لا! إنَّك تتكلَّمُ كما لو كُنتُ وسيطةً مثلَ اللواتي في الأكشاك بقُرب الأرطميسيون’’.

‘‘إذًا، سأُقدِّم قُربانًا لألهِك’’.

‘‘القُربانُ الوحيد الذي يقبلُه الله هو أنت’’.

فعدَّل ألِكسَندر جِلستَه إلى الوراء قليلًا، ولم يتفوَّه بكَلِمةٍ واحِدَة بِضعَ لَحَظات. ثُمَّ ابتسَمَ ابتِسامةً ساخِرة: ‘‘أخشى ألَّا أكونَ مُضَحِّيًّا بذاتي إلى ذلك الحدِّ، يا هَدسَّة. لَستُ أُحِبُّ

الأسود’’.

ضَحِكَت هَدسَّة ضِحكةً رقيقة. ‘‘وأنا على وجه الخصوص لستُ مُغرَمةً بها’’.

فضَحِكَ معها، ثُمَّ عادَ جِدِّيًّا من جديد. ‘‘رُغمَ ذلكَ، كُنتِ على استِعدادٍ لأنْ تَبذلي حياتَكِ في سبيل ما تؤمنين به’’.

‘‘لم أبدأ مسيرتي مع الله في ساحةِ محاربين’’.

فالْتوى فمُه. ‘‘أينَ بدأتِ؟’’

ووافَتها الدُّموعُ إذ شاعَ الدِّفءُ في أوصالِها. لقد أحبَّت هذا الرَّجُل. فرغبتُه في أن يعرِفَ ويفهمَ نبعَتْ من رغبته الشديدة في مُساعدة الناس. وربَّما كانت مشيئةُ الله أن تُعلِّمه وتُنوِّرَه في ما تعرِفُه عن الرَّبّ. وربَّما كانت في الشرائع التي أعطاها الله لموسى لأجل العبرانيِّين أجوِبَةٌ تُفيدُه. فقد قال السيِّد المسيح إنَّه جاءَ لكي يُكمِّل الشريعة، لا لكي يُبطِلَها.

عندئذٍ مدَّت يدَها، فتَناوَلَها ألِكسَندر مُطبِقًا عليها

إطباقًا مُحكَمًا بيَدِه الكبيرة والقويَّة. فأجفلَتْ وقامَت عن حَشِيَّتِها، راكِعةً على الأرضيَّة الترابيَّة. وإذ أمسكَتْ يدَه الأُخرى، جذبَته إلى تحتُ بحيثُ باتا كلاهما جاثيَين على رُكَبِهما، وأيديهما مُشبَكةٌ معًا، مُواجِهًا أحَدُهما الآخَر.

"هنا نبدأ".

وحذا ألِكسَندر حَذوَها، فحنَى رأسه، مُرَكِّزًا على كلِّ كَلِمةٍ تقولُها.

سيكتبُ تلك الكَلِمات في ما بعد.

٦

دخلَت يُوديماس التريكلينيوم، وناولَتْ جُوليا دَرْجًا صغيرًا عليهِ خَتمٌ من شمع. فشُحِبَ وجهُ جوليا على نحوٍ ملحوظٍ إذ تناولَتِ الدَّرْجَ وصرفَتها بإشارةٍ من يدها. وابتسمَ پريمُس الجالسُ قُبالَتها ابتسامةً ساخرةً إذ دسَّتِ الدَّرْجَ بِسُرعة داخِلَ ثنايا تُنكِها المصنوع من الحرير الصِّينيّ.

‘‘أتُخبِّئينَ شيئًا ما، يا جوليا؟’’

‘‘لا أُخبِّئُ أيَّ شيء’’.

‘‘إذًا، لماذا لا تودِّين قراءةَ رسالتكِ الآن؟’’

فقالت باقتِضاب، دونَ أن تنظُرَ إلَيه: ‘‘لأنِّي لا أشعرُ بمَيلٍ إلى ذلك’’. وشدَّتْ شالَها الحريريَّ القِرمزيَّ حولها، ومسَّت بأصابِعها سوارَ الذَّهب والألماس على مِعصَمِها. ولاحظَ پريمُس كيف ازدادَتِ انزعاجًا من نظراتهِ الفاحِصة. والتَوى فمُه إذ مَضى يتأمَّلُها. فبقِيَت مُتَوتِّرةً وصامتةً،

مُتظاهِرَةً بأنَّها لم تُلاحِظ. والألوانُ الزاهية التي اختارَتْ أن تلبسَها إنَّما زادَتْ شحوبَها حِدَّةً وأبرزَتِ الدوائرَ الغائرة النامَّة عن الأرَق تحتَ عينَيها. إنَّ جوليا التي تألَّقتْ في ما مضى شهوةً وحياةً، باتَتِ الآن بالفعل مُمتقعةَ اللَّون من سوء الصحَّة. وبينَما هي ترتجف، صبَّت لنفسها مزيدًا من الخمر، ثُمَّ حدَّقَت في كأسها الذهبيَّة بعينَين فاتِرتَين.

وبعدَ لحظةٍ حملقَتْ به. ''لماذا تُحدِّقُ إليَّ؟''

فغدَت بسمَتُه مُغايظةً، وقال: ''هل كُنتُ أُحدِّق؟ لقد كنتُ أتأمَّل كم تَظهرينَ جميلةً هذا المساء''.

أدارتْ رأسَها بعيدًا، عالِمةً حقَّ العِلم أنَّ تملُّقَه كان فارغًا وخبيثًا. وقالَت بمرارة: ''كم هو لطيفٌ مِنكَ أن تُلاحِظ!''

فتناولَ حِصَّةً من الأطايب عن الصِّينيَّة. ''يا لكِ من مِسكينة، يا جوليا. ما زلتِ تُحاولينَ أن تُبرِّئي نفسَكِ لدى مَرقُس، أليس كذلك؟''

فرفعَت ذقنَها بتَعالٍ، وومضَت عيناها الداكِنتان. ‘‘لا حاجةَ بي إلى تبرئة نفسي لدى أحَد. لستُ مُضطرَّةً إلى الاعتذار عمَّا فعلتُه’’.

‘‘إذًا، لِماذا تُصِرِّين’’. وأكلَ اللُّقمَة.

‘‘لستُ أُصِرُّ!’’

‘‘هَه! ما تزالين تتوسَّلين وتَترجَّينَ مَرقُس طلبًا للمَغفرة منذ أن تركَكِ في مُدرَّجِ ساحةِ المحاربين. وهو يردُّ كلَّ رسالةٍ تبعثينَ بها’’. ولوَّح بيَده بمَرَح. ‘‘تمامًا كتلك الرسالةِ المختومة’’.

فحدَّقَت إليه. ‘‘وكيف تعرفُ عن الرسائل التي أبعثُها؟ وإلى مَن أرسُلها؟’’

وبينما هو يضحك، انتقى حَلمَةَ بقرةٍ مَحشوَّةً من على صينيَّة الأطايِب الدَّسِمَة. ‘‘لطالَما وجَدتُ تسليةً فائقةً في مُراقبة الذينَ حَولي’’. ثُمَّ أزاحَ جسمَه الضَّخمَ ليستريحَ أكثر. ‘‘ولا سيَّما أنتِ، يا حُلوَتي’’.

‘‘هل قالت لكَ يوديماس إنِّي كتبتُ إليه؟’’

‘‘لم تكَن مُضطرَّةً إلى ذلك. ففي وُسعي أن أقرأ العلامات. لقد كُنتِ سكرانةً البارِحة حتَّى أخذتِ تهذين. ولـمَّا كُنتِ تهذين، أوَيتِ إلى غُرفتِك باكرًا، وكتبتِ إلى أخيكِ. إنَّ كُلَّ ما تقومين به، يا جوليا، يمكنُ التكهُّن به- يمكن التكهُّن به إلى حدِّ الإملال. أنتِ تعلَمين تمامًا أنَّه لن يغفِرَ لكِ، ومع ذلك تُصِرِّين. وأنا أجِدُ حِقدَه الذي لا يَلين مُنعِشًا، ولكنْ بصراحة، يا عزيزتي، باتَتْ مُطارَدتُكِ التي لا تلينُ لمغفرته أمرًا يَدعو إلى الرِّثاء’’.

لم تتكلَّم لِلَحظةٍ، مُحاولةً السيطرةَ على مشاعرِها الجائشة. ‘‘إنَّه لا يكرهُني. فهو إنَّما يظنُّ أنَّه يكرهُني فقط’’.

‘‘بلى، إنَّه يكرهُكِ، يا جوليا. يكرهُكِ كُرهًا مُطلَقًا. لا تشكِّي في هذا لحظةً واحدة’’.

مزَّقَتها كَلِماتُه، واكتَوَت عيناها بدُموعِ حَبَسَتها. وقالت بسَخاءِ مَشاعرِها القاتِم: ‘‘إنِّي أحتَقِرُك!’’

فأدركَ مُحاوَلتها البائسة للرَّدِّ بالمثل، واستَهزأ بها صراحةً. ‘‘آهَه، أعرفُ هذا، يا عزيزتي، غيرَ

آنّي آنا كلُّ ما بقيَ لكِ، آلستُ كذلك؟ إنّ كالاباه هجرَتكِ وأبحرَتْ مُبتعِدةً إلى روما مع سفِّيرة الجميلة الصغيرة. وأصدِقاؤكِ يتجنَّبونكِ بِسببِ مرضِكِ. فقد تلقَّيتِ دعوةً واحدةً في الأسبوع الأخير، ويؤسِفُني أن أخُبِرَكِ أن كِريتانيُس شعرَ دونَ شكٍّ بالفَرَج لـمَّا بعثتِ باعتِذاركِ المؤدَّب. إذًا، عزيزتي، مَن لكِ سِواي يؤنسُكِ بعِشرَته؟'' ثُمَّ طقطقَ بِلسانه. ''مِسكينةٌ أنتِ، يا جوليا. الجميعُ تَرَكوكِ. يا له من أمرٍ يُثير الشَّفَقة...!''

''في وُسعي دائمًا أن أعتمدَ على فهمك، يا پريمُس، أليس كذلك؟ بالمناسبة، هل وجدَ أيٌّ من مأجوريك أيَّ أثَرٍ لپروميثيوس محبوبِك؟'' وأمالَت رأسَها إلى ناحيةٍ واحِدة، واضِعةً رأسَ إصبَعٍ على خدِّها، في مُحاكاةٍ ساخرةٍ لاستِغراقٍ في التفكيرِ مليًّا. ''فالآن، لماذا حسبَ ظنِّكَ صارَ أصعبَ فأصعبَ عليك أن تعثُرَ على عُشَّاق؟'' ثُمَّ بسطَت يدَيها، وقدِ انفرجَتْ أساريرُها بإدراكٍ تظاهرَت به. ''أيُمكِن أن يكونَ السَّبب بَدانتك المتفاقِمة؟''

تجهَّم وجهُ پريمُس وامتُقعَ لَونُه. ''كان مُمكِنًا

تجنُّبُ بَلاياكِ وبَلاياي لو أصغيتِ إلى كالاباه ودبَّرتِ مقتلَ خادمتكِ اليهوديَّة الصغيرة في وقتٍ **أبكَر**''.

أمسكَتْ بكأس خمرتها ورَمَته بها، فأخطأت رأسَه عن قُرب. وإذ تثاقلَ تنفُّسُها مع خَيبتها، رشقَته بشتيمةٍ مُهينة، ثُمَّ قامَتْ عن أريكتها، وقالَتْ مُحدِّقةً إليه عبرَ المسافة الفاصلة بينَهُما: ''كان مُمكنًا تجنُّبُ بَلاياي لو أنِّي لم أعقِدْ معكَ **أنت** ارتباطًا قطّ!''

فمسحَ قطراتِ الخمرِ عن وجهه وومضَت عيناه. ''ألقي عليَّ اللومَ إنْ كان لا بُدَّ من ذلك، ولكنَّ كلَّ واحِدٍ يعلَمُ أنَّكِ أنتِ اخترتِ هذا الخِيار''. وضَحِكَ ضِحكةً سَوداء. والآن، يجب عليكِ أن تعيشي مع خِيارِكِ هذا، أو تموتي...''

''أنتَ دُودَةٌ حقيرة!''

''وأنتِ خِنزيرةٌ غبيَّة!''

فقالَت، مُغالِبةً الدُّموع: ''كان ينبغي أن أُصغيَ

إلى مَرقَص. لقد عَلمَ مَن أنت''.

ابتسمَ پريمُس مُعتدًّا بذاته، إذ رأى أنَّه كاد ينجحُ في دفعها إلى الهستيريا. ''لقد عرفَني، أليس كذلك؟ ولكنْ من ثَمَّ عرفتِني أنتِ أيضًا، يا جوليا. إنَّكِ مَشَيتِ إلى الداخل وعيناك مفتوحتان تمامًا، مُعتقِدةً أنَّ كلَّ شيءٍ سيَكونُ كما أردِتِه بالضَّبط. وإلى حين، كان كذلك، أليس كذلك، يا حُلوَتي؟ بالضَّبطِ كما أردتِ أنتِ. المال، المقام، أتريتِس، كالاباه... وأنا''.

أرادَتْ أن تسحقَه، أن تمحوَ تلك الابتِسامةَ المتكلِّفة المغرورة عن وجههِ إلى الأبد. ولكنَّه كان كلَّ ما بقيَ لها، وهيَ عَلِمَت ذلك. فضاقَت عيناها، وقالت: ''ربَّما غيَّرتُ رأيي بشأنِ ما أُريده''.

''أُوه، عزيزتي. تهديدٌ فارغٌ آخَر. إنِّي أرتعِد!''

''عسى أن تَجِدَ تهديداتي ذاتَ يومٍ غيرَ فارِغةٍ تمامًا''.

لقد علمَ پريمُس كم هي مريضة، مريضةٌ جدًّا حتَّى إنَّه شكَّ في أنَّها ستَبقى على قَيد الحياة. وضاقَت عيناه ببرودة إذِ احتضنَ غضبَه السرِّيَّ وشعرَ بالدِّفء من جرَّائه. ‘‘إلى أن تكوني قد غيَّرتِ رأيَكِ، ستكونينَ قد بدَّدتِ كلَّ مالِكِ، ولن يُحدِثَ ذلك أيَّ فَرق؟’’ قال هذا بهُدوءٍ خدَّاع، وأضاف: ‘‘هل تساءلْتِ مرَّةً لماذا أبقى معكِ؟ أتظُنِّينَ لأنِّي أُحِبُّك؟’’ ولاحَظَ خَفقةَ الخوفِ الضئيلةَ في عينَيها، فغمرَه الرِّضى. لقد كان يعلمُ أنَّ خَوفَ جوليا الأعظمَ هو أن تبقى وحيدةً، ووحيدةً ستكونُ عندما يحينُ الوقت. عندئذٍ سيُحرِزُ انتِقامَه عنِ كُلِّ إهانة، عن كلِّ ازدِراءٍ عاناه منها. ولسوف ينتقمُ مِنها عن هُجرانِ پروميثيوس له.

أمَّا الآن، فتَظاهَرَ بالأسف على جَعلِها تشعرُ بالانجِراح. ورفعَ يده قائلًا: ‘‘أنا آسِف على كلِّ ما قلتُه’’، مُتظاهِرًا بالنَّدَم، وراضيًا بكَونه قد أنجزَ جُزءًا من مَقصِدِه. ثُمَّ أضاف: ‘‘لماذا نتجادَلُ كثيرًا هكذا، حبيبتي؟ إنَّ ذلك لن يُجديَ أيَّ نفعٍ. يجبُ أن تنضَجي، يا جوليا. اِقبَلي ما أنتِ عَلَيه. لقد شَرِبتِ من البئر التي شرِبتُ أنا منها، وقد كرَّرتِ

ذلكَ مُدَّةً طويلةً جدًّا بحيثُ لا تستطيعينَ الرُّجوع. فأنا هو الصديقُ الوحيد الذي بقيَ لكِ’’.

فقالَت بعُذوبةٍ لاذعة: ‘‘هلَّا تعذرُني!’’ وأشاحَت بناظريها.

وقال برِقَّة، ضاحِكًا في سُكون: ‘‘كما تشائين، عزيزتي. أفترِضُ أنّي سأُوفِّر أخباري لوقتٍ آخر، شيئًا سَمِعتُه عَرَضًا في وليمةِ فُلقِيوس البارحة، عَن مَرقُس’’.

فدارَت كي تُواجِهَه، وقد ضاقَتْ عيناها. ‘‘ما الأمرُ هذه المرَّة؟’’

فقالَ مع تلويحةٍ من يدِه: ‘‘لا بأس!’’ فَلتعرَقْ. ولْتَنعصِرْ مَعِدَتُها وتنقلِب. ولتُعلِّلْ نفسَها بالأمل. ‘‘يُمكِنُ أن ينتظِرَ الأمرُ حتَّى وقتٍ آخَر، عندما تكونين أكثرَ تقبُّلًا’’.

‘‘أيَّ إشاعَةٍ خبيثة سَمِعتَ هذه المرَّةَ، يا پريمُس؟’’

‘‘إشاعَة؟ عن أخيك؟ لقد باتَ بالأحرى مُتبلِّدَ

الحِسِّ من كلِّ ناحية. فلا نِساء. ولا رِجال’’. وضَحِكَ باستِهزاء، عالِمًا أنَّه قد حَظِيَ بِكاملِ انتِباهِها. ‘‘مِسكينٌ مَرقَّس. إنَّه لم يعُدْ يعرِفُ كيفَ يستمتعُ بالحياة؛ فهو يشتغل، ويذهب إلى الحمَّامات، ويعودُ إلى البيت. يومًا بعدَ يومٍ بعدَ آخر. وشَغَفُه الأقوى هو أن يُبغِضَكِ، وهو يقوم بذلكَ على نحوٍ حَسَنٍ جدًّا، أليس كذلك؟ فيا له من عَزمٍ وطيد، ومن التِزامٍ أكيد!’’

كان وجهُ جوليا مُتحجِّرًا، لا يُبدي أيَّ تلميحٍ إلى الكَرْبِ الذي سبَّبَه كلامُ پريمُس. وقد علِمَتْ تمامَ العِلمِ أنَّ پريمُس كان يستمتعُ بفظاظاتهِ الدنيئة. فكانتِ الطريقةُ الوحيدةُ لحماية نفسِها أن تتظاهَرَ بأنَّها لم تشعُر بأيِّ شيءٍ على الإطلاق، غير أنَّ معدَتَها تشنَّجَت من المحاوَلة، وخَبَطَ قلبُها بشدَّة.

وساوَرها بُغضُها الشديدُ له حتَّى ملأَ فمَها طَعمُ جفافٍ خَشِن. فلو أغمدَتْ سِكِّينًا في بطنه السَّمين وسمعَتْ صُراخه، لآتاها ذلكَ سُرورَها الأعظم. وكان من شأنها أن تقتُلَه، إنْ لم يَعنِ ذلك مَوتَها في سياقِ القيام بالأمر. ولكنْ عندئذٍ،

قد يكونُ الأمرُ مُستحِقّا عناءَه. فعلى الرُّغم من كلِّ شيء، أيُّ شيءٍ لَدَيها حتَّى تعيشَ لأجله الآنَ على كلِّ حال؟ ولماذا وُلِدَت أصلًا؟

اِلتَوى فمُها بمرارةٍ. ‘‘أنت لم تسمَعْ شيئًا. لا شيئًا ذا معنًى يُذكَر. إنَّك تكرَهُ مَرقُس لأنَّه ضِعفا الرَّجُل الذي أنتَ هو، أوِ الذي تستطيعُ أن تكونَه يومًا. فهو مَحَطُّ إعجاب. وهو مُحترَم. وماذا عنك؟ لستَ أكثرَ من مُجرَّدِ حَشَرةٍ تعيش على الأكاذيب والاغتياب بشأن مَن هُم أفضلُ منك!’’

فتلألأت عيناه وقال برِقَّة: ‘‘ألَم أكتمْ جميعَ **أسرارِكِ**، يا جوليا، حبيبتي؟ كيف ماتَ زوجُكِ الأوَّل بسبَبكِ؟ وكيفَ قتلتِ زوجَكِ الثاني؟ وماذا عن أولادكِ؟ أما زالوا يصرخون مُستَغيثين على الصُّخور؟ كم طفلًا آخرَ سَلَختِ من رَحِمكِ قبلَ أن تَنبِذي نسلَ أتريتِس؟’’ ورأى وجهَها يزدادُ شحوبًا بعدُ، فابتسم. ‘‘لقد حَفِظتُ أسرارَكِ مُقفلًا عليها بعيدًا، أليس كذلك؟’’ ثُمَّ وضعَ أصابِعَه على شفتَيه وزمَّهُما، نافِثًا قُبلةً لها.

أخذَتْ تَرتجِف. كيفَ عرفَ هذه الأُمور؟ لا أحَدَ عَلِمَ

أنَّها سمَّمَتْ زوجَها الثاني... بالتَّأكيد، لا أحَدٌ سِوى كالاباه. فلا بُدَّ أنَّ كالاباه، حبيبتَها وصديقتَها الموثوقة، قد أخبرته.

أزاحَ پريمُس جسمَه الضَّخمَ على الوسائد، مُقترِبًا أكثرَ إلى الصِّينيَّة الحافلة بالطَّعام. "لقد سمعتُ شيئًا عظيمَ الشأنِ وفَّرَ لي سببًا للتَّفكير. إنَّما السؤالُ هو: هل ينبغي لي أن أُفضيَ بهذه المعلومات المكتشَفة حديثًا إليكِ أنتِ، أيَّتُها المرأةُ الأكثرُ عُقوقًا بين النِّساء؟"

سيطرَت على غضبها من جديد. إنَّه كان يُرهِقُها مُجدَّدًا بهجماته المتكرِّرة، غيرَ أنَّها لم تجرؤ على المغادَرة، خشيةً من أن يكونَ بالحقيقة عارِفًا بشيءٍ ما. وأرادَتْ أن تأمُرَ بطَرده خارجًا من دارتها. إلَّا أنَّها علِمَتْ أنَّها إذا فعلتَ ذلك تُعرِّضُ نفسَها لِلسانهِ الخبيث الماكِر. وسيَفضحُ أعمالَها أمامَ الجميع. بلِ الأسوأُ من ذلك أنَّه سيَفضَحُ خُبثَ مَرَضِها الذي ينهشُ لحمَها في الخفاء.

انفُثْ سُمَّك، أيُّها الأفعوانُ الحقير. فيَومًا ما، سيَقطعُ أحدُهم الرأسَ عن الجِسم.

‘‘حَسَنٌ جدًّا، يا پريمُس! إنَّي مُصغِيةٌ. ماذا لَدَيك تُخبِرني إيَّاه بشأن أخي؟’’

‘‘إنَّ مَرقُس سيُغادِرُ أفسُس. ينبغي أن يُفرِحَكِ هذا، عزيزتي’’. وارتسمَتْ على وجهه ابتسامةً خبيثة إذْ فارقَتْ وجهَها بقيَّةُ اللونِ الضئيلةُ التي كانت فيه. ‘‘فكِّري في حَسَناتِ الأمر. لن تُضطرِّي بَعدُ إلى انتِحال الأعذار المعقولة حين يسألُكِ الآخرون عن السبب الذي من أجله يرفضُ أخوك المحتَرمُ جدًّا، والمطلوبُ، تلبيةَ الدَّعوات إلى أيِّ اجتماعٍ قد تكونينَ حاضِرةً فيه’’.

فأمالَت ذقنَها، مُتظاهِرةً بأنَّ كلامَه لم يُخلِّف أيَّ أثَرٍ فيها. ‘‘إذًا، هوَ راجعٌ إلى روما. فماذا إذًا؟’’

‘‘تقول الإشاعات إنَّه سيُبحِرُ على مَتن إحدى سُفُنِه الخاصَّة. ولكنْ ليس إلى روما’’.

وإذِ أطبقَت يَدَيها بإحكام، راقبَت پريمُس ينتقي حَلَمةَ بقرةٍ أُخرى ويلتهِمُها باستِمتاع مُقرِف. ثُمَّ مصَّ الشَّحمَ عن أصابِعه، ومدَّ يدَه ليأخُذَ حَلَمةً أُخرى، فيما كانت هي تنتظِر.

أحسَّ پريمُس نفادَ صَبرِها يشعُّ عبرَ الغُرفة. فتلذَّذَ به، تقريبًا بمقدارِ ما تلذَّذ بالوجبة التي كان يتَناوَلُها. لقد حظيَ بكاملِ انتِباهِها، وذلك هو ما أرادَه. حتَّى إنَّه كاد يسمعُ خَفقانَ قلبِها الشَّديدَ يدقُّ رُعبًا في أرجاء الغُرفة. ومسَّ بأصابعِهِ الطَّعامَ الدَّسِمَ مُرَبِّتًا إيَّاه، ومُنتقيًا شيئًا شهيًّا آخَر.

اشمأزَّت جوليا من اضطِرارها إلى مُشاهَدتِهِ آكِلًا، فجاهدَت لكَظمِ مشاعِرِها الثائرة غَيظًا، وقالَت بهُدوءٍ محسوب. ‘‘إلى أينَ سيُبحِرُ، يا پريمُس؟ رُودس؟ كورنثوس؟’’

فحشَا فمَه بحَلَمةٍ أُخرى، ومسحَ الشحمَ عن أصابعِه على طيَّةٍ من تُوجَتِه. ثُمَّ قال وهو يلوكُ اللُّقمة: ‘‘إلى اليهوديَّة’’.

‘‘اليهوديَّة!’’

ابتلعَ اللُّقمة، ولحسَ شفتيه المكتنِزَتين. ‘‘نعم، إلى اليهوديَّة، مَوطِنِ يهوديَّتِهِ الصغيرة. ويبدو أنَّه ينوي أن يمكُثَ مُدَّةً طويلةً طويلة’’.

‘‘كيف تعرف كم ينوي أن يمكُث؟’’

‘‘بالاستِنتاج. عَلِمتُ أنَّ مَرقُس باعَ مصالحَه في روما، ما عدا دارةَ عائلتِكِ، إذ وضعَها تحتَ تصرُّف والدتِك. وهل تعرفين ما فعلتْ؟ أرسلَتْ خَبَرًا بأن تؤجَّرَ الملكيَّة وتُستخدَمَ العائداتُ لتكونَ **أليمَنتا** لفُقراء الناحية. أفي وُسعكِ أن تتصوَّري إنفاقَ ذلك المالِ كلِّه على إطعام الجَهَلةِ لابِسي الثياب الوضيعة؟ يا لَه من تَبديد! كان مُمكِنًا أن يُخصَّصَ المالُ لهدفٍ أفضل، لأجلِ إعادَة مَلءِ خَزنتِنا المتَضائلة’’.

‘‘خَزنَتي **أنا**’’.

فقال هازًّا كتفَيه: ‘‘كما تشائين، خزنتِكِ أنتِ!’’ وغَمَسَ قِطعةً من لسانِ النَّعام في صَلصَةِ عَسَلٍ مُطيِّبة. وفكَّر باعتِدادٍ أنَّ جُولياه الصغيرةَ قلَّما أدركَتْ أنَّ مُعظمَ مالِها قد تسرَّبَ إلى يدَيه هو، وأُخفيَ لأجلِ المستقبَل. وقد تمَّ ذلكَ كلُّه بغَيرِ عِلمٍ منها. فإنَّ مرضَها ساعدَه في إتمام الأمر؛ إذِ استبدَّت بها هَواجِسُ أسقامِها المختَلفة بحيثُ لم تُعِرْ وضعَها الماليَّ اهتِمامًا يُذكَر. وكانت تثِقُ

بوُكَلائها لأجلِ حمايتها.

فكَّر پريمُس، مُبتسِمًا لنفسه. **مُدهِشةٌ القوَّةُ التي يمكنُ أن تمدَّ المرءَ بها رشوةٌ ما. وقلَّما عُرِفَ أنَّها مُحرِجةٌ إذا برزَت إلى العَلَن.**

غير أنَّ وكيلَها كان قد بعثَ إليه ذلكَ الصباحَ بخَبَرٍ يُفيد أنَّها تطلُبُ إجراءَ كشفِ حسابٍ كامل. فقدْ علمَ پريمُس أنَّ من الأفضل له أن يُعطيَ جوليا شيئًا يشغلُ بالَها فضلًا عن حالةِ أملاكِها.

ولأجلِ تلك الغاية، مَضى في ما هو بصَدَدِه، ناسِجًا شبكتَه. فقال ثانيةً، هازًّا رأسه: ‘‘إنَّ إعطاءَ ذلك المالِ كُلِّه أمرٌ لا يمكنُ تصوُّره. إلَّا إذا... هل تعتقِدين أنَّ يهوديَّتكِ الصَّغيرةَ تلك قد أفسدَت والِدتَكِ حتَّى صارت **مسيحيَّةً**؟’’

أجفلَتْ جوليا في داخلها إزاءَ هذا التلميح. أُمُّها... مسيحيَّة؟ فقد علِمَت أنَّه إذا كان ذلك صحيحًا، يكونُ قدِ انغلقَ في وجهِها بابٌ آخر.

ولاحظَ پريمُس سِيماءَها تتغيَّر بِمَكر، فعَلِمَ أنَّه كان يُمعِنُ في جَرحِها قليلًا قليلًا وأعمقَ فأعمق. لقد أرادَ أن يشقَّها ويطرحَها مكشوفةَ الأحشاء ويَدَعَ الجوارِحَ تستمتعُ بلَحمِها. "أمَّا مَصالحُ أخيكِ هنا في أفَسُس، من سُفنٍ ومستَودَعات، فقد وَضَعَها تحت إدارةِ بعض خُدَّام أبيك الموثوق بهم. إنَّه وضَعَ كلَّ ما يملكُه في أيدي وكيلَين: أرَستِس وسَيلاس.

مضغَ لُقمةَ الطعامِ الفاخِرةَ، ثُمَّ بصقَها على طَبَقٍ مُكشِّرًا، وصبَّ لنفسه خمرةً فالِرنيانيَّة، وهي الأجوَدُ في كاپوَا، وغرغرَ فمَه بشيءٍ منها لإزالةِ الطَّعم. ثُمَّ ابتَلعَ ما في فمِه، وتابعَ حديثَه. "إنَّ هذا كلَّه يُوحي أنَّ أخاكِ لا ينوي أن يرجعَ في أيِّ وقتٍ قريب، إنْ كان سيرجعُ يَومًا. أعتقدُ أنَّه يقومُ برِحلةِ حَجٍّ تذكارًا لحبيبته الراحلة، هَدسَّة". ثُمَّ أغاظَ جولِيا بابتِسامة، رافعًا الكأسَ الذهبيَّة لشُربِ نَخْب. "عسى أن يؤتيَكِ رحيلُه فترةَ راحةٍ من شعوركِ بالذَّنب، يا عزيزتي!" وقد بدا أنَّه يستَمتعُ بعذابِها. فقدِ استَساغَ الألمَ الذي رآه في عينَيها. إنَّ أخبارَه آذَتها في الصميم. ولم يعُدْ في وُسعِها أن تُخفِيَ ذلك.

غادرَت جوليا الترِيكلينيوم. ولـمَّا وصلَتْ إلى مَهجَعِها، ارتمَتْ متعَبةً على الأريكة، وأخرجَتِ الدَّرْجَ الصَّغير من ثنايا تُنكها المتلألئ قليلًا. وفيما هي ترتجفُ كلُّها، مَسَّتِ الخَتمَ بأصابعها. لقد كان ثابتًا في مكانه. فملأتِ الدُّموعُ عينَيها. رُبَّما لم يلمسْ مَرقُس الرسالة مُجرَّدَ لمس.

اليهوديَّة! تُرى، لماذا يُقدمُ على الذَّهاب إلى ذلك المكان الرَّهيب جدًّا، إلَّا إذا كان پريمُس على حقٍّ، وكانت للأمر عَلاقةٌ ما بتِلكَ العَبدة البائسة؟

شهقَتْ نَفَسًا خَشِنًا. لماذا لا يمكنُه أن ينسى هَدسَّة؟ لماذا لا يمكنُه أن ينسى ما قد حدَث؟ وعضَّت شفتَها، وادَّةً لو ترفعُ صوتَها صارِخةً في كَرْبها. ولكنْ إلى مَن؟ لا أحَدَ كان يهمُّه ما يجري لها.

لو كانت تعلَمُ بما سيَحصل، لَمَا فعلَت ما فعلَته. لماذا لا يمكنُ لِمَرقُس أن يُسامحَها؟ إنَّها أُختُه، لحمُه ودمُه. ألَم يعلَمْ كم أحبَّته دائمًا، وكم هي مستمرَّةٌ على محبَّته؟ فهي إنَّما أرادَتْ للأُمور أن تكونَ كما كانت لـمَّا كانا صغيرَين، لـمَّا بدا أنَّهما

كانا معًا ضدَّ العالَم. هل نسيَ كم كانا مُتقارِبَين، وكيف كان في وُسعهما أن يتحدَّثا أحدُهما مع الآخر بشأنِ أيِّ شيء؟ إنَّها لم تثِقْ في أحَدٍ قطُّ كما وَثِقَت به.

ما عدا هَدسَّة: هكذا همسَ في داخِلها صوتٌ صغير.

طعنَتها هذه الفكرةُ غيرُ المرحَّب بها بألَمٍ جعلَها تُغمِضُ عينَيها، مُرغِمةً نفسَها على طَمسِ الذِّكرَياتِ التي اجتاحَتْ كِيانَها... ذِكرياتِ حالَتِها لـمَّا كانت محبوبةً- محبوبةً حقًّا. "لا. **لا**. لَن أُفكِّرَ فيها. لَن...!"

وأطبقَ السُّكونُ عليها، آتيًا معه بالظلام.

تشبَّثَتْ بالدَّرْج الصغير في يَدِها، وهمسَتْ بانكِسار: "آهِ مَرقُس! لقد وعدَتَني مرَّةً بأنَّكَ ستحبُّني بصَرفِ النظر عمَّا أفعلُه". وما لبِثَ سُكونُ مَهجَعِها الموحِشُ أن صارَ ثِقلًا ساحقًا. "لقد وعدتَ، يا مَرقُس".

وإذ غمرَها اليأس، غضّنتْ مُناشَدتُها الأخيرةُ لأخيها وطرحَتها في الكانُون. فالتقَطَ الرَّقُّ اللهيبَ، وسُرعانَ ما تقلَّصَ صائرًا رمادًا.

وجلسَت جوليا تُراقِبُ أمَلَها الأخيرَ بصَفح أخيها يتلاشى.

‘‘لقد وعدتَ...’’ ثُمَّ غطَّت وجهَها، وأخذَتْ تترجَّحُ إلى الوراء والأمام، مُسترسِلةً في البُكاء.

الطين

٧

قال ساتَيرُس: ‘‘شَرَفٌ عظيم لنا أن تكونَ على مَتنِ السَّفينة، سيِّدي’’، مُتأمِّلًا الشابَّ الأصغر سِنًّا إذ أومأ له بأن يجلسَ في مكانِ الشَّرَف على الأريكة. وقد رُتِّبَتْ وجبَةٌ بسيطة، لكنْ شهيَّةٌ، على طاولةٍ صغيرة بينَهُما.

أجاب مَرقُس: ‘‘ليَ الشَّرَف، ساتَيرُس’’، مومئًا برأسه لخادم الرُّبَّان بأنْ يسكُبَ له خمرًا في كأسه. ‘‘إنَّكَ تُعَدُّ أُسطورةً في الملاحة. فقليلون يَنجُون من تحطُّمِ سفينة’’. ثُمَّ اقتَطعَ قِطعةَ خُبز وردَّ الرغيفَ إلى الصِّينيَّة الفِضِّيَّة.

حَني ساتيرُس رأسَه بوَقار: ‘‘أنت تتكلَّم بشأن تحطُّمِ السَّفينة في مالطة. لم أكُن رُبَّانًا حينَذاك، بل مُجرَّدَ بحَّارٍ في تلك السفينة. ولم أكُن أنا وَحدي مَن نجا. فقد كان على متن تلك السَّفينة مئتانِ وستَّةٌ وسبعون شخصًا، ولم يُفقَد أحَدٌ منهم’’.

قَرَعَ أحَدُهم بابَ الرُّبَّان، ففتحَه الخادِم، وتكلَّمَ

باختِصارٍ مع واحِدٍ من البحَّارة. ثُمَّ بلّغَ الرسالةَ المختصَّةَ بالرِّياح إلى ساتيرُس، فأصدرَ التعليماتِ التي يجب أن تُنقلَ إلى مُديري الدَّفَّة. لقد كانت السفينة **مِينيرڤا** تجري إلى الأمامِ حَسَنًا.

أعارَ ساتيرُس مَرقُس انتِباهَه من جديد واعتذرَ عن المقاطعة. وتحدَّثا بشأن الحمولة؛ فقد كان عَنبرُ السفينة ملآنًا بالرُّخام والخَشَب من جُزُرِ اليونان، وهي موادٌّ مُعَدَّة للاستِعمال في تَوسيعِ قيصريَّة. وكانت وَفرةٌ من الصَّناديق الأُخرى محزومةً في الأسفل أيضًا، منها ما اشتراه مَرقُس بالمضارَبة، ومنها ما كان تلبيةً لطَلَبات أرسلَها تُجَّارٌ شتَّى في اليهوديَّة. فقد كان كلُّ مَكانٍ مُتوافِر مُحَمَّلًا بجُلودٍ من بريطانيا، وذَهَبٍ وفِضَّة من إسبانيا، وخَزَفيَّاتٍ من بلادِ الغال، وفراءٍ من بلاد الجرمان، وخُمورٍ فاخِرة من صِقِلّيَة، وعقاقيرَ من اليونان. وكان مُقرَّرًا أن تُفرَغَ مُعظَمُ الحُمولة في قيصريَّة.

قال ساتَيرُس: ‘‘سنمكُثُ في قيصريَّة فقط مُدَّةً كافية لإفراغِ الحمولة، ثُمَّ نُقِلُّ المسافِرين المتَوجِّهين إلى الإسكندريَّة’’.

أومأ مَرقُس برأسه. ففي الإسكندريَّة، ستَرسو **القُربيطة**، وسيُلاقي مُمثِّلوه السَّفينة. وستَنقلُ مِينيرقا إلى السُّوقِ الرُّومانيَّة سِلَعًا مُهِمَّة: تُروسَ سَلاحِف وعاجًا من إثيوپيا؛ زيتًا وتوابِلَ من أفريقيا الشَّرقيَّة؛ لآلئَ وأصباغًا وحمضيَّات من الغَرب. وفي غُضونِ أشهُرٍ قليلة، ستَعودُ **مينيرقا** مُبحِرةً إلى روما، نُقطةِ انطِلاقها في الخطِّ التِّجاريِّ الذي أسَّسه دَسِمُس أندرونيكُس ڤاليريان مُنذُ ما يزيدُ على عشرينَ سنةً.

ضَحِكَ ساتيرُس ضِحكةً كئيبة. ‘‘سيَستغرقُ إلياب مُساد وقتَهُ مُساوِمًا على البضاعة. وعادةً، يحتاجُ الأمرُ إلى بضعة أسابيع لِفَرزِ البضائع في مصر وتصريفِها قبلَ أن نتمكَّن من الإبحار مُجدَّدًا إلى روما’’.

فقالَ مَرقُس: ‘‘سيَطلبُ منك أن تنقلَ عبيدًا. فإيَّاك! ولا رَملًا. مهما كان السِّعر. لقدِ اتَّصلتُ به وأعلمتُه بأنِّي لَن أتعاملَ بِسِلَعٍ من هذا النَّوع في ما بعد’’.

‘‘سنَحتاجُ إلى ثِقلٍ موازن، سيِّدي’’.

‘‘الحِنطةُ المصريَّة ستكون ثِقلًا موازنًا جيِّدًا’’.

أجابَ ساتيرُس: ‘‘كما تشاء، سيِّدي’’. وكان قد سمعَ إشاعاتٍ عن تغيُّر مَرقُس ڤاليريان في التفكير- إشاعاتٍ باتَتْ مُثبَتةً الآن. فتأمَّلَ الشابَّ الأصغر سنًّا على نحوٍ سرّيّ. تُرى، ماذا جرى حتَّى غيَّرَ الشعارَ المشهورَ القائلَ بإعطاء روما ما تُريده؟ لقدِ جمعَ مرقُس ڤاليريان ثروةً من المتاجَرة بالرَّمل والعبيد. وها هو الآن لا يُريدُ أن يكونَ له أيُّ دَورٍ في كِلتا السِّلعَتين. لعلَّ شُعورَه باتَ مُرهَقًا إلى حدٍّ جعلَ عندَه وَساوِسَ أبيه... ولكنْ لماذا الآن، وليس من قبل؟ فماذا تغيَّر؟

قال مَرقُس: ‘‘سأُغادِرُ السفينة في قيصريَّة’’.

ومرَّةً أُخرى، سَتَرَ ساتَيرُس دهشتَهُ بِجَهد. كان قد توقَّعَ أن يبقى مَرقُس على متن السفينة حتَّى الإسكندريَّة، أو رُبَّما حتَّى روما. فإنَّ الڤاليريانيَّ الأكبرَ سنًّا كان أحيانًا يُسافِرُ طَوالَ الخطِّ التِّجاريِّ مع مُمثِّليه، ويحصلُ على معلوماتٍ مُباشرةٍ عن كيفيَّة تصريفهم لعمليَّاته.

‘‘ستَجدُ أنّ قيصريَّةَ هي نُقطةُ انطلاقٍ مُفيدةٌ إلى أفسُس، سيِّدي. فعَلى الرُّغم من افتقارِها إلى عناصرِ الأُبَّهة، فإنَّ فيها ساحاتِ محاربيها ونِساءَها الجميلات’’. وكان مَرقُس مشهورًا باستِمتاعه بكِلا الأمرَين إلى أقصى حدّ.

‘‘أنوي أن أبقى في قيصريَّة مُدَّةً كافيةً حتَّى أُجهِّزَ نفسي للسَّفر’’.

ارتفعَ حاجِبا ساتَيرُس الشائبان قليلًا. ‘‘في اليهوديَّة قليلٌ ممَّا يجعلُها مُستَحسَنةً لدى شخصٍ رومانيّ. فأيَّ شيءٍ تُريد أن ترى؟’’

‘‘مدينةَ القُدس’’.

أبدى ساتَيرُس تعجُّبًا رقيقًا. ‘‘لماذا يا تُرى تختارُ أنتَ- دونَ سائرِ الناس- المكانَ الأكثرَ إحباطًا في جميع أنحاء العالَمِ المعلومة كي تزورَه؟’’ ثُمَّ أدرَكَ، بعدَ فوات الأوان، ما انطوى عليه سؤالُه المتسرِّع من تطفُّلٍ فظّ، فأضافَ على الفَور: ‘‘تُفيدُ جميعُ الأخبارِ التي سمعتُها أنَّ مدينةَ القُدس ليسَتْ سوى كومَةِ رُكام، سيِّدي. ربَّما

كانت قَلعَتا آنطونيا ومَريَـمني ما زالتا قائمتَين لأغراضٍ دِفاعيَّة، غير أنِّي أشكُّ في هذا. لقد قَضَتْ أوامِرُ تيطس بألَّا يُترَكَ حَجَرٌ قائمًا فوقَ حَجَر".

قال مَرقُس ببُرودة: "أنا أعلمُ ذلكَ جيِّدًا، يا ساتَيرُس".

فعبَّس ساتَيرُس، مُدرِكًا بعدَ فواتِ الأوان أنَّ مَرقُس لا بُدَّ أن يعرفَ بنفسه ذلك كلَّه. فبصفته مالكًا للسُّفن والخُطوط التجاريَّة القاليريانيَّة، كان مُضطرًّا لأن يبقى حسنَ الاطِّلاع على الأحوال في جميع أنحاء الإمبراطوريَّة. وقد نمَّ مُستوى نجاحِه عن ذكائه في هذا المجال. غيرَ أنَّ ساتَيرُس لم يستَطعْ أن يكبتَ فضولَه الشخصيَّ حِيالَ ذلك التصريح المفاجئ.

"لماذا أنتَ مَعنيٌّ بمكانٍ خَرِبٍ كهذا؟"

قرَّر مَرقُس أن يُجيبَ بصراحة. "ليس المكانُ هو ما يَعنيني بقَدرِ الإله الذي أقامَ فيه". ومن فوقِ حافَةِ كأسه، راقبَ وجهَ الرَّجُل، مُنتظِرًا أن ينبعثَ

السؤالُ الحتميُّ: لماذا يُعنَى رومانيٌّ بإلهِ اليهود؟ وهو لم يكُن مُتيقِّنًا بما سيُجيب عن ذلك. فإنَّه لم يكُن هو نفسُه عالِمًا بجميع الأسباب حقَّ العِلم.

إلَّا أنَّ ساتَيرُس فاجأه. "رُبَّما هُناك يكمنُ سببُ الكارثة التي حلَّت بالمدينة".

"أيَّ سببٍ تَعني؟"

"أنَّ إلهَهُم لا يمكن أن يستَوعِبَه مَبنًى".

شكَّلتْ كلماتُ ساتَيرُس انعِكاسًا دقيقًا لتلك التي كانت هَدسَّة قد قالَتها ذاتَ مرَّة، بحيثُ ازدادَ اهتِمامُ مَرقُس حِدَّةً. "ماذا تعرفُ عن الإله اليهوديِّ؟"

"فقط ما سمعتُه من سجينٍ منذ مُدَّة طويلة، على السَّفينة التي ذكرتَها سابقًا بعَينها. ولكنْ لا يكادُ الأمرُ يحظى باهتمامك".

"بلى، إنَّه يهمُّني كثيرًا".

فكّرَ ساتَيرُس في هذا لِلَحظة. ‘‘كان الرَّجُل يهوديًّا. وقد أفادَتْ جميعُ الأخبارِ أنَّه زعيمُ عصيانٍ مُسلَّح. فأينَما ذهب، أثار الشَّغب. ولـمَّا قابلتُه، كان في عُهدةِ قائدِ مئةٍ أوغسطُسيّ اسمُه يُوليوس، ومُسافِرًا إلى روما للمُثولِ أمامَ قيصر، من أجلِ جرائمه. وقد سمعتُ في ما بعدُ أنَّه أُعدِمَ بقطعِ رأسِه. أمَّا اسمُه فكان بولُس، وهو من طرسوس. لعلَّكَ سمِعتَ به’’.

وكان مَرقُس قد سمعَ به فعلًا، إنَّما فقط من أشخاصٍ شَتَموه واستهزأوا بدَعاويه عن إلهٍ مُحِبٍّ كُلِّيِّ القُدرة.

‘‘ماذا قال لكُم بولسُ هذا؟’’

‘‘قال إنَّ اللّٰه أرسلَ ابنَه الوحيدَ لكي يعيشَ بين الناس ويموتَ مَصلوبًا من أجل خطايانا حتَّى تُرَدَّ نفوسُنا ونعيشَ في السماوات مع اللّٰهِ الآب. وقال إنَّه بواسطة هذا المسيح- كما دَعاه- يُمكِنُ لجميع البشر أن يخلُصوا وينالوا الحياةَ الأبديَّة. إنَّما لم يُصغِ إليه أحَدٌ حتَّى هبَّت علينا الأوروكليدون’’.

كان مَرقُس يعرِفُ هذه الرِّياحَ الزَّوبعيَّة المهوبة التي أغرقَت سُفُنًا كثيرة.

ومضى ساتَيرُس قائلًا: ‘‘كان بولس قد أخبرَنا مُسَبَّقًا بأنَّنا سنتكبَّدُ خسارةً وضَرَرًا فادِحَين، ليس فقط في السفينة بل أيضًا في الأرواح’’.

‘‘قُلتَ سابقًا إنَّه لم يُقتَل أحَد’’.

‘‘صحيح، ولكنِّي مُقتنعٌ بأنَّ ذلك حصلَ لأنَّ بولس صلَّى لأجلنا. فأنا أعتقدُ أنَّ إلهَه وهبَه ما طلبَه: حياتَنا جميعًا’’. وصبَّ لنفسه شيئًا من الخمر. ‘‘عَلِقْنا في الرِّياح العنيفة، وجُرِفنا. وأفلَحنا في اللُّجوء إلى كَودا وقتًا كافيًا لرفع أشرِعة السفينة وتَقميطِها بالحِبال. لا يعني هذا أنَّ الأمرَ نفعَنا أيَّ نفع. فلمَّا عُدنا إلى الإبحار، ضرَبَتْنا العاصفةُ بِصورةٍ أقوى وأقسى. حتَّى إنَّنا طرحْنا الحمولةَ في البحر. وفي اليوم الثالث، طرحْنا أثاثَ السفينة عن مَتنِها. ولم نستَطعْ رؤيةَ أيِّ نُجوم، فلم يكُن لنا مَسلكُ إبحارٍ قطّ. ولم ندْرِ أينَ كُنَّا. فكُنَّا نُبحِرُ على غير هُدًى. وما كان على مَتنِ السفينة بحَّارٌ أو مُسافِرٌ واحدٌ لم يرتَعبْ خَوفًا

على حياته... ما عدا بولس!’’

ثُمَّ مالَ ساتَيرُس إلى الأمام، واقتطعَ قِطعةَ خُبز. وأضافَ: ‘‘كان في أسوإ وقتٍ من العاصفة أنَّه وقفَ بينَنا، وقال إنَّ السفينةَ وحدَها ستُفقَد. وقد اضطُرَّ إلى الصِّياح حتَّى يُسمَعَ صوتُه فوقَ هديرِ العاصفة، غير أنَّه كان هادئًا كلَّ الهدوء. وقال إنَّ واحدًا من ملائكة إلهِه قد أُرسِلَ لطَمأنَتِه بشأنِ ما كان يقولُه لنا. كذلكَ طلبَ منَّا ألَّا نخاف. وقال إنَّنا لا بُدَّ أن نجنَحَ على بَرِّ جزيرة، ولكنْ لن يُقتلَ أحَدٌ بتاتًا’’.

وهزَّ رأسَه مُبتسِمًا ابتسامةً خفيفة، في ذُهول. ‘‘بدا أنَّ إلهَه أرادَ له أن يعيشَ حتَّى يتكلَّم إلى القَيصر، وفي سِياقِ إنقاذهِ قرَّرَ أن يُنقِذَنا أجمعينَ أيضًا’’.

‘‘لعلَّها كانت صِدْفة’’.

‘‘رُبَّما، ولكنِّي مُقتنعٌ بأنَّها لم تكُن كذلك’’.

‘‘لماذا؟’’

‘‘كان ينبغي أن تكونَ هناكَ كي تفهمَ الأمر، سيِّدي. لم أرَ قطُّ من قَبلُ ولا من بَعدُ عاصفةً كتِلك. فقد كان الهلاكُ والموتُ حتميَّين، إلَّا أنَّ بولس كان هادئًا هدوءًا مُطلقًا. لم يُساوِرْه أيُّ خوفٍ من الموت. وطلبَ منَّا ألَّا نخاف. وأخذَ خُبزًا، فشكرَ اللّه، وأكل. أيُمكِنُك أن تتصوَّرَ أمرًا كهذا؟ لقد أكلَ في خِضَمِّ تلكَ الفَوضى الهائلة’’. وهزَّ ساتَيرُس رأسَه، وهو ما يزالُ مَذهولًا إذ تذكَّرَ ما جرى. ‘‘ما رأيتُ قَطُّ من قبلُ أيَّ شيءٍ كإيمانِه، ورأيتُ مِثلَه مرَّاتٍ قليلةً مُنذُئذٍ’’.

غمسَ ساتَيرُس الخُبزةَ في الخمر.

وتذكَّرَ مَرقُس هَدسَّة إذ مَشَت بهدوءٍ على رِمالِ ساحةِ المحاربين، غيرَ مُتأثِّرةٍ بالرَّعاع الهاتِفين الصارخين، ولا بِزَئير الأُسود.

وتَناوَلَ ساتَيرُس شريحةً من اللَّحم المنقوع المملَّح. ‘‘عندما ترى إيمانًا مثل هذا، ينبغي أن تُصدِّق أنَّ فيه شيئًا ما’’.

‘‘لعلَّها كانت أوهامَه الشخصيَّةَ ليس أكثر’’.

‘‘أوه، كان الأمرُ أكثرَ من ذلك. فإنّ بولسَ كان عارفًا! لقد كشفَ الله له الأحداث. لقد قالَ بولسُ إنَّ السفينة ستتحطَّم. وقد تحطَّمَت فعلًا’’. ثُمَّ أكلَ شريحةَ لحمِ البَقَر المنقوعة.

فقال مَرقُس: ‘‘تابعْ كلامَك!’’ وقد تلاشتْ شهيَّتُه في غمرةِ تَوقهِ إلى سماع المزيد.

ومضى ساتَيرُس قائلًا: ‘‘بدأتِ السفينةُ تتكسَّر، فأوشك العسكرُ أن يقتُلوا السُّجَناء بَدَلَ أن يَدَعُوهم يَنجون. فإنْ فعَلوا هذا، فإنَّهم سيُعدَمون. إنَّما منعَهُم يُوليوس من ذلك. فإذ حصلَ ذلك، قفزَ عن مَتنِ السفينة جميعُ القادِرينَ على السِّباحة، وعُمنا نحن الباقين على ألواحٍ من خشبٍ أو أيِّ شيءٍ آخر كان مُتوافرًا على السفينة. وكانت الجزيرةُ هي مالطة. فلم يهلِكْ شخصٌ واحد. ولا واحد، سيِّدي. إنَّ ذلك مُذهِلٌ حقًّا’’.

قال مرقس: ‘‘رُبَّما. ولكنْ لماذا يُنسَبُ الفضلُ في إنقاذ الجميع إلى هذا المسيح اليهوديّ؟ لماذا لا يُقدَّمُ الشكرُ إلى نپتون أو أيِّ واحِدٍ آخَرَ مُعظَّمٍ من

أعضاءِ البانتيون، مَجمَعِ الآلِهة؟’’

‘‘لأنَّنا جميعًا كُنَّا نصرخُ إلى آلهتِنا مُستَغيثين. براهما! فِشنوا! فارونا! فلم يستجِب أيٌّ مِنهُم. ثُمَّ إنَّ أُمورًا أكثرَ إذهالًا بعدُ حدثت في مالطة أثبتَتْ لي ولكلِّ واحِدٍ آخر أنَّ بولس كان خادمًا لإلهٍ قادرٍ على كلِّ شيء’’.

ولاحظَ اهتِمامَ مَرقُس الشَّديد، فحاولَ أن يشرَح.

‘‘استقبَلَنا أهلُ الجزيرة بِلُطفٍ بالغ. قد أوقَدوا لنا نارًا، ولكنْ ما إنْ تجمَّعْنا حولها حتَّى خرجَت أفعى وأنشبَت أنيابَها في يَدِ بولس. فنفضَ الأفعى عن يدِه إلى النار. وكان الجميعُ يعلَمون أنَّها سامَّة، وأنَّ بولس لا بُدَّ أن يموتَ عاجلًا من لدغتِها. فاقتنعَ الناسُ بأنَّه كان قاتلًا وبأنَّ الأفعى أرسلَتها الآلِهةُ عِقابًا له’’.

‘‘من البديهيِّ أنَّه لم يمُت. فقد كنتُ في روما لـمَّا جيءَ به إلى هناكَ تحتَ الحراسة’’.

‘‘لا، لم يمُت. بل إنَّه لم يمرض أيضًا. إنَّ يدَه لم

تتورَّم، ولا حَدَثَ لها أيٌّ مكروه. وقد انتظرَ أهلُ الجزيرة طوالَ اللَّيل. حتَّى إذا طلعَ الصَّباح، اقتَنعوا بأنَّه إلهٌ وسَجَدوا له باعتِبارهِ كذلك. إلَّا أنَّ بولس قال لهم إنَّه ليس إلهًا، بل مُجرَّدُ خادمٍ لشخصٍ سمَّاه يسوعَ المسيح. وبشَّرَهُم بما سبقَ أنْ قالَه لنا".

ثمَّ تناوَلَ ساتَيرُس بِضعَ تِيناتٍ جافَّة عن الصِّينيَّة. "كان مُضيفُنا، پوبليوس، حاكِمَ الجزيرة. وقد أضافَنا مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّام، ثُمَّ مَرِضَ أبوه مَرَضًا شديدًا. فشفى بولسُ الرجُلَ بمُجرَّدِ وَضْع يدَيه عليه. فقبلَ دقيقة كان أبو پوبليوس مُشرِفًا على الموت، وفي الدقيقة التالية قامَ صحيحًا مُعافًى. وما لَبِثَ أنِ انتشرَ الخبرُ في الجزيرة، فأقبلَ المرضى من جميعِ أنحائها".

"وهل شفاهُم؟"

"جميعَ الذين رأيتُهم. وقد أكرمَنا القَومُ كُلَّنا بفَضلِ وُجودِ بولس. وأجرَوا لنا ترتيباتٍ لإكمالِ سَفرَتِنا، حتَّى إنَّهم جهَّزونا بكُلِّ ما كُنَّا مُحتاجين إليه. وقد أبحرَ بولُس على متنِ سفينة اسكندرانيَّة على

مُقدَّمِها تِمثالٌ للتَّوأمَين قَسطور وپولكس. أمَّا أنا فأبحَرتُ بسفينةٍ أُخرى. ولم أرَ بولُسَ ثانيةً قطّ".

إنَّ السؤالَ الذي عذَّبَ مَرقُس أشهُرًا اضطرمَ الآنَ في ذِهنهِ مثل حُمَّى. فتَناوَلَ كأسَه وعبَّس. "إذا كان هذا الإلهُ قادرًا على كلِّ شيء، فلِماذا لم يُنقِذ بولُسَ من الإعدام؟"

فهزَّ ساتَيرُس رأسَه. "لستُ أدري. لقد تساءلتُ عن ذلك أنا نفسي لـمَّا سَمِعتُ بمَصيره. إنَّما أعلَمُ هذا: مهما كان الأمرُ خفيًّا، فقد كان ثمَّةَ قَصدٌ ما".

حدَّقَ مَرقُس باكتئابٍ في خَمرته. "يبدو لي أنَّ هذا المسيحَ يُدمِّرُ كلَّ مَن يؤمن به". ثُمَّ اجترعَ كأسَه وحطَّها. "أودُّ أن أعرفَ السَّبب".

"لا جوابَ لديَّ عن ذلك، سيِّدي. ولكنْ سأقولُ لك هذا. بعدما قابلتُ بولس، بِتُّ أعلَمُ أنَّ العالم ليس فقط ما نراه أو ما يبدو لنا. فالآلهةُ الذين نعبدُها، نحنُ الرُّومانَ، لا تُمكِنُ مُقارنتُها بالإله الذي عبدَه بولس".

فقال مَرقُس ساخِرًا: ‘‘روما هي التي تحكمُ العالم، يا ساتَيرُس، لا يسوعُ هذا الذي تحدَّثَ بشأنه بولس. ما عليكَ إلَّا أن تنظُرَ إلى ما حدثَ في بلاد اليهوديَّة لتعرِفَ ذلك’’.

‘‘إنّي توَّاقٌ إلى المعرفة. لقد قال بولس إنَّ يسوعَ قَهَرَ الموتَ وفتحَ الطريقَ لكُلِّ من يؤمِن به’’.

أجابَ مَرقُس بصَوتٍ قاسٍ: ‘‘لم أرَ مسيحيًّا واحدًا قهرَ الموت. إنَّهم جميعًا يُواجِهون الموتَ مُسَبِّحين يسوعَ المسيح. وهم جميعًا يموتون كأيِّ رجُلٍ أوِ امرأةٍ سِواهُم’’.

وتأمَّلَ ساتيرُس مَرقُس مُرَكِّزًا نظرَه، شاعِرًا أنَّ عذابًا عميقًا ما كان يدفعُه عبرَ البِحار إلى بَلَدٍ عاصٍ. ‘‘إذا كان هذا الإلهُ هو الذي تَنشدُه، فعليكَ أن تطأ بكُلِّ حَذَر’’.

‘‘لماذا؟’’

‘‘يمكنُ أن يُدمِّرك’’.

فالتَوى فمُ مَرقُس بمرارة. وقالَ مُوجِزًا وبغموض: "لقد دمَّرني فِعلًا". ثُمَّ قامَ، وشكرَ ساتَيرُس على حُسنِ ضِيافتِه، ومضى.

مرَّتِ الأيَّام ببطء، مع أنَّ الرِّياحَ كانَت حَسَنةَ الهُبوبِ دائمًا، وأحوالَ البحر مؤاتية.

تمشَّى مَرقُس على ظهر السَّفينة ساعةً، مُصارِعًا عُمقَ مَشاعِره. أخيرًا، رجعَ إلى مكان إقامته، وهوَ حُجرةٌ خاصَّةٌ صغيرةٌ بسيطةُ الأثاث. واستَلقى على الأريكة الضيِّقة على الحائط، مُحدِّقًا إلى السَّقف الخشبيِّ المصقول.

ثُمَّ نامَ نَومًا مُتقطِّعًا. لقد وافَته هَدسَّة في أحلامه كلَّ ليلة. كانت تستَغيثُ به، وهو يُكافحُ الأيدي التي تُمسِكه وتَمنعُه. وكانَ يرى أيضًا جوليا وپريمُس. وكانت كالاباه تُحدِّقُ على نحوٍ خَبيثٍ فيما الأُسودُ تزأر. ورأى واحِدًا يجري نحوَ هَدسَّة مقاوِمًا قيودَه باستِماتة... ثُمَّ قفزَ الأسدُ وصرعَها.

ليلةً بعدَ ليلة، كان يستيقظُ فجأةً وهو يرتجف،

وجسمُه يتصبَّبُ عَرَقًا، فيما قلبُه يخفقُ بشِدَّة. فجلسَ وأمسكَ رأسَه. وإذ غرزَ أصابِعَه في فروةِ رأسه، شَتَمَ وجاهَدَ ضدَّ الكَربِ الذي اجتاحَه.

وأغمضَ عينَيه، فتذكَّرَ هَدسَّة راكِعةً تحتَ ضَوء القمر ويداها مَرفوعتان إلى إلهِها. وتذكَّرَ احتِضانَه وجهَها بِراحَتَي يدَيه ونظرَه في عَينَيها البُنِّيَّتَين الجميلتَين، تَينِكَ العينَين المفعمتَين حُبًّا وسَكينة. فتاقَ إليها بكُلِّ جُزءٍ من كِيانه، وكان تَوقُه شديدًا جدًّا حتَّى تأوَّه.

وقال بصَوتٍ أجَشَّ- وعيناه تحرِقُهما الدُّموع- ‘‘أيُّ نوعٍ من الآلِهَةِ أنتَ حتَّى تقتُلَها؟ لماذا سمحتَ بأن يحدُثَ ذلك؟’’ ثمَّ اضطرمَ الغضبُ في داخِله، فكوَّرَ يدَيه قبضتَينِ، وهمسَ من خلالِ أسنانٍ تصرُّ: ‘‘أُريدُ أن أعرِفَ مَن أنت. أُريدُ أن أعرِف...’’

استقيظَ أبكرَ من الجميع، وارتَدى ثيابَه ليصعدَ إلى ظهر السَّفينة. فقد كان يحتاجُ إلى هَواءِ البحرِ البارد القارص. ولكنْ حتَّى بينما هو واقِفٌ فوقَ مُقدَّم السَّفينة، أحسَّ حُضورَ هَدسَّة بجانبه. إنَّها قدِ انتابَته، ولكنَّه كان شاكرًا.

فذِكرَياتُه عنها كانت كلَّ ما بقيَ لَدَيه.

نهضَ المسافِرون وأخَذوا يتنقَّلون عندَ شُروقِ الشَّمس. فعَبَرَ إلى الجهةِ التي تهبُّ الرِّيحُ نحوَها ليَبقى وحدَه. وكانَ مُعظمُ الركَّاب عَرَبًا وسورِيِّين أنجَزوا أعمالَهم في أفسُس وكانوا في طريق العَودة إلى دِيارِهم. كان لديه إمامٌ أوَّليٌّ فقط بلُغَتِهم، ولم يُرِدْ أن يؤانِسَه أحَد. ومع أنَّ القُربيطة كانت تتَّسعُ لِما يُناهِزُ ثلاثَ مئةِ راكب، لم يكُن على متن هذه السفينة إلَّا مئةٌ وسبعةٌ وخمسون فقط؛ لأنَّ مَرقُس كان قد أمرَ بأن يُستخدَمِ أكبرُ جُزءٍ من المساحة للشَّحن. فكانَ شاكرًا لعَدم وُجود مَزيدٍ من الناس على متن السفينة.

كانت الرِّيحُ مواتيةً، فجرَتِ السفينةُ في خطٍّ ثابت. وإذِ استَولى القَلَقُ على مَرقُس، كان يمشي على ظهرِ السفينة كلَّ يوم حتَّى تخورَ قواه. وكان يتعشَّى مع الرُّبَّان، ثُمَّ يأوي إلى مكان إقامته.

قبلَ الوُصول إلى قيصريَّة ببضعةِ أيَّام، باتَ مَرقُس أكثرَ هدوءًا. وها هو يُريحُ ساعِدَيه على كومةٍ من

الصناديق، ويُحدِّقُ إلى البحر الأزرق الأخضر الممتدِّ أمامَه وهو يتلألأُ من انعِكاس نور الشَّمس عليه. لقد تأكَّد له أنَّه قَريبًا سيُباشِرُ رِحلةَ بحثه في أنحاء بِلادِ اليهوديَّة.

نادى البحَّارةُ بعضُهم بعضًا وهم يجذبون حِبالَ الأشرِعة. وانتشرَتِ الأشرِعة المربَّعة مَشدودةً فَوقه. وأخذَتِ السفينة تتمايَل بهدوءٍ على المياه.

لقد أحرزَتِ السفينةُ **مينيرفا** تقدُّمًا حَسَنًا حتَّى الآن، ولكنَّ مَرقُس بقيَ نافِدَ الصَّبر، توَّاقًا إلى بلوغِ نهاية رحلتِه.

ثُمَّ وَثَبَ دُلفينٌ في الماء تحته.

لم يَكَد يُلاحِظُه أوَّلَ الأمر، ثُمَّ ظهرَ ثانيةً. وقد غاصَ ثُمَّ صَعِدَ، مُجاريًا السفينةَ في سُرعتها بِيُسر. وصَعِدَ مرَّةً بخطٍّ مُستقيم، مُحدِثًا صَوتَ ثرثرةٍ غريبًا قبل أن يغوصَ في البحر من جديد مُطرطِشًا الماء. ولاحظَه أحَدُ البحَّارة الذين يُشغِّلون الأشرعة، فهتفَ قائلًا إنَّ الآلهةَ معهم. فأسرعَ المسافرون إلى الجانب المواجِه للرِّيح

وازدَحَموا حول البحَّار لكي يُشاهدوا الدُّلفين. واندفعَ أعرابيٌّ يرتَدي بُرنُسًا أحمرَ بحِزامٍ أسود، شاقًّا طريقَه بينَهم ليَتمكَّن من المشاهَدة على نحوٍ أفضل.

صَعِدَ الدُّلفينُ مِرارًا وتَكرارًا، تحتَ مَرقُس تمامًا. وإذ تحرَّك بِرَشاقةٍ بشكلٍ قوسيّ، قفزَ تَكرارًا، ثمَّ انزلقَ بلباقةٍ تحتَ سطح الماء. وانضمَّ إلى الحيوانِ اللَّعُوب ثلاثةٌ سِواه، وقفزَ الجميعُ في انسِجام، فسُرَّ المسافِرون بتلك الحيوانات وأخَذوا يهتِفون لها بالتحيَّات ببِضعِ لُغات.

وقالَ أحَدُ المسافِرين مُتحمِّسًا: "هذا بَشيرُ خَير!"

فهتفَ آخَرُ بِتَبجيل: "أهلًا بخادمِ نِپتون! نشكُرُك على مُباركَتِك سفينتَنا!"

"قُربانًا! قُربانًا! أعطُوا الدَّلافينَ قُربانًا!"

فطرحَ بضعةُ مُسافرين قِطَعًا نقديَّةً في البحر. وأصابَتْ إحداها الدُّلفين الأوَّل، فجفَّلَته. فانكفأ

وابتعَد من الأنظار، ولحِقَت به الدَّلافينُ الباقية. وتلاشى الابتهاجُ إذ رحلَتْ تلك المخلوقات، فتحرَّكَ الركَّابُ دائريًّا كلٌّ على هَواه، وابتَعدوا عن مَرقُس واجِدينَ أمكنةً وطُرُقًا لتَمْضِيَة الوقت. فانعقدَتْ بضعُ مجموعاتٍ للمُقامَرة بواسِطَةِ مُكعَّباتِ النَّرد الصغيرة، فيما استَلْقى الآخرون مُتَراخِين تحتَ الشمس.

سلَّم ساتَيرُس مِقبَضَ الدَّفَّة لوَكيله الأوَّل، ونزلَ كي يقِفَ بجانب مَرقُس. ‘‘فألٌ حَسَنٌ لرِحلتك، سيِّدي’’.

فقال مَرقُس بجَفاف: ‘‘أيُرسِلُ مسيحٌ يهوديٌّ خَبَرًا بواسطة رمزٍ وثنيّ؟’’ وذِراعاه ما زالتا مُستقرَّتَين على الحافة، وهو يُحدِّق إلى وَمضاتِ نور الشمس على المياه الزرقاء الخضراء.

‘‘حسبَ اعتِقادِ بولُس، جميعُ الأشياء خلقَها هذا الإله الذي تبحثُ أنتَ عنه. أفليس مَنطِقيًّا أنَّه يستطيعُ أن يُرسِلَ إليكَ خبرًا بأيَّة وسيلةٍ يختارُها؟’’

“وهكذا، فإنّ إلهًا قادِرًا على كُلِّ شيءٍ مُرسِلٌ سَمَكةً!”

فحدَّق ساتَيرُس إليهِ بثباتٍ. “الدُّلفينُ رمزٌ نُسلِّمُ به كلُّنا، سيِّدي، حتَّى أُولئكَ الذين ليس لهم إيمانٌ بأيِّ دِين. فرُبَّما أرسلَ اللّٰه الدُّلفينَ كي يمنحَك رجاءً”.

“لستُ أحتاجُ إلى رجاء، بل إلى أجْوِبة”. وتصلَّبَ وجهُه. ثُمَّ مدَّ يدَه فوقَ المياه، وقالَ مُتَحدِّيًا وغاضبًا: “اسمَعْني، يا رسولَ القدير! أنا لا أقبَلُ أيَّ مبعوث!”

وشعرَ ساتَيرُس بالخوف الذي ينبغي أن يكونَ لدى مَرقُس. “أتتحدَّى اللّٰه دونَ تفكيرٍ في النتائج؟”

فتشبَّثَ مَرقُس بحافَةِ سَطحِ السفينة. “أنا أُريدُ النتائج. فعلى الأقلّ، حينئذٍ سأعرِفُ هل هذا الإلهُ مَوجودٌ حقًّا، وأنَّه ليس وهمًا ابتكرَه شخصٌ ما كي يُكرِهَ البشريَّةَ الساذَجة على الإيمانِ به”.

وتراجَعَ ساتَيرُس عن مَرقَس. ‘‘إنَّه مَوجود’’.

‘‘لماذا تعتقدُ ذلك؟ لأنَّك نَجَوتَ من عاصفةِ وتَحطُّمِ سفينة؟ لأنَّ أفعى لدغَتْ رجُلًا وهو لم يمُت من جرَّاء ذلك؟ إنَّ بولُس هذا الذي تتحدَّث بشأنه قد مات، يا ساتَيرُس، جاثيًا على رُكبتَيه ورأسُه على خَشَبة! قُل لي، أيُّ خَيرٍ في إلهٍ لا يحمي أتْباعَه؟’’

‘‘لستُ أملكُ الأجوِبةَ التي تَنشدُها’’.

‘‘لا أحَدَ يملكُها. لا إنسانَ، على الأقلِّ. إنَّما الله وحدَه، إذا كانَ يتكلَّم’’. ثُمَّ رفعَ رأسَه ونادى بصوتٍ عالٍ: ‘‘أُريدُ أن أعرِف!’’

‘‘أنت تسخَرُ به. ماذا لو كان يسمع؟’’

قال: ‘‘فليَسمع!’’ ثُمَّ عادَ فقال: ‘‘**هل تسمع**؟’’ وقد نادى بهاتَين الكلمتَين فوق البحر كأنَّهُما تَحَدٍّ، غيرَ عالِمٍ وغيرَ مُبالٍ بنظراتِ التَّطفُّل التي اجتَذَبَها. ‘‘أنا أُريدُ منه أن يسمعَ، يا ساتَيرُس. أنا أتحدَّاه أن يسمع!’’

آنذاك تمنَّى ساتَيرُس لو أنَّه أبقى على المسافة الفاصلة بينَه وبين مَرقُس ڤاليريان. ‘‘إنَّك تُخاطِرُ بحياتك’’.

فأطلقَ مَرقُس ضِحكةً هشَّة. ‘‘حياتي، كما هي الآن، لا تعني لي شيئًا. فإذا شاءَ الله أن يأخُذَها، فليأخُذْها. إنَّها خاوية وعديمةُ المعنى على كلِّ حال’’. ثُمَّ اتَّكأ على الحافَة من جديد، جامِدَ الجِسم، مُتصلِّبَ الحَنَك. ‘‘ولكنْ ليُواجِهْني عندما يفعَلُ ذلك!’’

٨

دخلَ ألِكسندر فِناءَ الأسكليبيون. ومرَّ به على عَجَلٍ رجُلان يحملان مِحفَّةً فارغةً حتَّى وَصَلا إلى البوَّابة وتوارَيا خلفَ الجدران. فتجهَّم، وانحنَى إلى الأمام، مُتأمِّلًا المشهدَ المرَوِّعَ أمامه.

كان أبوه قد جاء به إلى الأسكليبيون في أثينا لـمَّا كان صبيًّا صغيرًا، راجِيًا أن تؤدِّيَ قرابينُهما وصَلاةٌ وصيامٌ طَوال النَّهار إلى إنقاذِ شقيقِ ألِكسَندر الأصغر وشقيقته الكُبرى من الحُمَّى. ولـمَّا جاءَ هو وأبوه كان الظلام ما يَزالُ مُخيِّمًا، كحالِهِ الآن، حيثُ المشاعِلُ الخافقة فقط تُلقي ظِلالًا غريبةً على الرُّخام المتَلألئ في الفناء الفَخم. والمشهدُ الذي واجهَهُما آنذاك لدى دُخولهما الأبواب شَنَّجَ مَعِدَتَه بألَمٍ مُبَرِّح لا يُوصَف...

والآن، إذ تأمَّلَ المنظرَ المأساويَّ أمامَه، غمرَه مرَّةً أُخرى ذلك الألَمُ المبرِّحُ عينُه، يُرافِقُه شعورٌ

كاسِحٌ بالعَجزِ والبؤس.

كان أكثرُ من عشرين رجُلًا وامرأة مُنطرِحين على دَرَجِ الهيكل: مَرضى، مُتألِّمين، مائتين. بَشَريَّةٌ مُعذَّبة مَنبوذة. وأغلبُهم قد تخلَّى عنهم في جَوفِ اللَّيل مالِكونَ غيرُ مُبالون، تاركينَ إيَّاهم بِلا بطَّانيَّة على الأقلِّ تُغطِّيهم. فقاوَمَ ألِكسَندر مشاعِرَه إذ سَرَّحَ عينَيه لاستِطْلاعِ حالِ الأشخاص المبعثَرين حَواليه، ثُمَّ التفتَ إلى هَدسَّة.

جمَّدَته سِيماءُ ذُهولِها، وغاصَ قلبُه. كان يخشى رِدَّةَ فعلها حيالَ ما ستَراه، وقد حاول البارِحةَ أن يُهيِّئَها.

لقد قال لها: ''كان أبي عبدًا''، مُراقِبًا وجهَها في الضَّوء الخافق المنبَعِث من سِراج الزَّيت الصَّغير على الطاولة بينهُما. وأمكنَه أن يرى المفاجأةَ في عينَيها حِيالَ ما قاله، لأنَّه نادرًا ما كان يتكلَّم بشؤون نفسه وماضيه. وهو إنَّما فعلَ ذلك الآن لكي يُساعِدَها على فهمِ ما نَوى أن يفعَلَه.

‘‘كان سعيدَ الحظِّ كِفايةً إذِ اقتَناه سيِّدٌ لطيف. ولأنَّ أبي كان فَطينًا في الأعمال، وضعَ سيِّدُه شؤونَه الماليَّة في عُهدَته. وقد أعطاه حصَّةً من المال لكي يستَثمِرَها هو شخصيًّا، فاستَطاعَ أن يكسِبَ ما يَكفي لشراءِ حُرِّيَّته. ووضعَ جدِّي، أبو أمِّي وهو كايُس أنكُس هيروفيلُس (سيِّدُه سابقًا)، وسيلةً لدوامِ الاستِفادة من خدمات أبي، فعرضَ عليه أن يُزوِّجَه بابنته، دُروسِلا. وكان أبي يُحِبُّ أُمِّي منذ مُدَّةٍ طويلة، فقبلَ بسُرور. ثُمَّ لـمَّا ماتَ جدِّي، وَرِثَ أبي أملاكَه من خلال أُمِّي. وقد وُلِدَ لهما سبعةُ أولاد...’’.

ولـمَّا توقَّف، تفحَّصَت عَينا هَدسَّة وجهَه. وقد عَلمَ أنَّ هَدسَّة أدركَتْ أنَّه لم يُنهِ كلامَه بعد. لذا فقد ظلَّتْ صامتةً تمامًا، مُنتظرةً الباقي.

لقد نظرَ ألِكسَندر إليها، وعَيناه تعكسان ألَمًا قديمَ العهد. ‘‘كان لأبي وأُمِّي أملاكٌ ومالٌ واعتِبار، جميعُ الميزاتِ التي يمكنُ أن يتَمنَّاها المرء. ولكنْ، رُغمَ ذلك كُلِّه، أنا هو الوَلَد الوحيدُ الذي بقيَ على قَيدِ الحياة. فإنَّ إخوَتي وأخواتي، واحِدًا بعدَ واحد، ماتوا وهم بَعدُ صِغار. ولم

يستطعْ أن يُغيِّرَ ذلكَ كلَّ الغِني، وكلَّ الصلواتِ والقرابينِ في الهياكل، وكلُّ الدُّموع على وجه أمِّي".

"ألِهذا السَّبب قرَّرتَ أن تصيرَ طبيبًا؟"

"جُزئِيًّا. لقد رأيتُ إخوتي وأخَواتي يموتون بمُختلف أمراض الطُّفولة وعِلَلِها، ورأيتُ الكلفةَ الشاقَّة على والِدَيَّ. ولكنْ كان الأمرُ أكثرَ من ذلك، إذِ اشتَمَلَ أيضًا على ما شعرتُ به كُلَّما اصطحبَني إلى الأسكليپيون لطلبِ رضى الإله. وقد كنتُ عاجزًا في مواجَهةِ البؤس الذي رأيتُه هناك. فلم يكُنْ من دليلٍ على القُدرة، بل مُجرَّدُ مُعاناةٍ للألم. وأردْتُ أن أفعلَ شيئًا بشأنِ ذلك. وتعلَّمتُ منذئذٍ أنْ ليس في وُسعنا أن نغيِّر الكثيرَ الكثيرَ في هذا العالَم. إنِّي أفعَلُ ما أستَطيعُه، وأحاولُ أن أكونَ راضيًا بذلك". وكان عندئذٍ قد مدَّ يدَه ليُمسِكَ يدَها. "أصغي إليَّ، هَدسَّة! ستَرَينَ صباحَ غَدٍ أمورًا تُزَلزِلُ كِيانَكِ. ولكنْ ليس في وُسعِنا أن نعودَ إلَّا بمريضٍ واحدٍ فقط".

فأومأت برأسها فاهِمةً. "نعم، سيِّدي".

‘‘أحذِّرُكِ من تعليلِ النَّفس بالآمال؛ لأنّ فرصةَ أيِّ شخصٍ نختارُه في النجاة ضئيلة. إنَّ العبيدَ الذين تَرَينَهُم في الأسكليپيون عديمو النَّفع لسادَتِهِم، وقد تُرِكوا ليَموتوا. والمرَّاتُ التي فيها نجحْتُ بمُداواتِهِم أقلُّ عددًا من تلك التي أخفقتُ فيها’’.

‘‘كم مرَّةً قُمتَ بهذا؟’’

‘‘فوقَ عَشرِ مرَّات، وربَّما أكثر. وفي المرَّة الأُولى، حاولتُ أن أُعالجَ عبدًا تُرِكَ في هيكلٍ برُوما. آنذاك كان لديَّ مالٌ أكثر، ومُقامٌ خاصّ. ولكنَّ الرجُلَ ماتَ في غضونِ أسبوعٍ واحد. إلَّا أنَّه على الأقلِّ ماتَ مُستَريحًا. غيرَ أنِّي بعدَ ذلك فقدتُ أربعةً آخرِين، وكِدتُ أستَسلم’’.

فشعَّت عيناها حَنانًا. ‘‘لماذا لم تستسلِمْ؟’’

‘‘لأنَّ جُزءًا من تدريبي تضمَّنَ عِبادةً مُناسِبة لآلهة الشِّفاء. فلم يكُن في وُسعي أن أُجاوِزَ أُولئكَ الأشخاص، مُتَظاهِرًا بأنَّهم لم يكونوا هناك’’. وقد تنهَّد، هازًّا رأسه. ‘‘لا يَسَعُني أن أقولَ إنَّ أسبابي كانت لاأنانيَّةً كلِّيًّا. فعندما يفقدُ

طالِبُ الطِّبِّ مريضًا متروكًا على دَرَجِ الأسكليپيون، لا يهتمُّ أحَد. أمَّا إذا فقدَ حُرًّا ذا مَقام فيُمكِنُ أن يُقبِّلَ مُستقبلَه قُبلةَ الوَداع". وارتَسمَتْ تكشيرةٌ على وجهه. "إنَّ دوافعي جيِّدةٌ وسيِّئةٌ معًا، يا هَدسَّة. فأنا أُريدُ أن أُساعِد، ولكنِّي أيضًا أُريدُ أن أتعلَّم".

"هل عاش أيٌّ من أُولئك المرضى؟"

"ثلاثة. واحِدٌ في روما، يونانيٌّ قُحّ، عنيدٌ عِنادَ أبي. واثنان في الاسكندريَّة".

فقالت بيَقينٍ هادئ: "إذًا، ما فعلتَه كان يستحقُّ عناءَه".

ولكنِ الآن، إذ شاهدَ ألِكسَندر سِيماءَ وَجهِها، تساءلَ هل كان على حقّ في استمراره بتأديةِ ذلك... وهل كان ينبغي له أصلًا أن يصطحبَ هَدسَّة إلى هنا. فرُغمَ كلِّ ما قالَه البارِحة، أمكنَه أن يرى أنَّ هَدسَّة غمرَها الرُّعبُ لدى رؤيةِ عبيدٍ منبوذين كثيرين جدًّا متروكين على دَرَجِ الهيكل.

وإذ توقّفَت بجانبه، همسَتَ قائلةً: ‘‘**آه**!’’ فاخترقَت هذه الكلمةُ الواحدة قلبَه بما فيها من غِنَى تَحَنُّنٍ وأسى.

فأشاحَ ألِكسَندر بناظِرَيه، وقد تصلَّبَت حَنجَرتُه حالًا من فَرطِ العاطفة. وبعد لحظة، تكلَّمَ بصَوتٍ أجَشّ. ‘‘هيَّا. ليس لدينا وقتٌ كثير’’.

جاوزَ رجُلًا نحيلًا أشيبَ الشَّعر، وانحنى بجانبِ آخَرَ أصغرَ سنًّا. فتَبِعَته هَدسَّة نحوَ دَرَجاتِ الأسكليپيون الرُّخاميَّة، ولكنَّها تمهَّلت بقُربِ الرَّجُلِ الذي كان قد تخطَّاه. فركعَتْ على رُكبةٍ واحِدة، ومسَّت جبينَ الشَّيخ المحمومَ. إلَّا أنَّه لم يفتَحْ عينَيه.

وناداها ألِكسَندر، قائلًا: ‘‘اترُكيه’’، وهو يعبرُ الفِناءَ بخُطًى واسعة إلى دَرَجِ الأسكليپيون.

فرفعَت هَدسَّة نظرَها، وشاهدَته يتخطَّى بسُرعةٍ عبدَين منبوذَين آخرَين. لم يكُن سيِّداهما قد تمهَّلا قليلًا ليَضعاهُما على دَرَجاتِ الهيكل العُليا، حيثُ يتوافر شيءٌ من الحِماية. أمَّا

هذا الشَّيخُ المسكينُ فكانَ قد رُمِيَ على بُعدِ أقدامٍ قليلة فقط من مدخل الرِّواقِ الفخمِ (**پروپيلُن**). وعلىِ مقرُبةٍ منه انطرحَ آخرون فاقِدي الوعي فتكت بهم أمراضٌ مجهولة.

كان ألِكسَندر قد قال لها البارِحةَ بضعَ مرَّات: ‘‘سنَجِدُ واحِدًا يمكن أن يُشفَى، ونبذلُ ما في وُسعِنا’’، مُضيفًا- على سبيل التحذير- ‘‘ستَرَين كثيرين بهم أمراضٌ مُميتة، أو كبارَ السِّنِّ وخائري القوى فحَسْب. فعليك أن تُقَسِّي قلبَكِ حتَّى تُجاوِزيهم، يا هَدسَّة. لا يُمكِنُنا أن نعودَ إلَّا بمريضٍ واحِدٍ فقط، بِشَخصٍ لَدَيه فُرصَةٌ نجاة’’.

ونظَرَتْ إلى الدَّرجاتِ الرُّخاميَّة المتَلألئة في ذلك المعبد الوثنيِّ، فعدَّتْ أكثرَ من عشرين رجُلًا وامرأة مُنطرِحين عليها. بشريَّةٌ منبوذةٌ مُعذَّبة. ثُمَّ نظَرَتْ من فوقُ إلى الشَّيخ مُجَدَّدًا. لقد تُخُلِّيَ عنه هنا في جُنحِ الليل بلا بطَّانيَّة على الأقلِّ تُغطِّيه.

وناداها ألِكسَندر بِصَرامة: ‘‘اترُكيه!’’

‘‘لعلّنا...’’

‘‘انظُري لونَ بَشَرتِه، يا هَدسَّة. لن يعيشَ هذا النهارَ بعد. ثُمَّ إنَّه كبيرُ السِّنّ. فواحِدٌ أصغرُ سنًّا لديه فُرصةٌ أكبر للنَّجاة’’.

رأت هَدسَّة عيني العبد الشيخ تَترجرَجان، وأحسَّتْ أسًى يتعذَّرُ تعليلُه. فقالَتْ له: ‘‘هنالك شخصٌ يُحِبُّك. اسمُه يسوع’’. كان الشيخُ أشدَّ مَرَضًا وضعفًا من أن يتكلَّم، ولكنْ لـمَّا نظر إلى هَدسَّة بعَينَين كسَتْهُما الحُمَّى بلَّغَته بِشارةَ المسيح. لم تدْرِ هل فَهِمَ أو تلقَّى عزاءً، إلَّا أنَّها أمسكَتْ يدَه النَّحيلة بين يَدَيها، قائلةً: ‘‘آمِنْ، تخلَّصْ. تشجَّعْ وتَعَزَّ!’’

أجالَ ألِكسندر نظرَه حوالَيه باكتئابٍ على مجموعة العبيد المنبوذين أمامه. كان مُعظَمُهم على عَتَبةِ الموت بحيث لم يكُن من مُسَوِّغٍ للاهتمام بهم. وإذِ التَفتَ إلى ورائه، رأى هَدسَّةَ ما تزال مُنحَنِيةً فوقَ الشَّيخ المحتَضَر. فصاحَ بها- آمِرًا هذه المرَّة- ‘‘هَدسَّة! ابتعِدي عنهُ وتعالَي!’’ ثُمَّ أومأ لها بأن تتبعَه، مُضيفًا: ‘‘لِنَستطلِعْ حالَ

الآخرين".

ضغطَتْ هَدسَّة بيَدِ الشَّيخِ المتَرهِّلة على خدِّها المحجَّب، وصلَّت: "أيُّها الآبُ السماويُّ، ارحَم هذا الرجُل". ثُمَّ نزعَتْ شالَها وطرحَتْه عليه، وامتلأتْ عَينَاها بالدُّموع إذِ ابتسمَ لها ابتِسامةً واهِيَة. "رجاءً، يا يَسوع، أصعِدْه لِيكونَ معكَ في الفِردَوس". ثُمَّ نهضَت مُتَوجِّعةً، عاجزةً عن فَعلِ أيِّ شيءٍ آخَرَ له.

توكَّأتْ بمَشقَّةٍ على عُكَّازها، وعبرَتِ الفِناءَ، ثُمَّ صعِدَتِ الدرَّجَ وراءَ ألكسَندر. وهمَّت بأن تَنحَنيَ فوقَ رجُلٍ آخر، إلَّا أنَّ الطبيبَ الشابَّ ناداها طالِبًا ألَّا تُبدِّدَ وقتَها على ذلكِ الرجُلِ أيضًا. "إنَّه ميِّت. انظُري أُولئك الآخرين هناك".

وبينما هي تصعدُ الدَّرَجَ بكُلِّ جَهْد، نظرَت إلى كُلِّ رجُلٍ وامرأةٍ على دَرَجاتِ الأسكليپيون البيضاء المتَلألئة. فودَّتْ لو تصرُخُ غاضِبةً. أكثرُ من عشرينَ واحدًا وواحدةً من العَبيد المرضى والمائتين تخلَّى عنهم سادتُهم القُساةُ القلوب. وكان منهم مَن ماتوا فعلًا، وسيَنقلُهم بعيدًا خَدَمُ

الهيكل عاجلًا. أمَّا آخَرون، كذاكَ الشَّيخ، فقدِ انطرحوا فاقدينَ الوعيَ تقريبًا، بلا رجاءٍ ولا عزاء، مُنتظِرين الموت. وكان بعضُهم يئنُّون في ألَمِهم وهَذَيانِهم.

كان خَدَمُ الهيكل ينقلون بعضَهم فعلًا، لا لكي يهتمُّوا بهم، بل لِيُواروهم عنِ الأنظار لئلَّا تستاءَ مِنهم عيونُ العابِدين الوافِدينَ في الصباح الباكر. وكان بعضُ هؤلاء قد وَصَلوا فعلًا على مِحَفَّاتٍ ذاتِ ستائر، مُترَفةٍ جدًّا، يَحمِلُها عبيدٌ على أكتافهم. وإذ ترجَّلَ المتعَبِّدون الأغنياء وساروا صاعِدينَ الدَّرَج، أبقَوا أعيُنَهم ناظِرةً إلى الأمام مُباشَرةً، مُركِّزينَ على الهيكل الفخم، لا على المعاناة البَشَريَّة أمامَه. لقد كانت لَدَيهم مُشكِلاتُهم الخاصَّةُ تُقلِقُهم، والمالُ اللازمُ لأجل القرابين والصَّلوات الطَّقسيَّة... على خِلافِ أُولئك المساكين المطروحين حَوالَيهم.

انحنَت هَدسَّة فوقَ رجُلٍ آخر. وقلبَتْه على مهل، فتبيَّن لها أنَّه ماتَ فعلًا. وإذ نهضَت، شعرَتْ بالضَّعف والغَثَيان. هذا القَدْرُ الكبيرُ من الألَم والمعاناة، ومع ذلك فلن يحظى بعنايةِ ألِكسَندر

التامَّة ومَعونته الطبِّيَّة إلّا واحِدٌ فقط من هؤلاء المخلوقين البائسين الذين يُرثَى لهم!

يا الله، أيَّ واحِدٍ منهم سيَكونُ ذاكَ؟ حياةَ مَن ستُنقِذُ اليوم؟ تطلَّعَتْ حَوالَيها، مُرتبِكةً ومُثبَّطةَ الهِمَّة. مَن، يا ربّ؟

وأحسَّتْ أحَدَهُم يُراقِبُها، فالتَفتَتْ. وإذا بَعدَ بِضعِ دَرَجاتٍ فَوقها رجلٌ منطرحٌ كبيرُ الجِسمِ داكِن البَشَرة، وعيناه السوداوان اللتان كَسَتْهُما الحُمَّى تُحدِّقانِ إليها دون أن تَطرفا. وقد كانت ملامحُه نَسريَّةً، وكان مُرتديًا تُنكًا رماديًّا مُوسَّخًا.

إنَّه أعرابيٌّ.

وقد ذكَّرها على نحوٍ ثاقِب بالمسيرة الطَّويلة من مدينة القُدس لـمَّا كانت مُقيَّدةً مع غَيرها من الأسرى. فإنَّ رجالًا يُشبِهونَه جدًّا كانوا قد طَرَحوا زِبلًا عليها وعلى باقي الأسرى اليهود. كما كان رِجالٌ يُشبِهونه قد بصَقوا عليها وهيَ عابِرة.

هذا الرَّجُل، يا ربّ؟ أشاحَت بناظِرَيها، وجالَت

حملقَتُهما ثانيةً على جميع الآخرين، ثُمَّ رجعَتْ إلى الأعرابيِّ المطروحِ فوقَها.

هذا الرَّجُل.

وصَعِدَتِ الدَّرَجَ نحوَه بمَشقَّة.

كانت أصابِعُه تُجري بسُرعةٍ حبَّاتِ سُبحةٍ مع كلِّ صلاةٍ يتَلوها بصَوتِه الخَشِن... إلى قِشنو.

أنزلَت جِسمَها بألَمٍ على الدَّرجة الرُّخاميَّة التي تحتَه تمامًا، وألقَت عُكَّازها جانبًا. واحتَضنَت يَدَيه بيَدَيها، مُسكِتةً طَلِباتهِ التَّكراريَّة العقيمة بقولها: ''اشش! الله يسمعُ صلواتِك''. وارتخَتْ أصابِعُه، فأخذَتْ سُبحةَ الصلاة ودسَّتها تحتَ حِزامِها، للاستِعمالِ لاحقًا إذا طلبَها. ثُمَّ مسَّت جبينَه فاحِصةً، وتأمَّلَت عينَيه إذْ حملقَ صُعودًا إليها. ففاجأها الخوفُ البادي في عينَيه. هل ظنَّها شَبَحَ الموت من وراء حِجابها؟ وقد كان يتنفَّس بصعوبةٍ شديدة.

رفعَت رأسَها وأومأت لألِكسَندر. ''هنا، سيِّدي!''

فأسرعَ ألِكسَندر نحوَها. وما إنْ وصلَ إليهما، حتَّى سعَلَ الرَّجُل. وقد خرجَ السُّعالُ من قَعرِ رئتَيه، مُحطِّمًا جِسمَه. ولاحظَ ألِكسَندر بُقَعَ دَمٍ صغيرةً على الرُّخامَ النقيّ. فقال بتَجهُّم، هازًّا رأسَه: ‘‘حُمَّى الرِّئتين’’.

قالت هَدسَّة: ‘‘هذا هو الرَّجُل’’. ودسَّت ذِراعَها تحت كَتِفَي الرجُل العريضتَين.

‘‘هَدسَّة، إنَّ المرَضَ قد أتلفَ رئتَيه فعلًا. لا أستَطيعُ أن أفعَلَ له أيَّ شيء’’.

فتَجاهَلَتْه، وتكلَّمَت إلى الأعرابيّ. ‘‘سنأخذُك معنا إلى البيت. وسنُعطيك دواءً وطعامًا. وسيَكونُ لك مأوًى وراحةٌ’’. ثُمَّ ساعدَته على الجلوس، وأضافَت: ‘‘لقد أرسلَني اللهُ إليك’’.

فتَسطَّحَ فمُ ألِكسَندر، وقال: ‘‘هَدسَّة!’’

قالت: ‘‘هذا المريض’’. فنظرَ ألِكسَندر إلَيها نِظرةً ثاقِبة. إنَّه لم يُحِسَّ لديها قطُّ من قَبلُ مثلَ هذا التَّصميمِ الشَّرِس.

فقال: "حَسنٌ جدًّا". ثُمَّ وضعَ يدَه بقوَّةٍ على كَتِفِها. "سآخذُه". وجذبَها حتَّى وقفَت، ثُمَّ نحَّاها جانبًا. وإذ ناوَلها العُكَّاز، تطلَّعَ حَوالَيه طلبًا للمُساعدة، ونادى اثنَين من خَدَمِ المعبد. ولـمَّا كان هذان توَّاقَين إلى إزالةِ الرَّجُل المريض من الوسط، رفعاه بسُهولة إلى مِحفَّة مُستأجرة.

نظرَ ألِكسَندر إلى الأعرابيِّ مُجدَّدًا. إنَّ العقاقيرَ والوقتَ ستُبَدَّدُ على هذا المريض.

وتريَّثَت هَدسَّة، ناظِرةً إلى الآخَرِين الذين اضطُرَّا إلى تَركهِم هناكَ حتَّى يموتوا.

فقال ألِكسندر: "تعالَي، يا هَدسَّة. علينا أن ندلَّ هذين الرَّجُلَين على الطريق". فطأطأتْ رأسَها بطريقةٍ أفادَته أنَّها كانت تبكي صامتةً وراءَ نِقابِها. وعبَّس ألِكسَندر. "كان ينبغي لي أن أترُكَكِ في السَّقيفة بَدَلَ أن أصطَحِبَكِ لتَرَي هذا".

شُحِبَت يدُها على العُكَّاز إذ مَشَت معه. "هلِ الاختِباءُ عمَّا هو جارٍ في العالم أفضلُ من الاطِّلاع عليه؟"

وإذ خفَّف سُرعةَ مَشيِه كي يجعلَ مُجاراتَه أسهلَ عليها، قال: ‘‘أحيانًا... ولا سيَّما حينَ لا تَستَطيعين القيامَ بأيِّ شيءٍ لتَغييره’’.

فقالت: ‘‘أنت تُغيِّرُه بالنِّسبة إلى رجُلٍ واحد’’.

ونظرَ إلى الأعرابيِّ مَحمولًا على مِحفَّةٍ مكشوفة، فَوجَدَ أنَّ بَشَرتَه الداكِنَةَ مائلةٌ قليلًا إلى اللون الرَّماديِّ وبرَّاقةٌ بالعَرَق. وقد ظهرَ تحتَ عينَيه تجويفان غائران. ‘‘أشكُّ في أنَّه سيَعيش’’.

‘‘سيَعيش’’.

أدهشَت قناعتُها أَلِكسَندر، ولكنَّه كان قد تعلَّم من اختِباراتٍ سابقة أن يحترمَ ما تقولُه. فإنَّها تملكُ معرفةً لا يستَطيعُ هو أن يسبرَ غَورَها. ‘‘سأفعلُ له ما في وُسعي، ولكنَّ أمرَ حياتهِ أو مَوته هو في يَدِ الله’’.

فقالت: ‘‘نعم،’’ ثُمَّ لاذَت بالصَّمت. وعَلمَ من طريقةِ عَرَجِها وإمساكِها بالعُكَّاز أنَّ جَهدَها كُلَّه

باتَ الآنَ مُركّزًا على شقّ طريقِها وسط الشوارع المزدَحِمة. فظلَّ يتقدَّمُها مُبقيًا المحفَّةَ إلى يسارِه لكي يحميَ طريقَها. لقد كانت مُتعَبةً ومُتألِّمة. فلم يكُن ينقصُها أن يصدِمَها عابِرُ سبيلٍ غير مُبالٍ، وقد قصدَ ألِكسَندر أن يتيقَّن بألَّا يفعلَ أحَدٌ ذلك.

لـمَّا وَصَلوا إلى السَّقيفة، وضعَ ألِكسَندر الأعرابيَّ على الطَّاوِلَة كي يفحصَه بَعد. وتناولَتْ هَدسَّة زِقَّ جِلدِ المعزى عنِ العَقَفةِ المثبَّتة في الجِدار، ثمَّ صبَّت ماءً في كوبٍ خَشَبيّ. وبعدَما علَّقَتِ الزِّقَّ مُجَدَّدًا على عَقفَتِهِ، أقبلَتْ ودسَّتْ ذِراعَها تحتَ كتِفَيِ الرَّجُل، رافِعةً إيَّاه كفايةً بحيثُ يستَطيعُ أن يشرب.

"هلِ أضَعُ علامةً على كُوبه لئلَّا نستعمِلَه بالغَلَط، سيِّدي؟"

فضَحِك. "الآن، وقد نفَّذتِ إرادتَكِ بالإتيانِ به إلى هنا، عُدتِ إلى القول «سيِّدي»!"

"بالتَّأكيد، سيِّدي". وقد سمعَ الابتِسامةَ في

نَبَراتِها.

ثُمَّ أنزلَتِ الأعرابيَّ، ولاحظَها ألِكسَندر تُمَسِّدُ شعرَ الرَّجُل إلى الوراء مِثلَما تفعلُ الأُمُّ. لقد علمَ الحُنُوَّ الذي من شأنه أن يكونَ في لمستِها، والحنانَ الذي من شأنه أن يشعَّ من عينَيها. فاجتاحَتْ كِيانَه مَوجةٌ مُفاجئةٌ. إذ إنَّ فِكرةَ تَمَنِّي أحَدٍ الموتَ لها، والأمرِ بإرسالها إلى الأُسود المفترِسة، غمرَته بسُخطٍ جفَّلَه.

وما لبثَ أن وجَّه حَملَقتَه إلى الأعرابيِّ، قائلًا: ‘‘اسمُك؟’’

فأجابَ هذا بصَوتٍ خَشِن: ‘‘أمرافَل’’. وأضاف: ‘‘راشِد كَدَرلَعَومر’’.

وقال ألِكسَندر: ‘‘هذا اسمٌ أطولُ من أن يعلَقَ في الذاكرة. سنَدعوك بِاسْم راشِد’’. ثُمَّ أخذَ الخرقةَ المبَلَّلة التي ناولَتْه هَدسَّة إيَّاها، ومسحَ وجهَ الرَّجُل المتعرِّق. ‘‘راشد، ليس لك سيِّدٌ الآن. هل فهِمتَ قَولي؟ أيًّا كان مَن تركَك على الدَّرَج، فقد حُرِمَ كُلَّ حقٍّ فيك. وأنا لَن أُطالِبَ بأيِّ

حقّ. إنَّما واجِبُك الوحيدُ تُجاهي هو أن تفعلَ ما أطلبُه منك حتَّى تَتَعافى. وعندئذٍ يكونُ لك إمَّا أن تمضيَ في سبيلك، وإمَّا أن تمكُثَ وتشتغِلَ معي".

شرعَ راشد يسعُلُ بشِدَّة. ووقفَ ألِكسَندر جانبًا، يُراقِبُه بسِيماءَ مُتجهِّمة. حتَّى إذا انتهَت نَوبةُ السُّعال أخيرًا، تأوَّهَ راشِد مُتألِّمًا وارتمى مُستلقِيًا بوَهَنٍ على الطاولة من جَديد.

وأقبلَتْ هَدسَّة فوقفَت بجانب الطاولة مُجدَّدًا. ووضعَتْ يدَها على صَدر راشد، فأحسَّت تحتَ كفِّها نَبْضَ قلبهِ القويَّ الثابت. **سيَعيش**. هكذا أكَّدَ لها الصَّوت الهادئُ الخفيف مرَّةً أُخرى. إنَّما الله يعلَمُ كيف... الله يعلَمُ لماذا.

وإذِ استَرخى راشد، وضعَ يدَه فَوق يَدِها، ونظرَ من تحتُ إليها بعينَين شديدتَي السَّواد، غائرتَين. فمسَّدَت من جديد شعرَه الأسود مُرجِعةً إيَّاهُ عن جبينه. "إنَّ الله لم يتخلَّ عنك".

وميَّزَ اللكنةَ اليهوديَّة فعبسَ قليلًا. لماذا أشفقَتْ

يهوديَّةٌ على أعرابيّ؟

‘‘استَرِح. سنُجهِّزُ لك فِراشًا’’.

وما إنْ أُعِدَّ الفِراش، حتَّى ساعدَ أَلِكسَندر الأعرابيَّ في الاستِلقاء عليه. وإذا به يَغفو، تقريبًا لحظةَ غُطِّيَ بالبطَّانيَّات.

وقفَ أَلِكسَندر، ويداه على وَرِكَيه، يُحدِّقُ من عَلُ إلى مريضه النائم. ‘‘في صحَّتهِ الجيِّدة، لا بُدَّ أنَّه كانَ رجُلًا يُحسَبُ له حِساب’’.

‘‘سيعودُ إلى سابقِ عهدِه. كيف ستُداويه؟’’

‘‘بِنَبتَتَي الفَراسيون ولسان الحمل... وإنْ كانتا لن تنفَعاه كثيرًا في هذه المرحلة من المرَض’’.

فقالت: ‘‘سأُعِدُّ كِمادةَ حُلْبَة’’.

‘‘بصراحة، سيَكونُ أكثرَ نفعًا أن تتضرَّعي إلى إلهكِ من أجله’’.

‘‘ما أزالُ أُصَلِّي، سيِّدي، وسأُثابِرُ على الصلاة.

ولكنَّ هنالك أمورًا يُمكِنُنا أن نعملَها له أيضًا".

"فلنُباشِرْ إذًا".

٩

قلَّما فعلَ راشِد شيئًا آخَر سِوى النَّوم في غضون الأسابيع القليلة التالية. وقد كانَت حشيَّتُه بمُحاذاةِ حائط السقيفة الخلفيّ، بعيدًا عن الأنظار. فمتى كان مُستَيقِظًا، راقبَ ألِكسَندر وهَدسَّة يعتَنِيان بالمرضى. وكان يُصغي إلى كُلِّ ما يُقال ويُلاحِظ ما يُجرَى.

كانت هَدسَّة تُعطيهِ سمكًا وخُضَرًا وخُبزًا مُغمَّسًا بالخمر مرَّتين كلَّ يَوم. ورُغمَ فُقدانهِ الشَّهيَّة، ألحَّتْ عليه أن يأكل. "ستَستَعيدُ قُوَّتك". كلَّمَته على نحوٍ غايةٍ في اليقين، بحيثُ أطاعَها.

حتَّى إذا مَضى النهارُ الطويل، كان يُشاهِدُها تُعِدُّ وجبةَ العَشاء. وقد خدمَتْه هو دائمًا أوَّلًا، ثُمَّ الطبيبَ، ممَّا فاجأه. وكما عدَّ الأمرَ مُناسِبًا، لم تكُن المرأةُ تخدمُ نفسَها إلَّا بعد أن يكونا هما قد أكلاَ وشَبِعا.

وكان كلَّ ليلةٍ يُصغي إليهما إذ يُجرِيان مُناقَشاتٍ مُطوَّلةً بشأنِ كُلِّ مريض. وسُرعانَ ما اتَّضحَ

لراشد أنّ المرأةَ المحَجَّبة تعرف عن كَلِّ رجُلٍ وامرأةٍ وولدٍ دخلوا السَّقيفة أكثرَ ممَّا يعرِفُه الطبيبُ نفسُه. فالطبيبُ قد سَمِعَ كلامهم؛ أمَّا المرأة فقد سَمِعَت ألَمَهُم وكَربَهم وخَوفَهم. والطبيبُ رأى كلَّ مريضٍ بِصفته عِلَّةً بَدَنيَّةً من نَوعٍ ما. أمَّا المرأة فقد عرفَت نُفوسَ المرضى... تمامًا كما عرفَتْ نفسَه لحظةَ نظرَت في عَينَيه. وهو شعرَ بذلكَ لـمَّا لمسَتْه.

لقد جاءَ الناسُ أغلبَ الأحيان لكي يَرَوها، ولكنَّها وجَّهتْهم إلى الطبيب بلُطف. غير أنَّ المريضَ لم يتَمالَكْ أن يتساءَلَ على مرِّ الأسابيع إنْ كان من شأن أيِّ شيءٍ يفعلُه الطبيبُ أن ينفعَ أيَّ نَفعٍ لَولا وُجودُها.

نظر إلى ألِكسَندر جالِسًا إلى طاولَةِ شُغلِه في الجوار، ناقلًا كلَّ ما قد كتبَتْه هَدسَّة على ألواحٍ إلى دُروج، مُضيفًا كُلَّ ما فعلَه هو لِكُلِّ مريض. حتَّى إذا أنهى هذه المهمَّة، عَمَدَ إلى إجراء جَردَةِ المساء لِلعَقاقير، مُدَوِّنًا مُلاحظاتٍ عمَّا تَدعو إليه الحاجة، إذ كان يعكفُ على تحضيرِ أدوية.

وطوالَ مُدَّةِ انصِرافِ الطبيب إلى العمل، كانت هي تجلس على الكُرسيِّ الصغير بِقُرب الكانون، مُصَلِّيةً وهي مُختبئةٌ وراءَ نِقابها.

بدا لراشِد أنَّها كانت تُصلِّي بلا انقطاع. وكان أحيانًا يسمَعُها تُدَندِنُ برِقَّة. وأحيانًا كانت تفتحُ يَدَيها وتبسطهُما قالِبةً الكفَّين إلى فوق، حتَّى إنَّه في أثناء النَّهار وهي تُعايِنُ المرضى، كان يُحِسُّ حَوالَيها جَوًّا يجعلُه يحسَبُ أنَّها **مُصغيةٌ**، تتأمَّلُ شيئًا غير منظور.

إنَّ مُشاهَدتَه لها غمرَته بشُعورِ سلام، لأنَّه قد رأى أُمورًا مُذهِلةً تحدُثُ في هذه السَّقيفة على مرِّ الأسابيعِ الماضية؛ حتَّى باتَ مُقتنِعًا أنَّ إلهَ إبراهيم قد لمَسَها بالقُدرة.

ولـمَّا تحسَّنَ راشِد، باتَ يجلِس على حصير في الخارج فيَسمَعُ عَرَضًا أُمورًا أُخرى. "**إنَّها تملِكُ اللَّمسةَ الشافية**": كلماتٌ قالَها أكثرُ من شخصٍ لأيِّ مَن يُصغي. وكان الخَبَر عن هَدسَّة وألِكسَندر آخِذًا في الانتشار، لأنَّ بعضَ مَن جاءوا لرؤيتهما لم يكونوا من الأزِقَّة الضيِّقة بقُربِ رصيف

الميناء أو الحمَّامات، بل من أنحاء المدينة البعيدة.

كان حَشدٌ صغيرٌ يتجمَّع كلَّ صباح. وكان مُمكِنًا سَماعُهم يتَهامَسون باحتِرام، مُنتظِرينَ أن يُجذَبَ الحِجابُ إلى الوراء فتُفتحَ السَّقيفة. وقد جاءَ بعضُهم لأنَّهم كانوا مَرضى أو مجروحين ويحتاجون إلى عنايةِ طبيب. أمَّا الآخرون فقد جاءوا ليَسمَعوا قصَصَ هَدسَّة ويَطرَحوا أسئلةً عن إلهها.

وكانت امرأةٌ اسمُها إفيخاريس تأتي غالبًا مع ابنتها الصغيرة، هيلانة. كذلك أيضًا كان يأتي رجُلٌ اسمُه بُويثِوس. وكان أحيانًا يصطحبُ زَوجتَه وأولادَه الأربعة. ولم يُغادِرْ قطُّ دون إعطاءِ هَدسَّة قِطعةَ نَقدٍ "لشخصٍ مُحتاج". وكانت هذه التَّقدِمة تُعطَى دائمًا لشخصٍ ما قبلَ انتهاءِ النَّهار.

وذاتَ صباح، جاءت إلى السَّقيفة شابَّةٌ لاحظَها راشِدِ في الحال، إذ كانت مثل حَسُّونٍ جميل وسطَ سِربٍ من عصافير الدُّوريِّ البُنِّيَّةِ العاديَّة.

فمع أنَّها كانت مُرتدِيةً تُنكَا بُنِّيًّا بسيطًا بِزُنَّارٍ أبيض؛ وشالًا مُرخًى على شعرِها الداكن، كان جمالُها آسِرًا. إنَّ امرأةً كهذه يليقُ بها الحريرُ والجواهر.

فسُرَّت هَدسَّة برؤيتها. ‘‘سَقَرينا! هيَّا. اجلسي. أخبريني كيف حالُكِ’’.

حدَّقَ راشِد إلى سَقَرينا إذ تحرَّكت برَشاقة بينَ الآخَرين. وكانَ لها بَهاءُ نجمٍ مُتألِّق في السماوات إذ قعدَتْ على الكُرسيِّ بجانبِ مكتبِ هَدسَّة وقالت: ‘‘ما كنتُ أظنُّ أنَّكِ ستَتَذكَّرينَني. لقد كنتُ هنا منذُ مُدَّة طويلة’’.

فوضعَت هَدسَّة يَدَها على يَدِ المرأة، وقالت: ‘‘تَبدينَ بصِحَّة جيِّدة’’.

أجابت: ‘‘أنا سليمة. لم أرجعْ إلى الأرطميسيون’’.

ولم تقُل هَدسَّة شيئًا، مُتيحةً لها الحرِّيَّةَ لِقَولِ المزيد، إذا شاءت. فرفعَتْ سَقَرينا عينَيها ثانيةً.

‘‘لقد بِعتُ نفسي عبدةً بيتيَّة. والسيِّد الذي اشتَراني لطيف، شأنُه شأنُ سيِّدتي زوجتِه. فهي علَّمَتْني الحِياكة. وأنا أستمتعُ بالعمل كثيرًا جدًّا’’.

‘‘لقد أكرمَكِ الرَّبّ’’.

فاغرَورِقَتْ عَينا سَقَرينا. وبيَدَينِ مُرتعِشتَين أمسكَتْ يدَ هَدسَّة وضغطَتها بينَهُما. ‘‘لقد كُنتِ لطيفةً معي لـمَّا جئتُ إلى هنا. وقد سألتِني عن اسمي. وأنتِ تتذكَّرينَني. فهذا الأمرُ بسيطٌ جدًّا، ولكنَّه مُهِمٌّ بطُرُق لا يُمكِنُكِ تصوُّرها’’. وتورَّدَ وجهُها. ثُمَّ أفلتَتْ هَدسَّة وقامت. وقالت هامِسةً: ‘‘لقد أردتُ فقط أن تعلَمي’’. ثُمَّ دارتْ بسُرعةٍ ومَشَت مُبتعِدةً.

فنهضَت هَدسَّة بطريقةٍ تُعوِزُها الرَّشاقة، قائلةً: ‘‘سَقَرينا، مهلًا. رجاءً!’’ ثُمَّ عرجَتْ إلى حيثُ وقفَتِ الشابَّةُ مُرتابةً عندَ طَرَفِ حلقةِ المرضى المنتظِرين. وتحدَّثتا بِضعَ دقائقٍ فيما الآخَرون يُراقِبون. ثُمَّ عانقتْ هَدسَّةُ سَقَرينا، فالتَصقَتْ هذه بتِلك، ثُمَّ تراجعَتْ ومَشَت مُبتعِدةً على

عَجَل.

راقبَ راشِد مِشيةَ هَدسَّة المضطربةَ المتَصلِّبة إذ شقَّت طريقَها راجعةً إلى كُرسيِّها. وتساءلَ هل علِمَتْ مُجرَّدَ عِلمٍ بأنَّ بِضعةَ مرضى من القاعِدين على الشارع المرصوف بالحجِارة، مُنتظِرينَ أن يُعايِنَهم الطبيبُ، مَسُّوا حاشِيةَ ثوبها وهي مارَّة.

حملَ كلُّ يومٍ تحسُّنًا للأعرابيّ. وكان ألِكسَندر يفحصُه يوميًّا ويُسجِّل مِقدارَ ما أعطاه من الفَراسيون ولسانِ الحَمَل، إضافةً إلى كِمادات الحُلبَة التي ربطَتها هَدسَّة على صَدره. فرُبَّما هذه الأشياء، فضلًا عن الطَّعام المغذِّي ودفء البطَّانيَّات والمسكن الجيِّد، كان لها دَورٌ في إنقاذه من الموت. أمَّا راشِد فعَرَفَ أنَّ ما أعادَ إليه الحياةَ كانَ أكثرَ من مُجرَّد الدَّواء أو المسكن. وبسببِ معرفتِه هذه، عاملَ هَدسَّة باحتِرامٍ يُقارِبُ حدَّ التَّوقير.

ولكنْ رُغمَ ذلك أقلقَه أمرٌ واحِدٌ كثيرًا. وذاتَ مساء استَجمَعَ شجاعتَه والتَمسَ جوابًا: ‘‘أأنتِ عَبدَتُه،

سيِّدتي؟’’

فقالت: ‘‘ليس تمامًا’’.

وكانَ ألِكسندر عاكفًا على دَرْجٍ يكتبُ عليه. فرفعَ نظرَه لـمَّا سَمعَ جوابَها، قائلًا: ‘‘هي حُرَّة، يا راشد. تمامًا كما أنتَ حُرّ’’.

فالتفتَتْ هَدسَّة نحو ألِكسَندر. ‘‘أنا عبدَة، سيِّدي، وسأبقى هكذا حتَّى أُحرَّر قانونيًّا’’.

ولاحظَ راشِد أنَّ تصريحَها أزعَجَ الطبيب، لأنَّه ألقَى مِرقمَه ودارَ دَورةً كاملةً على كُرسيِّه. ‘‘لقد حُرِمَ سادتُكِ كلَّ حقوقهم فيك لـمَّا أرسلوكِ إلى ساحة المحاربين. إنَّ إلهكِ حماكِ، وأنا جمعتُكِ من جديد’’.

‘‘لو عَلموا بأنّي كُنتُ حيَّةً، سيِّدي، لكانَ من حقِّ سيِّدتي أن تُطالِبَ بِعَودتي إليها’’.

فقال ببساطة: ‘‘إذًا، لن تعلَم. قُولي لي اسمَها حتَّى أتجنَّبَها’’.

وظلّت هَدسَّة جالسةً في صَمت.

فسأل راشِد، مُتحيّرًا: ‘‘لماذا لا تقولين له؟’’

وابتسم ألِكسَندر ابتِسامةً ساخِرة. ‘‘لأنَّها عنيدة، يا راشِد. أنت ترى كُلَّ يوم كم هي عنيدة’’.

فقال راشِد بأسًى: ‘‘لولاها، لكُنتَ تخطَّيتَني على دَرَجِ الأسكليپيون’’.

وارتفعَ حاجِبا ألِكسَندر قليلًا. ‘‘إنّي أعترِفُ بأنَّ هذا صحيح. فقد ظَننتُ أنَّك كنتَ على مَقرُبةٍ من الموت’’.

‘‘لقد كنتُ فعلًا...’’

‘‘ليس على مَقرُبةٍ كافية، في ما يبدو. فأنتَ تكتسِبُ قوَّةً كلَّ يوم’’.

‘‘لقد كُنتُ أقربَ إلى الموت مِمَّا تعرف. ولكنَّها هي لمسَتني’’.

كان ما يَعنيه كُلِّيَّ الوُضوح، فابتسمَ ألِكسَندر لِهَدسَّة مُتَهكِّمًا. ''من الجَليّ أنَّه يعتقدُ أنَّ إسعافاتي لم يكُن لها أيُّ إسهامٍ في تحسُّنِه''. ثُمَّ عادَ إلى دُروجِه.

وقالت هَدسَّة مُرتاعةً: ''راشِد، لا تنسبْ إليَّ الفضلَ في شفائك. فلم أكُن أنا، بل يسوعُ المسيح''.

فقال راشِد: ''لقد قُلتِ للآخرين إنَّ هذا المسيحَ ساكِنٌ فيكِ''.

''كما هو ساكِنٌ في جميع الذين يؤمنون به. وهو يُقبِلُ كي يسكُنَ فيكَ، إذا اخترتَ أن تفتحَ له قلبَك''.

''أنا أنتَمي إلى سيقا''.

''كِلانا من أبناء إبراهيم، يا راشد. وهُنالِكَ فقط إلهٌ واحِد، هو الإله الحقيقيُّ، الرَّبُّ يسوع، ابنُ الله''.

''لقد سَمِعتُكِ تتحدَّثين بشأنه أغلبَ الأحيان، سيِّدتي، ولكنْ ليس هذا هو السبيلَ الذي

اختارَه لي سِيقا. فأنتِ تُسامحِينَ عدوَّكِ. أمَّا أنا فأقتلُ عدوِّي". وازدادَتْ عَيناه قَتامًا. "كما أُقسِمُ أمامَ سيقا، إنِّي سأقتلُ أعداءَكِ إذا أقبَلوا عَليكِ يَومًا".

فبقِيَت جالسةً في صَمتٍ ذاهِل، مُحدِّقةً من خلال نِقابها إلى الوَجهِ الداكِن القاسي المتكبِّر أمامها.

ونظرَ ألِكسَندر إلى الوراء من فَوق كتِفه، مَدهوشًا على السَّواء من ذلك العُنفِ الضاري. ثُمَّ دارَ، وتأمَّلَ الأعرابيَّ. "أيُّ مركَزٍ كان لكَ في بيت سيِّدِكَ، يا راشِد؟"

"لقد حرستُ ابنَه إلى أن غلبَني مَرَضي".

"إذًا، أنت جُنديٌّ مُدرَّب".

فقال راشِد، رافعًا رأسَه باعتِزاز: "أنا من سُلالةِ محاربين".

وابتَسمَ ألِكسَندر باكتئاب. "يبدو أنَّ الله لم يُرسِل إليَّ تِلميذًا على كلّ حال، يا هَدسَّة؛ بل

أرسَل لكِ حامِيًا’’.

١٠

وقفَت جوليا وسطَ الحَشد داخِلَ الرِّواق الفَخم (پُروپيلُن) الذي يُفضي إلى الأسكليپيون، تستَمعُ إلى البرنامج الذي لا نهاية له كما بدا، حيثُ مضى الشُّعراء يتَبارَون في المهرَجان الـمُقام كُلَّ ثلاثِ سنواتٍ إكرامًا للإله. وكانت قد وجدَتْ أنَّ الألعابَ السابقة التي اشتَملَتْ على أحداثٍ رياضيَّة وجِمنازيَّة أقربُ إلى تلبية ذوقِها. فإنَّ هذا البحرَ من الكَلِمات المتَدفِّقة لم يَعنِ لها شيئًا. إذ لم تكُن شاعِرةً ولا رِياضيَّة. وكانت رديئةَ الصِّحَّة. فسَببُ مجيئها المتكَرِّر كثيرًا إلى الأسكليپيون كان إحرازَ رحمةِ الإله. ولم يكُن في وُسعها أن تُرضيَ ذلك الإلهَ بأعمالٍ أو مآثِرَ فعليَّةٍ تتميَّز بالقُوَّة والرَّشاقة. لِذلكَ نَوَت أن تسهرَ الليلَ بطُوله صائمةً ومُصلِّيةً لكي تُكرِمَه وتسترضِيَه.

فلمَّا غابَتِ الشمس، دخلَتِ الهيكلَ وركعَتْ أمامَ المذبح الذي كانتِ القرابين تُقدَّم عليه. وصلَّت إلى إلهِ الصحَّة والحالة البَدَنيَّة. صلَّت حتَّى آلمتْها رُكبتاها وظهرُها. ولـمَّا لم تعُدْ قادرةً على

الركوع، انبطحَتْ على وجهها فوقَ الرُّخام البارد، وذراعاها مَمدودتان نحو تمثالِ أسكليبيوس المَرمريّ.

وحينَ أقبلَ الصَّباح، كان الألَمُ ينخرُ كُلَّ جُزءٍ من كِيانها. وسمِعَتِ الجوقةَ تُنشِدُ تراتيلَ طقسيَّة. فنهضتْ ووقفَتْ مع الآخرينَ الذين كانوا قد أمضَوا اللَّيلَ كلَّه في الصلاة والصِّيام، على غِرارها. ثُمَّ ألقى كاهِنٌ خُطبةً طويلة، ولكنْ في حالتها المرهَقة لم تفهَمْ إلَّا القليلَ ممَّا قاله.

أينَ كانت الرَّحمة؟ أين كانت الشَّفقة؟ كم من القرابين وليالي الصلاة والصَّوم ينبغي لها أن تُتِمَّ حتَّى تتعافى وتكسِبَ الشّفاء؟

وإذ أوهنَها السَّهَرُ الطويل، وأجهَدَها المرضُ والاكتِئاب، قعدَتْ متعبةً وأسندَتْ ظَهرَها بتثاقُلٍ على واحدٍ من الأعمِدَة الرُّخاميَّة. ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها، فيما مضى الكاهن في خُطبتهِ المملَّة.

استيقَظَت مُجفَّلةً، إذ هزَّها أحَدُهم. فرفعَتْ نَظرَها مُرتبِكةً، وهي ما تزالُ نِصفَ نائمة.

بدا جليًّا أنّ الرَّجُلَ أزعجَه حضورُها، إذ قال: ‘‘ليس هذا مكانًا للنَّوم، يا امرأة! قومي من هنا، واذهبي إلى بيتكِ’’. ومن ثيابِه، عَرَفت أنَّه واحِدٌ من نُظَّار الهيكل.

‘‘لا أستطيع’’.

‘‘ماذا تَعنين بقولكِ إنَّكِ لا تَستَطيعين؟’’

فقالت مُتَلعثِمةً: ‘‘لقد كنتُ هنا طَوالَ اللَّيل أُصلِّي’’.

فأمسكَها وجذبَها بخشونةٍ مُوقفًا إيَّاها على قدمَيها. وقالَ بِنَفادِ صَبر: ‘‘أليسَت معكِ خادِمة؟’’ مقيِّمًا الكَتَّانَ الفاخِرَ المصنوعَ منهُ تُنكُها وحجابُها.

تطلَّعَتْ جوليا حَوالَيها بحثًا عن يوديماس. ‘‘لا بُدَّ أنَّها تركَتني في وقتٍ ما خِلالَ اللَّيل’’.

‘‘سأستَدعي عبدًا ليأخُذَكِ إلى البيت’’.

‘‘لا! أعني أنِّي لا أستطيعُ أن أمضيَ إلى البيت. لقد كنتُ أُصلِّي، أُصلِّي طَوالَ ساعات. فلْأدخُلِ

الأباتون لو آذنتَ لي، فأنالَ الشّـِفاء’’.

‘‘يجبُ أن تجتازي طقسَ التطهير، ثُمَّ تُغسَلي في اليَنبوع المقدَّس قبلَ أن نتمكّنَ من إدخالكِ إلى الأباتُون، يا امرأة. عليكِ أن تعرِفي ذلك. حتَّى إنَّ استِعادتَكِ لِصحَّتكِ، بعدَ ذلك، يُقَرِّرُها الإله’’.

فقالَت بيأس شديد: ‘‘سأفعلُ أيَّ شيءٍ تطلُبه’’.

وتأمَّلَها من جديد، ثُمَّ قال: ‘‘الأمرُ يُكلِّفُكِ كثيرًا’’.

فقالَت بسُرعة: ‘‘كم؟’’ ورأتْ عينَيه تنتَقلان إلى قُرطَيها الذهبيَّين. فنزعَتهُما وناولَته إيَّاهما. فدسَّهُما على عَجَل داخل طيَّات زُنَّاره الحريريِّ الأحمر، وثبَّتَ نظرَه على قِلادتها الذهبيَّة. فنزعَتْها أيضًا، ووضعَتْها في يَدهِ الممدودة. فأطبقَ عليها أصابِعَه الثَّخينة، ودفعَها بسُرعةٍ إلى داخِلِ طيَّاتِ الزُّنَّار، مع قُرطَيها.

‘‘والآن، هل تُدخِلُني؟’’

‘‘أليسَ لَدَيكِ شيءٌ آخَر؟’’

نظرَت من فوقَ إلى يدَيها الشاحِبتَين المرتَعشتَين. "كلُّ ما بقيَ لديَّ هو هذا الخاتمُ اللّازورديُّ والذَّهبيُّ الذي أعطاني إيَّاه أبي لـمَّا كُنتُ فتاةً صغيرة".

فأمسكَ يَدَها وتأمَّلَ الخاتم. ثُمَّ قال، مُفلِتًا إيَّاها: "سآخُذُه أيضًا".

وفيما الدُّموع تملأ عينَيها، بَرَمَتِ الخاتمَ حتَّى تمكَّنت من سَحبِه عن خِنصرِ يدِها اليُمنى. وشاهدَتْه يدسُّه حيثُ القُرطانِ والقِلادة. ثُمَّ قال: "اتبَعيني".

تركَها في غُرفةِ تطهير، حيثُ طُلِبَ منها أن تخلع ثيابَها كُلَّها. ولطالَما كانت فخورًا بجَسَدِها في ما مضى. أمَّا الآن، بينَما كان هذا الخادِمُ يغسِلُها، مُنظِّفًا جسدَها إعدادًا لدُخول الينبوع المقدَّس، فشعرَتْ بالخَجَل والخَيبة. إذِ انكشفَتِ القُروحُ المتقيِّحة والكَدَمات القرمزيَّة التي كانت دليلًا على مرضِها الخبيث الغامض. ولـمَّا أُعطِيَتِ الثوبَ الأبيضَ الواسع، تناولَتْه ولبِسَته بسُرعة، ساتِرةً نفسَها عن العُيونِ الفُضوليَّة المتَطفِّلة.

دخلت جوليا الحُجرةَ التي تحمي الينبوعَ المقدَّس، فرأت آخَرين ينتَظرون قبلَها. وأشاحَت بِناظِرَيها عنِ امرأةٍ مُصابةٍ بطفرةٍ جِلديَّة رهيبة، مُقاوِمةً مَوجةَ اشمِئزازٍ حيالَ بُثورِ الطَّفْحِ الجلديِّ البَشِعة في وجه المرأة. وراقبَتْ رجُلًا مُتورِّمَ المفاصل يدخلُ البِركة. وما إنْ بدأ الخَدَمُ يُنزِلونَه، حتَّى أخذَته نَوبةُ سُعالٍ حادّ، فاضطُرُّوا إلى الانتِظار ريثَما تنتهي النَّوبة.

أمَّا الشخصُ التالي الذي دخلَ البِركة فكان امرأةً سمينة ترتجفُ بشِدَّة. وقد أنشدَ الخَدَمُ تراتيلَ طقسيَّةً، ثُمَّ كرَّروا كلماتٍ سحريَّةً مُنَغَّمة، كُلَّما نزلَ كلُّ طالِبٍ لرِضى الإله الدَّرَجاتِ المؤدِّية إلى الماء. وكان هؤلاء يَدخُلون البِركةَ واحِدًا إثرَ واحِد، وكلٌّ منهم به مَرَضٌ أو عاهةٌ ما.

فلمَّا جاء دَورُ جوليا، لم تستَطعْ أن تُركِّزَ على الكلِمات التي كانت تُتلَى أو تُرنَّم؛ إذ كانَ كلُّ ما تمكَّنت من التفكير فيه هو المرأةَ ذاتَ الطَّفْحِ الجِلديِّ داخِلةً المياهَ المقدَّسَة قبلَها تمامًا. وكانت قد راقبَتْ لـمَّا أنزلَ الخَدَمُ المرأةَ حتَّى غُطِّسَتْ في البِركة المعتِمة. فالآن كانَ عليها أن

تدخُلَ المياهَ التي جَرَتْ على تِلكَ البُثور المقَزِّزة للنَّفس.

أمسكَتْ أيدي الخَدَم يدَيها بإحكام، مُساعِدَةً إيَّاها على نُزول الدَّرجات الزَّلقة. وقاومَتِ الذُّعرَ إذ أمالوها إلى الوراء فلطمَ الماءُ البارِدُ ظهرَها ثُمَّ تعالى حَواليها وفوقَها حتَّى غمرَ وجهَها. وهمَّت بأن تصرُخ، غيرَ أنَّها كظمَتْ ذُعرَها في داخلها، ضاغِطةً شفتَيها معًا وحابِسةً نفَسَها. ثُمَّ غاصَت أعمقَ فأعمقَ في مياه الينبوع المقدَّس المعَكَّرة، وأحرقَ الكِبريتُ عينَيها رُغمَ كَونِهما مُغمَضتَين.

وعندَما رُفِعَت مُجدَّدًا، احتاجَت إلى كامِلِ قوَّةِ إرادَتِها كيلا تنتفِضَ مُتحرِّرةً من الخَدَم وتتسلَّق مَذعورةً ومسعورةً الدَّرَجَ المقابِل، خارِجةً من البركة الملوَّثة. وابتسمَتْ لِلَّذين يُساعِدونَها ابتِسامةً زائفةً مُتردِّدة، غير أنَّ انتباهَها كان قد تركَّزَ فعلًا على الرَّجُلِ الذي وراءَها، وكانَ آنَئذٍ يدخلُ المياهَ المقدَّسة.

دخلَتِ الحُجرةَ الثانية مُرتجِفةً، حيثُ خلعَتِ الثوبَ

الأبيضَ المبلول وارتدَت تُنكًا أبيضَ واسعًا. واقتادَها خادِمٌ آخر في رِواقٍ طويلٍ مَكشوف إلى الأباتُون، وهو مَهجَعٌ مُجاوِر للأسكليپيون، حيثُ "ستُحضَنُ" ليلًا. وقُدَّامَه كانت هُوَّةُ الأفاعي. وقد صبَّ الكَهنةُ سكائبَهم على كُتلةِ الزَّواحِفِ الملتوِّية الهائجة، مُنشِدينَ ومُصَلِّين بأصواتٍ عالية إلى آلِهَة العالَم السُّفليِّ وأرواحه.

أخيرًا، دخلَت جوليا الأباتُون. ومع أنَّها كانت فاقِدةَ الشَّهيَّة، أكلَتْ وشرِبَت ما قُدِّم إليها من طَعامٍ وخمر. فرُبَّما كان فيهما عقاقيرُ من شأنها أن تستَجلِبَ الأحلامَ الشافية. ثُمَّ استَلقَتْ على أريكة النَّوم، وصلَّت من جديد. وقد علِمَت أنَّه إذا حلَمَتْ بكِلابٍ تلحسُ جِسمَها، أو حيَّاتٍ تزحفُ عليها، تكونُ تلكَ علامةً على أنَّها قد حَظِيَت برِضى أسكليپيوس وأنَّه سيَشفيها. ومن ثَمَّ صلَّتْ طالبةً أن تأتيَ الكِلابُ والحيَّاتُ إليها، مع أنَّ فِكرةَ كِلتا الفئتَين روَّعَتها.

ثُمَّ أحسَّتْ أجفانَها ثقيلةً، وجسَدَها مُثقَّلًا. وخُيِّلَ إليها أنَّ أحَدًا دخلَ الغُرفة، إلَّا أنَّها كانت أكثرَ تَعَبًا من أن تفتحَ عينَيها وتنظُر. وسمِعَت صوتَ رجُلٍ

يتكلّم برِقّة، مُستَنهِضًا آلهةَ العالَم السُّفليّ وأرواحَه كي تأتيَ إليها، وتشفِيَها من عذاباتها. وباتَ جِسمُها أثقلَ فأثقلَ إذ غَرِقَت في هُوَّةٍ مُظلِمة...

رأتْ تحتَها أفاعيَ، آلافَ الأفاعي من كُلِّ حَجم، تتلوَّى وتتضافَرُ معًا في كُتلةٍ مُرَوِّعة: حيَّاتٍ عاصِرةً، وأصلالًا مصريَّةً ضئيلة، وأفاعيَ صغيرةً غير مؤذية كانت قد رأتها في حديقة الدَّارَة بِرُوما، وأصلالَ كُوبرا سامَّة برؤوسِها المنصوبة. وكانت ألسِنَتُهُنَّ المشقوقةُ تُبرَزَ وتُخفَى بسُرعة، داخلًا فخارِجًا، وأقربَ فأقرب، حتَّى أخذَت تلدغُ جِسمَها، وكلُّ لدغةٍ كنارٍ مُحرِقة، إلى أنِ اضطرَمَ جَسَدُها من جرَّاء ذلك.

ثُمَّ كافحَتْ صارخةً واستَيقَظَت.

كان شخصٌ ما في ظِلالِ حُجرَتِها الصغيرة، مُتكلِّمًا إليها بصَوتٍ هادئ. فأجهَدَتْ نفسَها لتَعرِفَ مَن هو، ولكنَّ بصَرَها كان مُشَوَّشًا، وأفكارَها مُلَبَّدة.

‘‘مَرقَس؟’’

لم يُجِبها الشَّخص. فأغمضَت عينَيها، فاقِدةً حِسَّ الاتِّجاه. أين كانت؟ ثُمَّ تنفَّسَت عميقًا وبطيئًا حتَّى انجلى ذِهنُها قليلًا، فتذكَّرَت. إنَّها في الأباتَون، وقد جاءت تبتغي الشِّفاء.

وشرعَت تبكي. كان ينبغي أن تكونَ مَسرورةً. فقد زحفَت عليها الأفاعي في حُلمِها. وكانت تلك علامةً من لَدُنِ الآلِهة على أنَّها ستَصحّ. ولكنْ رُغمَ ذلك لم تستَطعْ أن تُسكِّن صَوتَ الشكِّ الذي تردَّدتْ أصداؤه في ذهنها. ماذا لو كان الحُلُم لا يعني شيئًا؟ ماذا لو كانَتِ الآلِهةُ تسخرُ بها؟ وآلَمَها صَدرُها إذ حاولَتِ الكفَّ عن النَّشيج.

وإذ أدارَتْ رأسَها، رأتِ الشخصَ الذي تكتنِفُه الظِّلال ما زال واقفًا في رُكنِ الحُجرَةِ المظلِم. هل وافاها أسكليبيوس؟ وهمسَت بصوتٍ مُتهدِّج- خائفةً لكنْ راجيةً- ‘‘مَن أنت؟’’

فشرعَ يتكلَّم بصوتٍ هامسٍ غريب، فأدركَت أنَّه

كان يُنشِد. ثمَّ صارَ الصوتُ مُمِلّا، والكلماتُ غيرَ مفهومةٍ لَدَيها قَطْعًا. وغلبَها النُّعاس مُجدَّدًا فكافحَتِ النَّوم، غيرَ راغبةٍ في أن تحلمَ بهُوَّة الأفاعي من جديد. غير أنَّها لم تستَطعْ أن تُقاومَ مَفاعيلَ العقاقيرِ التي أُعطيَت لها، فغاصَت في الظلام...

سمِعَت كِلابًا تنبح، فأنَّت. كانتِ الكِلاب مُقبِلةً أقربَ فأقربَ، وأسرعَ فأسرع. وهيَ كانت تركضُ وسطَ سَهلٍ صخريٍّ حارّ. ولـمَّا التفتَتْ إلى الوراء، رأتِ الكِلابَ مُقبِلةً في سِرب، مُتسارِعةً عبرَ الأرضِ نحوَها. ثُمَّ تعثَّرتْ فسقطت، ووقفَتْ بجَهدٍ على قدمَيها من جديد لاهِثةً، وشعرَتْ بحُرقةٍ في رئتَيها إذ حاولَتْ أن تركُضَ أسرع. وما لبِثَتِ الكلابُ أن أطبقَتْ عليها، نابِحةً بشِدَّة، مُكشِّرةً عن أنيابها.

"لِيُساعِدْني أحَد! ليُساعِدْني...!"

ثُمَّ تعثَّرَتْ مُجدَّدًا، وقبلَ أن تتمكَّن من النهوض، كانَتِ الكلابُ قد تجمَّعتْ عليها، لا لاحِسةً جَسَدَها المبتلَى بالمرض، بل ناهِشةً إيَّاه

بأنيابِها الحادَّة. فكافحَتها صارِخةً.

استَيقظَتْ مُطلِقةً صرخةً قويَّة، وجلسَتْ على السَّرير الضيِّق. وما هي إلَّا لحظةٌ حتَّى تباطأ تنفُّسُها وأدركتْ تمامًا أنَّها كانت تحلُم. فليس من شخصٍ تغمرُه الظِّلال يظهرُ في الرُّكن المظلِم. فغطَّت وجهَها وأخذَتْ تبكي، خائفةً أن يُغَطغِطَ عليها النَّومُ من جديد. ومن ثَمَّ لبِثَتْ مُنتظِرةً طَوالَ ساعاتِ اللّيل الباردة الطويلة، إلى أن بدأ الظلامُ ينقشع.

وافاها أحَدُ خَدَمِ الهيكل عندَ بُزوغِ الفجر، وسألها عمَّا حلَمَت به. فأخبرَته بما استَطاعَت أن تتذكَّره من التفاصيل، ولاحظَت أنَّ الاضطِرابَ قد بدا عليه.

‘‘أيُّ خَطبٍ في الأمر؟ أهذا نذيرُ شؤم؟ ألَن أتعافى؟’’ هكذا سألتْ مَبهورةَ الأنفاس، والدُّموعُ تكادُ تُوافيها من جديد. ثُمَّ ارتعشَتْ معدتُها، مُنذِرةً بنَوبةِ هِستيريا وشيكة. فأطبقَتْ يَدَيها بشِدَّة، وكافحتِ الأمر.

فطمأنَها الناظِرُ بهدوء، ووجهُه خالٍ من العاطفة مرَّةً أخرى: ‘‘لقد أرسلَ أسكليپيوس بَشيرَ خَير. أفاعٍ كثيرة، كِلابٌ كثيرة. هذا أمرٌ عاديّ. إنَّ صلواتِكِ قد نالَتْ حُظوةً عظيمة لدى إلهِنا الأعلى’’.

وشعرَت جوليا، على نحوٍ غامضٍ، بالانزِعاج من تفسيرِه. لقد رأتْ في عَينيه شيئًا ما- شيئًا رهيبًا ومُقلِقًا. وكانت على يقينٍ بأنَّه الآن كان يقولُ لها ما تاقَتْ إلى سَماعِه. ومع ذلك، فلم تتمالَكْ ألَّا تسأل: ‘‘إذًا، سأتَعافى مُجدَّدًا؟’’

فأومأ برأسه. ‘‘في الوقت المناسِب، سيَردُّ أسكليپيوس صحَّتَكِ’’.

وقالَت باكتئاب: ‘‘في الوقتِ المناسِب! بعدَ كم من الزَّمن؟’’

‘‘عليكِ أن تُبدي مزيدًا من الإيمان، يا امرأة’’.

عندئذٍ عَلِمَت. وحاولت أن تُبقيَ السُّخريةَ المُرَّة بعيدةً عن صَوتها إذ قالت: ‘‘كيف أُري

أسكليپيوس أنَّ عندي إيمانًا كافيًا حتَّى يشفيَني؟’’ وقد علمَتْ بما كان سيأتي. فإنَّها كثيرًا ما سمعَتْ ذلك بما فيه الكفاية من كهنةِ ستَّةِ آلهةٍ آخرين التمسَتْ رِضاهُم وأخفقَتْ في إحرازه.

رفعَ الناظِرُ رأسَه قليلًا، وقد ضاقَتْ عَيناه. ‘‘بِسَهَرِ الليالي، بالصَّلاة، بالتأمُّل، وبالقرابين النَّذريَّة. وعندَما تتعافَين، يجب أن تُبدي الشُّكرَ المناسِبَ بهدايا قيِّمة’’.

نظرَت بعيدًا عنه، وأغمَضَتْ عَينيها. لم تكُن لَدَيها أيَّةُ قوَّةٍ لسَهرات الليل الطويلة، وأيَّةُ رغبةٍ في الصلاة والتأمُّل. كما أنَّ الثَّروة التي عدَّتها في ما مضى كافيةً لإبقائها مُرَفَّهةً طوالَ العُمر قد تضاءلت إلى لاشيءٍ تقريبًا، بعدما شفطَها پريمُس. فإنَّه قد جرَّدها من مُعظَمِ ملكيَّتها ثُمَّ اختَفى من أفسُس. ولعلَّه، مثلَ كالاباه، ركبَ في سفينةٍ وأبحرَ مُبتعِدًا إلى روما، حيثُ يَجدُ حياةً أكثرَ إثارةً من مُراقبَتها وهي تموتُ ببطء من جرَّاء مَرَضٍ مجهول.

كانت قد علِمَت منذُ أيَّامٍ قليلة فقط أنَّه قد بقي لها نَزرٌ يسيرٌ من المال لا يكاد يكفي للعَيشِ براحةٍ بسيطة. وكان في وُسعها أن توفِّرَ القليلَ القليلَ لأجل القرابين النَّذريَّة من النَّوع الذي لـمَّحَ ناظِرُ الهيكل إليه: نُسَخ من ذهب للأعضاء الداخليَّة التي تؤلِمُها. وهي لم تكُن تشكو الألَمَ بقَدرِ ما شَكَتِ الضَّعفَ الآخِذَ في الانتِشار... الحُمَّى الثابتة، الغَثَيانَ والتَّعرُّق، نَوباتِ الارتعاش، القُروحَ المتقيِّحة في أعضائها المستورة. فهذه كلُّها استنزفَتها حتَّى الإنهاك.

"لماذا لا تقتُلين نفسَكِ لِتنتهيَ مُعاناتُكِ؟" هكذا كان پريمُس قد قال لها في ما أدركت لاحقًا أنَّه كان حديثَهُما الأخير قبلَ أن يهجُرَها. "خلِّصي نفسَكِ من البؤس!"

غيرَ أنَّها أرادَتْ أن تعيش! ولم تُرِد أن تموتَ وتكونَ في ظلامٍ طَوالَ الأبديَّة. لم تُرِدْ أن تموتَ وتُواجِهَ أيَّ رُعبٍ مجهولٍ ينتظِرُها.

لقد كانت خائفة.

قالت: ‘‘لَدَيَّ قليلٌ من المال’’، ناظِرةً من جديدٍ إلى الناظر الذي جلسَ صامتًا بانتظار أن تقولَ شيئًا. ‘‘لقد أخذَ زَوجي مُعظَمَ أملاكي وهَجرَني. فليس لديَّ ما يكفي لتَقديمِ قرابينَ نَذريَّةٍ مصنوعة من ذهب أو فضَّة، أو حتَّى من نُحاس’’.

فقال بِلا إحساس: ‘‘أمرٌ يَدعو للأسف والرِّثاء!’’ ثُمَّ قام، قائلًا: ‘‘ثِيابُكِ على الرَّفّ. رجاءً، اترُكي التُّنك هناك’’.

وصعقَها عدمُ اكتِراثه.

قعدَتْ على الأريكة، وحيدةً من جديد، وهي أكثرُ تَعبًا واكتئابًا من أن تشعُرَ بشيء. ثُمَّ نهضَتْ بعدَ وقتٍ طويل، فنزعَتِ الثَّوبَ الأبيضَ الذي كان قد أُعطيَ لها، ولبِسَتِ تُنكَها الخاصَّ الأزرق المصنوع من كَتَّانٍ أزرقَ ناعم. ولمسَتْ شحمَتَي أُذُنَيها ورقبتَها، حيثُ كانت آخِرُ حُلاها الذهبيَّة، وأنزلَت يدَيها إلى جنبَيها. ثُمَّ تناولَتْ شالَها الأزرقَ ذا الحاشيةِ الأنيقة الثمينة المطرَّزة بالزَّهر وثَنَتْه وألقَتْه على رأسها وكتِفَيها.

وإذ رفعَتْ ذقنَها قليلًا، مشَت خارِجةً إلى الرِّواق. فأوقفَها بِضعَةُ خَدَمٍ وسألوها كيف أمضَتْ لَيلتَها، وهل استَجابَتِ الآلِهةُ صلاتَها. فابتسمَتْ وكذبَتْ قائلةً إنَّها قد شُفِيَت من بَلواها.

فقالوا واحِدًا إثرَ واحد: ‘‘حَمدًا لأسكليپيوس!’’

ومَشَت بسُرعة عابِرةً الفِناء، ثُمَّ البُروپيلُن، وخرجَت إلى الشارع المكتَظِّ بالناس. وأرادَتْ أن تكونَ في بَيتها... لا في دارتها هنا في أفسُس، بل أرادَتْ أن تعودَ إلى الدارة في روما، طِفلةً من جديد. وأرادَتْ أن ترجعَ إلى الأوقات التي فيها كانت حياتُها كُلُّها مُمتدَّةً أمامَها، مُتألِّقةً وجميلةً كألوانِ الفَجر، بِكرًا وجديدة، ملآنةً بالإمكانات، حافلةً بالفُرَص.

أرادَت أن تبدأ من جديد. وإذا أُتيحَ لها ذلك، فكم ستَفعلُ الأمورَ على نحوٍ مختلف، وكم ستكونُ النتائجُ مختلفة!

كانت قد ظنَّت أنَّ أسكليپيوس سيُعطيها ذلك، كما ظنَّت أنَّ قرابينَها وسهراتها اللَّيليَّة وصلواتها

ستُكسِبُها ذلك. ثُمَّ إنَّه آرسلَ الحيَّات، وآرسلَ الكِلاب.

ومع ذلك علِمَت، في أعماقِ كِيانها، أنَّ ذلك كلَّه كان عَبَثًا بعَبَث. فغمرَها السُّخطُ اليائس البائس. ‘‘حَجَر! أنت لستَ إلَّا ذلك! لا يُمكِنُكَ أن تشفيَ أحَدًا! إنَّكَ لستَ شيئًا سوى حَجَرٍ باردٍ مَيْت!’’ ثُمَّ اصطدَمَت بشخص.

‘‘عليكِ لعنةٌ، يا امرأة! انتَبِهي إلى أينَ تذهبين!’’

فانفجرَت جوليا باكيةً، وركضَت.

١١

رَسَتِ السفينةُ **مينيرفا** في ميناء قَيصريَّة عندَ ابتداءِ دِفءِ الربيع. ومع أنَّ المدينةَ قد بناها مَلِكٌ يهوديّ، فقد وجدَها مَرقُس مِثلَ مدينة رومانيَّة، سواءٌ في المظهر أم في الـمُناخ، مثلَ المدينةِ الخالدة التي تربَّى فيها. وقبلَ ذلكَ بأربعة قُرون، استوطنَ في ذلك الموقع ذاتِه فينيقيُّون بَنَوا مَرسًى صغيرًا مُحصَّنًا سمَّوه قلعة استراتو، إكرامًا لأحَدِ مُلوكِهم. ثُمَّ وَسَّعَ المرسى وجعلَه عصريًّا هِيرودُسُ الكبير، وسمَّى مدينتَه الجديدة "قَيصريَّة" على شَرَفِ الإمبراطور أوُغسطُس قَيصر. وباتتْ قَيصريَّة واحدةً من أهمِّ الموانئ في الإمبراطوريَّة، ومقرَّ الوُلاةِ الذين يحكمون فلسطين.

كان هيرودس قد بنى المدينة وعَيناه على روما، مُستَعيرًا باقتِدارٍ من اليونانيِّين المغلوبين. وظهرَ التأثيرُ الإغريقيُّ بقوَّةٍ في المدرَّج والمضمار والحمَّامات وقنَوات الماء. وكان هنالك أيضًا الهيكلُ المنشَأُ تكريمًا لأُوغسطُس، فضلًا عن تماثيلِ

آلِهةٍ رومانيّين ويونانيِّين شتَّى ما تزال تُثيرُ سُخطَ أبرارِ اليهود كثيرًا.

وكان مَرقُس عالِمًا تمامًا بأنَّ النِّزاعات كثيرًا ما نشِبَت بين أهل المدينة اليهود واليونانيِّين. فآخِرُ ثَورةٍ دامية انطلقَتْ شرارتُها قبلَ عَشرِ سنين، وما كان من الإمبراطور فسبازيان وابنهِ تيطُس إلّا أنْ سَحَقاها قبلَ زحفِهما على مدينة القُدس، قَلبِ اليهوديَّة. وكان قد نُودِي بفَسبازيان إمبراطورًا هنا في قَيصريَّة، وما لبِثَ أنْ رفَّعَ المدينة حالًا إلى مُستعمرَة رومانيَّة.

وعلى الرُّغم من إحكام روما قبضتَها الحديديَّة على المدينة، أدركَ مَرقُس أنَّ عدمَ الاستقرار ظلَّ تيَّارًا تَحتيًّا، إذ مشى في الشوارع الضيِّقة. وقد حذَّرَ ساتَيرُسُ مَرقُسَ من دخولِ أجزاءٍ مُعيَّنة من المدينة، إنَّما إلى تلك الأجزاء بعَينها ذهبَ مَرقُس. فأُولئكَ كانوا شعبَ هَدسَّة، وهوَ أرادَ أن يعرِفَ ماذا جعلَهم بالِغي العِنادِ والتصميم في إيمانهم.

لم يُبَدِّدْ أيَّ وقتٍ على التفكير في العُنفِ الذي

قد يتعرَّضُ له على أيدي الغَيورين. فقد كان يسعى لأنْ يجدَ إلهَ هَدسَّة، وهو لن يَجِدَه في الحمَّامات وساحات المحاربين الرومانيَّة، ولا في منازل زُملائِه من التُّجَّار الرومان. فالمعلوماتُ التي كان يحتاجُ إليها اشتَملَت عليها عُقولُ هؤلاء الوطنيّين اليهود الذين لهم تمامًا نظيرُ العِنادِ الذي لَمسَه لدى هَدسَّة.

في غضونِ ثلاثة أيَّام من وُصول مَرقُس، اشتَرى حِصانًا صحراوِيًّا قويًّا، ومؤونةً لِرحلتهِ البرِّيَّة، ودليلًا يُبيّنُ الطُّرُقَ ومراكزَ التبديل **(استاتيونِس)** والبَلْدات **(سيفِتاتِس)** والمسافاتِ بينَهُنَّ. وبعدَ يَومٍ أمضاه في دراسة الخريطة، امتَطى الحصانَ مُبتعِدًا عن قَيصريَّة متوجِّهًا نحوَ الجنوب الشرقيِّ إلى سِبَسطية، في منطقة السَّامرة.

وصلَ مَرقُس إلى المدينة في أوائلِ عَصرِ اليوم التالي. وكان قد قِيلَ له مُسبَّقًا إنَّ تِلك المدينةَ اليهوديَّة القديمةَ نافسَت في الأُبَّهة مدينةَ القُدس قبلَ خرابها. وقد ظهرَتْ أمامَه قبلَ وُصوله إليها بوقتٍ طويل؛ لأنَّها كانت عاليةً على جَبَل. ومن أحاديثه مع ساتَيرُس عندَ الإبحارِ من

آفسُس على مَتنِ **مينيرفا**، علِمَ أنّ سِبَسطِية هي المدينةُ الوحيدةُ التي أسَّسها العبرانيُّون القُدامى. كانت تلك المدينةُ تُدعى السَّامرة، وقد بناها الملكُ عُمري قبلَ أكثرَ من تسع مئة سنة. وكانت عاصِمةً للمملكة العبرانيَّة الشماليَّة، فيما كانت مدينةُ القُدس عاصمةً لمملكة يَهوذا الجنوبيَّة.

وقد كان لِتلكَ المدينة تاريخٌ طويلٌ ودامٍ. فهُنا ذبحَ نبيٌّ يهوديٌّ اسمُه إيليَّا أربعَ مئةٍ من كهَنة الإله بعل. وفي ما بعدُ تعرَّضَت سُلالةُ الملك أخآب وزوجته الفينيقيَّة، إيزابَل، للإبادة على يَدِ رجُلٍ، اسمُه ياهو، ذبحَ عَبَدَة الإله بَعل ثُمَّ جعلَ هيكلَ ذلكَ الإله مكانًا لقَضاء الحاجة. غير أنَّ سفكَ الدِّماء لم ينتهِ هُناك.

فعلى مَرِّ القرُون، غزا السَّامرةَ الأشُّوريُّون والبابليُّون والفُرس والمقدونيُّون. وأخيرًا، عمدَ قائدٌ حسمونيٌّ اسمُه يوحنَّا هَيركانُس الأوَّل، إلى جَعْل المدينة جُزءًا من مملكةٍ يهوديَّةٍ من جديد. ولكنْ قبلَ أقلَّ من قرنَينِ لاحقًا، استَولى پومپيي على المدينة لمصلحةِ روما. ثُمَّ أهدى

القيصرُ أوغسطُسُ السَّامرةَ إلى هيرودس الكبير، ومن دُونِ إبطاءٍ أطلقَ هذا الملكُ اليهوديُّ عليها اسمًا جديدًا: "سِبَسطية"، وهذه لفظةٌ يُونانيَّة مُذكَّرُها "سِبَسطوس" يُقابِلُ "أُوغسطُس" بلُغَةِ الرُّومان.

لـمَّا دخلَ مَرقُس إلى المدينة، راكِبًا عبرَ الأبواب، رأى ثانيةً الطَّابَعَ البارِزَ الذي خلَّفه التأثيرُ الرومانيُّ واليونانيّ. وقد كان السُّكَّان مُختَلِطي الأجناس: رومان، يونان، عَرَب، يهود. ووجد مرقُس بقُربِ السُّوق فُندُقًا، أو ما كان يُسمَّى فُندُقًا. إذ كان في الواقع أكثرَ بقليلٍ من فِناءٍ مَحمِيٍّ ذي سقائفَ بمُحاذاة الجُدران الداخليَّة ونارٍ في الوسط. إلَّا أنَّه وفَّرَ مأوًى على كلِّ حال.

وبعدَما عرَّجَ على الحمَّامات واغتَسَل، رجَعَ إلى الفُندُق، حيثُ طرحَ بعضَ الأسئلة على المالِك، وهو يُونانيٌّ نحيلٌ حادُّ النَّظَر اسمُه مَلخُس.

"أنتَ تُبدِّدُ وقتَك في البحث عن إلهِ اليهود. حتَّى هُم أنفسُهم يتَنازَعون في ما بينهم حولَ أيُّ جَبَلٍ هو **الجبلُ المقدَّس**. فأُولئك الذين في

سِبَسطية يقولون إنّ جبلَ جِرِزِّيم هو المكانُ الذي إليه أخذَ إبراهيمُ ابنَه لكي يُضحِّيَ به''.

''ماذا تَعني بِقَولك «يُضحِّي به»؟''

''بدأ جنسُ اليهود برَجُلٍ اسمُه إبراهيم، طلبَ منه إلهُهم أن يُضحِّيَ بابنه الوحيد الذي رُزِقَه في شَيخوخته بعدما وعدَهُ به الإلهُ نفسُه''. هذا قالَه مَلخُس وهو يصبُّ خمرًا في كأسِ مَرقُس.

فضحِكَ مَرقُس ضِحكةً تفتقرُ إلى المرَح. ''هكذا إذًا قتلَ هذا الإلهُ خاصَّته منذ البداية!''

''إنَّهم لا يَنظُرون إلى الأمر بهذا المنظارِ. فالعِبرانيُّون يعتقدون أنَّ الله كان يَمتحِنُ إيمانَ أبيهم الأوَّل هذا. أيختارُ إبراهيمُ هذا أن يحبَّ الله أكثرَ من ابنه الوحيد؟ وقد نجحَ إبراهيم في الامتحان، فنجَّى الله ابنَه. ويُعدُّ هذا واحدًا من أهمِّ الأحداث في تاريخهم الدينيّ. فإنَّ إطاعةَ إبراهيم لإلهه هي ما جَعَلَ المتحدِّرين منه ''مُختارِي الله''. وقد تحسَبُ أنَّهم لا بُدَّ أن يَعرِفوا أينَ جرى ذلك الحَدَث، ولكنَّ الموقعَ صار مَوضعَ

خِلافٍ عندَ نُقطَةٍ ما على الخطّ. فهو إمَّا الـمُريَّا في الجنوب وإمَّا جِرِزِّيم الذي يُمكِنُ بلوغُه مَشيًا من هنا. ولم يُسَهِّلِ الأُمورَ أنَّ اليهودَ في مدينةِ القُدس ينظرون إلى أُولئك الذينَ هنا في السَّامرة باعتِبارهم جِنسًا مُفسَدًا''.

''مُفسَدًا بِمَ؟''

''بمُصاهَرةِ الأُمَم. فأنتَ وأنا أُمَميَّان، سيِّدي. وفي الواقع أنَّ أيَّ شخصٍ لم يُولَد مُتَحدِّرًا مُباشرةً من إبراهيمَ هذا يكونُ من الأُمَم. فهُم مُتشبِّثون بهذا الأمر بعِناد. حتَّى أُولئك الذين يعتَنقون دِينَهُم لا يُعَدُّون يهودًا أصيلين، ولو بعدَ أن يُختَنوا''.

فأجفلَ مَرقُس، إذ كان قد سمِعَ بما يجرُّه الختانُ من عواقِب. ''أيُّ رجُلٍ في كامِلِ قواه العقليَّة يُوافِقُ على هذه الممارسة الهَمَجيَّة؟''

فقال مَلخُس: ''أيُّ مَن أراد أن يخضعَ للشريعة اليهوديَّة. إنَّما المشكلة هي أنَّ اليهودَ لا يُمكِنهم حتَّى الاتِّفاقُ في ما بينَهُم. ثُمَّ إنَّهم يُضمِرون الضغائنَ وقتًا أطولَ ممَّا يُضمِرُ أيُّ رومانيّ. فاليهود

الذين في مِنطقتَيِ اليهوديَّة والجليل يُبغِضون الذين هنا في السَّامرة، وللأمرِ علاقةٌ بما حدث قبلَ قُرون. وقد كان هنا هيكلٌ في ما مضى، ولكنْ دمَّرَهُ يهوديٌّ حَسمونيٌّ اسمُه يوحنَّا هَيركانُس. فلم ينسَ السامريُّون ذلك أيضًا. إنَّ لهم ذاكِرةً طويلةَ المدى. فبينَ هؤلاء وأُولئك قَدْرٌ كبيرٌ من الضغينة في الصُّدور، والهوَّةُ بينَهم تتَّسع على مرِّ الزَّمَن".

"كنتُ أعتقدُ أنَّ عِبادةَ إلهٍ واحدٍ تُوحِّدُ شعبًا من الشُّعوب".

"هَه! إنَّ اليهود مُنشَقُّون إلى أحزاب وفِرَق من كلِّ نوع. فعِندَك الأسِّينيُّون، والغيورون، والفَرِّيسيُّون، والصدُّوقيُّون. وعِندَك السامِريُّون الذين يُعلِنون جِرِزِّيم بصفته الجبَلَ المقدَّس، وعِبرانيُّو بلاد اليهوديَّة الذين ما زالوا يُصَلُّون عندَ ما بقي من جُدرانِ هَيكلِهم. ثُمَّ إنَّ عِندَكَ طوائفَ جديدةً تبرزُ فجأةً كلَّ حين. مثلًا، هؤلاء المسيحيِّين. وقد دامُوا أكثرَ من مُعظَمِ الفِرَقِ الأُخرى، مع أنَّ اليهودَ قد طرَدوهم كُلَّهم تقريبًا إلى خارج فلسطين. فهُنا بَعدُ أقِلَّاءُ عَقَدوا العزم

على البقاء **وتخليص** الآخرين. وأقولُ لك إنَّه حيثُما وُجِدَ مسيحيُّون في فلسطين، يُمكِنُك أن تتيقَّنَ بأنَّ شغبًا سيَحصلُ وأنَّ أحَدًا سيُرجَمُ بالحِجارة''.

فسأل مَرقُس: ''أهُنا في سِبَسطية مسيحيُّون؟''

''أقِلَّاء. إنَّما ليسَ لي أدنى علاقةٍ بهم. فذلك غيرُ نافع للمَصلحة التِّجاريَّة''.

''أينَ يُمكِنُني أن أجِدَهُم؟''

''لا تقتربْ مِنهم أيَّ اقتراب. وإنْ فعلتَ ذلك، فلا تأتِ بأيٍّ منهم إلى فُندُقي. إنَّ اليهودَ يكرَهون المسيحيِّين أكثرَ ممَّا يكرهون الرومان''.

''كنتُ أحسبَ أنَّ بينَهما أرضيَّةً مُشتركة؛ حيثُ إنَّ لهما الإله نفسَه''.

''أنت تسألُ الرجُلَ غير المناسِب. فكُلُّ ما أعرِفُه تقريبًا أنَّ المسيحيِّين يؤمنون بأنَّ **المسيح** قد جاءَ حقًّا، واسمُه يسوع''. ثُمَّ ضَحِكَ ساخِرًا.

‘‘ويسوعُ هذا- الذي يُفترَض أنَّه مَن مَسحَه اللّٰه حسَبَ اعتقادِهم- طلعَ من مزبلةٍ صغيرة في الجليل اسمُها الناصرة. صدِّقني، إنَّ أيَّ شيءٍ صالح لا يطلعُ من الجليل. فمُعظَم أهلِها صيَّادو سَمَكٍ ورُعاةُ غَنَمٍ جَهَلةٌ، ولكنْ يقينًا لم يطلعْ منهم **مَسيحٌ** كالذي ينتظرُه اليهود. إذ يُفترَضُ أن يكونَ المسيحُ مَلِكًا مُحارِبًا ينزلُ من السَّماوات مع جيشٍ من الملائكة. إنَّما المسيحيُّون يَعبدون مَسيحًا كان نجَّارًا. أضِفْ إلى ذلك أنَّه قد صُلِبَ، مع أنَّهم يَزعمون أنَّه قام من بين الأموات. وحسبَما تقولُ هذه الطائفة، فإنَّ يسوعَ أكملَ الشريعة، وبذلكَ أبطلَها. فإنَّ في هذه الدَّعوى ما يكفي لإبقاءِ حربٍ مُستمِرَّةً إلى الأبد. وإنْ كان من شيءٍ واحِد بتٌّ أعرِفُه تمامًا في غضونِ عشرينَ سنةً عِشتُها في هذا البلد البائس، فهو هذا: أنَّ اليهوديَّ لا يكون يهوديًّا لَولا **الشريعة**. فهي الهواءُ الذي يتنفَّسونَه’’.

ثُمَّ هزَّ مَلخُس رأسَه، وأضاف: ‘‘وسأقولُ لك شيئًا بعدُ: إنَّ لَدَيهم قوانينَ أكثرَ ممَّا لدى روما، وهم يَزيدون عليها دائمًا. فلَدَيهم تَوراتُهمُ التي كتبَها موسى. ثُمَّ لَدَيهم قوانينُهم المدَنيَّةُ والخُلُقيَّة.

حتَّى إنّ لَدَيهم قوانينَ خاصَّةً بالغذاء والطعام، ولَدَيهم أيضًا تقاليدُهم. قَسَمًا، إنَّ لدى اليهود قوانينَ تخصُّ كلَّ شيء، حتَّى كيفَ وأينَ يَقضي الإنسانُ حاجتَه في الخَلاء!"

فتجهَّمَ مَرقُس. إنَّ شيئًا قالَتْه هَدسَّة مرَّةً عن الشريعة ومَضَ في ذهنه كلِسانِ نارٍ ضَئيل. فهي قد لخَّصَتْ كامِلَ الشريعة بكلماتٍ قليلة لكلاوديوس، زوجِ جوليا الأوَّل. وهو قد دوَّنَ تلك الكلمات في أحَدِ دُروجه، ثُمَّ قرأ كلماتِها له. تُرى، ماذا كانت تلك الكلمات؟

وتمتمَ مَرقُس لنفسه: "ينبغي أن أعرف".

فسأل مَلخُس: "أن تعرفَ ماذا؟"

"ما هو الحقُّ".

فعبَّس مَلخُس، غيرَ فاهِم.

وقال مَرقُس: "كيف أصِلُ إلى جَبَل جِرِزِّيم؟"

"ما عليك إلَّا أن تمشيَ خارجًا من الباب، فترى

جَبَلين: جبلَ عِيبال إلى الشمال، وجبلَ جرزِّيم إلى الجنوب. وبينهما الممرُّ المؤدِّي إلى وادي نابلُس. من هناك عبر إبراهيم آتيًا إلى «أرض الآباء»’’.

ناوَلَه مَرقُس قِطعةَ نَقدٍ ذهبيَّة.

وارتفعَ حاجِبا مَلخُس قليلًا إذ قلَبَها بينَ أصابعه. لا بُدَّ أنَّ هذا الرومانيَّ غنيٌّ. ‘‘سيأخذُك الطريقُ عبرَ مدينةِ سوخار، لكنّي أحذِّرُك تحذيرًا صادقًا. إنَّ الرُّومانَ مَكروهون في كلِّ مكانٍ من فلسطين، والرومانيُّ الذي يُسافِرُ وحيدًا يَطلبُ البَلاء، لا سيَّما الرومان أصحاب المال’’.

‘‘قيل لي إنَّ فَيلَقًا رُومانيًّا يحرس هذهِ الطُّرُق’’.

فضَحِك مَلخُس بِلا دُعابة. ‘‘ما من طريقٍ بمأمَنٍ من السِّيكاريي. وهُم سيُسارِعون إلى حَزِّ عُنُقِك قبلَ الإصغاء إلى أيِّ استِرحام’’.

‘‘سآخُذُ حِذري من الغيورين’’.

‘‘هؤلاء الرجالُ ليسوا مُجرَّد غيورين. فالغيورون

يُشبِهون أولئك الذين انتَحروا في مَسادا قبلَ بضع سنين، إذ فضَّلوا الموتَ على العُبوديَّة. وفي وُسعك أن تحترمَ رجالًا كأولئك. أمَّا السِّيكاريي فشيءٌ آخَر مختلفٌ تمامًا. إنَّهم يَحسبون أنفُسَهُم وطنيّين مُتحمِّسين، ولكنَّهم ليسوا أكثر من قُطَّاعِ طُرُقٍ قَتَلة". ثُمَّ دسَّ قطعةَ النَّقد داخِلَ طيَّة حِزامِه الوَسِخ، وأضافَ: "لقدِ انتقَيتَ بَلَدًا فاسدًا تُسافرُ فيه، سيِّدي. فليس هنا من شيءٍ يجعلُه ممدوحًا أمامَ رومانيٍّ".

"لقد جئتُ لأعرِفَ الحقيقةَ عن إلهِهم".

أطلقَ مَلخُس ضِحكةَ مُفاجأةٍ، وقال: "لماذا يودُّ أيُّ شخصٍ أن تكونَ له أيَّةُ علاقةٍ بإلهِهم؟ فلَيس في وُسعك أن تَراه. وليس في وُسعك أن تسمعَه. وإليك أيضًا ما قد جرى لليهود. إذا سألتَني، فعليكَ أن تبقى بعيدًا عن إلههم".

فقالَ مَرقُس- طالبًا منه الانصرافَ بجلاء- "لم أسألْك!"

فتَمتَمَ مَلخُس همسًا: "إنَّها حياتُك". ثُمَّ مَضى

للاعتناء بشؤون نُزَلائه الآخرين.

ثُمَّ وضعَتْ زوجةُ مَلخُس أمامَ مَرقُس زُبدِيَّةَ يخنة. وإذ كانَ جائعًا، أكلَ ووجدَ أنَّ خليطَ العَدَس والفاصوليا والحنطة بالعَسَل والزَّيت مُشبعٌ. ولـمَّا فرغ، نهضَ فوَجدَ سقيفتَه بمُحاذاة جِدارِ الفِناء المكشوف. وكان حِصانُه قد أُعطِيَ تِبنًا وشعيرًا. فدفعَ الحيوانَ جانبًا، وبسطَ فِراشَه، واستَلقى لِيَنامَ ليلتَه.

كُلَّما تحرَّك أحَدٌ أو نهض، استَيقَظَ مَرقُس. فإنَّ مُسافِرَينِ من أريحا شَربا الخمر، وتَضاحَكا على النِّكات، وتحدَّثا حتَّى ساعةٍ مُتأخِّرة من اللَّيل. أمَّا الآخرون، مِثلَ عسكريٍّ مُتقاعِد وزَوجته الشابَّة وولدهما، فقد ناموا باكرًا.

أفاقَ مَرقُس عندَ الفجر، وانطلقَ إلى جَبَلِ جِرِزِّيم. ومرَّ راكبًا عبرَ بلدة سوخار في أواخِر عصر النهار. وإذ كان يَتوقُ إلى بلوغِ مَقصِده، لم يتوقَّفْ، بل تابعَ صعودَ الجَبَل. ثُمَّ توقَّفَ عندَ مَزارٍ يهوديٍّ، ولكنَّ أهل المكان تجنَّبوه لـمَّا سَمِعوا لهجتَه ولاحَظوا لِباسَه. فرَكِبَ مسافةً قصيرة، ثُمَّ قَيَّدَ

قوائمَ حِصانِه، ومَضى ماشـيًا لبُلوغِ القِمَّة.

وما وجدَه هُناكَ كان منظرًا خلّابًا لِلأرياف الجَبَليَّة من أرضِ الآباء البهيَّة.

إنَّما لم يكُن هناكَ أيُّ أثَرٍ لإلهٍ ما، من الآثار التي يُمكِنُه أن يَراها عِيانًا. فصرخَ مُثبَّطَ الهِمَّة إزاءَ الفراغِ حَوالَيه: ‘‘أينَ أنت؟ لماذا تختبئ عنِّي؟’’

أمضى الليلَ مُحَدِّقًا إلى النُّجومِ فَوقَه، ومُصغِيًا إلى ذئبٍ يَعوي في مكانٍ ما من الوادي تحتَه. كانت هَدسَّة قد قالت إنَّ إلهَها تكلَّمَ إليها في الرِّيح، فأجهَدَ نفسَه عسى أن يسمَعَ ما يمكن أن تقولُه الرِّيحُ له.

إلّا أنَّه لم يسمعْ أيَّ شـيء.

ثُمَّ أمضى اليومَ التاليَ بطُوله مُنتظِرًا ومُصغيًا.

وما سَمعَ أيَّ شـيءٍ بَعدُ.

ثُمَّ باشرَ هُبوطَ الجَبَل في اليوم الثالث، جائعًا وعطشانًا.

كان هناك راعٍ فتًى يَقِفُ بقُربِ حصانه، يُطعِمُ الحيوانَ أغصاناً غضَّةً خضراءَ من راحةِ يدِه. وقدِ انتشرَت في أنحاء مُنحدَرِ الجَبَل أغنامٌ تَرعى.

نزلَ مَرقُس المنحدَرَ بخُطًى واسعة. وإذ رَمَقَ الفتى بنِظرةٍ فاتِرة، حَلَّ أنشوطةَ قِربةِ الماء المصنوعةِ من جِلدِ الماعز عَنِ السَّرْج وشَرِبَ لإرواء عَطَشِه. ولم ينكفئِ الفتى بل راقبَه باهتِمام، وقالَ شيئًا ما.

فقالَ مَرقُس باقتِضاب: ‘‘لا أفهمُ الآراميَّة’’، وقد ساءَه عَدَمُ انطلاقِ الفتى للاهتمام بأغنامه.

وكلَّمه الراعي الفتى باليونانيَّة هذه المرَّة. ‘‘مِن سَعدِكَ أنَّ حِصانَك ما زال هُنا. فهُنا كثيرون من شأنهم أن يسرقوه’’.

فالتَوى فَمُ مَرقُس بابتسامةٍ ساخرة. ‘‘حَسِبتُ أنَّ لدى اليهود وصيَّةً تَنهى عن السَّرِقة’’.

وكشَّرَ الفتى باستِهزاء. ‘‘ليسَ من الرُّومان!’’

‘‘إذًا، يسرُّني أنَّه ما زالَ هنا’’.

ومسَّدَ الفتى أنفَ الحصان المخمَليَّ. ‘‘إنَّه جَوادٌ جيِّد’’.

‘‘سيُوصِلُني إلى حيثُ أنا ذاهب؟’’

‘‘وإلى أينَ أنت ذاهب؟’’

‘‘إلى جَبَلِ الـمُرِيَّا’’. وبعدَ تردُّدٍ وجيز، أضاف: ‘‘كي أجدَ اللّٰه’’.

فرفعَ الفتى نظرَه إلى مَرقُس مَدهوشًا، ثُمَّ تأمَّله بفُضول. ‘‘يقول أبي إنَّ لَدَى الرُّومان آلِهَةً كثيرين. فَبِوجودِهم جميعًا يمكنُك أن تَختارَ من بينهم، لماذا تبحَثُ عن آخَر؟’’

‘‘لكي أطرحَ عليه أسئلة’’.

‘‘أسئلةً من أيِّ نَوع؟’’

أشاحَ مَرقُس بناظِرَيه. سيَسألُ الله وَجهًا لوَجه لماذا سمح بأن تموتَ هَدسَّة. سيَسألُه لماذا خلقَ عالَمًا حافِلًا بالظُّلمِ والعُنف، إنْ كان هو الخالقَ القادرَ على كلِّ شيء. وأكثرَ الكُلِّ، أرادَ أن

يعرفَ هل اللّه مَوجودٌ أصلًا. وقبلَ أن يلتفِتَ إلى الفتى مُجدَّدًا، قال بِتَثاقُل: ‘‘إذا وجدتُه يَومًا، فسأسألُه عن أمورٍ كثيرة’’. فتأمَّلَه الراعي الصَّغيرُ بعَينَين داكِنتَين حالِمتَين، ثُمَّ قالَ ببساطة:

‘‘لن تجدَ الله على جَبَلِ الـمُرِيَّا’’.

‘‘لقد بحثتُ عنه فعلًا على جَبَل جِرِزّيم’’.

‘‘ليس هو على قمَّة جَبَل، مِثلَ جوپيتر عندَكُم’’.

‘‘إذًا، أين أجِدُه؟’’

فهزَّ الفتى كتِفَيه. ‘‘لستُ أدري هل تستطيعُ أن تَجِدَه بالطريقة التي تُريدها’’.

‘‘أتقولُ لي إنَّ هذا الإله لا يُظهِرُ ذاتَه للإنسانِ أبدًا؟ ماذا بشأنِ مُوسَى عندكم؟ ألَم يظهَرْ له إلهُكم؟’’

أجابَ الفتى: ‘‘إنَّه يظهَرُ للنَّاس أحيانًا’’.

‘‘كيفَ هيَ هيئتُه؟’’

‘‘إنَّه لا يبدو دائمًا بهيئةٍ واحدة. فقد وافى إبراهيم كمُسافِرٍ عاديّ. ولـمَّا خرجَ العِبرانيُّون من مصر، تقدَّمَهمُ اللّٰه بهيئة عَمودِ سَحابٍ في النَّهار وعمودِ نارٍ في اللَّيل. وقد شاهَدَ أحَدُ أنبيائنا اللّٰه وكتبَ أنَّه كانَ مِثلَ عَجَلةٍ داخِلَ عَجَلة، ولَه رؤوسُ حيوانات، وقد توهَّجَ مثل نار’’.

‘‘إنَّه إذًا يُغيِّرُ شكلَه، مِثلَ زَفْس’’.

فهزَّ الفتى رأسه نافِيًا. ‘‘إنَّ إلهنا ليسَ مِثلَ آلهةِ الرُّومان’’.

وأطلقَ مَرقُس ضِحكةَ سُخرِية. ‘‘ألَا تحسبُ ذلك؟ إنَّه أكثرُ شَبَهًا بهم ممَّا تعلَمُه’’. ثُمَّ تفاقمَ كَربُه، مُستَوليًا عليه استيلاءً هائلًا. إنَّ إلهًا يحبُّ الناسَ كان من شأنه أن يمدَّ يدَه من السَّماوات ليُنقذَ هَدسَّة. ولكنَّ إلهًا قاسيًا فقط كان مُمكِنًا أن يُراقبَها وهي تموت.

أيُّ هذَينِ الإلَهين أنت؟

نظرَ إليه الفتى باحترام، لكنْ دونَ خَوف. ‘‘أنت غاضِب’’.

فقال مَرقُس بصَراحة: ‘‘نعم، أنا غاضِب. وأنا أيضًا أُبدِّد الوقت’’.

وتراجَعَ الفتى إذ وثبَ الحصانُ على قائمتَيه الخلفيَّتَين مَرَحًا. ‘‘ماذا تُريدُ من الله، أيُّها الرومانيُّ؟’’

كان هذا سؤالًا مَهيبًا من فتًى غضٍّ جدًّا، وقد طُرِحَ بمزيجٍ غريبٍ من الاتِّضاع والطَّلَب. ‘‘سأعرفُ عندَما أُواجِهُه’’.

‘‘ربَّما كانَتِ الأجوِبة التي تَنشدُها لا يمكنُ أن تُوجَدَ في شيءٍ تستطيعُ أن تراه وتلمسَه’’.

ابتسمَ مَرقُس مُتسَلِّيًا. ‘‘لَدَيكَ أفكارٌ كبيرةٌ جدًّا بالنِّسبة إلى فتًى صغير’’.

فكشَّرَ الفتى: ‘‘لَدَى راعي الغنم وقتٌ كافٍ للتَّفكير’’.

‘‘إذًا، يا فيلسوفي الصغير، بِمَ تنصحُني؟’’

وتلاشَتِ ابتِسامةُ الفتى. ‘‘عندما تُواجِهُ اللّٰه، تذكَّرْ أنَّه اللّٰه’’.

فقال مَرقُس ببرودة: ‘‘سأتذكَّرُ ما قد فعلَه’’.

وقال الفتى بلهجةٍ يغلبُ عليها اللُّطف: ‘‘وذلك أيضًا’’.

عبسَ مَرقُس قليلًا، مُتأمِّلًا الفتى بمزيدٍ من التركيز. والتَوى فمُه بابتسامةٍ ساخِرة. ‘‘أنتَ أوَّلُ يهوديٍّ تكلَّم إليَّ نِدًّا لِنِدٍّ. أمرٌ يدعو للرثاء!’’ ثُمَّ عطفَ الحصانَ وباشرَ النزول عن الجَبَل وسمعَ خشخشةَ أجراسٍ صغيرة، فالتفتَ إلى الوراء. وإذا بالفتى يَمشي عابرًا المنحدَرَ المكسوَّ بالعُشب، قارعًا الأرضَ بعَصاه ذاتِ الجَلاجِل. فاستَجابَتِ الخِرافُ بسُرعة، وتجمَّعت مُتقارِبةً، ثُمَّ تَبعَته إذ توجَّهَ نحوَ المنحدَرِ الغربيّ.

أحسَّ مَرقُس شيئًا غريبًا يتحرَّكُ في داخِله لـمَّا شاهدَ الفتى مع أغنامه. جُوعًا مُوجِعًا. عَطَشًا.

وفجأةً لمسَ حُضورًا غيرَ مَنظور... فكرةً غامِضةً لشيءٍ ما، مثلَ رائحةٍ طيِّبة مُعذِّبة لطعامٍ تكادُ تنالُه يدُه.

فكبحَ لِجامَ حصانِه، وتوقَّفَ، ثُمَّ حملقَ وراءَ الرَّاعي الصغير لِلَحظة، وقد أخذَته الحَيرةُ والذُّهول. تُرى، أيُّ شيءٍ فيه كان مُختلِفًا؟ ثُمَّ هزَّ رأسَه وأطلقَ ضِحكةَ استِخفافٍ بالذَّات، وحفزَ حِصانَه على الـمُضِيّ. لقد أمضى على الجَبَل وقتًا جاوزَ الحدَّ بلا أكلٍ ولا شُرب. وقد صارَ شخصًا كثير الأوهام.

ثُمَّ تابعَ السَّيرَ بسُرعةٍ حثيثة نزولًا عن الجَبَل، وتوجَّه جنوبًا إلى مدينة القدس.

١٢

استيقظَت هَدسَّة إذ سمِعَت استِغاثةً وقَرعًا على قاطعِ السَّقيفة الخارجيّ. ''سيِّدي الطبيب! سيِّدي! رجاءً! نحنُ بحاجةٍ إليكَ!'' فجلسَت في فِراشِها، مُغالِبةً النَّوم.

فتحرَّكَ راشِد بسُرعةٍ ليَعترِضَ سبيلَها، قائلًا: ''كلَّا! الوقتُ مُتأخِّر، ويجب أن تستريحي. ثُمَّ اجتازَ من حولِها ليَدفعَ القاطِعَ جانبًا، عاقدًا عَزمَه على إسكاتِ المتطفِّل وطَردِه. ''ماذا تُريدين، يا امرأة؟ الطبيبُ ومُعاوِنَتُه نائمان''.

''لقد أرسلَني سيِّدي. رجاءً. فلأُكلِّمِ الطبيب. لقد جاءَتْ ساعةُ ولادة سيِّدتي، وقد عَلِمنا أنَّ طبيبَها غادرَ أفسُس مطرودًا. إنَّ سيِّدتي في مَخاضٍ عسير''.

''اغربي من هنا. هُناكَ أطِبَّاءُ آخرون عندَ الحمَّامات. هذه السَّقيفة مُقفَلة''.

''ستَموتُ إنْ لم يُساعِدْها أحَد. يجب أن تُوقِظَه.

لا بُدَّ أن يأتي. أتوسَّلُ إليك. رجاءً إنَّها تُعاني آلامًا رهيبة، والطِّفلُ يأبى المجيء. إنَّ سيِّدي غنيّ. وهو سيَدفعُ ما تَطلُبون".

أسدلَت هَدسَّة خِمارَها على وجهِها، قائلةً: "راشِد، قُل لها إنَّنا سنذهب".

فقال مُحتجًّا: "سيِّدتي، لقدِ استلقَيتِ توًّا كي تَستَريحي". إذ ذاك كان ألِكسَندر قدِ استيقظ، فقال لراشِد: "اِفعل كما تقول هَدسَّة!" وقد بدأ يتفحَّصُ آلاتِه، مُضيفًا بعضًا إلى حقيبته الجِلديَّة المحمولة. "أحضِري اللُّفَّاح، هَدسَّة. إذا كان الأمرُ سيِّئًا كما يبدو، فقد نحتاجُ إليه".

"نعم، سيِّدي". وأضافَتْ بضعةَ عقاقيرَ أُخرى إلى الصُّندوق، فضلًا عن اللُّفَّاح. وباتَتْ مستَعدَّةً قبلَ الطبيب، فأخذَتْ عُكَّازها وعرجَت إلى القاطع. وسدَّ راشِد أمامَها الطريق، فوضعَت يدَها على ذراعه. "فلأُكلِّمْها".

فقال: "ألستِ تحتاجين إلى الرَّاحة كأيِّ إنسانٍ سِواك؟" ثُمَّ حدَّق إلى الفتاة العَبدة في الخارج،

وأضاف: ‘‘فلتَذهَبْ إلى مكانٍ آخر!’’

‘‘لقد جاءَتْ إلينا. فالآنَ تنحَّى جانبًا’’.

فزَمَّ راشِد فمَه، وردَّ القاطعَ بنَترةٍ واحدة. فخرجَت هَدسَّة. وتراجعَتِ الفتاةُ العَبدةُ أمامَها، فبدا وجهُها شاحبًا تحتَ ضَوء القمر. وفهِمَت هَدسَّة ذُعرَها، إذ كانت قد رأتْ ذلك مرارًا كافية. ذلك أنَّ الحجابَ كانَ يُوتِّر أعصابَ كثيرين. وحاولَتْ أن تُهدِّئ تَوتُّرَ العَبدة الشابَّة، فقالت بلُطف: ‘‘الطبيبُ آتٍ. إنَّه وافرُ الاطِّلاع، وسيَبذلُ كلَّ ما في وُسعه لأجلِ سيِّدتكِ. إنَّه يحزمُ ما يحتاجُ إليه’’.

قالت الفتاة، مُنحَنيةً بِضعَ مرَّات: ‘‘أُوه، شُكرًا لكُم، شُكرًا لكم!’’ ثُمَّ انفجرَت باكيةً، وأضافَت: ‘‘بدأ مَخاضُ سيِّدتي عصرَ أمس ثُمَّ صارَت آلامُها أشدَّ فأشدّ’’.

‘‘قولي لي ما اسمُكِ’’.

‘‘ليقيلا، سيِّدتي’’.

‘‘واسمُ سيِّدتِكِ؟’’

‘‘أنطونيا استيفانيا ماغونيانُس، زَوجة هَبِناس أتالُس’’.

عندئذٍ، كان ألِكسَندر قد خرج. ‘‘ماغونَيانُس؟ بالتَّأكيد، ليس هو ماغونيانُس صائغَ الفضَّة؟’’

أجابت ليڤيلا: ‘‘بل هو نفسُه، سيِّدي’’. وقد بدا واضحًا أنَّها مُتضايِقةٌ من أدنى تأخير. ‘‘يجب أن نُسرعَ. رجاءً، يجب أن نُسرع!’’

فقال ألِكسَندر: ‘‘تقدَّمينا في الطريق’’. وانطلقَت ليڤيلا مُسرِعةً.

نترَ راشِد القاطعَ بيَدٍ واحدة، فأغلقَه، وتَبِعَهُم. ثُمَّ قال، ماشيًا بجانب هَدسَّة: ‘‘لا يُمكِنُكِ أن تُجاري’’.

علِمَت هَدسَّة أنَّه على حقّ، لأنَّ الألمَ كان قد بدأ يَخِزُ فعلًا ساقَها المضروبة. وتعثَّرت مرَّةً فلهثَت. فحدَّق راشِد إلَيها مشدوهًا، وقد بدا التَّجهُّم في سِيمائه إذ مدَّ يدَه ليُمسِكَ بذراعها.

‘‘أرأيتِ؟’’

التَفَتَ ألِكسَندر إلى الوراء، ورأى مُعاناتَها. فتوقَّفَ وانتظرَها ريثَما تُدرِكُه.

فقالت لاهثةً: ‘‘لا! اذهبْ من دوني. سآتي بأسرع ما يُمكِنُني’’.

وقال راشِد مُنزعِجًا: ‘‘ما كان ينبغي أن تأتيَ قطُّ!’’

نفضَتْ هَدسَّة يدَه عن ذراعِها، وعرِجَت وراء ليقيلا، وقد كانت هذه واقِفةً عندَ مُنعطَفٍ مُناديةً إيَّاهم ليُعَجِّلوا. فسارَ ألِكسَندر بجانبها مُبطِئًا كي يُجارِيَها. ‘‘راشِد على حقّ. المكانُ أبعَدُ وأصعَبُ من أن تتحمَّلي مَشقَّتَه. ارجعي. سأطلُبُ من ماغونيانُس أن يبعثَ إليكِ بمِحَفَّة’’.

لم تَكَد هَدسَّة تسمعُه، إذ صرَّت بأسنانِها حِيالَ الألَم. وكان انتِباهُها كُلُّه مُركَّزًا على العبدة الشابَّة حاثَّةً إيَّاهم على الإسراع.

أطلقَ راشِد شتيمةً بلُغَته، وحملَ هَدسَّة على

ذراعَيه. ثُمَّ صَعِدَ التلَّ بخُطَى واسعة، وهو ما زالَ يُتمتِمُ بصَوتٍ مَهموس.

قالَت هَدسَّة، مُطوِّقةً عُنُقَه بذراعِها: ‘‘شُكرًا لك، يا راشِد. إنَّ اللّه أرسلَها إلَينا لسَبَبٍ ما’’.

تَبعوا ليڤيلا في مَتاهَةِ شوارِع المدينة المظلِمة، حتَّى وَصَلوا إلى دُكَّانٍ كبيرٍ مُواجِهٍ للأرطميسيون. ومن نَظرةٍ واحدة، علِمَت هَدسَّة مَن كانوا آتينَ لرؤيته: ماغونيانُس، صائغُ الفضَّة، صانعُ الأصنام.

حملَها راشِد عبرَ الدُّكَّان إلى المسكِنِ وراءه.

وقالت ليڤيلا: ‘‘من هنا’’، لاهِثةً من الإجهاد وراكِضةً نحوَ دَرَجٍ رُخاميّ. وفي مكانٍ ما فوقَهم، كانَتِ امرأةٌ تصرُخ. ‘‘**عجِّلوا**! آه، رجاءً، عجِّلوا!’’

لَحِقَ بها راشِد إلى داخلِ غُرفة في الطَّبقة الثانية، ثُمَّ وقفَ ينظرُ حَوالَيه، وهَدسَّة ما تزالُ على ذِراعَيه. وكان ألِكسَندر وراءه تمامًا، فتوقَّفَ بمُجرَّدِ دُخوله الباب، مُبديًا ردَّةَ الفعلِ عَينَها. فقد

كان المحيطَ الباذخُ مُذهِلًا. إذ كانت الغُرفة مُتألِّقةً بالألوان الزاهية. وقد تلألأ الزجاجُ المرهينيُّ، وغطَّتِ الأغشِيَةُ البابليَّة الجدارَ الشرقيّ. ونمَّت جِداريَّتانِ عن ثراءٍ بعيدٍ جدًّا عن السقيفة الصغيرة في الشارع خارجَ الحمَّاماتِ العموميَّة. وقد غطَّت إحداهما الجدارَ الغربيّ، وظهرَ فيها جِنِّيُّونَ صِغار يرقصون في غابة، فيما كان عاشقانِ مُتضافِرَين في سريرٍ من الزُّهور. أمَّا الأُخرى، على الجِدار الجنوبيّ، فقد ظهرَ فيها مَشهدُ صَيد.

غير أنَّ هَدسَّة لم ترَ شيئًا سوى الشابَّةِ المتلوِّية على السَّرير. "أنزِلني، يا راشِد".

فأطاعَ راشد، مُحدِّقًا في ذهولٍ إلى البيِّناتِ الجليَّة على ازدِهارِ ماغونيانُس المادِّيّ.

وعرجَت هَدسَّة إلى السَّرير، قائلةً: "أنطونيا، نحنُ هنا لنُساعِدَكِ". ثُمَّ وضعَت يَدَها على جبين الشابَّة المبلَّل. لم تكُن أكبرَ سنًّا من جوليا لـمَّا تزوَّجَتْ أوَّلَ مرَّة. وكان في الجانب الآخر من السَّرير رجُلٌ شائبُ الشَّعر يُشبِهَ كلاوديوس كثيرًا، مُمسِكًا يَدَها الصغيرةَ البيضاء بينَ يدَيه

كِلتَيهِما. وكانَ وجهُه المتعَبُ شاحبًا ومُنقّطًا بالعَرَق. وما لبِثَت أنطونيا أن صرخَت ثانيةً إذ وافَتها انقِباضةٌ أُخرى، فانطبعَتْ على وجه الرَّجُل الـمُتعَب سِيماءُ كَرْبٍ بارِزة. ‘‘افعلي لها شيئًا، يا امرأة. افعلي شيئًا!’’

‘‘عليكَ أن تكونَ هادئًا لأجلِها، سيِّدي’’.

صرخَت أنطونيا: ‘‘هَبِناس!’’ وقدِ اتَّسعَت عَيناها الزَّرقاوان من الخوف إذ رفعَتْ نظرَها إلى هَدسَّة. ‘‘مَن هي؟ ولماذا هي مُحَجَّبة؟’’

فقالت هدسَّة بلُطف: ‘‘لا تخافي، سيِّدتي’’، مُبتسِمةً لأنطونيا، مع علمِها بأنَّ الأخيرةَ لا تستطيعُ أن ترى وجهَها. وكان الأفضلَ أنَّ الشابَّة لا تستطيعُ ذلك، لأنَّ النُّدوب الرَّهيبة لا بدَّ أن تُروِّعَها بَعدُ أيضًا. ‘‘لقد جئتُ مع الطبيب لأُساعِدَ في وضعِكِ طِفلَكِ’’.

وأخذَت أنطونيا تلهثُ من جديد، ثُمَّ تئنُّ. ‘‘آه... أُوه... أواه، حِيرا، ارحَميني!’’

إذ ربَّتت هَدسَّة جبينَ الشابَّة بلَطف، رأتْ تعويذةً حولَ عُنقِها. وكانت قد رأت تعاويذَ كثيرةً كهذه على مدى الأشهُر الماضية. كان بعضُها مَصنوعًا من الحَجَر أو من إنفحة الأرنَبِ البرّيّ، ومقصودًا به أن يُسهِّلَ إنجابَ الأولاد. وكانت تعاويذُ أُخرى، على غِرار هذه التَّعويذة، تُتَّخذُ لتحفيز الإخصاب. فأمسكت هَدسَّة حَجَرَ الدَّمِ البيضويَّ المصقولَ بيَدِها، ورأت على أحَدِ وجهَيه نَقْشَ حيَّةٍ تَلتهِم ذنَبَها. وعلمَت دون أن تقلبَ الحَجَر أنَّه سيكون على الوجه الآخر نَقْشٌ للإلاهةِ إيزيس وخُنفَساء سوداء. وكان منقوشًا أيضًا بأدقِّ تفصيلٍ كلماتٌ سحريَّةٌ باليونانيَّة وأسماءُ أرويوث وإياو ويَهوَه. وقد اعتقدَ حامِلو التعاويذ أنَّ مزجَ الرُّسوم والكلمات اليونانيَّة والمصريَّة والسَّامِيَّة يؤتيهم قوًى سحريَّة. فحلَّت هَدسَّة التعويذة ووضعَتها جانبًا.

قالَت الشابَّةُ مُقلِّبةً رأسَها ذهابًا وإيابًا. ‘‘سأموت... سأموت!’’

فقال هَبِناس مَكروبًا: ‘‘لا، لا، لن تموتي. لن أدَعَكِ تموتين. فالآنَ يُقدِّمُ الكَهَنةُ أضاحِيَّ باسمِكِ لأرطميس وحِيرا’’.

وانحنَت هَدسَّة مُقتَربةً إليها أكثر: ‘‘أهذا طِفلَكِ الأوَّل، يا أنطونيا؟’’

‘‘لا’’.

وقال هَبِناس: ‘‘لقد فقدَتْ طِفلَين آخرَين’’.

‘‘والآنَ هذا الطِّفلُ لن يُولَد’’. ثُمَّ شرعَتْ تَلهَث، وإحدى يدَيها تمسُّ برِقَّةٍ البطَّانيَّة المبلَّلة فيما شُحِبَتِ الأخرى على يَدِ زَوجها. ‘‘إنَّه يَندفعُ ويَندفع، ولكنَّه لن يخرُج. آهِ، هَبِناس، الأمرُ مؤلمٌ جدًّا! أوقِفوه. أوقِفوه!’’ وفي أثناء صُراخِها، كان جِسمُها يتَلوَّى من الكَرْبِ الشديد.

فأمسكَ هَبِناس يدَها بكِلتا يَدَيه، وبكى.

وبينَما ألِكسَندر ما يزالُ مَذهولًا حِيال الثَّراء المحيط به، عَبَرَ الغُرفة وأزالَ زُجاجاتِ العِطرِ والمراهِم عن طاوِلةٍ عاجيَّة. وتطلَّعَ حواليه ثانيةً إلى السريرِ الكُورِنثيِّ البُرونزيِّ بستائره الحريريَّة الصِّينيَّة، وإلى النَّمط المعقَّد لمختلِف ألوانِ الرُّخام على الأرضيَّة، وإلى الكانُون الكبير

المزَخرَف والمصابيح الذهبيَّة.

وإذ رتَّب ألِكسَندر بنِظامٍ زَيتًا وإسفنجًا بحريًّا وقِطَعَ صوف، وأقمِطةً للمَولود، وأدواتٍ جراحيَّة، تساءلَ عن السبب الذي من أجله يَعمِدُ رجُلٌ بِثَراءِ ماغونيانُسَ الجليّ لإرسالِ عَبدةٍ إلى الحمَّامات العُموميَّة في طلبِ طبيبٍ للعامَّة. وما لبِثَت أن وافَته فِكرةٌ أُخرى في أعقابِ الأولى، إدراكٌ قاتمٌ غمرَه بالهواجِس: إذا أخفقَ في إنقاذِ زَوجةِ ماغونيانُسَ الشابَّة، والمحبوبة كما هو واضح، فسَيُطرَدُ من المدينة وتُدَمَّر سُمعَتُه بصفته طبيبًا.

وقال لراشِد همسًا: ‘‘كان ينبغي أن أسمعَ لك’’.

‘‘قُلْ إنَّكَ لا تستطيعُ أن تفعلَ شيئًا، وغادِر’’.

فأطلقَ ألِكسَندر ضِحكةً خفيفةً بلا مَرَح، والتفَتَ نحوَ السَّرير. ‘‘لن أتمكَّنَ من إبعاد هَدسَّة عنها الآن’’.

همدَ صُراخُ أنطونيا، وتكلَّمَتْ هَدسَّة بهدوء إليها

وإلى هَبِناسَ الذاهِل. وقالَ ألِكسَندر: ‘‘لِيُرشِدْني أسكليپيوس!’’ ثُمَّ تقدَّم إلى السرير.

وقالت هَدسَّة لِهَبِناس: ‘‘سنحتاجُ إلى ماءٍ ساخن، سيِّدي’’.

فقال هَبِناس: ‘‘نعم، نعم، بالتَّأكيد!’’ مُحرِّرًا يدَه نَترًا من قبضةِ زوجته الشابَّة.

وقالَت أنطونيا- باكيةً بُكاءً مُتَقطِّعًا- ‘‘لا تَترُكْني! لا تترك...’’

فقالَت هَدسَّة، مُمسِكةً بيَدِها: ‘‘لن يترُكَكِ، سيِّدتي. إنَّه يُرسِلُ ليڤيلا لإحضارِ ماء’’.

عندئذٍ تَقوَّس ظهرُ أنطونيا، وأنَّت مُنتحِبةً: ‘‘آه، جاءتِ الطَّلقةُ من جديد! لقد جاءَت! لا أستطيعُ أن أحتَمِل! لا أستطيعُ الاحتمالَ أكثر...’’

لم يَرجعْ هَبِناس إلى السرير، بل وقفَ ضاغِطًا صُدغَيه بقبضتَيه. ‘‘أرطميس، أيَّتُها الإلاهةُ القديرة، تحنَّني عليها. ارحَميها!’’

وضعَت هَدسَّة إحدى يدَيها على جبين أنطونيا، فوجَدَتْ أنَّ بَشرتَها ساخنةٌ. وحبسَتْ أنطونيا نَفَسَها، مُغرَورِقةً عَيناها ومُتَورّدًا وجهُها. ونتأتْ عُروقُ رَقبَتِها، وجَرَتِ الدُّموعُ من عينَيها. ثُمَّ صرَّتْ بأسنانها وأطلقَتْ صرخةَ انتحابٍ شديدة. واشتدَّت قَبضةُ يَدِها جدًّا حتَّى خُيِّلَ إلى هَدسَّة أنَّ يَدَها هي ستُسحَق.

لـمَّا هدأ الانقباض، ارتَمَتْ أنطونيا مُتعَبةً على السَّرير ثانيةً، مُجهَدةً ناشِجةً. فملأ الدَّمعُ عينَي هَدسَّة، وربَّتَت جبينَ الشابَّة، مُتمنِّيةً لو تستطيعُ تعزِيَتَها بَعد. ثُمَّ التَفتَتْ إلى ألِكسَندر وراءها، وهمسَت: ‘‘ماذا يُمكِنُك أن تفعل؟’’ إلَّا أنَّه ظلَّ واقِفًا يُراقِبُ باكتئابٍ فحَسْب.

وقالت أنطونيا بصَوتٍ أجَشّ: ‘‘أوقِفوا مُعاناتي. رجاءً، أوقِفوها!’’

فلمَّا لم يقُل ألِكسَندر شيئًا، انحنَتْ هَدسَّة قائلةً برِقَّة: ‘‘لن نترُكَكِ’’، ومسحَتِ العَرَقَ عن جبينِ أنطونيا بخِرقة.

أخيرًا، قال ألِكسَندر: ‘‘يجبُ أن أفحصَها’’. وإذ توتَّرَت أنطونيا، تكلَّمَ بهدوء، شارحًا ما يُوشِكُ أن يفعلَه، وموضِحًا السَّبب. فاستَرخَتْ أنطونيا، إذ كانت يداه رقيقتَين. إلَّا أنَّ فَرَجَها كان قصيرَ الأمَد، إذ وافَتها انقِباضَةٌ أُخرى. ولـمَّا تفاقمَت، أخذَتْ تئنُّ من الألَمِ المبرِّح. ولم يسحَبْ ألِكسَندر يدَه منها قبلَ أن تستَلقيَ من جديدٍ باكيةً. ثُمَّ اعتَدلَ مُستقيمًا، فملأت سِيماءُ وجهِ هَدسَّة بالقَلَق.

‘‘ما الخَطب؟’’

‘‘الطِّفلُ في وَضعيَّةٍ غير صحيحة’’.

‘‘ماذا يُمكِنُك أن تفعل؟’’

‘‘يُمكِنُني إجراءُ عمليَّةٍ جراحيَّة، بإخراج الطِّفل عبرَ جَوفِها... ولكنَّ الأمرَ يَنطوي على أخطار. سأحتاجُ إلى إذنِ ماغونيانُس للقيام بذلك’’. ثُمَّ أخلى جانِبَ السرير.

ساورَت هَدسَّة الشُّكوكُ فيما تكلَّمَ ألِكسَندر إلى هَبِناس أتالُس ماغونيانُس بصَوتٍ أكثرَ خُفوتًا من

أن تسمعَه.

وفجأةً قالَ ماغونيانُس: ‘‘لا! إن كُنتَ لا تستطيع أن تضمنَ لي أنَّها ستَعيش، فلَن أسمحَ بالأمر. إنَّها هي ما يهمُّني، لا الطِّفل. لن أسمحَ لك بأن تُعرِّضَ حياتَها لأيِّ خطر!’’

فقال ألِكسَندر: ‘‘هناكَ إذًا أمرٌ آخَر واحِدٌ فقط أعرِفُ أن أفعله...’’ وقد توقَّفَ فجأةً، ناظِرًا إلى هَدسَّة كما لو كان مُتردِّدًا في المتابعة. ثُمَّ نظرَ من جديدٍ إلى ماغونيانُس، بوجهٍ عابسٍ ومُنقبِض، وتكلَّم هامسًا. ورأتْ هَدسَّة وجهَ الرَّجُلِ الأكبرِ سنًّا يزدادُ شُحوبًا بَعدُ، وقد هزَّ رأسَه كمَن بهِ دُوار.

‘‘أأنتَ مُتيقِّن؟ ألا تستطيعُ فعلَ شيءٍ آخر؟’’ فهزَّ ألِكسَندر رأسَه، وأومأ ماغونيانُس برأسه مُوافِقًا. ‘‘إذًا، افعَلْ ما يجب أن تفعلَه. ولكنْ، بحياةِ الآلِهة، افعلْه بسُرعةٍ حتَّى لا تتألَمَ بَعد’’.

نظرَت هَدسَّة- وقلبُها يخفقُ بشدَّة- إلى الأدَواتِ التي أخرجها ألِكسَندر من حقيبته الجلديَّة

المحمولة. فانعقدَت مَعِدَتُها. وراقبَت فيما نقلَ راشِد الطاولَةَ إلى أسفل السرير، إطاعةً لأمرِ الطبيب. ثُمَّ رفعَ ألِكسَندر نظرَه إليها، قائلًا: ‘‘أعطِيها جَرعةً قويَّةً من عُصارةِ اللُّفَّاح البيضاء، ثُمَّ اخرُجي. سيُساعِدُني راشِد’’.

‘‘اللُّفَّاح سيُنوِّمُها’’.

‘‘الأفضلُ أن تكونَ نائمةً فيما أُجري لها ما يجب إجراؤه’’. ثُمَّ وضعَ في مُتناوَلِ يدِه سِكِّينًا معقوفة، وقاطِعةَ، ومِقحَفة، ومُجَزِّئةَ جنين.

نهضَت هَدسَّة واعترضَتْ في سبيله. وقالت همسًا: ‘‘ماذا تنوي أن تفعلَ لها حتَّى تصرِفَني من الغُرفة؟’’ واضعةً يدَها على ذِراعه وهي تنظرُ إلى الأدوات المخيفة.

فمالَ مُقترِبًا إليها، وتكلَّمَ في أُذنِها. ‘‘ستموتُ إن لم أُزِلِ الطِّفل’’.

قالت بِأسًى: ‘‘تُزيلُه؟’’ ونظرَت ثانيةً إلى الأدوات الجراحيَّة، فأدركت بصَدمةٍ مُغثية أنَّه نوى أن

يُقطِّعَ أوصالَ الطِّفل ويستخرِجَه منَ الرَّحِم. ‘‘لا يُمكِنُ أن تفعلَ هذا، ألِكسَندر!’’

فأمسكَ بذراعِها وجذبَها بحَزم جانبًا. وإذْ أبقاها أمامَه، تكلَّمَ بهَمسٍ جادٍّ تستطيعُ هي وحدَها أن تسمعَه. ‘‘أتُريدين أن يموتا كلاهما، يا هَدسَّة؟ إنَّ الطِّفلَ مُنحَشِرٌ داخِلَها. هل تفهمين؟ فبِوَضعيَّته هذه، لا **يُمكِن** أن يُولَد’’.

‘‘اقلبِ الولدَ بنفسِك’’.

فقال جازمًا: ‘‘لا أستطيع’’. ومدَّ يدَيه حتَّى ترى كم هُما كبيرتان. ‘‘هل تستطيعينَ أنت؟’’

‘‘لا يُمكن أن تفعل هذا، ألِكسَندر!’’

فقال بصَوتٍ خافِتٍ شَرس، وعيناهُ ملآنتان باليأس: ‘‘لا أُحبُّ هذا كما لا تُحِبِّينَه أنتِ. ولكنْ ليس من شيءٍ آخر يمكنُ فَعلُه. ثُمَّ إنَّ الطِّفلَ ربَّما يكونُ قد ماتَ فعلًا. فهي تتمخَّضُ به منذُ يومَين. إنَّ الوالِدةَ أهمُّ من الولد’’.

‘‘كِلاهُما مُهِمٌّ في نظرِ الله’’.

‘‘اخرُجي خارِجًا وانتظري حتَّى آستَدعيَكِ. أعلَمُ أنْ ليس لَدَيكِ مَيلٌ إلى هذا الجُزءِ منِ الطِّبّ. فالأفضلُ ألَّا تُضطرِّي إلى الوقوف والمراقبة. في وُسعكِ أن تَعتَني بها لاحِقًا’’.

وهَمَّ بأن يتخطَّاها، إلَّا أنَّها أمسكَتْ ذِراعَه بقبضةٍ قويَّة على نحوٍ مُفاجئ. ‘‘رجاءً، ألِكسَندر!’’

‘‘إذا كان لديكِ اقتراحٌ، يا هَدسَّة، فسأُصغي. وإلَّا فَأفسحي لي المجال. لا يُمكِنُ أن تنتظرَ بعد’’. وتأكيدًا لكلامِه، في ما يبدو، أطلقَت أنطونيا صُراخًا من جديد.

استَطاعَتْ هَدسَّة أن ترى أنَّ ألِكسَندر لم يكن يتوقُ إلى القيام بما قالَه، ولكنَّه ثبَّتَ فِكرَه على ما حَسبَ أنَّه ينبغي القيامُ به لإنقاذ أنطونيا. فهزَّت رأسَها قائلةً: ‘‘علَينا أن نُصَلِّي’’.

‘‘لَن تُنقِذَ الصلاةُ الشابَّة! أنا أعرِفُ ما ينبغي أن يُفعَل’’.

كانت هَدسَّة تعلَمُ حقَّ العِلمِ القيمةَ المتَدنِّيةَ

التي يُضفونه على حياةِ أيِّ طِفل. فحتَّى بعدَ ولادة الطِّفل، كان احتِمالُ مَوتهِ كبيرًا. بل كان الاحتمالُ كبيرًا جدًّا في الواقع، بحيثُ لم يحظُرْ أيُّ قانونٍ دَفنَ الطفل داخِلَ أسوار المدينة، كما لم يكُن يُطلَق عليه اسمٌ طوالَ أوَّلِ أُسبوعٍ أو أكثر. وكان الناسُ يتَخلَّصون من الأطفال بدَفنِهم في حدائق الدَّارات، أو رَميِهم في أكوام النُّفايات. بل أيضًا درجَت عادةٌ بِوَضعِ طفلٍ مَولودٍ حديثًا في أساسِ مَبنًى جديد!

التَفتَتْ هَدسَّة إلى هَبِناس، وعلِمَتْ أنَّها لن تحظى بأيَّة مُساعَدة منه. إذ كان اهتمامُه الوحيد مُنصَبًّا على زوجتهِ الشابَّة.

ولـمَّا رآها ألِكسَندر تنظرُ إلى صانعِ الأصنام، أمسكَ ذِراعَها بقبضةٍ مؤلِمة: ‘‘لا يمكن أن أدَعَ تلكَ الشابَّةَ تموت، يا هَدسَّة. ألَدَيكِ فكرةٌ عمَّن هو هذا الرَّجُل؟ إنَّه واحِدٌ من أغنى الرِّجال في أفسُس. وهو يأكلُ إلى مائدة البُروقُنصُل. فإذا ماتَتْ زوجتُه في عُهدَتي، تنتهيمِهنتي الطبِّيَّة. هل تفهمين؟ تنتهي! نعم، **تنتهي** قبلَ أن تكون قد بدأت أصلًا. وسأضطرُّ إلى مُغادَرةِ المدينة،

وتعليلِ النَّفس بأمَلِ البَدء من جديدٍ في مكانٍ آخَر''.

فتلقَّت هَدسَّة نظراتِ عينَيه بثَباتٍ لا تَردُّدَ فيه. ''لا تكُن توَّاقًا جدًّا إلى تَدميرِ حياةٍ بشريَّة. اطلُبِ العَونَ من ذاك الذي خلقَ أنطونيا وطِفلَها أيضًا''.

وانكفأ ألِكسَندر. لم يستَطعْ أن يرى وجهَها وراءَ النَّقاب، ولكنَّه سَمعَ الاقتِناعَ في كلامها. ''إذًا، أتوسَّلُ إليه، وإليكِ. ابتَهلي إلى إلهِك. أرجو منكِ أن تفعلي هذا الآن''. ثُمَّ أضاف بصَوتهِ المكبوت: ''إنَّما صَلّي بقوَّةٍ وبسُرعة، وعسى أن يسمعَكِ سريعًا، لأنَّه لا يسعُني أن أُعطِيَكِ وقتًا أطولَ ممَّا يستغرقُه إعدادي كلَّ شيءٍ للجراحة''. ثُمَّ أشاحَ بناظرَيه عنها، وقد استَولى على قلبهِ خَوفٌ بارِد. لو وُجدَتْ طريقةٌ أُخرى لإنقاذ أنطونيا، لانتَهجَها. ولكنَّ الوقتَ لم يترك له أيَّ خِيار. فسَيُضطرُّ إلى قطْعِ الطِّفل نِصفَين، وسحقِ جُمجُمَته لكي يستخرِجَه من المرأة... وإنْ لم يفعل ذلك بانتِباهٍ وسُرعة، فقد تموت. ولن يُباليَ أحَدٌ بأنَّه لم يُحضَر إلى هنا حتَّى اللحظات الأخيرة. فاللَّوم سيَقعُ عليه.

فيما وجَّهَ ألِكسَندر اهتمامَه نحوَ آلاتهِ من جديد، صرخَ قلبُ هَدسَّة في كَرْب. إنَّ إيمانَ ألِكسَندر كلَّه كان في معرفته الشخصيَّة، في ما علَّمَه إيَّاه أساتِذَةٌ آخرون. وذلك لم يكُن كافيًا.

رجعَت هَدسَّة إلى أنطونيا. وكانَتِ انقِباضَةٌ أُخرى قد بدأت توًّا، وهي تئنُ وتنشجُ على نحوٍ يدعو للرِّثاء، ويَداها تَفتِلُ البياضاتِ المبلَّلة مع تَزايُدِ الألَم. حتَّى لم تَبقَ لها قوَّةٌ لِمُجرَّدِ الصُّراخ. وقالَتْ مُتأوِّهةً: ''طِفلي... أنقِذوا طِفلي!''

فقالَت هَدسَّة: ''اللَّهمَّ، رجاءً!''... ووضعَتْ يدَيها على بطنِ أنطونيا المنتَفخ. وقد تحرَّكت شَفتاها، مع أنَّه لم يطلعْ أيُّ صَوتٍ إذ صرخت إلى الرَّبِّ طالبةً تدَخُّلَه.

اللَّهُمَّ، أنت خالِقُ هذهِ المرأةِ وطِفلِها. أنقِذهُما كِلَيهما! اجعَلِ الأُمورَ صحيحةً حتَّى يعيشا كِلاهُما. واجعَلِ الأُمورَ صحيحةً لِكَيلا يفعلَ ألِكسَندر ما نوى في فكره أن يفعلَه، فيجلِبَ خطيَّةً على رأسه. رجاءً، أيُّها الرَّبُّ يسوع، اسمَحْ بأن يرى الجميعُ قُدرتَك

ومحبَّتك.

وأطلقت أنطونيا صرخةً شديدة، فتوجَّه هَبِناس نحو السرير. "دعيها وشأنَها! إنَّكِ تُؤلِمينَها أكثر!"

وأوقف راشِد هَبِناس، فكافحَ هذا ليتَحرَّر منِ قبضته، فسفقَه راشِد على جِدارِ الجِنّيِّين، دون أن يهمَّه كم كان غنيًّا ونافِذًا.

وعلى وَقْع أنَّاتِ أنطونيا، بَكَت هَدسَّة. وقالَت بصَوتٍ مَهموس: "رجاءً، أيُّها الرَّبُّ يسوع، آه، رجاءً!" مُحرِّكةً يدَيها في تمسيدَةٍ رقيقةٍ فَوقَ الوَلَدِ المأسور في الرَّحِم "رجاءً، يا ربُّ، اسمَعنا. رجاءً، ارحَمها وارحَم طِفلَها. اقلبِ الولَدَ إلى الوضع الصحيح، وأخرِجْه خارِجًا!"

فتحرَّكَ الوَلَد.

وأبقَت هَدسَّة يدَيها على أنطونيا بخِفَّة، فأحسَّتِ الطِّفلَ ينقلِب، ببطءٍ وبِيُسر، كما لو أنَّ يَدَين غيرَ مَنظورتَين قد أمسكَتاه برِفق. فبكَت بُكاءً أشدَّ، ملآنةً بالفرح، وتساقطَتْ دُموعُها على البَشَرة

المشدودة.

وصرخَتْ أنطونيا مرَّةً أُخرى، لكنْ صُراخًا مُختلِفًا هذه المرَّة. وشاهَد ألِكسَندر- وهو واقِفٌ قريبًا وبيَدِه السِّكِّينُ المعقوفة- ما كان يجرى، فأسقطَ السِّكِّينَ أرضًا.

وقد توقَّف هَبِناس عن الصُّراخ ومُكافحةِ إمساكِ راشِد به، وصاح: ‘‘ماذا يجري؟’’

فقال ألِكسَندر: ‘‘لقدِ انقلبَ الطِّفل!’’ غيرَ قادِرٍ على أن يُبقيَ التأثُّرَ بعيدًا عن صَوته. ولم يكُنِ الوقتُ يتَّسعُ لوَضْعِ أنطونيا على كُرسيِّ التَّوليد. فثبَّتَ نفسَه واضعًا إحدى رُكبتَيه على طرَفِ السرير وانحنى إلى الأمام. وكانتِ انقِباضَةٌ أُخرى قد بدأت فعلًا، فمعَ مُوافاتِها انزلقَ الطفلُ بيُسرٍ من جِسمِ أنطونيا إلى يَدَيه. فأرسلَتْ زفرةً حادَّةً، وانكفأت غائصةً في السَّرير.

ضَحِكَ ألِكسَندر إذ نظرَ من عَلُ إلى الطِّفل في يَدَيه. وقال، بمزيجٍ من الرَّهبة والفَرَح: ‘‘لقد رُزِقتَ ابنًا، يا ماغونيانُس!’’ ثُمَّ أضافَ حاثًّا، إذْ قَطعَ

الحَبْلَ السُّرِّيَّ وربَطه: ‘‘تعالَ وألقِ نظرةً عليه!’’

تراجعَت هَدسَّة إلى الوراء وهي ترتجفُ بشدَّة، مُبتهِجةً إلى أقصى حدٍّ بِما رأته.

وأفلتَ راشِد هَبِناس، فوقفَ صانعُ الأصنام بلا حَراكٍ لِلحظة، سامعًا صُراخَ ابنهِ المولودِ توًّا. وكانت ليڤيلّا حاضِرةً لأخذ الطِّفل من ألِكسَندر.

قالَت أنطونيا، بتأثُّرٍ بالغ، رُغمَ إعيائها: ‘‘ابنٌ، هَبِناس! لقد أعطيتُكَ ابنًا...’’ مُحاولةً أن ترفعَ نفسَها كفايةً كي ترى مَولودَها، ولكنْ لم تكُن لها القُوَّةُ اللازمةُ لِلقيامِ بذلك. فارتَمتْ متعبةً على السرير الرَّطْب، وقد تباطأ تنفُّسُها وتراخى، وانطبقَتْ أجفانُها.

بعدما ألقىِ هَبِناس نظرةً خاطِفةً على الطِّفلِ الزاعق فوق ذِراعَي ليڤيلا، ركعَ بجانبِ السَّرير. وإذ رأى الدَّمَ على الأغطِيَة، غَمَرَ برأسهِ عُنُقَ زوجته، وقدِ اهتزَّت كتِفاه. ‘‘لن يحدُثَ هذا مرَّةً أُخرى أبدًا. قسمًا على ذلك. لن تجتازي هذه المعاناةَ مرَّةً أُخرى أبدًا’’.

وقال ألِكسَندر لهَدسَّة: "اِعتني بالولَد"، مُمَسِّدًا بَطنَ أنطونيا حتَّى يُخرِجَ جِسمُها الـمَشيمة. ثُمَّ أضاف: "وأنا أهتمُّ بالوالِدة".

وضعَتْ ليڤيلا الطِّفل على ذِراعَيْ هَدسَّة وتراجعَتْ مُبتعِدةً عنها، وقدِ اتَّسعَت عَيناها. كانت ترتجف على نحوٍ مَلحوظ، فعبسَت هَدسَّة قليلًا، مُتسائلةً عن الخَطبِ الذي حلَّ بالعَبدة الشابَّة.

غسلَتْ هَدسَّة الطِّفلَ بانتِباهٍ في حَوضِ ماءٍ دافئ. ثُمَّ وضعَتْه برِفقٍ على كَتَّانٍ ناعم وفَركَتْ جِسمَه كُلَّه بالملح مَنعًا لأيِّ تَلَوُّث. وإذ تذكَّرت كيف قمَّطَت أُمُّها لَيئة قديمًا، حَذَتْ حَذوَها. فبينَما هي تُدَندِن، لفَّتِ الوليدَ بإحكامٍ حتَّى غدا ثابتًا وجامدًا، مثل مومياء صغيرة، ثُمَّ أخذَتْ شقَّةً صغيرة من الكَتَّان الأبيض، وعصبَتْ رأسَ الطِّفل، مُمَرِّرةً الشالَ تحتَ ذقنه وعلى جبينه بِطَيَّاتٍ صغيرة. وبعدَئذٍ رفعَتْه، آمِنًا ودافئًا في قِماطِه، وحملَته إلى والِدَته.

ولدى اقتِرابِ هَدسَّة، نهضَ هَبِناس قائلًا:

‘‘ستأخُذه ليقيلا إلى مُرضِعَتِه’’.

فقالت هَدسَّة. ‘‘لن يُعطى لِمُرضِعة. إنَّه يحتاجُ إلى أُمِّه’’. ثُمَّ انحنَت، وقالَت برقَّةٍ- ماسَّةً جبينَ الشابَّة برِفق- ‘‘أنطونيا، إنَّه ابنُكِ!’’ فابتسمَتْ أنطونيا من صَميم قلبِها، وعدَّلت وضعَها قليلًا، فوضعَتْ هَدسَّة الطفلَ على السرير بجانبها. وأطلقَتْ أنطونيا ضِحكةَ فرحٍ رقيقةً لاهثةً إذ أطبقَ فمُ الطِّفلِ على حَلَمَتِها. وبعدَ لحظةٍ بَدَتْ عليها أماراتُ الكآبة.

قالَت أنطونيا: ‘‘ليس لَدَيَّ حليب!’’ طارِفةً بعَينَيها لتَحبسَ الدُّموع ومُكافِحةً الإعياء.

فربَّتَتْ هَدسَّة خدَّها برِفق، قائلةً: ‘‘لا تقلقي. سيَصيرُ لَدَيكِ’’. وكانت عَينا أنطونيا قدِ انطَبَقَتا فعلًا دون جَهد.

كانت الغُرفة هادئةً جدًّا. وظلَّتْ هَدسَّة تُربِّتُ خدَّ أنطونيا، رافعةً إلى الله الشُّكرَ من أجل إنقاذها مع الطِّفل. وأحسَّتِ الفرحَ يشيعُ في داخلها، فتاقَتْ إلى إنشادِ التَّسابيح كما كانت تفعلُ في

ما مضى، ولكنَّ النُّدوبَ التي خلّفَها هُجومُ الأسَد عليها في ساحة المحاربين آذَتها أكثرَ من مُجرَّدِ تشويهِ وجهِها. فإنَّ الالتهابات التي تَلَت قد ذهبَت بمُعظَمِ صَوتِها. ومع ذلك، علِمَت أنَّ الأمرَ لا يهمُّ حقًّا. فقد سمعَ الله صلاتَها. وهو الآن سمعَ ترنيمَ قلبِها.

طرفَت بعَينَيها مُقاوِمةً الدُّموع، ورفعَتْ رأسَها. فوجدَتْ هَبِناس أتالُس ماغونيانُس واقفًا مُقابِلَها في الجانب الآخر من السرير، يُحدِّقُ إليها. ورأتْ في عَينَيه ما سبقَ أن رأته في عَينَي ليڤيلا قبلَ قليل... الخوف.

تراجعَ ألِكسَندر عن السرير، إذ فرغَ من تَضميدِ أنطونيا. وأعطى ليڤيلا تَعليماتٍ تخصُّ الاعتناءَ بسيِّدتها. واقتربَت هَدسَّة، مُتحوِّلةً عن حَملَقةِ ماغونيانُس، فإذا بليڤيلا تنحني لها انحناءً زائدًا. فأوصَتها هَدسَّة بأن تُغيِّرَ قِماطَ الطِّفل مرَّةً كلَّ يوم. "اغسِليه باعتِناء وافرُكيه بالملح ثانيةً. ثُمَّ قَمِّطيه كما رأيتِني أفعَل. لا تُسلِّميه إلى مُرضِعة، بل والِدتُه ستَعتَني به".

فأجابت ليڤيلا: ‘‘سيكون كما تقولين، سيِّدتي،’’ منحنِيةً مرَّةً أُخرى.

تكلَّم هَبِناس إلى خادمةٍ أُخرى. ثُمَّ غادرَ جانبَ سريرِ زَوجتِه واقتربَ إلى ألِكسَندر وهَدسَّة فيما كانا يحزمانِ الأدَواتِ والأدويةَ غيرَ المستعمَلة. ‘‘لم أعرِف حتَّى اسمَك’’.

فعرَّفَه ألِكسَندر بنفسه، ولكنَّه تردَّدَ لـمَّا ركَّز هَبِناسُ نظرَه على هَدسَّة. ثُمَّ قال: ‘‘مُعاوِنَتي’’، مُحجِمًا عن ذِكرِ اسمِها لسبَبٍ لم يُدرِكْه تمامًا. وأضاف، ناظرًا إلى راشِد: ‘‘لقدِ انتهى عملُنا هنا. لكَ أن تُرجعَها’’.

وإذِ انحنى راشِد ورفعَ هَدسَّة على ذِراعَيه، التَفتَ ألِكسَندرِ إلى ماغونيانُس من جديدٍ، مُتَجاهِلًا احتجاجَ هَدسَّة الرقيقَ لـمَّا حملَها الأعرابيُّ إلى خارج الغُرفة. ‘‘كيفَ جرى أنَّ رجُلًا في مَقامكَ أرسلَ في طلبِ طبيبٍ يُمارسُ المهنة خارجَ الحمَّامات العُموميَّة؟’’ قال ألِكسَندر هذا مُستَطلِعًا، لكنْ راغِبًا أيضًا في صَرفِ انتِباهِ هَبِناس عن هَدسَّة.

أجابَ ماغونيانُس: ‘‘لقد رُحِّلَ كاتُلَس عن أفسُس’’. فتعرَّفَ ألِكسَندر اسمَ طبيبٍ بارز. إذ كان كاتُلُس مشهورًا مثل واحدٍ من أمهر الأطِبَّاء في المدينة، ولم يكُن يُداوي إلّا ذوي الثَّراء والمقام. وأضاف هَبِناس باكتئاب: ‘‘عَلِمتُ بِطَردهِ بعدَ فَواتِ الأوان على إجراء تَرتيباتٍ أُخرى. لقد أرسلتُ عبدةَ زَوجتي للإتيان بمُساعَدة. لستُ أدري كيف عثرَتْ عَلَيك، ولكنِّي أشكرُ الآلهة لأنَّها وجدَتْك’’.

كانت هَدسَّة قد قالَت على الطريق إلى هنا: ‘‘**اللّه قد أرسلَها إلينا**’’. فعبَّسَ ألِكسَندر. هل أرسلَها فعلًا؟

ثُمَّ أومأ برأسه نحو أنطونيا، قائلًا: ‘‘تيقَّنْ بأنَّها تنعَمُ بالدِّفء. ستَحتاجُ إلى راحة. سأرجعُ غدًا وأرى كيفَ حالُها’’.

قال هَبِناس: ‘‘هل تنوي أن تصطحِبَها؟’’ مُومئًا برأسه نحو الباب الذي منه خرجَ راشِد حاملًا هَدسَّة.

فأجابَ ألِكسَندر بحَذَر: ‘‘لن أصطحِبَها إلّا إذا رغِبْتَ أنتَ في ذلك’’.

‘‘نعم، أرغبُ في معرفة المزيد عنها’’.

وقفَ ألِكسَندر مُستَقيمًا، مُتأبِّطًا حقيبتَه الجلديَّة المحمولة. ‘‘ما الذي ترغبُ في معرفته؟’’

‘‘لقد رأيتُ بعَينيَّ ما فعلَته. إنَّ لِهذه المرأة قُدرةً عظيمة. مَن هي؟ وأيَّ إلَهٍ تعبُد؟’’

تردَّدَ ألِكسَندر ثانيةً، مُرتابًا في الانزِعاج الذي أحسَّه يتحرَّكَ في داخِله. لعلَّ هذا الرجُلَ يتحرَّكُ في الأوساط التي يتحرَّك فيها أيضًا سادَةُ هَدسَّة. فإنْ كان هذا هو واقعَ الحال، أفَمِن شأنِ كشفِ هُوِيَّتها أن يُعرِّضَها للخَطَر؟ كائنًا مَن كان مالِكُها، فقد أرسلَها لِتَموتَ في ساحةِ المحاربين. وإذا علمَ سادتُها أنَّها على قَيد الحياة بَعدُ، فهل يَستَولونَ عليها ويُرسلونَها إلى هناك ثانيةً؟

وسألَ هَبِناسُ مرَّةً أُخرى: ‘‘مَن هي؟’’

‘‘إذا رَغِبَتْ هي في كَشْفِ هُوِيَّتِها لك، فستَفعلُ ذلك’’. قالَ ألِكسَندر هذا وتوجَّه نحوَ الباب. وإذا بخادمٍ يقفُ عندَ أحَدِ جانِبَيه، وفي يَدَيه صُندوقٌ صغيرٌ من خَشَبِ الأرز.

قال هَبِناس: ‘‘مهلًا!’’ ثُمَّ أخذَ الصُّندوقَ من الخادم وقدَّمَه إلى ألِكسَندر، قائلًا: ‘‘هذه أجرتُكَ لقاءَ خِدماتِك’’.

وكان الصُّندوقُ ثقيلًا.

وقال هَبِناسُ للخادم: ‘‘اِهتمَّ بأن يصلَ الطبيبُ إلى بَيته سالِمًا’’. ثُمَّ أمرَ آخَرَ بإحضارِ أريكةِ نَومٍ حتَّى يَبقى على مقرُبةٍ من زوجته وابنِه.

خرجَ ألِكسَندر، وأعطى حامِلي محفَّةِ هَبِناس الأربعةَ تَوجيهاتِ الوُصولِ إلى سقيفتِه، ثُمَّ صَعِدَ إلى المقصورة الفاخرة. وما إنْ رفعَ العبيدُ المحفَّة، حتَّى أغلقَ ستائرَ الخُصوصيَّة الرَّقيقةَ، واستَلقى بضَجَرٍ على الوسائد الناعِمة. ومع أنَّه كان مُرهَقًا، فقد ظلَّ ذِهنُه يطنُّ.

لقد كانتِ اللّيلةُ خَطيرةً جدًّا! ومدى خُطورتها البالغة غمرَه بالقَلَق.

وصلَ إلى السقيفة قبلَ راشِد وهَدسَّة. وبوَخزةِ ضمير، أدركَ أنَّه لم يُكلِّفْ نفسَه حتَّى البحثَ عنهُما على الطريق. ثُمَّ دخلَ السقيفةَ ووضعَ أدواته وأدويتَه في مكانها. وإذ جلسَ إلى طاولَةِ كتابتِه، مَزَجَ فحمًا محروقًا وماءً، ودوَّنَ في دَرْجِه الأحداثَ التي جَرَت توًّا. ثُمَّ مالَ إلى الوراء قليلًا، ونظرَ إلى ما كَتبَه بعَدمِ رِضى:

وضعَتْ هَدسَّة يَدَها على بَطنِ أنطونيا، وبَكَت. وإذ فعلَت ذلك، سقطَت دُموعُها على المرأة، فانقلبَ الطِّفلُ وخرج.

غالبًا ما كانَتِ الدُّموعُ المحفوظةُ في زجاجة تُستخدَمُ دواءً. فهل كانت في دُموع هَدسَّة قُوَّةٌ شافية؟ أم هل كانت لَمسَتُها هي التي أجرَتِ المعجزة؟ أم كان ذلك بفَضلِ كلماتِها التي تكلَّمَت بها سرًّا إلى إلَهِها؟

ركلَ أحدُهم قاطعَ السَّقيفة، فنهضَ ألِكسَندر

وجذبَه إلى الوراء. فدخَلَ راشِد، وهَدسَّة على ذِراعَيه. وقد كانت نائمة. فأنزلَها راشِد برِفقٍ إلى الفراش الموضوع على الأرض بقُربِ مؤخَّرِ السَّقيفة، وغطَّاها بعِناية. ثُمَّ قامَ والتَفَتَ إلى ألِكسَندر، قائلًا: ‘‘ينبغي لها أن تَستَريح’’.

فقال ألِكسَندر: ‘‘تكادُ أن تُشرقَ الشمس. سيبدأُ المرضى بالتجمُّع في الخارج سريعًا’’.

وتصلَّبَ حَنَكُ راشِد. ‘‘عليك أن تصرفَهم!’’

فالتَوى فَمُ ألِكسَندر حِيالَ لهجتِه. ‘‘أأنتَ على يقين بأنَّك كُنتَ عبدًا، يا راشِد، وليس سيِّدًا؟’’ ثُمَّ رفعَ يدَه وأضاف: ‘‘أنتَ على حقّ’’. وتناوَلَ لَوحَ كِتابة، ودوَّنَ عليه رسالةً قصيرة. ‘‘علِّقْ هذا خارِجًا على الباب. سنأملُ أن يكونَ الذين يأتون يستَطيعون القراءة’’.

وقرأ راشِد اللافِتة.

فسألَه ألِكسَندر بجَفاء: ‘‘هل تحظى باستِحسانِك؟’’

“نعم، سيِّدي”.

ولـمَّا رَجـعَ راشِـد إلى الداخِل، أومأ ألِكسَندر برأسـه نحوَ الصُّندوقِ الأرزيِّ الصغير على الطاولة. ثُمَّ قال- ناثرًا الرَّمل على ملاحظاته- “ألقِ نظرة”.

ففتحَ راشِـد الصندوق، وتَناوَلَ واحدةً من قِطَعِ النَّقد الذهبيَّة، وقلَّبها بأصابعِه. وإذا هي أوريوس. فقال: “إنَّ هنا ثروةً!”

“إنَّ هَبِناس يُقدِّرُ حياةَ زَوجته أرفَعَ تقدير. ففي الصُّندوق ما يكفي لاستئجارِ شقَّة وشراء المزيد من التجهيزات”. ثُمَّ تفلطَحَ فمُه. “لَدَيَّ شعورٌ بأنَّنا سنحتاجُ إلى كِلا الأمرَين قريبًا”.

ردَّ راشِد قِطعةَ النَّقد إلى الصُّندوق، وأقفلَه. “نعم، سيِّدي. هذه اللَّيلةُ فتَحَت لنا سبيلًا جديدًا. لقد لمسَت هَدسَّة تلك المرأة فأخرجَتِ الطِّفل. وقد رأى ماغونيانُس ذلك. فهو سيُخبِرُ الآخرين... وهؤلاء الآخرون سيأتون”.

فهزَّ ألِكسَندر رأسَه مُوافِقًا، وقال: “أعلَمُ هذا”.

ثُمَّ أعادَ الرَّملَ إلى الطّاسة الصغيرة. ‘‘لـمَّا كان عَطفُها مَقصورًا على العامِّيِّين أو العبيد أمثالِك، لم تكُن لنا مُشكِلةٌ سوى إقبالِ مَرضى أكثَر عددًا من أن نتولَّى أمرَهم. أمَّا الآن، فثمَّةَ خَطَر’’.

اسودَّت حَملَقةُ راشِد. ‘‘ماغونيانُس يتنقَّل في الدوائر العُليا’’.

وإذ رأى ألِكسَندر إدراك راشِد الخطرَ المحدِق، قال: ‘‘نعم، شأنُه شأنُ السَّادةِ الذين أرسَلوا هَدسَّة لتَموتَ في ساحةِ المحاربين’’. ثُمَّ لفَّ الدَّرْجَ ودسَّه في خانةٍ فوقَ المكتب، وأضاف: ‘‘كما قالت هَدسَّة، فهي ما زالت قانونيًّا تخصُّ أولئك الذينَ سبقَ أنِ اشترَوها’’.

‘‘وأنتَ أيضًا عُرضةٌ للخطر بسبب إيوائها، سيِّدي’’.

لم يكُن ألِكسَندر قد فكَّرَ في ذلك. ‘‘هناك ذلك الخطرُ أيضًا، على ما أعتقد. إنَّما المسألةُ هي: ماذا نفعل الآن؟ فلها مَوهِبةٌ ثمينة، وكثيرون يحتاجون إليها’’. وإذا بفِكرة ما يمكنُ أن يحدثَ إذا

اكتَشَفَ سادةٌ هَدسَّة أنَّها حيَّةٌ تدفَعُ ألِكسَندر إلى مُغادرة كُرسيِّه. فأخذَ يمشي في الغرفة مُرتَبِكًا. "لستُ أنوي إعادتَها إلى أولئك الذين أرسَلوها إلى ساحة المحاربين لتَموت، كائنينَ مَن كانوا، ومهما كانت أسبابُهم!"

"اعرِفْ لي أسماءهُم، فأقتُلَهم".

حدَّقَ ألِكسَندر مَذهولًا إلى الأعرابيّ، فرأى في عَينَيه الضَّراوةَ القاتمة. وقال له مُرتاعًا: "إنَّكَ لا تُبقي لديَّ أيَّ شكٍّ في أنَّك قادرٌ أن تفعلَ أمرًا كهذا". ثُمَّ هزَّ رأسَه. "في خُلُقِكَ نَواحٍ تُقلِقُني، يا راشِد. أنا طبيب، لا سفَّاح. فأنا أُجاهِدُ لإنقاذِ الحياة، لا لإتلافها. وفي ذلك، أنا وهَدسَّة سِيَّان".

"سأحميها، مهما كان الثَّمن".

"ما كانت هَدسَّة لِتُوافِقَ على وسائل حمايتك. بل إنَّ من شأن هذه الوسائل، في الواقع، أن تُسبِّبَ لها حُزنًا شديدًا".

“لا داعيَ لأنْ تعلَم”.

“لا بُدَّ أن تعلَم. لستُ أدري كيف، ولكنْ لا بُدَّ أن تعلَم”. ونظرَ إلى هَدسَّة، حيثُ كانت تغطُّ في النَّوم على الحَشِيَّة. “إنَّها شخصٌ عجيب. ففي وُسعِها أن ترى ما في دواخل الناس، وتعرِفَ أموًرا تخصُّهم. هي تقولُ إنَّ ذلك يعودُ فقط إلى كَونِها تُصغي وتُبصِر، ولكنّي أعتقِدُ أنَّ الأمرَ يتَخَطّى ذلك. فأنا أعتقِدُ أنَّ إلَهَها يكشفُ لها الأمور”. وكانت هَدسَّة مُلتفَّةً على جَنبِها مثل فتاةٍ صغيرة. فمشى إليها، ونزعَ حجابَها برِفق، كاشِفًا النُّدوبَ المشوّهة. وبرِفقٍ لمسَ وجهَها ذا الندوب، حَريصًا على ألّا يوقِظَها. “إنَّ حقيقةَ كَونِها على قَيدِ الحياة لَهِيَ شهادةٌ لِقُدرةِ إلهِها. فإنَّ قُدُراتي بصفتي طبيبًا ما كانت لِتَكفِي”. ثُمَّ استَقامَ ونظرَ إلى راشد، قائلًا: “لعلَّه ينبغي لنا أن نتركَ أمرَ حمايتِها بِيَدِ إلهِها”.

فلم ينبِسْ راشِد بكَلِمَة.

وتأمَّلَ أَلِكسَندر الوجهَ الذي لا يُسبَرُ غَورُه. “هل تعلَم لماذا تُغطِّي نفسَها؟”

‘‘إنَّها تشعرُ بالخَجَل’’.

فهزَّ ألِكسَندر رأسَه نافيًا. ‘‘ليست فيها ذرَّةٌ من الغُرور. إنَّها تُغطِّي ندوبَها لأنَّ هذه تُزعجُ الآخرين. لا سببَ آخَرَ سوى ذلك. فالناسُ يَرَون عليها علامةَ الأسَد، ويُخفِقون في أن يعرفوا ما تَعنيه’’.

ثُمَّ انحنى ومسَّدَ شعرَها إلى الوراء. وتوجَّعَ قلبُه من أجلها. فمنذُ لحظةَ رآها تمشي إلى وسطِ ساحةِ المحاربين، انجذبَ إليها. لقد كانت مِثلَ العبيد المطروحين في الأسكليبيون: مَنبوذةً ومَنسيَّة، وحياتُها بِلا معنًى في نظام الأُمور. ومع ذلك كانت عُذوبَتُها وتواضُعها مثل مَنارةٍ لقلبِ ألِكسَندر... وقلوبِ آخرين كثيرين. فإذ كانَت مُحطَّمة وملآنةً بالندوب، كانَت ذاتَ مُرونةٍ تتحدَّى المنطِق. وأحيانًا، كانَتِ المحبَّةُ التي تُعبِّرُ عنها لمريضٍ بلمسةٍ رفيقة أو كلمةٍ رقيقة تخترقُ قلبَه. لقد كانت تلك هي المحبَّةَ التي أرادَ أن يُبديَها... المحبَّةَ التي بدا أنَّه يفتقرُ إليها.

هو كان يُبالي ويهتمّ، أمَّا هَدسَّة فكانت **تُحِبُّ!**

وهزَّ رأسَه تعجُّبًا. كيف كان مُمكِنًا لأيِّ شخصٍ اجتازَ ما كابدَته أن يكونَ على المنوالِ الذي كانت عليه؟

وإذ فَرَكَ خُصلةً من الشَّعرِ الداكن بين أصابعه، قال: ‘‘ما تعرَّفتُ قطُّ إلى أيِّ شخصٍ مثلها، يا راشِد. لن أفعلَ أيَّ شيءٍ من شأنه ألّا يُرضيَها’’. وقد أذهلَه أن يُدرِكَ أنَّ صَوتَه كان يرتعِشُ بحِدَّةِ عواطِفه، فاستَقامَ سريعًا. ونظرَ إلى الأعرابيّ، مُحَدِّقًا بثَباتٍ في عينَيه الداكِنتَين. ‘‘وأنتَ أيضًا لن تفعلَ ذلك’’.

‘‘لقد أقسَمتُ على أن أحمِيَها، سيِّدي’’.

‘‘إذًا احمِها، لكنْ قُم بهذا على نحوٍ يسرُّ هَدسَّة، لا نفسَك’’.

‘‘أنا مَدينٌ لها بحياتي. من أجل ذلك، لا يُمكِنُ أن أدعَ أحدًا يُزهقُ حياتها’’.

فالتَوى فمُ ألِكسَندر. ‘‘إنَّها ستَقولُ إنَّكَ مَدينٌ بحياتِك لإلَهِها، شأنُها شأنُ حياتها هي’’. ثُمَّ زَفَرَ

نفسَه، وفركَ رَقَبتَه ضَجِرًا. ‘‘لا تطلَب أجوِبةً منّي. فليس لَدَيَّ أيُّ جواب. لعلَّنا نستجلِبُ البلاءَ فحسْب. فربَّما لا تُسفِرُ هذه اللَّيلةُ عن أيّ شيء، لا عن فُرصة ولا عن خَطَر. لِنأخُذْ قِسطًا من النَّوم. ففي وُسعِنا أن نُواجهَ أيَّ أمرٍ يُقبِلُ علينا مواجَهةً أفضلَ بكثير، إنْ نحنُ استرَحْنا قليلًا’’.

غيرَ أنَّ الراحةَ كانت مُراوِغة.

استَلقى ألِكسَندر مُستيقظًا، مُفكِّرًا، مُراجِعًا في ذهنهِ أحداثَ الليلة مِرارًا وتَكرارًا. واختَلَطَ العَجَبُ ممَّا حَدَثَ بارتِباكٍ مُقلِق لـمَّا تأمَّل حِدَّةَ مشاعِره عندما خطرَتْ في باله فكرةُ تعرُّضِ هَدسَّة للخَطَر. وحاوَلَ أن يُقنعَ نفسَه بأنَّ قَلَقَه ما كانَ إلَّا أمرًا طبيعيًّا. فعلى الرُّغم من كلِّ شيء، كانت هَدسَّة مُعاوِنةً وثمينة وذات كفاءة. ولكنَّ شيئًا ما في قَرارة نفسه قال له إنَّ في الأمر أكثَر من ذلكَ بكثير.

أخيرًا، قرعَ أحَدُهم على القاطع وأطلقَ استغاثةً بالعِبريَّة. ففهِمَ ألِكسَندر بعضَ الكلمات وعَلمَ أنَّه

لم يكُن هو مَن ناداه الرجُل، بل هَدسَّة. وكان راشِد يَلقى صعوبةً مُماثلةً في النوم، إذ قامَ بسُرعةٍ وفتحَ القاطعَ قليلًا بما يكفي لِمُخاطَبة المتَطفِّل الذي قاطعَ نومَهُم.

‘‘يا غبيّ! ألا يُمكِنُك أن تقرأ؟’’

‘‘يجبُ أن أُكلِّمَ رافا’’.

‘‘لقد غادرَ الطبيبُ المدينة، وسيَرجعُ غدًا’’.

‘‘رافا... أُريدُ أن أُكلِّمَ رافا’’.

‘‘ليسَت هنا. انصَرفْ! في مِنطَقة الحمَّامات أطبَّاءُ آخرون. اعرضْ مُشكِلتَك عليهم’’. ثُمَّ أغلقَ القاطعَ بإحكام، واستَلقى على فِراشه من جديد، وقد تصلَّبَ وجهُه إذ رأى أنَّ هَدسَّة قد أُوقِظَت.

جلسَتْ على فراشِها، تفرُكُ وجهَها. وكشَّرَت إذ نظرَت نحو حزمةِ النُّور الآتية عبرَ القاطع. ‘‘إنَّه الصَّباح!’’

فقال راشد كاذبًا: ‘‘لا. ما هذه إلّا أشعَّةُ القمر’’.

‘‘بهذا البهاء؟’’

‘‘عودي إلى النَّوم، سيِّدتي. ليس من أحَدٍ ليُزعِجَكِ’’.

‘‘لقد سمعتُ أحَدًا...’’

فأصرَّ بلُطْف: ‘‘ما سَمِعتِ أحَدًا. لقد كنتِ تحلُمين بأنَّكِ في بلاد اليهوديَّة مُجدَّدًا’’.

وفركَت وجهَها، ثُمَّ رفعَت له حاجبًا: ‘‘إذا كنتُ أحلُم، فكيفَ عرفتَ أنَّهم تكلَّموا بالعِبريَّة؟’’ ومدَّتْ يَدَها لتأخُذَ حِجابَها.

عندئذٍ نهضَ ألِكسَندر، وقال: ‘‘سأنظرُ’’، عالِمًا حقَّ العِلمِ أنْ ليس في وُسعِها أن تتجاهَلَ استِغاثةَ أحَدٍ مَهما كانت حاجتُها إلى الرَّاحة شديدة. ثُمَّ خَطا فَوقَها وذهبَ إلى القاطع. وإذ نظرَ من الشِّقّ، رأى رجلًا يمشي مُبتعِدًا باكتئاب. فقالَ بصِدق: ‘‘لا أحَدَ واقِفٌ خارِجًا’’.

“أآنتَ على يقين؟”

“دون شكٍّ!” ومضى إلى مؤخَّرِ السقيفة، حيثُ أنزلَ قِربةً جلديَّة. وإذ صبَّ ماءً في كوب هَدسَّة الفخَّاريِّ الصغير، أضاف شيئًا من عُصارةِ اللُّفَّاح وحملَ المزيجَ إليها. ثُمَّ أدنى الكوبَ إلى شفتَيها قائلًا: “اشرَبي هذا! يجب أن تستَريحي، وإلَّا فلن تنفعي أحَدًا. سأُوقِظُكِ قبل أن أفتحَ السَّقيفة”.

كانت هَدسَّة عطشانةً ومُنهَكة، فشَرِبَت، وسألت: “كيفَ حالُ أنطونيا؟”

“أنطونيا نائمة، كما يجب أن تكوني أنتِ. سنَذهبُ ونراها غدًا”. ثُمَّ غَطَّاها مُجدَّدًا، وبَقي مُقرفِصًا بجانبها حتَّى فعلَ العقَّارُ فِعلَه. وما إنِ استَسلمَت للنَّوم، حتَّى رجعَ إلى حَشِيَّته.

وجلسَ راشِد يُراقِبُ هَدسَّة.

“استَرِحْ، يا راشِد. إنَّها لن تستيقظ قبلَ ساعات”.

فاتَّكأ الأعرابيُّ.

‘‘أسَمِعتَ ماذا دعاها اليهوديُّ؟’’

أجاب راشِد: ‘‘لقد سمِعتُ. ماذا يعني ذلك؟’’

وفكَّرَ ألِكسَندر بِضعَ لَحَظات، ثُمَّ هزَّ رأسَه راضيًا. ‘‘أعتقدُ أنَّنا حصلَنا على جوابِنا’’.

‘‘جوابِ أيِّ شيء؟’’

‘‘كيف نحمي هَدسَّة. فمن الآن فصاعدًا، لن تُعرَف هَدسَّة باسمِها، يا راشد. إنَّها ستُعرَفُ باللَّقبِ الذي نُودِيَت به قبلَ قليل. سوف تُعرَفُ باسمِ «رافا»’’.

الشَّافية!

١٣

امتَطى مَرقُسُ حصانَه قاصدًا إلى مدينة القُدس جنوبًا، في الطريق الذي يمرُّ عبرَ "المصفاة". وتابعَ السَّفَر إلى الرَّامة، حيثُ توقَّفَ ليَشتريَ لَوزًا وتينًا وخُبزًا فطيرًا وزِقَّ نَبيذ. وكان الناسُ ينكفئون عنه. ورأى امرأةً تجمعُ أولادَها حولَها وتُدخِلُهم على عَجَلٍ بيتًا طينيًّا صغيرًا، كدجاجةٍ تَحمي صِيصانِها من وحشٍ مُفترِس.

وفَهِمَ لـمَّا لاحَت له مدينةُ القُدس.

فإذِ اقتربَ إليها راكِبًا، أحسَّ عباءةَ الموت تلفُّ البَلَد. وكانت روما كلُّها قد تحدَّثت بِشأنِ غزو القُدس وخرابِها. ولم تكُن تلك سوى ثورةٍ أُخرى سحقَتْها الفيالِقُ الرُّومانيَّة بنَجاح. فالآنَ شاهدَ بأُمِّ عَينه الإبادةَ التي كانت روما قادِرةً عليها.

وعندَ عُبوره الواديَ القاحِل، أذهلَه ما رآه. فحيثُ كانَت تقومُ في ما مضى مدينةٌ عظيمة، ظهرَت أسوارٌ ومبانٍ مُهَدَّمة، وخِرَبٌ سَوداء لِمنازلَ محروقة... فكانت تِلكَ أرضًا جُرِّدَت من الحياة.

وفي وادٍ خلفَ تلّ، بَدَت أكوامٌ من العِظامِ المبَيَّضة المتداخِلَة، كما لَو أنَّ آلافًا قد طُرِحوا بإهمالٍ في الهُوَّة ولم يُدفَنوا. وكان بُرجانِ استراتيجيَّان قد أُعفِيا من التَّدمير، فانتصَبا واقِفَين كحارِسَين وسطَ الرُّكام.

إنَّ مدينةَ القُدس، ‘‘مُقامَ السَّلام’’، باتَتْ مُسالِمةً حقًّا. فقد قُلِّصَت إلى مقبرة مكشوفة!

نصبَ مَرقُسُ خَيمتَه على مُنحَدَرِ تلٍّ صغير تحتَ شجرة زيتونٍ هَزيلة. وإذ نظرَ من فَوقِ الوادي الصغير، استَطاعَ أن يرى الأطلالَ المبعثَرة من أسوارِ المدينة القديمة. ثُمَّ نامَ نَومًا مُتَقطِّعًا، مُنزَعجًا من أصداءِ الصَّمتِ المنبَعِثة من ذلك العدد الهائل من الأموات.

استَيقظَ على وَقعِ حِذاءٍ ذي مَساميرَ فَوق الصَّخر. وقام فرأى جنديًّا من الفيلَق الرومانيِّ مُقبِلًا نحوَه.

سألَهُ العسكريُّ: ‘‘مَن أنت؟ ولماذا أنت هنا؟’’

فكظمَ مَرقُس انزعاجَه وقال اسمَه. ‘‘لقد جئتُ لكي أرى بيتَ إلهِ اليهود’’.

وأطلقَ الجِنديُّ ضحكةً قصيرة. ‘‘ما بقيَ منه هو هناك فوقَ ذلك التَّلّ. إنَّهمِ يَدعونَه جَبَلَ الـمُريَّا، ولكنَّه ليس شيئًا إذا قُورِنَ بجبل ڤيزوڤيوس. لن تَجِدَ كثيرًا بَقِيَ من الهيكل. لقد هَدَمناه وسوَّيناه بالأرض لأجلِ موادَّ لإعادةِ بِناء الثُّكنةِ والـمُجَمَّع اللذَين تراهُما هناك’’.

‘‘هل كُنتَ مع تيطُس في أثناء الحِصار؟’’

فنظرَ الجنديُّ إليه نِظرةً غامضة. ‘‘كنتُ في بِلاد الجرمان، تحتَ إمرة سيڤيلِس’’.

وتأمَّلَ مَرقُسُ الرَّجُلَ من كَثَب. إنَّ سيڤيلِس كان قد تمرَّدَ على القَيصر وحاربَ مع القبائل الجرمانيَّة في أثناء ذلك التمرُّد القصير الأمَد. وتولّى دوميتيان قيادةَ الفيالِق التي أعادَتِ النِّظام إلى الحدود. وجُلِبَ سيڤيلِس إلى رُوما لإعدامه، بعدما كان واحِدٌ من كُلِّ عشرةٍ من رجاله قد أُعدِمُ بحَدِّ السَّيف مَيدانيًّا. وفي ما يبدو، أُرسِلَ

الباقون إلى مراكِزِ الخدمة في أنحاء الإمبراطوريَّة. وكانت بلاد اليهوديَّة تُعدُّ أسوأ تلك المراكز جميعًا.

وما لَبِثَ الجنديُّ أنْ قال- ناظِرًا مُباشرَةً في عينَي مَرقُس- ‘‘إنَّ لتَعشير الرجال، أي إعدامِ كُلِّ رجُلٍ عاشِرٍ بالقُرعة، طريقتَه في إرجاعِ المرء إلى الولاء. وإرسالي إلى هنا أثبتَ صحَّةَ ذلك’’. ثُمَّ التَوى فمُه بابتسامةٍ مُرَّة.

فبادلَه مَرقُس التحديقَ، غيرَ خائف، وقال: ‘‘لقد جئتُ لكي أرى الهيكل’’.

‘‘لا يوجَدُ هيكل. ليسَ بَعدُ. فقد قَضَت أوامرُ تيطُس بهَدمه حجرًا فحجرًا حتَّى لم يبقَ منه شيء’’. والتَوى فمُه. ‘‘تركْنا جُزءًا واحِدًا من السُّور’’. ثُمَّ حدَّق إلى مَرقُس من جديد. ‘‘لِماذا أنتَ مُهتمٌّ جدًّا بالهيكل؟’’

‘‘كان مُفترَضًا أن يكونَ إلَهُهم ساكِنًا فيه؟’’

‘‘إذا كان هنا إلَهٌ أصلًا، فلَم يبقَ منه شيءٌ الآن’’. وأجالَ الجنديُّ حَملقَتَه على رُقعةِ الخرابِ

الواسعة. ‘‘إنَّما لا يَعني هذا أنّ رُوما ستُقنعُ اليهودَ يَومًا. فهم ما زالوا يأتون إلى هنا. ويكتَفي بعضُهم بالتجوال بينَ الخِرَب. أمَّا آخرون فيَقِفون أمامَ ذلك الحائط البغيض ويبكون. إنَّنا نصرِفُهم، ولكنَّهم ما زالوا يَرجعون. حتَّى ليُخيَّلُ إليَّ أحيانًا أنَّه ينبغي لنا أن نهدِمَ كلَّ ما بقيَ قائمًا ونسحقَ كلَّ حَجرٍ ليَصيرَ غُبارًا’’. ثُمَّ زفرَ نفَسَه ونظرَ إلى مَرقُس من جديد. ‘‘لن يُسفرَ الأمرُ عن أيِّ شيء. فلم يَبقَ في اليهوديَّة كلِّها عَدَدٌ من الرِّجال كافٍ لإحداثِ أيِّ بَلاءٍ خطير لروما. ولن يحدُثَ أمرٌ كهذا على مدى أجيالٍ طويلة’’.

فسألَ مَرقُس: ‘‘لماذا قُلتَ لي إنَّكَ شاركتَ في تمرُّد سيقيلِس؟’’

‘‘على سبيلِ التحذير’’.

‘‘التحذير مِمَّ؟’’

‘‘لقد شاركتُ في حملةٍ عسكريَّة بعدَ أُخرى على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، حتَّى يُتاحَ لرِجالٍ نظيرِك أن يتَّكئوا على أرائكَ مُريحة في

روما ويَعيشوا عيشةَ رفاهٍ وسلامة’’. ثَمَّ التَوى فمُه بابتِسامةٍ ساخِرة، وقد خفقَتْ عَيناه القاسِيَتان على تُنكِ مَرقُس الغالي وحِزامهِ المزيَّن بالجِلد والنُّحاس. ‘‘يُهَيمِنُ عليك طابَعُ روما كلِّيًّا. فخُذْ حِذرَك. لن أرفعَ إصبَعًا لكي أُنقِذَكَ من الموت. ليس هنا في هذا المكان. وليس الآن’’.

وراقبَه مَرقُس يمضي مُبتعِدًا. فهزَّ رأسَه، والتقطَ عباءتَه، وألقاها على كَتِفَيه.

تركَ حِصانَه مشدودَ القوائمِ على التلِّ الصغير، ومَضى إلى الخِرَب. وإذ شقَّ طريقَه بين الحجارة الساقطة والمباني المهدَّمة، تركَّزَت أفكارُه كلُّها على هَدسَّة. لقد كانت هنا لـمَّا تعرَّضَتِ المدينة للحِصار. وكانت جائعةً وخائفة. وكانت هُنا لـمَّا اقتحمَ تيطُس أسوارَ المدينة. وقد شاهدَتِ الآلافَ يُقتَلون بحَدِّ السَّيف أو يُسبَون.

ومع ذلك، فهو لم يَرَ قَطُّ في عينَيها ولا مرَّةً تلك النَّظرةَ التي قد رآها توًّا في عينَي جُنديٍّ رومانيّ.

لقد أعطَت قِطَعَ النَّقدِ الصغيرةَ الضئيلةَ القيمة، تلكَ التي كانت تُعطاها على سبيل الپَكيوليوم، لامرأةٍ رومانيَّة لم يكُن لَدَيها مالٌ لِشراءِ خُبز. أعطَتْها بلا مُقابل، عالِمةً أنَّ ابنَ المرأة كان جنديًّا شاركَ في تَدمير مَوطِنها.

وقد فقدَت كلَّ شخصٍ هنا، أبًا وأُمًّا، أخًا وأُختًا. ففي مكانٍ ما، بينَ هذه المباني المهَدَّمة والركام الأسود، تَنطرحُ العِظامُ المنسيَّة لأُولئكَ الَّذين أحبَّتهُم.

آمنَ اليهودُ بأنَّ إلهَهم قد وعدَ بأن يصيرَ نسلُ إبراهيمُ كثيرًا كنُجوم السَّماء. فالجُمهورُ الضَّخمُ قُلِّصَ إلى آلافٍ معدودة، وقد تشتَّتَ هؤلاء في جميعِ أنحاء الإمبراطوريَّة، تحتَ نِيرِ روما.

نظرَ مَرقُس حَوالَيه، وساءَلَ نفسَه كيف بقِيَت هَدسَّة على قَيد الحياة أساسًا.

‘‘لم يتخلَّ الله عنّي’’. تردَّدَت في ذهنه أصداءُ كَلِماتها هذه.

فقالَ هامِسًا: ‘‘هُنا البُرهان، هَدسَّة’’، والرِّيحُ الحارَّةُ الجافَّةُ تُثيرُ الغُبارَ حَوالَيه.

‘‘لم يتخلَّ اللّٰه عنِّي’’.

قعدَ مَرقُس على كُتلَةِ صوَّان. وتذكَّرَ بجلاءٍ أوَّلَ مرَّةٍ رآها في روما. كانت آنذاك واقفةً بينَ عبيدٍ آخرين عادَ بهم أخنوخُ من السوق، من أهل اليهوديَّة، مَهزولي الجِسم ومَسحوقي الروح. وقد وقفَتْ بينَهم صغيرةً، نحيلةً، حليقةَ الرأسِ تمامًا، وعَيناها كبيرتان جدًّا على وجْهِها... عينانِ خاليتان من الحقد لكنْ مُفعمَتان بالخوف. آنذاك صَعَقَه ضَعفُها، ولكنَّه لم يشعُرْ بالشَّفقة عليها. لقد كانت يهوديَّة، أليس كذلك؟ ألم يجلبْ شعبُها الهلاكَ على أنفُسِهم بالحرب الأهليَّة والعِصيان المسَلَّح؟

وها هو الآن يَرى هُنا الانتِقامَ الرُّومانيّ.

هَلِ استَحقَّ أيُّ شعبٍ خَرابًا عظيمًا كهذا؟ آنذاكَ لم يهمَّه هذا الأمر. فدونَ تفكيرٍ في ما قد كابدَته فتاةٌ عَبدة، كان قد نظرَ إليها فلم يَرَ أيَّ شيءٍ

يحظى باهتِمامه. لقد قال إنَّها بَشِعة، غيرَ مُنتَبِهٍ إلى الجمالِ الكامن في داخلها، إلى روحِها الرقيقة، إلى قُدرَتها على المحبَّة والإخلاص.

كانت صغيرةَ السنّ في أثناء سُقوطِ مدينة القُدس. وفي حداثتها، شاهَدَتْ آلافًا يموتون من جرَّاء الحرب الأهليَّة الدامية والمجاعة والإبادة. رجالًا ونساءً وأولادًا. وكم من الآلاف شاهدَت مُسَمَّرينَ على صلبانٍ حولَ المدينة؟ وكم من آلافٍ أكثرَ منهُم ساروا في الرّحلة الطويلة شمالًا إلى ساحات المحاربين وأسواق العبيد؟

وعلى الرُّغم من ذلك، بوُجودِ الدليل على الصَّدمةِ المادِّيَّة التي عانَتها ونيرِ العُبوديَّة حولَ رقَبَتِها، كانت في وجهِها عُذوبةٌ ذلكَ اليومَ في حديقةِ الدَّارة- عُذوبةٌ بَقِيَتْ غيرَ مُتَغيِّرةٍ حتَّى اليوم الذي مَشَت فيه خارِجًا تحتَ الشمس في ساحةِ المحاربين، وذِراعاها مَبْسوطَتان.

"لن يتخلَّى الله عنِّي أبدًا..."

فتأوَّه، ووضعَ رأسَه في يَدَيه.

وبينَما هو جالسٌ هنا في هذا المكان الخَرِبِ المقفِر، استَطاع أن يؤمنَ بأنَّ إلَهها قد أنقَذَها من مَوتٍ حتميّ في حداثتها. فلماذا إذًا تخلَّى عنها لاحِقًا، لـمَّا كانت محبَّتُها له أقوى بَعدُ؟

وإذ رفعَ مَرقُس نظرَه إلى الجَبَل المقدَّس، طَنَّ رأسُه بأسئلةٍ شتَّى. وقد شعرَ بأنَّه مُرتبِطٌ ارتباطًا غريبًا بهذه الرُّقعة الخَرِبَة من الأرض. فبِمَعنًى ما، عكسَتْ خَرابَ حياتِه هو لـمَّا فقَدَ هَدسَّة. لقدِ انطفأ النورُ في حياته، كما انطفأ تمامًا في مدينة القُدس. فمعَ هَدسَّة، كان قد أحسَّ الحياة. وفيها، عرفَ الرَّجاء. وبقُربها، ذاقَ الفَرَح. لقد أيقظَتْ فيه تَوقًا مزَّقَ نفسَه وشقَّها، وها هو مَتروكٌ الآن ينزفُ من جرَّاءِ ذلك... مجروحًا... ضائعًا.

ثُمَّ أطبقَ أصابعَ يَدَيه. ما كان ينبغي أن **يطلُبَ** منها أن تصيرَ زَوجتَه. بل كان ينبغي أن يأخُذَها إلى بَيته، ويجعلَها كذلك. ولو فعلَ ذلك، لكانَت ما تزالُ على قيدِ الحياة.

حوالَيه، خيَّم الصَّمتُ الثقيلُ مِثلَ كَفَنٍ فوقَ خِرَبِ

مدينة القُدس. وكادَ يسمعُ صُراخَ المائتين... نحيبَ الآلافِ تتردَّدُ أصداؤهُ عبرَ الوادي.

وسَمعَ أحَدَهم يبكي الآن.

فأصغى، ثُمَّ نهضَ وتوجَّهَ نحوَ الصَّوت.

وجدَ رجُلًا كبيرَ السِّنّ واقِفًا يبكي أمامَ أطلالِ ما بقيَ من حائطِ الهيكل الأخير. وقد كان كفَّاه وجبينُه مَضغوطةً على الحَجَرِ البارد، وكتِفاه تهتزَّان بالبُكاءِ المتقَطِّع. فوقفَ مَرقُس وراءَه، وراقبَ بشُعورٍ من الحُزنِ والخِزيِ يتعذَّرُ تفسيرُه.

ذكَّرَه الرَّجُلُ بأخنوخَ الأمينِ في روما قديمًا، وكيلِ دارةِ العائلة. وقد كان أبو مَرقُس مُتَساهِلًا حِيالَ جميع الأديان، فسمحَ لعبيده بأن يَعبُدوا أيَّ إلَهٍ بأيَّة طريقةٍ اختاروها. وكان أخنوخ يهوديًّا تقيًّا، يُطيعُ شريعةَ موسى حرفيًّا. فإنَّ اتِّباعَ حرفيَّة الشريعة كان أساسَ إيمانه، الصَّخرةَ التي عليها بُنيَ دينُه. غير أنَّ أخنوخَ لم تُتَح له قَطُّ الفُرصَةُ لتَقديم القرابين اللازمة التي تطلَّبَتها شريعتُه. فهُنا فقط، في مدينة القُدس، كانَ مُمكِنًا القيامُ

بذلك. هُنا فقط كان مُمكِنًا أن يُعطِيَ أخنوخُ الكهنوتَ المختارَ التَّقدِمَةَ المناسِبة لكي يُضَحَّى بها على المذبَح المكرَّس.

أمَّا الآن، فلم يُبقَ شيءٌ من ذلك المذبح المقدَّس.

پاكْس رومانا، السَّلامُ الرُّومانيُّ: بهذا فكَّرَ مَرقُس إذ شاهدَ الشيخَ يحزنُ على ما فُقِد. إنَّ بلادَ اليهوديَّة باتَتْ أخيرًا في سلامٍ، وذلك السَّلامُ بُنيَ على الدَّمِ والموت. فكم كلَّفَ السَّلامِ؟

هل عَلمَ تيطُس كم كان انتصارُه على اليهودِ عظيمًا؟ أم هل عَلمَ كم كان نصرُه كاملًا؟ لقدِ انتزَعَ منهم أكثرَ من مَبانٍ؛ لقد سَلَخَ قلبَ ديانتِهم تمامًا!

كان في وُسعِ الشعب أن يمضوا في دراسةِ الشرائع. وكان في وُسعهم أن يمضوا في التنبُّؤِ داخِلَ مَجامِعِهم. ولكنْ لأيِّ غَرَض؟ لأيِّ غاية؟ فمن دون الهيكل، ومن دون الكهنوت، ومن دون الذَّبائح المقرَّبة للتَّكفيرِ عن الخطيَّة، كانت

ديانتُهم خاوية. إنَّها قدِ انتهَت. فعِندَما دُكّت أسوارُ الهيكل وسقطَت، تداعَت كذلك أيضًا سُلطَةُ إلَهِهم القدير غير المنظور.

“آه، مَرقُس، يا محبوب، إنَّ الله لا يُمكِنُ أن يحتويَه هيكل...”.

فسدَّ مَرقُس أُذُنَيه بيَدَيه، مُتأوِّهًا. “لماذا تتكلَّمين إليَّ هكذا؟”

وسمعَ الشَّيخُ فالتَفتَ. ولـمَّا رأى مَرقُس، مضى مُبتعِدًا على عَجَل.

فانتَحَبَ مَرقُس. لقد بدا كما لو أنَّ هَدسَّة وقفَتْ بجانبه وسطَ خِرَبِ هذه المدينة القديمة. لماذا عادَ صدى كلماتِها بهذا الوُضوح إلى الحياة هنا في مكانِ الموتِ والخراب هذا؟ وبَسَطَ ذِراعَيه على مَداهما. “لا شيءَ هنا! إنَّ إلَهِكِ مَيْت!”

“لا يُمكِنُكَ أن تحصُرَ الله داخِلَ هيكل”.

“إذًا، **أين هو؟** أين هو؟” ولم يَرُدَّ ما بقيَ من الحائط سوى صدى صَوته.

"اطلبُ، تَجِد... اطلَب... اطلَب...".

غادرَ مَرقُس ظِلَّ الحائط الذي بَدَت عليه آثارُ الحرب، وسارَ بحَذَرٍ بينَ الركام حتَّى وصلَ إلى وسط الهيكل الخَرِب. فوقفَ على جُلمودِ صخرٍ كبيرٍ نِصفُه مَدفُون، وتطلَّعَ حَوالَيه.

أكانت هذه هي الصَّخرةَ التي عليها مدَّد إبراهيم ابنَه إسحاق ليُضحِّيَ به؟ أكان هذا هو المقدِسَ الداخليَّ، قُدسَ الأقداس؟ أهُنا قُطعَ العَهدُ بين الله وإبراهيم؟

ومدَّ مَرقُس نظرَه فوقَ التِّلال. في مكانٍ ما هُنالك صُلِبَ يسوعُ النَّاصريُّ، خارجَ أبوابِ المدينة، ولكنْ في مَوضعٍ يُمكِنُ أن يُرى من المكانِ الذي فيه أُعطِيَ الوعد. "إنَّ الله أرسلَ ابنَه الوحيدَ ليعيشَ بين الناس ويموتَ مَصلوبًا من أجل خطايانا... بواسطة هذا المسيح يُمكِنُ لجميع البشر أن يخلُصوا وينالوا الحياةَ الأبديَّة". هكذا قال ساتَيرُس، رُبَّانُ السَّفينة.

أكان من قَبيلِ الصِّدفة أنَّ يسوعَ الناصريَّ صُلبَ

في آثناء عيد الفِصح؟ آوَكان من قبيل الصِّدفة آنّ بدايةَ النهاية بالنسبة إلى مدينة القُدس قد بدأت في أثناء الاحتفال بالعيدِ نفسِه؟

كانَ الآلافُ قد تدفَّقوا إلى هذه المدينة لأجلِ العِيد... وهنا أطبقَ عليهم فَخُّ الحربِ الأهليَّةَ وفيالِقِ تيطُس. تُرى أكان كلُّ ما حدثَ مُجرَّدَ صِدفة، أم كانت هناك خُطَّةٌ ورسالةٌ لجميع البَشَر؟

إذا امتَطى حصانَه إلى جَمنِية، فربَّما يتعلَّمُ شيئًا من قادة الدِّين. وكان ساتَيُرس قد قال له إنَّ فَرِّيسيًّا يُدعى الحاخام يوحنَّان صار القائدَ الدينيَّ الجديدَ ونَقَلَ السَّنهدريمَ إلى هناك. وما إنْ خَطَرَت هذه الفكرة في بالِ مَرقُس، حتَّى طردَها. فإنَّ الأسئلةَ التي يحتاجُ إليها لن تأتيَ من أيِّ إنسان، بل من الله نفسِه... إذا كان الله موجودًا. وهو لم يعُدْ مُتيقِّنًا عمَّن كان يَبحثُ بَعد. أكان يبحثُ عن أدوناي، إلهِ اليهود، أم عن يسوعَ الناصريِّ الذي تعبَّدَت له هَدسَّة؟ فأيَّ هذين أرادَ أن يُواجِه؟ أم هما الإلَه الواحِدُ عينُه، كما قال ساتَيرُس؟

وهبَّت ريحٌ حارَّةٌ عبرَ الخِرَب، فأثارَت غُبارًا.

فامتلأ فَمُ مَرقُس مرارةً. ‘‘لقد فضَّلَتكَ عليَّ. ألم يكُن ذلك كافيًا؟’’

لم يُكلِّمه أيُّ صَوتٍ هادئٍ خفيفٍ في الرِّيح. ولا كان صدًى للكلمات التي سبقَ أن كلَّمَته هَدِسَّة بها. فانسدَّت حَنجرَتُه محرومًا. هل توقَّعَ حقًّا أن يأتيَه جوابٌ من الرِّيح؟

وإذ نَزَلَ عن سَطح الصَّخرِ الدَّاكن، رَفَسَ جانبًا قِطعةً غليظةً من الرُّخام المحروق، وانطلقَ راجعًا. ولـمَّا بلغَ المنحدَرَ الصغير، قعدَ تحتَ ظلِّ شجَرةِ الزَّيتون، شاعرًا بالحرارة والإحباط، مُتعَبَ النَّفس.

لن يَجِدَ أيَّ جوابٍ هنا، داخِلَ هذه المدينة الميْتة.

لعلَّه إذا رأى هذا المكانَ من الخارج، يفهمُ سببَ كَونه مُميَّزًا جدًّا بالنِّسبة إلى إيمان اليهود. لقد أرادَ أن يفهَم. بل كانَ عليه أن يفهم.

ثُمَّ حلَّ قَيد الحصان وامتطاه، وتَوَجَّه نحوَ التِّلال.

وعلى مدى الأيَّام الثلاثة التالية، ارتحلَ عبرَ الأودية، وعلى طُول السُّفوح، ووسطَ المنخَفضات، ناظرًا إلى مدينة القُدس من جميع الزوايا. فلم يُعجبْه منها شيء.

‘‘أيُّها الربُّ إلَهَ إبراهيم، لماذا اخترتَ هذا المكان؟’’ هكذا قال مَشدوهًا وغيرَ عالمٍ أنَّه كان يسأل إلهًا ادَّعى أنَّه لا يؤمن به. إنَّ تلالَ مدينة القُدس لم تكُن صالحةً للزِّراعة. ولا كان فيها رواسِبُ مَعدِنيَّةٌ ثمينة، وليسَت لها أهمِّيَّةٌ عسكريَّةٌ استراتيجيَّة. وكانت تبعدُ خمسةَ كيلومتراتٍ تمامًا عن أقربِ طريقٍ تجاريّ. ‘‘فلماذا هنا؟’’

‘‘الوعد...’’

ثُمَّ قال بصَوتٍ عالٍ: ‘‘«على هذه الصَّخرة سيُبنى إيمانُكم...»’’، غيرَ مُتَذكِّرٍ أينَ سبقَ أن سمعَ هذه العبارة. أكانت شيئًا قالَه ساتيرُس له، أم شيئًا تخيَّلَه هو؟

صخرة إبراهيم، هكذا فكَّر. صخرةُ تضحِيةٍ. ذلك

كانَ كلَّ ما حازَته المدينةُ المقدَّسة حتَّى يُعجَبَ بها المرء.

أم هل كانت مَدعاةَ إعجابٍ فعلًا؟

لم يعُد ذلك يهمُّه. فربَّما لم يأتِ لكي يَجِدَ الله قطعًا. وربَّما جاء إلى هذا المكان فقط لأنَّ هَدسَّة كانت هنا، وقد جُذِبَ إليه من أجلِ ذلك السبب وحدَه. لقد أرادَ أن يمشيَ حيثُ مَشَت؛ أن يتنفَّس الهواءَ الذي تنفَّسَته. أرادَ أن يشعُرَ بالقُربِ منها.

ولـمَّا خيَّمَ اللَّيل، لفَّ نفسَه بعَباءته، واستَلقى على الأرض ليَستريح. ثُمَّ وافاه النَّومُ مُتباطئًا، ومعَه أحلامٌ مُزعجة.

امضِ قُدُمًا... امضِ قُدُمًا... هكذا بدا أنَّ صَوتًا كان يهمس. إنَّ أسئلتَه لن تَلقى أجوبةً هنا.

ثُمَّ استَيقَظَ فجأةً، فرأى جنديًّا واقِفًا فوقَه، مُظلِّلًا مُقابلَ الشَّمس الطَّالعة. "إذًا، ما زِلتَ هنا". وبدا الصَّوتُ الساخِرُ مألوفًا.

فنهضَ مَرقَس. ‘‘نعم، ما زلتُ هنا’’.

‘‘إنَّ بيتَ عَنيا تبعُدُ ثلاثةَ كيلومترات إلى الشَّرق، وفيها فُندُقٌ جديد. تبدو كما لو كان في وُسعِك أن تستَفيدَ من نَومِ ليلةٍ جيِّد’’.

أجاب مَرقُس مُتهكِّمًا: ‘‘شكرًا على النصيحة!’’

‘‘هل وجدتَ ما تبحثُ عنه؟’’

‘‘لا، حتَّى الآن، ولكنِّي رأيتُ من مدينة القُدس كُلَّ ما أحتاجُ إلى رؤيتِه’’.

وأشرفَتِ ابتِسامةُ الجنديِّ على الإهانة. ‘‘إلى أينَ الآن؟’’

‘‘إلى أريحا ووادي الأُردُنّ’’.

‘‘ستَنطَلِقُ بعدَ ساعتَين سَرِيَّةٌ لِخَفْرِ الطريق. فرافِقْها راكبًا’’.

‘‘لو أردْتُ رِفقةً، لاستأجرتُها’’.

‘‘إنّ مَوتَ غبيٍّ واحدٍ يُمكِن آن يُكلِّف نفوسَ رجالٍ صالحين كثيرين’’.

فضاقَتْ عَينا مَرقُس بِبُرودة: ‘‘ماذا تعني؟’’

‘‘إنَّ روما تتجهَّمُ حيالَ مَقتلِ مُواطِنيها، مهما كانوا يتحدَّونَ الأقدار’’.

‘‘ليَكُن على رأسي الذَّنْبُ في أيِّ شيءٍ يحدُث’’.

فقال الرَّجُلُ مُبتَسِمًا نِصفَ ابتسامة: ‘‘طيِّب! لأنِّي قد أنجزتُ جميعَ عمليَّات الصَّلبِ التي أنوي إنجازَها في حياتي. ضَع رأسَكَ في فَمِ أسَد، وتوقَّعْ أن يُقطَع!’’ وهَمَّ بأن يمشيَ مُبتعِدًا، إلَّا أنَّه ما لَبِثَ أنِ استَدارَ والتفَتَ إلى مَرقُس، ووجهُه الجافي حائرٌ على نحوٍ غريب. ‘‘لماذا أنتَ هنا؟’’

‘‘إنِّي أبحثُ عن الحقيقة’’.

‘‘الحقيقةِ بشأنِ ماذا؟’’

فتردَّدَ مَرقُس، ثُمَّ ابتسمَ له ابتِسامةَ استِخفافٍ

بالذّات. ‘‘اللّه’’، وتوقّعَ آن يضحكَ الجُنديُّ عليه.

نظرَ الجنديُّ إليه بِضعَ لَحَظات، ثُمَّ حَنَى رأسَه انحناءَةً وحيدةً بطيئة، ومشى مُبتعِدًا دونَ أن ينبِسَ بكَلِمة.

امتَطى مَرقُس حَصانَه، مُتَّجِهًا شرقًا إلى قُمران. وكانت ‘‘مدينةُ الملح’’ هذه تقعُ على هَضَبةٍ عالية بقُربِ البحر المَيْت، وقد سكَنها أساسًا في ما مضى أَتْباعُ طائفةٍ يهوديَّة من الأتقياء، يُقالُ لَهمُ الأسّينيُّون، عكفوا على الدراسة والصلاة هناك. وعندَ اقتِرابِ خَطَرِ الغَزو، رحلَ أُولئك الأتقياءُ وخبَّأُوا دُروجَهم الثمينة كما اختبأُوا هم في كُهوفِ برِّيَّة اليهوديَّة، تارِكينَ المدينةَ للجُنودِ الرُّومان.

لـمَّا وصلَ مَرقُس إلى مُلتَقى الطُّرُق، انعطَفَ إلى المفرق المتَّجِه إلى أريحا نحوَ الشمالِ الشرقيّ. ورَكبَ في وادٍ عميق نتجَ عن الحتِّ والتعرية بفعل الماء في المنحَدَرات القاحلة الهابطة نحو وادي الأُردُنّ.

أشرقَتِ الشمسُ حارَّةً وثقيلة، ضاغِطةً عليه مع كلِّ ساعةٍ تمرّ. ثُمَّ توقَّف، وخلعَ عباءتَه، وحَلَّ القِربةَ الجلديَّة عن سَرجه، فشَرِبَ حتَّى ارتَوى، وبَخَّ شيئًا من الماء على وجهه.

وإذا بحصانه يشخُرُ فجأةً ويخطو جانبًا.

ففكَّرَ مَرقُس: **رُبَّما جفَّلَته سحليَّة،** ومالَ عليه ليُربِّتَه ويهمسَ له بكَلِماتٍ مُطَمئنة.

وتحرَّكَ شيءٌ عندَ حَدِّ نظرِ مَرقُس، بمُحاذاةِ حافَةِ الوادي. فتفحَّصَ البُقعةَ بانتباه، ولكنَّه لم يجِدْ شيئًا. وإذ دارَ قليلًا على سَرجه، نظرَ حواليه بحَذَر. وفي مكانٍ قريبٍ منه، اندفعَ شلَّالٌ من الحجارة نازلًا على مُنحَدرِ الوادي السحيق. وافترضَ مَرقُس أنَّ ذلك ناجمٌ عن مِعزاةٍ أُخرى كاللواتي رآهُنَّ قبلَ بضعة كيلومترات.

وإذِ انحنى ليُحكِمَ رَبْطَ قِربةِ الماء الجلديَّة بِسَرجِ حصانِه، جاءَ حينها حَجَرٌ طائرًا صَوبَ رأسِه. فأطلقَ الحِصانُ صَهيلًا عاليًا وتراجَعَ بحِدَّة، واستَقامَ هو بسُرعةٍ على السَّرج.

قفزَ أربعةُ رجالٍ كانوا يختَبِئون في حافَةِ الوادي وركضوا نحوه. فحاولَ شاتمًا أن يُسيطِرَ على حصانه. والتَقَطَ أحَدُ الرِّجال حَجَرًا لَقَّمَ به مِقلاعَه وهو راكِضٌ. فانحَنى مَرقُس إذ طارَ حَجَرٌ آخر مُجاوِزًا رأسَه. ورفعَ الحصانُ قائمتيه الأماميَّتَين بحِدَّةٍ، حتَّى لم يَكد مَرقُس يَقوى على البقاءِ فوقَ صَهوَتِه فيما وصلَ إليه أحَدُ الرِّجال وحاولَ أن يسحبَه ويُوقعَه.

وإذ هَبطَ الحِصان، تقدَّم لِصَّانِ للإمساكِ باللِّجام. فركلَ مَرقُس رجُلًا في وجهه، وأوقعَه إلى الوراء. وقفزَ آخَر، فرَاغَ منه مَرقُس، تاركًا زخمَ اندفاع الرَّجُل يُطوِّحُه فوقَ السَّرج، وقَلَبَه عن الحصان.

ارتاعَ الحصانُ مُطلِقًا صهيلًا عاليًا مرَّةً أُخرى، ورفعَ قائمتَيه الأماميَّتَين ثانيةً، فرفعَ أحَدَ الرَّجُلَين عن الأرض وأرخى قبضةَ الآخر. وأمسَكَ أحَدُهم بِمَرقُس من جَنبِه، فلَكَمَ بِمرفَقه وجهَ المهاجِم، وضَمَّ عَقِبَيه إلى خاصِرَتَي الحِصان. فوثبَ الفَرَسُ إلى الأمام، هاجِمًا على قاطعِ طريقٍ آخَرَ قُدَّامه. واستَطاعَ الرجُل أن يَنحنيَ ويَحيدَ إلى جانبٍ واحدٍ من الطريق، ثُمَّ وقفَ على قدميَه، ورجَّحَ

مقلاعَه مُطلِقًا الحجرَ منه.

انفجَر الألَمُ في رأسِ مَرقُس إذ أصابَ الحجرُ هدفَه. فارتخَتْ أصابِعُه على الزِّمام، وفقدَ توازُنَه. واستَطاعَ أن يسمَعَ حوالَيه أصداء كَلِماتِ الجنديّ: **"ضَع رأسَكَ في فَمِ أسَد، وتوقَّعْ أن يُقطَع!"** ثُمَّ أحسَّ أيدِيًا عليه، تجُرُّه عن السَّرجِ. فحاوَلَ أن يُكافِحَها، ولكنَّ ذلك لم ينفَعْ فسقطَ على الأرض سِقطةً قويَّة، وانقطَعَ نَفَسُه. وإذ شهِقَ مُحاوِلًا أن يتنفَّس، رفسَه واحِدٌ من قُطَّاع الطُّرق أولئك على رأسه، وآخَرُ على جنبه. ثُمَّ جاءتْ رفسةٌ أخيرة على أعلى فخِذِه لتُحرِقَه بألَمٍ ناريّ، وما لَبِثَ أن هَوى شاكرًا في بئرٍ من الظَّلام.

ثُمَّ أفاقَ أسرعَ ممَّا يُتوقَّعُ بكثير.

وقال أحَدُهم: ''خِنزيرٌ رومانيٌّ نَتِن!'' ثُمَّ بصقَ عليه.

ووسط شعورٍ حادٍّ بالألم، أحسَّ مَرقُس أياديَ تَنتزعُ ما في حَوزَتِه بسُعرٍ شديد. فقد نزعَ

أحَدُهم القلادة الذهبيَّة من حَولِ عُنُقِه. وسحبَ آخَرُ حِزامَه، آخِذًا معه الأوريوسات الذهبيَّةَ المخبَّأة فيه. ولـمَّا أحسَّ أنَّ واحِدًا منهم يُحاولُ أن يُزَلِّقَ من إصبعه الخاتَمَ المنقوشَ الذي كان أبوه قد أعطاه إيَّاه، أطبقَ قبضتَه بإحكام. وإذا ضَربةٌ بقَفا اليَدِ تُسدَّدُ إلى جانبِ رأسِه. فذاقَ دمًا، وكافَحَ للبَقاء واعيًا. إلَّا أنَّ أصابِعَه ارتخَت، وأحسَّ خاتَمَ أبيه يُنزَعُ منه.

وتناهَت إليه أصواتٌ من الضَّبابِ الساحق.

‘‘لا تقطعوه الآن. التُّنكُ من الكَتَّانِ الفاخِر. اخلَعوه عنه أوَّلًا’’.

‘‘عجِّلوا! أسمَعُ دَوريَّةً رومانيَّةً آتية’’.

‘‘التُّنكُ سيُباعُ بسِعرٍ جيِّد’’.

‘‘هل تتوقُ لأن تُسَمَّر على صليبٍ رومانيّ؟’’

ثُمَّ نُزِعَ التُّنكُ عنه.

‘‘ارموه في الوادي. إذا وجدُوه، فسيَأتون باحثينَ

عنَّا''.

وهسَّ واحِدٌ مِنهُم: ''عجِّلوا!'' ثُمَّ أمسكوه بِعَقِبَيه وجرُّوه.

تأوَّهَ مَرقُس إذ مزَّق صَخرٌ ظهرَه العاري. لقد أسقَطوه بقُربِ الحافَة. ''عجِّلوا!'' وبدأ رجُلٌ يركض، فيما سحبَ الذي بقيَ سِكِّينًا معقوفة.

قال الرجُل: ''رومانيٌّ أحمَقُ!'' وبصَقَ على وجه مَرقُس. ورأى مَرقُس شفرةَ السِّكِّين تَهوي، فانقلَبَ غريزيًّا. وأحسَّ السِّكِّينَ تشطبُ قَفَصَه الصَّدريَّ فيما سقطَ على حافةِ الوادي. فاصطدمَ بعِرْقٍ صخريٍّ ضيِّق، ثُمَّ تدحرَجَ وانزلقَ نزولًا على الضفَّة المسنَّنة. وسبَّ الرَّجُلُ الذي فوقَه بفَظاظة. أمَّا الآخرون فكانوا يصرُخون من بُعد. ونقرَ الأرضَ وَقعُ حَوافِر.

مدَّ مَرقُس يدَه، وهو يئنُّ، مُحاوِلًا أن يتمسَّكَ بشيءٍ ما. وقد جعلَ الألمُ الحارِقُ في جنبهِ تنفُّسَه شِبهَ مُتعذِّر. وإذ رفعَ نظرَه نحوَ العِرقِ الصخريّ، اضطربَ بَصَرُه وراحَ يرى الشيءَ

شيئَين، فإذا بالدُّنيا تدورُ حَوالَيه. فكافَحَ الغَثَيانَ وهو مُنطَرِحٌ عاجزًا في عُرضِ جانبِ الوادي المنحَدِر، عالِقًا على نُتوءٍ صخريّ.

ثُمَّ اقتربَ وَقعُ حوافِرِ الخَيل.

فحاولَ مَرقُس أن يُنادي، ولكنَّ الكَلِمات خرجَت أنَّاتٍ عميقةً وحاولَ أن يجرَّ نفسَه إلى أعلى، إلَّا أنَّه سقطَ إلى الوراء وانزلقَ بِضعَ أقدامٍ أُخرى على السَّفح الشديد الانحِدار.

وكانتِ الأحصِنةُ قد صارَتْ فَوقَه تمامًا على الطريق.

فكافحَ كي يبقى واعيًا، وقال بلهجةٍ مُضطرِبة: ‘‘النَّجدةَ... النَّجدة...’’

عندئذٍ خَفَتَ وَقعُ الحوافر، وانجرَفَت غمامَةُ غُبارٍ في مَهوى الوادي.

خيَّمَ السُّكون. فما من طَيرٍ ليَشدو. وما من نَسَمةٍ لتُحدثَ حَفيفًا في الأعشابِ الضئيلة أو الأشواكِ الهشَّة. إنَّما كانتِ الشمسُ وحدَها

ضارِبةً إيَّاه مِن فوق، كُرَةً من النُّورِ الحارّ الذي لا يرحَم.

ثُمَّ أطبقَ عليه اللَّاشَيء.

رتَّبَتْ هَدسَّة القارورات الصغيرة والقنانيَّ والعُلَب على الرَّف، فيما حملَ راشِد وألِكسَندر إلى الداخل طاولةَ فحص. وكانت هَدسَّة قد أمضَت ساعاتِ الصباح كلَّها مُفكِّرةً في مَرقُس. فأغمضَت عينَيها مُتسائلةً لماذا غمرَها القلَق. ولم تكُن قد لمحَتْه منذُ يومَ اصطدمَ بها أمامَ الحمَّامات. فلماذا حَضَرَ في ذهنها بهذه القوَّة البالغة الآن؟

يا ربِّ، أينما كان، ومهما كان فاعلًا، احرسْه واحفظْه!

عادَتْ إلى شُغلِها، وحاولَتْ أن تُركِّزَ على وَضْع العقاقير والأدوية في تَرتيبها الصحيح. وكان ألِكسَندر ورشيد قد خرجا ثانيةً، واستَطاعَتْ أن تسمعَهُما يتحدَّثان بينما ينزلان الدَّرَج.

كان المالُ الذي أعطاه ماغونيانُس لِألِكسَندر لقاءَ توليد ابنهِ بسلامة قد أُنفِقَ كلُّه على استئجار هذه العيادة الأفخمِ والأوسعِ والأكثر قُربًا إلى وَسط أفسُس ومدرسة الطِّبِّ التي كان فليغون يُعلِّم فيها.

لـمَّا أطلعَ ألِكسَندر هَدسَّة على قراره غداةَ تَوليدهِ طِفلَ أنطونيا بسلامة، قال لها: ‘‘أعلَمُ أنَّها مُخاطَرة، ولكنِّي أعتَقدُ أنَّنا سنَحتاجُ إلى تسهيلاتٍ أفضلَ لِمَرضانا’’.

‘‘إنَّ المرضَى الذين خدمتَهم بقُرب الحمَّامات لن يأتوا إلى هناك’’.

‘‘قد يأتون؛ وإنْ لم يأتوا، فسيَأتي آخرون... أصدقاءُ ماغونيانُس’’.

‘‘وهل لَدَيهم احتياجٌ أكثرُ ممَّا لدى الآخرين؟’’

فأجاب ألِكسَندر: ‘‘لا، ولكنَّ في وُسعهم أن يدفَعوا، وأنا في احتياجٍ إلى المال لتَعزيزِ دراساتي’’.

‘‘ماذا عن بُويثِوس وزوجتِه وأولادِه؟ وماذا عن إفيخاريس وهيلانة؟’’

‘‘لن نتخلَّى عنهم. سأبعَثُ برسائلَ إلى جميع المرضى الذين عايَنَّاهم وأُعلِمُهم أينَ يمكنُ أن يَجِدونا إذا احتاجوا إلينا بَعدُ’’.

ارتاعَت هَدسَّة حيالَ العَجَلة التي كان ألِكسَندر يُقرِّرُ بها قراراتِه... والاتِّجاه الذي كانت تلك القراراتُ تسوقُه به.

فأمالَ وجهَها نحوَه برِفق. ‘‘يجبُ أن تثِقي بي، يا رافا’’.

وتراجعَت قليلًا. ‘‘لماذا تَدعونني بهذا الاسم؟’’

‘‘هو ما يدعوكِ الناسُ به’’.

‘‘ولكنْ هوَ الرَّبُّ مَن...’’

فوضعَ رأسَ إصبعِه على شفتَيها. ‘‘أجرى المعجزات. نعم، أنا أعلمُ أنَّكِ تؤمنين بهذا. فآمِني إذًا بأنَّ الرَّبَّ هو مَن دَبَّرَ هذا الاسم’’.

‘‘لأيِّ غَرَض؟’’

‘‘ليَحميَ هُوِيَّتَكِ من الذين حاوَلوا إهلاكَكِ. إنَّ ماغونيانُس يتنقَّلُ في دَوائرِ الأغنياء والمتَنفِّذين. فسَيكونُ من المفيد أن تُطلِعيني على اسمِ العائلة التي كانت تملكُكِ، حتَّى يتسنَّى لنا أن نتجنَّبَ أفرادَها. ما دَمتِ لَن...’’

فأشاحَت بناظرَيها، ولكنَّه أدارَه نحوه من جديد، رافعًا ذقنَها وناظرًا في عَينَيها. ‘‘هَدسَّة، أنتِ مُهِمَّةٌ إلى أقصى حدٍّ عندي الآن. لن أُخاطِرَ بفُقدانِك’’.

قفزَ قلبُها قفزةَ إجفال، وتأمَّلَتْ عَينَيه، مُتسائلةً:
مُهِمَّةٌ بأيِّ طُرُق؟

‘‘ما فعلتِهِ البارِحة...’’

قالت بإصرار: ‘‘لم أفعلْ شيئًا’’.

‘‘لقد صلَّيتِ. واللّٰه سَمعَ وفعلَ كما طلبتِ’’.

فاتَّضحَ لها تفكيرُه. ‘‘لا! ليس في وُسعِكَ أن

تستغلَّ الله، يا آلِكسَندر. إيَّاك أن تُفكِّر في هذا أبدًا. ليس في وُسعِكَ أن تُصلِّيَ راجيًا الحصولَ على ما تُريد. إنَّما مشيئةُ الله هي التي تُستَعلَن. فالله هو مَن أنقذَ أنطونيا وابنَها. الله، لا أنا''.

''لقد سَمِعَكِ''.

فقالَت- والدُّموع تُلهِبُ عينَيها: ''ليس أكثرَ ممَّا يسمعُكَ''.

فاحتَضنَ وجهَها بِراحتَيه. ''ربَّما يكونُ الأمرُ كذلك، وإذا كان فهو يسمعُني الآن شاكرًا إيَّاه على إتيانِه بكِ إلى حياتي. لقد خِفتُ عليكِ البارحة. وكذلكَ راشِد أيضًا. ثُمَّ جاءَ الجوابُ واضِحًا كما لو أنَّ شخصًا كان يصيحُ عندَ قاطع السَّقيفة''. وضَحِك. ''رافا. هَيِّنٌ جدًّا. وبهذا ستُدعَين''. ولمحَ قلقَها. ''فليستَرِحْ ذهنُكِ''.

ولكنَّ كلَّ شيءٍ حدثَ بسُرعةٍ فائقة، حتَّى لم تَكَدْ تقوى على التفكير.

فما ظنَّ ألكسَندر وراشد أنَّه سيَحدُث، حدثَ فعلًا. فلمَّا وصلا إلى دارة ماغونيانُس أواخِرَ العصر، أُدخِلا حالًا إلى مَهاجعِ أنطونيا. إذ كانت قد بدأت فعلًا باستِقبال زُوَّار. وكان الطِّفلُ النائمُ مُضجَعًا على ذِراعَيِ الوالِدَة الجديدة، فيما أحاطَتْ بهما ثلاثُ نساءٍ يتَهامَسنَ ويتَضاحَكْنَ ويُبدينَ إعجابَهنَّ بالمولود. أمَّا ماغونيانُس فكان واقِفًا على مَقرُبة منهنَّ مُبديًا سِيماءَ افتِخارِ الوالدِ الجديد.

لقد رآهُما ماغونيانُس أوَّلًا، فوَضَعَ يدَه على كَتِفِ زَوجته الشابَّة. ''ها هُما قد حَضَرا، حبيبتي''.

فالتفتَتْ إليهما النِّسوةُ كلُّهنَّ، وسَكَتن. وكانت يدُ ألِكسَندر قدِ اشتدَّت تحتَ ذراعِ هَدسَّة إذِ اقتربا إلى السَّرير، وهَدسَّة قد شعرَتْ بالفُضولِ الحادِّ الذي أبدَتْه النِّساءُ الثلاث، فطأطأت رأسَها قليلًا كما لو كان في وُسعهنَّ أن يَرَين ما وراءَ الحجاب.

وقدِ ابتسمَ ألِكسَندر لأنطونيا من عَلُ، قائلًا: ''أنا ورافا رَجَعنا لنَرى كيفَ حالُكِ، سيِّدتي. إنَّكِ تظهرِينَ في حالٍ جيِّدة''.

“إنَّهما حقّا في حالٍ جيِّدة”. هكذا قال ماغونيانُس وعيناه مُشرِقتان.

وبعدَما ابتسمَتْ أنطونيا لألِكسَندر، نظرَت إلى هَدسَّة، ثُمَّ قالت بصَوتٍ منخفض: “شُكرًا لكما”، ومدَّت يدَيها قليلًا رافعةً الطِّفلَ لهَدسَّة: “هلَّا تحملينَه!”

فحملَت هَدسَّة الطِّفلَ بانتباهٍ على ذراعَيها، ولمسَت خدَّه المخمليَّ الناعم، مُتَمتِمةً: “يا ربّ، بارِك هذا الطِّفل. احفَظه سليمًا ونشِّئهُ كي يكون ابنًا لك”. فتحرَّك رأسُ الطِّفلِ قليلًا، وحرَّكَ شفتَيه كما لو كان يرضَع. وأطلقَتْ هَدسَّة ضِحكةً لاهثة.

“مَرقُس...”

لقد ملأَ همسُ اسمه الرقيقُ عقلَها وقلبَها. أكان ذلك فقط لأنَّها حملَتْ على ذراعَيها طِفلًا مَولودًا حديثًا، وعَلِمَت أنَّه كان مُمكِنًا أن تحمِلَ واحدًا منه؟ واغرورقَتْ عَيناها، ثُمَّ ردَّتِ الطِّفلَ إلى أُمِّه. “إنَّه جميلٌ جدًّا”.

آهِ مَرقَس، ما زلتُ أحُبُّك. ما زلتُ أحِبُّكَ كثيرًا جدًّا.

مَرقُس... مَرقُس...

أبتاه، لم تكُن مشيئتُكَ أن أُغرَمَ برَجُلٍ يرفضُك، أليس كذلك؟ ساعِدْني لكي أنساه. كيف يُمكِنُ أن أخدِمَك بإخلاصٍ من كُلِّ القلب وأنا أتوقُ إليه؟ أنتَ تعرِفُ أعمقَ أشواقِ قلبي. رجاءً، يا ربّ، أزِح هذا الحِملَ عنّي...

أمَّا الآن، فإذ رتَّبَتِ العقاقيرَ والأعشابَ الشافيةَ في العيادة الجديدة، عاودَها الهَمسُ الرقيقُ من جديد، بإلحاحٍ يأبى أن يبتعد.

مَرقُس... مَرقُس... مَرقُس...

أحسَّتِ النِّداءَ وضغطَتْ قلبَها بقبضَةِ يَدِها.

يا ربِّ، كُن معه. احرسْه واحمِه. أقِم ملائكةً حَوالَيه. أبتاه، فليَعرِفْ رحمتَك...

حملَ ألِكسَندر طاوِلةَ الكِتابةِ الصغيرةَ صاعِدًا الدَّرَج. وصدمَ حافَتَها بالباب، فضربَ أصابِعَه بعُنف. فأطلقَ شتيمةً بصَوتٍ هامس، وحملَ حِملَه الخَشِنَ إلى داخل الغُرفة، حيثُ وضعَه على الأرض بخَبطةٍ قويَّة.

كانت هَدسَّة جاثيةً على رُكبتَيها، حانيةً رأسَها، ويداها مُلصقتانِ بصَدرِها.

ودخلَ راشِد وراءَه حاملًا حاجزًا مَطليًّا. فرآها أيضًا، ونظرَ إلى ألِكسَندر مُستَفسِرًا. فهزَّ ألِكسَندر كتِفَيه استهْجانًا. وشرعا بهدوءٍ في عملِهما، واضِعَينِ الأشياءَ في أماكنِها الصحيحة.

وفجأةً وَكَزَ راشِد ألِكسَندرَ بمِرفَقِه، وقد بَدَتْ في عَينيه الداكنتَين نِظرةُ خَوف. فأدارَ ألِكسَندر رأسَه، وشعرَ بإحساسٍ وخَّاز يسري في عموده الفِقريّ.

كانت هَدسَّة ما تزالُ راكِعةً في الوضعيَّةِ ذاتها، وقد غمرَها شُعاعٌ من نور الشَّمس!

١٤

التَفَتَ عَزرا بارياكين من فوقِ كَتِفه، ونادى ابنتَه قائلًا: ‘‘تَفاثا، علينا أن نُعَجّل، وإلَّا فلن نَصلَ إلى أريحا قبلَ هُبوطِ اللَّيل!’’ ثُمَّ ضربَ جنبَ حِمارهِ بالعصا. وكانت تَفاثا تتبعُه على حمارٍ أصغر، فأطاعَت أمرَه، إلَّا أنَّها نقرَتْ وَرِكَي الحيوان نقرًا خفيفًا بحيثُ تابعَ سيرَه البطيء. ‘‘اضربي ذلك الحيوان الكسول بعَصاكِ، يا ابنتي! ولا تُدلِّليه بها’’.

فعضَّتْ تَفاثا شفتَها، وشدَّت يدَها بالعصا على الحَيَوان، فأسرعَ في سَيره.

هزَّ عزرا رأسَه، واستَدارَ من جديد، مُحَملِقًا بِتَوتُّرٍ إلى الطريقِ الممتَدِّ أمامه. لم يكُن ينبغي له أن يشتريَ ذلكَ الحِمار. فقد كان صغيرًا وأليفًا فوقَ الحَدّ، ولكنَّه حَسِبَه مُلائمًا جدًّا لحفيده، شِمعي. غير أنَّ طبيعةَ الحيوانِ الهادئةَ كانت الآن تُعرِّض سلامتَهما للخَطَر. فلو كان هو يسوقُ هذا الحيوانَ فيما تَفاثا تمتَطيه، لتحرَّكا بسُرعةٍ أكثر.

ثَمَّ رفعَ نظرَه مُستَطلِعًا الطريقَ قُدَّامه. وكان من عادة اللُّصوص أن يختبئوا في تلك التِّلال، مُنتظِرينَ المسافِرين المنكودين. فضربَ جنبَ حماره بقوَّةٍ مرَّةً ثانية، فانطلَقَ الحيوانُ يَعدو على نحوٍ أسرَع صاعدًا المنحدَر. وقد كان من شأن عزرا أن يشعرَ بمزيدٍ من الأمان حالَما يبلُغان أعلى التِّلال فيتَمكَّنان من أن يَرَيا دونَهما المنحَدراتِ النازلة إلى أريحا. أمَّا هنا فكانت الطريقُ مُوحشةً، والشَّمسُ حارَّة، وخَطَرُ المهاجَمة حائمًا حولَه مثل طُيورِ الجِيَفِ التي رآها تُحلِّق أمامَه في الأعالي.

والتَفَتَ ثانيةً إلى تَفاثا، آمِلًا ألَّا تكونَ قد رأتِ الطُّيور. فنقرَتِ الحيوانَ اللطيفَ ثانيةً. وبعدَ لحظاتٍ، عَلِمَ أنَّها ستُشفِقُ على الحمار وتسوقه بَدَلَ أن تمتَطيَه. ‘‘علينا أن نُعجِّل، يا ابنَتي’’. ما كان ينبغي له أن يُصغيَ قَطعًا إلى أخيه أمني ويصطحِبَ تَفاثا في هذه السَّفرة. ولكنْ لـمَّا كان أمني هو الأكبرَ والأنجحَ في العائلة، فقد أهابَه دائمًا.

والآن، ها هي تَفاثا عائدةٌ مع أبيها على هذا

الطريق غير الخاضع لسَيطرة القانون، وقد كانَتِ السَّفرة كارثةً تافهة. فلم يقتصرِ الأمرُ على عدم التوصُّل إلى اتِّفاقٍ على الزواج، بل قُطِعَتْ أيضًا أواصِرُ عائليَّة. وكانَ من غير المرجَّح أنَّ أمني سيُسامِحُه يَومًا أو يُسامحُ تَفاثا من أجل الانهيار الذي حصل.

تُرى، ماذا كان في وُسعه أن يفعلَ غيرَ ما فعل؟ لو تجاهَلَ أمني وتركَ تَفاثا في البيت، أكانَ كلُّ شيءٍ جرى كما تمنَّى؟ وماذا لو تزوَّجَتْ من أدونيًّا؟ أكانَ هذا الزَّواج أسفرَ عن كارثة؟

لقد سلَّمَ بأنَّه لَولا حُضور تَفاثا لَسُوِّيَت مسألةُ زواجها بسهولة... لو أنَّ أمني كان مَنطقيًّا وأدونيًّا أقلَّ إصرارًا على سلوكِ سبيله الخاصّ.

تطلَّعَ عزرا حوالَيه. لقد كانت لَدَيه دواعي قَلَقٍ كافيةٌ في محاوَلَته ترتيبَ مُستقبَلٍ آمِنٍ لِتَفاثا. والآنَ زِيدَ عليه عِبءُ القَلَق من أن يُهاجمَها لُصوصٌ ويسلبوها عِفَّتَها.

لم يكُن أدونيًّا قطُّ خِيارَ عزرا الأوَّلَ زَوجًا لِتَفاثا. إذ

كان خِيارَه الأوَّلَ يوسُف. وقد كان يوسُف ابنَ فَخَّاريٍّ من سِبطِ بنيامين، ومُكرَّسًا لله من كُلِّ القلب. غيرَ أنَّ يوسُف قد رحل. فقدِ اعتقلَه الجُنودُ الرُّومانُ قبلَ سنة، وأخذوه إلى خارجِ أسوار المدينة، وصلبوه.

كانت تَفاثا في الخامِسةَ عشرةَ الآن، أكبرَ من أُختِها لـمَّا تزوَّجَتْ بسنةٍ كاملة. وقد باركَ الله ابنتَه بَسيماثَ بابنٍ وابنة. فلا بُدَّ أن يُباركَ تَفاثا أكثرَ بَعد، لأنَّها كانت مُكرَّسةً للرَّبّ.

عليه أن يَجِدَ لها زَوجًا صالحًا ويضمنَ سعادتَها المستَقبَليَّة، فضلًا عن استمرارِ سُلالتِه وميراثِه. فقد ماتَ كثيرون جدًّا في مدينة القُدس. وكثيرون جدًّا آخرون كانت نهايتُهم في ساحات المحاربين الرُّومانيَّة. وأقلِّيَّةٌ ثمينةٌ بيعوا عبيدًا لِسادةٍ رومانيّين، وباتوا مُشتَّتين في أنحاء الأراضي المخضَعة.

لقد سبقَ أن وعدَ الله بأن يكون نسلُ إبراهيم كثيري العدد كالنُّجوم. إنَّما لم يكَدْ يبقى إلَّا قِلَّةٌ ضئيلة جدًّا، وذلك العَدَدُ المحزِن كانَ يتعرَّضُ

للتَّمحيص بَعد. فقد أصدَرَ فسبازيان مَرسومًا يَقضي بأن يُقتَلَ جميعُ المتحدِّرين من داوُد، ولذلك السبب وحدَه سُمِّرَ إسحاقُ على صليب.

‘‘اللَّهُمَّ، لماذا تخلَّيتَ عنَّا؟ ماذا سيَجري لابنتي الصُّغرى؟’’

في أريحا كُلِّها، لم يعرِفْ عزرا رجُلًا واحدًا صالحًا كفايةً ليَكونَ زَوجًا لها. فكثيرون ادَّعَوا أنَّهم يَهودٌ أصيلون، ولكنَّهم فسَّروا الشريعةَ بمُقتضى أهوائهم. وقد كان عددٌ قليلٌ من الرِّجال الصالحين ذوي الإيمان القويِّ ما يزال غيرَ مُناسِب بسبب الزَّواج المختلَط. فكان من شأن بَرثُلماوس أن يكون مُمتازًا لِتَفاثا، إذ كان- على غِرارها- تقيًّا وقويًّا في روح الرَّبّ. غير أنَّ أباه- واأسفاه!- كان يونانيًّا. كذلك كان يوسيفوس شخصًا آخَرَ فاتَحَ عزرا في الموضوع بِضعَ مرَّات. فإنَّه كان رجُلًا صالحًا، ولكنَّ جدَّتَه كانت سوريَّة.

وفي خضمِّ كآبته الشديدة هذه، ضربَ عزرا حمارَه بالعصا مُجدَّدًا. لقد كان مُتيقِّنًا جدًّا بأنَّ مُستَقبَلَ تَفاثا سيُسوَّى بهذه السَّفرة. إذ كان

على يَقين بأنّ آمني، حينَ يرى جمالَها وروحَها الوادِعة وطهارتَها، لا بدَّ أن يُريدَها عَروسًا لابنه. فأيُّ أبٍ لا يودُّ ذلك؟ وهو كان على حقّ.

ذلك أنَّ أمني كان قد قال بهدوء: ‘‘إنَّها رائعة، ولكنَّ أدونيًّا يُصِرُّ على رؤيتها أوَّلًا. وأنا سأنصحُه بالتَّأكيد. فهي فاتنةٌ تمامًا’’.

ولـمَّا انضمَّ أدونيًّا إليهم، لم يَكَد ينظرُ إلى عزرا، وحيَّاهُ تحيَّةً خاطِفةً فحَسْب. كان وسيمًا، تستبدُّ به مِشيَةُ كِبرياء، وقد تثبَّتَت حَملَقتُه على تفاثا إذ فوجئَ بها، ولامسَت فمَه ابتسامةٌ ضئيلة. وفيما هو يتفحَّصُها، تَباهى أمني بفطنةِ ابنه في شؤون الدِّين والتِّجارة. وإذ رضيَ أدونيًّا بما رأى، اقتربَ إليها بجسارة. وضَحِكَ أمني لـمَّا أمسكَ ابنُه بذَقنِ تَفاثا ورفعَ رأسَها قائلًا: ‘‘ابتَسِمي لي، يا ابنةَ العَمّ!’’

وعندئذٍ بادرَتِ ابنةُ عزرا التي ما عَصَت له أمرًا مرَّةً، ولا سبَّبت له غمًّا، إلى التَّراجُع أمام أدونيًّا، قائلةً بكُلِّ وضوح: ‘‘لن أتزوَّجَ هذا الرَّجُل، يا أبي’’.

فتجهَّمَ وجهُ آدونيَّا على نحوٍ مَلحوظ، وقال بلهجةِ الآمِرِ الساخِر: ‘‘ماذا قُلتِ؟’’

فنظرَت في عَينَيه مُباشَرةً. ‘‘لن أتزوَّجَ بأيِّ رجُلٍ يُعامِلُ أبي بازدِراء، أو يتجاهلُ نصيحةَ أبيه’’. وإذ قالَت ذلك، غادرَتِ الغُرفةَ بسُرعة.

ولـمَّا فكَّرَ عزرا في ذلك، ساورَتْه البُرودةُ من جديد.

لقد صاحَ أمني، مُسخَطًا ومُهانًا: ‘‘ابنتُكَ مجنونة!’’

فأجالَ عزرا نظرَه بين أخيه وابنِ أخيه، شاعرًا بالخِزيِ ارتباكًا.

وقال أدونيَّا مُتغَطرِسًا: ‘‘اذهَب وكلِّمها، يا عمُّ. لا يُرجَّحُ أنَّ ابنةَ عمِّي الجميلة ستَلقى فُرصةً أفضلَ من هذه’’.

وكلَّمْها عزرا.

إلَّا أنَّها قالت باكيةً: ‘‘من الجنون أن أتزوَّجَ برَجُلٍ

كهذا، يا أبَتِ. إنَّه ينظرُ إليكَ كما لو كُنتَ دونَه لأنّ صُرَّةَ مالهِ أثقل. وهو يرفض نصيحةَ أبيه، وينظر إليَّ كما لو كُنتُ عِجلةً لِقرابينه الوثنيَّة. هل رأيتَ وجهَه؟"

"إنَّه وسيمٌ جدًّا".

فهزَّت رأسَها، ووجهُها في يَدَيها. "إنَّه مُتكبِّرٌ جدًّا".

"تَفاتا، إنَّه من سِبطِنا، ولم يتبقَّ كثيرون منَّا. إنَّ أمنني رجُلٌ بارٌّ".

"أيُّ بِرٍّ فيه، يا أبي؟ أكان في عَينَيه لُطف؟ أحيَّاكَ باحتِرام؟ هل غسلَ أخوك قدمَيك أو قبَّلك؟ وماذا كان من أدونيَّا لـمَّا دخلَ الغُرفة؟ هل كلَّمَكَ بالاحترامِ الواجبِ تُجاه مَن هو شَيخ؟ إنْ كانا لا يستَطيعان أن يُحِبَّاك، فلا يُمكِنُ أن يُحبَّا الله".

"أنتِ تَحكُمين عليهما على نحوٍ غايةٍ في القَسوة. أعلَمُ أنَّ أمنني مُتكبِّر. إنَّ له بعضَ الحقِّ في أن يكونَ كذلك. فهو قد عملَ ثروةً لنفسِه.

إنَّه...’’

‘‘لقد نظرَ أدونيَّا إليَّ، أبتِ. **نظر** إليَّ. لا إلى داخلِ عينيَّ، ولا مرَّة. فكان ذلك كما لو أنَّه كان... يلمسُني. وقد كنتُ باردةً حتَّى داخِلَ عِظامي’’.

‘‘إذا لم ترغبي في الزواج بأدونيَّا، فماذا يُمكِنُني أن أفعلَ لك، يا تَفاثا؟’’

عندئذٍ انطرِحَت على الأرضِ أمامَه، وجبينُها على قدمَيه، وكَتِفاها تَرتجِفان: ‘‘سأبقَى معك، أبَتِ. سأعتَني بِك. رجاءً، لا تُعطِني لهذا الرَّجُل’’.

لطالما كانت دموعُها سببَ خَرابِه كلَّ حين. فمن ثَمَّ ذهبَ إلى أخيه وأعلمَه بأنَّه لن يكونَ زواجٌ.

‘‘لقد عرضْتُ على ابنتِكَ شَرَفًا عظيمًا، فتجرَّأتْ على إهانتنا. خُذها وانصَرِف. لن تكونَ لي أدنى عَلاقةٍ بك، أو بأيِّ فَردٍ في عائلتك’’.

وما إنْ رفعَ عزرا تَفاثا إلى ظهرِ الحِمار، حتَّى صاحَ به أمني من الباب: ‘‘ابنتُكَ مجنونة، وكذلكَ أنت أيضًا!’’

واستَلزمَ الأمرُ كُلَّ ذرَّةٍ لَدَيه من ضَبطِ النَّفس حتَّى لا يُجاوِبَ بالمثل. فقد نظرَ إلى تَفاثا، فابتسمَتْ له وعَيناها رائقتان.

لَرُبَّما كان مجنونًا. فالمجنونُ وحدَه يكونُ على هذا الطَّريق البغيض!

سفعَته حرارةُ الظَّهيرة. وكان فمُه مشدودًا في خُطوطٍ قاتمة إذ حثَّ الحمارَ على الإسراع. لقد عَلمَ أنَّ عليه أن يتوكَّلَ على الرَّبّ. فمن شأنِ الربِّ أن يُدبِّرَ لِتَفاثا زَوجًا بارًّا- زَوجًا من سِبطها.

ولكنْ لا تتأنَّ كثيرًا جدًّا، يا ربُّ. إنَّنا قليلونَ جدًّا.

وحانَت منه التِفاتةٌ إلى الوراء، فرأى تَفاثا ماشيةً، ورَسَنُ الحِمار في يَدِها. "بُنَيَّتي، ماذا تفعَلين؟"

"الجوُّ حارٌّ جدًّا، أبَتِ، والحيوانُ المسكينُ مُرهَقٌ من حَملي". ثُمَّ ركضَتْ على الطريق صاعِدةً نحوه، وقالت بمَرَح: "إضافةً إلى ذلك، أنا مُتعَبةٌ من الركوب".

فمَسحَ العَرَقَ عن جَبينه بِكُمِّ ردائه، قائلًا: ‘‘ستَتعَبين بسُرعةٍ زائدة في هذا الجوِّ الحارّ’’. ولم يكُنْ من نَفعٍ في إصراره على أن تمتطيَ الحِمار. ثُمَّ إنَّ الحيوانَ لم يَعُد بحاجةٍ إلى حثٍّ ما دامت مُمسِكةً برَسَنِه.

‘‘أبي، حولَ أيِّ شيءٍ تعتقدُ أنَّ الطيور تحوِّمُ؟’’

فقال مُتوجِّسًا: ‘‘ماذا؟’’ ونظرَ حَوالَيه بحثًا عن لُصوصٍ يقفِزون عن الصُّخور.

إلَّا أنَّها أشارَت بيَدِها قائلةً: ‘‘هُناكَ في الأعالي’’.

وإذ رفعَ رأسَه قليلًا، رأى الجَوارحَ من جديد. فقال بصَراحة: ‘‘لقد ماتَ شيءٌ ما’’. ثُمَّ أضافَ لنفسه سرًّا: أو قُتِل! وكان مُمكِنًا أن يكونا هُما تاليًا إنْ كانا لا يخرُجان من بين هذه التِّلال وينزلان إلى أريحا.

وظلَّتْ تَفاتا تُراقِبُ الطُّيورَ مُحلِّقةً في دوائرها البطيئةِ الرشيقة.

فقال عزرا، مُحاوِلًا أن يُسَكِّن قَلَقَها: ‘‘ربَّما

سقطَتْ مِعزاةٌ في الوادي’’. وأهوى بالعصا على جَنبِ حماره، مُسَرِّعًا سيرَه إذِ اقتَرَبا أكثر.

‘‘المعزى ثابتةُ الأقدام تمامًا، أبَتِ’’.

‘‘لعلَّها كانت مِعزاةً **كبيرةَ السِّنّ**’’.

‘‘ربَّما لم تكُن مِعزاةً بتاتًا’’.

كانت الجوارح فَوقَ رأسَيهِما تقريبًا. فاشتدَّ إطباقُ أصابع عزرا على العصا. ثُمَّ نَظرَ إلى فوقُ مرَّةً أُخرى، وعبَّس. لو كانت فريستُها قد ماتَت، لَما بَقِيَت مُحوِّمةً، بل لكانَتْ تستَمتعُ بالتِهامِها. فماذا لو كانتِ الفريسةُ إنسانًا؟

تمتمَ بصَوتٍ هامِسٍ: ‘‘لماذا أنا، يا ربّ؟’’ ثُمَّ أومأ لِتَفاثا. ‘‘ابقَي بعيدةً عن الحافَة. سأُلقي نظرةً’’. وما لبِثَ أنِ انزلقَ عن ظهرِ الحِمار، وناولَها الرَّسَن.

مشى إلى الحافَة، ونظرَ إلى الوادي تحتَه. فلم يرَ على أرضِه شيئًا سوى الصُّخور والتُّراب، وبعض الشُّجَيرات الضئيلة التي ستَنجرِفُ عندَ هُطولِ

الأمطار الأولى. وكان على وشكِ التَّراجُع لـمَّا سَمعَ انجِراف بعض الحِجارة. فالتَفتَ إلى يَسارِه ناظِرًا إلى الأسفَل عبرَ الأُخدودِ العميقِ في الضِّفَّة.

"أيُّ شيءٍ هو، يا أبي؟"

فقال مُكتئبًا: "رَجُل". وقد كان مُجرَّدًا من ثيابه، وينزِفُ دَمًا. وبدا مَيْتًا. فالتَمَسَ عَزرا ثباتَ القدَمَين، وباشرَ النُّزول. وما إنْ رآه، حتَّى لم يعُدْ في وُسعه أن يُتابعَ السَّيرَ دونَ أن يتبيَّنَ أحيٌّ هو أم مَيْت. فتمتمَ ثانيةً: "لماذا أنا، يا ربّ؟" مُنزلِقًا بضعَ أقدامٍ نُزولًا، وماشيًا بحَذَرٍ على سَطحٍ صَخريٍّ، حتَّى استَطاعَ أن يَهبِطَ مُجدَّدًا دونَ أن يدفعَ شلَّالًا من الحجارة إلى السُّقوط فوق الرَّجُل. وإذ نظرَ إلى فَوق، رأى ابنتَه على يدَيها ورُكبتَيها مُنحَنيةً فوق الحافة. "ارجعي إلى الوراء، يا تَفاثا!"

"سأُحضِرُ البطَّانيَّة".

فقال هَمسًا: "رُبَّما لا نحتاجُ إليها".

ولـمَّا اقتربَ بَعد، رأى أنّ الرَّجُلَ قد شُطِبَ على طُولِ جَنبِه. وكان الجُرحُ المفتوحُ يعجُّ بالذِّبَّان. وقد احمرَّ جلدُه من جرَّاء انكِشافه، وعلى كِلتا العينَين كَدماتٌ سُودٌ جعلَتهما مُتورِّمتَين ومُغمَضتَين، كما كانَت شفتُه مشقوقة، وجسمُه مُغطًّى بالرُّضوض والخُدوش المكشوطة. فلا بدَّ أنَّ قُطَّاعَ الطُّرُق قد ضَربوه وجرَّدوه من كلِّ ما في حَوزتِه، وطرحوه في الوادي.

غمرَتْ عزرا الشَّفقة، فركعَ على رُكبةٍ واحدة. ولكنْ ما إنِ انحنى فَوقَ الرَّجُل، حتَّى رأى شعرَه مَقصوصًا قصيرًا. **إنَّه رومانيّ**! ولدى تفحُّصه من كَثَب، ظهرَتْ حولَ خِنصَرِ يده اليُمنى حلقةٌ بيضاءُ حيثُ كانَ خاتَم. فتراجَعَ عزرا ووقف.

وإذ حدَّقَ من عَلُ إلى الرَّجُلِ الجريح، قاومَ حرارةَ العِداءِ الثائرة. فإنَّ الرُّومانَ قد دمَّروا مدينةَ القُدس، مدينتَه المحبوبة، عروس الملوك. والرُّومان قد صَلَبوا يوسف وألغَوا فُرصةَ حُصولِ ابنتِه على مُستقبَلٍ آمِنٍ وسعيد. وكانت قَدَمٌ رومانيَّةٌ على رِقابِ اليهودِ أجمعين.

ونادَت تَفاثا آباها من فَوق. ‘‘أهوَ حيٌّ، يا أبي؟’’

‘‘إنَّه رومانيّ!’’

‘‘أهوَ حيّ؟’’

عندئذٍ، حرَّكَ الرجُل رأسَه قليلًا، وقال باليونانيَّة، بصَوتٍ أجَشَّ: ‘‘ساعِدني!’’

أجفلَ عزرا حِيالَ الألَمِ الذي نمَّ عنه ذلك الصَّوت. فانحنى مُجدَّدًا، وتنقَّلَتْ حَملَقتُه فوقَ الكدماتِ الأُرجوانيَّة والجُرحِ الغائر والجِلد المسفوعِ والمكشوط... وتبخَّرَ عِداؤه في مَوجةِ عطفٍ دافئة. أرومانيًّا كان أم غيرَ رومانيّ، فهو إنسان.

قال له: ‘‘لن نتركَكَ!’’ ونادى ابنتَه. ‘‘اربُطي قِربةَ الماء بطَرَفِ الحَبل، ودَلِّيها؛ وعَباءتي أيضًا’’. فاختفَتْ عنِ الحافة لحظةً ثُمَّ عادَت. وأمسكَ بقِربةِ الماء، وحلَّها. فجذبَتِ الحبلَ إلى فَوق، ودلَّتِ العَباءة تاليًا، فيما وقفَ الحمارانِ عندَ الحافَة ينظُرانِ إليه في الأسفل.

رفعَ عزرا رأسَ الرُّومانيّ قليلًا، وجعلَ بِضعَ قطراتٍ

من الماء تقطرُ في فمه. ثَمَّ صبَّ قليلًا من الماء في يده المقعَّرة، وبرَّدَ وجهَ الرَّجُلِ المسفُوعَ. فتحرَّكَ الرُّومانيُّ قليلًا وأنَّ مُتألِّمًا. فقال له عزرا باليونانيَّة: ‘‘لا تتحرَّك. اشرَب’’. وقرَّبَ فمَ القربة من شفتَيه. فابتَلَعَ الرُّومانيُّ السائلَ الثمين، وسالَ شيءٌ منه على ذقنهِ وعُنقه، وعلى صَدره المكشوط.

‘‘لقد هُوجِمتُ...’’

فقال عزرا مُتَجهِّمًا: ‘‘لم تخرُج من دائرة الخطرِ بَعد، وقد وضعتَني أنا وابنتي فيها معك’’.

‘‘اترُكني. واطلُب إلى الدَّوريَّة أن ترجع إليَّ’’.

‘‘ستكونُ عندئذٍ قد مُتَّ، وسيكونُ عليَّ أن أُحاسَبَ أمامَ الله’’. وألقى العَباءةَ على الرَّجُل.

ثُمَّ نادى تَفاثا قائلًا: ‘‘اترُكي لي الحَبل’’. وأمسَكَ به إذِ انزلقَ نحوه نزولًا على المنحدَر. وكان قد أُغميَ على الرجُل من جديد. فاغتنَمَ عَزرا اللَّحظاتِ الثمينةَ كي يلفَّ العباءةَ بإحكامٍ حولَ

الجريح وعقدَ الحبلَ ليَصيرَ أنشوطةً واسعةً ليَجُرَّه بها.

صلَّى في قلبه: **يا ربّ، ساعِدْني!** وبدأ يسحَبُ الرَّجُلَ صُعودًا على المنحدَر. **أنا أكبرُ سِنًّا من أن أقومَ بهذا. كيف أتمكَّنُ من إيصاله إلى الطريق فوقُ؟**

ونادَت تَفاثا قائلةً لأبيها: ‘‘أبي، ستؤذيه أكثرَ وأنتَ تُصعِدُه بهذه الطريقة’’.

فقال عزرا: ‘‘لقد أُغميَ عليه مُجدَّدًا’’، صارًّا بأسنانه إذ شدَّ ظهرَه للقيام بمَهمَّة سحبِ الرَّجُل قَدَمًا فقدَمًا. وتوقَّفَ كي يستَجمعَ نفَسَه. ‘‘مؤسِفٌ أنَّك لستَ رجُلًا نحيلًا ضئيلًا، يا رِومانيُّ. فلو كُنتَ كذلك، لأمكنَني أن أرفعكَ فوق كتِفي’’. ثُمَّ أطبقَ أسنانَه بشِدَّة، واستأنفَ العمل.

وجعلَهُ شلَّالٌ من الحِجارة والتُّراب، على مَقرُبةٍ منه، ينظرُ إلى فوقُ بحِدَّة. ‘‘ماذا تَفعَلين، يا تَفاثا؟ ابقَي على الطريق’’.

‘‘إنَّه أثقَلُ من أن تَتَولّى أمرَه وحدَك’’. وقد أمسكَتْ بيَدِها رَسَنَ حِمارِه، وكان الآخَرُ يتبعُهما. ‘‘سيكونُ أسهلَ أن نأخُذَه نُزولًا إلى قعر الوادي، يا أبي. إذا كان قد هُوجِمَ هنا فوقٌ، فقد يكونُ اللصوص مُتربِّصين في مكانٍ ما بِقُربِ الطريق’’.

‘‘لا يُمكِنُكِ أن تنزِلي إلى هنا. فالانحِدارُ شديدٌ جدًّا’’.

‘‘بَلى، يُمكِنُني’’.

وراقبَها تجرُّ حِمارَه نُزولًا عبرَ أُخدودٍ مائل. وقد تَبِعَهُما الحِمارُ الصغير طيِّعًا. ولم يَدرِ عزرا كيف استَطاعَتْ أن تعثُرَ على مكانٍ لإنزالِ الحَيوانَين بأمانٍ إلى الوادي. وإذ ثبَّتَ نفسَه مُحَرِّكًا قَدَمًا واحِدةً كلَّ مرَّة، أخذَ يُزَلِّقُ الرُّومانيَّ شيئًا فشيئًا نحوَ قاعِ الوادي.

ما إنْ وصلَت تَفاثا إلى القَعر، حتَّى تركَتِ الحَيوانَين وصَعِدَت لِتُساعِدَ أباها. واغرورقَت عَيناها على إثْرِ نظرةٍ واحدةٍ إلى وجه الرُّومانيِّ المسحوق. فالتَقطَتْ طرَفَ الأُنشوطَةِ الآخرَ

وساعدَت عِزرا. ولـمَّا بَلَغا القَعر، حلَّ عزرا قِربةَ الماء عن كَتِفه، ورفعَ رأسَ الرَّجُل حتَّى يتمكَّنَ من الشُّربِ ثانيةً.

أمسكَ الرُّومانيُّ مِعصَمَ عزرا بيَدِه، وقالَ بِحَشرَجة: ‘‘شُكْرًا لك!’’

فقال له عزرا: ‘‘تمدَّدْ ساكِنًا. سنصنعُ، أنا وابنتي، حَمَّالةً ممَّا يُمكِنُ أن نعثُرَ عليه’’.

انطرَحَ مَرقُس يتلوَّى ألَمًا، مُصغِيًا إلى الرَّجُل وابنتِه يتحدَّثان بالآرامِيَّة. ثُمَّ رَجَعا وجاهَدا لِرَفعهِ على الحَمَّالةِ التي صَنَعاها، ففقدَ الوعيَ إلى حين. وانجرَفَ ما بينَ هاوِيةٍ مُظلِمة ووَعيٍ مُعذِّب. وكانت إحْدى عينَيه مُتورِّمةً ومُطبَقة، إلَّا أنَّه استَطاع أن يُكوِّنَ صُوَرًا مُضطربةً بالأُخرى. وقد قامَتْ جُدرانُ الوادي المتآكِلةُ فوقَه عن كِلا الجانبَين. وأحسَّ الألمَ في جسمه مع كلِّ ارتِدادةٍ مُرتجَّة، غير أنَّه وُقِيَ وهجَ الشَّمسِ الحادَّ إذ لازما ظِلالَ الجُروفِ الصخريَّة.

عجَّ على مَرقُس بَحرٌ من الألم. وإذْ طَفا نحوَ

الظّلام، استَطاعَ أن يسمعَ هَدسَّة هامِسةً:
‘‘**أيضًا إذا سِرتُ في وادي ظِلِّ الموت، لا أخافُ شرًّا؛ لأنَّكَ أنتَ معي...**’’

١٥

قال إيوليوس لفيبي: ‘‘سيّدتي، أنتِ تُجهِدينَ نفسَكِ بالعمل’’. وأزاحَ الصُّرَّةَ التي كان يحملُها، وهُما يمشيان في الزُّقاق الضَّيِّق بقُربِ أرصِفَةِ الميناء، ثُمَّ أضاف: ‘‘لا يُمكِنُ أن تستمرِّي على هذا المِنوال’’.

‘‘إنِّي مُتعَبةٌ قليلًا اليوم، يا إيوليوس. ذلك كلُّ ما في الأمر’’.

فانطبقَ فَمُ العبد. إنَّها كانت تُرهِقُ نفسَها مُحاوِلةً أن تعتنيَ بأرامل البحَّارة وأولادهِنَّ. فكانت تنهضُ عندَ الفجر، وتشتغِلُ حتَّى الظهر واشتداد الشمس، ثُمَّ تستَدعيه لتأخُذَ الثِّيابَ والطَّعام للعائلات المحتاجة. حتَّى إذا عادت إلى الدَّارةِ عصرَ النَّهار، تكونُ مُنهكَةً وأمامَها ساعاتُ مَهامِّ المساء التي حدَّدتَها لنفسها. ولم يكُن نادِرًا أن تُوجَد نائمةً عندَ نَولِها.

‘‘ليس في وُسعِكِ، سيِّدتي، أن تُلبِسي وتُطعِميهم الجميع’’.

وإذ رفعَتْ نظرَها إلى المسكن الوضيع الذي كانا يمرَّان بمُحاذاته، قالَت: "علينا أن نفعلَ ما نستطيعُه. فالمحتاجون كُثُرٌ جدًّا، يا إيوليوس". وشاهدَتْ نساءً يُعلِّقنَ في الخارج ثيابًا عتيقةً لكي تجفَّ، فيما أولادٌ مُرتَدون ثيابًا بالية يلعبون في الأسفل لُعبةَ العَسكر في شارعٍ مُلطَّخ بأقذارِ اللَّيل. وقد عرفَتْ فيبي بعضَ الصِّبية وسلَّمَت عليهم بحرارة.

ورأى إيوليوس كلَّ ما فعلَته فيبي. "سيِّدتي، سيكونُ الفُقراءُ معَنا دائمًا. لا يُمكِنُكِ أن تعتَني بهِم كُلِّهم".

فابتسمَت فيبي له. "أتؤنِّبُني، يا إيوليوس؟"

وأزاحَ الصُّرَّةَ الثقيلةَ ثانيةً. "عفوَكِ، سيِّدتي. حاشا لي أن أُؤَنِّبَ مالِكَتي".

تلاشَت بَسمَتُها إزاءَ سُلوكه الفَظّ. "أنت تعلَمُ جيِّدًا، يا إيوليوس، أنِّي لم أكُن أُذكِّرُك بأنَّك عبد. لكَ أن تنالَ حُرِّيَّتك الآن إذا رغبتَ في ذلك".

واحمرَّ وجهُه. "ما كان سيِّدي دَسِمُس لِيُريدَ لي أن أترُككِ".

فقالَت: "يجبُ ألَّا تبقى بدافعِ الواجِب تُجاهي، يا إيوليوس!" مع أنَّ فِكرة فُقدانه أحزَنَتها. إذ كانت تعتمِدُ عليه من نَواحٍ كثيرةٍ جدًّا. وقد وثِقَتْ به كُلَّ الثِّقة، ولم تَستطعْ أن تتصوَّرَ إتمامَ كلِّ ما ينبغي لها أن تفعلَه كلَّ يوم من دون مُساعَدتِه. ثُمَّ إنَّه كان مُرافِقًا جيِّدًا.

شُحِبَت مَفاصِلُ أصابعه. تُرى، كيفَ بقيَتِ امرأةٌ عمرُها سِتٌّ وأربعون سنةً ساذَجةً إلى هذا الحدّ؟ كيفَ أمكنَ ألَّا تعلَمَ أنَّه يحبُّها؟ وقد كانَ يتيقَّنُ أحيانًا بأنَّها لا بُدَّ أن تعلَمَ حقيقةَ شُعوره، فإذا بِها تقولُ شيئًا من هذا القَبيل يُبيِّنُ أنَّها لم تَحُز أدنى فِكرةٍ عنِ احتياجه إلى البقاء بقُربها. فهو يُفضِّلُ أن يكونَ عبدًا إلى جانبها أكثرَ بكثيرٍ جدًّا من أن يكونَ حُرًّا بعيدًا منها.

ومن ثَمَّ قال: "بصِفَتي عبدًا، أنا مُقيَّدٌ بكِ وحُرٌّ في أن أخدِمَكِ بأيَّةِ طريقةٍ تحتاجين إليها. وإذا صِرتُ حُرًّا، فسأُضطرُّ إلى مُغادَرة بيتكِ".

‘‘لن أطلَبَ مِنكَ أبدًا أن تُغادِر’’.

‘‘إذا بَقِيتُ، فلَن يُنظَرَ إليكِ بعدُ بصفة امرأةٍ ذاتِ فضيلةِ لا يُشَكُّ فيها’’.

فعبسَت للحظةٍ، ثُمَّ تورَّد وجهها لـمَّا أدركَتْ ما يَرمي إلَيه. ‘‘لن يُفكِّرَ الناسُ أبدًا...’’

‘‘بلى، سيُفكِّرون. لقد عِشتِ في العالَم، سيّدتي، ولكنَّك لم تكوني قطُّ جُزءًا منه. فليس لَدَيكِ أدنى تَصوُّرٍ عن الشرِّ الذي في ذِهنِ الإنسان’’.

‘‘لستُ غبيَّة، يا إيوليوس. إنّي أعلَمُ أنَّ الشرَّ مُطلَقُ العِنانِ في العالَم. وذلكَ سببٌ يدفعُنا بالأحرى إلى الكِفاحِ في سبيلِ الخير. يجبُ علينا أن نُساعِدَ هؤلاء الناس’’.

‘‘ليس في وُسعِكِ أن تُساعِديهم كُلَّهم’’.

‘‘إنّي لا أُحاوِلُ فَعْلَ المستَحيل. فالنِّساءُ اللَّواتي أُساعِدُهنَّ كان لهُنَّ أزواجٌ يشتَغلون عند دَسِمُس أو مَرقُس. ولا أستطيعُ أن أُديرَ ظهري

لهُنَّ لـمَّا صِرْنَ مُحتاجات''.

''ماذا عن پيليا وكَنداس؟ ماذا عن ڤيرناسيا وإيپافرا؟ أكان أزواجُهنَّ يشتَغلون عند السيِّد دَسِمُس أو عِندَ ابنِكِ؟''

فقالَت مُوافِقةً: ''هنالِك استِثناءات. لقد سَمِعتُ عن مَصاعِبهِنَّ من الأُخرَيات''.

''لا يُمكِنُكِ أن تهتمِّي بالعالَم كُلِّه''.

''لستُ أُحاولُ أن أهتمَّ بالعالَم كُلِّه!'' قالتْ هذا مُرهَقةً. لماذا يجبُ أن يُغيظَها اليومَ فيما موارِدُها الطَّبيعيَّة واهنةٌ جدًّا؟ هي ليستْ فقط مُتعَبةً، بل أيضًا مُستَنزَفة- مُستَنزَفة إلى أبعد حَدّ. وقد كان هنالك كثيرٌ جدًّا ينبغي أن تقومَ به، وكثيراتٌ جدًّا ينبغي أن تراهُنَّ، وقليلٌ جدًّا من الوقت.

ولاذَ إيوليوس بالصَّمت.

وبعدَ وقتٍ غيرٍ قصير، التفتَتْ فيبي إليه فرأتْ سِيماءهُ المتحجِّرة. لقد كان ساخطًا عليها. فابتسمَتْ برِقَّة. ''كان من عادتِكَ أن تقلَقَ على

دَسِمُس بالطريقة نفسها التي بها تقلَقُ عليَّ الآن’’.

إنَّما لم يكُن ذلك بالطريقةِ نفسِها. ‘‘ليس من طبيعتي أن أنحنيَ وأتذلَّل’’.

‘‘ما طلبتُ ذلكَ مِنكَ قَطُّ’’.

‘‘لا شكَّ، سيِّدتي’’.

‘‘لستُ طِفلةً، يا إيوليوس’’.

فلم ينبِس بكلمة.

‘‘لا تنزعجْ منِّي، يا إيوليوس. رجاءً! لَيتَكَ تفهم...’’

أجابَ بمزيدٍ من اللُّطف: ‘‘إنِّي أفهم، سيِّدتي. فأنتِ تُمضينَ كلَّ لحظةٍ من ساعات يَقَظتِكِ في خِدمةِ الغَير، بحيثُ لا يبقى لَدَيكِ وقتٌ كي تُفكِّري في...’’

‘‘لا تَقُلها’’.

فأجفلَ في داخِله حِيالَ الألم الذي سَمِعَه في صَوتِها الرَّقيق. إنَّه لم يَقصِدْ أن يؤذيَها.

ثُمَّ قالَت- والعاطفةُ تخنقُ صَوتها: ‘‘ليس في وُسعي أن أُغيِّرَ بعضَ الأشياء، يا إيوليوس. أمَّا هنا، ففي وُسعي ذلك’’.

وكانت فتاتان صغيرتان جالِستَين في مدخلٍ عبرَ الشارع، تلعبانِ بخِرقةٍ وَسِخة. فرأتها إحداهُما. ‘‘السيِّدة فيبي!’’ ثُمَّ ركضَتِ البِنتانِ عبرَ الشارع إليها، ووَجهاهُما يتألَّقان بابتسامتَين مُشرِقتين فاتِنتَين.

قالت فيبي: ‘‘مرحبًا، حيرا’’، ضاحِكةً بابتهاج لتحيَّتِهما الحارَّة.

رفعَتِ البنتُ الصغيرة دُميتَها حتَّى تراها فيبي، وقالَت مُتباهِيةً: ‘‘لقد صنَعَتها لي مامايَ. قالَت إنَّكِ أعطيتِها تُنكًا جديدًا، وهكذا صنعَتْ لي هذهِ الطِّفلةَ من تُنكِها القديم. أليسَت جميلة؟’’

فقالت فيبي: ‘‘إنَّها طِفلةٌ جميلةٌ جدًّا، يا حِيرا!’’

وهي ما تزالُ تُكافحُ الدُّموعَ التي وافَتها بسُرعةٍ فائقة عندَ سَماعِها كَلِماتِ إيوليوس. أكان على حقّ؟ هل كانت تسوقُ نفسَها من الصَّباح إلى المساء حتَّى يتسنَّى لها أن تنسى أنَّ دَسمُس قد رحل، وأنَّ ولدَيها أيضًا مفقودان بالنِّسبةِ إليها؟ ‘‘ما اسمُها؟’’

أجابَتِ الفتاةُ مُبتسِمةً: ‘‘فيبي. لقد سمَّيتُها باسمِكِ، سيِّدتي’’.

‘‘هذا شَرَفٌ كبيرٌ لي’’.

ثُمَّ نادَتْ إحداهُنَّ من فَوق: ‘‘صباحُ الخير، أيَّتُها السَّيِّدةُ فيبي’’.

فالتفتَت فيبي إلى فَوق، ولوَّحَت بيَدِها. ‘‘صباحُ الخير، أُوليمپيا. لقد رأيتُ ابنَكِ قبلَ دقائقَ قليلة. إنَّه يبدو بحالٍ حسنةٍ جدًّا الآن’’.

أجابت أُوليمپيا ضاحكةً: ‘‘نعم. إنَّ الدَّواءَ الذي أحضرتهِ فعلَ فِعلًا عجيبًا. فما يزالُ الصبيُّ يلعبُ مع أصدقائه لُعبةَ العَسكر طَوالَ ساعاتِ الصباح!’’

دفعَت فيبي كَلِماتِ إيوليوس بعيدًا من ذهنِها، ودخلَتِ المسكن. لقد جاءَت لزيارة أرملةٍ فُقِدَ زوجُها في البَحر. وكان للمرأة ثلاثةُ أولادٍ صغار. فرأتْ فيبي مشكلاتها الخاصَّةَ تافِهةً لدى المقارَنة؛ إذ كانت شؤونُها شُجونَ قَلْب، لا هُمومَ بَقاء.

وما إنْ دخلَتِ الغُرفةَ الصغيرة، حتَّى تجمَّعَ الأولادُ حَولَها، يشدُّون تُنكَها ويتَسابَقون حتَّى يُسمَعوا. فحملَتْ فيبي أصغرَهم بيَدَيها، وهي تضحك، وقعدَت مُجلِسةً إيَّاه في حِضنها، في حينَ ألقَتِ الأُمُّ حَطَبةً إضافيَّة على الكانون.

أنزلَ إيوليوس أحمالَه أرْضًا، وأفرغَ من كيسٍ كبيرٍ بمِغرَفة فُولًا وعدسًا وحِنطةً في سلّة. وقد وضعَ ما يكفي العائلةَ أسبوعًا، مُصغيًا إلى فيبي وهي تُطَمئن المرأةَ وتتحدَّث بشأن الأولاد وبعض الأُمور النِّسائيَّة. وأنزلَتْ فيبي وَلَدًا ثُمَّ أصعدَتْ آخر، حتَّى حَظِيَ كلٌّ منهم باحتِضانةٍ ولحظاتٍ على ذِراعَيها. فكان واضحًا أنَّ الأولادَ يحبُّونَها كثيرًا.

تفلطحَ فَمُ إيوليوس إذ فكَّرَ في مَرقُس عالِقًا إلى

التَّمام في آلَمِه الخاصِّ بحيثُ أخفقَ في رؤية المعاناة التي سبَّبها لأُمِّه. ثُمَّ متى كانَت آخِرَ مرَّةٍ فيها كلَّفت جوليا نفسَها عَناءَ زيارتها؟

وأعطَت فيبي المرأةَ شالًا جديدًا وصُرَّةَ نُقودٍ صغيرة. ''هذا المبلغُ يكفي لدَفع بَدَلِ إيجاركِ وتَزويدكِ ببعض الضَّروريَّات''.

أخذَتِ المرأةُ الشابَّة تبكي. ''آه، سيِّدتي، كيفَ يُمكِنُني أن أُكافئَكِ يومًا؟''

فاحتضنَتْ فيبي وجهَ المرأة بِراحتَيها، وقبَّلَتْ أحَدَ خدَّيها، ثُمَّ الآخر. ''لن تكونَ الحالُ دائمًا على هذا المِنوال، يا ڤيرناسيا. فعندما تتغيَّر أحوالُكِ نحو الأفضل، ساعِدي أحَدًا كما ساعدتُكِ. إنَّ ذلك سيَكونُ شُكرًا مَرفوعًا إلى الله''.

ثُمَّ غادرَ إيوليوس وفيبي المسكنَ الصَّغير، وسارا في الزُّقاق الضَّيِّق النَّتِن إلى مَسكنٍ آخرَ أقربَ إلى الميناء. هُناك كانت بِرِسكا تَسكنُ في الطَّبَقة العُليا. وكان زَوجُها قَد ماتَ منذ بضعة أسابيع. وقد أعلمَتْ فيبي بأحوالِ هذه العجوزِ

المعسورة امرأةٌ قصدَت إلَيها.

‘‘لقد سمِعتُ كيف تُساعِدينَ الأرامل، سيِّدتي. فأنا أعرِف عجوزًا تحتاجُ إلى المساعدة احتياجًا شديدًا. اسمُها بِرِسكا. وقد أبحَر ابنُها منذُ شهرَين على مَتنِ السَّفينة مينيرڤا، ولَن يَرجعَ قبلَ سنةٍ أو أكثر. أمَّا زوجُها فقدِ اشتَغلَ في جَلفَطةِ السُّفن ثلاثًا وثلاثين سنة، وماتَ على ظهرِ أحَدِها قبلَ بضعةِ أسابيع. إنَّها ما تزالُ ساكنةً في الشقَّة نفسها طوالَ عشرين سنة، ولكنَّها الآنَ غيرُ قادرة على دَفْع بَدَلِ الإيجار، وسيَطردُها المالِكُ إلى الشارع خارجًا. ولو كان في وُسعي، لَساعدتُها. إلَّا أنَّنا لا نكادُ نملكُ ما يكفي لإطعام عائلتنا. لستُ أدري ماذا سيحلُّ بتلك العجوز إنْ لم يُساعِدْها أحَد. رجاءً، سيِّدتي، إذا كُنتِ تستطيعين...’’

وباتَت فيبي مُتعلِّقةً جدًّا ببِرِسكا. فقد كانت العجوزُ مُسلِّية. إذ إنَّ قساوةَ الحياة لم تُسَبِّب لها المرارة، ولا روَّعَتها. فكانت تجلسُ وراءَ النافذة الصغيرة ‘‘مُستَنشِقةً الهواء’’ ومُراقبةً الحركة في الشوارع تحتَها. وكانت مالِكةً تمامًا لِقواها

العقليَّة، تلتقِطَ أخبارَ ما يجري في أفسُس وتُفصحُ عن حكمتها الساحِرة بشأنِ ذلك. وقد كانت أكبرَ سِنًّا من أن تُعنَى بالآداب الاجتماعيَّة، وعاملَت فيبي بالمودَّة والصراحة اللَّتين كان من شأنها أن تحتفظَ بهما لابنتِها الخاصَّة، لو رُزِقَت واحِدةً بالفِعل.

قرعَت فيبي الباب، ثُمَّ دخلَت لـمَّا سَمِعَت پِرِسكا تدعوها إلى الدُّخول. كانت العجوز جالِسةً بقُربِ النافذة، مُتْكِئَةً ساعِدَها على الحافَة، مُحدِّقةً إلى الخارج. فابتسمَتْ فيبي، وعبرَتِ الغُرفةَ، وانحنَت لتُقبِّلَ خدَّها.

"كيفَ حالُكِ اليوم، أيَّتُها الأُمُّ پِرِسكا؟"

"حَسَنةٌ كحالِ عجوزٍ في السابعةِ والثَّمانين، ما عدا..." وأمسكَت بذقنِ فيبي كما يُمسِكُ المرءُ بذقنِ طِفل، ثُمَّ تأمَّلَتها بعَبسةٍ خفيفة. "ما خَطبُكِ؟"

تراجَعَتْ فيبي قليلًا عن تحديق پِرِسكا، واصطنعَتِ ابتِسامة. "ليس هناك خَطبٌ".

‘‘لا تقولي لي إنَّه لا خَطْب. أنا كبيرةُ السِّنّ. ولستُ خَرِفة مُرتَعِشة. فالآن، لماذا أنتِ مُنزَعجة؟’’

‘‘لستُ مُنزَعجة’’.

‘‘مُتعَبةٌ ومُنزَعجة’’.

أمسكت فيبي يدَ العجوز وربَّتَتها، فيما جلسَت على كُرسيٍّ أبقَتْه پِرِسكا قريبًا لأجل زياراتها. ‘‘أخبِريني بكُلِّ ما فعلْتِه منذُ أن رأيتُكِ آخِرَ مرَّة’’.

والتفتَتْ پِرِسكا من تحتُ إلى إيوليوس فرأتْ طريقةَ مُراقبته لسيِّدتِه، كما لو كانت زُهريَّةً كُورنثيَّة ثمينة تُوشِكُ أن تتحطَّم. فقالَت، بشيءٍ من النَّكَد: ‘‘حَسَنٌ جدًّا، لِنُغيِّر الموضوع. لقد أنهَيتُ الشَّالاتِ وأعطيتُها لأوليمپيا. وهي سلَّمَتها للمرأةِ التي ذكرتِها’’.

‘‘رائع! كيفَ صنعتِها بهذه السُّرعة؟ لقد أحضرَ لكِ إيوليوس الصُّوفَ في الأسبوعِ الماضي فقط’’.

‘‘وفِّري إطراءاتِك. أيُّ أمرِ آخَر يُمكِن أن تفعلَهُ

عجوزٌ لدَيها هذا الوقتُ كلّه؟'' ثُمَّ وقفَتْ قائلةً: ''هل لكِ في كُوبِ **پوسكا**؟'' وقد كان هذا الشَّرابُ الذي يستمتعُ به الفُقراءُ والجنود مَزيجًا مُنعِشًا من الخمرة الرخيصة والماء.

قالَت فيبي: ''شُكرًا لكِ''. ثُمَّ أخذَتِ الكوبَ وابتسمَت، فيما صبَّت پِرِسكا كوبًا آخَر لإيوليوس. وعادتْ فيبي إلى مقعدها، مُتنهِّدةً إذِ استرخَت من جديد.

مكثَتْ فيبي هُناك ساعةً واحدة. واستمتعَتْ بسَماعِ پِرِسكا تحكي القِصَصَ التي سبقَ أن حكاها لَها ابنُها من رحلاته.

قالت فيبي مُتلهِّفةً: ''كان دَسمُس دائمًا يرجعُ إلى الديار من البحر مُسمَرًّا ومُفعَمًا بالحياة. وكنتُ أغارُ من الفِتنَةِ التي شكَّلَها السَّفرُ له. ولـمَّا كان أصغرَ سنًّا، كان توَّاقًا إلى الاستِكشاف، وإلى فَتحِ خُطوطٍ تجاريَّة جديدة، وإلى معرفة ما يجري في أقاصي الإمبراطوريَّة. وكنتُ أحيانًا أرى تلك السِّيماءَ على وجهه فأشعرُ بأنِّي كالمرساة''.

فقال إيوليوس بهدوء: ‘‘لقد كان يحبُّكِ، سيِّدتي’’.

ووافَتها دُموعٌ سريعةٌ دونَ تَوقُّع، فأشاحَتْ بِناظِرَيها إخفاءً لها. وإذ أربكَها الصَّمتُ الذي خيَّمَ على الغُرفة، قامَت. ولـمَّا استَدارتْ باسمةً، رأت طريقةَ مُراقَبةِ پِرِسكا لها. فتَمتَمت: ‘‘أنا آسِفة!’’ وقد رأتْ عَينَيِ العجوز مُغرَورِقتَين أيضًا.

‘‘لا تكوني آسِفة’’. ثُمَّ أضافَت بعدَ شَخرة: ‘‘أُفضِّلُ رؤيةَ ألَمِكِ الصَّريح على رؤيةِ جَبهةٍ باسِلة!’’

فأجفلَت فيبي. وانحنَت وقبَّلَت خدَّ المرأةِ المجعَّد الذَّابِل. ‘‘أنتِ سيِّدةٌ كبيرةُ السِّنِّ صعبةٌ جدًّا، أتعلمينَ ذلك يا پِرِسكا؟’’

‘‘لأنِّي لستُ عمياءَ ولا صَمَّاء؟’’

‘‘سأراكِ بعدَ أيَّامٍ قليلة’’.

فربَّتَت پِرِسكا خدَّها. ‘‘أرسِلي إليَّ مزيدًا من الصُّوف’’.

في طريقِ الرُّجوع إلى المستَودعات القاليريانيَّة، لم تقُلْ فيبي شيئًا. فقد كان ذهنُها ملآنًا حتَّى الفَيضِ بذِكرَيات دَسِمُس ومَرقُس وجوليا. وأرادَتْ أن تدفَعَ تلك الذِّكرَياتِ بعيدًا، لأنَّها لم تجلِبْ معها إلَّا الكَرْب. فقد كان عليها أن تتقبَّلَ خسائرَها ولا تُطيلَ الوُقوفَ عندَها؛ بل كان عليها أن تَمضيَ قُدُمًا بما توقَّعَه الله منها. لقد قال السيِّدُ المسيحُ لتلاميذه: "أحبُّوا بعضُكم بعضًا". وذلك هو ما كانت تُحاولُ أن تفعلَه. فإنَّ عملَها كان أن تعتنيَ بجميع الذين تنالُهم يدُها، بالموارد التي كانت مُتوافرةً لها.

كان الماضي والمستقبلُ خارجَ يَدَيها. فالأوَّلُ انتهى، ولا يمكنُ أن يُبطَل. والآخرُ يتعذَّرُ تَصوُّره. وهي لم تُرِدْ أن تتصوَّره، بل لم تَستَطِعْ ذلك. فقد كان ألَمُ فُقدانِ دَسِمُس كافيًا. ومُواجَهةُ حقيقةِ كَونِ كِلا ولدَيها يعيشانِ حياةً خَرِبة كانت فوقَ طاقتها. فكان لها الوقتُ الحاليُّ فقط، وعليها أن تُمضِيَه على نحوٍ لائق. وأيُّ نفعٍ في أن تسمَحَ لنفسها بالأسف والأسى، وفي أن تُفكِّر بلا انقطاع في ما كان يمكنُ أن تقومَ به على نحوٍ مختلف؟ أكان في وُسعِها أن تُغيِّرَ مسارَيْ حياةِ

مَرقَس وجوليا؟ آكان في وُسعِها ذلك؟

لـمَّا قرَّرتْ أن تتَّبعَ الربَّ يسوع وقَبلَتْه بوصفه مُخلِّصًا لها، وضعَتْ نِيرَه على عُنُقها. فعَلَيها الآن أن تكونَ جَديرة. لقد قال لرُسُلِه وتلاميذه: أحبُّوا بعضُكم بعضًا. أحبُّوا بعضُكم بعضًا، لا قَولًا بل فعلًا.

أما عنى ذلك: **افعَلوا للآخرين شيئًا ما؟** فبالتَّأكيد كان عملُها مشيئةَ الله لها.

كانتِ المحفَّةُ بانتِظارها عندَ المستودَع. فأعانَها إيوليوس على الصُّعود إلى داخلها، وارتَمتْ مرهَقةً إلى الخلف على الوسائد. كانت تحتاجُ لأن تستريحَ في أثناءِ حملِها إلى المنزل، حتَّى تتمكَّنَ من القيام بالتَّحضيراتِ اللَّازمة لأجل الغَد.

لدى دخولها الدَّارة، وجدَتْها ساكِنةً. لقد كان هذا الجزءُ من اليوم هو الجزءَ الذي روَّعها أكثرَ الكُلّ، إذ تأوي إلى بيتٍ خاوٍ. ونظرَت عبرَ البِريستايْل إلى بابِ لاراريومِها، إلَّا أنَّها أشاحَتْ بناظرَيها. عَلمَتْ أنَّه ينبغي لها أن تُصلِّي، ولكنَّها كانت أكثرَ تعبًا من أن تُفكِّرَ مُجرَّدَ تفكير.

صعِدَت الدَّرَج واجتازَتِ الرِّواقَ المكشوفَ إلى مَهجَعِها. ثُمَّ خلعَتْ شالَها وخَرجَتْ إلى الشُّرفة المطلَّة على أفسُس. وكانت المدينةُ عندَ الغَسَق تتلألأُ بالألوان إذ يَترامى ضَوءُ الشمس على الأرطميسيون. وقد كان هذا مَبنًى جميلًا، مُدهِشًا بفخامته. وكان الآلافُ مفتونين بمذابح أرطَميس، مُتتشبِّثين بوُعودِها الباطلة.

أما زالت جوليا تذهبُ إلى هُناك؟

قالَت خادِمتُها من ورائها: ''أحضرتُ لكِ شيئًا تأكُلينَه، سيِّدتي''.

فقالت فيبي: ''شُكرًا لك، لافِنيا''، دون أن تَستَدير. كان عليها أن تكفَّ عن التفكير في جوليا. فأيُّ خيرٍ لها في استحضار الماضي مِرارًا وتَكرارًا، مُحاوِلةً أن تتبيَّنَ أينَ أخطأت؟ وآخِرَ مرَّةٍ ذهبَت لرؤيةِ ابنتِها، أدخلَها پريمُس إلى التِّريكلينيوم.

قال لها: ''إنَّها مُتوعِّكةٌ هذا المساء''، ولكنْ كان واضحًا تمامًا أنَّ جوليا كانت سَكرانة. وحين رأتْ

جوليا أمَّها، كالَتْ لزَوجِها شتائمَ وتُهَمًا صادِمةً جدًّا، حتَّى هَزَّ الشُّعورُ بالخِزي فيبي. فلم يسبِقْ لها قطُّ أن سمِعَتْ أيَّ شخصٍ يتكلَّمُ كما تكلَّمَتِ ابنتُها. ووقفَ پريمُس جانبًا، يعتذِرُ عن تصرُّف جوليا- والألَمُ بادٍ على وجهه- ولكنْ بدا أنَّ ذلك كلَّه قد زادَ سُخْطَ جوليا الشديدَ اشتِعالًا. فلعَنَتْه، وعندها غادرَت فيبي خَجِلَةً وحزينةَ القلب. وكُلَّما فكَّرَتْ في الرُّجوع، منعَها شيءٌ ما. ولم يكُنْ ذلك أحيانًا سوى شعورٍ قويٍّ بأنَّ عليها أن تترُكَ جوليا وشأنَها لكي تتلمَّسَ بنفسِها طريقَ عَودتها إلى الصواب.

لقد كانت جوليا مَفقودةً بالنِّسبة إليها، وكذلك كان مَرقُس أيضًا. وإذ تذكَّرتْ مَقصِدَ بحثِه، ساءلَتْ نفسَها إنْ كانت ستَراه حيًّا من جديدٍ يَومًا من الأيَّام.

حاولَتْ أن تصرفَ أفكارَها بعيدًا عن بليَّةِ ولدَيها وتُركِّزَ على حاجات الأرامل اللواتي ستَراهُنَّ غدًا. لقد فعلَتْ كلَّ ما كان في وُسعِها لأجلِ مَرقُس وجوليا. إطالَة الوقوفِ على أطلالِ الماضي لم تُؤدِّ إلَّا إلى تَبديدِ فُرَصِها لتَغييرِ المستَقبَل. فعليها أن

تُساعِدَ أولئك الذين تستطيعُ مُساعَدتَهُم وتَصرفَ ذِهنَها عن الذين لا تستطيع.

ولكنَّهما وَلَداها. فكيف يُمكِنُها أن تصرفَهما من فِكرها؟ كيف يُمكنها أن تحتملَ مُشاهَدةَ الكَرْبِ الذي سبَّباه لنفْسَيهما؟

وإذْ غمرَتْها الوحشةُ والضَّياع في غَمْرة شعورِها بالفَشَل، تشبَّثتْ بحاجز الدَّرَج الحديديِّ وراحتْ تبكي. لقد خذلَتهما بطريقةٍ ما. إنَّها لم تُحِبَّهما كفايةً ولا علَّمَتْهُما تمامًا ما يحتاجان إلى معرفته لكي يصمُدا في العالم. وماذا يَسَعُها أن تفعَلَ بشأنِ ذلك الآن؟ لقد شعرَتْ بالعجز واليأس.

‘‘أنا مَقهورةٌ، يا ربّ. ماذا يُمكنُ أن أفعلَ؟ اللَّهُمَّ، ماذا يُمكنُني أن أفعل؟’’

أخذَت ترتعِش، مُضطرِبةَ الذِّهن. وضغطَتْ صُدغَيها الموجَعَين برؤوسِ أصابعها، مُتذكِّرةً جوليا نازلةً من الحدائق ركضًا وواثِبةً إلى ما بين ذِراعَي أبيها لدى رجوعه من سَفرةٍ طويلة. وكادَتْ تسمعُ ضَحِكها المرِحَ حين يُرجِّحُها

دَسِمُس عاليًا في الهواء ثَمَّ يضمُّها إليه ليَقولَ لها أيَّةَ فتاةٍ صغيرة جميلة صارت في أثناءِ أشهُرِ غيابه عن البيت.

وفي ما بعد، تلكَ الابنةُ عينُها زعقَت قائلةً إنَّها تكرهُه وتتمنَّى له الموت.

يا يسوع، ماذا يمكنُني أن أفعَلَ لابنتي؟ ماذا يمكنُني أن أفعَلَ؟ اللَّهُمَّ، بيِّنْ لي ماذا أفعل!

ثُمَّ استَولى عليها ضَعفٌ غريب، فانهارَت. وتمسَّكت بحاجز الدَّرج بيَدِها اليُسرى، مُحاولةً أن تَتَفادى من السُّقوط. وإذْ جلسَت على أرضيَّة الشُّرفة، اتَّكأتْ بكُلِّ ثِقْلها على قُضبانِ الحديد. وأرادَتْ أن تُناديَ خادِمتَها، ولكنْ لـمَّا فتحَتْ فمَها لم يخرُجْ إلَّا صوتٌ يتعذَّرُ فَهمُه. كما أرادَتْ أن تجرَّ نفسَها للوُقوف من جديد، ولكن تبيَّنَ لها أنَّها فقدَتِ الحِسَّ في ذِراعِها ورجلها اليُمنيَين. وغمرَها الخوفُ حتَّى باتَ كلَّ ما تستطيعُ سَماعَه صوتُ قلبِها خافِقًا في أُذُنَيها.

وغاصَتِ الشمسُ ببُطء، ضارِبةً ظهرَ فيبي بأشِعَّتها الورديَّة الدافئة.

قرعَ شخصٌ ما بابَ مَهجع فيبي. ‘‘سيِّدتي؟’’

ثُمَّ انفتحَ البابُ على مهل، وحدَّقَتِ الخادِمةُ إلى الداخل. فتجهَّمَت قليلًا، ثُمَّ دخلَتْ وعبرَتِ الغُرفةَ إلى حيثُ كانت قد وضعَتْ صينيَّةَ الطَّعام قبلَ حين. فلم يكُن شيءٌ قد مُسَّ. فالتَقطَت لاقِنيا الصِّينيَّة ووقفَت مُستقيمةً. ثُمَّ نظرَتْ باتِّجاه السَّرير. وإذ لم ترَ أحَدًا فيه، أجالَتْ نَظَرَها في أنحاء الغُرفة ثانيةً، ثُمَّ التفتَتْ نحو الشُّرفة.

عندئذٍ أطلقَتْ لاقِنيا صرخةً، وأسقطَتِ الصِّينيَّة، فتردَّدتْ أصداءُ وقوعِها في أنحاءِ المنزِل. وصاحَت لاقِنيا: ‘‘سيِّدتي!’’ مُسرعةً إلى فيبي. ثُمَّ خرَّتْ جاثيةً على رُكبتَيها، وانحنَتْ فوق سيِّدتها. ‘‘سيِّدتي! آه سيِّدتي!’’

اندفَع إيوليوس إلى داخِل الغُرفة، فرأى الخادمةَ تبكي على نحوٍ هستيريٍّ وهي مُنحنيةٌ فوقَ فيبي على الشُّرفة. فركضَ إليها. ‘‘ماذا جرى؟’’

ودفعَ الفتاةَ جانبًا ليتَمكّن من رَفْع فيبي عن البَلاطِ البارد.

‘‘لستُ أدري! دخلتُ كي آخُذَ الصِّينيَّة، فوجدتُها مُنطرحةً هنا’’.

‘‘هدوءًا، يا بنت!’’ وحملَ فيبي إلى سريرها، ومدَّدها برِفق. كانت عيناها مفتوحتَين، وقد شعَّتا خَوفًا. ورفعَتْ يدَها اليُسرى بوهَن، فأمسك بها. وقال: ‘‘أحضِري بعضَ البطَّانيَّات’’، فسَمعَ الخادمةَ تخرجُ من الغُرفة بخُطًى مُتسارِعة.

قال إيوليوس- بيقينٍ كان بعيدًا عن الشعور به: ‘‘سيِّدتي، لقد أجهَدْتِ نفسَكِ بالعمل مدَّةً طويلةً جدًّا. ستَستَريحين الآن، وتتحسَّنين في بضعة أيَّام’’. وقد جمَّدَه الخوفُ عليها. فربَّتَ جبينَها، مُتسائلًا هل فهمَت ما قاله. كان وجهُها مُرتَخيًا من جهةٍ واحدة، وجفنُها وفمُها مُتَدلِّيَين. وقد أصدرَتْ أصواتًا، إلَّا أنَّها لم تكُن مَفهومة. وكلَّما ضاعفَت جَهدَها، باتتْ أكثرَ ذُهولًا. وإذ لم يَستطعْ إيوليوس احتِمالَ الأمر، وضعَ أصابعَه على فَمِها.

‘‘سيِّدتي، لا تُحاوِلي أن تتكلّمي الآن. استَريحي. نامي’’.

وسالَتِ الدُّموع على خدَّيها. ثُمَّ أغمضَت عَينَيها.

رجعَت لافِنيا حاملةً البطَّانيَّات. وتَبعَها إلى داخل الغُرفة آخَرون، خدَّامٌ أحبُّوا سيِّدتَهم وقَلقُوا عليها. وقالت پَرِنا، خادمةُ الدَّور الأسفل: ‘‘لقد ذهبَ غايُس لإحضارِ طبيب’’. وأحضرَ شابٌّ مزيدًا من الحطب لأجلِ الكانون، ثُمَّ قرَّبَه إلى السَّرير. كما أنَّ الغسَّالة والطبَّاخين وخُدَّامًا آخرين احتَشَدوا كلُّهم داخلَ الغُرفة مُشكِّلين حلَقةً حول السرير، مُعَبِّرينَ عن أساهُم كما لو أنَّ فيبي ڤاليريان قد ماتَتْ فعلًا.

أصعدَ غايُس، ابنُ الطبَّاخة، الطبيبَ رأسًا إلى الدَّور الأعلى ثُمَّ إلى داخِلِ مَهجَع فيبي. فطلبَ إيوليوسَ أن يخرُجَ الجميع، ثُمَّ وقفَ جانبًا يُراقبُ الطبيبَ وهو يفحصُها.

وبعدَ الفَحص، قال إيوليوس: ‘‘ما خَطبُها، سيِّدي؟’’

لم يُجبِ الطبيب، بل ابتعدَ عن السَّرير ونظرَ إلى إيوليوس. ‘‘أأنتَ المسؤولُ هنا؟’’

‘‘نعم، سيِّدي’’.

فهزَّ الطبيبُ رأسَه. ‘‘لا يُمكنُ فَعلُ أيِّ شيء’’.

‘‘ما بِها؟ ماذا أصابَها؟’’

‘‘لقد مَسَّها إلَهٌ وسبَّبَ لها نَوبةً دماغيَّة. حتَّى إنَّها لا تَدري ما يجري حولها’’.

‘‘ألَن تُساعِدَها؟’’

‘‘لا أستطيعُ أن أُساعِدَها. فالأمرُ بِيَدِ الإله الذي ألقى يدَه عليها، كائنًا مَن كان’’. ثُمَّ توجَّه نحو الباب، إلَّا أنَّ إيوليوس سدَّ طريقَه.

‘‘أنتَ طبيب. لا يمكنُ أن تمضيَ هكذا وتتركَها على حالِها هذه!’’

‘‘مَن أنت حتَّى تُسائلَني؟ إنِّي أعرف عن هذه الأمور أكثرَ بكثير ممَّا تعرِفُ أنت، وأنا أقول لك إنَّه

لا يُمكِنُ فَعْلُ شيء لها. أمامكَ خِياران: ففي وُسعِك أن تُحاوِلَ إطعامَها وإبقاءها حيَّةً عسى أن يلينَ الإلَه أو الإلاهة اللذان فعلا هذا بها ويُزيلا اللَّعنة، أو في وسعِكَ أن تتركها وشأنَها وتدعَها تموتُ بكرامة''.

''تموتُ بكرامة؟''

''نعم! وأنا أنصحُكَ بأن تفعلَ ذلك. كُن رحيمًا، وضَعْ شيئًا من هذا في شَرابها''. وناوله زُجاجةً صغيرة. فأخذَها إيوليوس، وحطَّها على الطاولة الصغيرة بقرب السرير. ومضى الطبيبُ يقول: ''لكَ أن تدعَ الطبيعةَ تجري مجراها، ولكنَّ ذلك- في رأيي- سيكونُ قاسيًا جدًّا''. ثُمَّ نظرَ نحوَ السرير: ''إنَّها قليلةُ النَّفع لنفسِها، أو لأيِّ شخصٍ آخر، في هذه الحالة. فلو كانت هيَ بالخِيار، لاختارَت أن تموت؛ وهذا يقيني''.

ارتَمى إيوليِوس على كُرسيٍّ بِلا ظهرٍ قُربَ السرير، حالما باتَ وحيدًا مع فِيبي. ونظرَ إليها مُنطرِحةً بِلا حَراكٍ وشاحِبةً جدًّا وعاجزةً تمامًا. كانت عَيناها مُطبَقتَين، والعلامةُ الوحيدة على

كَونِها حيَّةً ارتفاعُ صَدرِها وانخفاضُه على مَهل.

وفكَّرَ كم عَمِلَت باجتهادٍ بالغ لمساعَدة الغَير، وفي الساعات التي كانت تُمضيها مُحَضِّرةً لليَوم التالي. أكان من شأنها أن تُريدَ العَيشَ على هذه الحال؟

وهل يستطيعُ أن يُطيقَ الحياةَ من دونها؟

أمسكَ إيوليوس الزُّجاجةَ الصغيرةَ بيَده ونظرَ إليها. وطنَّ في أُذُنَيه اقتِناعُ الطبيب بشأن حالة فيبي. لقد كان عليه أن يُفكِّر **فيها**، وفي ما من شأنها أن تُريدَه. ولكنَّه بعدَ لحظة، حطَّها على الطَّاولة من جديد. وقال بصوتٍ مخنوق: ‘‘لا أستطيعُ أن أفعلَ هذا الأمر، سيِّدتي. أنا آسِف. لا يُمكِنُ أن أدعَكِ تَرحَلين’’.

ثُمَّ مدَّ يَدَيه، فأمسكَ بيَدِها اليُسرى، وشدَّها بينَ كِلتا يَدَيه.

١٦

قال ألِكسَندر للخادِم الذي دخلِ البِبليوتيكا: ‘‘ضعِ الصِّينيَّة هناك’’، دون أن يرفعَ نظَره قطعًا عن الدَّرجِ الذي كان يدرسُه. ونقرَ الرَّقَّ بإصبعهِ حائرًا في أمره. ‘‘لقد راجعتُ هذه الوثائق مِرارًا وتَكرارًا، يا رافا، وما زلتُ غيرَ قريبٍ من معرفةِ مُشكلتِها. فالحمَّاماتُ والتدليك لم تُجدِ أيَّ نفع. وهي الآن غيرُ مستريحة كما كانت منذُ بِضعةِ أسابيع’’.

وقفَت هَدسَّة بقُربِ النوافذ، مُجيلةً نظرَها على أفسُس خارِجًا. وكانوا قد أمسَوا بعيدين جدًّا عن السَّقيفة بقُرب الحمَّامات العموميَّة. فاستَطاعَت من هنا أن تَرى الأرطميسيون، بواجهته الفخمة الخلَّابة التي أغوَتِ الجماهيرَ بوُلوج غياهِبِ العِبادة الوثنيَّة المظلِمة. ولم تكُن هَدسَّة مُستَريحةً في هذا المكان القريب جدًّا من درجات ذلك الهيكل الفاسد، رغمَ جماله. فقد تذكَّرَتْ جوليا مُرتديةً ثوبَها الأحمرَ المبهرَج، ومُنطلِقةً لإغراء المحاربِ المشهور، أتريتِس. آه، أيُّ مآسٍ أسفرَ عنها ذلك! وأيُّ أحزانٍ أخرى

انتابَتْ أولئك الذين سجدوا لأرطَميس وغيرها من الآلهة والإلاهات الزائفين، على غِرارِ جوليا؟

‘‘أتُصغين إليَّ، يا هَدسَّة؟’’

فالتفتَت إليه قائلةً: ‘‘أنا آسِفة...’’

وكرَّرَ مُبتَغاه. ‘‘ما رأيُكِ؟’’

كم مرَّةً جرى بينَهما هذا الحديثُ نفسُه؟ وقد كانت بعضَ الأحيانِ مُتعَبةً ومُثبَّطةَ الهمَّة جدًّا بحيثُ يُمكِنُ أن تبكي، مثل حالِها الآن إذ كان فِكرُها في مكانٍ آخر. فلماذا شغلَ مَرقُس أفكارَها كثيرًا منذُ عهدٍ قريب؟

‘‘هَدسَّة؟’’

‘‘ربَّما كُنتَ مُنشَغِلًا أكثرَ ممَّا ينبغي بِمُعالَجة الأعراض مُهمِلًا العِلَّةَ الممكِنة’’.

فقال ألِكسَندر: ‘‘هاتي تفاصيل. أحتاجُ إلى تفاصيل’’.

‘‘تقولُ إنَّك لم تَجِدْ أيَّ شيءٍ في فُحوصِكَ البَدَنيَّة لِقَنيشيا يُفسِّرُ حدَّةَ اعتِلالاتِها الكثيرة وبقاءَها’’.

‘‘هذا صحيح’’.

‘‘إذًا، ماذا تعرفُ عنها؟’’

‘‘إنَّها غنيَّة. أنا أعلَمُ ذلك. وزَوجُها هو أحَدُ مُستشاري البُروقُنصُل’’.

ودارَت هَدسَّة نحوَه، فنظرَ إلى تدرُّجِ اللَّون الأزرق في النِّقاب الذي يُغطِّي نُدوبَها. لـمَّا تحسَّنتْ أحوالُه الماليَّة، اشترَى لها تُنكاتٍ وحُجُبًا جديدةً. ولكنَّها ظلَّت ترتدي الرَّماديَّ. أخيرًا، انفجرَ غضبُه، مُسخَطًا.

‘‘أيُّ عِنادٍ هذا الذي لكِ والذي يُبقيكِ مُرتدِيةً ما يُشبِهُ زِيَّ شَبَحِ الموت؟ ألَدَى الله شيءٌ ضِدَّ الألوان حتَّى يجبَ أن تظهري بمظهرِ غُرابٍ أسودَ مُحَجَّب؟ إنَّك تظهرينَ مِثلَ واحِدٍ من خَدَمِ الجحيم مستَعدٌّ لنَقلِ أحَدِهم بالقارب عبرَ نهر أُسطُقْس أكثرَ ممَّا تَظهَرين بمظهرِ شافية!’’

ولا رَيبَ أنَّه في الحال نَدِمَ على استِشاطةِ غضبِه، واعتذَر. ثُمَّ في الصَّباح التالي، ظهرَتْ هَدسَّة في الثَّوب والحِجاب الأزرقَين اللَّذين كانت تَرتديهما الآن. فارتَبَكَ أَلِكسَندر، وقد تأجَّجَ وجهُه. كان شيءٌ ما في داخِله آخِذًا بالتغيُّر في الخفاء من نحوها، ولم يكُن هو على يَقينٍ بشأنِ ماهيَّة ذلك الشيء أو معناه.

كان المرضى أغلبَ الأحيان يُعطونَها هدايا ماليَّة. فلَم تمتَنِع، بل كانت تقبلُ ذلك مُتمتِمةً بكلماتِ الشُّكر، ثُمَّ تُسقِطُ النُّقودَ في عُلبَة، وتتركُها مَنسِيَّةً على رفّ. والمرَّاتُ الوحيدةُ التي تفتحُ العُلبةَ فيها، كانت قبلَ زيارتها للمرضى الذينَ سبقَ أن عالجاهُم بقُربِ الحمَّامات. فكانت تَضعُ مُحتوى العُلبة في صُرَّةٍ صغيرة، وتأخذُها معها. وعند رجوعها، تكونُ الصُّرَّةُ فارغةً دائمًا. غير أنَّ الوقتَ باتَ أثمنَ في هذه الأيَّام، إذ توسَّعَت ممارسَة الطبيب للمِهنة وازدادَتِ الطلَباتُ على هَدسَّة.

وإذ حيَّره استِغراقُها في التفكير الحالم هذا المساء، قال: ''هل سَمِعتِني، يا هَدسَّة؟'' تُرى،

هل كانت تُصلّي من جديد؟ كان يتيسَّر له أحيانًا أن يؤكِّدَ ذلك من مُجرَّد الطُّمأنينة التي تكتَنفُها.

"لقد سَمِعتُك، سيِّدي. هل تعتقد أنَّ لِغِنى فَنيشيا علاقةً ما بمرضِها؟"

ولـمَّا كان ألِكسَندر مُتعَبًا، حاولَ أن يكبحَ نفادَ صَبره. كان الغَسَقُ قد حلَّ، وهو قد عاينَ أكثرَ من عشرينَ مريضًا اليوم، اشتَكى مُعظمهُم آلامًا بسيطة عُولِجَت بسهولة. أمَّا فَنيشيا، فكانت مختلفة. ثُمَّ إنَّ زوجَها كان ذا أهمِّيَّة. فإنَّ تَشخيصًا خاطئًا قد يَعني دمارَ مِهنَتِه.

لقد مرَّتْ أيَّامٌ فيها تمنَّى لو بقيَ في السَّقيفة بقُربِ الحمَّامات.

وقال لها: "إنَّكِ تقودينَني مُجدَّدًا، ولكنَّكِ لا تقولين لي إلى أين. ما عليكِ إلَّا أن تقولي ما رأيُكِ، وتكُفِّي عن أن تتوقَّعي منِّي التوصُّلَ إلى الاستنتاجاتِ الصحيحة وحدي".

فالتفتَت، ونظرَت إليه، وقالت ببساطة: "لستُ

أدري ما هو الأمرُ الصحيحُ الذي ينبغي القيامُ به. أنت طبيب، وأنت تُريدُ أجوبةً **طبِّيَّة**. فكلُّ ما أعرِفُه عن الأطعمة هو ما أتذكَّرُه من أسفار التوراة الخمسة، وأنتَ قد دوَّنتَ ذلك فعلًا. وكلُّ ما أعرفُه عن العقاقير تعلَّمتُه منك. وكلُّ ما أعرفُه من أساليبِ التَّدليك تعلَّمتُه بمُراقبَتِك".

"إذًا، صلِّي، وقولي لي ما يقولُه الله".

فأطبقَتْ هَدسَّة يدَيها بإحكام. "إنِّي أُصلِّي فعلًا. أُصلِّي كلَّ حين. لأجلك". ثُمَّ أشاحَت بناظرَيها مُجدَّدًا، وبعدَ لحظةٍ أضافَت: "ولأجل الآخرين..."

أكان مَرقُس بخَير؟ لماذا خالجَها هذا الدَّافعُ الـمُلحُّ إلى الصلاة لأجله؟ وماذا عن جوليا؟ لماذا خطرَتْ في بالها كثيرًا جدًّا منذ عهدٍ قريب؟

يا ربُّ، إنِّي أُصلِّي، وأُصلِّي، ومع ذلك لا أشعرُ بسلامٍ من جهتهما.

وقال ألِكسَندر: "إذًا، مُشكِلَةُ قَنيشيا ليست بَدَنيَّة"، باحثًا عن عِلاجٍ ما بعِناد. فلم تقُل هَدسَّة

شيئًا. لعلّها كانت تُفكِّر في المسألة مَلِيًّا. فتَناوَلَ ألِكسَندر شيئًا من اللَّحم عن الصِّينيَّة، وصبَّ لنفسه قليلًا من الخمر. ‘‘حَسَن! سننظرُ إلى الأمر منطقيًّا. إنْ لم يكُن بَدَنيًّا، فهو عقليّ. لعلَّها تُفكِّرُ أنَّها مُصابةٌ بعِلَّةٍ ما فتُعانيها’’. ثُمَّ مضغَ قطعةَ لحمِ العجلِ الطريَّة وابتَلعَها. ‘‘ربَّما كان الحلُّ أن نحمِلَها على تغييرِ تفكيرها’’.

‘‘هل تَنوي أنت أن تُغيِّرَ تفكيرَك يومًا؟’’

رفع رأسَه ونظرَ إليها واقفةً بقُربِ النوافذ. فجعلَه شيءٌ ما في وِقفَتها يُحِسُّ حُزنَها. وعبسَ قليلًا. ثُمَّ عبرَ الغُرفة، ووضعَ يدَيه على كتِفَيها. ‘‘إنِّي أُصدِّقُ كُلَّ ما قُلتِه لي، يا رافا. قَسَمًا على ذلك! إنِّي أعلَمُ أنَّ الله مَوجود. وأعلَم أنَّه قدير’’.

‘‘حتَّى الشياطينُ يؤمنون، يا ألِكسَندر’’.

واشتدَّتْ يَداه إذ أدارَها كي تُواجِهَه. وإذْ غمرَهُ غضبٌ شديدٌ يتعذَّرُ تفسيرُه، أزاحَ النِّقابَ عن وجهِها حتَّى يتمكَّنَ من رؤية عينَيها. ‘‘ماذا تقولين؟ هل أنا شيطانٌ في نظرِك؟’’

‘‘أقولُ إنّ معرفتَك هي كلّها في رأسك، وذلكَ ليس كافيًا. فالمعرفةُ التي تؤدِّي إلى الخلاص هي من القلب’’.

فقال مُسَكّنًا- وهو يُفكِّرُ في فَنيشيا أيضًا- ‘‘أُريدُ المعرفة التي تؤدِّي إلى **الخَلاص**. ماذا تظنِّين أنِّي كنتُ أطلبُ طوالَ هذه المدَّة التي أمضَيناها معًا؟’’

وهزَّت هَدسَّة رأسَها. فأنزلَ يَدَيه عن كتِفَيها، وارتَمتْ على كُرسيٍّ كان هناك.

جثا ألِكسَندرُ على ركبةٍ واحِدة أمامَها، ووضعَ يدَيه على ركبتَيها. ‘‘أنا أُومنُ، يا رافا. إنِّي أتلو جميعَ الصلوات التي سَمِعتُكِ تقولينها كلمةً كلمةً تمامًا، ومع ذلك فما زلتُ لا أملكُ الأجوِبةَ التي أحتاجُ إليها. قولي لي أينَ أنا مُخطئ؟’’

‘‘رُبَّما لا تتلقَّى أجوِبةً لأنَّك تطلبُ الأُمورَ الخاطئة’’. ووضعَت يدَيها فوق يدَيه. ‘‘ربَّما كان ما تتوقُ إليه فعلًا هو قدرة الله، لا حكمته المعلَنة’’.

فزفَرَ ٱلِكسَندر نفَسَه. ‘‘سأقبلُ هذه أو تلك، إذا كان من شأنها أن تُساعِدَ تلك المرأةَ على التَّحسُّن. ذلك هو كلُّ ما أُريدُه، يا رافا، أن أشفيَ الناس’’.

‘‘ذلك هو ما أُريدُه أنا أيضًا، إنَّما في مَجالٍ آخرَ. فالله يحلُّ في المرتبة الأُولى’’.

‘‘أنا لا أعرفُ إلَّا مجالَ الواقع. اللَّحمَ والعظم. الأرض. المنطق. وعليَّ أن أتعاملَ مع هذه الأشياء التي أعرفُها على أفضلِ نحو’’.

‘‘إذًا، فكِّرْ ضمنَ هذا النِّطاق. إنَّ الحياةَ تُشبِه بِركة، وكلُّ قرارٍ أو فِعلٍ نقومُ به، أصالحًا كان أم طالحًا، هو حصاةٌ نُلقيها فيها. ثُمَّ تنتشِرُ التَّموُّجاتُ في دوائرَ آخِذَةٍ في الاتِّساعِ. فرُبَّما كانت ڤَنيشيا تُعاني نتائجَ خِياراتٍ اتَّخذَتْها في حياتها’’.

‘‘لقد فكَّرتُ في ذلك. وقلتُ لها أن تمتنعَ عن إقامة العلاقات الجنسيَّة مع رجالٍ آخرين سوى زوجِها، وقد أمسكَت فعلًا عن الخمرة’’.

‘‘ما زِلتَ غيرَ فاهِمٍ، يا أَلِكسَندر. ليس الحلّ في إزالةِ أُمورٍ من حياتك، أو إضافةِ قوانينَ أُخرى تعملُ بها. إنَّما الحلُّ هو أن تُعيدَ حياتَك إلى اللّٰه الذي خَلَقَك. وهو من كلِّ وجهٍ حقيقيٌّ مثلَ اللَّحم والدَّم، والأرض، **والمَنطِق**. غير أنِّي لا أستطيعُ أن أجعلكَ تَرى ذلك. لا أستطيعُ أن أفتحَ عَينَيك وأُذنَيك’’.

فتنهَّدَ من الأعماق، ووقف. وفركَ قفا رقَبَتِه، ثُمَّ عادَ إلى دُروجه. ‘‘مؤسِفٌ، يا رافا، أنَّ ڤَنيشيا- كما أعتقد- ليست طالبةً اللّٰه’’.

وقالَت هَدسَّة بهدوء: ‘‘أنا أعلَمُ ذلك’’.

كانت ڤَنيشيا مِثلَ كثيرين من المرضى الذين أقبَلوا إلى أَلِكسَندر وإلَيها منذُ جرى تَوليدُ أنطونيا وإنقاذُ طفلها. وقد جاءُوا يطلُبون عِلاجاتٍ سحريَّةً ومُعافاةً سريعة. وكان بعضُهم مَشحوبين ومهزولين، أدمَنوا تقيُّؤَ وجبةٍ دَسِمة ليتمكَّنوا منِ المشاركة في أُخرى. واشتَكى آخرون ارتجاف العَضَلات، فيما فاحَتْ من أنفاسِهم رائحةُ الخمر الثقيلة، وبدا على جِلدِهم الاصفِرارُ من جرَّاء

اليَرَقان. ثُمَّ إنّ رجالًا ونساءً على السواء عاشوا حياةَ اختِلاطٍ جنسيٍّ غير شرعيّ، ومن ثَمَّ أرادوا أن يُشفَوا من قُروحٍ في أعضائهم التناسُليَّة أو إفرازاتٍ كريهة. وكثيرًا ما كانَت المناشَدة واحدَة: اجعَلني مُستَريحًا حتَّى أتمكَّن من الاستمرار في القيام بما أُريدُ القيام به.

لقد أرادوا الخطيَّة دونَ عَواقِبها.

كيف تحتملُنا، يا ربّ، ونحنُ مُعانِدون وتافِهون إلى هذا الحدّ؟ كيف تحتملُنا من الأساس؟

ثُمَّ كان هُنالِكَ ألِكسَندرُ المسكين، مُتعاطِفًا معهم في آلامِهم ومُعاناتهم، مُكافِحًا كي يكونَ طبيبًا أُستاذًا، توَّاقًا إلى حُلولٍ ملموسةٍ لجميع عِلَلِ البشريَّة.

العِلاجات... لقد فكَّرَ دائمًا بلُغةِ العِلاجات! تجنَّبْ شمسَ الظَّهيرة، وبَرْدَ الصَّباح والمساء. احذَرْ من استِنشاقِ الهواء بقُربِ المستَنقَعات. راقبْ لَونَ بَولِك. تمرَّنْ، اعرَق، خُذ كثيرًا من الحمَّامات

المنَظِّفة، احصَل على تدليك، اقرأ بصَوتٍ مسموع، هَروِل، اركُض، العَب. احتَرِس لنَوعيَّةِ اللَّحم، وصنفِ التَّربة التي زُرِعَ فيها طعامُك، وجُودةِ الماء، وكَونِ الأطعمةِ طازَجة.

لا أحَدَ منهم، ولا هو أيضًا، بدا مُدرِكًا أنَّهم ليسوا مُجرَّدَ كائناتٍ مادِّيَّة- أنَّ الله قد خلَّفَ عليهم سِمَةً بحقيقةِ خَلقهِ المجرَّدة. فقد فضَّلوا أوثانَهم الملموسةَ، المفهومةَ بسهولة ، ذاتَ الخصائصِ المتقلِّبة على غِرارهم. أرادوا شيئًا يُمكنُهم أن يتَلاعَبوا به. أمَّا الله فهو لا يُدرَك، ولا يُلمَس، ولا يُتصوَّر، ولا يُستغَلُّ. لم يريدوا حياةَ تضحيةٍ بالذَّات وطهارةٍ وتكريس- حياةً شِعارُها ‘‘لتَكُنْ **مشيئتُكَ**، لا مشيئتي’’. أرادوا أن يكونوا سادةَ حياتِهم الخاصَّة، ويسلكوا سُبُلَهمُ الذاتيَّة، وألَّا يُحاسَبوا أمامَ أحَد.

وأنتَ تسمَحُ بذلك، أيُّها الآب. أنت ترفضُ كُلَّ الرَّفضِ أن تَنتهِكَ حُرِّيَّة الإرادة. أيُّها الربُّ المُبارَك يسوع، أتمنَّى أحيانًا لو تمدُّ يدَيك من فَوق، وتُمسِكُنا وتهزُّنا هزًّا عنيفًا، حتَّى لا يبقى شخصٌ واحِدٌ قادرًا أن

يُنكِرَك... حتَّى يجثُوَ كلَّ رجُلٍ وامرأة ووَلد ساجِدينَ أمامك. سامِحنا، يا ربّ. سامِحني. أنا خائرةُ العزيمةِ جدًّا. لقد شاهدتُكَ عامِلًا في أولئك الذين كانوا بقُربِ الحمَّامات. أمَّا هُنا، فلا أُشاهِدُ سوى الألَم والكِفاح المُعانِد. أيُّها الآب، إنِّي أرى جُوليا مِرارًا وتَكرارًا في وجوهِهم. وأرى فيهم تمامًا جُوعَها الشَّهوانيَّ الذي لا يُشبَع البتَّة. قوِّني، يا ربُّ. رجاءً قوِّني.

لفَّ ألِكسَندَر الدَّرْجَ قائلًا: ‘‘سأقولُ لِقَنيشيا وزَوجها إنَّ عليها أن تَجِدَ طبيبًا آخر’’.

فرفعَت هَدسَّة نظرَها إليه مدهوشة: ‘‘أيَّ سببٍ ستُقدِّم لهما؟’’

أجابَ ببساطة: ‘‘الحقيقة. سأقول لهما إنَّكِ تعتقدين أنَّ أدواءَها ذاتُ طبيعةٍ روحيَّة. لن أُصارعَ الله’’. ثُمَّ دَسَّ الدَّرْجَ الملفوفَ داخِلَ واحدةٍ من العيون الكثيرة في الرَّفِّ الكبير فوق المكتب. ‘‘رُبَّما أقترحُ عليهما قِتروقيوس. فمن شأنه أن يُكافحَ أيَّ شيء’’.

‘‘لا تُرسِلْها إلى عرَّاف، سيِّدي، رجاءً!’’

‘‘إلى أينَ تقترحين أن أُرسِلَها؟’’

‘‘اترُك ذلك على عاتِقها’’.

قَرَعَ أحَدُهمُ الباب، ودعا ألِكسَندر الطارِقَ إلى الدخول. فدخلَ راشد. ‘‘في الأسفل شابٌّ أُرسِلَ في طَلَبِ رافا. قال إنَّ سيِّدتَه أصابَها شَلَلٌ غريبٌ مُفاجئ. وما كنتُ لأُزعجَك، سيِّدي. ولكنْ لـمَّا قالَ لي اسمَها، حَسِبتُ الأفضلَ أن أُعلِمَك’’.

‘‘ما اسمُها؟’’

‘‘فيبي ڤاليريان’’.

فارتَفعَ رأسُ هَدسَّة بحِدَّة. ورمقَها راشِد قائلًا: ‘‘أتعرِفينَ هذا الاسم؟’’

أجاب ألِكسَندر: ‘‘الجميعُ يعرفون هذا الاسم. لقد كان دَسِمُس أندرونيكُس ڤاليريان واحِدًا من أغنى التُّجَّار وأقدَرِهم في روما. ويُحكَى أنَّه باشرَ مشروعَه هنا في أفسُس، ثُمَّ انتقلَ إلى تلال

روما الأكثرِ إرباحًا، حيثُ ازدهَر. وقد سَمعتُ أنَّه رَجعَ مع أُسرتِه قبلَ بِضعِ سنين ثُمَّ مات بمَرَضٍ عُضال. وآخرُ ما سَمعتُه أنَّ ابنَه، مَرقُس لوشيانُس، قد تسلَّمَ زمامَ الممتَلَكات. أكان الابنُ هو مَن أرسلَ هذا الخادم؟"

خَفَقَ قلبُ هَدسَّة بشِدَّة.

وقالَ راشِد: "لم يقُلْ مَن أرسلَه. لقد جئتُ إليك، سيِّدي، لأنِّي أعلَمُ أنَّ ڤاليريان اسمٌ أقوى بكثيرٍ من ماغونيانُس".

فرفعَ ألِكسَندر حاجِبَيه. "إذًا، كانَت رِسالَتُه على سبيلِ الاستدعاء".

"لا، سيِّدي. إنَّه **يتوسَّل** كما لو أنَّ حياتَه تتوقَّف على هذا الأمر".

قال ألِكسَندر- مُفكِّرًا في مأزِقه الراهن في ما يخصُّ ڤَنيشيا- "ڤاليريان. لستُ على يقينٍ بأنِّي أُريدُ أن أتورَّطَ في شأنِ شخصٍ ذي ارتباطاتٍ قويَّة النُّفوذ جدًّا". لقد كان له ما يَكفيه من البلاء مع

ڤَنيشيا. فهل يستطيعُ أن يُضيفَ مزيدًا من المجازَفة؟

عندئذٍ قالت هَدسَّة: ‘‘قُل له إنَّنا سنأتي، يا راشِد’’. ثُمَّ قامَت.

فاعترضَ ألِكسَندر مدهوشًا. ‘‘ينبغي أن نُفكِّرَ في هذا!’’

‘‘ألِكسَندر، إمَّا أنَّك طبيب وإمَّا أنَّك لستَ طبيبًا’’.

لم تعرِف هَدسَّة الخادِم. كانَ صغير السنِّ ووسيمًا وداكِنَ البَشَرة. وكان عبدًا من النَّوع الذي تُقبِلُ على شِرائه جوليا، لا السيِّدةُ فيبي. ‘‘ما اسمُك؟’’

‘‘غايُس، سيِّدتي’’.

فتذكَّرَته عندئذٍ صبيًّا صغيرًا كان يشتغِل في المطبخ.

وقال ألِكسَندر: ‘‘راشِد، استَدعِ المحفَّة’’.

فقال غايُس، مُنحَنيًا: ‘‘لا ضرورة لذلك، سيِّدي. هناكَ محفَّةٌ بانتظارِكُم خارجًا’’.

وحُمِلوا بسُرعةٍ إلى الدارة القاليريانيَّة في أفخَمِ جُزءٍ من أفسُس. فرفَعَ ألِكسَندر هَدسَّة من المحفَّة وحملَها على الدَّرَجِ الرُّخاميّ. وكانت خادِمةٌ أُخرى ترتقِبُ حُضورَهما، ففتحَتِ البابَ ورحَّبَت بهما، وأدخلَتهُما. وقالَتِ الشابَّة: ‘‘من هنا، سيّدي’’. ثُمَّ هُرِعَت نحوَ دَرَجٍ رُخاميٍّ آخَر. وألقى ألِكسَندر نظرةً إلى داخِلِ البَريستايْل فوجدَ أنَّه واحدٌ من أكثَرِ ما قد رآهُ جمالًا وإراحةً.

ثُمَّ حملَ هَدسَّة على الدَّرَجِ صعودًا، وأنزلَها لـمَّا وصلا إلى الرّواق الأعلى. فترنَّحَت قليلًا. فأمسَكَ بيَدِها ليُثبِّتَها. وإذا يدُها باردةٌ كالثلج. فسأل: ‘‘ما خطبُكِ؟’’ فهزَّتْ رأسَها، وسحبَت يدَها من يدِه، وسبقَته عابِرةً الرِّواقَ إلى داخِلِ المهاجع.

وعرفَت إيوليوسَ في الحال. لقد كان خادِمَ دَسِمُس الشَّخصيَّ، وقلَّما حادثَته في الماضي. وقد كان جالسًا بجانب سريرِ فيبي، وتبدو على وجهه ملامحُ القَلَق. فتكلَّمتِ الخادِمةُ إليه بهدوء،

فقامَ وأقبلَ نحوَها. ثُمَّ انحنى كثيرًا، وقال: ‘‘شُكرًا لكَ على المجيء، سيِّدي’’. وانحنَى ثانيةً لها، قائلًا: ‘‘رافا!’’ وكان في تلك الكَلِمة الوحيدة احترامٌ عظيم... وأمَلٌ كبيرٌ أيضًا.

نظرَت هَدسَّة نحوَ السَّرير والمرأةِ المنطرحة عليه. ثُمَّ مشتْ نحوَه ببُطء، وكلُّ خُطوةٍ تسترجعُ ذِكرَياتٍ حادَّةً وكان شعرُ فيبي مُرخًى على الوسادة، وبشَرَتُها شاحِبة، شِبهَ شفَّافة.

بينما ساءلَ ألِكسَندرُ إيوليوس، فحصَ فيبي. وأخبرَه إيوليوس كيفَ وجدَتْها إحدى الخادِمات مُنطرِحةً على بلاطِ الشُّرفة خارِجًا، وكيف نَبَسَت بكَلِماتٍ غريبة ولم تستَطع أنَ تُحرِّكَ إلَّا يدَها اليُسرى.

وفيما هُما يتكلَّمان، وألِكسَندرُ يقومُ بعملِه، وقفَت هَدسَّة على مَقرُبة تتأمَّلُ فيبي من كَثَب. كانَ وجهُها مُرتخيًا، وفمُها مُتدَلِّيًا بعضَ الشيء، وإحدى عينَيها كَلِيلة. وقد تمتمَت بكَلِماتٍ مُشوَّهة لألِكسَندر مرَّةً وهو يفحصُها.

ومضى إيوليوس قائلًا: ‘‘كانَت تُجهِدُ نفسَها بالعَمَل، سيّدي، إجهادًا بالغًا. لقد أمضَتْ كلَّ نهارٍ خارجًا عندَ المساكِن القريبة من أرصفة الميناء، زائرةً أرامِلَ البحَّارة. وكانت تُطيلُ السَّهَرَ كلَّ ليلةٍ في حِياكةِ قُماشٍ لِصُنعِ التُّنكات’’.

قَلَبَ ألِكسَندرُ جفنَها الأعلى وانحنى فَوقها على نحوٍ أقربَ ليتفحَّصَها، قائلًا: ‘‘سأُضطرُّ إلى مُكالَمةِ ابنِها’’.

‘‘لقد أبحرَ إلى بِلادِ اليهوديَّة منذُ بضعةِ أشهُر. ولم يَصِلْنا منه أيُّ خَبَرٍ منذ ذلك الحين’’.

فغاصَ قلبُ هَدسَّة. اليهوديَّة! تُرى، لماذا ابتَغى مَرقُس أن يذهبَ إلى ذلك البلد الذي دمَّرَته الحرب؟ إلَّا أنَّ غُصَّةً وافتها إذ تذكَّرت سُفوحَ تِلالِ الجليلِ المزدانةَ بالزَّهرِ المنثور.

وضعَ ألِكسَندر رأسَه على صَدرِ فيبي ڤاليريان، مُصغِيًا إلى نَبْضِ قلبِها وتنفُّسِها. ثُمَّ استَقامَ قائلًا: ‘‘ألَدَيها أيُّ أولادٍ آخرين؟’’

‘‘ابنةٌ وحيدة’’.

‘‘هنا في أفسُس؟’’

‘‘نَعَم، ولكنَّهما لا تَرَيانِ إحداهُما الأُخرى’’.

ثُمَّ وقفَ ألِكسَندر، ومشى مُبتعِدًا عن السَّرير. فتَبِعَه إيوليوس.

واقتربَتْ هَدسَّة إلى فيبي أكثر. فرأتْ سلسلةً حولَ عُنُقِها وميداليةً صغيرةً مُلقاةً على بَشَرتها البيضاء. وانحنَتْ فأمسكتِ الميدالية الصَّغيرة وقلبَتها في راحَةِ يدِها، مُتَوقِّعةً أن ترى واحِدًا من الآلِهة أو الإلاهات الكثيرين الذين كانت فيبي تعبدُهم دائمًا في لاراريومِها. إلّا أنَّها وجدَت بالأحرى نَقْشَ راعٍ يَحمِلُ حَمَلًا على كتِفَيه.

فزفرَت نَفَسًا رقيقًا: ‘‘**أُوه!**’’ وغمرَها الدِّفءُ والشُّكر. فتحرَّكتْ عَينا فيبي، وبَدَت إحداهُما شاخِصةً بارتباكٍ إلى حِجابِها. واقتربَت هَدسَّة مُنحنيةً أكثر، ثُمَّ نظرَتْ في وجهِ فيبي، مُتأمِّلةً إيَّاها من كَثَب. ‘‘أنتِ تعرِفين الرَّبَّ، أليس

كذلك؟’’

وكلَّم ألِكسَندرُ إيوليوسَ على بُعدِ بِضعِ أقدام. ‘‘لقد عانَت نَوبةً دِماغيَّة’’.

فقال إيوليوس: ‘‘ذلكَ هو ما قالَهُ الطبيبُ الآخر. أفي وُسعِكَ أن تُساعِدَها؟’’

وأجابَ ألِكسَندر بصراحة: ‘‘أنا آسِف! ليس في وُسعي ذلك. ما من شيءٍ يستطيعُ أن يفعلَه أحَد. لقد عاينَتُ بِضعَ حالاتٍ كهذه قبلًا، وكلُّ ما يمكنُك أن تفعلَه هو أن تجعلَها مُستريحةً حتَّى ينتهيَ الأمر. ومن المراحم أنَّها- كما أعتقد- لا تدري بِما يجري حَوالَيها’’.

فقال أيوليوس بصَوتٍ مكبوت: ‘‘وإذا كانَت تدري؟’’

أجاب ألِكسَندر مُتجهِّمًا: ‘‘ذلكَ احتِمالٌ أكثرُ إيلامًا من أن نُفكِّرَ فيه’’. ثُمَّ نظرَ عبرَ الغُرفة فرأى رافا مُنحَنيةً فوقَ المرأة، مُطبِقةً يدَها على شيءٍ ما وهي تتكلَّم برِقَّةٍ إلى تلك المرأة الممَدَّدة على السرير.

ورأى أيوليوس ذلكَ أيضًا، فرَجَعَ إلى السَّرير. ونظرَ إلى هَدسَّة بقَلَق. ‘‘تِلكَ القِلادةُ مُهمَّةٌ جدًّا عندَها’’.

فقالَت بهدوء: ‘‘أرجو ذلك’’. ثُمَّ رفعَت رأسَها، ناظِرةً إلى ألِكسَندر وإيوليوس من خلال نقابِها الأزرق. ‘‘أيَّةُ آلِهةٍ لَدَيها في لاراريومِها؟’’ فتوتَّرَ إيوليوس حيالَ سؤالِها، ولم ينبِسْ بكَلِمَة. ‘‘في وُسعِكَ أن تقولَ لي الحقيقة بِلا خَوف، يا إيوليوس’’.

فطرفَت عَيناه، إذ أجفلَ من معرفتِها اسمَه. وقال-مُصَدِّقًا إيَّاها تمامًا: ‘‘ولا واحد! لقد أحرقَت أوثانَها الخشبيَّة منذُ أكثرَ من سنتَين. قالَ الطبيبُ الآخَر إنَّ إلهًا ألقى يدَه عليها. أفذلك هو الخَطْب، في اعتقادكِ؟ أنَّ واحدًا من الآلِهة الذين تخلَّصَت مِنهم قد أحلَّ لعنةً عليها؟’’

‘‘كلَّا! إنَّ الإله الذي تعبدُه سيِّدتُك هو الإلهُ الحقيقيُّ الوحيد، وهو يفعلُ كلَّ الأشياء لقَصدٍ صالح لأجل الذين يحبُّونه’’.

‘‘لماذا إذًا فعلَ هذا بها؟ إنَّها تُحِبُّه، يا رافا. لقد أنهكَتْ نفسَها في خدمته، والآن يقولُ الطبيبُ إنَّه لا يستطيعُ أن يفعَلَ أيَّ شيء، وإنَّ عليَّ أن أدعَها تموت. وقد قالَ الأطبَّاءُ الآخرون مثلَ ذلك. حتَّى إنَّ واحِدًا منهم تركَ لنا سُمًّا لوَضعِ حدٍّ لحياتِها بسُرعة’’. ثُمَّ أومأ برأسه نحو الزُّجاجة الملَوَّنة على الطاوِلَة بقُربِ السرير. ‘‘ماذا يُمكِنُني أن أفعلَ لها، يا رافا؟’’ وكان اليأسُ باديًا في سِيماء وجهه.

‘‘لا تفقِدِ الرَّجاء. إنَّها تتنفَّس، يا إيوليوس، وقلبُها ينبض. إنَّها حيَّة’’.

فقالَ ألِكسَندر من حيثُ كان واقِفًا- وقد أزعَجه أنَّها أعطَتْ رجاءً حيثُ لم يكُن أيُّ رجاء- ‘‘ولكنْ ماذا عن عقلِها؟ أيكونُ شخصٌ ما حيًّا بالحقيقة بعدَما توقَّفَ عقلُه عن أداءِ وظيفتِه؟’’

ثُمَّ نظرَتْ من عَلُ إلى فيبي: ‘‘اترُكاني وَحدي معها إلى حين’’.

وإذْ كانَ إيوليوس توَّاقًا إلى شِفاءٍ مُعجِزيّ،

انسحبَ في الحال. أمَّا أَلِكسَندر، وقد سبقَ أن رأى ما يمكنُ أن يفعلَه الله، فظلَّ مُتمسِّكًا بالمنطق وشكَّ في التَّدخُّلِ الفائق للطَّبيعة. ‘‘ماذا تَنوِين أن تفعلي؟’’

‘‘أن أتكلَّمَ إليها’’.

‘‘إنَّها لا تستطيع أن تفهَمَ ما تقولين، يا رافا، وأنتِ أيضًا لا تستَطيعين أن تفهمي ما تقصدُه. لقد سبقَ أن رأيتُ حالاتٍ كهذه لـمَّا كنتُ أدرسُ تحتَ يَدِ فليغون. إنَّ ذِهنَها مُشوَّش. وهي بعيدةُ المنال. ستتراجَع حالُها البَدَنيَّة، ثُمَّ تموت’’.

‘‘أعتقدُ أنَّها تفهمُ مِقدارًا كبيرًا، يا أَلِكسَندر’’.

‘‘ماذا يجعلُكِ تقولينَ هذا؟’’

‘‘انظُر داخِلَ عَينَيها’’.

‘‘لقد نظرتُ’’.

فوضعَت يدَها على ذِراعه. ‘‘فلأتكلَّمْ إليها وحدي’’.

ونظرَ أَلِكسَندر نحوَ السَّرير، ثُمَّ إلى هَدسَّة من جديد. لقد أرادَ أن يسألَها ماذا تنوي أن تفعل، وبأيَّةِ كَلِماتٍ تنوي أن تتفوَّه.

‘‘رجاءً، ألِكسَندر، امضِ!’’

‘‘سأبقى خارجَ الباب تمامًا’’. ثُمَّ أمسكَ بذِراعها. ‘‘مهما يحصل، فأنا أُريدُ التفاصيلَ لاحِقًا’’.

وما إنْ خرج، حتَّى أغلقَ خادِمٌ الأبوابَ وراءَه، مُبقيًا هَدسَّة وحدَها في الغُرفة. فاقتربَت من السَّرير بَعد.

‘‘سيِّدتي...’’

سمِعَت فيبي الصَّوتَ الرقيقَ فوقَها، وأحسَّتِ الانخِفاضةَ اليسيرةَ في الفِراشِ المحشوِّ صُوفًا إذ قعدَ شخصٌ ما على السَّرير بجانِبها. كانَ الصَّوتُ أجَشَّ وغيرَ مألوف، وقال: ‘‘هل تعرِفينَ مَن أنا؟’’ فأدارَت عينَيها نحوَ الصَّوت وحاولَت أن تُركِّز. وكان كلُّ ما استَطاعَتْ أن تُميِّزَه غَمامةَ نِقابٍ زرقاء. فقالَت المرأة: ‘‘لا تخافي منِّي!’’ إذ باشرَتْ

إزاحةَ الطّبقاتِ الساتِرةَ التي أخفَت وجهَها.

ولـمَّا رأتْ فيبي الوجهَ ذا النُّدوب، شعرَت بموجةٍ من الشَّفقة والحُزن. ثُمَّ نظرَتْ في عينَي الشابَّة. وإذا تانِكَ العينانِ الداكِنتان النَّيِّرتان تَبدوانِ على نحوٍ غاية في الرقَّة والهدوء. لقد كانت فيبي تعرِفُهما جيِّدًا. هَدسَّة! ولكنْ كيفَ يُمكِنُ أن يكونَ ذلك؟ وحاولَتْ أن تتكلَّم، غيرَ أنَّ الكلماتِ خرجَت مُشوَّهةً وغيرَ مفهومة. ثُمَّ حاوَلَتْ بجَهدٍ أكبر، فاغرَورقَت عَيناها، وحرَّكت يدَها اليُسرى ببُطءٍ لافِت.

أمسكَت هَدسَّة يدَ فيبي، وضغطَتها على قلبِها، ثُمَّ قالت: "أنتِ تعرِفينَني فعلًا!" وابتسمَتْ لها مُضيفةً: "أُوه، سيِّدتي، أنتِ بِخَير".

"هاا... داا..."

ربَّتَتْ هَدسَّة جبينَ فيبي، مُهَدِّئةً إيَّاها. "الرَّبُّ صالحٌ، سيِّدتي. لقد خارَتْ عزيمتي في هذه الأسابيعِ الأخيرة، والآنَ أرى بواسطتكِ أنَّ كَلِمته لا ترجعُ إلَيه فارِغةً. لقد فتحتِ قلبَكِ له، أليس

كذلك؟’’ وأحسَّت يدَ فيبي تشدُّ على يدِها بِوَهَن. فقبَّلَتْها هَدسَّة، ودُموعُ الفَرَحِ تسيلُ على خدَّيها.

‘‘لا تفقدي الرَّجاء، سيِّدتي. تذكَّري أنَّكِ مُستَريحةٌ في الرَّبّ، وأنَّه يحبُّكِ. لـمَّا أقبَلْتِ إليه، سكبَ بَرَكاتٍ عليكِ. وهو يَعِدُ ببركته المستمِرَّة. لستُ أدري لما حَلَّ بكِ هذا الشَّلَل، ولكنّي أعلَمُ أنَّ الربَّ يسوعَ لم يتَخَلَّ عنك. وهو لن يتخلَّى عنكِ أبدًا، سيِّدتي. حتَّى إنَّ هذه قد تكونُ طريقتَه في جَذبِكِ إلَيه على نحوٍ أقرَبَ. فاطلُبي وجهَه. وأصغِي إليه. وتذكَّري من هو: مُعَزِّينا، قوَّتُنا، ناصِحُنا، شافينا. واسألي ما هي مشيئتُه لحياتكِ. إنَّه لم يأخُذكِ إلى الموطنِ السماويِّ لِقَصدٍ ما. وهو سيكشِفُ لكِ ذلك القصد. لعلَّ اللهَ قد فعلَ هذا الشَّيء لكي يُعطِيَكِ مأموريَّةً أعظمَ من تلك التي رُبَّما تولَّيتِ بنفسكِ القيامَ بها’’.

وأحسَّت هَدسَّة أصابعَ فيبي تَجري بِوَهَنٍ فوق أصابعها. فوضعَت كِلتا يَدَيها حول يَدَي فيبي، كما لو كان ذلك في وَضعيَّةِ صلاة. وقالت: ‘‘سأُصلِّي طالِبةً أن يكشِفَ اللهُ محبَّتَه لكِ بطُرُقٍ تؤتيكِ

قَصْدًا جديدًا".

"مَرْ..." وجَرَتِ الدُّموع على صُدغَي فيبي إلى داخلِ شعرِها الشائب.

فاغرَورقَت عَينا هَدسَّة. "ما انقطَعتُ قَطُّ عن الصَّلاةِ لأجلِ مَرقُس". ثُمَّ انحنَت وقبَّلَت خَدَّ فيبي. "أنا أُحبُّكِ، سيِّدتي. سلِّمي أمرَكِ كلِّيًّا للرَّبّ، وهوَ سيَقودُكِ".

ثُمَّ نهضَتْ عن السَّرير، وغطَّت وجهَها بالحِجاب. وذهبَتْ إلى الأبواب، ففتحَتها. وإذا إيوليوسُ وألِكسَندر خارجَ الباب تمامًا، فضلًا عن بِضعَةِ خَدَمٍ. فضَحِكَت، وقد غمرَتها الحماسَةُ والبهجة. "تفضَّلوا ادخُلوا!"

هُرِعَ إيوليوس إلى السَّرير، ووقفَ يُحدِّق من عَلُ إلى سيِّدته، خافِضًا كتِفَيه. وقال بصراحة: "ليسَت أحسنَ حالًا. لقد ظنَنتُ..."

"انظُر داخِلَ عينيها، يا إيوليوس. إنَّ ذهنَها ليسَ مُشَوَّشًا. إنَّها تفهمُ ما تَرمي أنتَ إليه فَهمًا تامًّا.

ليست مَفقودةً عندَنا. أمسِكْ يدَها".

ففعلَ ذلك، وشهِقَ نَفَسَه لـمَّا ضغطَتْ أصابعُ فيبي أصابِعَه بوَهَن. ثُمَّ انحنى ونظرَ في عينَيها، فأغمضَتْهُما ثُمَّ فتحَتهُما. "أُوه، سيِّدتي...!"

نظرَت هَدسَّة إلى ألِكسَندر، فرأت وقفتَه الكالحة وتساءلَت أيَّةُ أفكارٍ كانت تَدورُ في رأسِه.

وسألَه إيوليوس: "ماذا نفعلُ الآن، سيِّدي؟ ماذا أفعلُ لأعتنيَ بها عِنايةً حَسَنة؟"

فزوَّدَه ألِكسَندر بتَعليماتٍ تُوضحُ له كيفَ يُعِدُّ أطعِمةً مُغَذِّيةً يسهلُ عليها أن تتناوَلَها. وقال له إنَّه ينبغي أن يعمِدَ هو أو واحدٌ من الخَدَم إلى تحريكِ فيبي بانتِظام. "لا تُبقِها في الوضعيَّة ذاتِها ساعاتٍ كثيرة جدًّا في اليوم. وإلَّا، فإنَّها ستُصابُ بقُروحٍ وكَدَمات من جرَّاء الضَّغط المتواصِل، فيؤدِّي ذلك فقط إلى تَفاقُمِ حالتِها. دَلِّكْ عَضلاتِها، وحرِّكْ ذراعَيها ورِجلَيها برِفق. غيرَ ذلك، لستُ أدري ما ينبغي أن أقولَه لك".

قعدَت هَدسَّة على السَّرير، وأمسكَتْ يدَ فيبي الأُخرى. فحرَّكَتْ فيبي عينَيها حتَّى تركَّزَتا على هَدسَّة، ورأتْ هذه أنَّ تَينِكَ العَينَين تشعَّان.

وفركَت هَدسَّة يَدَ فيبي. "سيُخرِجُكِ إيوليوس إلى الشُّرفة كلَّ يومٍ يكونُ الجوُّ فيه جيِّدًا، لِكَي تشعُري بنُورِ الشَّمسِ على وجهِكِ وتسمعي الطُّيورَ تُغرِّد. إنَّه يعلَمِ أنَّكِ تفهَمين، سيِّدتي". ثُمَّ رفعَتْ رأسَها، وأضافَتْ: "تكلَّمْ إليها، يا إيوليوس. ستمرُّ أوقاتٌ فيها تخورُ عزيمتُها وتخاف. فذكِّرْها أنَّ الله يحبُّها، وأنَّه معَها، وأنْ ما من قوَّةٍ على الأرض تستطيعُ أن تخطفَها من راحة يدِه".

ثُمَّ نظرَتْ إلى فيبي ڤاليريان من جديد. "لَدَيكِ بعضُ الحركة، سيِّدتي. جِدِي طُرقًا لإطلاع إيوليوس على ما تحتاجين إليه وما تشعُرين به".

فأغمضَت فيبي عينَيها، وفتَحتهُما مُجدَّدًا.

وقالت هَدسَّة: "جيِّد". ثُمَّ مسَّتْ بقَفا مَفاصِلِ أصابِعِها خدَّ فيبي برِفق. "سأرجعُ لزيارتكِ عندما أستَطيعُ، سيِّدتي".

فأغمضَتْ فيبي عينَيهما وفتَحَتْهُما مرَّةً أخرى. واغرَورقَتا ثانيةً.

ولـمَّا قامَتْ هَدِسَّة، تناوَلَتِ الزُّجاجةَ عن الطَّاولة الصغيرة، وأعطَتْها لإيوليوس قائلةً: "ارمِ هذه بعيدًا!"

فأخذَ إيوليوس الزُّجاجة وطوَّحَها عبرَ الأبوابِ المفتوحة إلى الشُّرفة، حيثُ تحطَّمَت على البَلاط. وانحنَى انحِناءةً كبيرة. "شُكرًا لكِ، يا رافا".

فردَّت له الانحناءةَ بِرَزانة. "شُكرًا لله، يا إيوليوس. شُكرًا لله".

لم يقُل ألِكسَندر كلامًا كثيرًا في طريق العودة داخِلَ المحفَّة إلى الشَّقق الجديدة. ثُمَّ ساعَدَ هَدسَّة على التَّرَجُّل، وساندَها إذ عرجَتْ نحوَ الباب. وكان راشِد قد رآهُما من الأعلى، فانتظرَهُما. ثُمَّ رفعَ هَدسَّة وحملَها على الدَّرَج صعودًا، ومن ثَمَّ إلى الغُرفة الرئيسيَّة. وأنزلَها برِفقٍ فوَقفَت، وعرجَتْ إلى أريكة، ثُمَّ قعدَتْ

وأخذَتْ تفركُ رِجلَها العَليلة.

صبَّ ألِكسَندر جَرعةَ خَمرٍ ضئيلةً، وناولَها إيَّاها. فأزاحَتْ نِقابَها، ورشَفَت.

قال ألِكسَندر- مُنفِّسًا عن غضبه- ‘‘أيَّ حياةٍ مُحتمَلة يُمكِن أن تحيا تلك المرأة، وهيَ حبيسةُ جِسمٍ يأبى أن يشتغِل؟’’ وسكبَ لنَفسه كأسًا من الخمرة الفالِرنيانيَّة. ‘‘خيرٌ لها لو تموت. إذًا لكانَت نفسُها على الأقلِّ تغدو حُرَّةً، بَدَلَ أن تبقى عالقةً في قَوقعةِ جسمِها العقيمةِ تلك’’.

‘‘إنَّها حُرَّةٌ، سيِّدي’’.

‘‘كيف يُعقَلُ أن تقولي هذا؟ إنَّها لا تكادُ تَقوى على التحرُّك، ناهِيكِ بالمشي. ولا تستطيعُ أن تتفوَّه بكلمةٍ واحدة مفهومة. فكلُّ ما تقولُه يخرجُ بَربَرةً عديمةَ المعنى. إنَّها تستطيعُ أن تُحرِّكَ يَدَها ورِجلَها اليُسرَيَين، وأن تطرِفَ بعينَيها. ومن غيرِ المرجَّح أنَّها ستتمكَّنُ من أن تفعلَ ذاتَ يومٍ ما يتخطَّى ذلك’’.

فابتسمَت. ‘‘ما كُنتُ قَطّ حُرَّةً أكثرَ منّي وأنا محبوسةٌ في الزّنزانة بانتِظارِ أن أُرسَلَ إلى ساحةِ المحاربين لكي أموت. لقد كان الله معي في الظُّلمة، تمامًا كما هو معي الآن’’.

‘‘أيُّ نفعٍ فيها لنفسها أو لأيِّ شخصٍ سواها؟’’

فرفعَت رأسَها، وقد ومضَت عيناها الداكِنتان: ‘‘مَن أنتَ لِتَقولَ إنَّ فيها نفعًا أو لا؟ إنَّها حيَّةٌ! وهذه جُملَةٌ مُفيدَةٌ تمامًا’’. ثُمَّ سكنَ غضبُها، وحاولَتْ أن تُطَمْئِنَه. ‘‘لَدَى الله قصدٌ لها من وراء ذلك’’.

‘‘أيُّ قصدٍ مُمكِنٌ لأيِّ شخصٍ في حالتها؟ وأيَّ نوعٍ من الحياة ستكونُ تلك، يا رافا؟’’

‘‘الحياةَ التي قد أعطاها الله إيَّاها’’.

‘‘ألا تعتقدينَ أنَّ وَضعَ حَدٍّ لِمُعاناتِها سيكونُ أرحمَ لها من إبقائها على حالتها الراهنة؟’’

‘‘لقد قُلتَ مرَّةً إنَّ الله هو مَن يُقرِّرُ أيعيشُ الإنسانُ أم يموت. فهل غيَّرتَ رأيَك؟ أمِن شأنِك

الآن أن تقول إنّ قرارَ إبقائها حيَّةً هو في يدك أو في يَدِ أيِّ طبيبٍ آخَر؟ إنَّ القتلَ ليس فِعلَ رحمة، سيِّدي''.

فعبقَ وجهُه بالحرارة. ''لا أتكلَّمُ بشأن القتل. وأنتِ تعلمينَ ذلك!''

وتكلَّمَتْ بقَناعةٍ هادئة وحُزن، قائلةً: ''الحقيقة أنَّك تتكلِّمُ بشأن القتل، مع أنَّكَ ربَّما تُحاولُ أن تُقنِّعَ ذلك بكلامٍ آخر. فماذا غيرَ ذلك يُمكِنُكَ أن تدعوَ وَضْعَ حدٍّ لحياةِ إنسانٍ قبلَ أجَلِ الله؟''

''لا أحسبُ هذا سؤالًا منطقيًّا، يا رافا''.

''وأيُّ سؤالٍ يكونُ منطِقيًّا؟''

''ذاكَ الذي لا يشتمِلُ على تفسيرٍ سماويٍّ يفوقُ قُدرةَ أيِّ إنسانٍ على الإجابة''. وتصلَّبَ فمُه. ''ربَّما كان ينبغي أن نتحدَّثَ بمَوضوعٍ آخر''.

''لا يسقُطُ عُصفورٌ من الهواء دونَ عِلمِ الله. فهو يعلمُ أصلًا لحظةَ وفاةِ فيبي ڤاليريان وسَبَبَها. ولا شيءَ يَخفى على الله''. ثُمَّ حطَّتِ الكُوبَ

الفخَّاريَّ الصغيرَ على حضنِها، عالِمةً أنّ ما ستقولُه لا بُدَّ أن يؤلـمَه. ‘‘حتَّى إنَّك ربَّما كُنتَ لا تَدري ما لَدَيك من أسبابٍ أكثرَ عُمقًا للرَّغبةِ في وَضعِ حدٍّ لحياتها’’.

‘‘وأيَّ سببٍ يُمكِنُ أن يكونَ ذلك؟’’

‘‘الملاءَمة؟’’

فاحمرَّ وجهُه. ‘‘أتقولين ذلك لي؟’’

‘‘ستكونُ فيبي مُعتَمِدةً كلِّيًّا على الآخرين للاعتناء بجسَدِها المادِّيّ. وذلك يَقتَضي حُنُوًّا وحُبًّا عظيمَين، يا ألِكسَندر. وإيوليوس يمتلِكُ كِلَيهما. أمَّا أنت فلا وقتَ لديكَ لَهُما’’.

نادرًا ما كان يغضب، غيرَ أنَّ كلماتِها أثارَتْ سُخطًا في داخِله. ‘‘هل أعوزَني الحُنوُّ يومًا؟ أما كانت رغبتي الوحيدة دائمًا أن أتعلَّمَ كلَّ ما أستَطيعُه لكي أُساعِدَ الناس؟’’

‘‘وماذا عن أُولئك الذين تصرِفُهم عنك؟’’

"إنّي لا أصرفُ عنّي إلّا المرضى الذين أعلَمُ أنّي لا أستطيعُ أن أُعالجَهم".

"أهُم أقلُّ احتياجًا إلى محبَّتِك؟"

لم يُحِسَّ أيَّ شَجبٍ في كَلِماتها، إلَّا أنَّه شعرَ بحدَّتها الجارحة في قلبه. "ماذا يُفترَضُ أن أفعل، يا رافا؟ أن أقبلَ مُعالَجةَ كلّ مَن يطلبُ منّي أن أُساعِدَه؟ ماذا تُريدينَ منّي أن أفعل؟"

وضعَتْ كُوبَها جانبًا، وعرجَتْ عابرةً الغُرفة. ثُمَّ وقفَتْ أمامَه، وقالت ببساطة "هكذا!" مُطوّقةً إيَّاه بذراعَيها. لم تقُلْ كَلِمةً أُخرى، وجعلَت مُعانقَتُها العَذبةُ قلبَه مُوجَعًا. وأحسَّ يَدَها تتحرَّكُ على ظهرِه، فارِكةً برِفق، مُعزِّيةً، ففارقَه الغضبُ والارتباكُ تمامًا. وآلمته عيناه جدًّا، فأغمضَهما، وطوَّقها بذراعَيه، مُسنِدًا خدَّه على أعلى رأسها. وزَفَرَ نَفَسَه ببُطء.

ثُمَّ قال بصَوتٍ أجَشَّ: "أحيانًا، أرغَبُ في تطويقِ عُنُقِك. إنَّكِ تُربِكينَني كثيرًا جدًّا".

فضحِكَت ضِحكةً رقيقة. ‘‘أعرِفُ تمامًا حقيقةَ شعورِك’’.

تراجَعَ مُبتسِمًا ابتسامةً عريضة، واحتَضَنَ وجهَها بينَ يدَيه، رافِعًا إيَّاه. ‘‘تُرى ماذا كان يُمكِنُ أن أفعلَ لَولاكِ، يا رافا؟’’

فتَلاشى ضَحِكُها. وأمسكَت يدَيه بينَ يدَيها وشدَّت عليهما. ‘‘ينبغي لك أن تتعلَّمَ الاتِّكالَ على الرَّبّ’’.

شعرَ أَلِكسَندر بالفَزَع إذ أرخَتْ يَدَيه وعرجَتْ ببُطءٍ نحوَ الباب. وفجأةً، على نحوٍ غير قابِلٍ للتَّعليل، عَلِمَ أنَّه كان وحيدًا. لقد عَلِمَ أنَّه سيَفقِدُها في الأخير. لم يعلَمْ كيفَ أو لماذا، بل عَلِمَ ذلك فقط.

لقد حدثَ هذه الليلةَ شيءٌ لم يستطِعْ أن يُحدِّدَه. هل أراها اللهُ سبيلًا آخَر؟ وأوَّلَ مرَّةٍ في حياته تمنَّى لو يملِكُها، لو يتسنَّى له أن يُطالِبَ بامتلاكِها الشَّخصيِّ القانونيِّ ويُبقيَها بجانبهِ دائمًا.

تجهَّمَ مُتسائلًا عن هذا الانزعاج الذي شعرَ به، ثُمَّ تذكَّرَ شُكوكَه لـمَّا حملَ راشِد خبرًا بأنَّ خادِمًا من بيت ڤاليريان ينتظرُ في الأسفل. فقدِ أصابَتْ هَدسَّة دهشةٌ كما لو أنَّ صاعِقةَ بَرقٍ أصابَتها.

وغمرَه إدراكٌ مُفاجئٌ، فنَظرَ إليها مَرعوبًا. ‘‘كُنتِ تعرفينها، هَدسَّة، أليس كذلك؟ لم تكوني تعرفين فقط عن فيبي ڤاليريان، بل كنتِ تعرفينها شخصيًّا’’. وأخذَ قلبُه يخفقُ بشِدَّة. ‘‘لقد كان آلُ ڤاليريان هم الأُسرةَ التي امتلكَتكِ، أليس كذلك؟’’ لقد غمرَه الخوف، الخوفُ من أجلها... الخوفُ من أجله ومن فكرة خَسارته إيَّاها. ‘‘ماذا فعلتِ في أثناء ذلك الوقتِ الذي أمضَيتِه معها وحدَك؟ هَدسَّة!’’

غادرَتِ الغُرفةَ دونَ أن تُجيبَه.

ولكنَّ ألِكسَندر عرفَ فِعلًا ما قد فعلَته. لقد أزاحَت نِقابَها. لقد كشفَت نفسَها لِفَردٍ من الأُسرة التي سبقَ أن حاولَت قتلَها.

قال همسًا: ‘‘بحياةِ الآلِهة...!’’ مُمشِّطًا شعرَه

بأصابعِ يَدَيه.

لماذا لم يسألْها هل تَعرِفُ آلَ ڤاليريان قبلَ اصطحابِها إليهم؟ لقد عَلمَ منذ البداية أنَّ الأمرَ ينطوي على مَخاطِر. وها هو الآن قد وضعَها في دائرةِ الخَطَر. ولأجلِ ماذا؟ لِكَي يشهدَ مُعجزةَ شِفاءٍ أُخرى؟ لا! لقد أخذَها معه لأنَّه كان فخورًا بقُدراتها، فخورًا لأنَّها كانت مُعاوِنتَه. ثُمَّ ماذا أنجزَت كِبرياؤه التي لا تُطاق؟

غمرَه يأسٌ مَقرونٌ بالعَجز. **اللَّهُمَّ، احمِها!لقد كنتُ غبيًّا!لقد عرَّضتُها لخَطرٍ مُميت.لقد كشفتُها للعائلة التي سبقَ أن حاولَتْ قتلَها مرَّةً.**

ماذا لَوِ استعادَتِ المرأة صوتَها؟ ماذا يكونُ عندئذٍ؟ وصلَّى بحرارة، شابكًا يَدَيه: يا الله، **أبقِ لِسانَ تلك المرأة مُشَوَّشًا. أبقِها صامتة!**

ثُمَّ قعدَ، لاعِنًا نفسَه.

لقد عَهِدَت هَدسَّة بنَفسِها إلى الله، ولكنَّه هو لا

يستطيعُ أن يكونَ واثِقًا جدًّا. فأنْ يفقِدَ هَدسَّة سيَعني أن يفقِدَ كلَّ شيء. وهو إنَّما كان قد بدأ ذلك، كما كان قد بدأ يُواجِه ما تَعنيه له. فربَّما كان عليه أن يضَعَ جميعَ الهواجس جانبًا، ويتولَّى المسألةَ بيَدَيه. ثُمَّ إنَّ الحالَ تكون أفضل جدًّا لو ماتَتِ المرأة. وأجفلَ إذ فكَّرَ في ما قالته هَدسَّة. لكنْ ينبغي له أن يكونَ عقلانيًّا.

زيارةً واحِدةً إلى فيبي ڤاليريان، فيُتاحَ له أن يَتيقَّن بأنَّ هَدسَّة ستَغدو خارجَ نِطاق الخطر دائمًا أبدًا. وما إنْ تموتُ فيبي ڤاليريان، حتَّى يتيقَّنَ بألَّا تقتربَ هَدسَّة البتَّة من أيِّ ڤاليريانيٍّ آخَر.

فجأةً، تردَّدَت في ذهنه أصداءُ كلمات هَدسَّة. **المُلاءمة**. أكانت الملاءمة سببًا كافيًا لقتلِ شخصٍ ما؟ لا. ولكنْ ماذا عن حِمايةِ حياةِ آخَر؟ ماذا عنِ **الجَزاء**؟ لقد حاولَ آل ڤاليريان أن يقتلوها بإرسالها إلى ساحة المحاربين لِمُواجَهةِ الأسود. ماذا عن **الانتِقام**؟

ثُمَّ ارتعدَ إذ أدركَ مجرى تفكيره. وتذكَّرَ هَدسَّة

مُنحَنِيةً فوقَ فيبي ڤاليريان. إنّ كلَّ ما يتعلّقَ بطريقةِ وقفتِها وكلامِها بيَّنَ المحبَّةَ التي تكنُّها لتلك المرأة. فكيفَ كان ذلك مُمكِنًا؟

وصرَّ بأسنانه. لقد كانت هناك طُرُق عديدة كان يستطيع بها أن يحميَ هَدسَّة من آل ڤاليريان.

ولكنْ لم تكُن تلك هي المشكِلةَ الحقيقيَّة.

فكيف كان ينبغي له أن يتصرَّفَ لِيَحميَ هَدسَّة من نفسها؟

١٧

مدَّ عزرا بارياكين يَدَيه في الهواء مُحبَطًا. لماذا وجبَ أن تنهارَ زوجتُه الآن فيما يحتاجُ أن تقِفَ إلى جانبه بثَبات؟ ‘‘أنا أعلَم أنَّه رومانيٌّ! لا داعيَ لأنْ تقولي لي!’’

فقالت يهوشِبَع بصوتِ عَويل: ‘‘ما دُمتَ تعلَم، فلماذا أحضرتَه إلى بيتنا؟ لماذا فعلتَ بنا هذا الأمرَ الرهيب؟ الجميعُ يعلَمون بالأمر! لقد رأوكَ تدخلُ أبوابَ المدينة. وشاهَدوك آتيًا بهذا الرُّجل في الشارع وداخِلًا بيتَنا. وفي وُسعي أن أُحِسَّ عُيونَهم المحرورة تخترِقُ الجُدران. لن يسمَحوا لكَ بدُخولِ المجمَع بعد هذا!’’

‘‘ماذا كُنتِ تُريدين منّي أن أفعل، يا يهوشِبَع؟ أن أتركَه في الوادي حتَّى يموت؟’’

‘‘نعم! فليس ذلك أقلَّ ممَّا يستحقُّه شخصٌ رومانيّ؟ هل نسيتَ يوسُف؟ وهل نسيتَ الآخرين الذين ماتوا في مدينة القُدس؟ أم هل نسيتَ الآلاف الذين رُحِّلوا ليَصيروا عبيدًا للكِلاب

الأمميِّين آمثالِه؟’’

‘‘لم أنسَ أيَّ شيء!’’ وأشاحَ بناظرَيه عبثًا. ‘‘لم تَدَعْني ابنتُكِ أترُكه’’.

‘‘ابنتي؟ إذًا، أنت تُلقي الملامة عندَ بابي، رُغمَ عدم وُجودي هناك. إنَّها ابنتُكَ، ورأسُها دائمًا في الغيوم. ينبغي لكُما كِلَيكُما أن تنزِلا إلى الأرض! لقد أخذْتَ ابنتَنا لتُرتِّبَ لها زواجًا، فماذا جرى؟ عُدتَ لتقولَ لي إنَّ أخاكَ طردَك وقال إنَّه لا يُريد أبدًا أن يراكَ مرَّةً أُخرى! ولِزيادةِ الطِّينِ بِلَّةً، وجدتَ رومانيًّا على الطريق وجَرَرتَه إلى البيتِ معك!’’

‘‘حاولتُ أن أتركَه في الفُندق، ولكنَّ مَجدُّو أبى أن يستقبلَه. حتَّى إنِّي عرضتُ عليه مالًا’’.

فانفجرَت باكيةً: ‘‘ماذا سيَقولُ الجيران؟’’

كانت تَفاثا واقِفةً تُصغي على الدَّرج المؤدِّي إلى السَّطح، حيثُ سبقَ أن حملَتِ الرُّومانيَّ مع أبيها. وقد لَبِثَت حتَّى نام. إنَّ مِحنةَ السَّفرة الطويلةَ والمؤلِمة إلى أريحا، كانت شاقَّةً عليه

جدًّا. وباتتْ شاكرةً لأنَّها قدِ انتهت، كما كانت شاكرةً لأنَّه ما زال حيًّا.

وشاكرةً أيضًا لأنَّه لم يستَطع أن يسمَعَ ما كانت أُمُّها تقولُه.

باتَ الصوتُ الوحيدُ الآن هو بُكاءَ أُمِّها. فهبطَتِ الدَّرَجاتِ الأخيرة. ‘‘ماما، سيَقولُ الجيرانُ إنَّ الوالدَ تذكَّرَ المكتوبَ المقدَّس: أنَّ اللّٰه يطلبُ رحمة، لا ذبيحة’’.

رفعَت يهوشبَع رأسَها ببُطء، والدموع تنسابُ على خدَّيها. وأمعَنت في النظر في وجهِ ابنتِها، فأخذَها العَجَبُ حِيالَها. كيف باتت تَفاثا تمتلكُ هذه الرُّوحَ الطيِّبةَ الجميلة؟

وفكَّرت باكتئاب: لم يكُن معقولًا أن تأتيَها بواسطتي! لأنَّها كانت تعلَمُ تمامًا أنَّها كانت مُتمرِّدةً وشكَّاكة. ولا كان معقولًا أن تأتيَها بواسطة عزرا، وقد كان عالِقًا في شَرَكِ الكِفاحِ الدائمِ ضدَّ الأحوال. ثُمَّ انزَمَّت شفتا يهوشبَع إذ تذكَّرتْ أنَّه كثيرًا ما جلبَ هو تِلكَ الأحوال على

نفسِه.

واحتضنَت براحةِ يدِها خدَّ تَفاتا، ثُمَّ هزَّت رأسَها بأسًى. ‘‘لن يتذكَّروا ذلك أبدًا. سيتذكَّرون مدينةَ القُدس. سيتذكَّرون يوسُفَ الشَّهيد. سيتذكَّرون ماسادا. ولأنَّهم يتذكَّرون، فسَيُديرون ظهورَهم لنا لأنَّنا قد آوَينا رومانيًّا، أُمَميًّا، وبذلك دنَّسْنا بيتَنا’’.

‘‘عندَئذٍ سنُذكِّرُهم بما يقولُه الله، يا ماما. لِنُبدِ الرَّحمة! يجب ألَّا تقلقي كثيرًا بشأنِ ما يقولُه الآخرون. لِنَخَفِ الله! فهوَ الرَّبُّ مَن يجبُ أن نُرضِيَه’’.

فابتسمَت يهوشِبَع ابتسامةً واهيةً، وقالت: ‘‘سنُذكِّرُهم’’، شاكَّةً في أن يُجديَ ذلك أيَّ نَفع. ثُمَّ أيُّ خِيارٍ بأيديهِمِ الآن؟ لقد وقعَ الضَّرَر.

وقبَّلت تَفاتا خدَّها. ‘‘سأُحضِرُ بعضَ الماء’’.

راقبَها عزرا تأخذُ الجرَّةَ الفَخَّاريَّة الكبيرة وتخرجُ من الباب إلى نور الشمس. ثُمَّ زلَّقَتْ قَدَمَيها داخِلَ صَندَلِها، ووازنَتِ الجرَّةَ على رأسِها،

وخرجَتْ إلى الشارع. فذهبَ إلى الباب المفتوح، واتَّكأ على قائمته، مُراقِبًا إيَّاها. ‘‘أحيانًا، يُخيَّلُ إليَّ أنَّ الله قد دعا ابنتَنا لكي تكون شاهِدةً له’’.

‘‘لا يكادُ ذلك يُعَزِّي عندما تعتبرُ ما يحصلُ للأنبياء’’.

صعقَه كلامُها، فأغمضَ عَينَيه، مُسنِدًا رأسَه إلى قائمة الباب، قُربَ المِيزوزوث. كان يَعرِفُ غَيبًا الكلماتِ التي تحتوي عليها تلك العُلَيباتُ الحجريَّة المستَطيلة. فقد كان في وُسعه أن يتلوَ كُلًّا من الوصايا العَشر وآياتِ الأسفار المقدَّسة، المكتوبةِ كلِّها بكُلِّ دِقَّةٍ على رَقٍّ ليتسنَّى حِفظُها داخِلَ المِيزوزوث المثبَّتةِ على قائمتَي بابِ بَيته. وقد كان يؤمنُ بهذه الآيات والوُعود من كلِّ قلبه... إلَّا أنَّ بِضعَ كلماتٍ تقولُها هذه المرأة يُمكِنُ أن تطعنَه بشَكٍّ خانِق. هل عرَّضَ ابنتَه للخَطَر بمُساعَدتِه للرُّومانيّ؟ هل عرَّضَ الجميعَ للخطر؟

وإذ دارَ ونظرَ إلى زَوجته من جديد، صلَّى: أعِنِّي، أيُّها الربُّ الإله... ثُمَّ رفعَ يدَه فقبَّلها ووضعَها على

مِيزوزاه قبلَ أن يعودَ إلى الداخل. ‘‘لم يكُن يَسَعُني أن أتركَه ليَموت، يا يهوشِبَع ليُسامِحْني الله. لقد فكَّرتُ في الأمر فِعلًا’’.

فلانَ وجهُها، وتنهَّدت قائلةً: ‘‘أنتَ رجُلٌ صالح، يا عزرا. صالحٌ فوقَ الحدّ’’. ثُمَّ قامَتْ وعادَتْ إلى عملها.

‘‘حالَما يتَعافى الرُّومانيُّ بحَيثُ يتمكَّنُ من السَّفر، سيَرحل’’.

‘‘فيمَ العَجَلة؟ لقد وقعَ الضَّرَرُ فعلًا!’’ ونظرَتْ نحوَ الدَّرج المؤدِّي إلى السَّطح. ‘‘هل وضعتَه على السَّرير في الخَيمة؟’’

‘‘نعم’’.

ورقَّقَتِ العجينَ ببضعِ ضَرَباتٍ قويَّة. لقد كان من عاداتِ عزرا أن يتخلَّصَ من أفضلِ فِراش. حسنًا، ما دامَ الأمرُ يتعلَّقُ بها، فعندَما يُغادِرُ الرُّومانيُّ يُمكِنُه أن يلفَّ ذلك الفراشَ المدنَّسَ ويأخُذَه معه.

١٨

استيقظَ مَرقُس على صَوتِ مُنادي البَلدة. واستَطاعَ أن يسمَعَ الرجُلَ بوُضوح، مُناديًا بإعلاناته بالآراميَّة من على سطحٍ قريب. فحاوَلَ أن يجلِس، ثُمَّ عادَ فاستَلقى مُطلِقًا شهقةَ ألم، ورأسُه ينبض.

وقالت له امرأةٌ: ‘‘ستَشعرُ بتحسُّنٍ في غضونِ أيَّامٍ قليلة’’.

ثُمَّ سَمعَ شيئًا يُشطَفُ في الماء، وتنهَّدَ إذ وُضِعَت خرقةٌ باردة على جبينه وعينَيه. وأطلقَ صَوتًا من حَنجَرته. ‘‘سُرِقتُ... الحِصان... المال...’’ وضحِكَ ضِحكةَ ازدِراءٍ خافِتةً خَشِنة، فآلَمته شَفَتُه المشقوقةُ إيلامًا حادًّا لاسِعًا، وأوجعَه فكّاه. حتَّى أسنانُه آلمته. ‘‘حتَّى تُنكي أيضًا’’.

فقالَت تَفاتا: ‘‘سنُعطيكَ تُنكًا آخَر’’.

وتنبَّهَ مَرقُس إلى رَنينِ صَوتِ الفتاة، إلى لهجتِها. ‘‘أأنتِ يهوديَّة؟’’

‘‘نعم، سيِّدي’’.

فاخترقَته كَلِمتاها، مُستَحضِرةً ذِكرياتٍ عن هَدسَّة. ‘‘لقد أسعفَني رجُل’’.

‘‘والدي. وجدناكَ في الوادي، وأتَينا بك إلى هنا’’.

‘‘كنتُ أعتقدُ أنَّ جميعَ اليهود يكرهون الرُّومان. لماذا توقَّفتُما، أنتِ وأبوك، كي تُساعِداني؟’’.

‘‘لأنَّك كنتَ تحتاجُ إلى مُساعَدة’’.

تذكَّرَ دَوريَّة الخَفْرِ الرُّومانيَّة على الطريق. وكان قد سمع آخرين يجتازون فوقه مُتكلِّمين باليونانيَّة. فإذا كانوا قد سَمِعوا استِغاثتَه، فهُم لم يتمهَّلوا كي يعثُروا عليه ويُسعِفوه.

وقالَ صَوتُ رجُل: ‘‘كيف حالُه يا بُنَيَّتي؟’’

‘‘أحسَنُ، أبَتِ. لقد خفَّت الحمَّى’’.

‘‘هذا جيِّد’’.

وأحسَّ مَرقُس الرَّجُلَ يقترب، فقال بجفاف: "لقد حُذِّرتُ من أن أُسافِرَ وحيدًا".

"نصيحةٌ حكيمة، يا رومانيُّ. اعمَل بها المرَّةَ التالية".

فابتسمَ مَرقُس ابتسامةَ سُخرية، رُغمَ الألَم في شَفَتِه. "أحيانًا يتعذَّر على الرَّجُل أن يَجِدَ ما يَبحثُ عنه فيما يُحيطُ به آخَرون".

أمالَت تَفاثا رأسَها بِفُضول. "عَمَّ تبحث؟"

"إله إبراهيم".

قال عزرا ساخِرًا: "أليس لَدَيكم، أنتمُ الرُّومان، آلِهةٌ كافيةٌ خاصَّةٌ بكم؟" ونظرَت إلَيه ابنتُه من تحتُ في توسُّلٍ صامت.

فقال مَرقُس: "ألَستُم على استعدادٍ لمشاركةِ الآخرين في إلهِكُم؟"

"من شأن ذلك أن يتوقَّفَ على الأسباب التي من أجلها تُريدُ أن نفعلَ ذلك". وأومأ عزرا لابنتِه

أن تبتعِد، ثُمَّ تقرفَصَ ليَنزِعَ هُوَ الخِرقةَ ويشطِفَها من جديد. فهو لم يُرِد لابنتِه أن تقضيَ مع هذا الأُمَميّ وقتًا يُجاوِزُ الحدَّ. ووضعَ الخِرقةَ الباردة على جبينِ الرُّومانيّ.

تحرَّكَ مَرقُس مجدَّدًا، وشهقَ نَفَسًا من بينِ أسنانه.

"لا تُحاوِلْ أن تجلِسَ الآن. ربَّما كانت بعضُ أضلاعِكَ مكسورة".

"اسمي مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان". ولم يُثِرِ اسمُه أيَّ تعليق، أو أيَّة أسئلة. "أمَا يعني لكَ الاسمُ شيئًا؟"

"أهُوَ مُهِمٌّ؟"

فندَّت عن مَرقُسَ ضِحكة. "يبدو أنَّه ليس مُهِمًّا كفايةً".

والتَفَتَ عزرا إلى ابنته. "اذهبي ساعِدي أُمَّكِ، يا تَفاثا".

فخفضَت عينَيها، وقالَت بِوَداعة. ‘‘نعم، أبَتِ’’.

أصغى مَرقُس إلى وَقعِ خُطاها إذ مَضَت إلى الدَّرَج وقال: ‘‘تَفاثا، اسمٌ حُلو’’.

فانزَمَّ فَمُ عزرا. ‘‘لقد كُنتَ محظوظًا، يا مَرقُس لوشيانُس. إنَّكَ فقدتَ مُمتلكاتِكَ وعانَيتَ خُدوشًا ورُضوضًا، إلَّا أنَّك حيّ’’.

‘‘نعم، أنا حيّ’’.

لاحَظَ عزرا الطريقةَ الكئيبةَ التي بها نطقَ الرُّومانيُّ بهذه الكلمات، وتساءلَ عن الأسباب الكامِنة وراءها. ‘‘لقد وضعَت زَوجتي وابنتي مِلحًا وزيتَ التربنتين على جُروحك. والجُرحُ الغائرُ في جنبِك خُتِمَ بالزِّفت. ينبغي أن تُشفَى في غضونِ أيَّامٍ قليلة’’.

فقال مَرقُس- وفمُه مُلتَوٍ بِوَهَن- ‘‘ثُمَّ أمضي في سبيلي. أين أنا؟’’

‘‘في أريحا. على سطحِ بَيتي’’.

أصغى مَرقُس إلى المنادي ملقِيًا بإعلاناته في الجوار. ‘‘شكرًا لك على عدم تَركي في الوادي لأموت’’.

تجهَّمَ عزرا إزاءَ اتِّضاعِ هذه الكَلِمات، ولانَ قليلًا. ‘‘أنا عزرا بارياكين’’.

‘‘أنا مديونٌ لك، عزرا بارياكين’’.

‘‘دَينُك لله’’. ثُمَّ قامَ عزرا، وغادَرَ السَّطح، مُنزَعجًا من البَلاء الذي جلبَه الرُّومانيُّ على بيته.

غَطغَطَ النَّومُ على مَرقُس، مُستَيقِظًا بين الفَينة والأُخرى على أصواتٍ مُنبَعِثة من الشارع. ثُمَّ رجعَتْ تَفاثا، وقدَّمت له عصيدةَ عَدَسٍ كثيفةً. وإذ كان جائعًا جدًّا، استَساغَ طَعمَها. وبعدَما أكَل، اشتدَّ عليه الألَم حتَّى منعَه من التَّحدُّث. ووجِد يَدَيها رقيقتَين إذ رتَّبَتِ البطَّانيَّات مُجدَّدًا فوقَه. وقُبَيلَ تَركِها إيَّاه وحدَه من جديد، التَقطَ رائحةَ بَشرتها... مزيجًا من الشَّمس والكمُّون والخُبزِ المخبوز حديثًا.

أقبَلَ الليلُ جالِبًا معه بُرودةً مُبارَكة. وحَلَمَ أنَّه كانَ طافيًا على البَحرِ بِلا مِرساة، حيثُ لم يستَطع أن يرى اليابسة، بل مُجرَّدَ زُرقةٍ شاسِعة بلا نهاية طولَ المدى حتَّى الأُفُقِ البعيد.

ثُمَّ استيقظَ لدى شروقِ الشمس. واستَطاعَ أن يسمعَ أولادًا يلعبون في الشارع. وقد مرَّت عَرَبات. وصاحَ المنادي ثانيةً بالآراميَّة، ثُمَّ باليونانيَّة. وكان الوَرَمُ حولَ عينَيه قدِ انحسرَ كفايةً بحيثُ تمكَّن من أن يفتحَهُما، فوجَدَ أنَّ نظرَه مُضطرِبٌ قليلًا. ولـمَّا حاوَلَ أن يجلس، هوى إلى الوراء، وغمرَتْه مَوجَةُ دُوار.

صَعِدَ عزرا إلى السَّطح. ‘‘أحضرتُ لكَ شيئًا تأكلُه’’.

فحاوَلَ مَرقُس أن يجلسَ من جديد، وتأوَّه.

‘‘يجبُ ألَّا تَقسُوَ على نفسِكَ، يا رومانيُّ’’.

وأذعَنَ مَرقُس لأنْ يُطعَمَ مرَّةً أُخرى. ‘‘ما الصُّعوباتُ التي سبَّبتُها لكُم بوُجودي هنا؟’’

فلم يُجِبْ عزرا. ورفعَ مَرقُس نظرَه إلى الوَجهِ الرَّزين ذي اللِّحية والذي تُطوِّقُه لفيفَتا شَعرٍ طويلتان. فخامرَه شعورٌ بأنَّ الرجُلَ كان يُعاني بالفِعل مُضاعَفاتِ عَمَلِه الخيِّر، وقد نَدِمَ من قلبه على فِعلِ إحسانِه.

‘‘ماذا تشتغلُ لكسبِ رِزقِك، يا عزرا بارياكين؟’’

فأجاب برَزانة: ‘‘أنا سُفِريم’’. ولـمَّا عبسَ مَرقُس لأنَّه لم يفهَمْ، فسَّرَ قائلًا: ‘‘كاتِبٌ. إنِّي أنسخُ الآياتِ المقدَّسةَ لأجل الأحجِبَة والمِيزوزوث’’.

‘‘ماذا؟’’

فشرحَ عزرا أنَّ الأحجِبة تحوي قِطَعَ رَقٍّ مُستطيلةً مكتوبًا عليها أربعةُ نُصوصٍ مُختارة، اثنان من سِفر الخُروج واثنان من التَّثنية. وكانت تلك الرُّقوق تُوضَعُ داخِلَ عُلَيبةٍ سوداء مُربَّعة من جِلدِ العِجل، وتُربَطُ على باطِنِ الذِّراعِ عندَ أقرَبِ نُقطة إلى القلب، بين المرفق والكتِف، بِسُيورٍ جلديَّة طويلة. وكان حِجابٌ آخَر يُعصَبُ على الجبين عند أداءِ الصَّلوات.

ثَمَّ شرحَ أيضًا أنّ المِيزوزاه هي عُلبةٌ تُثبَّتُ على قائمة الباب في البيت اليهوديّ. وفي داخِلها قِطعةُ رَقٍّ صغيرةٌ مكتوبٌ عليها نصّان من سِفر التثنية، وموسومة بالكلِمة ‘‘شَدَاي’’، اسم الله القدير. وكانَتِ الرُّقوقُ تُبدَل بعدَ مُدَّة فيأتي كاهِنٌ ويُبارِكُ المِيزوزوث وأهلَ البيت.

ما إنْ فَرَغَ مَرقُس من وجبته، حتَّى ارتَمى من جديدٍ على السَّرير. ‘‘ما الآياتِ البالِغة الأهمِّيَّة بحيثُ ينبغي أن تربطَها على ذراعِك ورأسِك، وتُعلِّقَها على بابِك؟’’

فتردَّد عزرا، لأنَّه لم يكُن على يقينٍ بأنَّه ينبغي له أن يُطلعَ كلبًا رومانيًّا أُمَميًّا على نُصوصِ الأسفار المقدَّسة. غيرَ أنَّ شيئًا ما ألزمَه.

‘‘«اسمع يا إسرائيل: الربُّ إلهُنا ربٌّ واحِد! فتُحِبُّ الربَّ من كلِّ قلبِك، ومن كلِّ نفسِك، ومن كلِّ قوَّتِك. ولتكُن هذه الكلماتُ التي أنا أُوصيكَ بها اليوم على قلبك. وقُصَّها على أولادك، وتكلَّم بها حينَ تجلس في بيتِك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام، وحين تقوم. واربُطها علامةً

على يدِك، ولتكُن عصائبَ بين عينَيك. واكتُبها على قوائم أبواب بيتك، وعلى أبوابك»’’.

أصغى مَرقُس بانتباهٍ فيما تدفَّقَتِ الكَلِماتُ من فَمِ عزرا. وكان صوتُه مُفعَمًا بالاحترام. وقد تفوَّه بالآيات المقدَّسة بِدقَّة، لكنْ بطريقةٍ بيَّنت أنَّها كانت مكتوبةً في قلبه، وليست فقط مَغروسةً في رأسه بعدَ سنينَ طويلة من نَسخِها.

ثُمَّ مضى عزرا قائلًا، وعيناهُ مُغمَضتان: ‘‘«الربَّ إلهَك تتَّقي، وإيَّاه تعبد، وباسمِه تحلف. لا تسيروا وراءَ آلِهَةٍ أُخرى من آلِهَةِ الأُمَمِ التي حولكم، لأنَّ الربَّ إلهَكُم إلهٌ غيورٌ في وسطكم، لئلَّا يَحمى غَضَبُ الرَّبِّ إلهِكُم عليكم فيُبيدَكُم عن وجهِ الأرض»’’.

ولـمَّا فَرَغَ من تِلاوةِ الآياتِ المقدَّسة على مسمَعِ الرومانيّ، لاذَ بالصَّمت. فكُلَّما كرَّرَ هذه الكَلِماتِ أو سمِعَها، ومَهما فعلَ ذلك، كانت له كالموسيقى العذبة. لقد كان يتغنَّى بها في دَمِه!

قال الرومانيُّ مُتَجهِّمًا: ‘‘ليسَ من حُلولٍ وَسَطٍ، وإلَّا أزالَكُمُ اللّٰه عن وجهِ الأرض’’.

فنظرَ عزرا إلَيه قائلًا: ‘‘إنَّ اللّٰه يُبارِكُ الذين يُحبُّونه من كُلِّ قُلوبهم’’.

‘‘ليس دائمًا. لقد عَرَفتُ امرأةً أحبَّت إلهَكُم من كُلِّ قلبِها’’. ثُمَّ لاذَ بالصَّمت بِضعَ لَحَظات. ‘‘لقد رأيتُها تموت، يا عزرا بارياكين. لم تكُن تستحقُّ مِيتةً كتِلك. لم تكُن تستحقُّ أن تموتَ بتاتًا’’.

فأحسَّ عزرا داخِلَ قَلبهِ وَجَعًا شديدًا. ‘‘وهكذا، فأنت تلتفِتُ إلى اللّٰه لأجلِ أجوبة’’.

‘‘لستُ أعلَمُ إنْ كانت هناك أجوبة. ولستُ أعلَمُ إن كان هناك إلهٌ كالذي تؤمنُ أنت به وتعبَّدَت هي له. إنَّه في قلبِكَ ورأسِكَ، ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّه حقيقيّ’’.

‘‘إنَّ اللّٰه حقيقيٌّ، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان’’.

‘‘بالنِّسبة إليك’’.

رَثى عزرا له. إنّ ذلك الرُّومانيَّ قد تعرَّض لِمَا يتخطَّى الضَّربَ البَدَنيّ. وفي أعقابِ رِثاء عزرا، وافاه أوَّلُ بَصيص رجاءٍ شعرَ به منذ مُشاهدَتهِ صَلْبَ يوسُف. لَقد أقبلَ أعداءٌ كثيرون على الشَّعب الذي اختارَه الله قديمًا. وقد قهرَهم بعضُ الأعداء لأنَّهم سبقَ أن أخطأوا إلى الرَّبّ. وسقطَتْ مدينةُ القُدس، عَروسُ الملوك، بأيدي أُمَمٍ أُخرى. ولكنْ لـمَّا رَجَعَ الشَّعبُ إلى الله، تقدَّمَهُم الله فبدَّدَ أعداءَهم وأرجعَهم إلى أرض الآباء. فإنَّ أشُّور وفارِسَ وبابِل ضَرَبوا الأُمَّةَ بحَدِّ السَّيف، ثُمَّ استُدعُوا هُم لتَلَقِّي الدَّينونة. وكما سبقَ أن سقطَتْ أشُّور وفارِسَ وبابِل، كذلك تمامًا ستَسقطُ روما. وعندئذٍ سيَرجعُ المأسورون إلى الأرضِ البَهيَّة.

عندئذٍ تكلَّم الرُّومانيُّ، فصدَّعَ حُلمَه بسؤالٍ واحد: ''ماذا تعرف عن يسوعَ الناصريّ؟''

فانكمشَ عزرا. ''ماذا يدفعُك إلى سؤالي عنه؟''

''إنَّ المرأةَ التي ذكرتُها قالَت إنَّ يسوع هو ابنُ الله، وقد نَزَلَ إلى الأرض لكي يُكفِّرَ عن خَطيَّة

الإنسان’’.

اجتاحَت عزرا قُشَعْريرة. ‘‘تجديف!’’

دُهِشَ مَرقُس حيالَ العُنفِ الذي انطوَت عليه تلكَ الكلمة الواحدة. ربَّما وَجَبَ عليه ألَّا يطرحَ أسئلةً على هذا اليهوديّ.

وقال عزرا بفَظاظة: ‘‘لماذا تسألُني هذا السُّؤال؟’’

‘‘إنِّي أعتَذِر. لقد أردتُ أن أعِرفَ فحَسب. فمَن يكونُ يسوعُ حسبَ قولِك؟’’

انتشرَتِ الحرارةُ في وجهِ عزرا. ‘‘لقد كان نبيًّا وشافيًا من النَّاصِرة، حاكمَهُ السَّنهَدريمُ وحكمَ عليه، وصلبَه الرُّومان. إنَّه قُتِلَ منذُ أربعينَ سنةً ويزيد’’.

‘‘إذًا، أنتَ ترفضُه مسيحًا لَكُم؟’’

فوقفَ عزرا مُشَوَّشًا. وحدَّقَ من عَلُ إلى الرُّومانيّ، مُستاءً من حُضورِه، مُستاءً من

الأسباب التي اضطرَّته إلى البقاء، مُستاءً من الاضطرابِ في بيته هو وفي ذهنه. ثُمَّ هذا السؤالُ الآن!

لماذا جئتَ إليَّ بهذا الرَّجُل، يا ربّ؟ هل تُغَذِّي الشُّكوكَ التي ساورَتْني على مرِّ السِّنين؟ هلِ تمتحِنُ إيماني بك؟ أنتَ إلهي، ولا إلهَ سِواك!

قال مَرقُس: ‘‘لقد أغضبتُك’’، مُغمِضًا عينَيه قليلًا مُقابِلَ ضَوء الشَّمس. ورُغمَ اضطِرابِ بَصَرِه، استَطاعَ أن يرى تَشَوُّشَ عزرا في طريقةِ ابتِعادِه. كم منَ الأشراكِ الأُخرى سيُواجِه في مُحادثَته مع هذا اليهوديّ؟ لماذا لم يبقَ ساكتًا؟ لماذا لم ينتظِرْ ريثَما يسألُ آخَر، شخصًا مَوضوعيًّا وعَليمًا لكِنْ غيرَ مَعنيٍّ؟ فمن الواضحَ أنَّ هذا الرجُل لم يكُن كذلك.

وقفَ عزرا، واضِعًا يدَيه على حائطِ السَّطح. ‘‘لستَ أنتَ مَن يُغضِبُني، يا رومانيُّ. إنَّه استِمرارُ هذه الطائفة. لقد قالَ لي والِدي منذُ عهدٍ بعيد إنَّ يسوعَ قال لأتْباعه إنَّه جاءَ ليُفَرِّقَ الإنسانَ ضِدَّ

أبيه، والابنةَ ضِدَّ أمِّها، والكَنَّةَ ضِدَّ حَماتِها. وهكذا فعل. لقد فرَّقَ اليهوديَّ ضِدَّ اليهوديّ".

وقد فرَّقَ والِدَ عَزرا ضِدَّ عمِّه.

"هل تعرِفُ أيَّ مسيحيّ؟"

حدَّقَ عزرا إلى الشارع في الأسفل، وقد غمرَته ذِكرَياتٌ مؤلِمة. "عَرَفتُ واحِدًا".

وتذكَّرَ أخا أبيه إذ جاء إلى هذا المنزل عَينهِ لـمَّا كان هو صبيًّا. كان مُنكَبًّا على عمله، يتمرَّنُ على كتابة الحُروف، فيما تحدَّث أبوه وعمُّه. وقد أصغى بانتِباه، يدفعُه الفُضولُ بشأن الرجُل المدعُوّ يسوع. وكان قد سَمعَ عنه أشياءَ كثيرة. فإنَّه كانَ نبيًّا، نجَّارًا من الناصرة رافقَتْه جماعةٌ من الأتْباع، بينَهُم صيَّادون وجابي ضرائبَ وغَيورٌ وزانيةٌ مُفترَضةٌ سبقَ أن سكنَتْها أرواحٌ شرّيرة. وقد تَبِعَته عائلاتٌ بكامِلها. وقالَ بعضٌ إنَّه كانَ صانعَ مُعجِزات. وآخرونَ إنَّه كان ثائرًا. وقد سَمعَ عزرا أنَّ يسوعَ طردَ أرواحًا شرِّيرة، وشفى مرضى، وجعلَ العُرجَ يمشون والعُميَ يُبصِرون. وكان أبو عزرا قد

أصرَّ على أنّ الأمرَ كان هِستيريا وإشاعةً وادَّعاءاتٍ زائفة.

ثُمَّ إنَّ يسوع، المسيحَ المفترَض، ماتَ مَصلوبًا. لقد حاكمَه وحكمَ عليه شعبُه. وقد علَّقَ أبو عزرا فقط بالقَول إنَّه مسرورٌ لأنَّ النِّقاشَ بشأنِ ذلك الرَّجُل قدِ انتهى. ومن ثمَّ...

كان عمُّه قد قال، قبلَ تِلكَ السِّنينَ كُلِّها: ‘‘لقد أتيتُ إليكَ ببِشارةٍ، يا ياكين: أنَّ يسوع قد قامَ من الموتِ حيًّا!’’

وما زالَ عزرا قادرًا على أن يتذكَّرَ أماراتِ الشَّكِّ الساخِرةَ على وجهِ أبيه. ‘‘أنتَ مجنون. هذا غيرُ مُمكِن!’’

‘‘شاهدتُه بنفسي. وقد كلَّمَنا في الجليل. وكان هُنالك خمسُ مئةِ شخص’’.

‘‘هذا مُستحيل! لقد كان شخصًا يُشبِهُه’’.

‘‘هل كذبتُ عليكَ يَومًا، يا أخي؟ لقد تبِعتُ يسوع سنتَين. لقد عرفتُه جيِّدًا’’.

‘‘لقد ظنَنتَ فقط أنَّكَ رأيتَه. كان ذلك شخصًا آخر’’.

‘‘لقد كان هو يسوعَ نفسَه’’.

فحاجَّ أبوهُ بعُنفٍ شديد. ‘‘قال الفَرّيسيُّون إنَّه كان مُثيرَ مَتاعِبَ تكلَّمَ ضدَّ ذبائح الهيكل! لا تُنكِرْ هذا! لقد سَمعتُ أنَّه قلبَ موائدَ الصَّيارِفة وطرَدَهم من الهيكل بِسَوط’’.

‘‘لقد كانوا يغشُّون الشَّعب. وقد قال يسوع: «بَيتي بيتُ صلاة، وأنتُم جعلتُموه مغارة لُصوص!»’’.

‘‘قال الصَّدُّوقيُّون إنَّه أنكرَ وُجودَ السَّماء!’’

‘‘لا، يا ياكين. لقد قال إنَّه لا زواجَ في السَّماء، وإنَّ الناسَ سيَكونون مِثلَ الملائكة هناك’’.

واستمرَّ الجدالُ ذَهابًا وإيابًا فيما جادَلَ أبوه عمَّه. وإذ مضى الوقت، أدركَ عزرا الهوَّةَ الفاصِلةَ بينَهما... وقد كان عمُّه هادئًا يغمرُه الفَرَح اليقين؛ وأبوهُ مُحبَطًا وخائفًا يزدادُ سُخطًا.

‘‘سيَرجمونَك بالحجارة إذا مَضَيتَ تحكي هذه القصَّة!’’

وهكذا فعلوا.

‘‘إذا أعلنتَ أنَّ يسوعَ هذا هو المسيح، فأنا نفسي سألتَقطُ الحجرَ الأوَّل وأرجمُكَ به!’’

وهكذا فعل.

وقد قال أبو عزرا له في ما بعد: ‘‘إنَّ تجديفًا كهذا هو إهانةٌ للّه ولشعبه’’. ثُمَّ لم يُقَل قطُّ أيَّ شيءٍ آخَر.

فبعدَ تلك السّنينَ كُلِّها، كان الشيءُ الوحيدُ الذي برزَ بأكثرِ وضوحٍ في ذهن عزرا هو كَلِماتِ عمِّه. ‘‘إنَّ يسوعَ قد قام من الموت حيًّا. وهو الآن **حيٌّ**. يا مَوتُ، أينَ شوكتُك؟’’ وقد استَطاعَ أن يسمَعَ أصداءَ تلك الكَلِماتِ مِرارًا وتَكرارًا عبرَ السِّنين، ومعها ضِحكةَ عمِّه المقرونةَ بالفَرَح. ‘‘ألا تُدرِكُ ما يَعنيه هذا، يا أخي؟ إنَّنا **أحرار**! لقد جاء مَسيحُ اللّه أخيرًا. إنَّ يسوعَ هو المسيح’’.

وقد حاولَ طَوالَ سِنينَ أن يُسكِتَ تلك الكَلِمات، غير أنَّها ما تَزال تُدَوِّي: ‘‘لقد جاء المسيح... **المسيح**...’’

والآن، ها هنا رجلٌ وَثَنيّ، عابِدُ أصنام، كَلبٌ **رومانيٌّ** خسيس، مُجرَّدُ حُضوره كان يقلبُ بيتَ عزرا رأسًا على عقب وداخلًا إلى خارج، طارحًا السؤالَ الوحيد الذي طالما روَّعَ عزرا أكثرَ الكُلّ: ‘‘مَن يكونُ يسوع حسبَ **قولك**؟’’

لماذا، يا ربّ؟ لماذا تجلبُ عليَّ هذا؟

كانَتِ الحقيقةُ أنَّ عزرا لم يكُن يعلَمُ مَن يكونُ يسوع. وقد كان خائفًا من أن يُفكِّرَ في الأمر، غير أنَّه في صَميم قلبه تساءلَ كلَّ حين. فهو كانَ توَّاقًا وشِبهَ راجٍ، إلَّا أنَّه كان أكثرَ خَوفًا من أن يتبيَّنَ الحقَّ بنفسِه.

لم يُدفَن جُثمانُ عمِّه في قَبر. لقد سُحِقَ حتَّى الموت تحت ثِقلِ الحِجارة، وتُرِكَ لكي يتحلَّلَ في هُوَّةٍ خارج أسوارِ المدينة. مصيرٌ رهيبٌ لأيِّ إنسان! وذلكَ كُلُّه لأنَّه آمَنَ بيَسوع.

بعدما ماتَ عمُّه على ذلك النحو العنيف، لم يُنبَسْ بكَلِمةٍ واحِدة عنه أو عن يسوع الناصريّ. ومن ذلكَ اليوم فصاعدًا باتَ القانونَ غيرَ المنطوقِ به أنَّ أيًّا من الرجُلَين لم يُوجَدْ قطٌّ وأيًّا من الاسمَين يجب عدم التَّفوُّه به مرَّةً أُخرى. وقد ظلَّتِ الحالُ على هذا المنوالِ طَوالَ ثلاثٍ وعشرينَ سنة.

وكان عزرا قد ظنَّ أنَّ أباه نسيَ تمامًا ما جرى... حتَّى ذلكَ اليومِ الذي فيه كان عزرا قاعدًا بقُرب والدهِ الـمُحتَضَر.

كان أبوه قد أعطى أمْني- أخا عزرا- بَرَكةً. وكان الوقتُ قصيرًا. فوقفَ أمْني وتراجَعَ قليلًا، مُنتظرًا انقِضاءَ الأجل. ثُمَّ جثا عزرا على رُكبتَيه، وأمسكَ بيَدِ أبيه، مُحاوِلًا أن يُعزِّيَه. فأدارَ أبوه رأسَه ببُطءٍ ونظرَ إليه. ثُمَّ همسَ بالكلماتِ المقلِقة: "هل فعلتُ الصَّواب؟"

وقعَتْ تلك الكَلِمات على عزرا كضربةٍ سُدِّدَت إلى مَعِدَته. لقد عَلمَ في الحال بما تكلَّمَ أبوه.

وتوسَّلَت أمُّ عزرا إليه قائلةً: ‘‘جاوِبْه! قُل له: نعم. أعطِهِ سلامًا’’.

إلَّا أنَّ عزرا لم يستَطعْ ذلك.

عندئذٍ، تكلَّمَ أمْني بالأحرى، في عُنف: ‘‘لقد فعلتَ الأمرَ الصائب، يا أبي. الشريعةُ يجب أن تُطبَّق’’.

ومع ذلكَ ظلَّ أبو عزرا ناظِرًا إليه: ‘‘ماذا لو كان ذلك صحيحًا؟’’

أحسَّ عزرا ما يُشبِهُ الذُّعرَ يثورُ في داخله. وأرادَ أن يتكلَّم. أرادَ أن يقول: ‘‘لقد صدَّقتُ عمِّي، يا أبي’’. إلَّا أنَّ أمْني حدَّقَ إليه ببُرودة، كما لو ابتَغى إجبارَه على الإجابةِ كما أجابَ هو. وحدَّقَتْ إليه أُمُّه أيضًا، مُنتظِرةً، مُرتاعةً، مُرتابة. فلم يستَطعْ حتَّى التنفُّسَ، ناهيكَ بالتكلُّم.

ثُمَّ فاتَ الأوانُ على قَولِ أيِّ شيءٍ، مهما كان.

فقالَت أُمُّه برِقَّة، شِبهَ مُفرَجة: ‘‘لقدِ انقضى الأجَل’’. ثُمَّ انحنَت وأطبقَت عَينَي أبيه. وغادرَ

آخوه الغُرفة، دُونَ كلمة. وبعدَ بِضع دقائق، بدأ النَّدَّابون المستأجَرون يُعوِلون ويُوَلوِلون في الخارج.

وفي السِّنينَ التي أعقبَت ذلك، مع صُعوبةِ كسْبِ عزرا الرِّزق لنفسِه ولزوجته وأولاده، نسيَ ما قد شعرَ به قُربَ فِراشِ احتِضارِ أبيه. نسيَ ذلكَ في حدَّةِ شُغله ومُتطلِّباته. نَسِيَه في حُبِّه أن يوجَدَ بين أصدقائه في المجمَع. نَسِيَهُ ضِمنَ حُدودِ وجودهِ الآمِنة.

مع ذلك... بقيَ السؤال. وهكذا، دفعَه إلى غياهِبِ ذِهنِه، حيثُ لا يُمكِنُ أن يتدخَّلَ في حياته أو يُعقِّدَها. غير أنَّه ظلَّ يُعاوِدُه نادِرًا... في أحلامِه.

كان صوتٌ رقيقٌ يقول: ‘‘مَن تقولُ إنَّي أنا، يا عزرا بارياكين؟’’ ثُمَّ يرى عزرا نفسَه في مُواجَهةِ رجُلٍ تحمِلُ يداه وقدماه نُدوبَ مَسامير. ‘‘مَن أنا بالنِّسبةِ إليك؟’’

والآن، عاودَه ذلك الإحساسُ الغريبُ الذي سبقَ

آن شعرَ بِه في ذلكَ الزَّمَنِ البعيد، عاودَه قويًّا، آسِرًا، باعِثًا في داخله شيئًا كان يخشى أن يُفكِّرَ فيه، ويرتاعُ من أن يواجهَه. فتسارعَتْ دقَّاتُ قلبِه، كأجنِحةٍ تخفُقُ داخلَ صدره. وأحسَّ كما لو كان على شَفَا جُرُف، يُوشِكُ أن يسقُطَ عنه... أو يُنقَذَ منه.

أيُّها الرَّبُّ الإله، ساعِدني!

ماذا لو كان ذلك صحيحًا؟

١٩

تورَّدَ وجهُ تَفاثا لـمَّا نظرَ مَرقُس إليها. لقد كانت في عينَيه البُنِّيَّتَين الداكنتَين حِدَّةٌ جعلَتْ مَعِدتَها تتشنَّج ونَبْضَها يتَسارَع. وكان قد سألَها قبلَ بضعةِ أيَّام هل يُروِّعُها. فأنكرَت ذلك، ولكنَّها في ما بعدُ تساءلَت إنْ كان الخوفُ جُزءًا ممَّا تشعرُ به، الخوفُ من افتِتانها المتَنامي برجُلٍ أُمَميٍّ... برُومانيٍّ، لا أقلَّ.

كان مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان يختلفُ عن أيِّ رجُلٍ عَرَفته تَفاثا يومًا. فمعَ أنَّه كان لطيفًا، أحسَّتْ أنَّه يمكنُ أن يكونَ قاسيًا. وقد سَمعَته أحيانًا يقولُ لأبيها أشياءَ بَدَتْ باردةً وساخِرةً على نحوٍ يُنذرُ بالخَطَر. غير أنَّها أحسَّتْ أنَّ لَدَيه قابليَّةً رهيبةً للانجراح. فقد كان مثلَ رجُلٍ تدفعُه ريح، يُكافحُ قوًى يستحيلُ استيعابُها، ويتحدَّاها رُغمَ ذلك، مُعرِّضًا نفسَه لِدَماره الذاتيّ، بل هو شِبهُ توَّاقٍ إليه.

وقد سمعَتْ بالصِّدفةِ مرَّةً مَرقُسَ يتكلَّمُ إلى أبيها

بشأن امرأةٍ عَرَفَها، كانت تحبُّ الله. وعلِمَت تَفاثا، بحَدسِها، أَنَّ حُبَّ مَرقُس لتلك المرأة هو الذي ما كان يستَنفِدُ تفكيرَه. فمهما كان ما يطلبُه، فلا بُدَّ أنَّ لذلك علاقةً بها.

تُرى، كيف تكونُ حالُ مَن يُحبُّها رجُلٌ مثلُ مَرقُس ڤاليريان بمثلِ هذا الاستحواذِ الشديد؟ لقد قال إنَّ المرأةَ ماتت، ومع ذلكَ لم يتخلَّ عنها. فإنَّها كانت معه في كُلِّ لحظة، حتَّى في اللَّحظاتِ المشابهة للوقتِ الحاليّ، إذْ كان ينظرُ إلى تَفاثا بكُلِّ تركيز.

ساءَلتْ تَفاثا نفسَها عمَّا كان مَرقُس يُفكِّرُ فيه. وغالبًا ما وجدَتْ نفسَها في هذه الأيَّام مُتمنِّيةً لو ينسى المرأةَ التي أحبَّها وفقدَها، ويُحبُّها هي. وقد كافحَت أحيانًا تَوقًا لأنْ تكونَ معه على السَّطح، وتسمعَ صَوتَه، وتنظُرَ في عَينَيه. والآنَ تساءَلَتْ كيف تكونُ الحالُ لو أنَّ مَرقُس ڤاليريان مدَّ يدَه إليها... وقد روَّعَتها هذه المشاعرُ فعلًا.

لقد كان مَرقُس مُحرَّمًا. فمنذُ الزَّمن الذي تَستَطيعُ أن تتذكَّره، علَّمَها أبوها أنَّ البَلايا تأتي

من عصيان الرَّبّ، وقد حرَّم الربُّ بوُضوحٍ الزَّواجَ المختَلَط من الأُمم. صحيحٌ أنَّ أُمَميِّين كثيرين قد اهتَدَوا واختَتنوا وتهوَّدوا، ولكنَّ هذا لن يحدُثَ لمرقُسَ أبدًا. لقد قال إنَّه كان يبحثُ عن اللّٰه، ولكنَّ أسئلتَه انطوَتْ على حدٍّ قاطع. حتَّى إنَّ السُّورَ المضروبَ حولَ قلبهِ كانَ شِبهَ ملموس.

وماذا كان يرجو أن يَجدَ بالحقيقة؟

لم يُردْ لها أبوها أن تُمضِيَ مع مَرقُس وقتًا يفوقُ الحدَّ. وقد فَهِمَت هيَ سببَ ذلك، غير أنَّ الأحوالَ اضطَرَّتها إلى الوجود معه، لأنَّ أُمَّها لم تقبَلْ حتَّى الصعودَ إلى السَّطح. فإنَّها في أوَّلِ يَوم، عندَ الإتيانِ بمَرقُسَ إلى البيت، قالت: "لن أخدِمَ أيَّ رومانيّ!" لذا، ففي الأيَّام التي تَلَت، حين كان أبو تفاثا يجلسُ إلى طاولة كِتابته، وقعَ على عاتقها الاعتناءُ بمَرقُس.

وكلَّما صَعِدَت إلى السَّطح، شعرَتْ بأنَّها أكثرُ انجِذابًا إليه، ومن ثمَّ أكثرُ انكِشافًا.

دبَّتِ الحرارةُ في جسمها من جرَّاء حَملقَتِه

الثابتة.

قالَ لها مَرقُس- وهو يأخذُ الخُبزَ من يَدَيها- ‘‘أنتِ هادئةٌ جدًّا اليوم’’. ثُمَّ ابتسمَ لها. ومسَّتْ أصابِعُه أصابِعَها مسًّا رقيقًا، فانبعَثَتْ حرارةٌ في أوصالِها. عَلمَتْ أنَّ الملامَسة حصلَت عَرَضًا، ولكنَّها لم تستَطعْ إلَّا أن تحبِسَ نَفَسَها بلُطف. فخفضَت عينَيها، مُرتبكةً حِيالَ تفاعُلها معه. ‘‘ما خَطبُكِ، يا صغيرة؟’’ وما كان من سؤاله إلَّا أن جعلَ قلبَها يدقُّ أسرَع.

أجابَت- مُجاهِدةً لتكونَ في حالٍ سويَّة- ‘‘ليسَ من خَطبٍ، سيّدي’’. وقد أفزعَها الارتعاشُ العَصَبيُّ في صَوتها.

‘‘لماذا إذًا لا تنظُرينَ إليَّ؟’’

فرفعَتْ رأسَها وأرغمَت نفسَها على تأمُّله. كان الوَرَمُ قد زالَ عن وجهه، ولكنَّ البَشَرةَ المحيطةَ بعَينَيه كانت أُرجوانيَّةً غامقة وفيها بعض الاصفِرار. وما إنْ تَعافى كِفايةً بحيثُ نهضَ وتمشَّى على السَّطح، حتَّى لاحظَتْ وِقفتَه الشامخة وقُوَّتَه.

وقد خالجَها اليقينُ بأنّ ملامِحَه الوسيمة رُبَّما دوَّخَت رؤوسَ نِساءٍ كثيرات قبْلَها. وإذِ ابتسمَ الآن من جديد، جعلَتِ التِواءَةٌ يسيرةٌ من شفتَيه مَعِدَتَها تهبط.

وإذ أدركَتْ أنَّها كانت تُحدِّقُ إلى فمه، احمرَّ وجهُها خجلًا وخفضَتْ عَينَيها. تُرى، ماذا سيُفكِّرُ في شأنها؟

أسندَ مَرقُس وَرِكَه إلى حائطِ السَّطح. ‘‘أنتِ تُذكِّرينَني بفتاةٍ عَرَفتُها في ما مضى’’. فإنَّ هَدسَّة كانت ترتبكُ حِيالَ أدنى مُجامَلاته، شأنُها شأنُ هذه الشابَّة.

رفعَتْ تَفاثا رأسَها ثانيةً، فرأتْ سِيماءَ الألَم على وجهه. ‘‘هل كانت جميلةً جدًّا؟’’

فأجاب مُبتَسِمًا ابتسامةً حزينة: ‘‘لا، كانت بسيطة’’. ثُمَّ مدَّ يدَه بلُطفٍ ومسَّ ذقنَها برِفق. ‘‘يا تَفاثا الصغيرة، أنتِ جميلةٌ جدًّا. من شأنكِ أن تجعَلي جميعَ رجال رُوما يَحبُونَ عندَ قدمَيكِ من أجلِ ابتِسامةٍ واحِدة مِنكِ. ومن شأن النِّساء أن

يَهزلنَ من الغَيرة".

شعرَتْ تَفاثا بإحساسٍ غريب من الكِبرياء حِيالَ طريقةِ تقديره لها. لقد علِمَت أنَّها لم تكُنْ بسيطة، ولا كانت عَمياءَ إزاءَ طريقةِ نظرِ الرِّجال إليها وهي تمشي إلى البئر. وتمنَّتْ أحيانًا لو أنَّها كانت بسيطةً حتَّى لا ينظُرَ إليها الرجالُ كما نظرَ أدونيَّا. ولكنْ سَرَّها أنَّ مَرقُس عدَّها جميلة.

لمسَ مَرقُس البَشرةَ الناعمة والخالية من أيِّ عيبٍ على خدِّ تَفاثا. كم مضى من الزَّمَن على لَمسه امرأةً، أو على مُجرَّدِ تنبُّهِهِ إلى واحِدةٍ كما تنبَّهَ الآن؟ وانزلقَتْ أصابعُه نُزولًا فوقَ النَّبْضِ السَّريع في حَنجرَتِها. ثُمَّ أبعدَ يدَه قائلًا: "لم تكُن هَدسَّة جميلةً بالطريقة التي بها يرى العالَمُ الجمال. إنَّ بَراءتكِ ووداعتَكِ هما ما يُذكِّرُني بها".

وما لَبثَ أن تكدَّرَ وجهُه من جديد. ورُغمَ كَونهِ قد نظرَ إليها، عَلِمَت أنَّه كان يُفكِّرُ في فتاةٍ أُخرى. فتكلَّمَت بهدوء. "لا بُدَّ أنَّك أحبَبتَها كثيرًا جدًّا، سيِّدي".

فقال لها مَغمومًا: ‘‘ما زلتُ أحبُّها’’. وأشاحَ بناظرَيه. ثُمَّ نبضَتْ عَضَلةٌ في حَنَكِه، وأضاف: ‘‘لن أكُفَّ عن حُبِّها حتَّى الرَّمَقِ الأخير!’’

أحزنَتها كَلِماتُه أكثرَ ممَّا أرادَتْ أن تعترفَ به. ‘‘هل أحبَّتكَ بذلك المقدار، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان؟’’

إلتَوى فَمُه بمرارة. ونظرَ من فَوقُ إلى الفتاة مرَّةً أُخرى. كانت هَدسَّة في عُمرِ تَفاثا تقريبًا لـمَّا أدركَ أنَّه كان واقعًا في حُبِّها. كيف بَدَت عَينا هَدسَّة مُختَزِنتَين جميعَ أسرار الكون... تمامًا كما بَدَت عَينا تَفاثا الآن. وإذ راقبَها، لاحظَ أشياءَ أُخرى أيضًا. فقد كان خدَّاها مُتورِّدَين. وكان في عَينَيها البُنِّيَّتَين ألَقٌ رقيق. سيَكون سهلًا، سهلًا فوقَ الحَدّ، أن يستغلَّها.

‘‘أنتِ وأنا لن نتحدَّثَ بتاتًا بشأن الحُبّ، يا تَفاثا الصَّغيرة. إنَّه موضوعٌ من الأفضلِ أن يُترَكَ وشأنَه بين رومانيٍّ ويهوديَّة’’.

جرَحَتِ الخيبةُ مشاعرَ تَفاثا، فباتَتْ أشدَّ خَجَلًا

من أن تتكلّم. كانت قد حَسِبَت أنّ عواطفَها تُجاهَه سرِّيَّةٌ وخَفيَّة، ولكنِ اتَّضحَ الآن أنَّها قد جعلَتْ نفسَها غبيَّةً تمامًا. لقد قرأها مَرقُس بمثلِ السُّهولةِ التي بها كان أبوها يقرأ الأسفارَ المقدَّسة، ولم يشعُرْ بشيءٍ تُجاهَها. وفيما خدَّاها يتوقّدان، والدَّمعُ يكوي عينَيها، استَدارتْ لِتَفرَّ من السَّطح ومنه.

أمسكَ مَرقُسٍ بكتِفَيها. وقال بخُشونة: ‘‘آخِرُ شيءٍ أُريدُ فَعْلَه هو إيذاؤكِ’’. وأحسَّ ارتِجافَها، فشدَّ يَدَيه عليها. لقد كانت مُغرِيةً فوقَ الحدِّ بحَيثُ تُبدِّدُ راحةَ البال من ذهنِ رجُل. وأدارَها نحوَه، فرأى دُموعَها، دموعًا سبَّبَها هو، وأرادَ أن يضمَّها ويُعزِّيَها. إنَّما كان ذلك آخرَ أمرٍ يُمكنُ أن يسمحَ لنفسِه بأن يقومَ به.

كان مُدرِكًا تمامًا لتَنبُّهِها إليه. لقد كانت في طَورِ الاستيقاظِ جِسميًّا، كَبُرعُمِ زهرةٍ يتفتَّح، مُفعمَةً بالنَّضارة والعُذوبة. وكان هو قد تمتَّعَ في ما مضى باستغلالِ لَحَظاتٍ كهذه، مُشبِعًا احتياجاته الدُّنيا إلى المتعة. غيرَ أنَّ تَفاثا، ابنةَ عزرا بارياكين، لم تكُن أرِيا، أوِ امرأةً مِثلَها. لقد كانت مثلَ هَدسَّة.

مِثلَ هَدسَّة إلى أقصى الحُدود.

ثُمَّ أزاحَ مَرقُس يَدَيه عنها، قائلًا: "يومًا آخر، أو يومَين، فأرحل".

حبسَتْ تَفاثا نَفَسَها ورفعَتْ نظرَها إليه، ناسِيةً ارتِباكَها في غمرة تَوقها إلى بقائه. "لن تكونَ على استعدادٍ للسَّفرِ عاجلًا هكذا، سيِّدي. يجب أن تُشفَى أضلُعُك. لم ترجعْ إليك بعدُ قوَّتُكَ تمامًا".

ولـمَّا كان قَلقًا على قلبِها أكثرَ منه على أضلُعِه، قالَ من فَمٍ مشدود: "ومع ذلك، فالأحوالُ هنا على هذا السَّطح مُريحةٌ فوقَ الحَدّ". لقد بَثَّ فيه شُعورًا فتَّانًا جدًّا أن تنظُرَ شابَّةٌ جميلة إليه كما نظرَت تَفاثا الآن، مُغريًا إيَّاه بالوقوعِ في الحُبِّ من جديد. إنَّما حُبُّه لَتَفاثا لا بُدَّ أن يكونَ مُوئسًا كما كان حبُّه لهَدسَّة.

"سيُقنعُكَ أبي بالعُدولِ عن رأيك".

فابتسمَ ابتِسامةً حزينة، قائلًا: "لا أعتقِد".

صَعِدَ عزرا إلى السَّطح عندَ حُلول المساء. ورأى مَرقُس أنَّه كان مُرتَدِيًا حِجابَيه، فعلمَ أنَّه جاءَ كي يُصلِّي. وتابعَ مَرقُس تمريناته، حَرَكاتٍ بطيئةً ترمي إلى تمديدِ العَضَلاتِ غيرِ المستعملَة وتشديدها. وقد راقبَ اختلاسًا عزرا يتمشَّى على السَّطح مُحرِّكًا شفتَيه، ورافِعًا يَدَيه بينَ حينٍ وآخَر. وكان أحيانًا يَقِفُ ويرفعُ رأسَه كما لو كان يلتَمِسُ دِفءَ الشمس الغاربة. ثُمَّ يستأنِفُ المشيَ، مُتكلِّمًا إلى إلهه بِصَمت. لم يسجُدْ عزرا ولم يجثُ على رُكبتَيه كما كانت هَدسَّة تفعلُ في حديقةِ الدَّارة بِرُوما. غيرَ أنَّ مَرقُس أحسَّ أن محبَّة عزرا لإلهِه كانت عميقةً عُمقَ محبَّةِ هَدسَّة.

وإذ كان مُتعَبًا ومتألِّـمًا، استَرخى على السرير في الظِّلّ. وصبَّ لنفسه بعضَ الماء، وشَرِب.

توقَّف عزرا عندَ الحائطِ الأقرب إلى الخيمة، حيثُ كان الرُّومانيُّ مُتَّكِئًا. ونظرَ إلى ألوانِ الغُروب الزاهية، الحمراء والبُرتقاليَّة. ‘‘قالت لي تَفاثا إنَّكَ تنوي الرَّحيلَ في غضونِ بضعةِ أيَّام’’.

فقال مَرقُس مُتَجهِّمًا: ‘‘أودُّ لو أرحَلُ غدًا إذا تيسَّرَ لي ترتيبُ الأمر. لقد سبَّبتُ لعائلتك بلاءً كافيًا دونَ إطالةِ هذا الوضعِ أكثرَ ممَّا ينبغي’’.

‘‘هل تتكلَّمُ بشأن زوجتي، أو بشأن ابنتي؟’’

رفعَ مَرقُس نظرَه إلى فوقُ بحِدَّة، وتردَّد. وبعدَ لحظةٍ قال: ‘‘بشأن كِلتَيهما. لقد حبسَتْ زوجتُكَ نفسَها في الأسفل، فيما أنا على سطحِك. أمَّا تَفاثا...’’ وأدارَ عزرا رأسَه قليلًا، فأحسَّ مَرقُس تأثيرَ عَينَيه. فانبسَطَ فمُه. ‘‘ابنتُكَ جميلةٌ جدًّا، يا عزرا. وهي صبيَّةٌ في أوَّلِ شبابِها’’.

مَضَت لحظاتٌ فيها لم ينبِسْ عزرا بكلمة. وقد حدَّقَ إلى النُّجوم في العُلَى. ‘‘إلى أن تتعافى تمامًا، لك أن تَبقى عندنا على الرَّحب والسَّعة’’.

التَوى فمُ مَرقُس بابتِسامةٍ ساخِرة: ‘‘أأنت على يقين بأنَّ هذا من الحِكمة؟’’

فدارَ عزرا ونظرَ إليه مُباشرةً. ‘‘لأنَّ ابنتي جميلة، وأوَّلَ مرَّةٍ في حياتها قد نظرَت إلى رجُلٍ

باستِحْسان؟’’

لم يكُن مَرقُس قد توقَّعَ مثلَ هذه الصَّراحة الهادئة. فازدادَ إعجابُه بعزرا. وقال بِصراحةٍ مُماثِلة: ‘‘أفضَلُ ألَّا تصعَدَ البنتُ إلى السَّطح. أمَا تذكُرُ أنِّي رومانيّ؟’’ وكانَت ابتسامتُه حافِلَةً بازدراء الذَّات. ‘‘وَحشٌ مُفترِس، بالمعاييرِ اليهوديَّة’’. ثُمَّ تلاشَتِ ابتِسامتُه. ‘‘إضافةً إلى ذلك، وجودي في بيتك قد سبَّبَ لك، دونَ شكّ، بَلاءً لا ينتهي من شعبِك، ناهيك بزوجتِك. لو تركتَني في ذلك الوادي، لكنتَ حكيمًا’’.

‘‘مُواجَهةُ البَلاء من أيدي الناس خيرٌ من تَلَقِّيه من يَدِ اللّٰه’’.

أطلقَ مَرقُس ضِحكةَ سُخرِيَةٍ رقيقةً، وقال هامِسًا: ‘‘اللّٰه!’’ وسرى ألمٌ حادٌّ في جنبه فجأةً. لقد أجهدَ نفسَه. ‘‘أنتَ رجُلٌ صالح، يا عزرا، ولكنَّكَ مُغفَّل’’. ثُمَّ استَلقى إلى الوراء على مَهلٍ، وحدَّقَ إلى مكان الظلِّ بِوَهَن. ‘‘كان ينبغي لك أن تُلقِيَني في فُندُق’’.

‘‘لم يقبل أيُّ واحدٍ أن يستقبِلَك’’.

بدأ مَرقُس يضحك، ثُمَّ حَبَسَ نَفَسَه إذ لَحَسَ الألَمُ باطِنَ أضلُعِه. فصرَّ بأسنانِه، وحاولَ أن يُفكِّرَ في شيءٍ ما غير الألم.

قعدَ عزرا على السَّطح. وحلَّ الحِجابَين وحملَهما على راحتَي يدَيه. وقال: ‘‘جميعُ الرجالِ مُغفَّلون بطريقةٍ ما. فالرِّجال يُريدونَ ما لا يستَطيعون أن يحوزوه’’.

فأجفلَ مَرقُس، ودفعَ نفسَه حتَّى جلسَ مُستَقيمًا. وتأمَّل الأخاديدَ العَميقة حولَ عَينَي عزرا. ‘‘ما الذي لا تستطيعُ أن تحوزَه، يا شيخ؟’’ مهما كان ذلك، فهو سيُعطيه إيَّاه في أوَّل فُرصةٍ تسنَح... بيتًا أفضل، حيوانات، وسائلَ تَرَف. في وُسعِهِ أن يُعطيَ عزرا بارياكين أيَّ شيءٍ أرادَه. ولماذا لا يفعلُ ذلك؟ فلَولا عزرا، لكانَ مَيْتًا؛ ولكانَ جسمُه يتحلَّلُ في ذلكَ الوادي الكريه.

شدَّ عزرا قبضتَيه على الحِجابَين. ‘‘لا يُمكِنُني أن أكونَ مثلَ أخنوخ’’. وبابتِسامةٍ كئيبة، نظرَ إلى

مَرقَس ڤاليريان، وتساءل لِماذا يبوحُ بمشاعِرَ عميقةٍ كهذه لشخصٍ غيرِ مؤمن، ولِرُومانيٍّ على وجهِ التَّحديد.

''مَن يكونُ أخنوخ؟''

''لقد سارَ أخنوخ مع الله كما يسيرُ الرَّجُلُ مع صديقٍ له. آخَرونَ شاهدوا الله: آدَم، مُوسى. ولكنْ أخنوخ فقط كان له قلبٌ سَرَّ الله جدًّا حتَّى اختُطِفَ إلى السَّماء دون أن يذوقَ الموتَ''. ثُمَّ نظرَ إلى الزُّرقةِ المخمليَّةِ الداكنة في سماء المساء. ''ذلك هو ما أُصلِّي لأجله''.

''ألَّا تذوقَ الموت؟''

''لا! جميعُ الناس يذوقون الموت. فهو جزءٌ طبيعيٌّ من الحياة. إنِّي أتوقُ إلى قلبٍ يَسُرُّ الرَّبّ''.

غدا وجهُ مَرقُس قاسيًا. ''لقد أرادَتْ هَدسَّة أن تَسُرَّ الله، وإليك ما جلبَ لها ذلك: الموت!'' وغامَت عَيناه. ''ماذا يُريد إلهُكم هذا منكُم غيرَ

كُلِّ نُقطةٍ من دمائكم؟”

“الطاعة”.

فلفظَ مَرقُس تلك الكَلِمة عَينها: “الطاعة! بأيِّ ثَمَن؟”

“مهما كان الثَّمَن”.

أزاح مَرقُس نَتْرًا الجُزءَ المتدلِّي من المظلَّة فوق سريره، وهبَّ واقفًا. وهَسَّ من بين شفتَيه صوتُ ألَم، فأمسكَ جنبَه. وأطلقَ شتيمةً قصيرةً بذيئة، ثُمَّ جثا على ركبةٍ واحدة، مُصابًا بِدُوار. وشتمَ ثانيةً شتيمةً أكثرَ بذاءةً بَعدُ من الأُولى.

وراقبَه عزرا بدَفقةِ رِثاءٍ غريبة.

رفعَ مَرقُس رأسَه، والألَمُ يَنهَبُ وجهَه: “إلهُكَ وإلهُها يَبدوانِ مُتشابهَين، بل واحدًا. الطاعةُ لمشيئته واجبةٌ مهما كان الثمن”. وأثارَ ألمُه سُخطَه الشَّديد. “إلهٌ من أيِّ نَوعٍ قتلَ فتاةً أحبَّته أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخَرَ في العالَم، حتَّى حياتِها؟ إلهٌ من أيِّ نوعِ يُرسِلُ ابنَهُ لكي يموتَ على

صليبٍ ضحيَّةً من أجل أخطاءِ آخَرِين؟''

اخترقَت كَلِماتُه عزرا كطعنةٍ شديدة. ''أنت تتكلَّمُ بشأن يسوع''.

''**نعم، يسوع**''. وقد نطقَ بالاسم كما لو كانَ لَعنة.

فقال عزرا: ''أخبِرني بما أُخبِرتَ به عنه. إنَّما افعَلْ هذا بهدوء''.

فأفضى إليه مَرقُس بالقصَّة التي أخبرَه بها ساتَيرُس في أثناء الرّحلة. وكان عزرا قد سَمعَ أباه يتكلَّمُ بشأن شاوُلَ الطَّرسوسيّ، أوَّلًا بلُغةٍ مُتألِّقة ثُمَّ بسَخَطٍ واستِهزاء.

قال مَرقُس: ''إذا كان هذا المسيح قدِ امتَلكَ القُدرةَ على إجراء المعجِزات، فلماذا يَدَعُ مؤمِنيه يموتون؟ أوَّلًا تلاميذُه، والآن حشودٌ غَيرَهم. لقد رأيتُهم يُحرَقون أحياءً في روما. رأيتُهم يُصرَعون بسُيوف المحاربين في الساحات. رأيتُهم أشلاءً في أفواه الأُسود...'' ثُمَّ هزَّ رأسَه، مُبتَغِيًا أن

ينفضَ الذِّكرَياتِ من ذهنِه.

‘‘بما أخبرَكَ ساتَيرُس هذا أيضًا عن يسوع؟’’

مَشَّطَ مَرقُس شعرَه بأصابعِه. ‘‘لماذا تُريدُ أن تعرِفَ هذا الآن؟ لقد قُلتَ بلِسانِكَ إنَّه كان نبيًّا زائفًا’’.

‘‘كيفَ نُحاربُ ما لا نفهَمُه؟’’

إنَّ ما قالهِ عزرا كان صوابًا. فقد كان مَرقُس بحاجةٍ لأنْ يَعرِفَ ويفهمَ خَصمَه.

‘‘لا بأس. لقد قيلَ لي إنَّ يسوع هذا خانَه صديقٌ له لقاءَ ثلاثين قِطعةً من الفِضَّة. وقد هجرَه تلاميذُه أنفُسُهم قبلَ مُحاكمَتهِ من أجلِ جرائمَ لم يرتكِبْها. وتلقَّى الضَّربَ والبَصق، والجراحَ والجَلْد. أيبدو ذلك شبيهًا بابنِ إلهٍ في نظرِك؟ وقد صُلِبَ بين لِصَّين، فيما كالَ له الناسُ الشتائم، واقترعَ الحرَّاس على ثيابه. وبينما كان يموت، صلَّى طالبًا من أبيه أن يغفِرَ لهُم. قُلْ لي: إلهٌ من أيِّ نوعٍ يسمحُ بأن يحدُثَ ذلك كلُّه له أو لابنِه،

وأن يحلَّ أسوأ من ذلكَ بَعدُ بأولئك الذين تَبِعوه’’.

لم يُجِبْ عزرا، إذ لم يكُن يستطيعُ أن يُجيب. وقد غَمرَته قُشَعريرةٌ مُخدِّرة صعقَته حتَّى الصَّميم. فوقفَ ومضى إلى حائط السَّطح، وتشبَّثَ به. وبعدَ لحظة، رفعَ نظرَه إلى السَّماوات. إنَّ كَلِماتِ الرومانيّ استَحضَرَت نُبُوَّاتِ زكريَّا وإشَعياء تطنُّ في أُذُنَيه. فأغمضَ عينَيه بإحكام، وصلَّى.

أنقِذْني من شكُوكي! أرِني الحقيقة!

وما جاءهُ كانَ اقتِناعًا راسِخًا، سريعًا ومُذهلًا فوقَ الحدِّ، حتَّى إنَّه ترنَّح.

“فوزَنوا أُجرتي، ثلاثينَ من الفضَّة... «ألقِها إلى الفخَّاريّ»: الثَّمنَ الكريم الذي ثمَّنوني به”.

انغرزَت أصابِعُه في طينِ الحائط إذ تذكَّر هذه النُّبوَّةَ القديمة. ثُمَّ وافَته أخرى.

“ظُلِمَ، أمَّا هو فتذلَّل، ولم يفتَحْ فاه؛ كشاةٍ تُساقُ إلى الذبح...”

وتسنَّى لعزرا أن يرى كَلِماتٍ نَسَخَها هَوَ على الدُّروج، مُحصِيًا كلَّ حَرف، مُراجِعًا مِرارًا وتَكرارًا من أجل الدِّقة والضَّبط. فقد كان واجبًا أن يكون كلُّ حَرفٍ ونُقطَةٍ وحَرَكةٍ صحيحةً تمامًا.

"وجُعِلَ مع الأشرار قبرُه، ومع غنيٍّ عندَ موته..."

وصاحَ ذِهنُ عزرا مَكروبًا: **ولكن، يا ربّ، أمَا كان مُفترَضًا أن يكونَ المسيحُ مثلَ المَلِكِ داوُد، مُحارِبًا مُرسَلًا لإنقاذ شعبه من طُغيانِ روما؟**

فجاء الجوابُ سريعًا: **"سكبَ للموتِ نفسَه، وأُحصِيَ مع أثَمَة، وهو حَمَلَ خطيَّةَ كثيرين وشَفعَ في المُذنِبين".**

طأطأ عزرا رأسَه، وأغمضَ عينَيه بإحكام، وقد كُسِرَ فؤادُه. لم يُرِدْ أن يتذكَّرَ هذه الآياتِ المقدَّسَةَ، لأنَّها لم تكُن قد عَنَت له شيئًا. وحاولَ ألَّا يتذكَّرَها الآن، إلَّا أنَّها- فجأةً وعلى نحوٍ يتعذَّرُ تفسيرُه- جاءَت كالأبواق. فقدِ اندفعَتِ الكَلِماتُ

وطَمَت، وتدفّقت عليه كطَوفان، حتَّى لم يَكَد يقوى على التنفُّس تحتَ الهُجوم الضَّاري.

"وهو مجروحٌ لأجلِ مَعاصِينا، مسحوقٌ لأجلِ آثامِنا؛ تأديبُ سلامِنا عليه، وبحُبُرِه شُفِينا. كلُّنا كغَنَم ضَلَلنا..."

عندئذٍ، كما لو أنَّ غَياهِبَ ذِهنِه قد أُنيرَت، تذكَّرَ يومًا منذُ زمانٍ طويل فيه أظلمَتِ السَّماءُ عند الظُّهر وتزلزلَتِ الأرضُ بشِدَّة. كان آنذاكَ مُجرَّدَ وَلَدٍ صغير. ورأى نفسَه جالسًا على حَصيرٍ في بيتٍ مُستأجَر بمدينة القُدس، حيثُ كانت عائلتُه قد اجتمعَت للاحتِفال بالفِصح. وكانت أُمُّه تضحَكُ وتُحدّثُ النِّساء الأُخرَيات لدى إعدادِ الطَّعام. وفجأَةً خيَّمَ الظلامُ على كلِّ شيء. وأقبلَ من السَّماوات خارِجًا صَوتُ هديرٍ مُدَوٍّ. فصرخَتْ أُمُّه، وصرخَ هو أيضًا.

والآن، إذ رفعَ عزرا رأسَه، فتحَ عَينَيه، وحدَّقَ إلى النُّجوم في الأعالي، وقال بصوتٍ مسموع: **"«ويكونُ في ذلك اليوم- يقولُ السيِّدُ الرَّبّ- أنّي أُغيِّبُ الشمسَ في الظُّهر، وأُقتمُ**

الأرضَ في يوم نُور»”.

كَلِماتُ النبيِّ عاموس.

هل تكلَّمَ النبيُّ بشأن استِخدامِ الله لأشُّورٍ في إنزالِ القضاء على إسرائيلَ قديمًا، أم كان لكَلِماته معنًى أعمَقُ؟ هل أُعطيَ عاموسُ أيضًا إنذارًا بما سيَحدُثُ عندما يأتي المسيح ليُخلِّصَ شعبَه؟

“**إنَّ يسوعَ قد قامَ من الموتِ حيًّا!**” هكذا قالَ عمُّه منذُ تلك السِّنينَ الكثيرة. وما شعرَ به آنذاكَ عندَ سَماعِ تلك الكلمات عاوَدَه الآن: الخَوف، العَجَب، التأثُّر البالغ، الرَّهبة.

ماذا لو كان ذلك صحيحًا...؟

حدَّقَ عزرا لحظةً بَعدُ إلى السَّماوات. فتَسارعَت دقَّاتُ قلبه، وأحسَّ كما لو أنَّه قدِ استَيقظَ توًّا من نومٍ طويلٍ مُغذٍّ، وكانَ يرى العالَمَ بجلاءٍ أوَّلَ مرَّة.

“**لقد قام يسوعُ حيًّا! لقد رأيتُه!**”

وغمرَه التأثُّر الشديد. فعادَ وقعدَ أمام مَرقُس من

جديد.

‘‘أخبِرني **بكلِّ شيء** عن هذه المرأة التي عرفتَها في ما مضى. أخبِرني بكُلِّ ما قالَتْه لك عن يسوعَ الناصريّ’’.

ولمحَ مَرقُس الحرارةَ في عَينَي عزرا. فقال عابسًا: ‘‘لماذا؟ ماذا يهمُّ ذلك؟’’

‘‘أخبِرني فحسْب، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان. أخبِرني **بكُلِّ شيء**. من البداية. فلأُقرِّرْ بنفسي ما يهمّ’’.

وهكذا فعلَ مَرقُس ما طُلِبَ منه. فاستَسلمَ لحاجته الماسَّة إلى التكلُّم بشأن هَدسَّة. وطَوال تحدُّثهِ بشأنها، أخفقَ في أن يَرى السُّخرِيةَ في ما كان فاعلًا. فبينَما حكى قصَّةَ عَبدةٍ يهوديَّةٍ بسيطة، كان هو- مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان الرُّومانيُّ الذي لا يؤمِنُ بشيء- يُعلنُ البشارةَ بيسوع المسيح.

تشكيل القلب

٢٠

صبَّت جوليا لنفسِها كأسًا أخُرى من الخمر. كانَتِ الدارةُ هادئةً تمامًا. وقد كانت جوليا تشعرُ بالوَحشة جدًّا بحيثُ افتقدَت فُكاهةَ پريمُس اللاذعةَ وثرثرتَه الخبيثة. فإنَّه على الأقلِّ كان يُلهيها عن الأفكار المزعجة الأُخرى بشأنِ حياتِها ومصيرِها المقتَرب.

لم يعُد أحَدٌ يأتي لزيارتها. كانت مريضة، وجميعُ الذين عرفَتهُم تجنَّبوها بسببِ ذلك. وقد فهِمَتِ الوضعَ حقَّ الفهم. فإنَّه كان مُضجِرًا ومُضنيًا. وأُولئك الذين يُعانُون، وحدَهم كانوا يودُّون مُناقَشةَ الأمُور معها. وتذكَّرت بِضعَة أصدقاءَ كانوا قد مَرِضوا. فهي قد تجنَّبَتهُم مثلَما يتجنَّبُها الآخرون الآن تمامًا. إنَّها لم تكُن تُريد أن تسمعَ تاريخًا مُفصَّلًا للألَم والأعراض، إذ لم تُرِد أن تواجهَ حقيقةَ كَونها ستَموت. فالحياةُ أقصرُ من أن تُبدَّدَ على مأساةِ شخصٍ آخر.

والآن هي تُعاني مأساةً خاصَّةً بها.

رفعَتِ الكأسَ إلى شفتَيها، ورشفَت. وتمنَّت لو تستطيعُ أن تسكرَ جدًّا بحيثُ لا تعودُ تتمكَّنُ من التفكير في المستقبَل أو **الشُّعور** بالحاضر. إذًا لكانت تطفو على بَحرٍ من السُّكونِ الذي تُسبِّبُه مُعاقَرةُ الخمرة. فلا ألَم، ولا خَوف، بل وقتٌ بِلا أسًى ولا أسَف.

لقد أكلَتِ اللُّوطُسَ في ما مضى. والآن، عليها أن تشربَ البوسكا. ولكنْ، مِقدارًا كافيًا ولو من أرخصِ الخمور فلا تعودَ تشعُر بأيِّ شيءٍ على الإطلاق.

لم يُبالِ بها أحَد. ولماذا يُبالون؟ فهي لم تُبالِ، لم تُبالِ قطّ. ولا بأيٍّ منهم. لقد كانت تتظاهرُ فقط بأنَّها تُمتِّعُ نفسَهاً.

أطلقَت جوليا ضِحكةً هشَّة تردَّدَت أصداؤها في الغُرفة. ثُمَّ لاذَتْ بالصَّمت من جديد، مُحدِّقةً باكتئابٍ داخِلَ كأسِها، مُتمنِّيةً لو تستطيعُ أن تغرقَ في الخمرة التي لَونُها بِلَونِ الصَّدأ.

شعرَت بالفراغ في داخِلها. ربَّما كانت هَجَماتُ

المرض الفتَّاكةُ آخِذةً في التِهامِ أجزاءٍ منها سبقَ أن وُجدَت هناك- أجزاءٍ غيرِ منظورة لكنْ مُهِمَّة. لقد كانتِ الحياةُ نُكتةً فظَّة. إذ كان لَدَيها كلُّ ما احتاجَتْ إليه لتكونَ سعيدة: المال، الـمَقام، الحرِّيَّةُ الكامِلة في القيام بما تشاء. ألَم تُمسِكْ بزِمامِ الأحوال المنكودة وقد تغلَّبَتْ عليها بإرادتها؟

إذًا، لماذا باتَتِ الحياةُ الآن لا تُطاقُ إلى أقصى الحدود؟ ما الخطأ الذي ارتَكَبَتْه؟

ارتجفَتْ يدُها إذ رفعَتِ الكأسَ من جديد، مُبتلعةً الخمرةَ وهي تُحاوِلُ أن تبتلعَ المشاعرَ التي ثارَتْ في داخِلِها. وأحسَّت كما لو كانت تختنق.

نَوَتْ ألَّا تُفكِّرَ في أيِّ شيءٍ يُكدِّرُها اليوم. فلن تُفكِّرَ إلَّا في الأشياء التي كانت تسرُّها.

وماذا كان يسرُّها؟

تذكَّرَتْ كيف كانت دائمًا تركضُ لملاقاةِ أخيها، مَرقُس، عند مجيئه إلى الدَّارة في روما. لقد

غايَظَها ودلّلها وأحبَّها كثيرًا. وإذ طرفَت بعَينَيها حَبسًا للدُّموع، أرغمَتْ نفسَها على أن تتذكَّرَ كيف نقضَ وعدَه بأن يُحِبَّها مهما فعلَت. وذكَّرَتْ نفسها أنَّه لـمَّا كانت في حاجةٍ ماسَّةٍ إليه، أدارَ ظهرَه لها.

دفعَت مَرقُس خارجَ ذهنِها، وأخذَتْ تَستعيدُ تاريخَ علاقات ماضيها: بأبيها وأُمِّها، بكلاوديوس، بكايُس، بأتريتِس، بپريمُس، بكالاباه. وأثارَ كلُّ اسمٍ أحزانًا وغضبًا، واستياءً ورثاءً للذَّات... تَبِعَها جميعًا دِفاعٌ عن النَّفس وتبريرٌ للذَّات. لا أحَدَ كانَ له حقٌّ بأنْ يقولَ لها كيف تعيش. لا أحَد! غيرَ أنَّ ذلكَ هو ما حاوَلَ كلُّ واحِدٍ أن يفعلَه دائمًا.

لقد توقَّع أبوها منها أن تكونَ مَن أرادَ لها أن تكون، بَدَلَ أن تكونَ مَن كانت. وأرادَ كلاوديوس زوجةً أُخرى كالَّتي تُوفِّيَت. وقد كان مُغفَّلًا حتَّى خرجَ يبحثُ عنها بعد فرارها ذاتَ ليلة. فلم تكُن غلطتَها هي أنَّه وقعَ عن الحصان وكسرَ رقبَته. وكايُس كان فظًّا. فقدِ استَعمَلَ جسدَها ومالَها لأجل لَذَّاته الخاصَّة. ولـمَّا انقلبَت عليه الأحوال، ضربَها ولامَها. لقد سمَّمَ كايُس حياتَها. فأيُّ

انتقامٍ آخر كان يُمكِن أن تأتيَه أفضلُ من تسميمه في المقابِل؟

ثُمَّ آلمها قلبُها لـمَّا فكَّرَت في أتريتِس. أُوه، أتريتس، أجملُ الرِّجال... كم أحبَّتْه. لم يكُن هناك أيُّ مُحارِبٍ مثله قطّ. لقد بدا لها مِثلَ إلهٍ برَّاق، بمَلامحه الكاملة وعينَيه الزَّرقاوين المتألِّقتَين، وجسمه الجميلِ القويّ. وقد رغِبَت فيه حشودٌ من النِّساء- ومن الرِّجال أيضًا- غيرَ أنَّه هو لم يرغب إلَّا **فيها**... على الأقلّ إلى أنِ اختارَت أن تحميَ نفسَها من هيمنَته الكاملة برَفضِها عرضَ زواجه بها، عاقدةً بالأحرى زواجَ مُلاءَمة مع بريمُس. ثُمَّ إنَّ أتريتِس أيضًا تخلَّى عنها، وقد كانَت أخلاقيَّاتُه الهَمَجيَّةُ العامِّيَّة تتحدَّى المنطق.

وتجهَّمتْ إذ دوَّمَت في ذهنِها صُوَرٌ من الماضي. لو كان لها أن تعيشَ ماضِيَها من جديد، فماذا كانت لتَفعلَه على نحوٍ مُختلف؟ كيف كان يُمكِنُها أن تُغيِّرَ أيَّ شيء وتبقى مُسَيطِرةً على حياتها؟

جلسَت جوليا على كُرسيِّ القضاء، مُستَحضرةً جميعَ الأشخاص واحدًا إثرَ واحد، وناظِرةً في كلِّ

حالةٍ من الحالات، مُبرِّئةً نفسَـها من كلِّ لَوم. غيرَ أنَّ الشـكَّ النهَّاشَ لازمَها وإقْتاتَ بقَلبِها: أكان ما كوَّنَ مجرى حياتها هو الأُمور التي فعلَها بها الآخَرون، أم الأُمور التي فعلَتها هيَ بنَفسِـها؟

ورشـفَت مرَّةً أُخرى، مُحاوِلةً أن تُخدِّرَ الألَمَ في صدرِها. إلَّا أنَّه ازدادَ حِدَّةً فحَسْـب.

لو لم تتزوَّج من پريمُس، لَربَّما كان كلُّ شـيءٍ مُختلِفًا الآن. ربَّما كان أتريتِس ما يَزالُ في يَدِها. ألَم يشـترِ لها دارةً؟ أولَم يُرِدْ منها أن تكونَ زَوجتَه؟

وفكَّرَت في الوَلَد الذي ولدَته له، فازدادَ الألَمُ شِـدَّةً، حادًّا وباردًا، مُتشـبِّثًا بقلبها. وقد أمكنَها بَعدُ أن تسـمع الصَّدى الواهيَ لِصَرخةٍ رقيقةٍ عاجزة، ولكَلِماتها هيَ إذ عادَتْ تنتابُها: "**ضعيهِ على الصُّخور كي يموت**".

فأغمضَت عينَيها بإحكام، وقد شُـحِبَت مَفاصِلُ أصابعها على كأس الخمر. لم تكُن تلك غلطتَها. لقد قال أتريتِس إنَّه يكرهُها. وقال إنَّه لا يُريدُ الوَلَد. كما قال إنَّه لن يعترِفَ به ابنًا له. فأيَّ شـيءٍ

آخر كان ينبغي لها أن تفعلَ به؟

لقد قالت لها هَدسَّة مُتوسِّلةً: "**رجاءً، سيِّدتي، لا تفعلي هذا! انظُري إليه**".

ابنُ أتريتِس.

ابنُها هي.

وتأوَّهت، مُجاهِدةً لأنْ تدفَعَ مشاعِرَها في أعمق أغوارِ كِيانِها، حيثُ يتسنَّى لها أن تنساها. فإذا بالألَمِ في داخلِها يشتدُّ كثيرًا ويغدو غيرَ مُحتَمل.

لقد كانت كالاباه هي الـمَلومةَ في ذلك كُلِّه. كالاباه، بأكاذيبها الماكِرة، بإتقانِها التلاعُبَ والاستِغلال. "**في وُسعكِ أن تنسَيِ الأمرَ الآن. لقد مضى وانقضى. ضعيهِ وراءَكِ**".وتردَّدَت أصداءُ كَلِماتِ كالاباه في ذهنِ جوليا. فسَمِعَت مِرارًا وتَكرارًا كالاباه، بكَلِماتها المغوية، مُذكِّرةً إيَّاها بأنَّ كلَّ رجُلٍ عرَفَته جوليا يومًا قد آذاها... كالاباه، بتَوكيداتها المغرية أنَّه ما من رجُلٍ يُمكِن أن يفهمَ ويُحبَّ امرأةً كما

تستطيعُ أن تفهمَها وتُحبَّها امرأةٌ أخرى.

“بصُحبَتي،ستكونُ لكَ دائمًا حُرِّيَّتُكِ. لكِ أن تفعلي كلَّ ما أردتِ”.

كالاباه، بوُعودِها الخاوية. كالاباه، امرأةٌ جسَّدت قبرًا حَجَريًّا.

“سأُحِبُّكِ دائمًا، يا جوليا. لن أُحاوِلَ أبدًا أن أجعلَكِ عَبدةً مِثلما يجعلُكِ الرَّجُل”.

ولكنَّها صارَتْ عبدةً، بطُرقٍ لم يسبِقْ لها قطُّ أن تصوَّرَت أنَّها مُمكِنة. عبدةً لتوقُّعاتِ الآخرين، عبدةً لأهوائها الذاتيَّة... للأحوال، للخوف.

عبدةً **للإثم... للذَّنْب.**

تأوَّهَت جوليا، وقامَت عن أريكتِها. فجاشَت مَعِدَتُها، وصرَّت بأسنانها إزاءَ الغَثَيانِ المنبَعِث. وتصبَّبَ العَرَقُ من بَشَرَتها الشَّاحِبة. وإذ ترنَّحت، حطَّتْ كأسَ الخمر واستندَتْ إلى عمودٍ رُخاميٍّ لكي تُثبِّتَ نفسَها. فسكنَ الغَثَيانُ قليلًا.

ترامى إلى الپَريستايْل بعضٌ من نور الشمس. كم تاقَتْ إلى الدِّفء! فمشَت إلى الخارج، ورفعَتْ رأسَها لتَشعُرَ بحرارة الشمس على وجهِها. وكان يغمرُها اشتياقٌ شديدٌ مُوجع. فوقفَتْ تحتَ الدِّفء، مُريدةً أن يتسرَّبَ عبرَ بَشَرَتِها ويُدفِّئَها من الداخل فخارِجًا. لقد كانت أحيانًا تشعرُ بالبَرْدِ الشديد، حتَّى إنَّ مياهَ التَّپيداريوم السَّاخنةَ لم تكُن كافيةً لتَدفئَتِها. وخُيِّلَ إليها أحيانًا أنَّ البَرْدَ ينبعثُ من قلبها تمامًا.

وإذ طوَّقَتْ نفسَها بِذِراعَيها، أغمضَتْ عَينَيها فرأتْ حرارةً كَهرمانيَّةَ اللَّونِ آخِذةً في الاحمرار تُلامِسُ أجفانها. وتحرَّكت أشكالٌ. فلَم تُرِد أن ترى أيَّ شيءٍ آخَرَ سِوى ذلك. ولم تُرِدْ أن تُفكِّرَ في أيِّ شيءٍ- أو تشعُرَ بأيِّ شيءٍ- سوى هذه اللَّحظةِ المفرَدة من الزَّمن. أرادَتْ أن تنسى الماضيَ وألَّا تخافَ من المستقبل.

ثُمَّ تلاشى النُّور.

وفتحَت عينَيها مُرتعِشةً، فرأتْ أنَّ غيمةً قد حجَبَتْ شُعاعَ الشَّمس حينها. ونبعَ الحُزنُ في

داخِلِها حتَّى أحسَّت أنَّها كانت تختنقُ تحتَ وطأتهِ الشديدة.

وعلى نحوٍ يتعذَّرُ تفسيرُه، شعرَتْ شُعورَ وَلَدٍ مَرعوبٍ يحتاجُ إلى أُمِّه أمسَّ احتِياج. وقد كان في الدَّارة معها الآن ثلاثةٌ آخرون فقط، كلُّهم من العبيد: تُروپاس، طبَّاخٌ يونانيّ؛ إزيدورا، خادمةٌ بَيتيَّةٌ من مَكدونية؛ دِيديماس، الخادِمةُ المصريَّةُ التي اشترَتها بعدَ هُروبِ يُوديماس.

أكان منذُ سنتَين فقط أنَّها كانت تَملِكُ حاشيةً من الخَدَم رهنَ إشارَتها؟ لقدِ امتلكَتْ مرَّةً أربعةَ عبيدٍ إثيوبيِّين لِحَمْلِ المحفَّة، وحارِسَين شخصيَّين من بلادِ الغال، وخادِمةً مُلازِمةً من بريطانيا، واثنتَين أُخرَيَين من كريت. وكانَت هنالك خادماتٌ أكثرُ عددًا لـمَّا أقامَتْ كالاباه في الدَّارة، كُلُّهنَّ شابَّاتٌ من أقاصي الإمبراطوريَّة. كما كانت لِبِريمُس حاشِيَتُه من الخدَّام الذُّكور، وقد باعَهُم كُلَّهُمِ ما عدا ثلاثةً قبلَ أن يهجرَها، واصطحبَ عازِفَ العُودِ الوسيمَ ومَكِدونيًّا أخرسَ فَظًّا قاسيَ الملامح.

وتمنَّت لو أنّ المكدونيَّ حَزَّ عُنُقَ پرِيمُس ورماه عن ظَهرِ السَّفينة ليَصيرَ طعامًا للسَّمك. فأيَّ رَجُلٍ مُتواطئٍ شرِّيرٍ غادِرٍ كان! أسوأ من كايُس بأشواطٍ بعيدةٍ.

على مدى الأشهُرِ القليلة الماضية، اضطُرَّت إلى بَيع مُعظَمِ عبيدِها الخاصِّين. فلم تعُدْ تملِكُ أوريوساتٍ تُنفِقُها على أسبابِ التَّرَف، ولا كثيرًا من الدَّنانير للحاجاتِ الأكثر ضَرورةً. وكان عليها أن تلجأ إلى أيَّةِ وسائلَ لَدَيها لتَحصيلِ المال. فبوُجود ثلاثةِ عبيدٍ فقط مُتَبقِّينَ لخدمتها، كانتِ الحياةُ تبدو مُرَوِّعةً على نحوٍ مُتزايد.

وإذ شعرَت بالإعياء، قرَّرتْ أن تأوي إلى الفراش. فصَعِدَتِ الدَرَجَ ببُطء، مُتوكِّئة بتثاقُلٍ على الدَّرابزين الرُّخاميّ. وكان رأسُها يُدوِّمُ من الخمر. فترنَّحَتْ على طُولِ الرِّواقِ الأعلى، ودخلَت غُرفةَ نَومِها.

كانت ديديماس تربطُ من جديدٍ الناموسيَّةَ الرقيقة فوقَ أريكةِ نومِها. وما إنْ دخلَت جوليا الغُرفة، حتَّى رأتِ التَّيَبُّسَ في كَتِفَي خادمتِها.

فإنَّها كانت قد جلدَتها بالكرباج قبلَ يومَين على تهرُّبها من واجباتها.

"هل غَسَلتِ الأرضيَّةَ كما قُلتُ لكِ؟"

"نعم، سيِّدتي".

"ووضعتِ بياضاتٍ جديدةً على الأريكة؟"

"نعم، سيِّدتي".

انزعجَت جوليا من لهجة ديديماس الهادئة. لم تَرَ أيَّ دليلٍ على العِداء في سِيماءِ الفتاةِ الجامدة، ولكنَّها أحسَّت ذلك. فكان من الواجب أن تُوضَعَ في مكانها الصحيح. فأجالَتْ جوليا بصرَها في أنحاء الغُرفة، باحثةً عن شيءٍ تنتقِدُه. "لا زُهورَ في الزَّهريَّات".

"لقد طلبَ البائعُ سَستَرسين بالزَّنابِق، سيِّدتي. وأنتِ أعطيتِني واحِدًا فقط".

"كان عليكِ أن تُساوِميه!"

‘‘لقد فعلتُ ذلك، سيِّدتي. لكنَّ بضاعتَه مطلوبةٌ من كثيرين، فَلَم يخفضِ السِّعر’’.

فاحمرَّ وجهُ جوليا خَجَلًا. كثيرون يملكُ كلٌّ مِنهُم مالًا أكثرَ ممَّا تملِكُ هي. ‘‘الغُرفة تبعثُ على الكآبة بِلا زهور’’.

لم تقُل ديديماس شيئًا، فأحبطَ صمتُها الذليلُ جوليا أكثرَ بَعد. إنَّ الخَدَمَ الذين امتلكَتهُم عائلتُها في روما كانوا يخدمون دائمًا بحَماسةٍ ومَودَّة. فإنَّهم لم يكونوا ينكفئون ببرودة، مُضمِرينَ الأحقادَ إذا أُدِّبوا بحَقٍّ وعلى نحوٍ مُناسِب. وتذكَّرَت أنَّ بعضًا منهم كانوا يضحكون أيضًا بينما ينصرفون إلى أداءِ واجباتهم.

ثُمَّ فكَّرَت في هَدسَّة. وإذ ترنَّحَت، تمسَّكَت بقائمة الباب، وأرخَت ثِقلَها علَيها. لم تُرِد أن تُفكِّرَ في هَدسَّة. فإنَّ انحِدارَ حياتِها قد بدأ مع تلك الفتاة البائسة. ولَولاها، لَمَا كان أيُّ شيءٍ كما كان.

طرفَت بعينَيها حَبسًا للدُّموع، ونظرَتْ إلى وجه

ديديماس الخالي من أيِّ تعبير. وقد وقفَتِ العَبدةُ حيثُ كانت. فهي لم تكُن تفعلُ أيَّ شيءٍ للمُساعَدة حتَّى تؤمَرَ بذلك. وفي مكانٍ ما، داخِلَ أغوارِ ذهنِها غيرِ المحميَّة، انبعثَ إدراكٌ فاضِح: أنَّ هَدسَّة ما كانَتْ لِتَنتظِر. فهي ما كانت لِتَقِفَ مُحدِّقةً إلى لا شيء، بِوَجهٍ مُتَحجِّر، وكامِلُ كِيانِها يصرخُ بصمتٍ معبِّرًا عن عِدائها. وكان من شأن هَدسَّة أن تُقبلَ إلَيها وتُطوِّقَها بذِراعَيها.

نظرَت جوليا إلى زخارِفِ الغُرفةِ الوافرة، وأحسَّت عُقمَها. فلم تُرِدْ أن تدخُلها. وقالت بصراحة: ‘‘سأخرُجُ في نُزهةٍ اليوم’’.

وظلَّت ديديماس واقفةً بصَمت، تنتظر.

فحدَّقَت جوليا إليها. ‘‘لا تبقَي واقفةً هُناك فحَسْب! أخرِجي پالُسي الأزرق، وهاتي لي طستَ ماءٍ ساخن’’.

‘‘نعم، سيِّدتي’’.

راقبَت جوليا، مُوهَنةَ العزيمة، خادِمَتَها الشخصيَّة

تأتي بالپالَس الأزرق وتضعُه على الأريكة. فرفعَتْ شعرَها عن وَجهها ودخلَتِ الغُرفة بالقَدرِ الذي استَطاعَتِ استِجماعَه من الوقار، مُتجاهِلةً ديديماس إذ غادرَتِ الغُرفةَ لإحضارِ الماء.

أمسكت جوليا بحافَة مِزيَنتِها الرُّخاميَّة، وارتمَت متعبةً على المقعد. وحدَّقت في سطح مرآتها المعدِنيِّ اللمَّاع، فرأتِ انعكاسَ وجهٍ نحيلٍ شاحبٍ ذي دائرتَين داكنتَين تحتَ عينَين بُنِّيَّتَين واسعتَين. وبدا الشَّعرُ الداكن مُشعَّثًا، كما لو أنَّ الغريبةَ التي كانت تُحدِّق جوليا إليها لم تُكلِّفْ نفسَها عَناءَ تَسويَته بالفُرشاةِ أو بالمشطِ طَوالَ أيَّام. كم يَومًا مضى وهو على هذه الحال؟

التَقَطَت مشطًا مَصنوعًا من تُرس سُلَحفاة، وباشرَتْ ترتيبَه عبرَ التَّشابُكات. وإذِ استَسلمَت أخيرًا، قَرَّرَتْ أن تنتظرَ عَودةَ ديديماس. فلمَّا عادَت، قامَت جوليا وغسلَت وجهَها. وإذ مسحَتْ خدَّيها بخِرقة، ارتمَتْ من جديد على الكُرسيّ أمامَ المرآة، وأمرَتْ ديديماس بأن تُمشِّطَ لهاَ شعرَها.

أجفلَتْ جوليا عندَ أوَّلِ شَدَّةٍ من المشط، وانهالَت على الخادمة غاضِبةً. "فتاةٌ غبيَّة! آذِيني ثانيةً، فأُرسِلَكِ إلى الأسود. لقد فعلتُها مرَّةً من قبل، إذا كنتِ لم تعلَمي. وسأفعلُها ثانيةً!"

شُحِبَ وجهُ ديديماس. وإذ سُرَّت جُوليا بكَونها قد روَّعَتِ العبدةَ بتَهديدها، استدارَتْ ورفعَتْ ذقنَها. "والآن، قومي بالعَمَلِ حَسَنًا".

فمضَت ديديماس تعمَلُ بحَذَرٍ مُضجِر، ويداها ترتَعشان.

وبعدَ بضعِ دقائق، شعرَتْ جوليا بأنَّها أسوأُ حالًا من ذي قَبل. لقد كان خَوفُ العَبدةِ الشابَّة أكثرَ إحباطًا من عِدائها. فرفعَتْ جوليا عَينَيها، ونظرَتْ إلى وجهِ ديديماس الشاحب المتوتِّر. وإذ تَرجرجَت عَينا الفتاة، أحسَّتْ جوليا أنَّ عملَها باتَ أبطأَ بَعد. فأشاحَت بناظِرَيها، مُثبَّطةَ الهِمَّة.

"شعرُكِ جميلٌ جدًّا، سيِّدتي".

أمسكت جُوليا خُصلةً من الشَّعر الداكنِ الباهت

ولفَّتها حولَ إصبَعِها. فعلِمَت حقيقةَ تلك الكلمات: تملُّقًا فارِغًا. وقالت باكتئاب: ‘‘كان برَّاقًا في ما مضى’’.

‘‘هل تُريدين منّي أن أفرُكَ شعرَكِ بشيءٍ من الزَّيتِ المعطّر بواسِطة الفُرشاة، سيِّدتي؟’’

لقد غَدَت وافرةَ الاحترام الآن بعدَما صار التهديدُ مصلَطًا كالسَّيف على رأسِها بإرسالها إلى ساحة المحاربين! فقالت جوليا بتأدُّب: ‘‘نعم، افعلي ذلك. فليَبرُقْ من جديدٍ بأيَّة وسيلةٍ تستطيعينَها’’.

ارتجفَتْ يدا ديديماس إذ سكبَتْ على راحتَيها بِضعَ قطراتٍ من الزَّيت، وفركَت إحداهُما بالأُخرى، ثُمَّ أدخلَتِ الزيتَ برِفقٍ في شعرِ جوليا وفَروَةِ رأسِها. فتنهَّدت جوليا واستَرخَت قليلًا، إذ جعلَها التَّدليكُ تشعرُ بشيءٍ من الانتعاش. وقالَت: ‘‘اضفريه بِشكلِ تاج’’.

ففعلَت ديديماس ما أُمِرَت به. ولـمَّا انتهَت، قالت: ‘‘أأنتِ مَسرورةٌ به، سيِّدتي؟’’

وتأمَّلَت جوليا النتيجة بعَينٍ نقّادة. فإذا بالتَّسريحة التي كانت في ما مضى تجعلُها تبدو كمَلِكة قد جعلَتها الآن تبدو بسيطةَ المظهَر.

وقالَت: ‘‘كان من عادة يوديماس أن تضفرَ لآلئَ داخِلَ شعري’’.

‘‘ليس من لآلئَ، سيِّدتي’’.

‘‘لم أطلُب منكِ أن تُذكِّريني!’’

فتراجَعت ديديماس خُطوةً إلى الوراء، وخوفُها ينعكِسُ في عينَيها.

أسِفَتْ جوليا على قَولِ أيِّ شيءٍ يتعلَّق باللآلئ. ماذا كان الخُدَّامُ يُفكِّرون في أحوالها؟ أكانوا يتَهامَسون في ما بينَهم ويَشمَتون بانقلاب أحوالها؟ إنَّهم كانوا فقط مَعنيِّين بأقدارهم، لا بأقدارها.

قالَت بعجرَفة: ‘‘ماذا في عُلبةِ الجواهر؟’’

ففتحَتْ ديديماس العُلبَة وألقَت نظرةً على

المحتويات. ‘‘ثلاثُ قلائدَ من الخَرَز الزُّجاجيِّ، سيِّدتي، وبعضُ البِلَّور’’.

وقالت جوليا بصبرٍ نافِد: ‘‘يجب أن يكونَ قد بقيَ لَدَيَّ أكثرُ من ذلك. هاتي العُلبةَ إلى هنا’’. ثُمَّ انتزعَتها من ديديماس ووضعَتها على حضنِها. وأجالَتْ أصابِعَها بينَ المحتَويات، فلم تجِدْ شيئًا غيرَ ما ذكرَته ديديماس. فتناولَتْ بِلَّورةَ جَمَشْتٍ من العُلبة، وحملَتْها في كفِّ يَدِها. وقد سبقَ أنِ اشترَتها منذُ زمنٍ بعيد في روما من مُشَعوذٍ شرقيٍّ كان قد نصبَ سقيفةً في السُّوق. كانت معها آنذاك صديقتُها أوكتاڤيا. وآخِرُ ما سمِعَته أنَّ والِدَ أُوكتاڤيا، بعدَما غَرِقَ في الدَّيون، عمدَ إلى الانتِحار. فتساءلت جُوليا: تُرى، ماذا حلَّ بأُوكتاڤيا؟ أكانت ما تزالُ تَقبَل بأيِّ محاربٍ يتودَّد إليها؟ أم هل وجدَت أخيرًا رجُلًا على شاكِلَتها مُغفَّلًا كفايةً بحيثُ يتزوَّجُ بها؟

أمسكَتْ جوليا بِلَّورةَ الجَمَشْتِ بيَدِها. ماذا قال لها ذلك العَجوزُ عنها؟ أمَا قال إنَّ لِلبلَّورِ مَزِيَّةَ شِفاءٍ من نوعٍ ما؟ ثُمَّ زلَّقتِ السِّلسِلةَ حولَ عُنُقِها وأطبقَتْ يَدَها على البِلَّورَة بإحكام.

يا آسكليپيوس، ليَكُنْ ذلك!

وقالِت: ‘‘جرِّبي أن تصنعي بالخَرَزات ما يُمكِنُكِ’’. فحلَّت لها ديديماس شعرَها. ثُمَّ ضفرَته من جديد، حابِكةً خَرَزاتِ الزُّجاجِ بِخُصَلِ الشَّعرِ هذه المرَّة. فتأمَّلَت جوليا النَّتيجةَ الحاصِلة وتنهَّدت.

‘‘لا بُدَّ أن يكونَ هذا كافيًا’’.

وقالت ديديماس: ‘‘نعم، سيِّدتي’’.

‘‘لكِ أن تنصرفي’’.

‘‘نعم، سيِّدتي’’. وانحنَت ثُمَّ أسرعَت بالخروج من الغُرفة.

تناولَتْ جوليا إناءً فيه رصاصٌ أبيض، وملَّسَت شيئًا منه تحتَ عينَيها لتَمحوَ الظِّلالَ القاتمة. كم باتَ يستغرقُ من الوقتِ مَحوُ السَّوادِ تحتَ عينَيها الآن؟ اشتغلَتْ بمهارة، ثُمَّ حطَّتِ الإناءَ حيثُ كان، والتقَطَتْ إناءً فيه أكسيدٌ أحمر. وأضافت لمسةً أخيرة من الكُحْلِ إلى أجفانها، ثُمَّ حدَّقت إلى صُورتها في المرآة.

بَدَت حَسَنةَ الزِّينة، لكنْ حسنةَ الزِّينةِ فقط. كانت في ما مضى جميلة. وحيثُما ذهبَت، كان الرِّجال يُحدِّقون إليها بإعجاب. وقد حسدَتها النِّساءُ على عينَيها البُنِّيَّتين الداكنتَين، وبشرَتها القِشديَّةِ اللَّون، وفمِها الأحمر المكتَنِز، وعَظمِ وجنتَيها المرتَفِع، وجسمِها ذي المنحَنَياتِ الرقيقة. أمَّا الآن فعَيناها كامِدَتان، وبَشَرَتُها شاحِبة، وفمُها أحمَر، لكنْ مَدهُونٌ بالحُمرة. وعَظمُ الوجنَتينِ المرتفعُ الأرِستُوقراطيُّ باتَ الآن ناتئًا من جرَّاءِ اعتِلالِ الصحَّة.

أَرغمَتْ شفتَيها على تشكيلِ ابتسامة، محاولةً أن تبثَّ شيئًا من الحياة في وجهِها، غيرَ أنَّ صورتَها في المرآة صارت كاريكاتوريَّة. وقد أبصرَتْ ما كانت عليه فعلًا: امرأةً فقدَت كُلَّ براءة.

أشاحَت جوليا وجهَها عن صورتِها في المرآة، وقامت. وإذ حلَّت تُوجَتَها، أسقَطَتْها على الأرض وتناوَلَت پالْسَها الأزرق. كانت ديديماس قد أخرجَتْ لها زُنَّارَها الفضِّيَّ، فتزنَّرَت به. وتدلَّى واسعًا حول خصرِها. تُرى، كم فقدَت من الوزن مُنذُ ارتدَته آخِرَ مرَّة؟

‘‘ديديماس!’’

وأقبلَت الفتاةُ مُسرِعةً عندَ استِدعائها. ‘‘ثبِّتي هذا الزُّنَّار، وأنعِليني صَندَلي’’. فعدَّلَتْ ديديماس الزُّنَّارَ الفضِّيَّ، ووضعَته على خصرِ جوليا من جديد. ثُمَّ ركعَت ووضعَتِ الصندلَ الفضِّيَّ فيِ قدَمي جوليا. وقالت جوليا بفُتور: ‘‘الشالَ الأزرق الباهت’’، وبسطَت ذِراعَيها. فأحضرَته لها ديديماس، ورتَّبَته ببراعةٍ على كَتِفَيها.

أخذَت جوليا من صندوقِ دَراهمِها قطعةَ نقد وأعطَتْها لديديماس. ‘‘قولي لِتُروپاس أن يستأجرَ لي محَفَّة’’.

‘‘سيَحتاجُ إلى مالٍ أكثرَ من هذا، سيِّدتي!’’

أحسَّت جوليا الحرارةَ تصعدُ إلى وجهها، فصفعَتِ الفتاة. ‘‘أعطيني قطعةَ النَّقد!’’ واستَرجعَتْها خَطفًا، مُرتجفةً من الغضبِ والاستِياء. ثُمَّ قالت، بِرَعشةٍ من ذقنِها: ‘‘سأمشي! الجوُّ اليومَ جميل، والمسافةُ ليست بعيدةً إلى دارة والدتي’’. ثُمَّ أعادَتِ القطعةَ إلى الصُّندوق

وسفقَتْ الغِطاء، واضِعةً يدَيها على سطحه. ‘‘إنّي أعرِفُ تمامًا كم قِطعةَ نَقدٍ في هذا الصُّندوق، يا ديديماس. فإنْ كانتْ حتَّى قِطعةٌ واحدةٌ ناقِصةً عندما أرجِع، فسأُحاسِبُكِ. هل تفهمين؟’’

‘‘نعَم، سيِّدتي’’. وقد وقفَتِ الفتاةُ رابِطةَ الجأش، ووَجهُها مُحمَرٌّ من أثَرِ يَدِ جوليا.

‘‘في أثناء غِيابي، تأكَّدي من تَهوِية هذه الغُرفة، وأحضِري بعضَ الزُّهور للزهريَّة بجانب سريري. اسرِقيها إذا اضطُرِرتِ. أو بادِليها بعَرضِ نفسكِ على أحَدهم. لا يهمُّني ما تفعلينَه لإحضارِها، إنَّما **أحضِريها**! هل تفهمين؟’’

‘‘نعم، سيِّدتي’’.

‘‘لستُ أُطيقُ هذا المكانَ الموحِش!’’

مَشَت إلى الشارع العامِّ الرئيسيِّ، واستراحَت في واحِدٍ من المعابدِ الرخاميَّة الجميلة المغطَّاةِ بدَوالي العِنَب، تلك المعابدِ المسَمَّاة فانا

(وواحِدُها فانُم). وكان الشارعُ مُزدحِمًا بأناسٍ في طريق الذَّهابِ إلى الأرطَميسيون والعودةِ منه. فأغمضَتْ عَينَيها وأسندَتْ رأسَها إلى العمودِ الرُّخاميّ، وأصغَتْ إلى جَلَبةِ الحياة مُجاوزةً إيَّاها. كانت عطشانة، ولكنَّها لم تكُن قد تذكَّرَت أن تجلبَ أيَّ مالٍ معها، ولا حتَّى قطعةً نُحاسيَّة لتَشتريَ كُوبَ نبيذٍ ممزوجٍ بالماء من أحَدِ الباعَةِ الجوَّالين.

ثُمَّ قامَت وتابعَت سيرَها.

كانت قد مَضَتْ أسابيعُ على آخِرِ خَبَرٍ تلقَّته من أمِّها. وكانت في العادة تتلقَّى رسالةً بواسطَةِ أحَدِ خُدَّامِ والدتها: ‘‘هل تودّينَ المجيءَ لأجلِ وليمةِ المساء؟’’ دَعوةٌ قلبيَّةٌ من أُمٍّ تتحسَّسُ بالواجب. ولكنَّها كانت دائمًا تبعَثُ باعتِذاراتٍ مُهَذَّبة. غير أنَّها الآن أدركَت كم باتت تُركِنُ إلى تلك الدَّعَوات. فرُغمَ كَونِها قد رفضَتهُنَّ، فقد مثَّلنَ آخِرَ خَيطِ عنكبوتٍ يربطُها بأُمِّها وبحياتها أيضًا.

لرُبَّما الآن قدِ انقطعَ ذلكَ الرابِطُ أيضًا.

فكان عليها أن تعرِفَ واقعَ الحال.

وبعدَما استَراحَتْ، قامتْ وتابعَتِ السَّير. حتَّى إذا بلغَتْ غايتَها، توقَّفتْ عندَ أسفلِ الدَّرَج الحَجَريّ. ورفعَتْ نظرَها إلى المبنى الهائل الذي شكَّلَ الدارةَ الجميلة. لم يكُن والِدُها قطُّ يحتاجُ إلى حسبانِ كلفةِ أيِّ شيء، وهذا المنزلُ الواقعُ داخِلَ جانِبِ الجَبَل نمَّ عن الثَّراءِ والـمَقام. وكان لا يختلِفُ عنِ الدارة التي امتلكَها مَرقُس في مكانٍ قريب. فبالتَّأكيد، كانت دارتُه أقربَ إلى وَسَطِ المدينةِ ومحوَر النَّشاطِ التِّجاريّ. تُرى، كم مركَزًا تجاريًّا ضخمًا يملِكُ أخوها الآن؟ اثنَين؟ ثلاثة؟ بلا شكّ، أكثرَ ممَّا كان يملِكُ لـمَّا كلَّمَته آخِر مرَّة.

استَجمعَتْ جوليا شجاعتَها، وصَعِدَتِ الدَّرَج. وعندما بلغَتْ أعلاه، كانت مقطوعةَ النَّفَس، فقرعَتِ الباب. ولـمَّا لم يُجِب أحَد، قرعَت ثانيةً وقلبُها يخفقُ بسُرعة داخِلَ صَدرِها. ماذا ستَقولُ لها أُمُّها بعد هذه المدَّة الطويلة كلِّها؟ أتكونُ مسرورةً لأنَّها جاءَت لزيارتها؟ أم تتسرَّبُ إلى سِيمائها تِلكَ النِّظرةُ المتألِّمةُ المعبِّرةُ عن خيبةِ

الأمَل وتبدُّدِ الأحلام؟

عرفَتِ العبدَ الذي فتحَ الباب، ولكنَّها لم تتذكَّرِ اسمَه. لقدِ اشتراه أبوها بُعَيدَ وُصولِهم إلى أفسُس. وما إنْ رآها، حتَّى قالَ مَدهوشًا: ‘‘السيِّدة جوليا!’’ فتخطَّته ودخلَتْ حُجرةَ الانتظار. وإذ نظرَت حَوالَيها، رزحَتْ تحتَ وطأةِ الشُّعورِ بالعودةِ إلى الديار.

‘‘أبلغ أُمِّي أنِّي جئتُ لأراها. سأنتظرُها في اليَريستايْل’’.

فتردَّد، وبَدَتْ على وجهه نِظرةٌ غريبة.

ولدى تردُّده، رفعَتْ ذقنَها بِعَجرفة. ‘‘أسَمِعتَ ما قلتُه لك، يا عَبد؟ افعَل ما قيلَ لكَ!’’

لم يُحرِّك إيوليوس ساكِنًا، وقد أذهلَتْه غَطرسةُ الشابَّةِ وتَبلُّدُ حسِّها. ‘‘والِدَتُكِ مُعتلَّةُ الصِّحَّة، سيِّدتي’’.

فطرفَت عَينا جوليا. ‘‘معتلَّة الصِّحَّة؟ ماذا تعني بقولك هذا؟’’

وتساءَلَ إنْ كانت قد قَلِقَت على أمِّها أم أزعجَها تكديرُ خاطرِها فحسْب. ‘‘إنَّها لا تستطيع أن تتحرَّكَ أو تتكلَّم، سيِّدتي’’.

فألقَتْ جوليا نِظرةً خاطفةً على الدَّرَج، مُتوجِّسةً. ‘‘أُريد أن أراها. الآن!’’

أجاب: ‘‘بالتَّأكيد!’’ مُومئًا لها بأن تصعدَ الدَّرَج كما أرادَتْ. ‘‘إنَّها على الشُّرفة المقابِلة للمِيناء. سأدلُّكِ على الطَّريق، إذا كُنتِ لا تتذكَّرين’’.

وإذ أحسَّت تأنيبًا، حدَّقَت إليه. إنَّها لم تكُن تحتاجُ إلى أيِّ تذكير بالزَّمان الذي مضى عليها منذ آخر مرَّة دخلتْ فيها هذا المنزِل. ‘‘أعرِفُ أين هي الشُّرفة!’’

دخلَتْ جوليا مَهجعَ أُمِّها، فرأتها خارِجًا على الشُّرفة. كانت جالسةً في ضَوء الشمس بقُرب الحاجز الحديديّ. فعبرَتِ الغُرفةَ بسُرعة وخرجَت تحتَ القناطِر، قائلةً: ‘‘أُمَّاه؟ أنا هُنا’’. فلم تلتفِتْ أُمُّها إليها مُرحِّبةً بسرور، بل ظلَّت جالسةً بِلا حَراك. وإذ توتَّرت أعصابُها من عدم الترحيب، دارَتْ

ووقفت أمامَ أمِّها.

حدَّقت جوليا، مَشدوهةً حِيالَ منظرِ والدتها. كيف كان مُمكنًا لأيِّ شخص أن يتغيَّرَ كثيرًا هكذا في غضونِ أسابيعَ قليلةٍ فقط؟ فقد باتَ شعرُها أبيض، وعروقُ يدَيها نافرةٌ. وبدا وجهُها مُتدلِّيًا إلى جهةٍ واحدة، وفمُها مفتوحًا بعضَ الشيء. ورُغمَ ذلك كُلِّه، فقد عُنيَ شخصٌ ما عنايةً عظيمةً بتَمشيط شعرِها وإلباسِها پالُسًا أبيض. لقد بَدَتْ جليلةً على نحوٍ يَدعو إلى الرِّثاء.

غمرَ الخوفُ جوليا. ماذا ستَفعلُ دونَ أُمِّها؟ ونظرَتْ إلى العبدِ سائلةً: ‘‘منذُ مَتَى هي على هذه الحال؟’’

‘‘لقد أصابَتها النَّوبة منذُ ستَّةٍ وأربعين يومًا’’.

‘‘لماذا لم يُبعَثْ إليَّ بخَبَر؟’’

‘‘لقد بعَثْنا بخَبَر، سيِّدتي. مرَّتين’’.

طرفَتْ جوليا بعَينَيها، مُحاولةً أن تتذكَّر متى تسلَّمَتْ رسالةً من عندِ أُمِّها آخرَ مرَّة. أمَا جاء

أحَدُهم ذاتَ مساءٍ منذُ أسابيعَ قليلة؟ وكانت قد صرفَتِ المرسَلَ خالِيَ الوِفاض. لا شكَّ أنَّها كانت سكرانة... ولديها مُسَوِّغٌ مفهومٌ لذلك؛ لأنَّها كانت قد اطَّلعَتْ توًّا على وَضعِها الماليِّ وغَدرِ پريمُس بكامل تفاصيلهما. وبعد أسبوع، جاءَها مُرسَلٌ آخَر، ولكنَّها كانت مريضةً تلك المرَّة وغيرَ قادِرةٍ عاطفيًّا على تَلقِّي أخبارٍ قد تُثيرُ لَدَيها مشاعِرَ حادَّةً بالذَّنْب. ولطالما كانت كالاباه قد قالت دائمًا إنَّ الذَّنْبَ قاهِرٌ للنَّفْس.

"لا أذكُرُ قُدومَ أيِّ مُرسَل".

وعَلِمَ إيوليوس أنَّها كانت تكذب. فالسيِّدة جوليا لم تكُنْ يَومًا كاذبةً بارعة. إذ كان وجهُها يَذوي وعَيناها تنظُرانِ بعيدًا عند التَّفوُّه بالكلمات. وقد شعرَ إيوليوس بالأسَفِ عليها، إذ بَدَتْ مَرعوبةً ومُتَضايِقة. وأرادَ أن يُصدِّقَ أنَّ قلقَها كان على فيبي، إلَّا أنَّه كان شبهَ مُتيقِّن أنَّها كانت قَلِقةً على نفسها. "إنَّها تَعرِف أنَّكِ هنا، سيِّدتي".

"هل تعرِفُ فعلًا؟"

‘‘أنا مُتيقِّنٌ بأنَّها مَسرورةٌ بقُدومك’’.

‘‘مسرورة؟’’ وضحِكَتْ ضِحكةً واهيَة. ‘‘ماذا يُدريك؟’’

لم يُجِب أيوليوس. وتوتَّرَ فمُه. لماذا جاءتِ الفتاة؟ ألم تكُن تكنُّ مشاعِرَ عميقةً نحوَ أُمِّها؟ لقد وقفَت تُحدِّق إليها من عَلُ. أزعجَتْه السِّيماءُ الباديةُ على وجه جوليا ڤاليريان. وفكَّرَ في البهجة التي ستُؤتيه أن يقذفَها عن الشُّرفة إلى الشارع في الأسفل. لكنْ لأنَّه يعرفُ جوليا ڤاليريان، تَيَقَّنَ بأنَّها ستَهبطُ، كقِطَّةٍ، واقِفةً على قدمَيها، ثُمَّ ترسِلُه إلى ساحةِ المحاربين.

ثُمَّ تَقرفَصَ بقُربِ كُرسيِّ فيبي. وقالَ لها بلُطف: ‘‘سيِّدتي، لقد جاءتِ ابنتُكِ جوليا لزيارتك’’. وكان يودُّ من صميم قلبه لو يُبلِّغُها خَبَرًا أحسَن.

تحرَّكت يدُ فيبي قليلًا. وحاولَتْ أن تتكلَّم، إلَّا أنَّ الصَّوتَ الذي خرجَ من بينِ شفتَيها كان أكثرَ بقليلٍ من أنينٍ مُشوَّهٍ عميق. وتلألأت على شفتَيها قطرةُ لُعاب.

فتراجعَت جوليا خائبةً. ‘‘ماذا فعَلتُم لها؟’’

ورفعَ نظرَه فرأى أماراتِ الاشمئزاز على وجه جوليا. فنهضَ، ووقفَ بين الفتاة وأُمِّها. ‘‘كلُّ ما يُمكِنُ أن يُفعَل’’.

‘‘هل تتحسَّنُ حالُها؟’’

‘‘الله وحدَه يعلم’’.

‘‘بمعنى أنَّها لن تتحسَّن’’. وزفرَتْ جوليا نَفَسًا رقيقًا مهزومًا، ثُمَّ أشاحَت بناظرَيها، مُحدِّقةً خارجًا عبرَ المدينة نحوَ الميناء. ‘‘والآن ماذا سأفعل؟’’

وحاوَلَتْ فيبي أن تتكلَّمَ ثانيةً. فأغمضَتْ جوليا عينَيها بإحكام، حانيةً كتِفَيها حيالَ صَوتِ البَربَرة المثير للشَّفقة. وأرادَتْ أن تسدَّ أُذنَيها بيدَيها وتصُدَّ ذلكَ الصَّوتَ كلِّيًّا.

فَهِمَ إيوليوس ما أرادَتْه فيبي.

وقال مُتجهِّمًا: ‘‘سأتركُكِ وحدَكِ معها، سيِّدتي’’.

ثَمَّ خاطبَ جوليا قائلًا: ‘‘سيكونُ لَطفًا منكِ أن تُكلِّميها’’. وغادرَ الشُّرفة.

ظلَّت جوليا تُحدِّق خارجًا عبرَ المدينة، بعينَينِ غمَرتهما الدُّموعُ الآن. لقد طلبَ منها أن تُكلِّمَها. ليسَ أنَّ أُمَّها تستطيعُ أن تفهمَ أيَّ شيءٍ في حالتها. ليس الآن.

‘‘لقد كُنتِ رجائي الأخير، أُمَّاه’’ ثُمَّ التفتَت ونظرَت إليها من فَوقُ بحُزن. ‘‘آه أُمَّاه...’’ وبصرخةٍ رقيقة، جَثَت على رُكبتَيها، ووضعَت رأسها في حضنِ أُمِّها، وبَكَت. وتشبَّثتْ بالكَتَّانِ الناعم في پالُسِ أُمَّها. ‘‘هذا ليسَ إنصافًا! ليسَ إنصافًا كلُّ ما حدثَ لي. ولم يبقَ لي حتَّى شخصٌ واحدٌ ليَهتمَّ بعدُ بالآلامِ التي سأُضطرُّ إلى مُقاساتها. والآن، أنتِ على هذه الحال. أقولُ لكِ إنَّ الآلهةَ ضدِّي’’.

ارتعشَت يدُ فيبي قليلًا، ومسَّتْ أصابعُها شعرَ جوليا مَسًّا رقيقًا.

‘‘آه، أُمَّاه، ماذا سأفعلُ الآن؟ ماذا سأفعل؟’’

وحاولَت أمُّها أن تتكلّم مرَّةً أخرى، إلّا أنّ جوليا لم تستَطعْ تحمُّلَ الأصواتِ المشوَّشة التي لا توصِلُ أيَّ معنى. لقد بَدَت أُمُّها مجنونةً. ثُمَّ رفعَتْ جوليا رأسَها، ورأتِ الدُّموعَ التي جَرَت على خدَّي أُمِّها. فأطلقَتْ زَعقةً، وولَّت هاربةً.

هُرِعَت شِبهَ راكِضَةٍ عبرَ الشُّرفة، ثُمَّ إلى خارجِ الغُرفة. ولـمَّا حاولَ إيوليوس أن يوقفَها، أمرَتْه بأنْ يحِيدَ من أمامها، وهبطَتِ الدَّرجَ مُسرِعةً، ثُمَّ خرجَتْ من بابِ الدَّارة.

هامَتْ على وجهها في شوارع أفسُس. ومع أنَّ الشمسَ كانت مُنيرة، أحسَّتْ ظُلمةً طاغيةً تكتَنفُها. وقد كانت جائعة، إلَّا أنَّها لم تكُن تحملُ مالًا لشِراء خُبز. وكان الظلام قد خيَّمَ لـمَّا وصلَت إلى دارتها. فرحَّبَت بها ديديماس مُتحسِّسةً بالواجب، وأخذَت شالَها. ثُمَّ دخلَتْ جوليا التِّريكلينيوم، واتَّكأت مُنهَكةً على إحدى الأرائك. وكانت الغُرفةُ تنبضُ بالصَّمتِ البارد.

جاء تُروپاس بصِينيَّة، وضعَها أمامها بكياسته المعهودة، وصبَّ لها كأسًا من الپوسكا. ولم تقُلْ

له شيئًا، فغادرَ الغُرفة. فحدَّقت إلى الوجبة التي أعدَّها لها: حمامةٌ مشويَّة صغيرة، رغيفٌ رقيقٌ من الخُبز المحبَّب، ومِشمشة مُجَعَّدة. والتَوى فمُها بابتسامةٍ مُرَّة. كانت في ما مضى تتعشَّى بأفخرِ الأطايِب التي يَسَعُ الإمبراطوريَّة أن تُقدِّمها، والآن هذه كانت وليمتها!

نزعَتِ اللحمَ من الحمامة قطعةً قطعةً، حتَّى بقيَ الهيكلُ العظميُّ الصغير فقط. وإذ غمسَتِ الخُبزَ في الخمر، أكلَته أيضًا. لقد هَوَت بها الأقدارُ إلى أسفل دَرك، بحيثُ بَدَتْ لها وجبةُ الفقير هذه طيِّبةَ المذاق.

كان على الصِّينيَّة سكِّينٌ صغيرة. فالتَقطَتها وعبثَت بها، وأفكارُها مُتَّجهةٌ إلى والد أُوكتاڤيا. ربَّما وجبَ عليها أن تقطعَ شريان يدِها كما فعلَ هو، فتُنهيَ هذا السُّقوطَ البطيءَ المؤلم في الخرابِ الشامل. إنَّها ستَموتُ على كلِّ حال. فالمرضُ المجهول كان يستَنزفُ قوَّتها ببُطء ويلتَهمُها من الداخل. فأنْ تموتَ سريعًا بألَمٍ قليلٍ خيرٌ لها من أن تَبقى على قَيدِ الحياة وتُعاني أوجاعًا مجهولة.

بدأت كَفَّاها تتعرَّقان. وارتعشَتِ اليدُ الممسِكةُ بالسِّكِّين. ووضعَتِ النَّصلَ على الخُطوط الزَّرقاء الممتدَّة تحتَ بَشَرَة مِعصَمِها الشاحبة. فازدادَ ارتعاشُ يَدِها. ‘‘يجب أن أقومَ بالأمر. يجب أن أقومَ به. ليس من سبيلٍ آخر...’’ ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها، محاوِلةً بيأسٍ مُتهوِّر أن تستَجمعَ شجاعتَها لتُنهِيَ حياتَها.

وإذ أطلقَتْ تأوُّهةً خفيفة، انحنَت إلى الأمام، فسقطت السِّكِّين من بين أصابعها، محدِثةً صوتًا على الأرضيَّة الرُّخاميَّة، فتردَّدَتْ أصداءُ الصَّوت خارجًا في الپَريستايْل.

انكمشَت جوليا على الأريكة الطويلة، وغطَّت وجهَها بيَدَيها المرتعشتَين، وشرعَت تبكي.

٢١

وقفَ مَرقُس على السَّطح مع عزرا بارياكين آخِرَ مرَّة. فمع أنَّه لم يكُن قدِ استَعادَ كامِلَ قُوَّته، كما أنَّ جُرحَه لم يكُن قد برئ تمامًا، شعرَ بأنَّه مَدفوعٌ لاستئنافِ بحثِه. وكانَ البارحةَ قد أخبرَ عزرا بأنَّه سيَرحلُ هذا الصباح، طالِبًا تزويدَه بثيابٍ لِسَفرتِه مع وَعدٍ بأن يُعوِّضَ عليه.

فقال عزرا: ''اقبَل هذه هديَّةً''. وقدَّم لمرقُس تُنكًا جديدًا منسوجًا بلا خياطة، يُلامِسُ أسفلُه الكاحِل، وحِزامًا من القماشِ المقلَّم الغنيِّ بالألوان، ورداءً خفيفًا يؤدِّي دورَ العَباءةِ والفراش، وصَندلًا جديدًا.

تأثَّر مَرقُس تأثُّرًا بالِغًا بكَرَم اليهوديِّ ولُطفِه، وباتَ أكثرَ تصميمًا بَعدُ على الاهتمام بأنْ يُكافِئَه جيِّدًا على احتِماله الإزعاج. وكان قد طلبَ من تَفاثا أن تَجدَ له ساعيًا. فأعطى الرجُلَ رسالةً ووعدَه بأن يقبضَ أُجرتَه عند وصوله إلى مقصده. واقتَضى الأمرُ قليلًا من الإقناع، غير أنَّ الساعيَ وافقَ

أخيرًا على الركوب إلى ميناء قَيصريَّة بالأمانة، وعلى الاتِّصال بمَندوبِي مَرقُس. وقد عَلِمَ مَرقُس أنَّهم حالما يقرأون تعليماتِه ويَرَونَ توقيعَه سيُرسِلون ما طلبَه، وأنَّهم سيَفعلون كلَّ شيء كما وُجِّهوا.

نظرَ مَرقُس إلى الرَّجُل الأكبر سنًّا واقفًا بمُحاذاة حائط السَّطح. كان عزرا يَعتمِرُ الطَّلِيسَ مُسدَلًا على رأسه، فعلمَ مَرقُس أنَّه يُصلِّي. وشعرَ بمزيجٍ من التَّمَلمُل والحَسَد. إذ كان عزرا مُنضَبِطًا ودؤوبًا مِثلَما كانت هَدسَّة دائمًا. تُرى، هل يُشارِكُها في المصير نفسِه؟ أيُّ خيرٍ نَجَمَ عن صلواتِه كُلِّها؟ وأيُّ خيرٍ نجمَ أصلًا عن صلواتها؟

ثُمَّ لماذا باتَ عزرا توَّاقًا جدًّا إلى مَعرفةِ أخبار يسوع؟

لقد أدهشَ مَرقُس كيف أصغى عزرا بانتِباهٍ شديدٍ إلى كلِّ معلومةٍ استَطاعَ أن يحكيَها عمَّا قالَتْه هَدسَّة عن الإنسان الذي عبدَته بصفته إلهًا. وأمِلَ مَرقُس أن يُبرِزَ إخبارُه عزرا الحقيقةَ إلى النُّور. فربَّما تيسَّرَ لهذا اليهوديِّ المثقَّف أن يرى

الاستحالات والتَّناقُضات التي انطوَت عليها قصَّةُ ذلك النَّجارِ البسيطِ الذي صارَ ساحِرًا وأعلنَ ذاتَه بصفتهِ ابنَ الإلهِ العَليِّ، والذي زعمَ بعضٌ أنَّه قام حيًّا من بين الأموات.

غير أنَّ أمرًا غريبًا قد حدثَ على السَّطح في غضونِ الأيَّام القليلة الماضية. فقد شَهِدَ مَرقُس تغييرًا في عزرا؛ خفيًّا، يتعذَّرُ وصفُه، لكنْ لا يُنكَر. لم يستطعْ مَرقُس أن يُعبِّر عنه بالكلام، بل شعر به فحسبُ في صَميم كِيانِه. فكأنَّه كان مع شخصٍ آخر مُختلِفٍ تمامًا عن عزرا بارياكينَ الذي وجدَه في الوادي شِبهَ مَيْت.

نظرَ مَرقُس إلى عزرا مُتأمِّلًا إيَّاه. وكان الرجُلُ الأكبرُ سنًّا يُحدِّقُ إلى الشارع ذاهلًا. فابتَغى أن يعلَمَ يقينًا: ‘‘أنت تؤمنُ بأنَّ يسوعَ هو مسيحُكُم، أليسَ كذلك يا شيخ؟’’

فرفعَ عزرا رأسَه ونظرَ إلى السماوات. ‘‘الأمرُ كما تقول’’.

‘‘كما أقول؟ لا تنسبْ إليَّ هذه القصَّة. فأنا لم

أَقُل إنّ يسوع هو مسيحُكُم، أو الله، أو أيُّ شيءٍ آخَر سوى إنسان. لقد قلتُ ما آمَنَتْ هَدسَّة بأنَّه هو''.

''نعم، ولكنْ مع كلِّ كَلِمةٍ قُلتَها تذكَّرتُ ما تنبَّأتْ به الأسفارُ المقدَّسة عنه''. ثُمَّ نظرَ إلى مَرقُس. ''لقد رُجمَ عمِّي بالحِجارة لأنَّه آمنَ بأنَّ يسوع هو المسيح. وفي زيارته الأخيرة سَمِعتُه صِدْفةً يقولُ لأبي ما قالَه يسوع لِلَّذينَ كانوا حَوالَيه: «أنا هو الطريق والحقُّ والحياة. ليس أحَدٌ يأتي إلى الآب إلَّا بي»''.

''يُمكِنُ أن يقولَ ذلكَ أيُّ إنسانٍ حيّ''.

''إنَّما واحِدٌ فقط يُمكِنُه أن يُحقِّقَه. لقد قال أيُّوب، في خِضَمِّ مُعاناتِه: «أيضًا الآنَ هُوَذا في السَّماوات شهيدي، وشاهِدي في الأعالي». فالإنسانُ يحتاجُ إلى مَن يُناصِرُه مُتكلِّمًا لمصلحته أمامَ الرَّبّ. وقد قال أيُّوب أيضًا: «قد عَلِمتُ أنَّ وَلِيّي حيٌّ، والآخِرَ على الأرض يقوم». فالوليُّ هو الفادي الذي ضحَّى بنفسه لأجلِنا. والله وحدَه طاهرٌ وبلا خطيَّة، يا مَرقُس. إنِّي أُومنُ

بأنّ يسوعَ هو الفادي الذي ما زلتُ أنتظرُه طَوالَ حياتي’’.

‘‘فكِّرْ مَنطِقيًّا. لقَدِ انتظرتَ مسيحَك طويلًا جدًّا بحيثُ أردْتَ أن يكونَ يسوعُ هذا ذلكَ المخلِّص. ولكنْ أيَّ وِقفةٍ وقفَ سوى الموتِ على صليبٍ بينَ مُجرِمَين آخرَين؟’’

‘‘لقد قدَّمَ نفسَه بصفته حَمَلَ الفِصح. لقد قُرِّبَ كفَّارةً عن خطيَّةِ البَشَرِ جميعًا’’.

‘‘أتقولُ إنَّه بذلَ حياتَه فصار رمزًا؟’’

‘‘لا، ليس رمزًا، بل هو **الحقُّ**. إنّي أُومنُ بأنَّه حقًّا قامَ حيًّا من الموت. إنِّي أُومنُ بأنَّه هو اللّٰه الابن’’.

هزَّ مَرقُس رأسَه. أكانَ مُمكِنًا أنَّ كلَّ ما قاله لجَعلِ هذا الرجُل يُدرِكُ الضَّلالَ في إيمانِ هَدسَّة لم يؤدِّ إلَّا إلى إقناعه بأنَّ ذلكَ الإيمانَ كان صحيحًا؟ ‘‘لماذا؟ كيف يُمكِنُكَ ذلك؟’’

‘‘لقد قُلتَ لي أُمورًا كثيرةً في غضون الأيَّام القليلة الماضية، يا مَرقُس. أحداثًا أتذكَّرُها منذُ

حداثتي. لقد كنتُ وَلَدًا صغيرًا لـمَّا دخلَ يسوعُ مدينةَ القُدس ثُمَّ صُلِب. وقد قِيلَ كلامٌ، وأنا سَمِعتُه عَرَضًا. أضِف إلى ذلك أنّي ما زلتُ أقرأُ الأسفارَ المقدَّسة وأنسخُها مذ كنتُ صبيًّا. فهذه مِهنَتي. وقد ثبَّتَ ما في قلبي شهادَتُك وكَلمةُ الله وما تذكَّرتُه من ذلك الزَّمان. إنَّ يسوعَ **هو** الطريقُ إلى اللهِ القدير. وفيهِ وحدَه سأجِدُ ما كنتُ أتوقُ إليه طَوالَ حياتي".

"وما ذلك؟"

"عَلاقةٌ شخصيَّةٌ بالرَّبّ".

"خُذ حِذرَك ممَّا ترغبُ فيه، يا شَيخ. إنَّ يسوعَ هو الطريقُ إلى الموت. صدِّقني. أنا أعلَم. إنَّه سيَطلبُ حياتَك".

"فليأخُذْها!"

أشاحَ مَرقُس بناظرَيه مُنزعجًا. ماذا فعلَ بعزرا؟ ما كان ينبغي أن يتكلَّمَ قَطُّ. وحاوَلَ أن يصدَّ ذكرى هَدسَّة واقِفةً وسطَ ساحةِ المحاربين. "أرجو ألَّا

يُثبِتَ ما بتَّ تؤمنُ به أنَّه سببُ موتِك!’’

‘‘لماذا تُقَسّي قلبَكَ ضدَّ الله، يا مَرقُس ڤاليريان؟ مَن تعتقدُ أنَّه هَداني إليك على ذلك الطريق من مدينةِ القُدس؟’’

أطلَقَ مَرقُس ضِحكةً عابِرة. ‘‘الطيور الجارحة هي التي هَدَتكَ إليَّ. أتتذكَّر؟’’ ولاحَظَ أنَّ عزرا أوشَكَ على قَول المزيد، فرفعَ يدَه. ‘‘ولكنْ لا نتجادَلْ بشأنِ شيءٍ لا يُمكِنُنا البتَّة أن نتَّفقَ عليه’’. إنَّه لم يُرِدْ أن يَنتهيَ حديثُه الأخيرُ مع عزرا بغَضَب. ‘‘حانَ وقتُ رحيلي. أُريدُ أن أمشيَ أطوَلَ مَسافةٍ مُمكنةٍ قبل هُبوطِ اللَّيل’’.

‘‘فليكُن كذلك’’.

هبطَ عزرا الدَّرَجَ، ثُمَّ خرجَ من البيتِ مع مَرقُس. ورافقَه طولَ الطريق حتَّى أبواب المدينة. ثُمَّ باركَه. ‘‘ليُضِىءِ الرَّبُّ بوجهِهِ عليك ويُعطِكَ سلامًا، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان!’’

فكشَّرَ مَرقُس حيالَ البَرَكة. ‘‘عليَّ أن أشكُرَك

من أجلِ الكثير، يا عزرا بارياكين، وأخشَى أن يُسبِّب لكَ ما أعطيتُك إيَّاه ضرَرًا كبيرًا’’. ومدَّ يَدَه.

فتشبَّثَ عزرا بذِراعِه. ‘‘لقد أعطيتَني عطيَّةً تفوقُ كُلَّ ثَمَن’’.

والتَوى فَمُ مَرقُس بابتسامةٍ ساخِرة. ‘‘أنت رجُلٌ صالح... بالنِّسبةِ إلى يهوديّ’’.

وإذ عَلمَ عزرا يقينًا أنَّ مَرقُس لم يقصِدْ أيَّةَ إهانة، ضَحِك. وردَّ على القول بمثله: ‘‘عسى أن تتغلَّبَ ذاتَ يومٍ على دَمِكَ الرومانيّ!’’

نزلَت هذه الكلماتُ العابرة على مَرقُس نُزولَ الصاعقة. لأنَّها دونَ تَعمُّدٍ استَحضرَت إلى ذهنه صُورةً لَه وهو يضحكُ ويهتفُ فيما كان رجالٌ ونساءٌ يموتونَ لا لِسَبَبٍ سوى تَسليةِ الرَّعاع.

ولاحَظَ عزرا اغتِمامَه، ففَهِم. ‘‘إنَّ هَدسَّتَكَ حيَّةٌ، يا مَرقُس’’.

فسحبَ مَرقُس يَدَه قائلًا بوضُوحٍ صريح: ‘‘إنَّها مَيْتة! لقد رأيتُها تموتُ في مُدرَّجٍ رومانيّ’’.

‘‘إنّ الحياةَ هي أكثرُ بكثيرٍ جدًّا ممَّا تراه بعَينَيك. إنَّ هَدسَّتَكَ عندَ اللهِ، واللهُ سَرمديّ’’.

فقبضَ الألَمُ قلبَ مَرقُس: ‘‘يا لَيتَني أستطيعُ أن أُصدِّق هذا!’’

‘‘عسى أن تُصدِّقَه، في وقتِ اللهِ’’.

فقال مَرقُس: ‘‘عسى أن يَحمِيَكَ إلهُك’’. ثُمَّ ابتسمَ قليلًا. ‘‘ويُدبِّرَ رجُلًا صالحًا قويًّا لأجل تَفاثا’’.

وقفَ عزرا عندَ البوَّابة، وراقبَ مَرقُس يسيرُ في الطريق. وقد غمرَتْه شَفَقةٌ شديدةٌ على الرُّومانيِّ الشَّابّ، وتساءلَ عمَّا سيَحدُثُ له. وإذ دارَ نحوَ البيت، صلَّى طالبًا أن يُقيمَ اللهُ سِياجَ حِمايةٍ حولَ مَرقُس في أثناء سَفره.

رفعَت يهوشبَع نظرَها عن عَمَلِها إذ دخلَ عزرا البيت. ‘‘أمَا وقد رحلَ الآن، يُمكِنُ أن يَرجعَ كلُّ شيءٍ إلى الحالَةِ السويَّة’’.

فقال عزرا: ‘‘لن يكونَ أيُّ شيءٍ كما كانَ مرَّةً

آخرى‘‘.

‘‘لقد مشى بَرثولَماوُس معَ تَفاثا من البئر إلى البيتِ عصرَ أمسِ. وقال إنَّها لم تَكَد تُكلِّمُه‘‘. ثُمَّ زمَّت شفتَيها معًا. ‘‘إنَّها لم تلقَ قطُّ أيَّةَ صعوبة في العُثور على كلماتٍ مع ذلك الرُّومانيِّ الذي جئتَ به إلى بيتِنا‘‘.

‘‘ستحظَى بالرَّجُلِ الذي يُريدُه الله لها‘‘.

فأرخَتِ الثَّوبَ الذي كانت تُصلحُه على حِضنها، ورفعَتْ نظرَها إليه. ‘‘ومَن سَيكونُ ذاك؟‘‘

فقال: ‘‘أنتِ تقلقينَ فوقَ الحدِّ، يا امرأة‘‘. وغرفَ ماءً بكُوبٍ فَخَّاريّ.

‘‘كُنتَ في ما مضى تقلَقُ على تَفاثا أكثرَ من قَلَقي عليها‘‘. وخفقَتْ عَيناها بارتياب. ‘‘ماذا حدثَ لك في غضونِ الأيَّام القليلة الماضية؟‘‘

فقال: ‘‘أُمورٌ عجيبة‘‘، وشَرب.

فعبَّسَت مُنزَعِجةً: ‘‘أيُّ أُمورٍ **عجيبة**؟‘‘

وحطّ الكَوب. عمَّا قريبٍ سيُخبِرُها، ولكنْ ليس الآن. ‘‘يُعوِزُني وقتٌ لتَصنيفِ ما تعلَّمتُه تمامًا قبلَ أن أتمكَّن من الشَّرح بطريقةٍ تفهمينَها’’.

‘‘أأنا غبيَّةٌ إلى هذا الحدّ؟ قُل لي، يا عزرا. بينَما تُصنِّفُ مهما يكُنْ ما تعلَّمتَه، هل تَنوي أن تشتغِلَ في سقيفَتِك من جديد؟’’

لم يُجِب عزرا، بل وقفَ في الباب المفتوح وألقى نظرَه على الشارع. وقد كانت تَفاثا آتيةً من السُّوق، مُوازِنةً سلَّةً على رأسِها. وكان بَرثولَماوُس يمشي إلى جنبِها. وهو كان شابًّا صالحًا ومُثابِرًا.

لم يكُن عزرا قد أخبرَ ابنتَه بأنَّ مَرقُس سيُغادِرُ هذا الصَّباح. لقدِ افترضَ أنَّ ذلكَ هو سبيلُ الجَبانِ في التَّملُّص. فإنَّ مشاعرَها تُجاهَ مَرقُس باتَتْ ظاهرةً أكثرَ فأكثر كلَّ يوم. وقد لُوحِظَ أيضًا انجِذابُ مَرقُس ڤاليريان إليها. فكانَ من حُسنِ تصرُّفِ الشابّ أنَّه رحلَ في الوقت المناسب. وقد كان من شأنِ رجُلٍ أدنى أن ينتهِزَ افتِتانَ فتاةٍ جميلة.

ولكنْ ما عساهُ أن يفعلَ الآن؟

أقبلَت يهوشبَع فوقفَتْ بجانبه، وقالَت بمَرارة: ‘‘هل تَرى كيف تتجنَّبه؟’’ ولكنْ لـمَّا رفعَتْ رأسَها ونظرَت إلى عزرا، رأى الغَمَّ في سِيمائها. ‘‘ماذا ستقولُ لها؟’’

‘‘سأُخبِرُها بأنَّ مَرقُس ڤاليريان قد رحل’’.

فأشاحَت بناظِرَيها، قائلةً: ‘‘ونِعمَ الرَّحيل! كانَ أفضلَ جدًّا لو أنَّه رحلَ أبكرَ’’. ثُمَّ جلسَت، وأمسكَتِ الثَّوبَ الباليَ من جديد.

تمهَّلَتْ تَفاثا وتكلَّمت بإيجازٍ مع بَرثولَماوُس. واستَدارَت نحوَ البيتِ ثانيةً، فوقفَ بَرثولَماوُس يُراقبُها تجتازُ آخرَ جُزءٍ من المسافة. وإذ بدا مُكتَئِبًا بوُضوح، دارَ مُبتعِدًا واستأنَفَ السَّيرَ في الشارع.

ولـمَّا قطعَتْ آخِرَ جُزءٍ من الطريق، صاحَت بمَرَح: ‘‘صباحُ الخير، أبي’’. ثُمَّ أنزلَتِ السلَّةَ عن رأسِها، وقبَّلَتْ خدَّ أبيها، ودخلَتِ البيت.

أبقَتْ يَهوشبَع عينَيها على عملها، وسألت:

‘‘كيفَ حالُ بَرثولَماوُس؟’’

‘‘هو بخَير، أُمَّاه’’.

فتَمتَمتْ هامسةً: ‘‘وكذلكَ الآخرون’’.

أخذَتْ تَفاثا الفاكهة من السلَّة، ووضعَتْها في قَصعةِ الفَخَّارِ على الطَّاولة. ‘‘قالَ إنَّ أُمَّه مُنهمِكةٌ بإعدادِ **هَمَنتاشين** الخَوخ لأجل **مِشلُوَح مانوت** هذا العام’’.

فقالَت يَهوشِبَع باكتئاب: ‘‘أنا لم أُباشِرْ بعدُ إعداداتي لأجلِ الفُوريم. لقد أعاقَتْني أُمورٌ أُخرى’’. وتَرَجرجَت حملقتُها باتِّهامٍ على زَوجِها.

‘‘سأُساعِدُك، أُمِّي. لَدَينا فائضٌ من الوقت لإعداد الهدايا للفُقراء وصُرَرِ الطَّعام لأصدقائنا’’. ثُمَّ انتقَتْ مِشمِشتَين مُمتازتَين وتوجَّهت نحوَ الدَّرَج المؤدِّي إلى السَّطح.

قال عزرا: ‘‘لقد رحل’’.

فتوقَّفت تَفاثا ودارَتْ. وحدَّقت إليه مُرتاعةً. ثُمَّ

قالَت، طارفةً بعينَيها: "غيرُ معقول! لم تبرأ جراحُه تمامًا بَعد".

وتمتَمت يَهوشِبَع: "لقد برئت كِفايةً".

"رحلَ هذا الصباح، يا تَفاثا".

صَعِدَت دَرَجَ السَّطح ركضًا. ولـمَّا نزلَت من جديد، خُيِّلَ إلى عزرا أنَّها ستركضُ وراءَ مَرقُس. حتَّى إنَّها خَطَت بِضعَ خطواتٍ نحو الباب، ثُمَّ توقَّفَت. وارتَخى كَتِفاها، وارتَمت على أحَد الكراسيّ، مُطلِقةً صرخةً خفيفة. واغرورقَتْ عَيناها. "إنَّه لم يودِّعْني مُجرَّدَ وَداع!"

تشبَّثَت يهوشِبَع بالثَّوب البالي بيدَيها، وتأمَّلَتِ ابنتَها. ورفعَتْ نظرَها إلى عزرا، مُتوسِّلةً إليه.

فتَساءل: لِفَعلِ أيِّ شيء؟

وقالت تَفاثا مُرتَعدةً، والدُّموعُ تسيلُ على خَدَّيها. "لقد قال إنَّه سيَرحَل. وقال إنَّه من الأفضل أن يرحل".

فقالت أمُّها باكتئاب: ‘‘مؤسفٌ أنَّه لم يرحَل أبكَر’’.

‘‘كنتُ أرجو لو يمكثُ إلى الأبد’’.

‘‘لأيِّ غاية؟’’

‘‘لستُ أدري، أُمِّي. كنتُ أرجو ذلك’’.

‘‘تَرجين ماذا، تَفاثا؟ أن يُوافِقَ رُومانيٌّ على أن يُختَن؟ أن يصيرَ رومانيٌّ يهوديًّا؟ عليك أن تُفكِّري، يا ابنَتي’’.

هزَّت تَفاثا رأسَها وأشاحَت بِناظِرَيها، شاحِبةَ الوجه بؤسًا. وأوشَكَتْ يَهوشِبَع أن تقولَ المزيد، إلَّا أنَّ عزرا هزَّ رأسَه، مُسكِتًا إيَّاها قبل التفوُّهِ بشيء. وإذ نظرَت إليه، كانت عَيناها مُغرَورِقتَين دَمعًا واتِّهامًا. فعَلِمَ ما كانت تُفكِّرُ فيه. لقد كانت غلطتَه أنَّ تَفاثا أُغرِمَت بأُمَميّ. وكانت غلطتَه أنَّها باتَتْ تُعاني. فلم يكُن ينبغي أن يأتيَ بمَرقُس ڤاليريان إلى بيتِهم.

ولكنْ لو لم يفعَلْ ذلك، لَربَّما لم يُقبِلْ قَطُّ إلى معرفةِ الحقّ.

وإذ لم تكُن لَدَى عزرا آيَّةُ كَلِمات لإنقاذ ابنته من ألَمِها، ظلَّ صامتًا. وبعدَ لحظات، قامَت تَفاثا وفرَّت إلى السَّطح.

فقالَت يَهوشِبَع مُتَّهِمةً- وخدَّاها شاحِبان وتنسابُ عليهما الدُّموع- ''ألم يكُن في وُسعِكَ أن تقولَ شيئًا ما؟''

''إنْ قلتُ أيَّ شيء، فإنَّه ما كان إلَّا ليَزيدَ من أذاها''.

ألقَتْ يهوشِبَع الثَّوبَ الذي كانت تَخيطُه في سلَّةٍ وقامت. ''إذًا أنا سوف...''

''لا، لن تفعلي. اقعُدي، يا امرأة، ودَعِيها وشأنَها''.

فقعدَت يَهوشِبَع مَشدوهةً.

أدَّتْ تَفاثا واجباتِها على مدى الأيَّام القليلة التالية. وقلَّما تكلَّمَت. وذهبَت يَهوشِبَع إلى السُّوق، وزارَت نِساءً أُخريات. ورجعَ عزرا إلى رُقوقه وحبره وأقلامِه. وقد شعرَ بقَلَقٍ وتَوق،

وأمضى أوقاتًا طويلةً على السَّطح في أثناء ساعاتِ المساء، مُصلِّيًا لأجلِ الإرشاد.

لقد كان ينتظرُ، ولكنَّه لم يعلَم ماذا.

ثُمَّ جاءَ مُحامٍ رومانيٌّ من ساحلِ قيصريَّة بعدَ رحيلِ مَرقُس بسبعةِ أيَّام. كان الرَّجُل يرتَدي لِباسًا فاخِرًا، وقد رافقَه ثمانيةُ حُرَّاسٍ مُسَلَّحين جيِّدًا. وبكياسةٍ فائقة، سلَّم عزرا رسالةً، وأومأ إلى حارسَين أن يَضَعا على الطاولة صُندوقًا حديديًّا مُقفَلًا.

فضَّ عزرا بارتباكٍ خَتْمَ الشَّمع، وبَسَطَ الدَّرْج. لقد نصَّتِ الرسالةُ على أنَّ لحامِلِها، عزرا بارياكين، أن يُبحِرَ في أيِّ وقتٍ إلى أيِّ مقصدٍ على مَتنِ أيَّة سفينة يملِكُها مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان. ومن حقِّه أن يحظى بأفضلِ وسائل الراحة ويُعامَلَ بأقصى الاحترام والإكرام.

فقال عزرا مصعوقًا: ‘‘كيف يُمكنُ أن يكونَ هذا؟ مَن هو حتَّى يستطيعَ أن يقول هذه الأُمور؟’’

وضَحِكَ المحامي. ‘‘ألم تَدرِ مَن كان تحتَ سقفِك، يا يهوديُّ؟ إنَّ مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان يستطيعُ أن يفعلَ أيَّ أمرٍ يشاء. فهو مُواطِنٌ رومانيٌّ وواحِدٌ من أغنى التُّجَّار في الإمبراطوريَّة. وهو يملكُ مراكزَ تجاريَّةً في روما وأفسُس وقيصريَّة والإسكندريَّة. وسُفُنُه تُبحِرُ حتَّى ترشيش وبريطانيا’’.

جلسَت يَهوشِبَع مُتثاقِلةً على كُرسيِّها، فاغِرةً فَمَها.

وفتحَ المحامي الصُّندوقَ الحديديَّ، كاشِفًا مُحتَوياته. وحرَّك يدَه حركةً تفخيميَّة قائلًا: ‘‘هذا لك!’’ وقد كان الصُّندوق ملآنًا بالأوريوسات الذهبيَّة.

فتراجعَ عزرا عنه مَصدومًا.

وقالَ المحامي باستعلاء: ‘‘يا له من فَرقٍ بين الرُّومانيِّ واليهوديِّ!’’ مُجيلًا نِظرةَ ازدراء على الغُرفة البَسيطةِ الأثاث.

وما إنْ أنجزَ المحامي مَهمَّته، حتَّى مشى خارجًا من البيت، وتَبِعَه الجنود.

نظرَ عزرا إلى داخل الصُّندوق مرَّةً أُخرى. وبينَما كان غير قادرٍ على تصديقِ ما تَراه عَيناه، التَقطَ حَفنةً من النُّقودِ الذهبيَّة وقَدَّر وزنها بِيَدِه.

ونهضَت يَهوشِبَع مُرتجِفةً. ثُمَّ حدَّقَت إلى داخلِ الصُّندوق الحديديِّ وتشبَّثت بِكُمِّ عزرا. "ها هُنا ما يكفي لنعيشَ مُتَرفِّهين طوالَ ما بَقِيَ من عُمرِنا! في وُسعِنا أن نشتريَ بيتًا أكبر. في وُسعِنا أن نقتَنيَ خُدَّامًا. في وُسعِكَ أن تجلسَ عندَ أبوابِ المدينة بين المشايخ. لن يستطيعَ أخوك أمْني أبدًا أن ينظرَ إليكَ بازدراءٍ مرَّةً أُخرى!"

ووقفَت تَفاثا صامتةً، شاخِصةً بعَينَيها الواسِعتَين الداكِنتَين إلى أبيها.

قال عزرا: "لا! إنَّ لدى الله قصدًا آخر لهذا المال".

"أيُّ قصد؟ لقد باركَكَ من أجلِ بِرِّك. لقد أعطاك ثَروةً كي تتمتَّعَ بها".

فهزَّ عزرا رأسه، وقال ثانيةً: ‘‘لا!’’ مُسقِطَا النُّقودَ في الصُّندوقِ مُجدَّدًا. وأضاف: ‘‘هذا المالُ لأجل عملِه’’.

‘‘هل جُنِنتَ؟ أمَا استَمعتَ إلى الفَرّيسيِّين؟ إنَّ الله **يكافئُ** البارَّ’’.

فقالَت تَفاثا برِقَّة: ‘‘ليس من بارٍّ، يا أُمَّاه. ولا واحد. الربُّ نفسُه هو وحدَه البارّ’’.

فابتسم عزرا لها، وقد كبرَ قلبُه إزاء كلماتها. وأومأ برأسه، بارِقَ العَينَين. إنَّها ستَفهمُ وتؤمنُ عندما يُبلِّغُها البشارة. ‘‘سننتظرُ الرَّبّ’’.

‘‘نَعَم، يا أبي. سننتظِرُ الرَّبّ’’.

ثُمَّ أطبقَ عزرا غِطاءَ الصُّندوقِ الحديديِّ وأقفلَه.

٢٢

سارَ مَرقُس نحوَ الشَّمال، وضِفافُ نَهرِ الأُردُنِّ على مرأى منه. واجتازَ في أرخيلايِس وعَينُون وساليم، ثُمَّ مشى نحوَ الشَّمال الغربيِّ باتِّجاه الرِّيفِ الجَبَليّ. وكان في كُلِّ قرية يتمهَّلُ ليسألَ أيَّ شخصٍ يَقبلُ أن يُكلِّمَه إنْ كان يتذكَّرُ فتاةً اسمُها هَدَسَّة ذهبَت مع عائلتها إلى مدينة القُدس ولم ترجعْ بعدَ خَرابِ المدينة. فلَم يكُن أحَدٌ قد سَمعَ بها قطّ.

وقد غادرَ مُتسائلًا إنْ كان الذين تكلَّم إليهم قد قالوا له الحقيقة. وكثيرًا ما كان السُّلوكُ اللَّبقُ الذي لَقيَه أوَّلًا يتغيَّرُ فورًا إلى احتِراسٍ وعِداء. فقد كانت لهجتُه مُميَّزة. واستَطاعَ أن يلحَظَ التغييرَ حاصِلًا في عُيونِ الناس، فعَلمَ ما كانوا يُفكِّرون فيه. لماذا يعمِدُ رومانيٌّ إلى ارتداءِ لباسٍ يهوديٍّ إلّا إذا كانت لَدَيه مَكيدةٌ خفيَّةٌ للإيقاع بهم بواسطةِ كلامهم؟

بعدَ أيَّامٍ من التَّجوال، دخلَ قريةً صغيرةً اسمُها

نايين في جبالِ منطقة الجليل. فتوقّف في السُّوق واشتَرى خُبزًا وخمرًا. وكما سبقَ أن حَدَث، حَسِبَه البائعُ يهوديًّا حتَّى تكلَّمَ فعُرِفَت لهجتُه. غير أنَّ البائعَ هذه المرَّةَ كان فظًّا، لا مُتخوِّفًا، وصريحًا لا مُنطويًا.

فإنَّه قال- وأمارات الدَّهشةِ والفُضول بادِيةٌ عليه - ‘‘لماذا ترتدي لِباسَ يهوديّ؟’’

فأخبرَه مَرقُس أنَّه تعرَّضَ للسَّرِقة على طريقِ أريحا وأنَّ عزرا بارياكين أنقذَه. ‘‘هذه الثِّياب هديَّةٌ منه. وأنا أرتَديها بفَخر’’.

أومأ البائعُ برأسه، قانعًا بالأجوبة على ما يَظهَر، ولكنْ بفُضولٍ غير مُشبَع بعدُ. ‘‘ما الذي تفعَلُه هنا في جبال الجليل؟’’

‘‘أبحثُ عن منزل فتاةٍ اسمُها هَدسَّة’’.

‘‘هَدسَّة؟’’

‘‘أسَمِعتَ بالاسم قبلًا؟’’

‘‘ربَّما نعم. وربَّما لا. فإنّ هَدسَّة اسمٌ شائعٌ إلى حدٍّ ما بين الفَتَيات اليهوديَّات’’.

ولم يقنَعْ مَرقُس بالجواب، فوصفَها بقَدرِ ما يتذكَّرُ من تفاصيل.

فهزَّ البائعُ كتِفَيه. ‘‘شَعرٌ داكن، عينان بُنِّيَّتان غامِقتان، بنيةٌ نحيلة. إنَّ وصفَكَ هذا يُناسِبُ أيَّة واحدةٍ من مئة فتاة. أكانَ فيها شيءٌ لافتٌ للنَّظر؟’’

‘‘هيَ كانت لافتةً للنَّظر’’. وكانت عَجوزٌ واقِفةً في ظِلِّ الكُشك. فخمَّنَ مَرقُس أنَّها كانت تستَرقُ السَّمْعَ إلى حديثه مع البائع. ولاحَ له في سِيمائها شيءٌ جعلَه يُوجِّه سؤالَه التاليَ إليها. ‘‘هل تعرفين فتاةً اسمُها هَدسَّة؟’’

فقالَتِ العَجوز: ‘‘الأمرُ كما يقولُ نَحشون. هُنالكَ هَدَسَّاتٌ كثيرات’’.

وإذِ اغتمَّ مَرقُس وأوشَك على المُضيِّ مُبتعِدًا، تكلَّمَتِ العجوزُ ثانيةً. ‘‘هل كان أبوها فخَّاريًّا؟’’

فتجهَّمَ، مُحاوِلًا أنه يتذكّر، ثَمَّ نظرَ إليها من جديد. ‘‘رُبَّما. لستُ على يقين’’.

‘‘كان يسكُنُ هنا فخَّاريٌّ، اسمُه حنانيَّا. وقد تزوَّجَ بعدَما تقدَّمَ في السِّنّ. كان اسمُ زوجته رِفقة. وقد ولدَت له ثلاثةَ أولاد، ابنًا وابنتَين. كان اسمُ إحدى الفتاتَين هَدسَّة. أمَّا الأُخرى فكانت لَيئة. وكان الصَّبيُّ يُدعى مَرقُس. وقد ذهبوا إلى مدينة القُدس ولم يرجعوا قَطّ’’.

فبدا البائعُ ضيِّقَ الصَّدر حِيالَها. ‘‘إنَّ هَدسَّة التي تتكلَّمين بشأنها ربَّما لا تكون هي إيَّاها’’.

وقال مَرقُس: ‘‘ادَّعَت هَدسَّة أنَّ أباها أقامَه يسوعُ الناصريُّ من بين الأموات’’.

فرمقَهُ البائع بنِظرةٍ ثاقِبة. ‘‘لماذا لم تقُل هذا من البداية؟’’

‘‘إذًا، أنتِ تعرفينَها’’.

فقالَت العجوز: ‘‘إنَّ هَدسَّة التي تبحَثُ عنها هي هذه بعَينها. ما زال البيتُ الذي سكنَتْ فيه

عائلتُها مُغلَقًا تمامًا منذُ ذهابِهم إلى مدينة القُدسِ للاحتِفالِ بالفِصح. وقد سمعْنا أنَّهم كُلَّهم ماتوا هُناك".

"لقد بَقِيَت هَدسَّة حيَّة".

فهزَّتِ العجوزُ رأسَها انشِداهًا، وقالَت بوَقار: "قضاءٌ وقَدَر".

وقال البائع: "لقد كانت فتاةً مكسورةَ الفؤاد. ومن شأنِ المرء أن يظنَّ أنَّ الذين ينجون همُ الأقوياء، لا الضُّعفاء".

أرخَتِ العَجوزُ ثِقلَها على عُكَّازِها، وتأمَّلت مَرقُسَ من كَثَب. "أينَ هَدسَّة الآن؟"

أشاحَ مَرقُس بناظرَيه. "أين كانت تسكُن؟" وقُوبِلَ سؤالُه بصَمتٍ طويل. فنظرَ إلى العجوز مُجدَّدًا، وقالَ بأسًى: "يجبُ أن أعلَم".

فتأمَّلَتْه المرأة، ولانَ وجهُها المجعَّد. "إنَّ بيتَ حنانيَّا هو في ذلك الشارع، على الجانبِ الشَّرقيّ، الرابعُ من الآخِر".

ودارَ مَرقُس ليَمضي.

فقالَت العجوزُ بلُطف: ‘‘يا رومانيٌّ لن تَجِدَ أحَدًا هناك’’.

عثرَ مَرقُس على المنزِلِ بسُهولة، فأذهلَه صِغَرُه البالغ. وكان البابُ متروكًا دون إقفال، فصرَّ لـمَّا فتحَه بدفعةٍ واحِدة. وإذ تقدَّمَ إلى الداخل المظلِم، عَلِقَت به خُيوطُ عناكِب. فأزاحَها جانبًا. وفاحَت من المكان تلك الرائحةُ الجافَّةُ الناتجةُ من عدمِ الاستعمال ومن الهَجر.

أجالَ نظرَه في أنحاء الغُرفة الرئيسيَّة الصغيرة. لم يكُن في هذا البيت دَرَجٌ يؤدِّي إلى السَّطح، بل مُجرَّدُ بابٍ في الخلف ينفتح إلى حُجرة نوم، حيثُ كانت مِصطَبةٌ للنَّوم مُبيَّتةً في الجِدارِ الطِّينيّ.

عبرَ مَرقُس الغُرفة، ورفعَ المزلاجَ الصغيرَ عن أخشابِ النَّوافذ ودفعَها فانفتحَت. فتدفَّقَ نورُ الشَّمس، تُصاحِبُه هَبَّةُ هواءٍ ساخِن جعلَت هَباءَ الغُبار يتراقَصُ في مجرى النُّور. وإذ تراجَعَ مَرقُس

والتَفَتَ، رأى أشعَّةَ الشَّمس مُتراميةً على دولابِ فخَّاريّ، فتوجَّه إليه وأدارَه. فتحرَّكَ الدُّولابُ بصعوبة، مُحتجًّا على سِنينَ من عدم الاستعمال.

تركَ مَرقُس الدُّولاب، ومرَّرَ يدَه على الطَّاولة المغَبَّرة غير المصقولةِ الخَشَب. وقعدَ على واحدٍ من الكراسيّ الخمسة، ونظرَ إلى أنحاء الغُرفة على مهل. كان بقُربِ الباب الأماميّ نيرٌ ودَلْوا ماء. وغيرَ ذلك، كان هناك قليلٌ من الأباريق والقصعات الفخَّاريَّة، وقليلٌ جدًّا سوى ذلك. لكنْ ما كان هناك شيءٌ ذو قيمة.

أغمضَ عينَيه، وشهقَ الهواءَ حتَّى الأعماق، باسطًا يدَيه على سطح الطَّاولةِ الخَشِن. لقد نشأَتْ هَدسَّة في هذا البيت. ونامَت في هذه الغُرفة، وأكلَت إلى هذه الطَّاولة. فانتشرَتْ أصابِعُه على السَّطح المحَبَّبِ كالرَّمل، مُفكِّرًا في أنَّ يَدَيها قد لمستاه. لقد أرادَ أن يلتقطَ روحَها، أن يكونَ بِلزقها!

ولكنْ، بدلًا من ذلك، غمرَه الخوف.

لم يعُد قادرًا على تذكّر تفاصيلِ وجهِها بَعد.

وحاولَ مُستَميتًا أن يقبضَ على ذِكرَياته عنها، إلّا أنَّها كانت آخِذةً في التَّلاشي، مُشَوِّشةً صورتَها في ذهنه. فغطَّى وجهَه وحاوَلَ أن يتذكَّر، كي يجمَعَ ملامحَها معًا. وكان كلُّ ما استَطاعَ أن يراه الآنَ فتاةً بِلا وجهٍ جاثيةً على ركبتَيها في حديقةِ دارةِ أبيه، ويداها مرفوعتانِ نحوَ السماوات والله.

فأنَّ قائلًا ''لا!'' غارزًا أصابعَه في شعرِه ومُمسِكًا برأسِه. ''لا تأخُذ منّي أيَّ قليلٍ بَقِيَ لي منها!'' ولكنْ مهما تضرَّع وحاولَ جاهدًا، عَلمَ أنَّها كانت تنسَلُّ مُبتعِدةً عنه.

نظرَ مَرقُس حَوالَيه، مُرهَقًا ومُحبَطًا. لقد جاء من مكانٍ بعيدٍ جدًّا. ولِأجلِ ماذا؟ أَلِأجلِ هذا؟ فأغمضَ عينَيه وألقى رأسَه على ذِراعَيه.

٢٣

دخلَت ديديماس المهجع وخرجَت إلى الشُّرفة الصغيرة، حيثُ كانت جوليا جالسةً وعلى جَبهتِها خِرقَةٌ باردة.

فانزعجَت جوليا من حضور العبدة الشابَّة، وقالت: "ما الأمر؟"

"جاء رجُلٌ إلى هُنا كي يَراكِ، سيِّدتي".

وثبَ قلبُ جوليا وثبةً صغيرة. هل عادَ مَرقُس؟ لعلَّه أخيرًا عادَ إلى رُشدِه وقرَّرَ أنْ ليسَ لأحدِهما إلَّا الآخر. ومع أنَّها علمَت أنَّ هذا الاحتمال غيرُ وارِد؛ وعلِمَت أنَّه يجب عليها ألَّا تأمَل، فقد شعرَت بالأمل على كلِّ حال. وقدِ ارتجفَت أصابِعُها إذ واصلَتْ ضغطَ الخِرقَةِ الباردة على جبينِها النابِض. وخافَت أن تكشفَ وجهَها لِحَملقةِ ديديماس. فلا شكَّ أنَّ ديديماس ستَستمتعُ سِرًّا بكفاحِها، بل أيضًا بألَمِها على نحوٍ أقوى.

قالت جوليا بِلامُبالاةٍ مُزيَّفة: "مَن يكون؟" ولم

يكُن قد زارَها أحَدٌ على مدى أسابيع. فمَن مِن أصدِقائها المفترَضِين سيأتي لرؤيتها في حالتها الرَّاهِنة؟

"اسمُه پروميثيوس، سيِّدتي".

فقالت بانشِداه: " پروميثيوس؟" وقد هبطَ قلبُها إذ غمرَتها مَوجةٌ منَ الخَيبة كالماء البارد. وسألَت بانزعاج: "مَن يكونُ پروميثيوس هذا؟" لقد كان الاسمُ مألوفًا، ولكنَّها لم تَستَطعْ أن تُميِّز صاحِبَه.

"قال إنَّه عَبدٌ في هذا البيت، سيِّدتي. وقد سألَ أوَّلًا عن پريمُس. فلَّما قُلتُ إنَّ السَّيِّدَ لم يَعُد مَوجودًا في أفسُس، طلبَ أن يُكلِّمَكِ".

وبصَدمة، تذكَّرَت جُوليا مَن هو. " پروميثيوس!" مأبون پريمُس! ما الذي يفعلُه هنا؟ لقد هربَ منذُ نَحوِ أربعِ سِنين. فلماذا يعودُ الآن؟ لو كانَ پريمُس هنا، لكانَ إمَّا قتلَه فَورًا، وإمَّا- على الأرجَحِ جدًّا- عانى مُجدَّدًا من جرَّاء أهوائه الشاذَّة تُجاهَه. فماذا يُفترَضُ أن تفعلَهيَ بهِ الآن؟

وفكّرت بسُرعة. في غياب پريمُس الآن، لا بدَّ أنّ پروميثيوس عَلمَ أنَّه كان يضعُ حياتَه في يَدَيها. ربَّما لم يكُن يعلَمُ بأمرِ الفتاتَين اللّتين أرسلَتهما إلى ساحةِ المحاربين في روما، ولكنَّه كان هنا عندما بعثَتْ بِهَدسَّة إلى الأُسود. وكانَ أيضًا يعلَمُ تمامًا أنَّها طَالَما كانت خائبةً إزاءَ مَقامه في البيت. وقد سَخِرَت بِهَوى پريمُسٍ له، ونظرَتْ إلى پروميثيوس نفسِه باعتباره شيئًا أقلَّ من كلبٍ مُدَرَّب.

نَبَضَ رأسُها ألَمًا. ''لماذا رَجَعَ الآن؟'' وقلَّما نفعَتِ الخِرقةُ البارِدةُ التي أمسكتها فوقَ عَينَيها في تخفيفِ الألم.

''لستُ أدري، سيِّدتي. إنَّه لم يقُل''.

''لم أكُن أسألُكِ، يا غبيَّة!''

''أتُريدينَ أن أصعدَ به إليكِ، سيِّدتي؟ أم أصرِفُه؟''

''فلأُفكِّر!''

حدَّقَت جوليا، غيرَ مُبصِرَةٍ، إلى ما وراءَ درابزين

الشُّرفة، مُفكِّرةً إلى حينٍ في الماضي. لقد كان پروميثيوس مُولعًا جدًّا بهَدسَّة. والحقيقة أنَّ إعجابَ پروميثيوس بالعَبدةِ الشابَّة هو الذي أيقظَ لدى پريمُس وحشَ الغَيرةِ والضغينةِ الرهيبَ. ثُمَّ تذكَّرَت جوليا أيضًا أنَّ قِسمًا كبيرًا من ذلك قد جلبَ عليها كثيرًا من بَلاياها هي. فأحيانًا، في وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل، كان پروميثيوس يقعد مع هَدسَّة في الپَريستايْل، وكانا يتحدَّثان. وقد قال پريمُس إنَّ خادمتَها اليهوديَّة الصغيرة كانَت تُغري الغُلام، إلَّا أنَّ جوليا علمَتْ أنَّه لم يكُن بينَهما قطُّ هذا النَّوعُ من العلاقات. ثُمَّ تغضَّنَت شَفتُها. لقد كانت هَدسَّة **أطهرَ** من أن تسمحَ بذلك. ولكنْ مهما كان الحديثُ بين هَدسَّة وپروميثيوس بريئًا، نَجَمَ عنه البَلاء.

أيَّ غبيٍّ كانَ حتَّى عاد! في وُسعِها أن تفعلَ به ما تشاء. فالعبيدُ الذين يَهربون ويُلقى القَبضُ عليهم غالبًا ما كانُوا يُطرَحون للكِلابِ في المدَرَّج. وفي وُسعِها أن تُفكِّرَ في أمورٍ أسوأ بكثيرٍ تفعلُها به.

غمرَ ذِهنَها صدى الأُسود المزمجرة، فأمسكَتْ

رأسَـها آنَّةً أنَّةً خفيفة. ‘‘ماذا يُريد؟’’

‘‘لم يَقُل، سيِّدتي’’.

‘‘هل سألتِه؟’’

‘‘ما حَسِبتُ ذلك من شأني’’.

لم تُرِد أن تُفكِّرَ في الماضي. وسيكونُ پروميثيوس مُذَكِّرًا فحسْب. ‘‘اصرفيه!’’

‘‘حَسَنٌ جدًّا، سيِّدتي’’.

فقالَت: ‘‘لا، مهلًا! أنا فُضوليَّة’’. أيُّ شيءٍ يستَولي على عبدٍ هاربٍ حتَّى يرجعَ إلى سيِّدٍ أو سيِّدة يُرجَّح جدًّا أن يأمُرا بتَعذيبه وقتله؟ يقينًا، لا بُدَّ أنَّه يعلَمَ ما ترغَبُ هي في أن تفعلَ به. فلَدَى سَماعه برحيل پريمُس، ربَّما سلكَ سبيلًا أحكمَ فهربَ من الدَّارة حالَما غادرَتْ ديديماس غُرفةَ الانتظار.

‘‘إذا كان ما يَزالُ ينتظرُ في الأسفل، فاصعَدي به إلى هنا. يدفعُني الفُضولُ إلى معرفةِ ما سيَقولُه

دفاعًا عن نفسه’’.

ودُهِشَت جوليا لـمَّا رافقَته ديديماس، بعدَ بِضع دقائق، إلى المهجع ثُمَّ خرجَتْ إلى الشُّرفة لتَقول لها بصَوتٍ خالٍ من العاطفة: ‘‘پروميثيوس، سيِّدتي’’.

فقالَت: ‘‘أودُّ أن أُكلِّمَه على انفِراد’’، مُنزِلةً الخِرقةَ عن عينَيها وموِمئةً بضيقِ صَدْر. فأسرعَتْ ديديماس بالخُروج من الغُرفة.

شهقَت جوليا نَفَسًا عميقًا، وطرحَتْ خِرقتَها جانبًا، وقامت عن أريكَتِها. وبينَما هي داخِلةٌ المهجَع، اختطفَتْ روبًا وارتدَته.

كان پروميثيوس واقفًا في وَسطِ غُرفتها. فنظرَت إليه، مُتوقِّعةً منه أن ينطرحَ أمامَها أو يسترحمَها باكيًا. غيرَ أنَّه ظلَّ واقفًا بصَمت، ينتظِر. فارتفعَ حاجِباها.

فضلًا عن وَقاره الجليل، كان منظرُه قد تغيَّرَ كثيرًا. فقد بدا أطولَ قامةً ممَّا تذكَّرَته، وباتَ أوسَمَ في

غضونِ الأعوام القليلة الماضية. كان مُجرَّدَ غُلامٍ لـمَّا أتى به پريمُس من عندِ النخَّاسين في السَّقائفِ تحتَ دعائم ساحةِ المدرَّج. وها هو الآنَ فتًى وسيمٌ في الخامسةَ عشرةَ أوِ السادسةَ عشرة، شعرُه مَقصوصٌ قصيرًا، ووجهُه حليقٌ تمامًا.

قالَت: ''پروميثيوس''، لافِظةً اسمَه بمعنًى خبيث. وأضافَتْ: ''حَسَنٌ منكَ جدًّا أن ترجع''. فلم تلحَظْ خَوفًا في عَينَيه، وتساءلت عن سرِّ هدوئه.

''لقد جئتُ ألتمِسُ صفحَكِ، سيِّدتي، وأطلُبُ أن أعودَ إلى خدمتِكِ، إنْ سمحَتِ''.

فحدَّقَت إليه جوليا مَشدوهةً: ''تلتمسُ صَفحي وتعود؟''

''نعم، سيِّدتي. سأخدِمُكِ كما تشائين، إلَّا إذا ارتأيتِ غيرَ هذا''.

''بقولكَ غيرَ هذا، تعني إذا قرَّرتُ الأمرَ بقتلِك؟''

فتردَّد، ثُمَّ قال برِقّة: ‘‘نعم، سيِّدتي’’.

ذُهِلَت حِيالَ مَوقفِه. من الواضح أنَّ أيَّ شكٍّ لم يُساوِرْه بشأنِ وضعهِ الخَطِر، غير أنَّه بدا غيرَ خائف. أو ربَّما كان مرائيًا بارِعًا كأولئكَ الذين يبدِّلون الوجوهَ ويؤدُّون أدوارَهم على المسرح.

فابتسمَتْ ابتسامةً واهية. ‘‘تخدِمُني كما أشاء؟ نظرًا إلى وضعِكَ السَّابِق في بيتي، هذا اقتراحٌ ممتع’’. وخفقت حَملَقتُها عليه. فتورَّدَ وطأطأ رأسَه. فدُهِشَت أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر. لا شكَّ أنَّ الزَّمَن الطَّويلَ الذي أمضاه مُلَبِّيًا مُختلِفَ أهواءِ پريمُس الشَّاذَّة قد بدَّدَ كُلَّ احتِشام.

والتَوى فمُها بابتِسامةٍ ساخرة. ‘‘ألَا تُدرِكُ أنَّكَ كسَرتَ فؤادَ پريمُس المسكين لـمَّا هجرتَه بكُلِّ قساوة؟ لقد كان هائمًا بحُبِّك’’.

لم ينبِس پروميثيوس بأيَّة كلمة.

فقالَت مُتهكِّمةً- مُستحلِيةً انزِعاجَه- ‘‘كان ينبغي أن تخجلَ بعدَ مُعامَلتِكَ سيِّدَكَ على نحوٍ غايةٍ

في القَسوة. كان ينبغي أن تُعفِّرَ وجهكَ بالتُّراب’’.

لم يُحرِّك پروميثيوس ساكِنًا.

وعلى نحوٍ مُستغرَب، خلبَ لُبَّها. وكانت قد مَضَتْ مُدَّةٌ طويلةٌ على آخِرِ مرَّةٍ فيها ألهاها أيُّ شيءٍ عن مرضِها.

‘‘هل أحبَبتَه يَومًا؟’’ ولاحظَتِ الفتى يبتلعُ ريقَه مُتَشنِّجًا، فعلِمَت أنَّها تسبِرُ أغوارَ عاطِفةٍ عميقة. ‘‘انظُر إليَّ وأجِبْ بصِدق. هل أحببتَ پريمُس يومًا حُبًّا صادقًا، ولو لُحَيظةً؟ أجِبني!’’

‘‘لا، سيِّدتي’’.

‘‘بِمَ شعرتَ تُجاهَه؟’’

فرفعَ عينَيه ونظرَ إليها. ‘‘بِلاشيء’’.

فضحِكَت ضِحكةَ رضًى خالص. ‘‘أُوه، كم أتمنَّى لو يسمعُكَ تقولُ هذا!’’ وشاهدَتِ العبسةَ الضئيلةَ التي قطَّبَتْ جبينَه. ثُمَّ تلاشى سُرورُها. هل **حَسِبَها** قاسيةً حتَّى تقولُ ذلك؟ ماذا عن كلِّ ما

عانتَه على يَدَي پريمُس؟ آمَا كان پريمُس يستحقُّ أن يُعانيَ أيضًا؟ كان ينبغي أن يُعانيَ أكثر!

ثُمَّ استَدارَتْ ومشَت إلى الطاولة التي عليها إبريقُ الخَمر. "على الرُّغم من كلِّ فِتنةِ پريمُس السياسيَّة ومَرَحه الاجتماعيّ، يا پروميثيوس، فهو رجُلٌ فاسدٌ وحَقودٌ يستخدمُ الناسَ لتحقيق غاياته. إنَّه يمتَصُّهم حتَّى ينشِّفَهُم ثُمَّ يُخلِّفُ القُشورَ الفارغةَ وراءه". وانسدَّت حَنجِرَتُها، فأضافَتْ بصَوتٍ مخنوق: "ولكنْ لا بدَّ أنَّك تعلَمُ كلَّ ما يتعلَّق بهذا، أليس كذلك؟"

تركَتِ الإبريقَ دونَ أن تمسَّه، ودارَت لِتنظُرَ إلى پروميثيوس من جديد. والتَوى فمُها بابتسامةٍ مُرَّة.

"لقد سُررتُ عندما هربتَ، يا پروميثيوس. هل تعلَمُ لماذا؟ لأنَّ ذلك آذى پريمُس. آه، آلـَمه على نحوٍ رهيب. لقدِ اغتمَّ عليكَ كما يغتمُّ امرؤٌ على زوجةٍ محبوبةٍ خانَته". وضحِكَتْ ضِحكةً وانِيَة. "إلى حينٍ قصير، فَهِمَ كيف كان شُعوري

لـمَّا هجرَني آتريتِس''. وأشاحَت بِناظِرَيها، مُتمنّيةً لو أنَّها لم تتكلَّمْ بشأن عَشيقها. فإنَّ مُجرَّدَ ذِكرِها اسمَه جلبَ عليها دفقةَ ألمٍ وإحساسٍ بالخَسارة. ''ليس أنَّ پريمُس كانَ عَطوفًا على الإطلاق''.

ثُمَّ استَعادَتِ السَّيطرَة، ونظرَت إلى پروميثيوس مُجدَّدًا، رافعةً رأسَها. ''أتُريدُ أن تَعرِفَ شيئًا آخر، يا عبد؟ لقد صِرتَ حِصني الصغير الوحيد ضدَّ فظائع پريمُس التي لا تُحصى في ما بعد''.

فبدا الاضطرابُ على پروميثيوس. ''أنا آسِف، سيِّدتي''.

لقد بدا صادِقًا. ''من أجله؟'' والتَوى فمُها بمرارة. ''لا داعيَ للأسف. لقد وجدَ وسيلةً للانتقام''.

''من أجلكِ، سيِّدتي''.

دوَّخَها إخلاصُه الشَّديدُ لحظةً. لقد تكلَّمَ كما لو كان بالحقيقة آسِفًا. فتحصَّنتْ بذكائها، قائلةً: ''آسِف؟'' لأيِّ سَبَب؟ وبرقَت عَيناها. ''أُوه، أنا

واثقةٌ بأنَّكَ آسِف، يا پروميثيوس‘‘. ثُمَّ أمالَتْ رأسَها إلى الوراء قليلًا، مُتفحِّصةً پروميثيوس بفتور. ’’أنت آسِفٌ الآن لأنَّك تعلَم ما يُمكِنُ أن أفعلَ بك‘‘.

’’نعم، سيِّدتي. أنا أعلَم‘‘.

كانت هذه جُملةً بسيطة، منطوقًا بها بقُبولٍ تامّ. فهو لم يكن خائفًا أن يموت.

تمامًا كما لم تكُن هَدسَّة خائفةً أن تموتَ يومَ مَشَت على الرَّمل وسطَ ساحةِ المدرَّج.

وطرفَت جوليا بعَينَيها، مُحاولةً أن تهرُبَ من الذِّكرى. ’’لماذا رجَعتَ؟‘‘

’’لأنِّي عَبد. لم يكُن لي حقٌّ بأن أُغادِر‘‘.

’’كان في وُسعَك أن تكونَ الآنَ بعيدًا عن أفسس ألفَ مِيل. فمن كان يَدري عندئذٍ أعَبدٌ أنتَ أم حُرّ؟‘‘

’’أنا كنتُ أدري، سيِّدتي‘‘.

دفعَها جوابُه إلى التَّساؤل، لأنَّه كانَ غيرَ مَفهومٍ عندَها قطعًا. ''لقد كُنتَ غبيًّا إذ رجَعتَ. أنتَ تعلَمُ جيِّدًا أنِّي أحتقِرُك''.

فخفضَ عَينَيه. ''أعلَمُ، سيِّدتي. ولكنْ كان صَوابًا أن أرجع، مهما تكُنِ العواقِب''.

وهزَّت رأسَها. ثُمَّ عبرَتِ الغُرفة، وقعدَت مُوهَنةً على طرَفِ أريكةِ نَومها. وإذ أمالت رأسَها إلى جانبٍ واحد، نظرَتْ إليه مُتأمِّلةً. ''أنتَ مُختلفٌ جدًّا عمَّا أتذكَّرُه''.

''لقد حدثَت أُمورٌ فغيَّرتني''.

فقالت بضِحكَةِ استِهزاء: ''هكذا يُمكِنُني أن أرى. فأحَدُ الأُمور أنَّكَ فقدتَ عقلكَ تمامًا''.

وأذهلَها أنَّه ابتَسَم. ''يُمكنُ القولُ إنِّي تخلَّيتُ عنه''.

أحسَّت جوليا مَعنويَّاتِها ترتفعُ قليلًا بمُجرَّد النظر إليه. وغمرَها تَوقٌ غريبٌ مُفعَمٌ بالعاطفة. فكافحَت ذلك، وتأمَّلَته من رأسه إلى قدمَيه، ثُمَّ

رُجوعًا إلى رأسه. وراقَها ما رآتْه. لقد كان كتُحفةٍ فنّيَّةٍ رائعة.

فتلاشَتِ ابتِسامتُه إزاءَ تمعُّنها الوثيق، وازدادَ احمِرارُ خدَّيه.

فقالَت مَدهوشةً: ‘‘أنتَ مُرتبِك’’.

وأجابَ بصراحة: ‘‘نعَم، سيِّدتي’’.

كيف كان مُمكِنًا، بعدَ كُلِّ ما فعلَه مع پريمُس، أن يكونَ حسَّاسًا جدًّا؟ لقد أثَّرَ فيها ذلك. ‘‘أنا آسفة على تحديقي، يا پروميثيوس، ولكنْ من الواضح جَليًّا أنَّ الآلهة قد أحسنَتْ إليكَ كثيرًا. وسامةٌ وصحَّةٌ جيِّدة’’. ثُمَّ اكتنفَ الاكتئابُ ابتسامتَها. ‘‘إنَّ الآلِهَةَ لم تُحسِنْ إليَّ هكذا’’.

‘‘ألا يُمكِنُ أن يُفعَلَ لكِ شيء، سيِّدتي؟’’

كان سؤالُه إقرارًا جليًّا بحالَتِها البَدَنيَّة المحزنة. ولم تَدرِ أتغضَبُ على وقاحَتِه أم تكونُ شاكرةً لأنَّها لم تُضطرَّ إلى الحِفاظِ على واجِهَةٍ زائفة. فهزَّت رأسَها هزًّا خفيفًا. كان الغضبُ يَستلزِمُ

قوَّةً، ولَدَيها نَزرٌ يَسيرٌ من القُوَّة تَدَّخِرُه.

فقالَت: ‘‘لقد جرَّبتُ كُلَّ شيء’’، وكانت مَدهوشةً إزاءَ الصراحة التي أبدَتْها بقولها هذا. ثُمَّ بسطَت يدَيها، وهزَّت كتِفَيها. ‘‘كما يُمكِنُك أن ترى، لم ينفعْ أيُّ شيءٍ نفعًا يُذكَر’’.

عندئذٍ نظرَ پروميثيوس إليها دُونَ تَحَفُّظ، وازنًا إيَّاها بطريقةٍ جعلَتها ترغَبُ في النَّوم. ‘‘هل يقولون أيُّ خَطبٍ بِكِ، سيِّدتي؟’’

‘‘قال أحَدُهم إنَّها عِلَّةٌ عُضالٌ من نوعٍ ما. وقال آخَر إنَّها لَعنةُ حِيرا. وقال غيرُه إنَّها حُمَّى التَّيبَر التي تأتي وتذهب’’.

‘‘أنا آسِفٌ، سيِّدتي’’.

ها هو الأمرُ يبرزُ من جديد. لقد كان آسِفًا... من أجلها؟ لا بُدَّ أنَّ حالتَها كانت تدعو إلى الرِّثاء كثيرًا، حتَّى إنَّ عبدًا وضيعًا يَرثي لها! وإذ أخذَتها قُشَعْريرة، وقفَت وشدَّت روبَها عليها بمَزيدٍ من الإحكام.

ثَمَّ مَشَت نحوَ الشُّرفة، مُركِّزةً على التحرُّك بِرَشاقةٍ ونُبل. كان مَرقُس قد قالَ مرَّةً إنَّها تمشي مِشيةَ مَلِكة! وتوقَّفَتْ تحت قناطِرِ الرّواق، ثُمَّ التفتَتْ لِتُواجِهَ پروميثيوس. وإذْ رفعَتْ ذقَنَها قليلًا، أرغمَتْ نفسَها على اصطناع ابتِسامة... ابتسامةٍ فاتِرة مُفعَمة بالحَذَرِ الأُنثَويّ.

‘‘أنتَ وسيمٌ جدًّا، يا پروميثيوس. حَسَنُ البنيَة. قويّ. رُجوليٌّ جدًّا. قد أعثرُ لك على استخدامٍ مُفيد’’. كانت كَلِماتُها تَستهدِفُ أن تجرحَه، وتبيَّن لها أنَّها فعلَتْ هذا الفعل. ولا بُدَّ أنَّ جراحَه ما تزالُ داميةً جدًّا بحيثُ يُتاحُ لها أن تتولَّى أمرَها على نحوٍ غايةٍ في السُّهولة. أم تراها قد باتَتْ خبيرةً بجَرحِ الآخرين خبرةَ كالاباه وپريمُس؟ وأزعجَتها هذه الفكرةُ بشدَّة. لقد كانت تتوقَّع أن تشعُرَ بأنَّها مُسيطرةٌ على الوضع. غير أنَّها، بدلًا من ذلك، شعرَت بالخِزي.

فزفرَت نَفَسَها على مَهل، وقالت بلُطف: ‘‘لا يَبدو عليكَ فَرطُ التَّضايُق. فأنا إنَّما أردتُ أن أرى رِدَّة فعلِك، يا پروميثيوس. إنِّي أُطَمئنُكَ بأنَّ اهتمامي بالرِّجال قد تَلاشى من أمَدٍ بعيد. فآخِرُ شيءٍ

أريدُه أو أحتاجُ إليه الآن هو عشيقٌ آخر". والتَوى فمُها بابتسامةٍ ساخِرة.

لاذَ پروميثيوس بالصَّمت بِضعَ لَحَظات. "في وُسعي أن أخدِمَكِ بوظائف أُخرَى غيرَ..."

فقاطعَته بِوَهَن. "مَثلًا؟"

"في وُسعي أن أكونَ حامِلَ محَفَّة، سيِّدتي".

"لو كنتُ أملِكُ محَفَّة".

"في وُسعي أن أكونَ ساعيَ رسائل".

"لو كان عندي شخصٌ ما أرغبُ في مُراسلَته". وهزَّت رأسَها. "لا، پروميثيوس. إنَّ الشيءَ الوحيدَ الذي أحتاجُ إليه الآن هو المال. والشيءُ الوحيدُ الذي يُمكِنُني التفكيرُ فيه هو أن أنزلَ بك إلى سوق العَبيد، وأبيعكَ في مَزادٍ عَلَنيّ. إنَّ في هذه المدينة عَدَدًا كبيرًا منِ الرِّجال على غِرارِ پريمُس يُقبِلون على دَفعِ ثمنٍ غالٍ جدًّا لِقاءَ شابٍّ تلقَّى التدريبَ التَّخَصُّصيَّ الذي تلقَّيتَه أنت".

كان صمتُه أشبهَ بصُراخٍ كَرْبٍ في الغُرفة. وهي شعرَتْ بذلك، بل رأته أيضًا. وقدِ اغرَورَقَت عَيناه. لم يتكلَّم، ولكنَّها علِمَت أنَّه أرادَ أن يتوسَّل. غير أنَّه وقفَ صامتًا، مُتصَلِّبًا بضَبطِ النَّفس. آه، كم تمنَّى حَتمًا لو أنَّه ما رَجَعَ قطّ!

وأُوقِظَ في داخلها شيءٌ طالَما كان مَنسيًّا. إذ حرَّكَتِ الشَّفقةُ جناحَينِ رقيقَين داخِلَ صَدرها. فأحسَّت كَرْبَه، وشاركَت فيه لُحَيظةً. لقد أرادَ أن يهرُبَ مرَّةً أُخرى، ومَن يُمكنُ أن يلومَه؟

وقالَت بكُلِّ هدوء: ”لا يَروقُكَ أبدًا هذا المصير، أليس كذلكَ؟“

فقال بصَوتٍ مُرتعِش: ”لا، سيِّدتي“.

”أتُفَضِّلُ بالأحرى أن أبيعَكَ لِمُنَسِّقِ الألعاب؟ إنَّهم سيَجعلون مِنكَ مُحاربًا مُصارعًا“.

فبدا مَهزومًا. ”لَن أُحارِب“.

”يقينًا، تستطيعُ أن تُحارِب. فأنت تبدو قويًّا كِفايةً. سيُدرِّبونك قبلَ إرسالِكَ إلى ساحَةِ المحاربين.

وستكونُ لك فُرصَةٌ للنَّجاة''.

''لمِ أقُل إنِّي لا أستَطيعُ أن أُحارِب، سيِّدتي. بل قلتُ إنِّي لَن أُحارِب''.

''ولـمَ لا؟''

''هذا يُناقِضُ مُعتقَداتي الدِّينيَّة''.

فتَيبَّسَت إذ عادَت ذِكرَياتُ هَدسَّة المعذِّبَةُ تَنتابُها مُجدَّدًا. لماذا الآن؟ وكوَّرَتْ يَدَيها قبضتَين. ''لا بدَّ أن تُحارِبَ إذا كانت حياتُكَ تتوقَّفُ على ذلك!''

''لا، سيِّدتي. لَن أُحارِب''.

ونظرَتْ إليه من جَديد، من كثب، فإذا بالبصيرة النافذة تُوافيها. لقد كان مثلَ هَدسَّة تمامًا. ''هل أرسلَتْك الآلِهةُ إلى هنا كي تُعذِّبَني؟'' وعادَ رأسُها ينبضُ ثانيةً. وأعشى الألمُ بَصرَها. فأطلقَتْ صرخةً رقيقة. ''أُوه ه ه...'' وضغطَت صُدغَيها بَيَدَيها. ''لماذا جئتَ إليَّ الآن؟''فلم تستطعْ أن تُفكِّرَ سوى في نَبْضِ رأسها. وإذ شعرَت بِدُوار، وكافَحَتِ الغَثَيان، مَشتْ مُتعثِّرةً

عبرَ الغُرفة، وارتَمت متعَبةً على طَرَفِ أريكةِ نَومِها. ‘‘لماذا جئت؟’’

‘‘لكي أخدِمَكِ’’.

فقالَتْ بتهكُّمٍ لاذع: ‘‘كيف يُمكِنُكَ أن تخدمَني؟’’

‘‘سأخدِمُكِ كيفَما احتَجتِ، سيِّدتي’’.

وصرخَت بسُخريةٍ مُرَّة: ‘‘أيُمكِنُكَ أن تشفيَني من هذه البَلوى؟’’

‘‘لا، ولكنِّي سَمِعتُ عن طبيبٍ في المدينة...’’

أطبَقَت يَدَيها قبضتَينِ شاحِبتَين. ‘‘لقد رأيتُ أطبَّاءَ كثيرين حتَّى سئمتُ الأطبَّاء! وقد ذهبتُ إلى كلِّ هيكلٍ موجود! وانطرَحْتُ واسترحَمتُ أمامَ بضعةَ عشرَ صَنَمًا. وافتقرْتُ بشِراءِ قرابينَ نَذريَّةٍ من تُجَّارٍ يبتزُّون مالَ الناس. فأيُّ خَيرٍ كان لي من ذلكَ كلِّه؟ أيُّ خَيرٍ، أسألُك!**أيُّ خيرٍ؟!**’’

فاقتربَ إلَيها أكثر، مُتكلِّمًا بلُطف. ‘‘هذا الطبيبُ الذي سمعتُ عنه يُقالُ إنَّ لَدَيهِ مُعاونةً صنعَت

مُعجِزات’’.

فأطلقَت ضِحكةً ساخِرة ورفعَتْ نظرَها إلَيه. ‘‘كم تُكلِّفُ المعجِزةُ هذه الأَيَّام؟’’ والتَوت شَفتاها بمرارة. ‘‘ألقِ نظرةً حوالَيك، يا پروميثيوس. هل بقيَ أيُّ شيءٍ ذي قيمةٍ حقيقيَّة؟’’ وأجالَتْ هي نفسُها ناظِرَيها في أنحاءِ الغُرفةِ الخاوية، خَجِلةً. ‘‘كلُّ ما بقيَ لي هو هذه الدَّارة، وهي مُرهَقةٌ بالدَّيونِ فعلًا’’. حتَّى إنَّها، وهي تكشِفُ الحقائقَ له، تساءلَت عمَّا دفعَها إلى الاعترافِ لِعَبدٍ بذُلِّها الكُلِّيّ.

‘‘ما قيمةُ حياتكِ عندَكِ، سيِّدتي؟’’

تبخَّرَ غضبُها عندَ سؤاله، وحلَّ الخوفُ محلَّه. فنظرَتْ إليه من تحتُ ثانيةً، والبؤسُ يغمرُها. ‘‘لستُ أدري . لستُ أدري هل لحياتي أيَّةُ قيمةٍ على الإطلاق. لا أحَدَ يَعنيه ما يحدُثُ لي. حتَّى إنِّي أنا لستُ أدري إذا كنتُ مَعنيَّةً بَعد’’.

جثا پروميثيوس على ركبةٍ واحدة أمامَها، وأمسكَ يدَها الباردَة بيَدِه، قائلًا بكُلِّ هُدوء: ‘‘أنا

مَعنيّ!’’

حدَّقَتْ إليه مَشدوهةً. لقد أرادَتْ مُستَميتةً أن تتشبَّثَ بالأمَل الذي قدَّمَه لها، وكادَت تفعلُ ذلك لُحَيظةً. ثُمَّ خافَتْ أن تُصدِّقه. فرُغمَ كُلِّ شيء، لماذا يَعنيه أمرُها؟ إنَّها لم تكُنْ قطُّ لطيفةً تُجاهَه. بل إنَّها بالحقيقة كانت دائمًا تُعامِلُه بازدراءٍ واشمئزاز. فلَم يكُن مَفهومًا قطُّ أن يُعنَى بها الآن. ماذا لو كانَتْ هذه حيلةً رهيبةً من نوعٍ ما...؟ وشعرَتْ بالخوف ينهشُها.

ومن خَوفِها طلعَ غَضَب.

أُوه، لقد عَلِمَتْ لماذا هو مَعنيّ! فقد كان في وُسعِها تقريبًا أن تسمعَ صَدى صَوتِ كالاباه مُتردِّدًا في رأسِها، مُذكِّرًا إيَّاها بحقيقةِ حالِ الأمور. إذ كان من شأن كالاباه أن تقول: ‘‘من الطبيعيّ أن **يعنيَه الأمر**. فهو قلِقٌ على جِلْده’’. ورنَّ في أُذنَيها صَدى ضَحِكِ كالاباه القاتمِ الساخِر.

سحبَت جوليا يدَها من يَده. وقالَت- مُحدِّقةً إلَيه

من عَلُ- ‘‘كم هذا مؤثِّر!’’ ثُمَّ وقفَتْ مُترنِّحةً وأوشَكَتْ على الابتِعاد، رافعةً الرأس، بينما تسارعَ خَفَقانُ قلبِها، إذ سمحَت للغضب بأن يُهَيمِنَ على تفكيرها. ولكنْ أعوزَتها القُوَّةُ لتَعزيزِ غَضَبِها، وسُرعانَ ما حلَّ مَحلَّه اليأس، ومحلَّ اليأسِ حلَّ رِثاءُ الذات.

ثُمَّ قالَت- وظهرُها نحوَه: ‘‘لا تحسبْ أنِّي أُصدِّقُك، ولا دقيقةً واحدة’’. وأضافَتْ مُنتَحِبةً، وشَفَتُها ترتعش: ‘‘لا أحَدَ يَعنيه أمري. ما أنتَ إلّا كالباقين جميعًا. تبتسِمُ وتتظاهَر، فيما أنتَ بالحقيقة تكرهُني وتتمنَّى لو كنتُ مَيتة. كلَّما دخلَت ديديماس هذه الغُرفة، يُمكِنُني أن أرى تلك النظرةَ في عينَيها. وأنا أعلمُ ما تُفكِّرُ فيه. ستَرقصُ على قبري’’. ربَّما تأمرُ بقتلِها قبل حلولِ ذلك اليوم!

واستدارَتْ فرأتْ أنَّه ما زال واقفًا هُناك. كانت الجِدِّيَّة تظهرُ على سِيمائه، ولكنَّه ما زالَ غيرَ خائف. فنظرَتْ إليه لحظةً طويلة، مُتعَزِّيةً على نحوٍ غريب بهدوئه. كم مضى من الزَّمَن على آخِرِ مرَّةٍ شعرَت فيها بهذا الشُّعور؟

أخيرًا، قالَت له: ‘‘سأحتفِظَ بك’’، مُتسائلةً- حتَّى لَدَى قولِها ذلك- عن السَّبب الذي دفعَها إلى التصرُّف هكذا. ماذا ستَفعلُ به، يا تُرى؟ أيُّ نَفعٍ لها فيه؟

ارتسمَت على وجهِه خَفَقَةُ فَرَج. ‘‘شُكرًا لكِ، سيِّدتي’’.

‘‘سيكونُ عليَّ أن أُفكِّرَ في واجِباتِك. إنَّما ليس الآن’’. لقَدِ ارتجفَتْ من الضَّعف، وظهرَتْ قَطَراتُ العَرَق على جبينها، وأحسَّت بالغَثيان. فمدَّتْ يدَها قائلةً: ‘‘ساعِدْني على الاستلقاء في سريري’’.

ففعلَ ذلك، رافِعًا قدمَيها برِفقٍ إلى أريكةِ نَومِها.

وقالَت مُرتَعشةً: ‘‘أنا بَردانةٌ جدًّا. لا يَبدو أنِّي قادرةٌ على الاستِدفاء بَعد’’.

فغطَّاها پروميثيوس ببطَّانيَّة. ودونَ أن تقولَ له ما يفعَل، أخذَ خِرقةً جافَّةً ومسحَ برِفقٍ قَطَراتِ العَرَق عن جبينها. ‘‘سأُلقي مزيدًا من الحَطَب

في الكانُون، سيِّدتي’’.

‘‘ليسَ لنا أيُّ حَطَب’’. وتجنَّبَتِ النَّظرَ إليه، مُستَحِيةً بفَقرها. إلى أيِّ دَرْكٍ قد هَوَت منذُ عرفَها أوَّلًا!

أضافَ پروميثيوس بطَّانيَّةً أُخرى.

فتشبَّثتْ جوليا بها. ‘‘هل تعتقدُ أنَّ في وُسعِكَ العُثورَ على هذا الطبيب الذي تكلَّمتَ بشأنه؟’’

‘‘نَعَم، سيِّدتي. لقد صار مشهورًا في المدينة. لن يكونَ صعبًا جدًّا أن أعثُرَ عليه’’.

‘‘امضِ إذًا واعلَمْ ما يقول’’. وراقبَته يمشي بخُطًى واسعةٍ نحو الباب. ‘‘لا ترجعْ إن لم تنجَحْ في التكلُّم إليه. إنّي أخشى ما قد أفعلُه بك. هل تفهم؟’’

‘‘نَعَم، سيِّدتي’’.

ولاحظَتْ أنَّه فَهِم. ‘‘لكَ أن تذهَب، وعسى أن تُرافِقكَ الآلهة’’.

فخرجَ من الغُرفة. وغرقَتْ جوليا في الاكتئاب من جديد.

عسى أن يكونَ لپروميثيوس عندَ الآلهة حَظٌّ أحسَنُ ممَّا كان لها.

٢٤

غاصَ ألِكسَندر في الوسائدِ اللَّيِّنة على أريكته الجديدة، وزَفَرَ نَفَسَه في تنهُّدةِ إعياءٍ طويلة. ‘‘إذا جاءَ أيُّ شخصٍ آخر، يا راشِد، فاصرِفْه’’.

‘‘أينَ رافا؟’’

‘‘إنَّها تكتبُ العِلاجاتِ في السِّجِلّ. وستَنتهي قريبًا’’.

‘‘أتُريدُ أن تأكُلَ الآن، أم تنتظِرُها؟’’

ففتحَ ألِكسَندر إحدَى عَينَيه ورمقَه بنظرةٍ مُضحِكة. ‘‘سأنتظِرُها’’.

‘‘جيِّدٌ جدًّا، سيِّدي’’.

والتَوى فَمُ ألِكسَندر قليلًا إذ أغمضَ عَينَيه من جديد، ناوِيًا أن ينامَ نَومةً خفيفةً ريثَما تأتي هَدسَّة.

ثَمَّ دخلَ أحَد الخدَم. ‘‘سيِّدي، في الأسفَلِ شابٌّ يطلُبُ أن يُكلِّمَك’’.

فأنَّ ألِكسَندر. ‘‘ألَم يقرأْ ما كُتِبَ على اللَّافِتة؟ لا مرضى حتَّى صباح الغد’’.

‘‘إنَّه لا يَعرفُ القراءة، سيِّدي’’.

‘‘إذًا، اقرأْها له أنت’’.

‘‘لقد قرأتُها، سيِّدي’’.

‘‘قُل له أن يرجعَ غدًا’’.

دخلَت رافا الغُرفة، فجلسَ مُسنِدًا نفسَه. وكان في وُسعه أن يُلاحِظَ كم هي مُتعَبةٌ من طريقةِ عَرَجِها. ثُمَّ ارتمَت على الأريكة مُقابِلَهُ وألقت عُكَّازَها جانِبًا. وقدِ ارتختْ كَتِفاها، وأخَذَت تفركُ ساقَها العَليلة.

قالَ راشِد: ‘‘سأقولُ لِأندرونيكُس إنَّكَ مُستَعِدٌّ لتَناوُل العشاء’’. ثُمَّ غادرَ الغُرفة.

فقام ألِكسَندر. وقال، مُبتسِمًا لها: "أنا مُتلهِّفٌ لرؤيةِ ما قد أعدَّه أندرونيكُس هذا المساء. إنَّ الرجُلَ عَبقريٌّ في الطَّعام، وأنا جائعٌ جدًّا. هيَّا. فلأُساعِدْكِ". ثُمَّ أسندَ ظهرَها، فشهقَتْ ألـمًا إذِ اتَّكأَت. "لقد أفرَطتَ في الأمر مرَّةً أُخرى". فأمسكَ بساقِها العليلة وقوَّمَها بِحرص. فالتقطَتْ نَفَسَها مُجدَّدًا. "إنَّ الجلوسَ وقتًا طويلًا يجعلُ العضلات تتشنَّج". وأخَذَ يُدَلِّكُ ساقَها برِفق.

"كان عليَّ أن أُنهيَ تَدوينَ القُيود".

"سنَستأجِرُ كاتبًا للقيام بذلك". ثُمَّ حرَّكَ إبهامَيه نُزولًا، ولاحَظَ أصابِعَها تُشحَبُ على الوسادة. "أنتِ بحاجةٍ إلى انتِقاعٍ جيِّد في الكَلِداريوم".

"ربَّما غدًا".

فقال بحَزم: "اللَّيلة! حالَما ننتَهي من الأكل".

ودخلَ راشِد حاملًا صينيَّةً فضِّيَّةً كبيرة مُرتَّبًا عليها بمَهارةٍ حَجَلانِ سمينانِ في عُشٍّ من الفاكِهَة والخُضَر المقطَّعة. فجعلَتِ الرائحةُ الطيِّبةُ مَعِدةَ

ألِكسَندر تنقبضُ جوعًا، وكاد اللّعابُ أن يسيلَ من فمه.

قدَّمَت رافا صلاةَ شُكرٍ صامتة، ورفعَتْ نِقابَها. وقد كانَ الحَجَلُ مَشويًّا بطريقةٍ مُمتازة بحيثُ تمكَّنَت من نزعِ فَخِذٍ بسُهولة. وكان الطَّعامُ شهيًّا. لقد كانت مُنكبَّةً كُلِّيًّا على عملها حتَّى إنَّها لم تُدرِكْ كم كانت جائعة. وبينَما هي تأكُل، راقبَت ألِكسَندر مُتسلِّيةً. لقد كان من الواضح جليًّا أنَّه مُستَمتعٌ بالوجبة.

فَرغَ ألِكسَندر من أكلِ فَخِذِ حَجَلٍ واحد، ونزعَ آخَر. وبينما هو ينتشُ اللَّحمَ عن العَظمِ بأسنانه، قال: ''تركَتْ لك كِليمَنتينا صُرَّةَ نُقودٍ أخرى عصرَ اليوم''.

فارتفعَت عَينا هَدسَّة فَزَعًا. ''قلتُ لها ألَّا تفعلَ ذلك''.

وإذِ ابتلَعَ اللَّحم، لوَّحَ لها بعظمةِ الفَخِذ. ''لا تُبدي اعتراضاتِكِ المعتادة. إنَّها شاكرةٌ لك. وإعطاؤكِ هَديَّةً يُسعِدُها. أيُّ ضررٍ في ذلك؟ لقد فعلَ

آوريستِس الأمرَ عَينَه’’. ثَمَّ تناولَ قضمةً أخرى.

وتناولَتْ هي قَضمةً أُخرى من لحم الحَجَل، عابِسةَ الوجهِ. لقدِ اضطربَت. فهي لم تعترِض على هديَّة أُوريستِس لأنَّها كانت على عِلمٍ بحاجةٍ إلى المال آنَذاك. أمَّا الآن، وقد عزلَها عَدَدٌ المرضى الطاغي وكثرةُ العَمَل، فإنَّ وقتَها باتَ أضيقَ من أن تَجِدَ المحتاجين. ثُمَّ إنَّ مقدارًا كبيرًا من النُّقود الذهبيَّة كان آخِذًا في التكدُّسِ داخلَ صُندوقِ المال.

ولاحظَ أَلِكسَندر أنَّها مُتضايِقة. لم يكُن ينبغي له أن يُخبِرَها بما فعلَته كِليمَنتيا. ليسَ قبلَ أن تفرغَ من الأكل. فقد كان يعلمُ أنَّ الهدايا الغالية وصُرَرَ المال تُقلِقُها، وكان يعرِفُ السَّبب. وقد حَسِبَ أسبابَها سخيفة. فكثيراً ما كانت تقولُ: ‘‘الإقرارُ بالفَضلِ يخصُّ الله!’’ ولكنَّه هو لم يرَ أيَّة مشكلةٍ في قبولها الهِباتِ السخيَّة.

قبلَ أُسبوع، دخلَتْ غُرفةَ الانتِظار، فجثا أمامَها رجُل. ولم يكُن أَلِكسَندر قطُّ قد رآها غاضِبةً من قبل. إذ صاحَت بالرَّجُل: ‘‘قُم!’’ فهبَّ واقفًا على

قدَمَيه مرعوبًا.

آنذاك قال لها ألِكسَندر بلُطف: ‘‘رافا!’’ مُحاوِلًا أن يتوسَّط، ولكنَّها تصدَّت له هو أيضًا.

‘‘أأنا إلهٌ حتَّى يجثو أمامي؟’’

وقد عرجَت نحو الرجُل، فتَراجعَ من أمامِها، شاحِبَ الوجه من الخوف. ومدَّتْ ذراعها، قائلةً: ‘‘جُسَّني!’’ فرفعَ الرجُلُ يدَه، ولكنْ كان واضِحًا أنَّه لم يجرؤ على فَعلِ ما طلبَته منه. فتَناولَت يدَه بثَباتٍ ووضعَتها على ذراعِها، واضعةً يدَها فوق يدِه. ‘‘لَحمٌ ودَم. إيَّاك، إيَّاكَ أن تجثوَ لي مرَّةً أُخرى أبدًا. هل تفهم؟’’ فهزَّ الرجُلُ رأسَه مُوافقًا، ولكنْ لـمَّا استَدارَ ليَمضي، لمحَ ألِكسَندر نِظرةَ المهابةِ بادِيةً على وجهه.

وكان ألِكسَندر قد رأى تِلكَ النِّظرةَ عَينَها في عُيونِ آخَرينَ أيضًا. لقد وقَّرَها ذلك الرجُل.

فالآن، حاولَ أن يُسكِّنَ مخاوَفَها، قائلًا: ‘‘فكِّري في المال باعتباره أجْرًا’’.

‘‘أنت تعلَمُ جيّدًا جدًّا أن كِليمَنتينا قد دفعَت أصلًا الأجْرَ الذي حدَّدتَه. فلتأخُذْ تَقدِمتَها إلى الله’’.

فقال: ‘‘إنَّكِ تجعَلين من هذه الحبَّةِ قبَّة...’’ وإذا به يُقاطَعُ إذ دخلَ الخادمُ ثانيةً. ‘‘ماذا الآن؟’’

‘‘قال الشابُّ إنَّه سيَنتظِر، سيِّدي’’.

فانزَمَّ فَمُ أَلِكسَندر. وكان المطرُ يُلاطِمُ السَّقف. فقال: ‘‘ليكُن كذلك!’’

وقالت هدسَّة: ‘‘مَن سيَنتظر؟’’

‘‘شخصٌ يُريد أن يُكلِّمني’’.

‘‘قلتُ له أن يرجعَ غدًا. إذا أصرَّ على الانتظار، فقد يتبلَّل’’.

‘‘مَن يكون؟’’

‘‘لستُ أدري’’. ورمى عَظمةَ فَخِذٍ على الصِّينيَّة بانزِعاج.

وسألتْ هَدسَّة الخادِم: ‘‘أهوَ مريض؟’’

‘‘لا، سيِّدتي. إنَّه يَبدو مُعافًى جدًّا’’.

‘‘هل يبدو مُضطرِبًا؟’’

‘‘لا، سيّدتي. إنَّه هادئٌ تمامًا. لـمَّا قُلتُ له إنَّه سيُضطَرُّ إلى الانتِظار حتَّى الصباح، شكرَني وقعدَ بمُحاذاةِ الجِدار’’.

شقَّ ألِكسَندر حجلَه نِصفَين، مُنزعجًا. لماذا لا يُمكنُ أن يفهمَ الناس أنَّ الأطبَّاء يحتاجون إلى الراحة كأيِّ كائنٍ بشريٍّ آخرَ تمامًا؟ وتسنَّى له أن يُحسَّ هَدسَّة ناظرةً إليه بتَوسُّلٍ صامت. فتَمتَمَ قائلًا: ‘‘من الجليِّ أنَّ الأمرَ غيرُ مُلِحّ’’.

وظلَّت ناظِرةً إليه.

‘‘المطرُ شديد، رافا’’.

عجيبٌ كيف يُمكنُ أن يتكلَّمَ الصَّمتُ مُجلَّدات!

فقد قال مُذعِنًا: ‘‘حَسَنٌ جدًّا!’’ ولوَّحَ للخادم

بإيماءةٍ خفيفة. ‘‘ادعُ البائسَ إلى الدُّخول، وليُجَفِّفْ نفسَه في غُرفةِ الانتِظار’’.

‘‘نعم، سيِّدي. أتَنوي أن تُكلِّمَه اللَّيلة؟’’

‘‘لا، أنا مُنهَك’’. وشاهدَ هَدسَّة توشكُ على القيام، فقال بلهجةٍ أقصَتِ الجِدال: ‘‘إيَّاكِ أن تُفكِّري في هذا مُجرَّدَ تفكير!’’

انتقلَ راشِد إلى مكانٍ أقربَ إلى أريكتِها. فرفعَتْ نظرَها إليه، ثُمَّ ردَّته إلى ألِكسَندر بابتسامةٍ كئيبة.

‘‘لن تفعَلي اليومَ أيَّ شيءٍ بَعدُ سوى أكْلِ هذا الطائر والذَّهاب إلى الحمَّامات’’.

ورأتْ أنَّه عَنَى ذلك، فاتَّكأَتْ من جديد.

وقال لها ألِكسَندر: ‘‘في وُسع الشابِّ أن ينتَظر’’. ثُمَّ التَفَتَ إلى خادِمه مُجدَّدًا. ‘‘إذا كان الكانُون ما زالَ مُشتَعِلًا، فأضِف بعضَ الحَطب. وأعطِ الشابَّ تُنكًا جديدًا’’.

‘‘نعم، سيِّدي’’.

والتَفَتَ ألِكسَندر إلى هدسَّة. ‘‘راضية؟’’

فابتسمَت له. ‘‘قد يكون جائعًا’’. وقسمَتْ حَجَلَها نصفَين، ثُمَّ ناوَلَتِ الخادِمَ أحدَهُما. ‘‘وسيَحتاجُ إلى فِراشٍ ما دام مُضطرًّا إلى الانتظار طَوالَ الليل’’.

فأومأ ألِكسَندر برأسه مُوافقًا. ‘‘افعلْ كما قالت’’.

فوجئَ پروميثيوس لـمَّا فتحَ الخادمُ البابَ له وقال إنَّه يستَطيعُ أن يدخُلَ وينتظِر. كانت نارٌ قد أُعِدَّت، وأُعطِيَ مِنشَفةً وتُنكًا جافًّا. ومضى الخادِمُ ثُمَّ رجعَ بعدَ قليل حاملًا صينيَّةً عليها نِصفُ حَجَلٍ مَشويٍّ وخُبزٌ وإبريقُ نبيذٍ جيِّد. ثُمَّ أعطاه رجلٌ ضخمٌ داكِنُ البَشَرة فِراشًا، وقال: ‘‘سيَراكَ الطبيبُ في الصباح. يُمكِنُك أن تنامَ هنا’’.

رفعَ پروميثيوس الشُّكرَ لله، واستَمتعَ مَدهوشًا بالوجبة الشهيَّة. وإذ تدفَّأ بنارِ الكانُون والخمرةِ الجيِّدة، استَلقى على الفراش. ونامَ نَومًا مُريحًا

طَوالَ الليل.

وفي الصباح أيقظَه السُّوريُّ الضَّخمُ بنَخسة. ‘‘قُم! سيُكلِّمُك الطبيبُ الآن’’.

تَبعَه پروميثيوس، صعودًا على الدَّرج ومَشيًا في رِواق، إلى داخِلِ پيليوتيكا. وكان شابٌّ واقفًا وراءَ طاولةِ كِتابة، يقرأُ دَرْجًا. فرفَعَ نظرَه إذ دخلَ پروميثيوس وراءَ الخادم، وقال: ‘‘شُكرًا، راشد’’. ثُمَّ غادرَ السُّوريُّ. ‘‘بمَ أردْتَ أن تُكلِّمَني؟’’

دُهِشَ پروميثيوس حيالَ كَونه يتكلَّم إلى طبيبٍ شابٍّ هكذا. وكان قد توقَّع رؤيةَ شخصٍ أكبرَ سِنًّا وأطولَ خبرةً. ‘‘جئتُ أتوسَّلُ إليك لأجلِ سيِّدتي. إنَّها مريضةٌ مَرَضًا شديدًا، سيِّدي’’.

‘‘في المدينة أطبَّاءُ كثيرون. لماذا جئتَ إليَّ؟’’

‘‘لقد عايَنَها أطبَّاءُ كُثُر، سيِّدي. وقد قصدَتْ إلى الكهنة، وقدَّمَت قرابينَ نَذْريَّة إلى آلِهةٍ عديدين. وقالت لي خادمتُها إنَّها أمضَتْ ليلةً في الأباتون’’.

فوجدَ ألِكسَندر نفسَه مُحِبًّا للاستِطلاع: ‘‘كيف يظهرُ أنَّها مريضة؟’’

وأخبرَه پروميثيوس بكُلِّ ما شاهدَه.

‘‘أيُمكِن أن يؤتى بها إلى هنا؟’’

‘‘سأضطرُّ إلى حَملِها، سيِّدي. ومع كَونها خفيفةُ الوزن، فإنَّ المسافةَ طويلة’’.

فتجهَّمَ ألِكسَندر، وقال: ‘‘حَسَنٌ جدًّا. لديَّ أُناسٌ أعُاينُهم اليوم، ولكنِّي سأُدبِّرُ وقتًا كي أذهبَ وأفحصَها هذا المساء. أينَ تسكُن؟’’

وأخبرَه پروميثيوس.

فخفقَ حاجِبا ألِكسَندر، وقال بجَفاء: ‘‘يُستبعَدُ أن يكونَ ذلك حيَّ الفُقراء’’. وقد تساءلَ عن سبب عدم قُدرتها على المجيء مَحمولةً في محفَّة.

‘‘لقد أفقرَها مرضُها، سيِّدي’’.

فقال: ‘‘أوه!’’ وأومأ برأسِه. ودارَ الشابُّ كي

ينصرِف. فقال ألِكسَندر: ‘‘لحظةً! تيقَّنْ بأنْ تفهمَ سيِّدتُكَ أنّي لا أقطعُ وعودًا. إذا كان في وُسعي أن أُساعِدَها، فسأفعلُ ذلك. وإنْ لم يكُن، فإنَّ مصيرَها سيُترَكُ في أيدي الآلِهة’’.

‘‘أنا أفهمُ هذا، سيِّدي’’.

‘‘أرجو أن أتمكَّنَ من مُساعدتها’’.

فقال پروميثيوس: ‘‘شكرًا، سيِّدي. عسى أن يُباركَكَ اللّه من أجل لُطفِك’’.

فارتفعَ حاجِبا ألِكسَندر. ورفعَ نظرَه مُجدَّدًا إذ غادرَ العبدُ الغُرفة.

عندئذ، دخلَتْ هَدسَّة. وتوقَّفَت قليلًا في مدخل الباب، ناظرةً وراءَ الشابّ. ‘‘مَن يكون؟’’

فرَنا ألِكسَندر إليها. ‘‘إنَّه الشابُّ الذي أرادَ أن يُكلِّمَني البارحة. أمَا تذكُرين؟’’ وابتسمَ لها ابتِسامةً ساخِرَة. ‘‘ذاك الذي بَعثتِ له بنِصفِ حَجَلِكِ!’’

‘‘نعم، سيِّدي. ولكنْ ما اسمُه؟’’ فمعَ أنَّها لم تُلقِ عليه نظرةً وافية، بدا مألوفًا عندَها.

وهزَّ ألِكسَندر كتِفَيه لامُبالاةً، ثُمَّ انكبَّ على الدَّرْجِ مُجدَّدًا. ‘‘لم أسألْه عن اسمه’’.

إنَّما في اللَّيلةِ الآتية لاحقًا سيَكونُ لدى ألِكسَندر سَببٌ وجيهٌ لِيَتمنَّى لو سأله.

٢٥

سَمِعَ مَرقُس قَرعًا على الباب. فتَجاهَلَه وظلَّ مُستَلقِيًا علِى الحصير ومُحدِّقًا إلِى السَّقف القائم فوقَ العوارض، وقد تسلَّلَتْ أشعَّةُ الشمس من بضعةِ شُقوق. كان البيتُ قد باتَ بحاجةٍ إلى ترميم. وبعدَ بضعِ سنينَ أُخرى من المطَرِ والأحوال الجوِّيَّة السيِّئة سيبدأ السَّقفُ بالتَّداعي. فكم سنةً ستمرُّ قبل أن تُخرِبَه الريح والعواصف نهائيًّا؟

ثُمَّ سُمِعَ القَرعُ ثانيةً، أعلى هذه المرَّة وأكثرَ إصرارًا.

فأُسخِطَ مَرقُس ونهضَ واقفًا. وعبرَ الغُرفةَ القاتمة بما فيها من أعمدةِ نورٍ مُغَبَّرة. عسى أن يكونَ للمُتطفِّلِ ذَوقٌ سليمٌ فيرحلَ قبلَ وُصوله إلى الباب! وفتحَ البابَ فوجدَ العجوزَ التي سبقَ أن تكلَّمَتْ إليه في السُّوق. وقد كانت مُتوكِّئةً بتثاقُلٍ على عُكَّازِها.

قالت: ‘‘إذًا، ما زلتَ هنا’’.

فأجابَ بلهجةٍ تفتقرُ إلى أيِّ تعبير: ‘‘هكذا يبدو. ماذا تُريدين؟’’

وتأمَّلَته من رأسه إلى قدمَيه. ‘‘لماذا تُقيمُ في بيتِ الموتى؟’’

فأجفلَ كما لو كانتْ قد صفعَتْه على وجهه. لقد جاء لكي يشعُرَ بأنَّه قريبٌ من هَدسَّة، لا لكي يُذكَّرَ بأنَّها مَيّتة. وشُحِبَت يدُه على الباب. ثُمَّ قالَ للمرأة- مُحدِّقًا إليها بِانشِداه: ‘‘لماذا تُزعجينَني، يا عجوز؟’’

‘‘هذا البيتُ ليسَ لك’’.

مَن سوى امرأةٍ عجوز على حافَةِ قَبرها يجرؤ أن يتحدَّى رومانيًّا لاستيلائه على بيتٍ مهجور؟ التَوى فمُه بابتسامةٍ جافية: ‘‘هل جئتِ لتُحاوِلي طَرْدي؟’’

وضعَت كِلتا يدَيها على عُكَّازِها، ونصبَتها أمامَه. ‘‘جئتُ كي أعرِفَ سببَ حُضورِكَ إلى هنا’’.

فلاذَ بالصَّمتِ مُنزعجًا.

وحدَّقت إلَيه ثانيةً. ‘‘ماذا ترجو أن تَجدَ في هذا المكان، يا رومانيّ؟’’

فقال: ‘‘العُزلة’’، وسَفَقَ الباب.

وقرعَتْ من جديد، ثلاثَ دَقَّاتٍ شديدة.

فصاحَ من داخِلِ البابِ المغلَق: ‘‘انصرِفي!’’ وجلسَ إلى الطاولة. ومرَّرَ أصابِعَه في شعرِه كالمشط، مُمسِكًا رأسَه بيَدَيه. فقرعَت أيضًا ثلاثَ دقَّاتٍ شديدة أُخرى. وشتمَ مَرقُس هامِسًا.

‘‘انصَرفي!’’

فكلَّمتهُ عبرَ البابِ المغلَق. ‘‘هذا ليسَ بيتَك’’.

وشدَّ مَرقُس حَنَكه، فيما قلبُه يدقُّ دقَّاتِ غضبٍ شديدة. ‘‘قولي لي اسمَ المالك، فأشتريَه!’’ ثُمَّ مرَّتْ بِضعُ لَحَظات، فتنفَّسَ الصُّعَداءَ، ظانًّا أنَّها قدِ استَسلمَت ورحلَت.

دُق. دُق. دُق.

فضربَ الطاولةَ بقَبضتِه، ونهض. وإذ فتحَ البابَ على مصراعَيه، حدَّقَ إليها من عَلُ مرَّةً أُخرى. "ماذا تُريدين، يا عجوز؟ قولي لي، ثُمَّ اترُكيني بسلام".

وقالَت بصَبرٍ عنيد: "لماذا أنتَ هنا؟"

"هذا **شأني**".

"هذه **قريَتي**. لقد وُلِدتُ هنا منذ سَبعٍ وثمانين سنة. وقد كان هذا البيتُ لِرَجُلٍ عرفتُه واحترمتُه". ثُمَّ نظرَت إلى عَينَيه مُباشرةً. "أنا لا أعرفُك".

ذُهلَ مَرقُس حِيالَ جُرأتِها البالغة. "هذا البَلَدُ البائس يخصُّ روما! يُمكنُني أن آخُذَ ما أُريدُه، وأنا أُريدُ هذا البيت". وفيما هو يتكلَّمُ بَعد، سَمِعَ الغَطرسةَ ترنُّ في كلِّ كَلمةٍ خرجَتْ من شفتَيه. وأشاحَ بناظِرَيه عن ناظِرَيها. ثُمَّ قال بنَبَراتٍ مُهاجَة: "انصرِفي فحسْب!"

فرفعَتْ عُكَّازَها وضربَتِ البابَ بطَرَفه. "لن أنصرفَ

حتَّى أتلقّى جَوابًا يُرضيني. لماذا أنتَ هنا؟''

تأمَّلَها مَرقُس مُتعَبًا بِضعَ لَحظات، مُحاوِلًا أن يُفكِّرَ في جوابٍ من شأنه أن يُرضيَها ويجعلَها تمضي في سبيلِها. فلم يستَطعْ أن يُفكِّر في أيِّ جواب. وكيف يُمكِنُه ذلك؟ إنَّه لم يكُن مُتيقِّنًا، ولو قليلًا، لماذا هو هنا بَعد. فقد سحقَ فراغُ البيتِ روحَه.

قالَ بضعف: ''لستُ أدري. أأنتِ راضية؟'' ثُمَّ استَدارَ ورجعَ إلى داخِل البيت مُجدَّدًا. وإذ سَمعَ صوتَ عُكّازِها، التفَتَ فرأى أنَّها قد تبعَته إلى الداخل. فقالَ بفُتور: ''لم أدعُكِ إلى الدخول''.

فقالَت بنَكَد: ''الذي دعاك إلى الدُّخول هو نفسُه دعاني''. وانغرسَتْ على بُعدِ بضعِ خَطَواتٍ داخلَ الباب.

تنهَّدَ تنهُّدةً ثقيلة، ومرَّرَ يدَه في شعره وارتَمى بقُربِ الطاولة مرَّةً أُخرى. ولم يقُلْ كَلِمةً واحدةً إضافيَّة. وظلَّتْ هي صامتةً وقتًا طويلًا، فرفَعَ عينَيه نحوَها، وإذا بها تنظرُ ببُطءٍ حوالَيها في أنحاء الغُرفة.

قالَت: ‘‘لم أدخُلْ هذا البيتَ مُنذُ غادروا’’. ورفعَتْ نظرَها إلى النُّورِ المتسلِّلِ عبرَ السَّقف. فهزَّتْ رأسَها بحُزن. ‘‘كانَ من شأنِ حنانيًّا أن يُصلحَ هذه الشُّقوق’’. ثُمَّ نظرَتْ إلى مَرقُس، وانتظرَت.

فلاقى مَرقُس حَملَقتَها الثابتة بصَمتٍ عنيد.

أخيرًا قالَتِ العجوز: ‘‘لقد بِتُّ أعرِفُ الجوابَ عن سؤالي. أنتَ هنا بسببِ هَدسَّة. ماذا جرى لها؟’’

فقال بجفاف: ‘‘إذا قلتُ لكِ، فهل تنصرِفين؟’’

‘‘ربَّما’’.

‘‘لقد قُتِلَت. في ساحةِ مُدَرَّجٍ بأفَسُس’’.

فاقتربَتِ العجوزُ إليه أكثر. ‘‘ولماذا يهمُّ مَوتُ شخصٍ يهوديٍّ آخَرَ رومانيًّا بهذا القَدْرِ البالغ؟’’

وومضَت عَيناه. ‘‘لقد كانت خادِمةً خاصَّة في بيتِ أبي’’.

‘‘ولهذا السَّببِ وحدَه، تُسافِرُ أميالًا كثيرةً جدًّا لكي ترى أين عاشَت؟’’ ثُمَّ ابتسمَت.

وإذ شقَّ على مَرقُس أن يحتمِلَ حَملَقتَها المتفحِّصة، قام ومشى إلى النافذة. وحدَّق مُتنهِّدًا إلى السَّماء الزَّرقاء الساخنة. ‘‘هذه مسألةٌ شخصيَّة، يا عجوز’’.

‘‘ليست شخصيَّةً جدًّا بحيثُ لا تعرفُ بأمرها القريةُ كلُّها’’.

فالتفَتَ إليها. ‘‘ماذا يعرفون؟’’

‘‘أنَّ رومانيًّا جاء باحثًا عن بيتِ هَدسَّة. وأنَّه، بعدما وجدَه، حابِسٌ نفْسَه في داخِله كمَن يحبسُ نفسَه داخِلَ قبر’’.

فحدَّق إليها بغَضَب، مُتصلِّبًا. ‘‘فيمَ تهمُّ أسبابي أيَّ شخص؟ ليَنْصرفوا إلى شؤونهم الخاصَّة ويَدَعُوني وشأني!’’

‘‘إنَّ رِجليَّ تتعبان. فاطلُبْ منِّي أن أجلس’’.

‘‘أفضِّلُ أن أطلَبَ منكِ أن تُغادري!’’

فتنهَّدَتْ مُتعَبةً، واتَّكأت على العُكَّاز بمزيدٍ من التَّثاقُل. ‘‘أعتقدُ أنَّ عَليَّ أن أتحمَّلَ سوءَ مُعاملَتكَ للضَّيف’’.

وكان جوابُ مَرقُسَ الوحيدُ شَخرةً فَظَّة.

‘‘بالتَّأكيد، سيكونُ أمرًا يفوقُ الحدَّ أن نتوقَّعَ حتَّى معروفًا بسيطًا من رومانيّ’’.

‘‘أُوهِ، حَسَنٌ جدًّا! اجلسي! وبعد أن تَستَريحي، **اذهبي**’’.

فأشرقَتْ سِيماؤها ببَصيصٍ منَ المرح، وقالَت: ‘‘شكرًا لك! كيف يُمكِنني أن أرفُضَ دَعوةً كريمةً كهذه؟’’ ثُمَّ أراحَتْ نفسَها على الكرسيّ، ولبِثَت صامتةً وقتًا طويلًا، مُتأمِّلةً مَرقُس. فتَضايقَ منها.

‘‘أهذه مدينةُ القُدسِ لَدَيك، يا رومانيّ؟’’

‘‘ماذا تَعنين؟’’

‘‘هل نايين هي مدينتُكَ المقدَّسة؟ آأنتَ هنا في سَفرة حَجٍّ إكرامًا لعبدةٍ أحببتَها؟’’

بدَّدَ سؤالُها غضبَه، وابتعَثَ حُزنَه من جديد. فقعَدَ مُتثاقِلًا على البَنكِ تحتَ النافذة. ومكافَحةً للعواطفِ الجائشة في داخلِه، أسندَ ظهرَه إلى الجدار. ‘‘لماذا لا تتركينني بسَلام، يا عجوز؟’’

‘‘أيَّ سلامٍ ستَجدُ هنا في هذا البيت؟ سلامَ الموت؟’’

فأغمضَ عَينَيه. ‘‘انصرِفي’’.

ولكنَّها بقِيَت، مُرسَّخةً على الكُرسيّ. ‘‘متى أكلتَ آخرَ مرَّة؟’’

فضحِكَ ضِحكةً واهية. ‘‘لستُ أذكُر’’.

ونهضَتْ بصُعوبة. ‘‘تعالَ معي. سأُعطيكَ ما تأكُله’’.

‘‘لستُ جائعًا’’.

‘‘أنا جائعة. تعالَ معي، وسنتحدَّث بسببِ وجودِكَ هنا’’.

‘‘عَرضٌ لطيف، يؤسفُني أن أرفُضَه’’.

‘‘أُمورٌ كثيرة تؤسفُك، أليس كذلك؟’’ واخترقَته عَيناها الداكِنتان. ‘‘أمن أجلكَ ماتَتْ هَدسَّة؟’’

فهَبَّ مَرقُس واقفًا. ‘‘إنَّ إصرارَكِ شديدٌ فوقَ الحدّ’’.

اتَّكأت على عُكَّازها، ونظرَت إليه باكتئاب. ‘‘ماذا ستَفعل؟ أتطرحُ عجوزًا عرجاءَ مسكينة في الشارع؟’’ وابتسمَت ابتسامةً واهيةً إزاءَ نظرة الذُّعرِ على وجهه. ‘‘أنا أكبرُ سنًّا من أن أخشى أيَّ شيء’’. وقرعَتِ الأرضَ بعَصاها قَرعًا خفيفًا، فذكَّرَته بالرَّاعي الصَّغير على التِّلال. ‘‘تعالَ معي، يا رومانيّ، فأُخبِرَك بكُلِّ ما أتذكَّره عن هَدسَّة’’.

كانت تِلكَ مُلاحَظةً مدروسة، وعرَفَ هو ذلك. ‘‘إلى أيِّ مدًى كُنتِ تعرفينَها؟’’

مَشَت بجَهدٍ إلى الباب وتوقَّفَت هناك، مُديرةً

ظهرَها نحوَ نُورِ الشَّمس بحيثُ لم يستطع أن يُلاحِظَ سِيماءَها. "لقد عَرَفتُها منذُ لحظةِ ولادتها حتَّى اليوم الذي فيه غادرَتْ مع عائلتها للذَّهاب إلى مدينة القدس لأجلِ الفِصح". ثُمَّ مشَتْ خارِجةً إلى ضِياء الشمس.

لَحِقَ بها مَرقُس خارجًا إلى الشارع ضابطًا سُرعتَه على سُرعتِها. وبعدَ المرور أمامَ بضعةِ أبوابٍ في الشارع، دخلَتْ بيتًا يُشبِه إلى حدٍّ بعيد ذاك الذي غادَراه توًّا. فوقفَ في الباب المفتوح وحدَّقَ إلى الداخل. وإذا كلُّ شيءٍ نظيفٌ ومُرتَّب.

قالت له: "هَلُمَّ إلى الداخل".

"سيَتدنَّسُ بيتُكِ إذا دخلتُه".

فضحِكَت مدهوشةً. "أنت مُلِمٌّ بشريعتِنا".

وقال عابسًا: "إلى حدٍّ كافٍ".

"ما دامَ ربُّنا قد أكَلَ مع جُباة الضرائب والزانيات، فأعتقِدُ أنَّ في وُسعي أن آكُلَ مع رومانيّ".

وأشارت إلى أحَدِ الكراسيّ، قائلةً: ‘‘اقعُد هناك’’. فدخلَ مَرقُس وقعد. وإذ تنشَّقَ رائحةَ الطَّعامِ المطبوخ، هدرَت مَعِدتُه. ثُمَّ دفعَتْ نحوه قصعةً تحوي بلحًا، قائلةً: ‘‘خُذ قَدْرَ ما تُريد’’. فشغَّلَ فمَه، مُراقِبًا إيَّاها. لقد خطَّطَت لهذا مُسَبَّقًا.

وإذِ انحنَتْ أمامَ الجمرِ المشتَعِل، غرفَت شيئًا من العصيدة وصبَّت في صَحنٍ خشبيّ، ثُمَّ وضعَته قُدَّامَه. وصبَّتْ لنَفسِها حِصةً أقلَّ، وجلسَتْ قُبالتَه. ثُمَّ دفعَت سلَّةً نحوَه، وكشفَتِ الغِطاءَ عن الخُبزِ الفطير الذي تحويه.

‘‘قُلتِ إنَّكِ ستُخبِرينني بشأن هَدسَّة’’.

‘‘كُلْ أوَّلًا’’.

فكسَرَ مَرقُس الخُبزَ بفَمٍ مشدود، وغمسَ لُقمةً في العصيدة. وبعدَما ذاقَ مِقدارًا قليلًا، استَسلمَ لجوعه. ثُمَّ ملأتِ العجوزُ كُوبًا فخَّاريًّا بالخمر، ووضعَته قُدَّامَه. ولـمَّا فرغَ صحنُه، ملأته ثانيةً، ثُمَّ جلسَتْ وراقبَته يأكل. ‘‘أكُنتَ صائمًا أم تجوِّعُ

نفسَكَ حتَّى الموت؟’’

‘‘لا هذا ولا ذاك’’.

وأتَت على حِصَّتها الخاصَّة الضئيلة. وإذ لاحظَت أنَّ صحنَه فارغ، رفعَت حاجِبَيها قليلًا. ‘‘مزيدًا؟ لديَّ كثير’’.

فهزَّ رأسَه، ثُمَّ ضَحِكَ ضِحكةً كئيبةً ترشحُ هُزءًا بالنَّفس. وقالَ ببساطة: ‘‘شُكرًا لكِ’’.

فوضعت أحَدَ الصَّحنَين فوقَ الآخر، وأزاحَتهُما جانِبًا. وإذ نهضَت مُتَيبِّسةً، شقَّتْ طريقَها عبرَ الغُرفة، وأنَّت أنَّةَ فَرَجٍ وهي تقعدُ على بعضِ الوسائدِ البالية. ‘‘اسمي دَبُورة’’. ثُمَّ نظرَت إليه وانتظرَت.

‘‘مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان’’.

‘‘كان لهَدسَّة أخٌ أكبَرُ اسمُه مَرقُس. وقد باشرَ حنانيَّا تدريبَه ليَصير فخَّاريًّا منذُ نُعومةِ أظفاره، لكنَّه قال إنَّ لدى مرقُس مَوهبةً عظيمة. فإنَّ حنانيَّا رأى نفسَه فخَّاريًّا بسيطًا، أمَّا مَرقُس فكان

فنَّانًا’’. وأومأت برأسِها نحو رَفٍّ مَحفورٍ داخِلَ جِدارِ الطِّين السميك. ‘‘لقد صنعَ ذلك الإبريق لـمَّا كان في الثانية عشرة’’.

فرفَعَ مَرقُس نظرَه ورأى أنَّ صنيعَ الصَّبيِّ يُضاهي ما قد شاهدَه هو في روما.

‘‘كان مَرقُس ابنَ خمس عشرة لـمَّا غادَروا إلى مدينة القدس’’.

تأمَّلَ مَرقُس الإبريقَ بشُعورِ حُزن. إذا كان ذلك الصَّبيُّ واعدًا بهذا الشكل في سنِّ الثانية عَشرة، فماذا كان مُمكنًا أن يُنجِزَ لو بقيَ حيًّا؟ ‘‘أمرٌ يدعو للأسف أنَّه مات في هذا العُمرِ الباكر’’.

‘‘يدعو للأسَف لنا. إنَّما بَرَكةٌ له’’.

فرمقَها مَرقُس بِنظرةٍ قاتمة: ‘‘أتُسَمِّينَ الموتَ بَرَكة؟’’

‘‘إنَّ مَرقُس هو عندَ الرَّبّ، شأنُه شأنُ أُمِّه وأبيه وأُختَيه’’.

وأصابَ قلبَه سَهمُ ألمٍ سريعٌ. ‘‘أتحسبينَها بَرَكةً إن قُلتُ لكِ إنَّ هَدسَّة مزَّقَتها الأُسود إرْبًا إرْبًا؟ أوَتحسبينَها بَرَكةً إنْ- قلتُ لكِ إنَّ الناسَ كانوا **يهتفون** وهي تموت؟’’ وقد كانت أُختُه هو في عِدادِهم.

‘‘أنت غاضبٌ جدًّا، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان. ما جَوهرُ الأمر؟’’

فأطبَقَ أسنانَه بشِدَّة. ‘‘جئتُ إلى هنا لأسمعَ عن هَدسَّة، لا لأتحدَّث بشؤوني’’.

طَوَت يَدَيها في حضنِها، وحدَّقتْ إليها بإبهام. ‘‘قليلٌ ما يُحكى عنها. لقد كانت هَدسَّة فتاةً هادئةً تفعلُ ما يُطلبُ منها. ولم يكُن فيها شيءٌ استثنائيّ. وكانت جَبانة. فكُلَّما أخذَ حنانيًّا عائلتَه إلى مدينة القُدس، كان يُمكِنُكَ أن ترى أنَّ تلك الفتاةَ مرعوبة. لم يكُن إيمانُها قويًّا جدًّا’’.

‘‘لم يكُن قويًّا؟’’ وأطلقَ ضِحكةً خَشِنة تعبِّرُ عن الشّكّ.

فتأمَّلَته، وقالت: "ليس كما أذكُرها". ولـمَّا لم يُقدِّم أيَّ تفسير، هزَّت كتِفَيها، وأضافَت: "كانَ سيُسعِدُ هَدسَّة أن تبقى في هذه القرية طُولَ عُمرها، حيثُ تتزوَّج وتُنجِبُ أولادًا ولا تُغامِرُ بتَخطّي شطِّ بُحيرَةِ الجليل التي أحبَّتها. لقد كانت مُستريحةً في حِمى الأقرباء والأصدقاء والأمُور المألوفة لَدَيها".

"وهذه كلُّها سلبَها إلهُها إيَّاها".

"هكذا يبدو الأمرُ في ظاهره".

فطوَّقَ بكِلتا يَدَيه في تَراخٍ كُوبَ الفخَّار على الطاولة أمامَه. "مَن كان أصدقاؤها؟"

"صبيانًا وبناتٍ من عُمرِها، لا يُمكِنُكَ أن تتكلَّم إلى أيٍّ منهم".

"ولِمَ لا؟ ألأنَّني أُمَميّ؟"

"لأنَّ عائلتَها لم تكُنِ العائلةَ الوحيدة التي لم ترجعْ من مدينة القُدس. ففي هذه القرية كثيرٌ من البيوت الخاوية".

فأجفَلَ مَرقَس. لقدِ اعتراه الخَجَل- الخَجَلُ من جرَّاء تصرُّفه تُجاهَ العجوز، الخجلُ بكَونه رومانيًّا. فوقف ومشى إلى الباب المفتوح. وحدَّق خارجًا إلى الشَّارع التُّرابيّ. كانت ريحٌ خفيفةٌ تُثيرُ الغُبار. وكانتِ امرأةٌ تسيرُ في الشارع، مُوازِنةً على رأسِها جَرَّةً كبيرة فيما أولادُها يثِبُونَ إلى جانبِها بمَرَح. وكانَ شيخٌ قاعِدًا خارجَ بيته، مُسنِدًا ظهرَه إلى الحائط.

"كيف كانت هَيئة هَدسَّة لـمَّا عرَفتَها؟" بهذا السؤال بادرَته العجوزُ من ورائه.

فرفَعَ حَملَقتَه نحو السَّماء الصافية. "أوَّلَ مرَّةٍ رأيتُها، حَسِبتُها تمامًا كما قُلتِ: غيرَ استثنائيَّة. كادَت أن تموتَ جُوعًا. وكان رأسُها محلوقًا، وقد بدأ شعرُها يطلعُ من جديد. وكان في وجهِها أكبرُ عينَين بُنِّيَّتينِ رأيتُهما على الإطلاق".

ثُمَّ التفتَ ونظرَ إلى العجوز. "لقد خافَت منِّي. فكلَّما اقتربْتُ إليها، كانت ترتجف. هذا في البَداية. وفي ما بعدُ، قالَت لي أُمورًا ما كان أحَدٌ سِواها لِيجرؤَ على قولها". وتذكَّر كيف أقبلَتْ إليه

في حدائقٍ كلاوديوس وتوسَّلَت لأجلِ حياةِ العبيد. وكيفَ- في الوقتِ ذاته- تضرَّعَت لأجلهِ هُوَ.

“رجاءً، مَرقُس، أتوسَّل إليك. لا تجلِبْ على رأسك خطيَّةَ سفكِ دمٍ بريء”.

وأغمضَ عينَيه. ‘‘كنتُ أبحثُ عنها فأجدُها في الحديقةِ ليلًا، جاثيةً على رُكبتَيها. وأحيانًا مُنطرحةً علي وجهها’’. ثُمَّ فتحَ عينَيه من جديد، ووجهُه مُتصلِّبٌ. ‘‘تُصلِّي دائمًا إلى إلهِها غير المنظور، إلى **مسيحها**’’.

وقد تلفَّظ بهذه الكَلِمة كما لو كانت لعنة.

ثُمَّ ارتقصَتْ عَضَلةٌ في حَنَكِه. ‘‘في ما بعد، حتَّى خلالَ النَّهار، كنتُ أعرفُ من سِيماءِ وجهِها فحسْب أنَّها تُصلِّي. في أثناء قيامِها بالعَمَل. في أثناء أدائها للخِدمة’’. وهزَّ رأسَه. ‘‘لقد قُلتِ إنَّها كانت قليلةَ الإيمان. ولكنّي أقولُ لكِ إنِّي ما عَرَفتُ قطُّ أحَدًا ذا إيمانٍ أكثرَ عِنادًا من إيمانها. فما كان أيُّ مِقدارٍ من المنطِق ليَثنِيَها عن قناعتِها. ولا حتَّى التهديدُ بالموت. ولا حتَّى

الموتُ نفسُه’’.

سالَتِ الدُّموع من عَينَي العجوز، غير أنَّها كانَت تبتسِم. ‘‘لقد طهَّرَها الله’’.

فأثارَت هذه الكلماتُ غضبَ مَرقُس الأشدَّ. ‘‘طهَّرَها لِتكونَ ماذا؟ أُضحيَّةً نبيلة؟’’

فرفعَتْ دَبُورة نظرَها إليه. ‘‘لأجلِ قصدِه الخيِّر’’.

‘‘قَصدٌ خيِّر؟ أيُّ خيرٍ كان في موتها؟ إنَّ إلهكُم في القديم كان يكتَفي بدِماء الحُملان’’. وضَحِكَ ضِحكةً خَشِنةً خاليةً من المرح. ‘‘أتُريدين أن تعلَمي لماذا ماتت هَدسَّة؟ لأنَّ ابنَه لم يكتفِ بالأضاحيِّ القديمة. إنَّه يُريدُ دماءَ مؤمِنيه!’’

رفعَتْ دَبُورة يدَها قليلًا. ‘‘اقعُد، يا مَرقُس. اِهدأ، وأصغِ’’.

فقعدَ على الكُرسيّ، قائلًا: ‘‘لا شيء ممَّا قد تقولينَه سيُحدِثُ أيَّ فَرق’’. غير أنَّ جُوعَ النَّفس داخلَ مَرقُس أوهنَ عزمَه على رفع غضبِه كَتُرس. فشعرَ بأنَّه مُتعَب، مُضنَى الرُّوح.

وتكلّمَت دَبُورة بلَطف، كما إلى وَلَد. "إذا أمرَ قائدُ مئةٍ أحَد الجنود بخَوض المعركة، أفلا يذهب؟"

"لم تكُن هَدسَّة جُنديَّة".

"ألَم تكُن؟ إنَّ رُوما تُنشئُ جيوشًا للاستيلاء على الأراضي وسَوقِ الناسِ أسرى، لتَوسيع حُدودِ الإمبراطوريَّة إلى أقاصي العالم المعروف. ولكنَّ هَدسَّة كانت جُنديَّةً في جيشٍ من نوعٍ آخَر- جيشٍ يخوضُ حربًا روحيَّة لتَحرير القلبِ البَشريّ. وفي تلك الحرب، تفوزُ مشيئةُ الله".

فقالَ بصَوتٍ أجَشّ: "لقد خسِرَتْ هَدسَّة معركتَها"، وهو يرى بعَينِ ذهنهِ جُوليا تبتهجُ شامِتةً فيما هَدسَّة تُواجِهُ الموتَ وأنياب الأسود تنغرزُ في جسدها.

"وها أنتَ هنا".

وقعَت عليه الكلماتُ التي نطقَتْها دَبُورة بلُطفٍ ورِقَّة وقوعَ الصَّاعقة. فدفعَ الكُرسيَّ إلى الوراء كاشِطًا أرضيَّةَ الغُرفة التُّرابيَّةَ، وهبَّ واقفًا.

‘‘أَلَدَيكِ أيُّ مَزيدٍ من الحِكمة تُفصِحينَ عنه؟’’

فنظرَت إليه دَبُورة العجوزُ من تحتُ برَباطة جأش، ولم تنبِس بِكَلِمةٍ أُخرى.

رجعَ مَرقُس إلى البيت المهجور. وإذ كان مغتاظًا جدًّا، رفسَ البابَ مُغلِقًا إيَّاه على نفسِه، وأقسمَ إنَّه لن يفتحَه لأحَدٍ بَعد.

٢٦

دخلَت هَدسَّة منزِلَ جوليا بصَمت. كانت قد علِمَت لحظةَ تقدُّمِ ألِكسَندر في الشارع أينَ هي وإلى دارَةِ مَن هي ذاهبة. وقد ميَّزتِ الشُّعورَ المتزايد في أحشائها، لأنَّها عليمةٌ به منذُ أمَدٍ بعيد: **الخوف**. إلَّا أنَّها علِمَت أنَّ يدَ اللّٰه كانت في هذا الأمر، وهكذا صلَّت فيما حملَها راشِد على الدَّرَج الرُّخاميّ وقرعَ ألِكسَندرُ الباب، طالبةً أن تعرف ما يريدُه اللّٰه منها عندما يحلُّ الوقت.

فتحَتِ البابَ خادمةٌ شابَّة، لم تعرِفها هَدسَّة. وتركَّزَتْ عَينا الفتاة على هَدسَّة، حتَّى وهي تُرحِّبُ بألِكسَندر باحترامٍ بالغ. ثُمَّ تراجعَتِ الخادمة إذ دخلوا، مُنحَنيةً فيما حملَ راشِد هَدسَّة إلى غُرفةِ الانتِظار.

همسَت مُتضايقةً لراشِد أن يُنزِلَها. فأطاع، ومدَّ إليها يدَه كي تتَّكئ عليها. وقالَتِ العَبدة: ‘‘من هنا، سيِّدي’’، مُرتبكةً جدًّا وغيرَ مُتجاسِرةٍ على

النَّظر إلى هَدسَّة من جديد ولو نظرةً واحدة. ومشَتْ مُسرِعةً نحو الدَّرج.

أجالت هَدسَّة نظرَها في أنحاء غُرفةِ الانتظار العارية. وتذكَّرَتْ أنَّه كان في هذه الغُرفة تمثالَا حوريَّتَين من المرمَر، واحدٌ إلى كُلِّ جهة. أمَّا الآن فلم تَبقَ إلَّا أغراسُ النَّخيل في أوانيها الكبيرة، تَكادُ تموتُ من قِلَّة الاعتناء. وقد كانَت الجُدران في ما مضى مُغطَّاةً بالمطرَّزاتِ البابليَّة. وها هي الآن عارية. كذلك اختفَتْ أيضًا القواعدُ الرُّخاميَّةُ التي كانت تحملُ الزُّهريَّاتِ الكُورِنثيَّة الملآنة بالزُّهور.

استندَت هَدسَّة إلى ذراع راشد بمَشقَّة، وعرجَت نحو الدَّرَج. ولـمَّا وصلَتْ إلى أسفلِ الدَّرَج، نَتَرَها راشِد وحملَها على ذِراعَيه مُجدَّدًا.

وبينَما هو يَحمِلُها على الدَّرَج، تمتمَ في أُذنِها: "ما خَطبُكِ؟"

فقالَت: "لا شيء"، ناظِرةً من فَوقُ إلى الپَريستايْل فيما راشِد يحملُها صاعِدًا بها الدَّرَج.

كانَتِ النافورة ما تزالُ جارية، ولكنَّ طَبقةً كثيفةً من التُّراب كانت حوالَيها حاجِبةً الجداريَّات الرُّخاميَّة.

قرعَتِ الفتاةُ بابَ المهجَع قرعًا خفيفًا، ففتحَه شابّ. وما إنْ رأتْ هَدسَّة وجهَه، حتَّى عرَفَته، في الحال. إنَّه پروميثيوس. وقد كان صديقَها الوحيدَ في هذا البيت.

قالَ پروميثيوس: ''سيّدي!'' بتَرحيبٍ وقور، وقد بدا عليه جليًّا الفَرَحُ والسُّرورُ برؤية ألِكسَندر. ثُمَّ انحنى له، قائلًا: ''رجاءً، تفضَّل!'' وتراجَعَ قليلًا، مادًّا ذراعَه نحوَ وسطِ الغُرفة. ''السيِّدة جوليا راقدة''. ونظرَ إلى هَدسَّة إذ حملَها راشِد مُجاوِزًا إيَّاه، وقدِ ارتسمت على سِيمائه أماراتُ الفُضول، لا الخوفِ أوِ الاعتِبار.

تبدَّدَ خَوفُ هَدسَّة لحظةَ رأتْ جوليا مُستَلقِيةً على السَّرير. وإذ صدمَها منظرُها، شهقَتْ برِقَّة. فتوقَّفَ راشِد.

جاوزَهم پروميثيوس، وذهبَ إلى السَّرير.

فانحنَى ومَسَّ كتِفَ جوليا: ‘‘سيِّدتي، الطبيبُ قد حَضَر’’. فاستيقظت، ومدَّت يدَها، سامحةً له بأن يُساعِدَها على الجلوس. ثُمَّ ردَّت خصل شَعرِها المبتلَّة عن وجهِها الشاحب، ونظرَتْ عبرَ الغُرفة بعَينَين غائمتَين. وإذ تشبَّثَتْ بذِراعِ پروميثيوس، نهضَت بِلا إتقان.

قالَت هَدسَّة- وفي حلقها غُصَّة- ‘‘آه! أنزِلْني، رجاءً’’.

في تلكَ اللَّحظة علمَ راشِد أنَّهُم كانوا في جُبِّ الأسَد.

وكرَّرت: ‘‘راشِد’’.

فأوقفَها على قدمَيها كما طلبَت، إلَّا أنَّه أمسَكَ ذراعَها بأصابعَ صُلبة. ‘‘لا تقتربي منها كثيرًا’’.

لم تسمَعْه هَدسَّة. فقد كانت عَيناها على جوليا فقط. وكانت هذه تَرتَدي رُوبًا أحمرَ باهِتَ اللَّون، وشعرُها مَضفورٌ داخِلَ تاج. وقد بَدَتْ نحيلةً ومريضةً جدًّا إذ مدَّت يَدَها إلى ألِكسَندر، بطريقةٍ

مُلوكيَّة كعادتِها دائمًا. فانحنَى فوقَها كما قد يَنحني فوقَ يَدِ مَلِكةٍ شابَّة، قائلًا بلُطف: ‘‘سيِّدتي’’.

‘‘هل ترغبُ في قليلٍ من الخَمر؟’’

‘‘لا، شُكرًا لك، سيِّدةُ جوليا’’.

فقالَت: ‘‘لا بأس. فما عندي لأُقدِّمَه ليس جيِّدًا جدًّا’’. وعلِمَت هَدسَّة أنَّها ما تزالُ تشربُ شربًا ثقيلًا. ثُمَّ أدارَتْ جوليا رأسَها ونظرَت إليها. ‘‘أهذه رافا المشهورة؟’’ وكان في نَبَراتها مَسحةُ سُخرِيَة.

قال ألِكسَندر: ‘‘نعم!’’ ورأى أنَّ هَدسَّة تقِفُ على بُعدٍ لا بأس به عن السَّرير، وقد أمسكَ راشِد ذِراعَها بإحكام كما لو قصدَ أن يُبقيَها هناك. فعبسَ بعضَ الشيء ونظرَ إلى وجهِ الأعرابيّ الجامدِ القاتم. فسرى في أوصالِهِ ذُعرٌ مُفاجئٌ حِيالَ سِيماءِ راشِد. أيُّ خَطبٍ كان هُناك؟ وفي الحالِ نظرَ إلى عينَي الأعرابيّ ورفعَ حاجِبَيه قليلًا. فبادلَه راشِد النَّظرَ بِضَراوة، ثُمَّ خفقَت

حَملَقتُه من السيِّدة جوليا إلى رافا. ونظرَ إلى ألِكسَندر ثانية، ثُمَّ نَترَ رأسَه نحو الباب.

فسقطَ قلبُ ألِكسَندر.

وقالَت جوليا- ناظرةً إلى المرأة المحَجَّبة- "لقد أخبرَني خادمي بشأنكِ. يُقالُ إنَّكِ تَستَطيعين أن تصنعي مُعجِزات".

فتقدَّمَت هَدسَّة نحوها خُطوةً، وأجفلَتْ إذِ انغرزَت أصابَعُ راشِد في ذراعها.

وقال: "تجري المعجزاتُ فقط لِلَّذينَ يُحسَبونَ مُستَحِقِّين". وقد كان صوتُه أشدَّ قَتامًا ممَّا سمعَته هَدسَّة يومًا.

فابتسمَت جوليا بمرارة ونظرَت إلى پروميثيوس. "ماذا قلتُ لكَ؟" إنَّ الحسَّاسيَّة التي كانت هَدسَّة قد لمحَتها قبلَ قليل حلَّت محلَّها الآن بُرودةٌ ثابتة. ونظرَت جوليا إلى ألِكسَندر. "وكم سيُكلِّفُني أن تتفضَّلَ رافا العظيمةُ بوضعِ لمسَتِها الشافية على جِسمي غيرِ المستَحِقّ؟"

آحسَّ ألِكسَندر موجةَ كُرهٍ مُفاجئةً عاتية.

وسحبَت هَدسَّة ذِراعَها من قبضةِ راشِد، ثُمَّ عرجَت نحوَ السرير.

فقال ألِكسَندر: ‘‘رافا! إيَّاكِ!’’ إذ خشِيَ أن ترفعَ هَدسَّة نِقابَها كما رفعَته لفيبي ڤاليريان. وقد كانت المرأةُ المستَلقِية على هذا السرير أشبهَ بداءٍ خبيث.

لم تفهَمْ جُوليا المقصود، فانكمَشَت أمامَها، وعَيناها مُتَّسِعتانِ خَوفًا. ومدَّت هَدسَّة يَدَها، فطرفَت جوليا بعَينَيها، مُحدِّقةً إليها. ثُمَّ رفعَت عينَيها وحدَّقت إليها مُستَفسِرةً، مُحاوِلةً أن ترى ما وراءَ الحجاب. وباشَرَت مدَّ يَدِها، ولكنْ قُبَيلَ تلامُسِ أصابعِهِما سحبَت يَدَها إلى الوراء بحِدَّة. ثُمَّ قالَت بتَعالٍ: ‘‘لم تقولي لي ماذا يجِبُ أن أدفع’’، وقد كوَّرَت يدَها قبضةً ووضعَتها على صدرها.

فقال راشِد بنَكَد: ‘‘نفسَكِ’’، فيما قالت هَدسَّة: ‘‘لا شيء’’.

ونظرَت جوليا إلى كِلَيهِما مُرتبِكةً. ‘‘أيُّ الجوابَينِ صحيح؟’’

فقال ألِكسَندر بدُعابةٍ مُصطنَعة: ‘‘حَسِبتُكِ استَدعَيتِ طبيبًا’’. وخطا إلى الفُسحةِ بين جوليا وهَدسَّة. وإذ أمسكَ ذراعَ جوليا برِفق، أدارَها نحو سريرها. ‘‘فلأفحَصْكِ لأرى ما المشكلة. لكِ أن تُبقي خادِمَكِ حاضِرًا، إذا شئتِ’’.

فقالَت جوليا باكتئاب: ‘‘لا أُبالي’’، إذ كانت قد فقدَتْ منذُ زمَنٍ طويل كُلَّ حِسِّ احتِشام.

وعرجَتْ هَدسَّة نحوَ السَّرير. ‘‘لكَ أن تذهب، يا پروميثيوس’’.

فحدَّق پروميثيوس إليها بِحدَّة.

وشُحِبَ وجهُ جوليا. ‘‘كيفَ عرَفْتِ اسمَه؟’’

فقال راشِد: ‘‘إنَّ رافا تعرِفُ أشياءَ كثيرة. في وُسعِها أن تُبصِرَ سرائرَ النَّفس’’.

ودارَتْ هَدسَّة بحِدَّة. ‘‘لكَ أن تذهبَ أنت أيضًا، يا

راشِد’’.

فرفعَ رأسَه قليلًا، وعيناه قاتِمتانِ وشاخِصتانِ إلى جوليا ڤاليريان.

وقالت جوليا، بصَوتٍ مُرتَعِشٍ قليلًا: ‘‘لماذا ينظرُ إليَّ هكذا؟ كأنَّه يودُّ أن يقتُلَني!’’

فقالت هَدسَّة: ‘‘اذهَب!’’

ولم تتغيَّر سِيماءُ راشِد. ‘‘سأذهَب، ولكنْ لن أذهَبَ بعيدًا جدًّا’’.

ارتعدَتْ جوليا لـمَّا شاهدَتِ الأعرابيَّ يستَديرُ ويُغادِرُ غُرفتَها. ‘‘لم تلمَحْه عَيناي قطُّ قبلَ هذه الليلة، وهو يُحدِّقُ إليَّ ببُغضٍ أكادُ ألمسُه!’’

فقال پروميثيوس مُهدِّئًا: ‘‘إنَّه خَيالُكِ، سيِّدتي’’. ولكنَّه هو أيضًا تعجَّبَ ممَّا كانَ جاريًا.

وقالَت بتَوتُّر: ‘‘لِيَبقَ في الخارج فحَسْب’’. ثُمَّ أعارَتْ أَلِكسَندر وهَدسَّة كامِلَ انتِباهِهِا. ‘‘أتُريدانِ منِّي أن أخلعَ ثيابي؟’’

‘‘ليس الآن’’. وأومأ لها ألِكسَندر أن تجلسَ على سريرها. ثُمَّ وضعَ كُرسيًّا قُربَ السَّرير، وقَعَد. وبدأ بطرحِ أسئلةٍ عن مرضِها، مُصغيًا بانتباهٍ شديدٍ جدًّا بحَيثُ استرخَتْ وأفضَتْ إليه بكُلِّ بَلاياها، من جَفاءِ كالاباه إلى خيانةِ پريمُس. وفهمَت سُكوتَه باعتباره فَهمًا، وإيماءاتِ رأسِه باعتبارها تعاطُفًا.

أمَّا ألِكسَندر فلَم يشعُر بأيِّ واحِدٍ من هَذين.

‘‘وبعدَ ذلك كلِّه، سلبَني كلَّ مالي قبل أن يهجُرَني’’. ثُمَّ تنشَّقَتْ وفركَت أنفَها بِقَفا يَدِها.

تحدَّثَت وقتًا طويلًا. وتركَها ألِكسَندر تتمادى في الحديث، مع أنَّه اشتبَهَ فعلًا بِبَلواها. فمِن شأنِ فَحصٍ وجيز أن يؤكِّدَ المسألةَ في ذهنه. إلَّا أنَّه ظلَّ قاعِدًا يُصغي، مُتسائلًا عن العلاقة التي كانت قائمةً بين هَدسَّة وهذه الشابَّة الأنانيَّة على نحوٍ لا يُصدَّق. وقد تفاقمَتْ مَرارةُ السيِّدة جوليا إذ مضَت في حديثِها، ولكنْ معَها تكوَّنَت صُورةٌ جليَّةٌ عن مَدَى فُسوقِها.

وبعدَما أفرغَتْ كلَّ ما عندَها، قالَت أخيرًا: ‘‘هل من شيءٍ آخَر تُريدُ أن تعرِفَه؟’’

فقالَ بهدوء: ‘‘أعتقدُ أنَّكِ أخبرتني كفايةً. اخلَعي رُوبَكِ’’.

وفعلَت جوليا هكذا دونَ أدنى نَدَم، جاذِبةً الرِّداءَ الأحمرَ الباهِت إلى الوراء من فوقِ كتِفَيها. وبابتسامةٍ واهية، راقبَت وجهَ ألِكسَندر لِتَرى هل كانَ لَدَيه أدنى بصيصٍ من الإعجاب. فلم يكُن.

تفحَّصَها ألِكسَندر من رأسها إلى قدمَيها، ولكنْ لم يبدُ على وجهِه أيُّ شيءٍ سوى الاهتمامِ السَّريريِّ الشَّديد.

تضاءلَت ثِقةُ جوليا بنَفسِها. وفعلَتْ كما قال لها، باديًا عليها الاضطراب. ‘‘كانَ لي جسمٌ جميل’’.

واقتربَت هَدسَّة من السَّرير أكثَرَ.

استَغرقَ الفَحصُ وقتًا طويلًا، وأدَّى بجوليا إلى دُموعِ الألَم والخِزي. وقد كان ألِكسَندر مَنهجيًّا ومُتمكِّنًا. كانَ قَويَّ التَّحمُّل، ولكنْ ما إنْ تكشَّفَ

مدى مرضِ جوليا حتَّى جاهَدَ لإخفاء اشمِئزازه. ‘‘يُمكِنُكِ أن تستُري نفسَكِ مُجدَّدًا’’.

ففعلَت ذلك بسُرعة، غيرَ قادرةٍ أن تنظُرَ إلى ألِكسَندر.

ثُمَّ غادرَ جانبَ السَّرير، وعبرَ إلى طَسْت، فغسلَ يدَيه بحِرص. وبعدَما أراقَ الماءَ في إناءِ نَبتة، ملأ الطَّستَ واغتَسلَ ثانيةً.

عرجَت هَدسَّة إلى مكانٍ أقرَب، ولمسَت جوليا في كَتِفها. فأجفلَت بعضَ الشَّيء، ورفعَتْ نظرَها. وتنهَّدَت فَرَجًا، قائلةً: ‘‘أُوه! سأُشفَى الآن، أليس كذلك؟’’

‘‘الله وحدَه يشفي، سيِّدتي’’.

‘‘الله؟’’ وقطَّبَ وجهَها وميضُ خَوف. ‘‘أيُّ إله؟’’

فتكلَّم ألِكسَندر قبل أن يتسنَّى لهَدسَّة أن تتكلَّم، فقال: ‘‘أيَّ إلهٍ تعبُدين؟’’ مُنشّفًا يَدَيه بسُرعة وهو يمشي عائدًا إلى جانب السَّرير.

‘‘أيَّ واحِدٍ تقولُ إنّ عليَّ أن أعبُدَه. لقد كنتُ مُخلِصةً لأرطميس وأسكليپيوس. وقدَّمتُ قرابينَ لأكثرَ من عَشَرةٍ سواهُما’’.

وضعَ ألِكسَندر يدَه تحت مرفَقِ هَدسَّة، وبذلَ ضغطًا كافيًا لإزاحتِها جانبًا.

قلَّبتْ جوليا نظرَها بينَهما، وعَيناها تبرقانِ خوفًا. ‘‘هل عرفتَ بَلواي؟’’

أرخى ألِكسَندر الخرقةَ المبلَّلة على طاوِلة صغيرة، وقال بفَظاظة: ‘‘أنتِ مُصابةٌ بمرضٍ تناسُليّ، من نوعٍ خبيثٍ جدًّا لم أرَه قطُّ من قبل’’. ثُمَّ هزَّ رأسَه. ‘‘لو رأيتُكِ قبلَ الآن، لَربَّما...’’

‘‘قبلَ الآن؟ أتقولُ إنَّه يتعذَّرُ فَعلُ أيِّ شيء؟’’

فالتَفَتَ إلى هَدسَّة، وقال: ‘‘ما عدا وصفَ مَراهِمَ لتَسكينِ الطَّفرات حالَ حُدوثِها، لا شيء. فليسَ من شيءٍ يُمكِنُني أن أفعلَه’’.

طرفَت عَينا جوليا، واعتَرى وجهَها الشُّحوبُ الشديد.

فقال: ‘‘أنا آسِف’’. وقد خرجَتْ منه الكلمة صريحةً، خاليةً من الشُّعور.

‘‘لا يَبدو أنَّك آسِفٌ البتَّة!’’ وحدَّقت إليه بِضعَ لَحَظات، ثُمَّ تشنَّجَ وجهُها. ‘‘ما الأمر؟ أليس لَديَّ مالٌ كافٍ؟ أليس اسمي عظيمًا كفايةً؟ مَن أنتَ لتقولَ لي لا؟’’

طَوالَ خبرةِ ألِكسَندر، لم يكُن قطُّ قد شعرَ بمِثلِ هذه الكُره تُجاهَ أيِّ شخصٍ كما شعرَ تُجاهَ هذه الشابَّة. ولم يكُن ذلك لِمُجرَّدِ إدراكه أنَّها كانت فردًا من العائلة التي أرسلَتْ هَدسَّة إلى ساحةِ المحاربين. فهو لم يلتقِ قطُّ أيَّةَ امرأةٍ مُشبَّعةٍ بذاتها على غرارِها. وقد نَمَّ كثيرٌ من أعراضِها عن عيشَةِ خلاعةٍ وانغِماسٍ في الشَّهوات. وكان لها شحوبُ آكِلِ اللُّوطُس وهُزالُه- حين يستَخدِمُ الثَّمرة من أجلِ خصائصها المخدِّرة- وفاحَت مِن أنفاسِها بقوَّةٍ رائحةُ الخمرة الرخيصة. وقد تخطَّتْ مآثرُها الجنسيَّةُ بعيدًا أشيَعَ مَظاهر الحشمة. حتَّى إنَّه تساءَلُ هل يوجَدُ شيءٌ لم تفعلْه هذه المرأةُ الشابَّة، وأحسَّ يقينًا أنَّه لا يوجَد.

أمضَتْ أكثرَ من ساعة مُتحدِّثةً بشؤونها، وبعِلَلِها وأحزانِها وآلامِها ومُعاناتها. غير أنَّها لم ترَ أيَّ شيءٍ ممَّا كان حادثًا لها باعتبارِهِ من عواقبِ خِياراتها، ونَمَطِ حياتها، ونِشدانِ اللَّذَّةِ عندَ كلِّ مذبحٍ يعرفُه البَشَر. وقد كان التَّضارُبُ يُجَلجِلُ في كلماتِها. أمَا كان من حقِّها أن تلتمِسَ اللَّذَّة، أن تتمتَّعَ بالحياة كما شاءت؟ وأيُّ خطبٍ كان في ذلك؟ آه، لقد أرادَتْ منه أن يُناوِلَها دواءً شافيًا حتَّى يتسنَّى لها أن تستمرَّ في فِعْلِ كلِّ ما طابَ لها! ولم تُبالِ بمِهنتهِ ومبادئه ومشاعِره. وقد طلبَتْ أن يشفيَها، فيما هي مريضةٌ حتَّى الموت من جرَّاء ما فعلَته هيَ نفسُها.

لم يشعُرْ ألِكسَندر بأيَّةِ شفقةٍ حِيالَ امرأةٍ كهذه.

كان كلُّ ما استَطاعَ أن يُفكِّرَ فيه هو هَدسَّة، جِسمًا ينهشُه الألَمُ المبرِّحُ ويُضنيه، عذابَ شُهورٍ من النَّقاهة. ولم تتفوَّه قطُّ مرَّةً واحدةً بشَكوى، ولا ألقَتِ اللَّومَ على أحَد. وما مرَّ يومٌ واحِد- ولن يمرَّ أبدًا- إلَّا والألَمُ رفيقُها من جرَّاء الجراح التي قاسَتها في ساحة المدرَّج، كما أنَّ النُّدوبَ التي تحمِلُها بدَّدَت أيَّةَ فُرصةٍ لها في حياةٍ سويَّة.

أمَّا هنا فهذه الشابَّةُ المريضةُ والممرِضةُ تصرخُ طالِبةً العَون، لا بتذلُّل، بل بِلُغَةِ الأمر... وهيَ نفسُها كانت علَّةَ تلك المعاناةِ كُلِّها.

‘‘هذا ظُلم! ليسَتْ غلطَتي أنّي مريضة!’’

‘‘أليسَت؟’’ ووضعَ ألِكسَندر أدواته داخِلَ حقيبته المحمولة.

‘‘أعطِني شيئًا يجعلُني أتحسَّن! أنا أعلَمُ أنَّكَ تستطيعُ أن تهتَديَ إلى علاجٍ شافٍ إذا فكَّرتَ مَليًّا’’.

‘‘عندي مَرضى كثيرون’’.

‘‘لا يَعنيني أمرُ مَرضاك. أيُّ أهمِّيَّةٍ لَهُم إزاء مُعاناتي؟’’

وإذا بوَقعِ صَوتِ جوليا الحادِّ يجعَلُ الشَّعرَ على قفا رقبَتِه ينتصبُ.

عرجَت هَدسَّة نحوَه، ووضعَت يدَها على ذِراعه. ‘‘ألِكسَندر’’.

فسمعَ المناشدةَ اللّطيفة، واستَجابَ لها بغضب. "إيَّاكِ أن تطلُبي الأمرَ مُجرَّدَ طَلَب!"

"رجاءً!"

فهمسَ بضَراوة: "ألَا تَسمَعينَ شيئًا؟"

"أسمعُ صوتَ شخصٍ ضالّ".

فقالَ ثانيةً بحَزم: "ولا يستحقُّ أن يُوجَد". إنَّ المفارَقة بين الشَّابَّتَين قسَّتْ قلبَه ووطَّدَت فِكرَه.

"أمَا تُفكِّرُ مُجرَّدَ تفكير..."

"لقد فحصتُها، يا رافا. وأنتِ لمستِها. ذلك هو كلُّ ما يُمكِنُنا أن نفعلَه".

انفجرَتْ جوليا باكيةً.

وبدأتْ هَدسَّة تقول: "ألِكسَندر، رجاءً، أصغِ إليَّ..."

فأطبقَ حقيبتَه بإحكام، وحملَها. وهسَّ قائلًا: "لا

يُمكنُني أن أصغيَ إليكِ. لن أجازفَ بسُمعتي ومهنتي من أجلِ شخصٍ أعلَمُ أنَّه سيَموت”.
وقد كانت كلِماتُه عاليةً كِفاية بحيث سمِعَتها جوليا... وقاسيةً كِفايةً بحيثُ أخرسَتها.

استَدارَتْ هَدسَّة نحوَ السَّرير، ولكنَّه أمسكَ بذِراعِها وتوجَّهَ نحوَ الباب. “راشِد!” ولدى إيماءةِ ألِكسَندر برأسِه، عبرَ الأعرابيُّ الغُرفةَ بخُطًى واسعة، فالتَقَطَ رافا ورفعَها على ذِراعَيه، وحملَها خارِجًا.

دخلَ پروميثيوس الغُرفةَ فشاهدَهم يَمضُون.
ورأى جوليا تبكي على السرير، فنظرَ إلى ألِكسَندر. “ألا يُمكِنُكَ أن تفعلَ أيَّ شيء؟”

“لقد تمكَّنَ منها المرَضُ تمكُّنًا شديدًا”.

خارجًا، في هواء الليل البارد، تنفَّسَ ألِكسَندر عميقًا. لقد كان الجوُّ داخِلَ دارةِ جوليا ڤاليريان طاغيًا، إذ فاحَتْ منه رائحةُ الفساد.

ومشى بجانبِ راشِد إذ حَمَلَ هَدسَّة على الدَّرَج

نُزولًا. فلَم تُبدِ أيَّ اعتِراض. ثُمَّ أجلسَها راشِد برِفقٍ داخِلَ المحفَّة، وعدَّلَ الوسائدَ لإراحتِها. وقد كان ألِكسَندر يخشى ما قد تقولُه له وراءَ عُزلةِ الستائر.

من شأنها أن تتوسَّلَ إليه لأجل تلك الشَّابة الخسيسة، ولا أحَدَ نظيرَ هَدسَّة يستطيعُ أن يمسَّ قلبَه بالتوسُّل. وَقرَّرَ ألَّا يُتيحَ لها الفُرصة. فقال: "سأمشي!" وردَّ الستائرَ فأغلقَها، وحبسَها داخلَ المحَفَّة، وأمرَ حامِلِيها قائلًا: "انطلِقوا!"

اللَّيلةَ، لن يُصغيَ. اللَّيلةَ، تعطَّلَتِ الرَّحمةُ لَدَيه.

رفعَ الحامِلون هَدسَّة داخلَ المحفَّة وحملوها في الشارع.

ومشى راشد بسُرعةِ ألِكسَندر. "لقد أخبرَني خادِمُها بأنَّها ابنةُ فيبي ڤاليريان. أبوها مَيْت. ولها أخٌ اسمُه مَرقُس، غادرَ أفسُس منذ بضعة أشهُر".

‘‘وحياةِ الآلِهة، يا راشِد. لقد وضعتُ رأسَ رافا داخِلَ فَمِ الأَسَدِ تمامًا، أليس كذلك؟’’

‘‘لا بُدَّ أنَّ رافا عرَفَت’’.

‘‘لماذا لم تقُل شيئًا؟’’

كان هذا جوابًا لم يستَطع أيُّ الرَّجُلَين أن يجيبَ عنه بأيِّ مقدارٍ من الرِّضى. فكِلاهُما لم يفهماها. وما كفَّت هي قطُّ عن إذهالهِما وإرباكهِما.

قال راشِد- مُحدِّقًا أمامَه مُباشرةً وهو ماشٍ- ‘‘المرأةُ القاليريانيَّة مائتة، أليسَت؟’’

‘‘بلى، هي مائتة’’. ورمقَ ألِكسَندر الأعرابيَّ المتحجِّرَ الوجه. ‘‘إنَّها مسألةُ أشهُرٍ فحسْب، كما أُخَمِّن’’.

‘‘أوَّلًا الأُمُّ. والآنَ الابنَة’’.

فهزَّ رأسَه مُوافِقًا، ثُمَّ نظرَ أمامَه من جديد. ‘‘إنَّ هذا يحملُ المرءَ فِعلًا على التَّساؤل إن كان اللّٰه قد ضربَ آلَ ڤاليريان كلًّا على حِدَة جزاءَ ما فعلوه

بهَدسَّـة’’. وتساءلَ إذا كان من شأنِ هَدسَّـة أن تُفسّـِرَ ما كان يجري تفسيرًا كهذا. لقد قالَت إنَّ يسوع المسيح هو المحبَّةُ مُجَسَّدةً. أفيَلجَأ إله محبَّةٍ إلى مثل هذا الانتقام؟

وكان راشِد يُفكِّر في أُمورٍ أُخرى. ‘‘هل يكونُ موتُها مُؤلِمًا؟’’

‘‘وبطيئًا’’.

فانفرجَتْ أساريرُ وجهِ راشِد المتحجِّر. وقال: ‘‘جيِّد. سيَجري العدلُ مجراه’’.

٢٧

استيقظَ مَرقُس تحتَ حُزمةٍ من أشعَّة الشَّمسِ عبرَ النافِذة العالية. وأجفلَ إذ وخزَ الأَلَمُ رأسَه. فأنَّ وانقلَب مُبتعِدًا عن النُّور، واصطدم بدُولابِ الفخَّاريّ. فدفَعَ نفسَه إلى الجلوسِ شاتمًا، واستَندَ إلى الدُّولاب.

كان فمُه جافًّا، ولسانُه ثَخينًا. ورأى زقَّ الخمرِ الذي اشتراه البارحةَ مَطروحًا على الأرض رِخوًا. وبعثَتْ كلُّ دَقَّةٍ من قلبه سِهامَ أَلَمٍ في أجزاء رأسِه. حتَّى تمريرُ أصابعهِ في شعره المشعَّث آلمه.

ثُمَّ أثارَ نسيمٌ خفيفٌ الغُبارَ حوالَيه، ولاحَظَ أنَّ البابَ قد انفتحَ. وخُيِّلَ إليه أنَّه تذكَّرَ إغلاقَه البارحة، ولكنَّه لم يتذكَّر كثيرًا من أيِّ شيء بوُضوح.

ما عدا الحُلم.

فأغمضَ عَينَيه، وحاولَ أن يستَجمعَ أجزاءَ الحلم

وتفاصيلَه الثمينة... كانت هَدسَّة جالِسةً معه على بنكٍ في پريستايْل الدَّارة في روما... وكانت حامِلةً القيثارة بيَدَيها، مُنشِدةً برِقَّةٍ عن راعٍ. لقد كانت في أحلامه نابضةً بالحياة، جليَّة. فكان في وُسعه أن يرى وجهَها، ويسمعَ صوتَها، ويلمسَها. ولكنْ ما إنْ يستَيقظُ، حتَّى تروغَ منه.

مِثلَما راغَتِ الآن.

فاستَسلمَ شاتمًا بخِفَّة. وأرغمَ نفسَه على الوقوف، فتعثَّرَ عبرَ الغُرفة. وإذ أصابَه الغَثَيان، اتَّكأ على الطاولة بكُلِّ ثِقلِه، وأجالَ نظرَه في الغُرفة بحثًا عن زقِّ خمرٍ آخَر. إلَّا أنَّه أبصرَ العجوزَ بالأحرى، جالِسةً في الظِّلال تحتَ النافذة.

قال: "أنتِ!" وارتمى على الكُرسيّ. ثُمَّ وضعَ رأسَه في يدَيه مرَّةً أخرى. لقد كان الألَمُ الوخَّاز مُعَذِّبًا جدًّا.

"لا يَبدو أنَّك بخَير، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان".

"كانتْ لي صَباحاتٌ أفضل".

‘‘إنَّه عَصرُ النَّهار’’.

‘‘شُكرًا لكِ على البصيرة النافذة’’.

فضحِكَت ضِحكةً خافتة. ‘‘إنَّك تستَحضِرُ ذكرياتٍ عن زَوجي في أثناء احتِفالاتِ الفُوريم. فحِسَبَ تقاليدنا، كان يشربُ حتَّى لا يعودَ يُميِّزُ الفرقَ بينَ «ملعونٌ هامان» و«مُبارَكٌ مُردَخاي». آه، ولكنْ في اليوم التالي يَبدو كما تَبدو أنت الآن: أبيضَ ذابلًا، يشوبُه شيءٌ من الاخضِرار’’.

وفركَ وجهَه، آمِلًا أن تمضيَ العجوزُ إلى بيتها إذا لم يقُل شيئًا.

‘‘بالتَّأكيد، شرِبَ هو في سِياقِ عِيدٍ بهيج. وأنت تشربُ لتَنسى’’.

ثُمَّ خدِرَت يداه، فأنزلَهما على مهل، وحدَّقَ إليها. ‘‘لماذا تُصرِّين على الرُّجوع إلى هنا؟’’

‘‘جلبتُ لك جرَّةَ ماء. فاشرَب قليلًا، ثُمَّ اغسِل وجهَك’’.

انزعجَ من مخاطبَتِها له كما لو كان ولدًا تؤنِّبُه. ولكنَّه نهضَ مُترنِّحًا وفعلَ كما قالت. لعلَّها تُغادرُ حينَ يَنتَهي من القيام بما طلبَتْه. فشربَ كُوبًا من الماء، وصبَّ قليلًا في طَسْت. ولـمَّا فرغَ من غسلِ وجهِه، عادَ فجلسَ إلى الطاولة. "ماذا تُريدين هذه المرَّة؟"

ابتسمَتْ، غيرَ هائبةٍ إزاءَ فَظاظته. "أُريد منكَ أن تمشيَ في تلالِ الجَليل، وتُشاهِدَ حُملانَ الرَّبيع وزنابِقَ الحقل".

"لا تَعنيني الحُملانُ والزَّنابِق".

استخدمَت عُكَّازَها للنُّهوض. "لَن تَجِدَ رُوحَ هَدسَّة في هذا البيت يا مَرقُس". ولاحظَتْ تكشيرةَ ألَمِه، فلانَت سِيماؤها. "إذا كُنتَ قد جئتَ إلى نايين لِتَكونَ على مَقرُبةٍ من هَدسَّة، فسأُريكَ الأماكِنَ التي استمتعَتْ بها أكثرَ الكُلّ. وسنبدأُ بمُنحدَر تلٍّ في الجِهَةِ الغربيَّة من القرية". ثُمَّ مَشَت نحو الباب.

أمالَ مَرقُس رأسَه، ونظرَ إليها زامًّا عَينَيه. "أعَليَّ

آن أكابِدَ رِفقتَكِ على الطريق؟’’

‘‘علىِ أساسِ مَنظَرِك، لا أظنُّ أنَّك تستطيعُ أن تسبقني’’.

فضحِكَ ضحكةً واهية، وأجفل.

ووقفَتْ العَجوزُ على العَتَبة. ‘‘كانت هَدسَّة تحبُّ الحُملانَ والزَّنابِق’’.

بقيِ مَرقُس جالِسًا إلى الطَّاوِلة بعِنادٍ بضعَ لحَظات. ثُمَّ قام، فَنَتَرَ الرُّوبَ ذا النسج الكثيف عن الأرض، ونفضَ عنهُ الغُبار، ولَحِقَ بها.

نظرَ إليهما الناسُ باستغراب إذِ اجتازا القرية. وافتَرضَ هو أنَّهما ثُنائيٌّ غريب: امرأةٌ عجوزٌ بعُكَّازِها، ورومانيٌّ يُعاني عواقِبَ ليلةٍ أسرف خِلالَها في السُّكر. وقد توقَّفَتْ دَبُورة مرَّتين، الأُولى لتَشترِيَ خُبزًا؛ والثانيةَ زِقَّ خمر. وحمَّلَته كِلَيهما.

ولـمَّا غادرا السُّوق، قالت: ‘‘إنَّهم لا يَثِقونَ بك’’.

‘‘لِماذا ينبغي لهم أن يَثِقوا؟ أنا رومانيّ’’. والتَوى فمُه بسُخرِيَة. ‘‘أنا أفعى في وسطِهم، نَسلُ إبليس’’.

كانت التلالُ خضراءَ خُضرةً جديدة، والسَّماءُ زرقاءَ صافية. وقد نثرَتْ رُقَعُ الزهور البرِّيَّة ألوانًا زاهيةً على المنحدَرات. فوقفَت دَبُورة ونصبَتْ عُكّازَها أمامَها، وحدَّقَت إلى التِّلال مُتَّكئةً عليه. ‘‘يُمكنُنا أن نحمِلَ الماءَ من البئر ونتعهَّدَ حدائقنا. عَمَلٌ شاقٌّ، ضئيلُ النَّفع. ولكنَّ مَطَرَ ليلةٍ واحِدة من عندِ الله يُطلعُ **هذا!**’’

فقال مَرقُس مُتَملمِلًا: ‘‘أنتِ مِثلُها، تَرَينَ الله في كلِّ شيء’’.

‘‘ألستَ تَرى في ما هو أمامَك أيَّةَ قُدرة؟ ولا مُعجِزة؟’’

‘‘أرى تِلالًا صخريَّة عليها شيءٌ من العُشبِ الجديد. وقطيعَ غَنَم. وبعضَ الزُّهور. لا شيئًا فائقًا للمُعتاد’’.

“إنّ أكثرَ أشياءِ الحياةِ اعتِياديَّةً هي فائقةٌ للمُعتاد. شروق الشَّمس، المطَر...”

“هذا اليومَ فقط، يا عجوز، كلِّميني بأُمورٍ أُخرى غيرَ اللّه. أو أفضَلُ بعد، لا تتكلَّمي أبدًا”.

فأطلقت نَخرةً رقيقة. “لا شيءَ مُهمٌّ في هذا العالمِ إلّا حين يتعلَّقُ بالرَّبّ. لِهذا السبب أنت هنا، أليسَ كذلك؟”

“ماذا تعنين؟”

“أنتَ تبحثُ عنه”.

“بَحَثتُ. إنَّه غيرُ مَوجود”.

قالَت: “كيفَ يُعقَل أن تُضمِرَ غَضَبًا بالِغًا تُجاهَ شيءٍ لا تؤمنُ به؟” ثُمَّ مَشَتْ على الدَّرب.

حملقَ مَرقُس وراءَها بإحباط، معقودَ اللِّسان. ولاحظَ أنَّ المشيَ يُخفِّف، في ما يبدو، ألَمَ مَفاصلِها. وقد أنزلَتِ الشَّالَ عن رأسها ورفعَت وجهَها كما لو أنَّها شعرَتْ بأنَّ الشَّمسَ نافعةٌ لها.

ثُمَّ آدركها، ومشى إلى جانبها. وقالَ بعُنفٍ: ‘‘لستُ أُومِنُ بالله!’’

‘‘بماذا تؤمِن؟’’

حدَّقَ أمامَه مُباشرةً، مُبَوِّزَ الفم. ‘‘أُومِنُ بالصَّوابِ والخطأ’’.

‘‘هلِ ارتقَيتَ بحياتِكَ إلى مُستوى مِعيارِك؟’’

فأجفل، وارتقصَت عَضَلةٌ في حَنَكِه.

‘‘لماذا لا تُجيب؟’’

‘‘كان خطأً أنَّ هَدسَّة ماتَتْ. أُريدُ أن أهتَديَ إلى طريقةٍ لِوَضعِ الأمور في نِصابِ الصَّوابِ من جديد’’.

‘‘وكيف ستُنجزُ ذلك وتَرتَقي بحياتكِ إلى المعيارِ الأعلى الذي نَصَبتَه لنفسك؟’’

طعنَته كلِماتُها في الصَّميم، إذ لم يُجبْ. ولـمَّا ألقى نظرةً على ماضي حياته، ساءلَ نفسَه إنْ كان لديه يومًا أيُّ مِعيار. فَلَيسَ الصَّوابُ لديه إلَّا ما

كان فعَّالًا وسريعًا، وما الخطأ إلّا عدمُ بُلوغِ أهدافه، عدمُ الحُصول على ما أرادَه متى أرادَه. فبالنِّسبة إلى هَدسَّة، كانت الحياةُ واضحةً دائمًا. أمَّا مَرقُس، فلم يكُن أيُّ شيءٍ واضحًا له، إذِ اكتنفَه الضَّبابُ.

ثُمَّ وَصَلا إلى قِمَّةِ جَبَل، فعلِمَ أنَّ بحرَ الجليل يلوحُ من بعيد.

وقالت دَبُورة العجوز: "ليس بعيدًا جدًّا. فكثيرًا ما أنزلَ حنانيًّا عائلتَه إلى كَفْرَناحوم، وعلى طُول الشَّواطئ إلى بيتِ صيدا- يُولياس". ثُمَّ توقَّفَتْ للحظات، مُتَّكئةً على عُكَّازها، وأضافَت: "لقد مشى يسوع في الدُّروبِ نفسِها".

فتَمتمَ باستِياء: "يسوع!"

ورفعَتْ يدَها وأشارَت شمالًا نحوَ طَرَفِ البُحَيرة الأقصى. "على مُنحدَرِ تلٍّ هُناك، سَمِعتُ الرَّبَّ يتكلَّم". ثُمَّ أنزلَتْ يَدَها إلى عُكَّازِها ثانيةً. "ولـمَّا فرغ، أخذَ سمكتَين وكسَّر بضعةَ أرغِفة من الخُبز وأطعمَ خمسة آلافِ شخص".

“ذلكَ مُستحيل”.

“لا شيءَ مُستحيلٌ على الله الابن. لقد رأيتُ ذلك بنفسي... تمامًا كما رأيتُه يقيمُ حنانيًّا من الموت”.

بثَّت كلماتُها قُشَعْرِيرةً في حَبلهِ الشَّوكيّ. وصرَّ بأسنانه. “إذا كان ابنَ الله، فلماذا سلَّمَه بنو شعبه لِيُصلَب؟”

اغرَورَقَت عَينا دَبُورة. “لأنَّنا، شأنُنا شأنُك، توقَّعنا أن يكونَ الله شيئًا آخَرَ غيرَ ما هو عليه”.

فتجهَّم، مُتأمِّلًا صُورتَها الجانبيَّة. وظلَّتْ صامتةً عدَّةَ لحظاتٍ قبل أن تتكلَّمَ من جديد.

“منذُ مئتَي سنة، أزاحُ المكابيُّ الحاكِمَ السَّلُوقيَّ أنطيوخُسَ الرَّابع من الحكم وأعادَ بِناءَ هَيكلِنا. والاسمُ “مكابيٌّ” معناه مِطرَقةٌ أو مُطفِئة. ولـمَّا استردَّ المكابيُّون السُّلطة ودخلوا مدينةَ القدس، ابتهجَ الناسُ مُلوِّحينَ بِسُعوفِ النَّخل”. وسالت الدُّموعُ على خَدَّيها المجعَّدَين.

‘‘هكذا فعلْنا أيضًا لـمَّا دخلَ يسوعُ مدينةَ القُدس. لقد حَسِبْنا أنَّه آتٍ في قُوَّةِ السُّلطة، مِثلَما أتى المكابيُّون. وهتفْنا: «مُباركٌ الآتي باسمِ الرَّبّ!» غيرَ أنَّنا لم نَعرِفه أدنى مَعرِفة’’.

‘‘هل كُنتِ هُناك؟’’

فهزَّت رأسَها. ‘‘لا، كنتُ هنا في نايين، ألِدُ طِفلًا’’.

‘‘إذًا، لماذا تَبكين كما لو كان لكِ دَورٌ في صَلبِه؟ لم يكُن لكِ دَورٌ في الأمر’’.

‘‘لستُ أرغبُ في شيءٍ أفضلَ من التفكير في أنِّي ربَّما بَقِيتُ مُخلِصة. ولكنْ ما دام الأقربون إليه- تلاميذُه وإخوتُه- قد تخلَّوا عنه، فمَن أنا لأحسبَ أنِّي أفضلُ منهم وأنِّي كُنتُ سأفعلُ غيرَ ما فعلوا؟ لا، يا مَرقُس. لقد أرَدْنا كلُّنا ما أرَدْناه، ولـمَّا أتمَّ الربُّ مقصدَه بدلًا من مقصدنا، انقلَبنا عليه حالًا. مثلَك أنت، في غضب. مِثلَكَ أنت، في خَيبة. غيرَ أنَّ مشيئةَ الله هي التي تسود’’.

فأشاحَ بناظِرَيه. ‘‘لستُ أفهمُ شيئًا من هذا’’.

‘‘أعلمُ أنَّك لستَ تفهم. أرى ذلك في وَجهك، يا مَرقُس. أنت لا تُريد أن تفهَم. لقد قسَّيتَ قلبَك تُجاهَه’’. واستأنفَتِ المشي.

‘‘كما ينبغي لجميع الذين يُثمِّنون حياتهم’’. قال هذا مُفكِّرًا في مَوت هَدسَّة.

‘‘الله هو مَن ساقكَ إلى هنا’’.

فضَحِكَ ضِحكةً ساخِرَة. ‘‘جئتُ إلى هنا من تِلقاء ذاتي، ولأَجلِ مقاصدي الخاصَّة’’.

‘‘هل فعلتَ هذا؟’’

فتحجَّرَ وَجهُ مَرقُس.

ومَضَت دَبُورة قائلةً بإصرار: ‘‘نحنُ كُلُّنا خُلِقنا ناقِصين، ولن نجِدَ أيَّةَ راحةٍ حتَّى نُشبعَ جوعَنا وعطشَنا الأعمقَين في دواخلنا. وأنت قد حاولتَ أن تُشبِعَهُما بطريقتِكَ الخاصَّة. فأنا أرى ذلك في عينَيك أيضًا كما رأيتُه في عُيونِ كثيرين جدًّا

غيرَك. غير أنّ نَفْسَك- وإنْ كُنتَ تُنكرُ ذلك بِنَفَسِكَ الأخير- ما تزالُ تتوقُ إلى الله، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان''.

فأغضبَتهُ كلماتُها. ''بمَعزلٍ عن الآلِهة، تُبيّن روما للعالَم أنَّ الحياةَ هي ما يفعلُه الإنسانُ بها''.

''إذا كان الأمرُ كذلك، فماذا أنت فاعلٌ بحياتك؟''

''أملِكُ أسطولًا من السُّفن، فضلًا عن مراكزَ تجاريَّةٍ وبيوت. أملِكُ غنًى''. ولكنْ- حتَّى بينَما هو يقولُ لها هذا- عَلمَ أنَّ ذلك كلَّه لم يكُن يَعني شيئًا. وقد توصَّلَ أبوه إلى هذا الإدراك قُبَيلَ مَوته. باطِل! ذلك كلُّه باطِل. بِلا معنى. فارغ.

توقَّفَت دَبُورة العجوز على الدَّرب. ''إنَّ روما تدلُّ على الطريق إلى الغنى والمتعة، والنُّفوذِ والمعرفة. ولكنَّ روما تَبقى جائعة. تمامًا كما أنت جائعٌ الآن. ابحثْ ما شئتَ عن ثَوابٍ أو معنًى لحياتِك، ولكنْ حتَّى تهتديَ إلى اللهِ ستَبقى عائشًا في الباطِل''.

لم يُرِدْ مَرقُس أن يُصغي، ولكنَّ كلماتِها نفذَت إلى الصَّميم، مُسبِّبةً له قلقًا. ‘‘يقولُ واحدٌ من فلاسفتنا الرُّومانيّين إنَّ حياتَنا هي ما تجعلُه منها أفكارُنا. فربَّما هناك يكمنُ الجوابُ الذي يُبيِّنُ لي كيف أجدُ السلامَ لنفسي’’.

فابتسمَت له ابتسامةَ تَسامُحٍ شِبهَ مَرحة. ‘‘كان الملكُ سُلَيمان أحكمَ إنسانٍ عاشَ على الأرض، وقد قالَ قولًا مُماثِلًا قبلَما وُجدَت روما بمئاتِ السِّنين. «كما شعرَ في نفسه، هكذا هو»’’. ثُمَّ رفعَت نظرَها إليه. ‘‘فيمَ تشعُرُ في نفسك دائمًا، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان؟’’

واخترقَ سؤالُها أعماقَ نفسِه حالًا، فقال بصوتٍ أجشَّ: ‘‘هَدسَّة!’’

فأومأت برأسها، راضيةً. ‘‘إذًا لتَنشغِلْ أفكارُك بها. تذكَّرِ الكلماتِ التي قالَتها. تذكَّر ما فعلَت، وكيفَ عاشَت’’.

قال: ‘‘أتذكَّرُ كيف ماتَت’’، مُحدِّقًا إلى بُحيرةِ الجليل في الأفق البعيد.

فأجابَتِ العجوزُ بوَقار: ‘‘وذلك أيضًا! سِرْ في طَرُقِها وأبصِرِ الحياةَ بعينَيها. فعسَى أن يُقرِّبَك ذلك إلى ما تبحثُ عنه’’. ثُمَّ أشارَتْ إلى مُنحَدَرِ التَّلّ. ‘‘ذلكَ هو الدَّربُ الذي سارَت فيه مع والدِها. سيُنزِلُك إلى الطَّريق الذي يوصِلُك إلى جَنّيسارَت، ثُمَّ إلى كَفْرَناحوم. لقد أحبَّت هَدسَّة البحر’’.

‘‘سأُرافِقُكِ رُجوعًا إلى نايين’’.

‘‘أنا أعرِفُ طريقي. حان الوقتُ لِتَجدَ أنتَ طريقك’’.

وابتسمَ ابتسامَةً مؤلمة. ‘‘أتعتقِدين أنَّكِ تَستَطيعينَ أن تطرُديني بتلك السُّهولة، يا عجوز؟’’

فربَّتَت ذراعَه. ‘‘كُنتَ مُستعِدًّا لِلمُضِيّ’’. ثُمَّ استَدارَت وانطلقَتْ راجعةً على الدِّربِ الذي كانا قد سلكاه معًا.

فنادى وراءَها قائلًا: ‘‘ما الذي يجعلُكِ مُتيقِّنةً

تمامًا؟’’ وقد أزعجَه إذعانُه لها بسهولةٍ بالغة.

‘‘لقد جلبتَ رداءَكَ مَعَك!’’

فهزَّ رأسَه مُرتبِكًا. وراقبَها ترجعُ على الدَّرب، فأدركَ أنَّها قدِ اشترَتِ الخُبزَ والخمرَ له، لأجلِ رحلتِه.

وتنهَّد. لقد كانت على حقّ. فلم يكُن من سبيلٍ للرُّجوع عندَه. إذ كانَ قد مكثَ المدَّةَ التي يستطيعُ احتمالَها في البيت الذي عاشَتْ فيه هَدسَّة في صِغرها. وكلُّ ما وجدَه هناك كان الغُبارَ واليأس وذِكرَياتٍ باتَت كرَمادٍ في فمه.

تطلَّعَ مَرقُس شمالًا. أيُّ أمَلٍ لديه بأن يَجدَ على شواطئ بُحيرة الجليل أيَّ شيءٍ مُختلِف؟ إنَّما آنَذاك، لم يكُن الأمَلُ قطُّ جُزءًا من هذا المسعى. أمَّا الغضبُ فكان. ولكنْ بطريقةٍ ما، على الطَّريق، نُزعَ منه تُرسُ غَضَبِه، فبَقِيَ مُنكَشِفًا، بِلا دِفاع. وإذ جاشَتْ عواطِفُه جدًّا، شعرَ بأنَّه عُريان.

لقد أحبَّتِ البحر! هكذا قالت دَبُورة. فربَّما كان

ذلك سببًا كافيًا لدَفعه إلى الـمُضِيّ قُدُمًا.

وباشرَ هُبوطَ التَّلّ، سالِكًا الدَّرب الذي سبقَ أن سلكَتْه هَدسَّة.

٢٨

حطَّ ألِكسَندر كأسَ خمرِه، مُطَرطِشًا السائلَ الأحمر على الطاولة. ''كانت هيَ مَن أرسلَكِ إلى ساحةِ المحاربين، وها أنتِ الآنَ تقولين لي إنَّكِ تُريدينَ أن ترجعي إليها؟''

فأجابت هَدسَّة ببساطة: ''نعم''.

''على جُثَّتي، ستَرجعين!''

''ألِكسَندر، قلتَ منذ زمنٍ طويل إنّي حرَّةٌ في أن أفعلَ كما أُريد''.

''لا شيئًا مُتهوِّرًا كهذا. ألَم تُصغي إليها؟ إنَّ الضَّغينة تَنهشُها. ليسَ في جِسمِها عَظْمةُ نَدامةٍ على أيِّ شيءٍ فعلَته!''

''أنت لا تعلَمُ ذلك، يا ألِكسَندر. إنَّ الله وحدَه يعرفُ قلبَها''.

''لن ترجعي، هَدسَّة. لقد حُرِمَتْ تلك المرأةُ كلَّ

حقٍّ فيكِ لحظةَ سلّمَتكِ إلى مُنسّقِ الألعاب’’.

‘‘لا يهمُّ’’.

هبَّ ألِكسَندر واقفًا على قدمَيه، وأخذَ يتمشَّى بخَيبةٍ غاضِبة. ‘‘لا يُمكِنُني أن أُصدّقَ أنَّكِ تُفكِّرِينَ في هذا مُجرَّد تفكير’’. تُرى، كيف يَسَعُه أن يُحاجَّ تفكيرًا كهذا؟

‘‘حاولْ أن تفهَمَ، ألِكسَندر. إنَّها تحتاجُ إليَّ’’.

فواجَهَها. ‘‘هي تحتاجُ إليكِ؟ أنا أحتاجُ إليكِ. مَرضانا يحتاجون إليكِ. لدى جوليا ڤاليريان خُدَّام. فليَهتمُّوا بها!’’

‘‘أنا خادمتُها’’.

فقالَ بصَلابة: ‘‘لا، لستِ! ليسَ في ما بَعد’’.

‘‘لقد اشتَراني أبوها وأُمُّها في روما لأكونَ خادمتَها الخاصَّة’’.

‘‘ذلك كان منذُ زمانٍ بعيد’’.

‘‘الزَّمانُ لا يُغيِّرُ التِزاماتي. ما زلتُ مُقيَّدةً بها قانونيًّا’’.

‘‘أنتِ مُخطئة. إنْ كُنتِ لا تعرِفين، لا بُدَّ أنَّ ثمنًا دُفِعَ فيكِ: بِضعَ قِطَعٍ نقديَّةٍ من الفِضَّة! ذلك هو الثَّمنُ الذي ثمَّنَتكِ به. وهو لا يُساوي حتَّى أُجرةَ يومٍ واحِد لعامِلٍ عاديّ’’. وقد غضِبَ على نفسهِ أكثرَ مِنه عليها هي، لأنَّه كان ينبغي له أن يرى هذا الأمرَ مُقبِلًا. ففي غباوةٍ منه، لم يكُن قد ظنَّ أنَّ شعورَها بالشَّفقة والرحمة يمكنُ أن يشملَ امرأةً سبقَ أن حاولَت تدبيرَ مقتَلِها.

على مدى الأُسبوع الماضي، منذُ زارا المرأةَ الڤاليريانيَّة، رفضَتْ هَدسَّة أن تتناوَلَ أيَّ شيءٍ ما عدا الخُبزَ الفطيرَ تأكلُه والماءَ تشرَبُه. وقد تكلَّمت إلى مرضى قليلين، قاضيةً مُعظمَ وقتِها في الصَّلاة. وخُيِّلَ إلى ألِكسَندر أنَّه قد فَهِمَ الحقيقة. فلا شكَّ أنَّها ستَنزعجُ بعدَ رؤيةِ المرأة التي سبقَ أن أرسلَتْها إلى ساحةِ المدرَّج. ولا شكَّ أنَّها ستَنكَفئ، بل ربَّما تخاف. حتَّى إنَّه تساءلَ وقتًا قصيرًا هل خالجَها شعورٌ بالرِّضى إذ رأتْ كم باتت جوليا ڤاليريان تُعاني الآن، ولكنَّها

خجلَتْ أن تَعتَرفَ بذلك.

ولم يكُن قد خطرَ في باله مرَّةً واحدة أنَّها تستَطيعُ أو تقبلُ أن تضعَ ذلك كلَّه جانبًا **وترغبَ** في الرُّجوع.

فقال: "إنّي أُخفِقُ في أن أفهمَكِ"، مُحاوِلًا أن يسترجعَ هدوءَه ويهتديَ إلى أسبابٍ مُقنِعة تُتيحُ له أن يَثنيَها عن قرارها. "أتُعاقِبينَني لأنّي أرفضُ قبولَ تلك المرأة مريضةً من مَرضاي؟"

ففاجأها أن يُفكِّرَ هكذا، وأجابت: "لا، سيِّدي".

"لا أستطيعُ قبولَها، هَدسَّة. أنتِ تعرفين القوانينَ في أفَسُس. عندَما يموتُ مريضٌ، يُعدُّ الطبيبُ مسؤولًا. فهو أسوأُ نَوعٍ من المكابَرة والجُنون أن تتعهَّدي حالةً تعلَمينَ أنَّها في طريقها إلى الموت. لقد رأيتِ القُروحَ والآفات".

فقالَت بكُلِّ هدوء: "رأيتُها".

"تَعلَمين إذًا أنَّ المرضَ قدِ انتشرَ في أجزاء جسمها كُلِّه".

‘‘نعم، سيِّدي’’.

‘‘ليسَ من شيءٍ أستطيعُ أن أفعلَه لها سوى إبقائها مُخدَّرةً حتَّى النِّهاية، بحيثُ تشعرُ بقليلٍ من الألَم. إنَّها ستَموت، وليس من شيءٍ يستطيعُ أحَدٌ أن يفعلَه بشأنِ ذلك. لقد لمستِها. أنتِ تَعلَمين’’. ولاحظَ أنَّ كلماته ضايقَتْها. ‘‘ثُمَّ لا تَرمُقيني بتلكَ النِّظرة! أنا أعلَمُ أنَّكِ تقولين إنَّه ليسَتْ لكِ قُدرةٌ شافية سوى ما يُجريه اللّه بواسطتك. حسنٌ جدًّا. أنا أُصدِّقُكِ. ولكنْ عندما أمسكتِ يدَها، هل حدثَ أيُّ شيء؟’’

فطأطأت رأسَها، وقالت برِقَّة: ‘‘لا’’.

‘‘هل خطرَ في بالكِ أنَّ العائلةَ القاليريانيَّة بكاملها هي تحتَ لعنةِ اللّه من أجل ما فعلوه بك؟’’

رفعَت نظرَها إليه من جديد، وقد بدا واضحًا أنَّ فكرتَه هذه صعقَتها. ‘‘كلٌّ واحدٍ عزيزٌ في نَظَرِ اللّه’’.

‘‘بعضٌ أكثرَ من الآخرين’’.

‘‘كلَّا! إنَّ الربَّ غيرُ مُتَحيِّز’’.

فقال باحتِداد: ‘‘الربُّ عادل!’’ مُفكِّرًا في أنَّ جوليا ڤاليريان كانت تَنالُ ما تستَحِقُّه. وهو لن يقفَ في طريقِ الله. ‘‘لَن أُغرَّمَ بخَسارةِ مهنتي وفُرصةِ مُساعَدةِ آخَرين لا يُحصَون، في مُحاوَلةٍ عَبَثيَّةٍ لإنقاذِ امرأةٍ تستحِقُّ كُلَّ ما هو حادِثٌ لها’’.

‘‘مَن أنتَ حتَّى تحكُم؟’’

‘‘صديقُكِ! الشَّخصُ الذي تسلَّمَكِ من شارُن. أتذكُرين؟ الشَّخصُ الذي خاطَ جُروحَكِ ورمَّمَكِ! الشَّخصُ الذي يُـ...’’ وتوقَّفَ فجأةً، مَشدوهًا حيالَ ما أوشكَ أن يقولَه: **الشخصُ الذي يحبُّكِ!**

‘‘أتنسبُ الفضلَ إلى نفسِك في كَوني حيَّةً؟’’

فقال مُسخَطًا: ‘‘نعم!’’ وما لَبثَ أن كشَّرَ ولوَّحَ بيَده. ‘‘لا!’’ وإذ زَفَرَ نَفَسَه، فَرَكَ قفا رَقَبتِه وأشاحَ وجهَه عنها. ‘‘جُزئيًّا’’.

ولاذَت بالصَّمت بضعَ لَحَظات. ‘‘قُلتَ لي مرارًا إنَّكَ تعتقِدُ أنَّ الربَّ وضعَ يدَه عليَّ’’.

فواجَهَها، واليأسُ يغمرُه. لقد كانت تنزلقُ مُبتَعدةً عنه. وكان في وُسعِه أن يُحِسَّ ذلك. ‘‘نعم، أعتقدُ أنَّ الله قد أبقاكِ حيَّةً حتَّى يُتاحَ لكِ أن تعَلِّميني’’.

‘‘وليسَ لأيِّ سببٍ آخر؟’’

‘‘الأسبابُ كلُّها تتفرَّعُ من ذاك. ألا تَرَين؟ لَولا ما علَّمتِني إيَّاه، فماذا كان لِيَحدُثَ لِسَفَرِينا وبُويثوس وهِيلانة ومئةٍ آخَرين ممَّن جاءُوا إلَينا في السَّقيفة خارجَ الحمَّامات العامَّة؟ وأينَ كانت زَوجةُ ماغونيانُس وابنُه ليَكونا الآن لولاكِ أنتِ؟ وكم في هذه المدينة من أشخاصٍ آخَرين يحتاجون إلى المواهب التي أعطاكِ إلهكِ إيَّاها؟’’

إلَّا أنَّ كلامَه لم يَثنِها عن قناعتها. ‘‘هيَ مسألَةُ شَرَفٍ أن أرجعَ إلى جوليا’’.

"أيُّ شَرَف؟ ليس من شيءٍ سوى الجُنون في إلقاءِ حياتكِ مُجدَّدًا بينَ يَدَي امرأةٍ شديدةِ الانحِطاط والفَساد بحيثُ تُلتهَمُ الآنَ وهي حيَّة من جرَّاءِ خِياراتِها. ويُخيَّلُ إليَّ أنَّها قد فعلَت أُمورًا أشرَّ من أن تتصوَّريها مُجرَّدَ تصوُّر".

كانت هَدسَّة قد عاشَتْ مع جوليا وخدمَتها سبعَ سنين. وقد عرَفَتْ عنها أُمورًا أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يُمكِن أن يعرِفَه ألِكسَندر يومًا. وأرادَ جُزءٌ منها أن يُفكِّرَ من جديد في تلك الأُمور القديمة، أن يحمِلَ تلك الذِّكريات كتُرسٍ مُقابِلَ تَليينِ قلبِها. ولكنَّها عَلِمَت أنَّه يجب عليها ألَّا تفعل ذلك. فأنْ تُطيلَ التَّفكيرَ في خطايا حياةِ جوليا أمرٌ لن يَسُرَّ اللّٰه. وأسوأُ من ذلك بكثيرٍ أنَّه سيَحولُ دُونَ تنفيذها لمشيئته.

"لقد نطقتُ بوَعدي أمامَ الرَّبّ".

"الرَّبُّ أعطاني إيَّاكِ".

فابتسمَت برقَّة. "لأنَّه يعلَمُ أنَّكَ- عندَما يحينُ الأوان- ستُطلِّقُني".

قال ألِكسَندر: ‘‘لا، لَن أطلقَكِ’’. وظلّت جالسةً بهدوءٍ تَرنو إليه. فزَفَرَ نَفَسَه. ‘‘أنتِ لا تُفكِّرينَ بجَلاء. لحظةَ تُزيحينَ نِقابَكِ فترى مَن أنتِ، ستأمرُ بطَرحكِ للأسودِ ثانيةً. وماذا ستَكونين عندَئذٍ قد أنجَزتِ سوى مَوتِكِ؟’’

فخَفَضَت رأسَها. ‘‘هذا الخَطَرُ مَوجود’’.

‘‘خَطَرٌ لا داعيَ لأنْ تتعرَّضي له’’.

ثُمَّ رفعَتْ نظرَها من جديد، وقد تبدَّدَ تمامًا اللّايقينُ الذي كان ألِكسَندر قد أحسَّه فيها. ‘‘الفُرصَةُ العظيمةُ تَقتَضي مُغامرةً عظيمة’’.

‘‘فُرصَة! فُرصَةٌ لأيِّ شيء؟’’

‘‘إذا شاءَتْ إرادةُ الله، لاقتيادِها إلى الخلاص’’.

فلم يَستَطعْ ألِكسَندر سوى التَّحديقِ إليها، مَشدوهًا. ‘‘لماذا تُريدين لها، من بين الناس أجمَعين، أن تُخلِّصَ من أيِّ شيء؟’’ ورأى عَينَي هَدسَّة تَغرَورِقان، فاتَّسعَتْ عَيناه غيرَ مُصَدِّق. لقد عَنَت ما قالَته حقًّا. أيُعقَلُ أن تكونَ ساذَجةً

إلى ذلك الحَدِّ البعيد فعلًا؟

ثُمَّ تقدَّمَ إليها، وأمسكَ يدَيها، قائلًا بصَوتٍ أجَشّ: ‘‘لن أفهمَكِ أبدًا. من شأنِ أيِّ شخصٍ آخَر سِواكِ أن يرغبَ في الوقوفِ بجانبِ سريرها ومُشاهدَتها تموتُ بسببِ ما قد فعلَتْه. ومع ذلك فأنتِ... أنتِ حزينة بشأنها!’’

‘‘لقد كانَت طِفلةً في ما مضى، يا ألِكسَندر، مُفعَمةً بالفَرَح والعُذوبة. إنَّ العالمَ قد فعلَ بها أشياءَ هائلة’’.

‘‘ليس أكثرَ ممَّا قد فعلَتْه هيَ بنفسِها وبالآخرين’’.

فقالَت هَدسَّة: ‘‘ربَّما كان ذلك، ولكنَّ ما أطلبُ أن أفعلَه هو أقلُّ بكثيرٍ جدًّا ممَّا فُعِلَ لأجلي’’.

واشتدَّت يداه حولَ يدَيها. ‘‘لا يَسَعُني أن أدعَكِ تَذهَبين’’. لقد كانت فائقةَ القيمة جدًّا بما لا يُقاس نِسبةً إلى حياة الآخرين... وإليه... في حينَ أنَّ جوليا ڤاليريان كانت عديمةَ القيمة في

نظره.

‘‘لا يَسَعُني أن أُصغيَ إليك، يا ألِكسَندر. يجبُ أن أُصغيَ إلى الرَّبّ’’.

فحيَّرَه اقتِناعُها الراسخ. ‘‘هل طلبَ اللّه منك بصَريح العبارة أن ترجعي إليها؟’’

‘‘قلبي يُحدِّثُني بهذا’’.

‘‘وماذا عَن رأسِكِ؟’’

فابتسمَت. ‘‘لقد فكَّرتُ في الأمرِ مَليًّا’’.

‘‘ليس كفايةً’’. واحتَضنَ خدَّها ذا النُّدَب براحةِ يَدِه. ‘‘ما يزالُ قلبُكِ كلَّ حينٍ ليِّنًا كالهُلام، يا هَدسَّة. إنَّ تلكَ المرأةَ قاسيةٌ قساوةَ الحجر’’. وبسطَ يدَه على الأخاديدِ الخَشَنة التي شوَّهَت وجهَها، آمِلًا أن تتذكَّرَ الأُسودَ ومن التي أرسلَتْها لتُواجِهَها. ونظرَ داخلَ عينَيها، فلاحَظَ أنَّها تذكَّرَتْ. وقال: ‘‘الحاجةُ تدعو إليكِ هنا’’، ظانًّا أنَّها الآنُ ستُدرِكُ سببًا مُقنِعًا.

ولـمَّا لم تتكلّم، جذبَها إلى ما بينَ ذِراعَيه، ضامًّا إيَّاها إلى صَدرِه. كان قلبُه يدقُّ بشدَّة برغبةٍ في حمايَتها... وبأمرٍ ما آخَر- أمرٍ لم يشأ أن يعترف به. فإنَّه لو فعلَ ذلك، لو تفوَّه بالكلماتِ التي دوَّت في رأسِه، ومن ثَمَّ فقدَها، لَـمَا كان قادِرًا على احتِمالِ ذلك. ثُمَّ تكلَّم، بصَوتٍ تخنقُه العاطفة. ‘‘سأُبقيكِ سالِمةً. وكذلك سيَفعلُ راشِد أيضًا’’.

فتراجعَتْ عنه. ‘‘كِلاكما لا يفهم. إنَّ لي حاميًا بالفعل’’.

‘‘نعم، وقد وضعَكِ الله هنا، معي، وبعثَ إليك براشِد، ذي التَّوجُّهِ الوحشيّ. فأصغي إلينا إذًا!’’ ثُمَّ احتَضنَ وجهَها بكِلتا يدَيه، مُحدِّقًا داخلَ عينَيها بحِدَّة. ‘‘لن أسمحَ لكِ بتَبديدِ حياتِكِ على شخصٍ مِثلها’’.

أنزلَت يدَيه عن وجهها، وأمسكَتْهُما بإحكامٍ على حِضنِها. ‘‘كلُّ واحِدٍ منَّا عزيزٌ في نظرِ اللّه، يا ألِكسَندر، إنَّه يُحصِي حتَّى شعرَ رأسِك’’. ثُمَّ أفلتَته وقامَت.

‘‘إذا كُنتِ تقولين لي إنَّه يرى جوليا ڤاليريان عزيزةً مِثلَكِ، فلا يَسَعُني أن أُصدِّقَ ذلك!’’

ولمسَت سَعَفةَ نخلةٍ خضراء. ‘‘أتذكُرُ لـمَّا اصطحبتَني إلى الأسكليپيون لمشاهَدةِ الاحتفالاتِ هناك؟’’

‘‘نعم. ماذا عن ذلك؟’’

‘‘حُمِلَت شارةٌ أمامَ مَوكِبِ الكهنة. سارِيةٌ طويلةٌ عليها حيَّتان مُتضافِرَتان’’.

‘‘حيَّتان على راية. نعم، أعلَم’’.

‘‘وعلى خاتَمِكَ نَقشُ الرَّمزِ ذاته’’.

‘‘نعم. إنَّه يُعرِّفُ إليَّ بصفتي طبيبًا’’.

‘‘شأنُه شأنُ النَّقشِ المنحوت على بابِ هذا البيت’’.

فتجهَّمَ قليلًا. ‘‘أيُضايِقُكِ هذا؟’’ لا بُدَّ أن يُضايِقَها دون شكّ؟ وإلَّا، فلِماذا تذكُرُه الآن؟ كان ينبغي له

أن يشرح. ‘‘أعتقِدُ أنَّه يبدو لكِ تدنيسيًّا. ولكنِّي لستُ أعبدُ الشَّارة، بل أستخدِمُها فقط للتَّعريفِ إلى نفسي، أي بصفتي طبيبًا؛ فالناسُ يَرونَ الحيَّةَ على راية ويربطونَها في أذهانهم بالحيَّاتِ المقدَّسة التابعة لأسكليپيون، إلهِ الشِّفاء والدَّواء’’.

ثُمَّ أنزلَتْ يدَها عن السَّعَفة، مُستَغرِقةً في تفكيرٍ حالم. ‘‘لـمَّا أخرجَ اللهُ العبرانيّين من مِصْر، أسلمَ الكَنعانيِّين الوثنيِّين للفَناء. ثُمَّ انطلقَ شعبُنا من جَبَل هور عبر البحر الأحمر ليَدوروا حولَ أرضِ أدوم’’.

‘‘ماذا تُحاوِلين أن تقولي لي بهذه القصَّة؟’’

فتابعَت كلامَها كما لو لم تكُن قد سَمعَته. ‘‘نَفِدَ صَبرُ الشَّعب من جرَّاء الارتحال. وجدَّفوا على اللّٰه، فأرسلَ الربُّ عليهم حَيَّاتٍ مُحرِقةً. وماتَ كثيرون من لدغاتها’’.

‘‘يُخيَّلُ إليَّ أنَّ ذلك حملَهم على تغيير مَوقفهم ثانيةً’’.

فنظرَت إليه. ‘‘نعم، لقد أدركوا أنَّهم قد أخطأوا. فذَهَبوا إلى موسى وطلبوا إليه أن يتشفَّعَ لدى الرَّبّ، أن يتوسَّل إليه كي يُبعِدَ الحيَّاتِ عنهم. ولبَّى موسى طلبَهم. فقالَ الربُّ لموسى أن يصنَعَ حيَّةً مُحرِقة ويرفعَها على سارية. وأطاعَ موسى أمرَ الرَّبّ. فصنعَ حيَّةً من نُحاس وعلَّقها على سارية. وكانَ أنَّ كلَّ مَن لدغَته حيَّةٌ ينبغي له فقط أن ينظُرَ إلى الحيَّة النُّحاسيَّة ليَعيشَ’’.

نسيَ ألِكسَندر جوليا ڤاليريان، وثارَ فُضولُه. ‘‘ربَّما كان أصلُ راية أسكليپيون هو أصلَ رايةِ الرَّبِّ بعَينه’’.

فقالَت: ‘‘لستُ أدري’’، غيرَ مُنكرةٍ ورودَ هذا الاحتمال. فما أعطاه اللّه للإنسان، أفسدَه الإنسان. ‘‘لـمَّا رأيتُ الرايةَ أوَّلَ مرَّة، تذكَّرتُ التاريخَ الذي علَّمني أبي إيَّاه. وأنا الآنَ أقولُ لكَ ما قالَه لي. لقد أدركَ الشَّعبُ خطيَّتَهم، فتابُوا ونَظَروا إلى الرَّاية التي أعطاهمُ اللّه إيَّاها،**مؤمنينَ** بقُدرَته على الشِّفاء والإحياء... فعاشوا’’.

وأخذَه الارتباكُ والحَيرة.

فلاحَظَتِ ارتباكَه، وتنبَّهَت إلى مُقاوَمتِه. فصلَّت: **ساعِدني، يا ربُّ!** ثُمَّ أضافَت: ‘‘سمعَ أبي يسوعَ يقولُ إنَّه كما رفعَ موسى الحيَّةَ في البرِّيَّة هكذا ينبغي أن يُرفعَ ابنُ الإنسان’’.

عندَئذٍ حَسِبَ أنَّه فَهِمَ ما كانت تقولُه، وإنْ لم يفهمِ الأسبابَ الداعيةَ إليه. ‘‘تتكلَّمين بشأن قيامته’’.

‘‘لا، بل أتكلَّمُ بصَلبه. لقد سُمِّرَ على صليبٍ ورُفعَ أمامَ البشر أجمعين. إنَّه هو الرَّاية’’.

فسَرَتْ فيه بُرودة. ‘‘لماذا تقولين لي هذا كلَّه؟’’

‘‘لأُساعِدَكَ كي تفهمَ لماذا ينبغي لي أن أرجعَ إلى جوليا’’.

وعاودَه غضبُه بكامِلِ حِدَّته. ‘‘لِكَي تُصلَبي هذه المرَّة؟ لكَي تُسَمَّري على صليبٍ بَدَلَ أن تُطرَحي للأُسود؟’’

‘‘لا، ألِكسَندر، بل لِكَي آخُذَ رايةَ الربِّ وأضعَها أمامها’’.

وإذ غمرَه الخوفُ عليها، وقفَ وأقبلَ إليها، وعقلُه يبحثُ مُستَميتًا عن الحُجَّة التي تُعيدُها إلى الرُّشد. وبرِفق، أمسكَ يدَيها بيدَيه. ‘‘أصغِي إليَّ، هَدسَّة. فكِّري في هذا الأمر وقتًا أطوَل. إنَّكِ تُنجزين أُمورًا عظيمةً هنا معي. انظُري كم ابتعَدنا عن تلك السَّقيفة الصغيرة الحقيرة خارجَ الحمَّامات العموميَّة. انظُري ما استَطعتِ القيامَ به لأجلِ الآخرين. إنَّ الناس يُوَقِّرونَكِ’’.

فانسحَبت مُتراجعةً. ‘‘إنَّ ما قد أُنجِزَ هو من صنيعِ الرَّبّ، لا صنيعي أنا...’’

وقال: ‘‘أعلَمُ ذلك’’، مُحاوِلًا أن يُقاطِعَها.

‘‘هو اسمُه ما يجب أن يُمجَّد، لا اسمُ رافا’’.

فعبَّس. ‘‘لم أعِ أنَّ إطلاقَ ذلك الاسم عليكِ قد أزعجَكِ جدًّا’’.

‘‘لستُ أنا الشافية، يا ألِكسَندر. يسوعُ هو

رافا''. قالَت هذا دامِعةَ العينَين. ''كم مرَّةً يجبُ أن أقولَ لك؟'' ثُمَّ وضعَتْ يدَها على قلبِها. ''أنا فتاةٌ عاديَّة تحبُّ الرَّبّ. ذلك هو كلُّ ما أنا''.

''أوَلَم يمسحْ ربُّكِ آخَرين باللَّمسة الشافية؟ حتَّى أنا سمعتُ عن رُسُلِ يسوعَ الذين كانوا يستَطيعون شِفاءَ المرضى بمُجرَّدِ لمسة''.

''لستُ أنا من الرُّسُل، يا ألِكسَندر. لقد صَعِدَ يسوعُ إلى السماء قبلَما وُلِدتُ''.

''إذًا، كيف تُفسِّرين الأُمورَ التي حدثت بواسطتكِ؟ رِبَّما لا تؤمنينَ أنت بنفسِكِ، ولكنَّ الناسَ يؤمِنونَ بكِ!''

فتباعدَت عنه. وأدركَ خَطأه لحظةَ تفوَّه بهذه الكلمات، فحاولَ أن يتراجعَ عنها. ''لم أقصدِ القولَ إنَّهم يَرَونَكِ كإلاهة''. فأشاحَت بناظِرَيها. ودفعَته سِيماؤها إلى الصِّدق. ''حسنًا! قلَّةٌ منهم يَرَونَكِ كذلك، ولكنَّكِ أنتِ لم تفعَلي شيئًا لتَشجيعهم على القيامِ بذلك. لا سببَ لَدَيكِ كي تشعُري بالذَّنْب''.

‘‘ليس الذّنْبُ هو ما أشعرُ به، يا ألِكسَندر، بل هوَ الحُزن’’.

فعلمَ أنَّه خلطَ الأُمورَ بعضَها ببعض.

وبسطَت يدَيها، مُبتسِمةً ابتسامةً مُفعَمة بالرقَّة. ‘‘كُنتَ تعلَمُ أنَّ هذا اليومَ سيأتي’’.

فأغمضَ عينَيه. وهزَّ رأسَه، مُبتغيًا أن يُنكِرَ الأمر. لقد كانت تُعرِّضُ حياتَها للخطر، وهو كان يرتَجف. فنظرَ إلَيها وتساءل. كيف يُعقَلُ أن تكونَ غيرَ هائبةٍ إلى هذا الحدّ؟ كيف يُمكنُه أن يتخلّى عنها؟

وقال بهدوء: ‘‘لا أُريدُ لكِ أن تَذهَبي، يا هَدسَّة’’. ثُمَّ ابتسمَ بضعف. ‘‘ما كُنتُ أُدرِكُ كم سأغدو بحاجةٍ إليكِ’’.

‘‘لستَ بحاجةٍ إليَّ، يا ألِكسَندر. فعِندَكَ الرَّبّ’’.

‘‘لا يمكنُ أن يجلسَ الربُّ ويتحدَّث معي. لا يمكنُ أن ينظرَ إليَّ بعينَين داكِنتَين، لا يُسبَرُ غَورُهما، ويقودَني للاهتِداء إلى الأجوبة التي أحتاجُ إليها.

لا يُمكِن أن يُحرِّكَ خيالي بكَلِمة، وقلبي بلمسة...''

''يُمكنُ أن يفعلَ ذلك كلَّه، يا ألِكسَندر، وأكثر''.

فهزَّ رأسَه. ''لستُ أعرِفُه كما تعرفينَه أنتِ. أحتاجُ إليكِ كي تُكلِّميه نيابةً عنّي''.

وأحزَنتْ كلماتُه قلبَها. ''لقد صِرتُ حَجَرَ عثرتِك!''

فقال بضراوة: ''أبدًا'' وتقدَّمَ إليها فقال ثانيةً: ''أبدًا!'' ومدَّ يدَيه ليَضمَّها بين ذراعَيه. ثُمَّ عانقَها، لائذًا بالصَّمت، عالِمًا أنَّ أيَّ شيءٍ يقولُه عندَ هذا الحدِّ سيَكون عقيمًا، وربَّما مؤذِيًا.

يا اللّه، إذا كنتَ تسمعُني، وإذا كُنتَ موجودًا، فاحْمِها! رجاءً، لا تأخذْها منّي إلى الأبد...

ثُمَّ قال بصَوتٍ أجَشّ: ''كم ستَبقَينَ عندها؟''

''حتَّى النِّهاية''.

فالتَوى فَمُه بابتِسامةِ تَهَكّم، وقال: ‘‘نهايتِها أو نهايتِكِ؟’’

أجابت برِقَّة- بعدَما قدَّرَتِ الاحتِمالات- ‘‘التي تأتي منهُما أوَّلًا’’.

٢٩

جلسَتِ الأُمُّ پرِسِكا مُستقيمةَ الظَّهر على الأريكة التي كانَ إيوليوس قد أخرجَها لها إلى الشُّرفة. وفي سِنِي عُمرِها السَّبعِ والثمانينَ كُلِّها، ما كانت مرَّةً أكثرَ منها الآن توتُّرًا. لقد علِمَتْ أنَّ فيبي ڤاليريان كانت سيِّدةً مُهمَّةً وغنيَّة، ولكنَّها استَطاعَت بطريقةٍ ما أن تضعَ المقامَ جانبًا داخِلَ حُدود مَسكِنِها الوضيع ذي الغُرفةِ الواحدة. أمَّا هنا، في هذه الدَّارة الجميلة المطلَّة على منظرَي الميناء والأرطميسيون الفخمَين، فلم تَستَطعْ أن تنسى أو تتناسى هُوَّةَ الطَّبقة الاجتماعيَّة الهائلة بينَهُما.

أحضرَتْ عَبدةٌ شابَّةٌ صينيَّةً عليها تشكيلةٌ من الفواكِه والأطايب. وانحنَتْ مُمسِكةً بالصينيَّة أمام پرِسِكا، وابتسمَت لها تشجيعًا. فهزَّت پرِسِكا رأسَها.

لاحظَ إيوليوس تَوتُّرَها، وأدركَ حقيقتَه، فحاولَ أن يُطَمئنَها. ‘‘رجاءً، ماما پرِسِكا، خُذي حُرِّيَّتَكِ عندَنا.

كم مرَّةً قدَّمتِ لنا أشياء أنعشَتْنا؟ فهل تُنكِرينَ علينا الآن بهجةَ خدمَتِكِ؟''

رمقَته الأُمُّ پرِسِكا بِنظرةٍ سريعة، ثُمَّ أخذَتْ درَّاقة، قائلةً: ''أأنتَ راضٍ؟'' وحملَتها برِفقٍ في حِضنها على پالُسِها البالي، كما لو كانت شيئًا أثمنَ من أن يؤكَل.

وغَمغَمَتْ فيبي بشيء، فانحنى إيوليوس لها. كانت يدُها السَّليمة في حِضنِها على صحنٍ نُحاسيِّ صغير، فنقرَت عليه. وراقبَت پرِسِكا فيما أصغى الرجُل بانتِباه. وما لبِثَ أن قالَ، ناظرًا إلى الأُمِّ پرِسِكا: ''حِيرا! كيف حالُ الصغيرةِ حِيرا؟'' فنظرَت الأُمُّ پرِسِكا إلى فيبي مَدهوشةً، وانتقلَتْ حَملقَتُها بسُرعةٍ إلى إيوليوس مُستَفسِرةً. فأومأ برأسه، مُبتَسِمًا. ''لا تستطيعُ السيِّدةُ فيبي أن تتكلَّم أو تتحرَّك، ولكنَّها تفهمُ ما يجري حَواليها''.

غمرَت كلماتُه پرِسِكا بشعورٍ عميقٍ من الشَّفَقة والأسى. فستَرتْ مشاعِرَها، ونظرَت إلى فيبي، وحاولَت أن تُجدِّدَ الصَّداقةَ الحميمةَ التي كانت

تشعرُ بها تُجاهَ هذه المرآة. ‘‘الفتاةُ الصغيرة بِخَير. ما تَزالُ تَلعَبُ بِدُماها في الأبواب. وقد سألَت لماذا لم تأتي مؤخَّرًا، فقُلتُ لها إنَّكَ مريضة’’. ومرَّرَت أصابعَها برِفقٍ على قشرة الدرَّاقة الناعمَة، مُتذكِّرةً دُموعَ الصَّغيرة.

ثُمَّ أضافَتْ: ‘‘أُوليمپيا وابنُها بخَير. لقد عثرَتْ على عَمَلٍ في مَطعَم. ڤِرناسيا قرَّرت أن تتزوَّجَ مرَّةً أُخرى. الرَّجُل يشتغلُ في مَتاجِرِ ابنِكِ ويُقيم في المساكِن حيثُ تُقيمُ هي. لا أعتقدُ أنَّها فرغَتْ من الحُزنِ على زَوجها الشابّ، ولكنَّها لا تستطيعُ أن تُعيلَ نفسَها. أمَّا الآن فقد يُمكِنُها ذلك. فكايُس أكبرُ سنًّا، وقد تخطَّى زَمَنَ المخاطَرة، فهو يشتغلُ على البَرّ. وسيَعتَني بها وبأولادها، وربَّما يُرزَقُ منها أولادًا آخرين’’.

استَمعَتْ فيبي بلهفةٍ إلى كلِّ كلمة عمَّا كان جاريًا في حياة الأرامل التي سبقَ أن زارتهُنَّ. ولـمَّا فرغَتْ پرسِكا، جلسَتْ صامتةً وقلِقَة. ولمحَتْ فيبي الحُزنَ محفورًا بعُمقٍ في وجهِ العجوز العزيزة، فأرادَتْ أن تُطَمئنَها. فنقرَتْ على صحنها النُّحاسيّ، مُستَخدِمةً الشِّيفرةَ التي

سبقَ أن توافقَتْ عليها مع إيوليوس بجِدٍّ ودقّة. وقد عَلمَت أنَّه سيَفهمُ ما قد أرسَلَته وسينقلُه.

قال إيوليوس نِيابةً عنها: ‘‘إنَّ الربَّ لم يتخلَّ عنِّي’’.

واغرورَقَت عينا پرِسِكا. فوضعَتِ الدراقةَ جانبًا، ونهضت مُتَيبِّسةً. ثُمَّ انحنَت، وأمسكت يدَ فيبي بين يدَيها. ‘‘ذلك مُمكِن، يا ابنتي. ولكنْ يُحزِنُني أن أرى شخصًا في سنِّكِ على هذه الحال. كان أفضلَ لو حدثَ ذلك لامرأةٍ عجوزٍ مثلي عاشت جميعَ السنين التي همَّها أن تَعيشَها’’. وقبَّلَت يدَ فيبي، ثُمَّ ضغطَتْ علَيها لحظةً قبلَ أن تُرخيَها. ودارتْ لِتَمضي.

فنقرَت فيبي.

ومدَّ إيوليوس يدَه، فتمهَّلَت العجوز، ناظرةً إليه بفُضول. وقالَ لفيبي: ‘‘نعم، سيِّدتي’’. ثُمَّ أحضرَ خرقةً، فوَضعَها على الأريكة حيثُ كانت پرِسِكا جالسة. ووضعَ عليها درَّاقتَها، وأضافَ أيضًا جميعَ الفاكهة التي كانت على الصينيَّة. ثُمَّ ربطَ أطراف

الخرقة، وناولَ العجوزَ الصُّرَّة.

فقالت پرِسِكا بصَوتٍ أجشّ- مُحرَجةً ومُربَكةً- ‘‘ألعلَّها تنوي أن تُسَمِّمَني؟’’

قالَ إيوليوس: ‘‘كلي بالصحَّة والهناءة’’. ونقرَت فيبي من جديد. فأومأ برأسِه، وقال ضاحكًا: ‘‘نعم، سيِّدتي’’. ثُمَّ نظرَ إلى پرِسِكا. ‘‘لقد ذكَّرَتني أن أُعطيَكِ مزيدًا من الصُّوف’’.

فتَمتَمَت پرِسِكا: ‘‘إنَّها تُشغِّلُني حتَّى الموت’’. ثُمَّ حدَّقت إلى فيبي بِانشِداه. ‘‘من الصَّواب فقط أن تُعطِيَني درَّاقًا’’.

وطرفَت عَينا فيبي تَجاوُبًا.

فاغرورقَت عَينا پرِسِكا، وربَّتَتْ كتفَ فيبي، ثُمَّ مَضَت إلى غُرفة النَّوم تحتَ القَناطر. وإذ رافقَها إيوليوس إلى خارج الغُرفة وداخلَ الرِّواقِ إلى الدَّرَج، قالَت: ‘‘هل يُمكِنُ أن يأتيَ غَيري لزيارتها؟’’

‘‘أشخاصٌ أقِلَّاءُ جدًّا كُلَّ مرَّة. إنَّها تتعبُ

بسُرعة’’.

نظرَت پرِسِكا حَوالَيها، إلى فخامةِ الفِناءِ الداخليّ والنافورة. كانت البيتُ فخمًا إلى أقصى حدّ، لكنْ هادئًا على نحوٍ مُوئسٍ جدًّا. ‘‘أليسَ لها أولادٌ أو حُفداءُ يُعَزُّونَها؟’’

‘‘ابِنُها مَرقُس، لم يتزوَّجْ قطّ. وهو في مكانٍ ما بفلسطين. ومن المشكوكِ فيه أنَّه سيرجعُ في أيِّ وقتٍ قريبًا. أمَّا ابنتُها، جوليا، فقد تزوَّجت بضعَ مرَّات، ولكنْ ليسَ لها أولاد. وهي هنا في أفسُس’’.

‘‘هل تعلَمُ بحالِ أُمِّها’’.

‘‘تعلَم، ولكنَّ لها حياةً خاصَّةً بها’’.

فأدركَت پرِسِكا وفرةً من المعلومات في ما لم يقُله إيوليوس. ‘‘ألا تأتي لزيارة والدتِها؟’’

‘‘إنَّ حالةَ أُمِّها تُحبطُها. لم تأتِ منذُ بضعةِ أسابيع’’. ولم يستَطعْ أن يُبعِدَ الكُرهَ عن صَوته.

هزَّت پرِسِكا رأسَها بحُزن. ‘‘عندما يكونُ الأولادُ صغارًا، يَدوسونَ أصابعَ قَدَمَيك. وعندما يكبرون، يدوسون قلبَك’’.

ثُمَّ فتحَ إيوليوس البابَ الأماميَّ لها. ‘‘أنتِ أوَّلُ شخصٍ أتى لرؤيتها، ماما پرِسِكا’’.

فقالَت بتَوكيد: ‘‘وسآتي ثانيةً!’’ ثُمَّ خرجَتْ من الباب.

وخطا إيوليوس إلى الخارج. ‘‘ماما پرِسِكا، أودُّ أن أطلُبَ منكِ مَعروفًا’’.

‘‘سأعملُه إذا استَطعتُ’’.

‘‘أحضِري حِيرا معكِ المرَّةَ التالية. لم تَرَ السيِّدةُ فيبي ولدًا منذُ أصابَها الشلل’’.

فأومأتِ العجوزُ برأسِها مُوافِقةً، ومضَت في سبيلها.

رجعَ إيوليوس إلى الغُرفة في الطَّبقة العُليا. وقال: ‘‘مضى على جلوسكِ وقتٌ طويل’’. ثُمَّ حملَ

فيبي على ذِراعَيه، وأعادَها إلى الداخل. ومدَّدها برِفقٍ على جَنبِها فوقَ أريكة نَومها. ثُمَّ تحدَّثَ إليها، مُخبِرًا إيَّاها بِما كان جاريًا في البيت وبأيِّ أخبارٍ وردَت من العالَمِ الخارجيّ، فيما هو يُمَسِّجُ ظهرَها. وقال: ‘‘استَريحي قليلًا. سأُحضِرُ لكِ وجبةَ طعامِك’’. ثُمَّ غادرَ الغُرفة.

وعَلِمَت فيبي أنَّه حالَما خرج، دخلَ عبدٌ آخرُ وجلسَ على مَقرُبةٍ منها ليَسهرَ عليها، حتَّى إذا احتاجَتْ إلى أيِّ شيءٍ يُلبِّي الطَّلَب. فهي لم تُترَك وحيدةً قَطّ. وأصغَتْ إلى شَدوِ الطُّيورِ آتيًا من الشُّرفة. آه، ليتَ لها جناحَينِ لتَطيرَ بعيدًا، فتتحرَّرَ منَ الجَسَد!

غير أنَّ الربَّ قد أبقاها على تلك الحال لأجلِ قَصدِه. وهكذا استَراحَت، وكَسَتْ نفسَها بوُعودِ الرَّبّ. لقد كانت هَدسَّة على حقّ. فإنَّ فيبي عَلِمَت ما أرادَ أدوناي (الرَّبُّ) لها. وقد وافاها ذلك بوُضوحِ كلماتٍ قيلت بصوتٍ عالٍ. فبالتَّدريج، تخلَّتْ عن الصِّراعِ الداخليّ، وخضعَتْ للرَّبِّ كُلِّيًّا. وفي تلك اللَّحظات، تلك اللَّحظات الثمينة بلا حُدود، طارَت حُرَّةً فعلًا، في صفاءٍ تامّ، إلى داخلِ

السماوات.

كان الصَّوتُ قد قال لها برِقَّة: **صلّي، صلّي لأجلِ وَلدَيكِ!**

فهكذا فعلَت، ساعةً بعد ساعة، ويومًا بعدَ يوم. وهكذا ستفعلُ طَوالَ السّنينَ التي يُعطيها الرَّبُّ إيَّاها كي تفعلَ هكذا.

يا ربّ، أرفعُ مَرقُس إليك. يا ربّ، حوّلْ قلبَ ابنتي... يا ربّ، أتوسَّلُ إليك. أيُّها الآب، سامِحْهُما... أبَا، أمسِكهُما باليد... بِاسْمِ ابنِك، يسوع، أتضرَّعُ إليك... أيُّها الربُّ إله السماء والأرض، خلِّص وَلَدَيَّ...

٣٠

فيما صبغَ الفجرُ الأُفقَ بلَونٍ ورديّ، وقفَتْ هَدسَّة في الشارعِ تحتَ دارة جوليا ڤاليريان. وكانت قد غادرَتْ شقَّةَ ألِكسَندر قبلَ الفجر كي تتجنَّبَ مزيدًا من النِّزاع معه. فهو لم يفهَمْ تَصميمَها على الرُّجوع إلى جوليا. وقد شعرَ بأنَّ ذلك تَهوُّرٌ وخطأ... والآنَ إذ نظرَت إلى واجهةِ المسكن الأنيق، تساءلَتْ إنْ كان على حقّ.

لقد عاودَها الخوف، عدوُّها القديم، بقُوَّة. وطالَما كان الخَوفُ حِصنَ الشَّيطان في وجهها. فعلى الرُّغم من الزَّمانِ الطويل الذي كان قد مضى، شعرَتْ فجأةً شُعورَها لـمَّا كانَتْ صغيرةً بانتِظارِ الموت بين حشدِ الأسيرات المحشورات في دارِ النِّساء داخِلَ الهيكل العظيم. تُرى، كيف نسِيَت حقيقةَ الشُّعور بالخوف على حياتها؟ وقد غمرَها الآن مُصطحِبًا ارتجافًا في معدتِها وأطرافِها، وعَرَقًا باردًا. فاستَطاعَتْ أن تتذوَّقَه، كحلقةٍ من سلسلةٍ معدِنيَّة في فمها. واعتراها اليأسُ والشكُّ.

لماذا عُدتُ إلى هَنا، يا ربّ؟ ألم تُنقِذني من هذه العِيشة وهذه المرأة؟ لماذا أنا هنا من جديد؟ هل كنتُ مُخطئةً في ما طلبتَهُ منّي؟

غيرَ أنَّها عرفَتْ أجوبةَ أسئلتِها قبلَ طَرحِها. فإنَّه قال ذلك مِرارًا وتَكرارًا. وقد عاشَه. أمَا قُرِّرَ سبيلُها قبلَ لقائها جوليا ڤاليريان أوَّلًا بزمانٍ طويلٍ جدًّا؟ فلتكُن مشيئةُ الله، مهما كانت. إنَّما في هذه اللحظة، وفي هذا المكان، كان المتوقَّعُ مُرَوِّعًا.

وإذا بالصَّوتِ الهادئ الخفيف يقولُ لها، في ما يبدو، مِرارًا وتَكرارًا: **ثقِي بي! توكَّلي عليَّ!**

ارتجفَت يدُها إذ وضعَتْها على مِزلاج البوَّابة. وامتلأ ذهنُها بصورَةِ وجه جوليا، ثائرًا على نحوٍ غريبٍ وشاذٍّ من فرطِ الحِقد. كما تذكَّرت ضَرَباتِ قَبضةِ سيّدتها وصَرَخاتِ غضبِها. وتذكَّرَتْ تعرُّضَها للرَّكل حتَّى فقدانها للوَعي. ثُمَّ لـمَّا أفاقَت، وجدَتْ نفسَها في زنزانةٍ مع مسيحيّين آخَرين، بانتظارِ الموت.

يا ربّ، ليتَكَ تُبعِدُ عنّي هذه الكأس المُرَّة...

شُحِبَت أصابعُها على المزلاج، ولكنَّها لم تفتَحه. ولم تَكَد تقوى على التنفُّس.

‘‘أهذا هو المكان، يا رافا؟’’ هكذا قالَ الخادِمُ الذي كانَ قد حملَ أشياءَها القليلة، واقتربَ إليها أكثرَ. وقد رفعَ نظرَه إلى واجهة المبنى الحجريَّة في الأعلى.

ارتعدَت هَدسَّة قليلًا، إذ تذكَّرَتْ جميعَ المفاسِدِ والشُّرور التي سبقَ أن شهِدَتها في هذا البيت. ورفعَتْ نظرَها إلى فوقُ ثانيةً. في وُسعِها أن تُغيِّر رأيَها. فحتَّى الآن، إذا شاءَتْ، في وُسعها أن تَرجعَ إلى ألِكسَندر.

أمَا كنتُ أفعلُ مشيئتكَ هناك، يا ربّ؟ أمَا كانَ مُمكِنًا أن أبقى عندَه وأُساعِدَ المرضى؟

ولكنْ لـمَّا حدَّقتْ إلى الدارة الحجريَّة الباردة أمامَها، علِمَت أنَّ الله قد أرسلَها إلى هنا.

فالابتعادُ عن جوليا ڤاليريان الآن سيَعني الابتِعادَ عن الرَّبّ، ومن دونه لا معنى للحياة.

نعم، تذكَّرتِ الزَّنزانة، باردةً ورَطبةً ونتِنة. ألَم يكُن هناك في الظُّلمة أنَّها حقًّا رأتِ النُّورَ واستَدفأت به؟ أوَلَم يكُن هُناك أنَّها وجدَتِ السَّلامَ الذي كان الله قد وعدَها به دائمًا؟ أوَلَم يكُن هناك أنَّ الله قد حرَّرَها حقًّا؟

وقال الخادِمُ مُستَفسِرًا: "رافا؟ أتُريدينَ أن تَرجعي؟"

فقالَت: "لا! هذا هو المكان". ثُمَّ فتحَتِ البوَّابة. وإذ توكَّأتْ بكُلِّ ثِقلِها على عُكَّازِها، صعِدَتِ الدَّرجَ قُدَّامَه. حتَّى إذا بلغَتِ الباب، كانت ساقُها السَّقيمةُ تؤلِمُها على نحوٍ رهيب. فسحبَتْ نَفَسًا عميقًا، وقرَعتِ الباب.

ولم يُجِبْ أحَد.

فقال الخادِمُ مُفرَجًا: "لا أحَدَ في البيت، يا رافا".

وقرعَت هَدسَّة ثانيةً قَرعًا أعلى، وأصغَتْ عسى

أن تسمعَ حسًّا داخِلَ البيت.

صَمتٌ!

‘‘سأستَدعي المحفَّة’’. واستَدارَ، نازلًا إلى الدَّرجة التي تحتَها ثُمَّ أزاحَ حِملَه، ومدَّ لها يدَه ليَسندَها.

‘‘لا! يجب أن أدخُل’’. وقد أقلقَها عدمُ الرَّدِّ من داخلِ الدارة. أينَ خُدَّامُ جوليا؟ فرفعَتِ المزلاجَ ودفعَتْه. فانزاحَ بسُهولة، وانفتَحَ البابُ على مِصراعَيه.

وقالَ الخادمُ مرعوبًا: ‘‘رافا، لا!’’

فتَجاهلَتْه ودخلَت إلى غُرفةِ الانتظار، ونظرَتْ حوالَيها. ‘‘اترُكْ أشيائي عندَ الباب’’.

‘‘ولكنْ لا يُمكِنُ أن أترُكَكِ هنا...’’

‘‘اترُكهُنَّ واذهب. سأكونُ بخَير’’.

فوقفَ مشدودَ الأعصاب، ونظرَ حوالَيه. وإذا

المكانُ كأنَّه مهجور. ثُمَّ أطاعَ مُتَباطئًا، وأغلقَ البابَ وراءَه، حابسًا إيَّاها داخِلَ البيت الصامت.

تردَّدَت داخِلَ البَريستايْل نَقَراتُ عُكَّازِها على البَلاطِ الرُّخاميّ. وكانَتِ النافورة ساكنة، ومِياهُها راكدة. ونظرَتْ إلى داخل التريكلينيوم فرأت وسائدَ باهِتة، وطاولةً يعلوها الغُبار. أمَّا التَّماثيل فلم تعُدْ موجودة، مع أنَّ الجدارَ الشَّرقيَّ كان ما يزال مُزدانًا بفُسَيفساء لِباخُس يَثِبُ مَرَحًا مع بعض حُوريَّات الغابة.

استدارَت هَدسَّة، وعرجَت نحوَ الدَّرجِ المؤدِّي إلى الغُرَفِ العُليا. ولـمَّا بلغَتْ نهايةَ الدَّرَج، توقَّفَتْ لتَستَريح. فقد كان الألَمُ في رجلِها حادًّا جدًّا بحيثُ جعلَها ترتجف. وأصغَت ثانيةً، إلَّا أنَّها أيضًا لم تسمَعْ أحَدًا. ثُمَّ خفَّ الألَمُ بعدَ قليل، فتابعَتْ سَيرَها في الممرِّ المكشوف إلى مَهجَعِ جوليا.

كان البابُ مفتوحًا.

وخفقَ قلبُها داخِلَ صدرها بسُرعةٍ بالغة، حتَّى

آحسَّت كأنَّه طائرٌ مُهتاجٌ يبتغي الإفلات. ثُمَّ وقفَتْ على العَتَبة، ونظرَت إلى الداخل.

لم تكُن جوليا في السَّرير.

دخلَت هَدسَّة الغُرفة، فرأتْها عَديمةَ التَّرتيب، وقد فاحَتْ منها بقوَّةٍ رائحةُ حَوضٍ لم يُفرَغ من الماء المستَعمَل. ونظرَت خارجًا إلى الشُّرفة، فرأت جوليا. كانت وحيدةً ومُرتَدِيةً تُنكًا باليًا تمسُّ حاشيَتُه كاحِلَيها. وقد ألصقَتْ نَسَمةٌ التُّنكَ بجسمها المهزول كجِسمِ مُشرَّد. وتمسَّكَتْ بالحائط كأنَّما للاستِناد، وكانَ وَجهُها مُدارًا نحو التِّلال الشَّرقيَّة. وقد ظهرَ البؤسُ الشَّديد على سِيمائها، حتَّى تساءلَتْ هَدسَّة هل كانت تُفكِّرُ بأتريتِس. فإنَّه كان قد بنى لها مرَّةً دارةً جميلةً في تلك التِّلال، ناويًا أن يأخُذها إلى هناك زوجةً له.

لَبِثَت هَدسَّة حيثُ كانت تُراقبُ جوليا بحدَّة، مُتسائلةً أكانت كسابق عهدها أمِ قد غيَّرتها الأحوال. وطأطأت جوليا رأسَها، فحرَّكتِ النَّسمةُ الخفيفةُ خصلَ شعرِها الداكن حولَ وجهها

وكتِفَيها. وقد بَدَت شبيهةً بطِفلةٍ مُتألِمة. ثُمَّ اعترتْها رجفة، فطوَّقَت نفسَها بذِراعَيها. وما إنِ التَفتَتْ، حتَّى رأتَ هَدسَّة مُحجَّبةً فأجفلَتْ مَذعورةً.

وما لبِثَت أن شهقَت: ‘‘رافا!’’

ولم تكُن هَدسَّة قطُّ قد سمِعَت صوتَ جوليا ذا وَقعٍ أكثرَ انكِشافًا وضعفًا.

فإذا بالخوف الذي خالجَ هَدسَّة بكُلِّ قُوَّة يتَلاشى. وتذكَّرَتْ لَحَظاتِ عُذوبةٍ خاصَّةً لدى جوليا. لقد كانت في ما مضى فتاةً مَرِحةً وشديدةَ الشَّغَف. فلمَّا نظرَتْ إليها الآن، غمرَها الأسَى... إذ رأتْها هزيلةً، شاحبة، أتلفَها المرض.

عرجَت نحو جوليا، وصَوتُ عُكَّازِها يقرعُ الأرضيَّة المبلَّطة. فحدَّقتْ جوليا بعَينَين واسعتَين، يُساورُها الشَّكّ.

‘‘رجاءً، سامحيني لدخولي غُرفتَك دُونَ سابقِ إعلان، سيِّدتي. لم يُجِبْ أحَدٌ عندَ الباب’’.

فقالَت جولِيا بتأدُّب: ‘‘أهلًا وسهلًا بكِ’’، فيما ارتَمت بضَعفٍ على أريكةٍ قُربَ الجدار، وجذبَتْ بطّانيَّةً وَسِخةً حول كتِفَها. ‘‘ثُمَّ إنّي وحدي. فكالفئران، تركَ تُروپاس وديديماس السَّفينةَ الغارقة’’. والتَوى فمُها بسُخرِيَة. ‘‘عمومًا، هما لم يكونا نافعَين عندي أيَّ نفع’’. ثُمَّ أشاحَت بناظِرَيها وقالَت بهدوء: ‘‘أفرجَني ذهابُهما. لقد وفَّرَ عليَّ مشقَّةَ بيعِهما’’.

‘‘هل مضى پروميثيوس أيضًا، سيِّدتي؟’’

‘‘لا، لقد أرسلتُه إلى المدينة ليَجِدَ عملًا’’. ورفعَتْ إحدى كتِفَيها بِلامُبالاة. ‘‘ربَّما يرجع أو لا يرجع. فهو كان مِلكًا لپريمُس، وليس لي. وقد كان پريمُس زَوجي، مثلما كان...’’ ثُمَّ ارتفعَت حَملَقتُها إلى حِجابِ هَدسَّة، وبانَتْ على جبينها الشاحب عبسةٌ يسيرة. وعبثَت بالبطّانيَّة، مُتَململِةً بتوتُّر. ‘‘لماذا أنتِ هنا، سيِّدةُ رافا؟ لقد لمستِني، ولم يحدُثْ شيء. وقال الطبيب إنَّ الأملَ مَعدوم’’. ونتأ ذقنُها. ‘‘هل رجعتِ لكي تَرَي إنْ كان سِحرُكِ سيُفيدُ هذه المرَّة؟’’ ولم يُسهِمْ إبداؤها الازدراء بشَيءٍ في ارتداء أقنعةٍ على

الخوف واليأس اللّذين كانا قد استقرَّا في ملامحها.

أجابَتْ هَدسَّة برِقَّة: ‘‘لا’’.

وشعرَت جوليا بالخجل، إلَّا أنَّها احتاجَتْ إلى دفاعٍ عن النَّفس من نوعٍ ما، ومن ثَمَّ تشبَّثَتْ بازدراءِ الغير: ‘‘ربَّما لستِ صانعةَ المعجِزاتِ التي يقولُ الجميعُ إنَّكِ أنتِ هي’’.

‘‘لا، لستُ كذلك’’.

فاستقرَّ الكَرْبُ على وجهِ جوليا، وطوَّقَتْ نفسَها بذراعَيها ثانيةً. وأشاحَتْ بِناظِرَيها قائلةً: ‘‘إذًا، لماذا أنتِ هنا؟’’

اقتربَت هَدسَّة إليها أكثر. ‘‘لقد جئتُ لأستأذِنَكِ أن أبقى عندَكِ وأعتنيَ بك، سيِّدةُ جوليا’’.

فدُهشَتْ جوليا جدًّا. ‘‘تَبقَين عندي؟’’ وحدَّقَت إلى المرأة المحَجَّبة مُبتلِعةً ريقَها، وقدِ انهارَ دِفاعُها إذِ انكشفَتْ وحدتُها وضعفُها. ‘‘لا مالَ عندي فأدفعَ لكِ’’.

‘‘لستُ أطلبُ أيَّ مال’’.

‘‘ليس عندي مالٌ حتَّى لشِراءِ خُبزٍ لكِ’’.

‘‘عندي مالٌ كافٍ لإعالتنا كِلتَينا’’.

فحدَّقَت إليها جوليا بارتباكٍ مُفعَمٍ بالذُّهول. وقالَت بارتعاش: ‘‘أنتِ... ستُعيلينَني؟ لماذا؟’’

‘‘لأنَّه يجبُ عليَّ’’.

وتجهَّمَت جوليا، غيرَ فاهِمة. ‘‘تقصدين أنَّ الطبيبَ غيَّرَ رأيَه فأرسلَكِ إلى هنا لِتَعتني بي؟’’

‘‘لا! لقد أرسَلَني الرَّبّ’’.

تصلَّبَت جوليا قليلًا. وقالَت بصَوتٍ مخنوق: ‘‘الرَّبّ؟ أيَّ إلهٍ تعبُدين؟’’

أحسَّت هَدسَّة انسِحابَها قويًّا كما لو كانَ أمرًا طبيعيًّا. وكذلك رأتْ أيضًا الاحتِراسَ والخوفَ وراءَ نظرةِ جوليا الحَذِرة. فاقتربَتْ أكثرَ، ونصبَت عُكَّازها أمامها، مُستعمِلةً إيَّاه للاستِناد. لقد علِمَتْ أنَّ

الله دعاها الآن إلى التَّفوُّه بالكَلِماتِ التي سبقَ أن قالتها لجوليا مرَّةً، كلماتٍ استدرَّتِ الغضبَ والعُنف، كَلِماتٍ جلبَتْ عليها حُكمَ الموت.

يا ربّ، أتمتحِنُني بهذه السُّرعة؟ ثُمَّ شعرَت بالخَجَل. كم مرَّةً في الماضي أخفقَت في التكلُّم جهرًا قبلَ تلك اللَّيلة الأخيرة عندَ جوليا؟ **يا ربّ، سامِحني. لقد أنكرتُكَ كلَّ مرَّةٍ لُذتُ فيها بالصَّمت، كلَّ مرَّةٍ فَوَّتُّ فيها فُرصة.**

"أنا أُومِنُ بأنَّ يسوعَ هو المسيحُ، ابنُ الله الحيّ".

خيَّمَ الصَّمتُ على الشُّرفة. حتَّى النَّسَمةُ الخفيفةُ بدا أنَّها هدأت. وبدا أنَّ كلماتِ هَدسَّة المعبِّرة عن الإيمان وحدَها تتردَّدَ أصداؤها في الهواء.

ارتعدَت جوليا، وأشاحَت وجهَها المشحوبَ والمشدود. "أقولُ لكِ بصِدقٍ، يا رافا، إنَّ إلهَكِ لم يُرسِلكِ إليَّ".

‘‘لماذا تقولين هذا؟’’

‘‘لأنِّي **أعلَم**’’.

‘‘كيف تَعلَمين، سيِّدةُ جوليا؟’’

فرنَت إليها بعَينَين واسعتَين يغمرُهما الألَم. ‘‘لأنَّه إذا كان لدى أيِّ إلهٍ ضغينةٌ عليَّ، فهو هذا’’.

غمرَ هَدسَّة الرَّجاءُ من جرَّاء جوابِ جوليا. ولـمَّا تيقَّنَت بأنَّها تستطيعُ أن تتكلَّم دونَ بُكاء، قالَت: ‘‘إنَّما أطلُبُ منكِ أمرًا واحدًا فقط’’.

فقالَت جوليا بتَهكُّم: ‘‘الآنَ سيَأتي البَلاء! نعم، ماذا تُريدينَ منِّي؟ أيَّ ثمنٍ يجب أن أدفع؟’’

‘‘أطلَبُ ألَّا تُناديني **رافا**’’.

فارتسمَت أماراتُ الدَّهشة على وجه جوليا. ‘‘أوَهذا كلُّ شيء؟’’

‘‘نعم’’.

وضاقَت عَينا جوليا. ‘‘ولماذا لا؟’’

‘‘هذا لَقَبٌ ما كنتُ قطُّ مُستحِقَّةً أن أحمِلَه. لقد كان اسمًا أُطلِقَ عليَّ بدوافعَ لطيفة، لكنْ خاطئة’’.

فحدَّقت جوليا إليها بارتياب. ‘‘ماذا تودِّينَ أن أُناديَكِ؟’’

وخفقَ قلبُ هَدسَّة بشدَّة. كانت قد فكَّرَت أن تكشِفَ هُوِيَّتها، ولكنَّ شيئًا في داخلها كبحَها. **يا ربّ، لستُ مِثلَ هَدسَّةِ**[٢] **الفُوريمِ التي أنقذَتْ شعبَها. إنِّي أقلُّ من ذلك بكثيرٍ جدًّا. أيُّها الآب، أرِني مَن أنا بالنِّسبة إليها. أعطِني اسمًا يُمكِنُني أن أرتقيَ إليه- اسمًا تَستَطيعُ جوليا أن تستَخدِمَه بسهولة.**

وجاءها ذلك، مِثلَ همسة. فابتسمَت. ‘‘أطلبُ إليكِ أن تُناديني بالاسم **عَزار**’’.

عَزار. مُعِينَة.

وكرَّرَت جوليا. ‘‘عَزار. إنَّه اسمٌ جميل’’.

فأحسَّت هَدسَّة سُرورًا مُفاجئًا يغمُرُ قلبَها، وشكرَتِ الله على ذلك. ‘‘نعم، عَزار’’.

وقالَت جوليا مُوافِقةً: ‘‘سأُناديكِ بذلك الاسم’’.

‘‘إذًا، سيِّدتي، الخِيارُ لكِ في بقائي أو ذهابي. سأفعلُ كما تشائين’’.

جلسَت جوليا صامِتةً بِضعَ لَحَظات. فإذ غمرَها الشَّكُّ وعدمُ الثِّقة، خشِيَت أن تُجيبَ بالإيجاب. لماذا تُقدِمُ **مسيحيَّةٌ** على المجيء للاهتمام بها؟ ماذا كان في ذلك بالنِّسبة إليها؟ لو عرَفَت رافا... **عَزار** كلَّ ما قد فعلَته، لتحوَّلَت مُبتعِدةً عنها. وقد علِمَت جوليا أنَّها مسألةُ وقتٍ فقط قبل أن يُخبِرَها أحَد.

قالَت: ‘‘لستُ أعتقدُ أنَّكِ ستبقَين. ولماذا تبقَين؟ فإنَّ أفسُس كلَّها تعرِفُ عنكِ. وأنتِ مَطلوبةٌ جدًّا’’. فلا أحَدَ يقبلُ أن يتخلَّى عن الشُّهرة والثَّروة لقاءَ عيشَةِ كَدحٍ وعُزلةٍ مع امرأةٍ مائتة. وهي لن تقبلَ

ذلك. إنَّهُ أمرٌ غيرُ مَفهوم.

اقتربَتْ هَدسَّة أكثر، وأنزلَتْ نفسَها مُتألِّمةً على مَقعدٍ مُواجهٍ لجوليا. ‘‘سأبقى’’.

‘‘بضعةَ أيَّام؟ بضعةَ أسابيع؟ شهرًا أو شهرَين؟’’

‘‘حتَّى النِّهاية’’.

تأمَّلَت جوليا النِّقاب، مُحاوِلةً أن ترى الوجهَ الذي وراءَه. فلم تستَطعْ. لعلَّ رافا... عَزار... مهما كان اسمُها، كبيرةُ السِّنّ. فيَقينًا أنَّ طريقةَ تحرُّكِها المجهَدة وصوتَها الأجشَّ على نحوٍ غريب يُستشَفُّ منهما أنَّها امرأةٌ ذاتُ سنينَ كثيرة. لعلَّ ذلك هو الواقع. إنَّها مُتعَبةٌ وتحتاجُ إلى راحةِ الاعتناء بشخصٍ واحدٍ فقط بدلًا من كثيرين. ثُمَّ ماذا يهمُّ أيُّ شيءٍ من ذلكَ كُلِّه إذا قطعَت رافا-عَزار وعدًا؟

فقالَت جوليا بارتعاش: ‘‘هل تَعِدينَ بهذا؟’’ مُتمنّيةً لو كان في مُتناوَلِ يدِها كاتِبٌ فيُدوِّنَ كِتابةً ما يتمُّ الاتِّفاقُ عليه.

“إنّي أعِد”.

وزفرَتْ جوليا نَفَسَها على مَهل. كم كان ذلك غريبًا! كَلِمتان نطقَت بهِما امرأةٌ لم تعرِفْها أدنى معرفة، ومع ذلك تيقَّنَت بأنَّ في وُسعها أن تُصدِّقها، وبأنَّ في وُسعها أن تثِقَ بها. لعلَّها الطريقةُ التي بها قالَت رافا-عَزار تَينِكَ الكَلِمتَين.

وما لبِثَت جوليا أنِ امتلأتْ فجأةً بأسًى لا يُوصَف. “إنّي أعِد”. لقد سمعَتْ صَوتًا آخرَ ينطقُ بهاتَين الكَلِمتَين، ورأتُ عينَين داكِنتَينِ ضاحكتَين تغمرُهُما عاطِفةُ حُبٍّ مُفرِطة.

“إنّي أعِد...”

لقد قالَ لها مرقُس هاتَين الكَلِمتَين مرَّةً، والآنَ أينَ هو؟ ماذا عنى وعدُه؟ إنَّ أخاها بعَينه قد كذبَ عليها. فكيف يَسَعُها أن تُصدِّقَ أيَّ شخص؟

بوجودِ أوضاع مُوئسَة جدًّا كهذه، كيف لا يَسَعُكِ ذلك؟ بهذا بدا أنَّ صَوتًا همسَ لها.

كُلَّ لحظة، عاشَت مع الخوف. كان الموتُ هو

الحقيقةَ الأكثرَ تَرويعًا في الحياة، ولكنَّ ما خافَت منه أكثرَ الكُلِّ كان أن تُواجِهَه وحيدةً. فقالَت: "آه، عَزار! إنِّي خائفةٌ جدًّا". وتحرَّكَ فمُها إذِ اغرورقَت عَيناها.

فقالت هَدسَّة: "أنا أعرِفُ حقيقةَ الخوف".

"هل تَعرفين؟"

"نعم. منذُ كُنتُ طِفلةً، كادَ الخوفُ يلتَهِمُني".

"وكيفَ تغلَّبتِ عليه؟"

"لم أفعَلْ أنا ذلك، بل الله فعلَه".

وفي الحالِ اضطربَت جوليا. لم تُرِدْ أن يُذكَرَ الله. ولم تفهَمِ الأمر. إلّا أنَّها فقط علِمَت أنَّ أيَّة إشارةٍ إلى إلهِ هَدسَّة ضايقَتْها. لقد جعلَتْها تتذكَّرُ أشياءَ أرادَتْ مُستَميتةً أن تَنساها.

والآن، ها هي عَزار تقولُ إنَّ إلهَها هوَ ذاكَ بعَينِه. فتَمتمَت بِبؤس: "يا لها من سُخريةٍ تَدعو إلى الرِّثاء!"

‘‘وما هي؟’’

‘‘لقد باتَتْ حياتي في خَرابٍ شامِل بسببِ فتاةٍ مسيحيَّة، وها أنتِ الآن تأتين وتعرضين عليَّ أن تَعتَني بي’’. ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها مُرتجفةً. ‘‘كلُّ ما أعلَمُه هو أنِّي بحاجةٍ إلى شخصٍ ما... **أيِّ شخص**’’.

وكان ذلك كافيًا.

غيرَ أنَّ هَدسَّة، من تلك الجُملةِ الواحدة، رأتِ الدَّربَ الغادرَ الشاقَّ الممتدَّ أمامَها. فإذ فكَّرَت جوليا هكذا، يُمكِنُ ألَّا تُغيِّرَ سلوكَها. ثُمَّ إنَّ هَدسَّة- كما سبقَ أن أنذرَها ألِكسَندر- علمَتْ أنَّها هي قد تموتُ في ساحةِ المدرَّج. ولكنَّها كانت مُتيقِّنةً فقط بأمرٍ واحد: أنَّ الله قد أرسلَها إلى هنا لأجلِ مقصد، لذا ينبغي أن تُذعِن لمقصده. فلا يسعُها أن تحسبَ الكلفة.

‘‘لن أترِكَكِ، سيِّدةُ جوليا، ولن أهجُرَكِ. لن أفعلَ ذلك ما دامتْ في جسدي هذا نَسَمةُ حياة’’. قالَت هَدسَّة هذا، ومدَّت لها يدَها.

حدَّقت جوليا إلى تلك اليد. وبِوَجهٍ مُتغضِّن، تَناوَلَتْها وتشبَّثت بها بدافعٍ من احتياجِها الشخصيّ. أمَّا في ما يتعدَّى ذلك، فلم تَستطعْ أن تُفكِّر.

---

٢. هَدسَّة المقصودةُ هنا هي الملكة إستير (الناشر).

٣١

أمضى مَرقُس بِضعةَ أسابيعَ في جَنّيسارَت، ماشيًا في شوارع المدينة. وإذ كان مُرتَديًا الثّيابَ التي أعطاه إيَّاها عزرا بارياكين، وقلَّدَ الـمِشيةَ الـمَهيبةَ لدى أُولئكَ الذينَ راقبَهُم، تمكَّنَ من دُخولِ أحَدِ المجامعِ. أرادَ أن يسمَعَ الأسفارَ المقدَّسة بينما تُتلَى. وكي يفعلَ ذلك، وقفَ بعيدًا في طرف التجمُّع الحاضر. ومع أنَّه لا يفهمُ العبريَّة، فقد كسبَ عزاءً غريبًا عندَ سماعِ الكلام المقدَّس من التَّوراة. وفي أثناء تدفُّقِ الكلمات فوقَه، لم ينقطعْ عن التفكير في هَدَسَّة. لقد كانت تتكلَّم، وكان هو أصمَّ، كحاله الآنَ تمامًا. وسواءٌ كانتِ اللُّغة عِبريَّة أم يونانيَّة، أراميَّة أم لاتينيَّة، فقد كانت أجنبيَّةً عندَه؛ لأنَّه لا يستطيعُ أن يستَوعبَ المعنى.

استَمعَ إلى مُوسيقى اللُّغة، والنِّداءِ المتكرّرِ فيها، وأرادَ أن يفهم. أرادَ أن يرى ويسمعَ ويُدخِلَ الكلامَ إلى أعماقِ كِيانِه. أرادَ أن يعلَمَ ماذا جذبَ هَدسَّة إلى الله وأبقاها هُناك حتَّى النهاية على

نحوٍ غايةٍ في التَّصميم والاقتِناع.

مَن أنت؟ وما أنت؟

نظرَ حوالَيه مُتوهِّمًا فرأى الوَرَعَ والسَّلامَ في أوجُهِ بعض الرِّجال، ورأى **الرَّجاء**. وفي أوجُهِ آخرين، رأى صورةً لِما أحسَّه هو: الجُوع.

أُريد أن أعلمَ ما ساندَها وساعدَها. اللَّهُمَّ، أرُيدُ أن أعلَم!

وتفاقَمَ الوَجَعُ في داخله. إلَّا أنَّه بقيَ، مُصغيًا بتلهُّفٍ إلى الرِّجال وهُم يتَناقَشون باليونانيَّة في دقائقِ الشَّريعةِ الموسَويَّة. تشريعاتٌ فوق تشريعات، تُضافُ إليها تقاليد، أكثرُ تعقيدًا من أن يفهمَها في بضعةِ أيَّام... أكثرُ تعقيدًا من أن يستَوعِبَها عُمرٌ بكامِله. وإذ شعر بالخَيبة تَعتَريه، انسحَبَ وأخذَ يطوفُ على طُولِ شواطئ بَحرِ الجليل، مُفكِّرًا في كلِّ ما سَمعَه ومُحاوِلًا أن يستَجليَ منه معنًى مفهومًا.

يقينًا أنَّ الحياةَ لم تكُنْ مُعقَّدةً جدًّا هكذا بالنِّسبة

إلى هَدسَّة. فهيَ كانت فتاةً عاديَّةً بسيطة، لا عالِمةً أو لاهوتيَّةً لامعةً حادَّةَ الذكاء. وكلُّ ما آمنَت به كان قد تركَّزَ في حقيقةٍ واحدةٍ عندَها: **يسوع**. فكلُّ ما فعلَته، وكلُّ ما قالَته، وطريقةُ حياتِها... ذلكَ كلُّه تركَّزَ على الناصريّ.

لو أنَّ حياتُه هوَ تكونُ بالغةَ الجَلاء والصَّفاء أيضًا!

ماذا كانَ هذا الجوعُ الدائمُ الذي نهشَه نهشًا؟ لقدِ ابتُليَ به حتَّى قبلَ أن تدخُلَ هَدسَّة حياتَه. لم يكُن من تعريفٍ لِما شعرَ به، ولا وصفٍ لِما يتوقُ إليه. وقد جرَّبَ كلَّ شيء لسَدِّ الفَراغِ داخِلَ نفسه: النِّساء، الخمر، الألعاب، المال. فما كان أيُّ شيءٍ كافيًا أو وافيًا. وما لبَّى الاحتياجَ أيُّ شيء. وبقيَ الفراغُ، عِلَّةً تُعَذِّبُ روحَه.

وبعدما قطعَ المسافةَ القصيرةَ إلى كَفْرَناحوم، نزلَ في فُندُقٍ يونانيّ. كانَ المالِكُ اجتماعيًّا ومِضيافًا، ولكنَّ مَرقُس اعتزَلَ الناس، إذ لم يؤثِر فيه جوُّ المرَح. وقد أثارَ النَّشاط اكتئابَه، فعكفَ على تمضِيَة الأمْسِيَة بقُربِ الميناء، مُشاهِدًا الصيَّادين آتينَ بصَيدِ يَومهم. وفي الليل، كان

يُراقبُ المشاعِلَ المتوهِّجة فيما القوارِبُ تنزلقُ على المياه السَّوداء والصيَّادونَ يطرحون شِباكَهُم.

صَدَحَ بُوقٌ ستَّ مرَّات، مؤذِنًا بحُلولِ السَّبت، من على سَطحِ مَجمعٍ فوقَ تلٍّ مُواجِهٍ لمدينةٍ مُقدَّسة لم تعُد مَوجودة. وشاهدَ مَرقُس رجالًا، فلاحظَ الرِّداءَ الذي يرتَدونَه، ذا الحواشي المضمومةِ في أربعِ زوايا. وكانَ قد أُعلمَ أنَّ الخيطَ الأزرق الغائرَ في إحدى الزَّوايا هو مُذكِّرٌ دائمٌ لِلَابسِ الرِّداء بأن يُراعيَ الشَّريعة.

وبعدَ أيَّامٍ قليلة، استَولى عليه القَلَق، فسارَ إلى بيتَ صيدا. ولكنْ بعدَ بِضع ليالٍ هناك، توجَّهَ شرقًا إلى بيتِ صيدا- يُولياس. وكان قد سمِعَ أنَّ يسوعَ النَّاصريَّ عَلَّمَ على جوانِبِ التِّلال قُربَ المدينة الصَّغيرة. ولكنَّ يسوعَ قد صُلبَ مُنذُ أكثرَ من أربعينَ سنة. أفيُعقَلُ أنَّ أصداءَ كَلِماتِه ما تزالُ تتردَّدُ على تِلكَ المنحَدرات الهادئة؟

سبقَ أن تصوَّرَ أنَّ في وُسعِهِ أن يلتقيَ إلهَ هَدسَّة في هذا البَلَد الذي أنهكَته الحَربُ والذي

يَحمِلُ ختمَ روما، غيرَ أنّ اللّه راغَ منه. فما كانَ ليُوجَدَ على قمَّةِ جَبَل، أو في مدينةٍ مُقدَّسة. ولم يكُنِ اللّه عندَ المذبَح الحَجَريِّ في قلب الهيكل. كما لم يكُن في بيتٍ مَهجور داخلَ قَريةٍ من قُرى الجليل، ولا حتَّى في مَمرٍّ مُوحِشٍ يُؤدِّي إلى البحر.

كيفَ أجِدُكَ؟

فلم يكُن جواب.

وإذ تضايقَتْ روحُ مَرقُس، انحدَرَ في هوَّةِ اليأس.

لم يستَطعْ أن يهتديَ إلى أيِّ سلام. حتَّى إنَّه فقدَ كُلَّ حِسٍّ بالقَصدِ أو الغاية. ولم يعُدْ مُتيقِّنًا أيضًا لماذا جاءَ إلى فلَسطين. وأسوأُ كلِّ شيءٍ أنَّه في مكانٍ ما على الطريق الطَّويلة ضاعَت منه هَدسَّة.

ما عادَ في وُسعهِ أن يَرى وجهَها. ولم يستَطعْ أن يتذكَّرَ وَقْعَ صَوتِها. إنَّما محبَّتُها لإلهها وحدَها بقِيَت جليَّة. وأرادَ أن يتصوَّرها هنا، ماشيةً على

هذه الشُّطوطِ ذاتِها، طِفلةً، سعيدة. فلعلّه آنذاكَ يشعرُ بشيءٍ من السَّلام. غير أنَّ ذِهنَه خانَه مِرارًا وتَكرارًا، راجعًا إلى منظرٍ غائمٍ لفتاةٍ داكِنةِ الشَّعر، جاثيةٍ على رُكبتَيها في حديقةِ أبيه بِرُوما، تُصَلِّي... تُصلِّي لأجلِ عائلته.

تُصلِّي لأجلهِ **هو**.

لماذا بقِيَت تِلكَ الصُّورةُ الواحِدة؟ ولماذا عذَّبَته كثيرًا هكذا؟ ولماذا كان نورُ الذاكرة المتوهِّجُ، ذاك الواحِدُ، هو كلَّ ما بقيَ لديه من هَدسَّة؟

نأى مَرقُس بنَفسهِ عن الناس، فبقيَ في التِّلال شرق بيتِ صيدا، طالِبًا العُزلةَ ليجلُوَ أفكارَه ويجدَ هَدسَّة من جديد. وتلمَّسَ تبريرًا لِمَسعًى فقدَ كلَّ تركيز. فكلَّما حاولَ جاهدًا التفكيرَ في هذه الأمور، ازدادَتْ أفكارُه تَشوُّشًا، وتفاقَمَ ارتباكُ ذِهنِه، حتَّى تساءلَ هل كانَ يُجَنّ.

أرخى شعرَه ولِحيَته. واعتادَ اتِّباعَ الرُّعاةِ مع قُطعانِهم، والوقوفَ بعيدًا عنهم، مُراقبًا. لقد كانوا يعتَنون بالمواشي اعتِناءً بالغًا، فيقودونَها إلى

مَراعٍ خُضر، ويُربضونَها في الظِّلال المعتَدِلةِ البُرودة لكي تجترَّ. وقد شربَتِ الأغنامُ من أحواضٍ هادئةِ المياه مَبنيَّةٍ بمُحاذاة السَّواقي، وتبعَتِ الرَّاعيَ كلَّما نقرَ بِعَصاه على الأرض. وراقبَ الحيواناتِ تدخُلُ حظيرةً، لا مَسُوقةً معًا، بل واحِدًا فواحِدًا، وكلٌّ منها يَلقى عِنايةً دقيقةً من قبَلِ الراعي. وقد مسحَ الراعي بعضًا منها، مُدخِلًا الزَّيتَ في الصُّوف حول عينَيِ الخَروف وأنفِه. وما إنْ يَغدو القطيعُ في الدَّاخل، آمِنًا ضِمنَ حيطانِ الحِماية، حتَّى يستَلقيَ الراعي في بابِ الحظيرة ليحرُسَ أغنامَه.

استَلقى مَرقُس على عباءته، وحدَّقَ إلى السماواتِ فوقَه، مُشوَّشَ الذِّهن. لقد قال أحَدُهم، في أثناءِ سَفراتِه، إنَّ يسوعَ قد دُعيَ ''الراعي الصالح''. أم كانت هَدسَّة هي التي قالت ذلك؟ لم يستَطِعْ أن يتذكَّر. ولكنْ يا له من سلامٍ في أن يكونَ كواحدٍ من تلك الخرفانِ البكماء، يحرسُه ويُعيلُه ويحميه راعٍ يبدو أنَّ غرضَ وجودِه هو مُجَرَّدُ ذلك الأمر: أن يعتنيَ بخرفانه بكُلِّ رِفقٍ ورقَّة!

مِرارًا وتَكرارًا رجعَ مَرقُس كي يُراقِب، ومع ذلكَ ظلَّ الألَمُ يُعذِّبُه، ناهِشًا ذِهنَه كما ينهشُ كَلبٌ جُرحًا مُتَقيِّحًا. لقد كانت جراحُ قلبه غيرَ مُلتَئمة. وأرادَ أن يُقيمَ هَدسَّة من الموت في ذهنه، غير أنَّه كلَّما حاوَلَ ذلك تذكَّرَ بالأحرى موتَها، بعُنفه وهَوله.

وصرخَ قلبُه: **لماذا؟ اللَّهُمَّ، لماذا؟**

ودونَ إنذار، حَلَمَ ثانيةً ذاتَ ليلة، هذه المرَّة بهوَّةٍ مُشتَعِلة تقطنُها كائناتٌ مُعذَّبة تتلوَّى في النُّورِ القاتمِ الخافق. وقد باتَتِ النارُ أكثرَ حِدَّةً وشِدَّةً ووضوحًا، حتَّى استطاعَ أن يُحِسَّ الحرارة ويشمَّ الدُّخانَ الكبريتيَّ الجهنَّميَّ مُكتَنِفًا إيَّاه. فملأهُ الرُّعب، ثُمَّ لاحَ له بَصيصُ رَجاء، إذ في مكانٍ ما، بعيدًا جدًّا فوقَه، خارجَ نِطاقِ البَصَر ومُتناوَلِ اليد، سمعَ هَدسَّة مُناديةً إيَّاه بصَوتٍ عالٍ أن يُوافِيَها.

فصرخَ مكروبًا: ‘‘لا أستطيعُ أن أجدَكِ!’’ واستَيقَظَ في الحال، مُستَحِمًّا بعَرَقه، وقلبُه يخبطُ خَبْطًا.

وليلةً بعد ليلة، عاوَدَه الحُلم، مُعذِّبًا إيَّاه. ثُمَّ توقَّفَ

الحُلمُ فجأةً، كما كان قد بدأ يؤرِّقَ لياليَه، تارِكًا فراغًا أسوأ بكثير. وقد أحاطَتْ به ظُلمةٌ فاغِرةٌ فاها... وأحسَّ مُرهَقًا أنَّه يهوي فيها.

وإذ باتَ مَرِقُس مُضنًى وغيرَ مُهندَم، تمنَّى الموت، نهايةً للعذاب. وصرخَ إلى السَّماوات: ‘‘أنا أعلَمُ أنَّكَ هُناك. لقد ربحتَ! أنهِ الأمر!’’

فلم يحدُثْ شيء.

ثُمَّ هبطَ إلى شُطوطِ البُحَيرة، وقعدَ يُحدِّقُ إلى المياه المتَموِّجة ساعاتٍ بلا انقطاع. كانت الرِّيح باردة، فاخترقَته اختِراقًا، ولكنَّه لم يكَدْ يشعُر بها. ووافَتْه رؤيا عن نفسه، كانت واضِحةً جدًّا كما لو أنَّه كان واقفًا أمامَ مرآة، ومع ذلك رأى ما وراءها... داخلَ نفسِه. فغطَّى عَينَيه، مُمسكًا برأسِه، وسمعَ كلماتِ أُختِه.

‘‘لقد سمعتُ ما قالَته لك! سمعتُها تردُّ حُبَّكَ ضارِبةً به وجهَك. إنَّها فضَّلَت إلهها عليك، وأنتَ قُلتَ إنَّ في وُسْع إلهها أن يأخُذَها. حسنًا، الآنَ سيأخُذُها’’.

فأنّ مَرقُس. ‘‘لا!’’ وأحكَمَ إمساكَه برأسِه، ضاغطًا، مُبتَغيًا أن يسحقَ الكلماتِ والصُّوَر مُزيلًا إيَّاها من ذهنِه.

‘‘قُلتَ إنَّ في وُسْع إلهِها أن يأخُذَها’’.

‘‘يا الله، لا...!’’ لَولاه، لكانَت حيَّة. فبسبَبِ كلماته المتَسرِّعة، تلك الكَلِمات التي قيلَت في حال التأذِّي والغضب، أُرسِلَت إلى حَتفِها.

‘‘فعلتُ ذلكَ لأجلك!’’ بهذا صاحَتْ جوليا ذلكَ اليوم، لـمَّا مَشَتْ هَدسَّة على الرَّملِ لتُواجِهَ الأُسود. ورُغمَ أنَّه صرخَ مُستَنكرًا ذلك، لم يعُدْ في وُسعهِ أن يتحوَّل ويبتعِد. فقد أقبلَ عليه جارفًا كموجةٍ عاصِفة. ورأى جوليا، الأُختَ التي أحبَّها في ما مضى، جامحةَ الغَضَب، مُتشبِّثةً به بيدَيها وزاعقة.

‘‘قُلتَ إنَّ في وُسْع إلهِها أن يأخُذَها... قُلتَ إنَّ في وُسْع إلهِها أن يأخُذَها... قُلتَ...’’

فصاحَ في الرِّيح: ‘‘لا! لم أقصِد لها قطُّ أن تموت!’’

“قَلتَ إنّ في وُسْع إلهها أن يأخُذَها...”

ثُمَّ هبَّت الرِّيحُ بقُوَّة، وتذكَّرَ مَرقُس كلماتِه الأخيرةَ لهَدسَّة في مَهاجع الطَّبقة العُليا من دارة جوليا: **“في وُسْع إلهِكِ أن يأخُذَكِ!”**

كان قد أرادَها لنفسه، ولمَّا لم يستَطعْ أن يأخُذَها مشى مُبتَعِدًا، مُفعَمًا بالغَيظِ والازدراء.

وهيَ قد دفعَتِ الثَّمن.

وفيما هو جاثٍ على رُكبتَيه، غطَّى رأسه. “ أنا كنتُ أستحقُّ الموت، لا هي”.

ومعَ الصَّمتِ المظلِم، جاءَ عِبءُ القضاء. فلَبِث جاثيًا على الرَّمل حتَّى سكنَتِ الرِّيحُ وسادَ السُّكونُ حواليه. وإذ غرزَ يَدَيه في الرَّمل، رفعَ وجهَه. “جئتُ لكي ألعنَك، ولكنِّي أنا الملعون”. فلم يُكلِّمه أيُّ صَوتٍ خفيفٍ هادئ. ولم يكُن قد شعرَ قطُّ بمثلِ هذه الوحدة وهذا الفراغ.“لماذا ينبغي أن تُجاوِبَني؟ مَن أنا؟ لا أحَد. ما أنا؟ لا شيء”.

آحسَّ الشُّعورَ بالذّنْب يبتلِعُه، وتقيَّأ على الرَّمل ندامةً، لأنَّه علمَ أنَّه كان مُستحِقًّا أسوأ بكثيرٍ من أجلِ دَورِه في ما حلَّ بهَدسَّة. ولم يعُد في وُسعِه أن يهرُبَ ويختبئَ من الواقع. "إذا كُنتَ أنتَ الله، فأجرِ العَدل. أجرِ العَدل!"

موَّجَتِ الرِّيحُ الخفيفةُ المياه، وغسلَتِ الشاطئَ مَوجةٌ لطيفة. وسمعَ مَرقُس كلماتِ العجوزِ ثانيةً، كما لو أنَّها بَلَغَته مَهموسةً فوقَ الماء.

"حتَّى تهتديَ إلى الله ستَبقى عائشًا في الباطِل".

فرأى الباطِلَ الذي كانَته حياتُه كلُّها، والعَدَمَ الواهيَ القاتمَ الممتَدَّ أمامَه. لقد تبكَّتَ على خطيَّته. ووجبَ أن تكونَ حياتُه هو غَرامة. فرُغمَ دَورِ جوليا في ما جرى، كان ينبغي أن يكونَ هو في ذلك اليوم واقفًا على الرَّمل، لا هَدسَّة. إنَّها لم تفعل قطُّ أيَّ شيءٍ يستحقُّ الموت. ولكنَّه، إذ نظرَ إلى الماضي، استطاعَ أن يرى المرَّات التي لا تُحصى، والطُّرُقَ التي لا تُعَدُّ، حيثُ سلكَ سبيلًا يستحقُّ الموت.

انتظرَ نُزولَ القضاء، غيرَ أنّ اللّه ظلَّ صامتًا. ومن ثَمَّ هبَّ واقفًا، وحكمَ على نفسه. فأعلنَ أنَّه مذنبٌ، ونطقَ بحُكمِه... ثُمَّ مشى مُخترِقًا مياهَ البحر.

لاطمَتِ المياهُ الباردةُ كاحِلَيه، ثُمَّ رُكبتَيه، ثُمَّ ورِكَيه. فرمى بنفسه إلى الأمامِ وبدأ يسبح، نحوَ الأعماقِ مُباشرةً. وصارَ الماءُ أشدَّ اضطِرابًا وبُرودة. فخدِرَت أطرافُه. وإذ أنهكَه الإعياء، سبحَ بتَراخٍ، وهو ما زال يبتعِدُ نحوَ عُرضِ البحر. ثُمَّ لطمَته مَوجة، فابتَلعَ شيئًا من الماء. وبينما هو يختنِق، جاهدَ غريزيًّا في سبيلِ الحياة، حتَّى في أثناء تمنّيه الموت.

وإذ بدأ الوعيُ يتَلاشى، واكتنفَته البُرودة، سمعَ اسمَه منطوقًا به.

"مَرقُس..."

صَوتٌ تَناهى إليه من كُلِّ مكانٍ حَوالَيه، ثُمَّ حلَّ السُّكونُ إذ أمسَكَ به دِفءٌ صاعِد.

الفرن

٣٢

أفاقَ مَرقُس على الشاطئ. وفيما هو فاقِدٌ حسَّ الزَّمان والمكان، حدَّقَ إلى النُّجوم فوقَه. وفكَّر: **إنَّه حُلم... لا بُدَّ أنَّه كان حُلمًا.** ولكنْ لِماذا باتَتْ رِئَتاه تؤلِمانه؟ ثُمَّ دفعَ عنه ثِقلَ عباءةٍ جافَّة، وجلس. فداعبَه نسيمُ البحر، وأحسَّ على جلده رُطوبةَ تُنكهِ الباردة. وشرعَ قلبُه يدقُّ أسرع. وانتشرَتْ على جسمِهِ كلِّه انكِماشاتُ القُشَعريرة.

وإذا بِنارٍ تُفَرقع.

فأدارَ مَرقُس رأسَه، وهو يرتجفُ خَوفًا. كان رَجلٌ مُرتَدٍ تُنكًا طويلًا قاعدًا إلى الجانب الآخرِ من ألسِنة اللهيب، يشوي سَمَكة. وفي النُّورِ الخافِق، خُيِّلَ إلى مَرقُس أنَّ ثيابَ الرجُل تشعّ. وما كانَ مَرقُس قد رأى قطُّ وجهًا كذاك.

"أأنتَ الله؟"

"أنا خادمٌ للرَّبِّ العَليّ".

فأحسَّ مَرقُس قُشَعريرةَ خِشْيَة. "بأيِّ اسمٍ تُدعى؟"

أجابَ الرَّجُل- بصَوتٍ آمِرٍ ومُهدِّئٍ معًا- "لا تخف! أنا پاراكليتُس".

"من أينَ جئتَ؟"

فابتسمَ پاراكليتُس، وبدا محَيَّاه أكثرَ تألُّقًا بَعد. "لقد جئتُ حامِلًا إليكَ خبرًا سارًّا، يا مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان. إنَّ الله قد سَمِعَ صلواتِك".

بدأ مَرقُس يرتَجفُ بشِدَّة. كان قد طلبَ من الله أنا يأخُذَ حياتَه، وفكَّرَ بإغراقِ نفسِه لـمَّا لم تُجدِهِ حياتُه أيَّ نَفع. فهل حضرَ هذا الغريبُ إلى هنا الآن لكي يصرَعَه بِاسْمِ الرَّبّ؟ حسنًا، لم يكُن ذلكَ أقلَّ ممَّا يستحقُّ! فانتظرَ فيما قلبُه يُرعدُ في أُذُنَيه، والعَرَقُ يَنسابُ من بَشَرته.

قال پاراكليتُس: "قُم وكُل!" مادًّا نَحوَه العصا التي شُكَّت فيها السَّمكة المشويَّة.

قامَ مَرقُس بِبُطء وانحنى فوقَ النار، مُزَلِّقًا

السَّمكةَ عن العصا بِحرص. ثُمَّ قعدَ من جديد وأزالَ اللحمَ عن الحَسَك. وقد كان شهيًّا، وذابَ في فمه. فبَعدَ أوَّلِ قضمة، أدركَ كم كان جائعًا. وأعطاه پاراكليتُس خُبزًا وخمرًا، فأكلَ وشربَ حتَّى التُّخمة. يبدو أنَّ اللّٰه أرادَ له أن يموتَ وبَطنُه ملآن!

رمقَه پاراكليتُس بحَملقةٍ أحرقَتْ حِدَّتُها قلبَه. وقال له: ‘‘كثيرون قد صلَّوا لأجلك، وصَلَواتُهم قد استُجيبَت. ولكنْ يجبُ أن تطلُبَ حتَّى تَنال’’.

غمرَ الكَرْبُ مَرقُس. ‘‘بأيّ حقٍّ أطلبُ شيئًا؟’’ لقد عرَفَ ما أرادَه أكثرَ الكُلّ، ولكنَّ ذلك كان مُستَحيلًا. ‘‘أيُمكِنُ أن أتلقَّى الصَّفحَ من شخصٍ سبَّبتُ مَوتَه؟’’

‘‘في المسيح، كلُّ شيءٍ مُمكِن’’.

فهزَّ مَرقُس رأسَه، وأغمضَ عَينَيه. وفكَّرَ في هَدسَّة، فرآها في ذِهنه ماشيةً على الرَّمل، فاتحةً ذراعَيها، مُبتسِمة، مُرَنِّمة. مَن غيرَ اللّٰه أمكنَ أن يُعطِيَها سلامًا كهذا في أوضاعٍ كهذه؟

مَن غيرَ اللّه أمكنَ أن يعطِيَها الإيمانَ الذي احتاجَتْ إليه؟ الإيمان! من أين جاء؟

‘‘اطلبوا، تَنالوا’’.

رفعَ مَرقُس نظرَه إليه. ولِكَونهِ لا يستحقُّ شيئًا، صرَّ بأسنانِه. أينبغي له أن يصرُخَ إلى اللّه لكي يُخلِّصَه الآن، بعدما لعنَه هو مرَّةً بعد مرَّة؟ أينبغي له أن يتوسَّلَ لأجل الرَّحمة. وهو لم يُبدِ أيَّةَ رحمة؟

‘‘لقد بَذَلَ الله ابنَهُ الوحيدَ لكي لا يهلِكَ كلُّ مَن يؤمنُ به، بل تكونُ له الحياةُ الأبديَّة’’.

فقال مَرقُس بصَوتٍ أجَشَّ: ‘‘هُوَّةُ النار هي المكانُ الذي أنتمي إليه، لا السَّماء! لقد فقدَت هَدسَّة حياتَها بِسَببي’’.

‘‘وقد وجَدَتْها. إنَّ الله ما زالَ حامِلًا إيَّاها في راحَةِ يدِه. فهيَ لن تؤخذَ من يَده أبدًا. أقولُ لكَ هذا بالحقّ، يا مَرقُس ڤاليريان، إنَّه لا موتَ ولا حياة، ولا ملائكةَ ولا رؤساءَ ولا قُوَّات، ولا أُمورَ حاضرةً ولا

مُستقبِلة، ولا عُلوَ ولا عُمق، ولا خليقة أخرى، تقدِرُ أن تفصِلَنا عن محبَّة الله التي في المسيح يسوع ربِّنا".

غَمَرَ الفَرَحُ والشُّكر مَرقُس.

ثُمَّ قامَ الرَّجلُ واقتَرَبَ إليه. "آمِنْ بمَن أرسلَني. اسمَع البِشارة. إنَّ ذاكَ الذي ماتَ قد قام حيًّا من بين الأموات، مثلما أقامَكَ من البحر. لقد طلبتَ من الربِّ أن يأخُذَ حياتَكَ، وهكذا فعل".

ووضعَ يدَه على كتِف مَرقُس، فانكسَر قلبُ مَرقُس لَدَى لَمسَتِه. وسالَتِ الدُّموعُ غزيرةً مِثلَ صَديدِ جُرحٍ مُتقيِّحٍ قديم آلمه منذُ ولادته وطَوالَ عُمرِه. فانطَرحَ على وجهِهِ فوقَ الرَّمل وبكى.

وقال پاراكليتُس: "اذهَبْ إلى كَفْرَناحوم. ستَجِدُ رجُلًا عندَ البوَّابة. أخبِرْه بكُلِّ ما جرى لكَ اللَّيلة".

وقفَ مَرقُس بعدَ وقتٍ طويل، إلَّا أنَّه لم يَرَ أحَدًا على الشاطئ معه. ألعلَّه كان يحلم؟ ونظرَ فرأى، هناكَ على الرَّملِ أمامَه، جَمرَ نارٍ وحَسَكَ

سمكة.

فوخَزَهُ الشَّعرُ على قفا رَقبتِه، وانتشَرَ في جسمه كلِّه دفءٌ مُتعاظِم.

هُرِعَ مَرقُس إلى داخلِ بيتِ صيدا. وأخذَ يقولُ لاهثًا: ‘‘أنا أبحَثُ عن پاراكليتُس. هل تعلَم أينَ يُمكِنُ أن أجِدَه؟’’

فَجاءهُ الجوابُ المكرَّر: ‘‘لا أعرِفُ أحَدًا بهذا الاسم’’. ولم يكُن أيُّ شخصٍ قد رأى رجُلًا يُناسِبُ الوصفَ الذي قدَّمَه مَرقُس. يقينًا، لا بدَّ أن يكونَ أحَدٌ قد سَمعَ برَجُلٍ مثل ذاك.

قال له رجُلٌ يستَهزئ: ‘‘رُبَّما رأيتَ مَلاكًا’’.

وضَحكَ آخَرون: ‘‘اذهَبْ نَم حتَّى يزولَ تأثيرُ الخمر!’’

ثُمَّ سلكَ مَرقُس الطريق إلى كَفْرَناحوم، وكادَ يبزغُ الفجرُ لدى اقترابه منها. فرأى رجُلًا جالسًا بقُرب البوَّابة. كان الناسُ يمرُّون أمامَه ويعبُرون، ولكنَّه بدا مُراقبًا الطريق. أهذا هو الشَّخصُ الذي

قصدَه پاراكليتُس؟ توجَّه مَرقُس نحوَه بخُطَى واسعة، فسدَّدَ الرجُل إليه حَملقَتَهُ بتركيز. وإذ نحَّى مَرقُس جانبًا مشاعرَ غَباوته، أطاع أمرَ پاراكليتُس، وأخبرَ الرَّجُل بما جرى له البارحَة.

‘‘آخِرُ ما قالَه لي أن آتيَ إلى كَفْرَناحوم وأُخبِرَ الرجُلَ الذي عندَ البوَّابة بهذا كلِّه. وهكذا فعلتُ’’. وتوقَّعَ من الرَّجُل أن يضحكَ ويتَّهِمَه بالسُّكر.

ولكنَّ ابتِسامةَ الرَّجُل أشرقَتْ بالأحرى. ‘‘حمدًا للرَّب! أنا كُرنيليوس. قيلَ لي في حُلم إنَّ رومانيًّا اسمُه مَرقُس سيَلتَقيني هنا. أأنت هو؟’’

فقال بصوتٍ أجشَّ: ‘‘أنا مَرقُس’’. وأضافَ بجَفاف: ‘‘هل قيلَ لكَ ما تفعلُ بي؟’’

ضحِكَ الرَّجُل. ‘‘نعم، بالتَّأكيد! تعالَ معي!’’ واقتادَ مَرقُس نُزولًا إلى البحر. فتَبِعَه مَرقُس إلى داخِلِ الماء مُرتَبِكًا. ودارَ كُرنيليوس إليه، ثُمَّ وضعَ يدَه على كَتِفه. ‘‘هل تؤمنُ بأنَّ يسوعَ هو المسيح، ابنُ الله الحيِّ؟’’

شعرَ مَرقُس بالخوفِ لحظةً. أيُّ شيءٍ يأتي الآن، مَهما كان، سيُغيِّرُ حياتَه إلى الأبد. فأطبقَ أسنانَه وقبضتَيه، مُتصارِعًا مع نفسِه بَعدُ. هل آمنَ؟ هل فعل؟

وفي توتُّره وارتيابه، عَلمَ أنَّ عليه أن يُقرِّرَ قرارًا واعيًا. وما لبثَ أن قال: ‘‘أنا أُومِن... سامِحني بعَدَمِ إيماني!’’

فأمسكَ الرجلُ به بإحكام، وأنزلَه في الماء. ‘‘أنا أُعمِّدُكَ بِاسْمِ الآبِ والابنِ والرُّوح القُدس’’.

إكتنفَ دَفقُ الماء البارد مَرقُس، دافِنًا إيَّاه، ثُمَّ أُقيمَ إلى دفء الشَّمس. وغرزَ قدمَيه بثَبات فيما أخذَ الرجلُ الذي بجانبه يتهلَّلُ بالرَّبّ. ثُمَّ أقبلَ آخَرونَ راكِضين، وكانَ كلُّ ما استَطاعَ مَرقُس القيامَ به هو أن يقفَ مُحدِّقًا إلى بعيدٍ فوقَ بُحَيرةِ الجليل، وقد أدهشَه الفَرَحُ الذي أحسَّ به.

فَرَحٌ مُفاجئ. لا يُوصَف. كامِل.

لم يكُن ذلك حُلمًا. فهو لم يتخيَّلْ تخيُّلًا أيَّ شيءٍ

ممَّا حدثَ أو ممَّا قالَه الغريبُ الذي سمَّى نفسَه پاراكليتُس. ولكنْ كان أعمقَ بَعدُ ذلكَ التغييرُ الذي شعرَ به في قرارة نفسِه الآن على أثرِ اتّخاذهِ قرارَ الإيمان بأنَّ يسوعَ هو المسيحُ، ابنُ اللّه الحيّ. فقد شعرَ بأنَّه مُطهَّر. كما شعرَ بأنَّه مُكمَّل. وقد تدفَّقَ دمُه في عُروقه بحياةٍ جديدة، وتوجُّهٍ جديد.

ملأ مَرقُس رئتَيه من الهواء المنعِش ثُمَّ زفرَه خارجًا، وهو يشعرُ بأنَّه حُرّ. وقد ضَحكَ ورفعَ عينَيه إلى السَّماوات بقلبٍ شاكر. وفي الوقتِ نفسِه بكى. أكان الأمرُ حقًّا بهذه السُّهولة المذهِلة؟ أنا أُومِن!

التفتَ إلى كُرنيليوس توَّاقًا، مُتَجاوِبًا مع الرُّوح الجديد داخِلَ كِيانه. ‘‘ماذا أفعلُ الآن؟’’

‘‘عليكَ أن تعودَ إلى أفسُس’’.

وقعَت عليه هذه الكلمات وُقوعَ ضَربةٍ فِعليَّة.

فقالَ كُرنيليوس ثانيةً- مُعبِّسًا قليلًا- ‘‘عليكَ أن

تعودَ إلى أفسُس’’.

وقفَ مَرقُس، مُبَلَّلًا قاطِرًا، شاعِرًا كأنَّ قلبَه قدِ انتُزعَ منه. وحدَّقَ إلى كُرنيليوس، ذلك الرجلِ الذي لمِ يَعرِفه، مُتمنِّيًا لو لم يسألْه ذاكَ السؤال. وما لَبثَ أن قالَ بصَوتٍ أجَشَّ: ‘‘لماذا تقولُ لي هذا؟’’ وقد أغضبَه أن يُنزَعَ مِنه فَرَحُه سريعًا هكذا.

‘‘هذه هي الكلماتُ التي أُعطِيتُها: «قُل لِمَرقُس أن يعودَ إلى أفسُس!»’’. ووضعَ كُرنيليوس يدَه على ذراع مَرقُس. ‘‘أتعلَمُ ما يُريدُه الرَّبُّ منكَ هُناك؟’’

نَعَم، بالتَّأكيد كان يعلَم. فإنَّ ما انطوى عليه الأمرُ بالعَودة من كمالٍ ورَحمةٍ مُروِّعَين صعقَ قلبَه، غيرَ أنَّ عقلَه تمرَّدَ عليه.

فقالَ مُتجَهِّمًا: ‘‘أنا أعلَم’’.

لقد أرادَ اللّٰه له أن يُسامحَ أُختَه!

٣٣

بينَما عَزار تُساعدُ جوليا على الوُصول إلى أريكَتِها على الشُّرفة، قالت لها جوليا: ‘‘احكي لي قصَّةً أخرى كالَّتي حَكَيتِها لي أمسِ، قصَّةً مُثيرةً ورومانسيَّة’’.

غاصَ قلبُ هَدسَّة. فعلى مدى الأسابيع الماضية حكَت لجوليا قِصَصًا كثيرةً سبقَ أن حُكِيَت لها في صِغَرِها. وكانَت قصصًا تَهدِفُ إلى إظهارِ صِفاتِ مَحبَّةِ الله ورحمتِه، إلَّا أنَّ جُوليا لم ترَ أيَّ مغزًى غيرَ التَّسلية. إنَّها لم تمسَّ قلبَها. فهل تبقى دائمًا على هذه الحال، طالِبةً السُّلوانَ عن أوجاعِ مرضِها، لكنْ عمياءَ عن حقيقة الحياة؟

لقد أرادت قصَّةً مُثيرة... رومانسيَّة.

وأرادَتْ هَدسَّة أن تهزَّها وتُخبِرَها بشأن شيؤل (الهاوية) والشيطان، عن رُجوعِ يسوع وإنزالِ الدَّينونة على العالم، **عليها هي**. هل أرادَت جوليا أن تكونَ بين الذين يُطرَحون في بُحَيرة النار إلى الأبد؟ أكانت عمياءَ حِيالَ الحقيقةِ التي ما

تزالُ تُذاعَ عندَ فَجرِ كلِّ يوم؟ المسيحُ قام. المسيحُ رَبّ. المسيحُ يَملِكُ. المسيحُ سيِّدين.

وسألَتْها جوليا: ‘‘لماذا أنتِ ساكِتةٌ هكذا؟’’

إذا كُنتَ تملِك، يا رَبّ، فلِماذا أنا مَغلوبةٌ إلى هذا الحدّ؟

‘‘احكي لي قصَّة، يا عَزار’’.

زفرَت هَدسَّة نفَسَها ببُطء، مُحاولةً أن تتخلَّص من سُخطِها. فإنَّ جوليا لم تكُن قَطُّ أقلَّ تطلُّبًا ممَّا اعتادَت أن تكونَ دائمًا. واستَجمَعَت قواها، فساعدَت جوليا على الاستلقاء، ثُمَّ غطَّتها ببطَّانيَّة، وعرَجَتْ إلى الأريكة الأُخرى، حيثُ قعدَت باحتِراس، والألَمُ ينخسُ ساقَها السَّقيمة. فمدَّتها وفركَتْها، شاعِرةً بأنَّ جوليا تُراقِبُها وتنتظر. وحاولَت أن تُفكِّرَ في قصَّةٍ تَفي بالغَرَض.

‘‘حدثَ في أيَّامِ حُكمِ القُضاةِ للشَّعب العبرانيّ أن حصلَت مَجاعةٌ في البَلَد. فذهبَ رَجُلٌ من بيتَ لحم في اليهوديَّة ليتغرَّبَ في أرضِ مُوآب مع

زوجتِه وابنَيه...’’

اتَّكأت جُوليا إلى الوراء، وأغمضَتْ عَينَيها، مُصغيةً إلى صَوتِ رفيقتِها الأجشّ. بَدَتِ القصَّةُ مألوفة، ولكنَّها لم تُبالِ. إنَّها لن تستطيعَ أن تتذكَّرَ التفاصيلَ أوِ الأحداث، غيرَ أنَّ القصَّةَ ستُسلِّيها بعضَ الوقت.

‘‘تزوَّجَ الابنان بامرأتَين موآبيَّتَين؛ اسمُ إحداهما عُرفة، واسمُ الأُخرى راعوث’’.

فتَحت جوليا عينَيها مُرتاعةً. ‘‘أهذه هي القصَّة التي فيها يموتُ الزَّوجُ وترجعُ الكَنَّةُ مع حماتها إلى أرضِ يهوذا وتلتقي مُزارِعًا ما؟’’

فلاذَت هَدسَّة بالصَّمت. ثُمَّ شبكَتْ يدَيها بإحكامٍ في حضنِها، مُكافحةً الغضبَ الذي ثارَ في داخلِها. ‘‘نعم، سيِّدتي’’.

وأطلقَتْ جوليا تنهُّدةً تحوي وجعًا. ‘‘لقد سمِعتُها. ولكنِ امضي قُدمًا واحكيها على كلِّ حال. إنَّما اجعلي الرجلَ الذي يلتَقيها جُنديًّا، واختَلِقي

بعضَ المعارك". ولـمَّا لم تقُل عَزار شيئًا، أدارَتْ جوليا رأسَها ونظرَتْ إليها حائرةً. فإذا بها هادئةٌ جدًّا. وبِوُجودِ الحجاب مُخفِيًا رأسَها، لم تستَطعْ جوليا حتَّى البدءَ بتَخمينِ أفكارِها. فأزعجَها ذلك. هل أثارَتِ استِياءَها؟ ومن ثَمَّ قالت بتَساهُلٍ يحوي ألـمًا: "حَسَنٌ جدًّا. احكيها كيفَما شئتِ".

لم تُرِدْ هَدسَّة أن تحكيَ لها القصَّة بتاتًا! فأغمضَتْ عَينَيها وشهقَتْ نَفَسًا بطيئًا، وقد ضايَقَها الغضبُ الذي ثارَ في داخلها. ولم يكُن قطُّ غضبًا مُبرَّرًا. ثُمَّ لـمَّا فتحَتْ عَينَيها من جديد، رأتْ أنَّ جوليا ما زالَت ناظِرةً إليها.

"أأنتِ غاضِبةٌ عليَّ؟"

بَدَت مِثلَ طِفلَةٍ علمَتْ أنَّها أثارَتِ استياءَ والدِتِها. فبدأت هَدسَّة تُنكِرُ غضبَها، وغيَّرَت رأيَها. وقالَت بصراحة: "نعم، أنا غاضبة". لم تدرِ إلى أين قد يُؤدِّي هذا الاعترافُ، ولكنَّها لم تأسَفْ لأنَّها تكلَّمَت بِلا تحفُّظ.

فطرفَت جوليا بعَينَيها. "ولكنْ لماذا؟ لأنِّي قد

سمعتُ القصَّةَ من قَبل؟ لم أقُل إنَّها لم تُعجِبْني. لقد كانت مُسلِّيةً كما هي عليه. إنَّما طلبتُ فقط أن تُغيِّري تفاصيلَ قليلةً لِتَجعَليها أكثرَ تشويقًا''. ثُمَّ أشاحَتْ بناظرَيها، وأضافَتْ بلهجةٍ مشاكِسة: ''إلَّا أنَّكِ غيرُ مُضطرَّة إلى ذلك إنْ كُنتِ لا تُريدينَه!''

''ربَّما تكونين قد أصغيتِ إلى القصَّة من قبل، ولكنَّكِ أخفقتِ في أن **تسمعيها**''.

فأدارَتْ جوليا رأسَها مُجدَّدًا بحركَةٍ خاطفة، وقد برقَتْ عَيناها بغضبٍ ثائرٍ مُفاجئ. ''لقد **سمعتُها**. لستُ غبيَّة. في وُسعي أن أحكيَ أنا نفسي القصَّة بكامِلها. لقد كانت الأمُّ هي نُعمي التي سمَّت نفسَها في ما بعد مُرَّة لأنَّها فقدَت زَوجَها وابنَيها. أليس هذا صحيحًا؟ وكان اسمُ المزارع بُوعَز. اسمٌ سخيفٌ، إنْ سألتِني. بُو-عَزّ! لماذا ليس شيئًا قويًّا مثل أپولو؟ فحينها كُنتِ تَعلَمين على الأقلِّ أنَّه كان وسيمًا! ثُمَّ إنَّ راعوثَ كانَتِ الكَنَّة الكامِلة، امرأةً فاضلة. «امرأة فاضلة!» لقد كانت كادِحةً فعلَت كلَّ ما أرادَت حماتُها منها أن تفعلَه. التَقِطي وراءَ الحصَّادين، يا راعوث. نامي

عندَ قدمَيه، يا راعوث. تزوَّجي بُوعَز مهما كان مُتقدِّمًا في السِّنّ. تخلَّي عن ولدِك الأوَّل''.

ثُمَّ أشاحَتْ بناظرَيها، وقالَت بازدِراءٍ ساخر: ''تِلكَ المرأةُ المسكينة لم يكُن لها عَقلٌ خاصٌّ بها''.

''لقد كان لرَاعوثَ عَقلٌ خاصٌّ بها. عقلٌ قويٌّ وقلبٌ قويٌّ. وقد أعطَتِ الله كِلَيهِما، فبُورِكت من أجلِ ذلك''.

''هذا رأيُكِ أنتِ''.

فردَّت هَدسَّة في الحال: ''إنَّ المزارعَ الذي تزوَّجَتْ به جعلَها أُمَّ جَدِّ الملك داوُد. حتَّى روما قد سمِعَت بالملك داوُد''.

أدارَتْ جوليا رأسَها ثانيةً، وقد التَوى فمُها ببُرودةٍ هذه المرَّة. ''كأنِّي أستشعرُ كِبرياءَ في صَوتك، يا عَزار؟ أكانَ ذاك الذي سَمعتُه كِبرياء؟''

تدفقَّتِ الحرارةُ إلى خدَّي هَدسَّة. ونظرَتْ إلى سِيماء جوليا التي تعكسُ اعتدادًا بالنَّفس، فشعرَتْ بالخجل. لقد كانت **مُتكبِّرة**. لقدِ

اضطرمَت بالكِبرياء إزاءَ كلمات جوليا الازدرائيَّة.

وأذعنَت جُوليا بعَجرفة. ‘‘ربَّما كان للعبرانيِّين مَلِكٌ واحدٌ اسمُه داوُد، ولكنْ كان لِروما العُظماءُ يُوليوس وأُوغسطُس قيصر وفَسبازيان **وتيطُس**. ألَم يُقلِّص ذلك الشابُّ مدينةَ القُدسِ العريقةَ إلى كومَةِ رُكام؟’’

تذكَّرَت هَدسَّة تيطُس تذكُّرًا كُلِّيًّا. ‘‘نعم، سيِّدتي. لقد فعلَ ذلك’’.

ولدى سماع هذه الكلمات المنطوقةِ بهدوء، فارقَتِ البُرودةُ عَينَي جوليا. وقد خفقَتْ عَبسةٌ على جَبينها، ولانَ فمُها. ‘‘هل كُنتِ هُناك لـمَّا حدثَ الأمر؟’’

‘‘كنتُ هناك’’.

فعضَّت جوليا شفَتَيها، وأشاحَتْ بناظرَيها من جديد، مُضطرِبةً. ‘‘آسِفةٌ لتَذكيرِك بذلك. أحيانًا أقولُ أشياءَ دونَ أن أعنيَها’’.

كانت تلك كَلِماتٍ مُفاجئةً غمرَت هَدسَّة بالارتباك

من جهة جوليا. أكانت مُتعجرِفة ومُترفِّعة؟ أم كانَت حسَّاسة؟ هل أدَّت طريقتُها الجارِحةُ فقط دَورَ تَخبئةِ ضَعْفٍ أعمَق؟

يا ربّ، ساعِدني. لقد كنتُ أُحِبُّها كأُختٍ لي. والآن أُبغِضُها بُغضًا شديدًا جدًّا بحيث يصعُبُ عليَّ أن أبقى معها في غُرفةٍ واحدة. ها أنا أجلِسُ وأُصغي إلى شكواها وطلباتها الدائمة، وأُريدُ أن أصرُخَ في وجهها من أجلِ المُعاناة التي سبَّبَتها لي. أيُّها الآب، ساعِدْني لكي أراها من خلال عينَيك!

ولـمَّا صلَّت، بدأتْ تَستَرخي من جديد. لقد كانت جوليا عَمياء وصَمَّاء حِيالَ الحقّ. كانت جاهلة. هل وبَّخَ أحَدٌ امرأةً عمياءَ على عجزها عنِ الإبصار؟ هل غضِبَ أحَدٌ على الأصمِّ لعدم سَمْعِه؟

لقد كانت جوليا نَعجةً ضالَّةً أكلَتِ النَّباتَ السَّامَّ وتاهَتْ بين الأشواك. وإذ طاردَها الذِّئاب، دخلَتْ مِياهًا صاخبةً جرفتها بتيَّارها. ومِثلَ سائرِ البَشَر،

جاعَتْ إلى ما كانت تفتقرُ إليه منذُ الولادة، والتمسَت مُستَميتةً أن تملأ الفراغَ في داخلها. لقد صدَّقَتْ أكاذيبَ كالاباه، واستَسلَمتْ لأهواء كايُس المظلِمة، وسمحَتْ لضَميرها بأن يكتَويَ بمُمارساتِ پريمُس البغيضة، وأُغرِمَت بأتريتِس، ذلك الرَّجُلِ المشحونِ عُنفًا وكُرهًا. فهل كان من عَجَبٍ أنَّها الآن رازِحةٌ تحت ثِقلِ خطاياها، بل أيضًا مائتةٌ بسَببها؟

غَمَرَ الحَنانُ هَدسَّة، فاستَدفأ جِسمُها به، وخفَّ الوَجَعُ في رجلِها.

‘‘أردتُ أن أحكيَ لك قصَّةَ راعوث لأنَّها كانت عن امرأةٍ تحدَّرت من نَسلٍ نشأ نتيجةً لزنى محارم واعتنقَ مُمارَساتٍ وثنيَّة. ورُغمَ ذلك كانَ لها قلبٌ ميَّالٌ إلى الله. فقدِ اختارَتْ أن تُغادِرَ مَوطِنَها وعائلتَها الأصليَّين وتتبعَ حماتَها. إنَّها قالَت لها: «إلهُكِ إلهي». وقد بارَكَها الله جدًّا من أجل إيمانها، ليس فقط في أثناء حياتها، بل على مرِّ الأجيال أيضًا. فنحنُ جميعًا مُبارَكون بواسطتها’’.

فأطلقَتْ جوليا ضِحكةً جافية. ‘‘كيف نكون جميعًا

مُبارَكين بواسطةِ امرأةٍ يهوديَّة ماتَت منذُ قُرونٍ مَضَت؟

"اسمُ راعوث مذكورٌ في سِلسِلَة نَسَبِ يسوع الناصريّ، **المُخلِّص**".

فتصلَّبَ وجهُ جوليا عندَ ذِكرِ اسمِه. "أنا أعلَمُ أنَّكِ تؤمنين بأنَّه إله، يا عَزار، ولَكنْ هل يعني ذاك أنَّ عليَّ أنا أن أُومِنَ بذلك؟"

ملأ الحُزنُ قلبَ هَدسَّة حِيالَ العِنادِ الذي لمحَته في سِيماء جوليا. وقالت: "لا، أنتِ ستؤمنين بما تختارين أن تؤمني به".

فجذبَتْ جوليا بطَّانيَّتها نَترًا إلى أعلى وتشبَّثَتْ به أكثرَ. "إذا كان يسوعَ إلهًا، فهو إلهٌ بِلا قُدرة". وشُحِبَت يداها إلى الأغطيَة. "عرَفتُ واحدةً منذُ زمنٍ طويل آمنَت به، ولم يُجدِها ذلك أيَّ نفعٍ قطّ".

أغمضَتْ هَدسَّة عينَيها وطأطأتْ رأسَها، عالِمةً أنَّ جوليا قد تكلَّمَت بشأنها. لم تَبدُ جوليا نادِمةً

أدنى نَدَم، فوجدَتْ هَدسَّة نفسَها مُتسائلةً إنْ كان ألِكسَندر علِى حقٍّ رُغمَ كلِّ شيء. فهي كانت تحت الخَطَر هنا. ربَّما كانَتِ الكِبرياءُ هي ما أتى بها إلى جوليا، لا دعوةُ الربِّ بتاتًا. وقد كان الشَّيطانُ هو الخدَّاعَ الأوَّل. فأرادَتْ أن تقومَ وتمضيَ مُبتعِدةً، أن تُغلِقَ البابَ خلفَها وتنسى جوليا ڤاليريان. أرادَتْ أن تترُكَ الشابَّةَ المتكبِّرة لمصيرها القاتم. ولَسوفَ يأتي يومٌ فيه تَنحَني كلُّ ركبةٍ ويعترِفُ كلُّ لسانٍ أنَّ يسوع المسيح هو الرَّبّ... حتَّى جوليا.

لِماذا اقتَدتَني إلى هُنا، يا ربّ، ولها قلبٌ حجريّ؟

رُغمَ ذلك، كان قد اقتادَها فعلًا. وأرادَتْ أن تُنكِرَ ذلكِ الآن، فلم تستَطعْ. لقد كان حسُّ القَصدِ قويًّا فوقَ الحدّ، وطاغيًا كلَّ الطُّغيان. وما زال كذلك. فهي التي كانت ضعيفةً ومُتذبذِبة.

قوِّني، يا ربّ. قوِّني لإتمامِ قصدِك. لستُ أعلم ماذا أفعل بشأنها.

ثَمَّ رفعَتْ رأسَها مُجدَّدًا، فشاهدَتْ جوليا تُحدِّقَ إلى السَّماء فوقَها، طارِفةً بعينَيها حَبسًا للدُّموع. "ما خَطبُكِ، سيِّدتي؟"

"لا شيء".

"أأنتِ مُتألِّمة؟"

قالت: "نعم"، وقد أطبقَت عَينَيها بإحكام. لقد كانت تتألَّمُ ألَمًا فائقًا، حتَّى إنَّ فتاةً شافيةً أمضَتْ حياتَها على مقرُبة من المتألِّمين لم تستَطعْ تَصوُّرَه.

فقامَت هَدسَّة، قائلةً: "سأُعِدُّ لكِ جُرعةً من اللُّفَّاح".

وأصغَت جوليا إلى نَقرِ عُكَّازِ عَزار، وجَرِّ قدمَيها الخفيف. فأغمضَت عَينَيها، مُدافِعةً الدُّموع. لقد ذكَّرها حضورُ عَزار وتصرُّفُها تذكيرًا نافِذًا حادًّا بواحِدةٍ أُخرى عَرفتها. فكانَ ما أضْناها الآن هو الأفكار والذِّكريات المتعلِّقة بتلك الأُخرى، ولكنَّها علِمَت أنَّها لا تستطيعُ أبدًا أن تتكلَّمَ صراحةً بما

قد فعلَتْه. وبمِقدار ما تاقَت إلى تطهير نفسها، لم تجرؤ على ذلك. فمنَ العقيم أن ترغبَ في أن تعيشَ الماضيَ من جديد. ومن الباعثِ على الاكتئاب أن تتفكَّرَ في المستقبَل. حتَّى الحاضرُ صارَ مُتعذِّرَ الاحتمال على نحوٍ مُتزايد.

كانَت عَزار هي كلَّ ما لدى جوليا، وعَزار كانت مسيحيَّة.

هَدسَّة. آهِ، هَدسَّة! ما الذي فعلتُه؟

قطعَتْ جوليا لنَفسها وعدًا بألَّا تُخبِرَ عَزارَ أبدًا بما فعلَتْه بِعَبدةٍ شابَّة لم تفعَلْ أيَّ سوءٍ بل أحبَّتها حقًّا. فأفضَلُ أن تموتَ مع الذَّنْب من أن تموتَ وحيدة.

ثُمَّ رجعَتْ عَزار حامِلةً جَرعةَ اللُّفَّاح. فشَرِبَتها جوليا بتلهُّف، تائقةً إلى السَّلام، وظانَّةً أنَّها ستعثُر عليه في النِّسيان النَّاجمِ عن تناوُلِ العَقَّار المخدِّر.

٣٤

بينَما جوليا نائمة، جلسَت هَدسَّة في البِيريستايْل ساكِبةً قلبَها أمام الرَّبّ. لم تكُن قد توقَّعَتِ المشاعِرَ المربكةَ التي ستثور فيها لدى الرُّجوع إلى هذه الدَّارة. وكلَّما جاء فِكرٌ يقرَعُ بابَ ذِهنِها، نظرَت إلَيه بحَذَر. أهوَ حقّ؟ أهوَ جليل؟ أهوَ طاهرٌ أو مُسِرٌّ؟ أصيتُه حَسَن؟ وإذا بأفكارٍ كثيرةٍ جدًّا لم تكُن هكذا، فدفعَتْها بعيدًا عنها. غيرَ أنَّ الأفكارَ السَّوداء ظلَّت تطرُقُ بشِدَّة.

كان أسهلَ عليها بكثير أن تُبقيَ تركيزَها على الربِّ حين تكونُ وحدَها. أمَّا في أثناء اعتِنائها بجوليا، فقد بَدَتْ دِرعُها أرقَّ من أن تصُدَّ السِّهامَ الآتية.

خاضَت حَربًا على أفكارِ الماضي ومشاعِرِ الحاضِرِ تلك، مُحَوِّلةً ذهنَها عمدًا إلى تسبيح الرَّبّ. وأحصَت مُجدَّدًا جميعَ الأشخاص الذين لمسَ الرَّبُّ حياتَهم في غُضونِ السَّنتَينِ الأخيرتَين. فشكرَته على حياة أنطونيا وابنِها، ومن أجلِ

سَقَرينا وبُويثوس، وعشراتٍ غيرَهُم. وصلّت لأجلِ فيبي وإيوليوس. كما صلَّت لأجلِ مَرقُس، ولكنَّ أفكارَها عنه حوَّلَت ذِهنها رُجوعًا إلى الماضي من جديد. ومن ثمَّ صلَّت لأجلِ ألِكسَندر بالأحرى. فهيَ لم تكُن قد توقَّعَتْ أن تفتقِدَه كثيرًا هكذا.

انفتحَ البابُ الأماميُّ، مُقاطِعًا خلوتَها الهادئة. وشعرَت بالفَرَجِ تقريبًا لـمَّا رأت پروميثيوس داخِلًا. فأحسَّت روحَها مُستنيرةً، لأنَّها غالبًا ما جلسَتْ معه هنا، مُصغيةً إليه ومُحدِّثةً إيَّاه عن الرَّبّ. لم تكُن قد كشفَت هُوِيَّتَها له، ولكنَّها وجدَتْ صداقَتَهما الحميمةَ السابقة مُجدَّدةً، بل مُعَمَّقةً أيضًا. فهي لم تعُدْ تراهُ غُلامًا مُستَعبَدًا، بل شابًّا مُحرَّرًا.

شاهدَتْه يعبرُ غُرفةَ الانتظار بخُطًى واسعة ويدخلُ الپَريستايْل. وجعلَتها سيماءُ وجهِه تلوذُ بالصَّمت؛ إذ كان مُتضايقًا جدًّا. ومشى إلى النافورة دون أن يُلاحِظَها في المختَلى المظلَّل. وإذِ انحنى، وضعَ يدَيه على حافَة البِركة ذات الرخام، ولعَن. ثُمَّ انحنَى أكثر، ونضحَ ماءً على وجهِه، فارِكًا به قفا رَقَبتِه، ولعنَ ثانيةً. وغسلَ

يدَيه، ونظّفَ وجهَه، إلّا أنّ ذلك لم يُسهِم في تخفيفِ بَلِيَّته، على ما ظهر. فقد كان يرتجِفُ ارتجافًا واضحًا.

‘‘ بروميثيوس؟’’

اهتزَّ بَدَنُه من المفاجأة، ورأتِ اللَّونَ يصعَدُ إلى وجهه. ولـمَّا رفعَ رأسَه بَدَت كتِفاه مُرتَخيَتَين، فظهرَتْ علَيه أماراتُ الانهزام. غيرَ أنَّه لم ينظُرْ إليها.

‘‘تَبدو مُنزعِجًا’’.

فالتَفتَ إليها. وكانت عَيناه كئيبتَين. ‘‘لم أدرِ أنَّكِ هنا، سيِّدةُ عَزار’’.

‘‘آسِفةٌ لأنِّي جفَّلتُك’’.

وخفقَتْ حَملَقتُه بعيدًا باضطِراب. ‘‘كيفَ حالُ السيِّدةِ جوليا؟’’

‘‘إنَّها نائمة. أعطيتُها جَرعةَ لُقَّاحٍ لتَسكينِ الألَم’’. لقد كان لديه خَطبٌ رهيبٌ ما، وأمِلَتْ أن يُخبرَها

بما يُثقِلُ ذِهنَه. "اقعُد قليلًا. تَبدو مُتعَبًا".

أقبلَ پروميثيوس إلى المختَلى المظلَّل، وقعدَ مُقابِلَها. وتركَّزَتْ حَملَقتُه على يَدَيها المشبوكتَين بِتَراخٍ في حِضنها. "أكُنتِ تُصَلِّين؟"

"نعم".

وتحرَّكَ العَضَلُ من جديد. "أنا أُصلِّي كلَّ حين. وقلَّما نفعَتْني الصَّلاة".

"ما خطبُك، يا پروميثيوس؟"

فمالَ إلى الأمام، ومرَّرَ أصابِعَهُ في شعرِه. ودونَ إنذار، راحَ يبكي، لا بهدوء، بل بنَشيجٍ عميقٍ يدفعُ إلى الرِّثاء هزَّ بَدَنَه هزًّا.

انحنَت هَدسَّة إلى الأمام، ووضعَتْ يدَيها على رأسِه. وكادَتْ تَسيلُ دموعُها حيالَ ضيقتِه إذ قالت: "ماذا جرى؟ كيف يُمكِنُني أن أُساعِدَك؟"

فقالَ ناشِجًا: "اعتَقدْتُ أنَّ الأمرَ انتَهى. اعتقدتُ لـمَّا أقبلتُ إلى الربِّ أنَّه سيَغسِلُني فأصيرُ

آبيضَ كالثّلج **وينسى** خطاياي''.

''لقد فعلَ ذلك''.

رفعَ پروميثيوس رأسَه، والدُّموع تسيل على خدَّيه، فيما عَيناه تتَّقِدان غضبًا. ''إذًا، لماذا يحدثُ الشَّيءُ نفسُه مِرارًا وتَكرارًا؟''

''ماذا تعني؟''

فوضعَ رأسَه في يدَيه مُجدَّدًا. ''ليس في وُسعكِ أن تفهَمي''.

''أفهمُ أنَّك مُحبَط. وهكذا أنا أيضًا''.

فرفعَ رأسه مدهوشًا: ''**أنتِ**؟ ولكنَّكِ قويَّةٌ جدًّا في الرَّبّ''.

اتَّكأت إلى الوراء، وتنهَّدَت. ''قويَّة؟ أنا أضعفُ النِّساء، يا پروميثيوس. أحيانًا، لا أعلَمُ ماذا أنا فاعِلةٌ هنا، ولا لماذا جئتُ، ولا ما يُريدُه الربُّ منِّي، ولا إنْ كنتُ أُريدُ أن أفعلَ ما يُريد. لقد كانتِ الحياةُ أسهلَ بكثيرٍ عندَ ألِكسَندر''.

“السيِّدة جوليا **صعبة**”.

“السيِّدة جُوليا **مُستحيلة**”.

فأبدى لها بَسمةَ تفهُّمٍ تحوي وجَعًا، ثُمَّ عبَّسَ مُنشغِلًا بمشكلاته الخاصَّة. وزفرَ نَفَسَه على مَهل. وإذ شبكَ يدَيه بين ركبتَيه، حدَّقَ إلى الأرض. “ليست أقلَّ استحالةً منِّي. يُخيَّلُ إليَّ أنَّ بعضًا منَّا لا يُمكِن أن يُخَلَّصوا فحَسْب”.

“**أنت** مُخلَّص، يا پروميثيوس”.

فضَحِكَ ضِحكةً كئيبة. “خُيِّلَ إليَّ ذلك”. ثُمَّ نظر إليها بعينَين مُعذَّبتين. “لم أعُد مُتيقِّنًا كثيرًا”.

“لماذا تقولُ هذا؟”

“لأنِّي قابلتُ صديقًا اليوم، وهو جعلَني مُتنبِّهًا إلى هذا. لقد تحدَّثنا وقتًا طويلًا. كنتُ أُخبرُه بشؤون الرَّبّ، وكان يُصغي إليَّ بكُلِّ انتِباه، وأسعدَني الأمرُ جدًّا. فظنَنتُ أنَّه سيَقبلُ المسيح”. ثُمَّ ضحكَ ضِحكةً كئيبةً أُخرى، وابتلعَ ريقَه. “وبعد ذلك لمسَني. فلمَّا فعلَ ذلك، عَلِمتُ

أنّ ما أرادَه لم يكُنِ الرَّبَّ قَطّ".

لم تفهَمْ هَدسَّة. "ماذا أراد؟"

"إيَّاي". ودبَّ اللَّونُ صاعدًا عبرَ عُنُقِه إلى وجهِه. لم يستَطعْ أن ينظُرَ إليها. ثُمَّ قال باكتئاب: "عاودَني ذلك كلُّه من جديد: جميعُ الأُمورِ التي حاولتُ جاهِدًا جدًّا أن أنساها". ورفعَ عينَيه ناظرًا إلى الرّواق، ثُمَّ حَوالَيه إلى الممرَّاتِ ذاتِ القناطِر وإلى الأدراج. "تذكَّرتُ پريمُس".

لاحظَتْ هَدسَّة الحزنَ العميقَ في صَوته وتساءلَت عنه. يقينًا أنَّه لم يفتَقِد پريمُس.

اتَّكأ پروميثيوس إلى الوراء، وقد بدا عليه الإعياءُ والبؤس. "كان يملِكُني سيِّدٌ لَدَيه سَقيفةٌ تحتَ أكشاكِ المدرَّج. لعلَّكِ لا تعرفين ما يعنيه ذلك".

"بلى، أعرِف".

فاحمرَّ وجهُه. "إذًا، إنْ قُلتُ لكِ إنَّه هُناك رآني پريمُس أوَّلَ مرَّة، تفهَمين ماذا كان". ثُمَّ أشاحَ بناظِرَيه وبقيَ صامتًا وقتًا طويلًا. ولـمَّا تكلَّم من

جديد، خرجَتِ الكَلِماتُ مُجزَّأةً وخاليةً من العاطفة. ‘‘لقدِ اشتَراني، وجاء بي إلى هذا البيتِ هنا’’.

‘‘ پروميثيوس...’’

فقال بصَوتٍ مُعذَّب، وعَيناه ينتابُهما الأسى: ‘‘لا تقولي أيَّ شيء. أنتِ تفهمين أنّي كُنتُ مأبونَه. ولكنَّكِ لا تَفهَمين واقعَ شعوري حِيالَ ذلك’’.

شبكَت أصابعَها معًا، مُصلِّيةً طلبًا لحكمة الله، إذ رأتْ أنَّ پروميثيوس كان عازمًا أن تفهَمَ هي كلَّ شيء، ولم تشعُرُ بأنَّها مُهيَّأةٌ لتَولّي الأمر.

‘‘لقد أحبَّني پريمُس’’. واغرَورقَتْ عَيناهُ مُجدَّدًا. ‘‘ومرَّتْ أوقاتٌ فيها أحببتُه أنا أيضًا. أو على الأقلّ، كانَت لديَّ مَشاعرُ أشارَت إلى ذلك الاتّجاه’’. ثُمَّ مالَ إلى الأمام من جديد، بحيثُ لم تعُدْ تَستَطيعُ رؤيةَ وجهِه. ‘‘كان سيِّدي الأوّلِ قاسيًا. وكان پريمُس لطيفًا. وقد أحسنَ مُعامَلَتي. فالأمرُ كُلُّه مُربكٌ جدًّا’’. وباتَ صَوتُه هادئًا، يكادُ يكونُ همسًا. ‘‘لقدِ اعتنى بي، وما فعله... حسنًا، شعرتُ

آحيانًا بأنَّه جيِّد''.

غمرَ هَدسَّة الاشمِئزازُ إزاءَ ما كان يقولُه لها، ومع ذلك رأتْ وأحسَّتْ خِزيَه أيضًا. وباتَ هادئًا جدًّا. ثُمَّ قالَ بصَوتٍ أجشَّ: ''إنِّي أُثيرُ اشمِئزازَكِ أيضًا، ألَستُ كذلك؟''

فمالَت إلى الأمام، وأمسكَتْ يدَيه بيَدَيها. ''ليس في وُسعِنا أن نُسَيطرَ على مَشاعِرنا كما نُسَيطرُ على أفعالنا''.

اشتدَّت يداه، مُتشبِّثًا بها كما لو كان يغرق. ''كِلا الأمرَين ليسا سَهلَين''. ولم يقُل شيئًا بضعَ لحظات، ثُمَّ استأنَفَ الكلام. ''لـمَّا لامسَني سيلادُس، تعرَّضتُ للتَّجرِبة''. وغاصَ رأسُه أدنى. ''عَلِمتُ أنِّي إن بَقيتُ دقيقةً أُخرى فلَن أُغادِرَ البتَّة''. ثُمَّ أفلتَها ومرَّرَ أصابعَ مُرتعِشةً في شعرِه، مُمسِكًا رأسَه من جديد. ''وهكذا هربتُ''. وأخذَ يبكي مُجدَّدًا. ''لم أستَطِعْ أن أصمُدَ أمام التَّجرِبة وأقهرَها. لقد هَربتُ هُروبَ الجبان''.

فقالَت هَدسَّة بلُطف: ''لا هُروبَ الجبان، بَل على

غِرارِ يوسف لـمَّا حاولَتْ آن تُغوِيَه زَوجةُ فوطيفار، كبيرِ حَرَسِ فِرعَون. لقد **هربتَ**، يا پروميثيوس. إنَّ الربَّ يَسَّرَ لَك سبيلًا للفِرار، وأنتَ سلكتَه''.

''أنتِ لا تفهمين، سيِّدةُ عَزار''. ورفعَ نظرَه إليها، مُتوتِّرَ السِّيماء. ''لقد هربتُ **اليوم**. فماذا يكونُ إذا حدثَ ذلك مرَّةً أُخرى، والرَّجُلُ آنذاكَ مُقنِعٌ في حُجَجِه وإغوائه كما كانت كالاباه نِسبةً إلى السيِّدة جوليا؟ وماذا إذا كنتُ مُحبَطًا؟ وماذا إذا...''

''لا تكُن كثيرَ الهمِّ والغمِّ بشأنِ الغَدِ، يا پروميثيوس. إنَّ بلاءَ اليوم يكفي اليوم. والله لن يتخلَّى عنك''.

فمسَحَ الدُّموعَ عن وجهه، وقالَ مُثبَّطًا: ''يبدو ذلك سهلًا جدًّا. تقولين إنَّ الله لن يتَخلَّى عنِّي، ومع ذلكَ أشعرُ بأنِّي مخذول. أتعلَمين أنَّ في أفَسُس هنا مسيحيِّين يودُّون أن تكونَ لهم بي أدنى علاقةٍ مُمكِنة لأنَّهم يعرفون ماذا كُنتُ؟ بعضُ النُّقُولاويِّين يذهبون إلى الأرطميسيون بِضعَ مرَّاتٍ كلَّ أُسبوع. إلَّا أنَّهم، رُغمَ ذلك، لا يُعامَلون

كما أعامَلُ أنا’’.

فأُحزِنَت حُزنًا شديدًا: ‘‘ما يفعلونه هو خطيَّة، يا پروميثيوس’’.

‘‘إنَّهم يختَلُون **بنساء**’’.

‘‘وهل تعتقدُ أنَّ ذلكَ يُحدِثُ أيَّ فرق؟’’

‘‘أصرَّ أحَدُ الرِّجالِ على إخباري بأنَّه مكتوبٌ في الأسفار المقدَّسة أنَّ الله يحسبُ الممارسةَ المثليَّة رجسًا ممقوتًا، أنَّه ينبغي أن أُرجَمَ بالحِجارة حتَّى الموت’’.

‘‘الشريعة الموسَويَّة حسبَتِ الزِّنى والفُسوقَ رجسًا ممقوتًا يستحقُّ عُقوبةَ الموت أيضًا. فإنَّ الله يكرَه الزِّنى من أيِّ نَوع كان، جسديًّا أو روحيًّا’’. ثُمَّ فكَّرت في جوليا داخلَ المهجَع العُلويِّ، مائتةً مَوتًا بطيئًا بمَرَضٍ التَقطَته بمُمارسَةِ حياةٍ خطيَّة. وفكَّرت في عبادة جوليا لآلِهَةٍ أُخرى. فأينَ كانتِ الخطيَّةُ الكُبرى؟

وقال: ‘‘أرى الطريقةَ التي بها ينظرُ بعضُهم إليَّ.

إنَّهم لا ينظرون إلى أولئك الرِّجال بالطريقةِ ذاتها. يعتقدُ مُعظَمُ المسيحيّين أنّي تحتَ اللَّعنة، خارجَ نطاقِ الفِداء. وبعدَ هذا اليوم، أظنُّ أنَّهم قد يكونون على حقّ".

"كلّا، پروميثيوس! أنتَ تُصغي إلى الصَّوتِ الخَطأ".

فعدَّل جِلسَتَه ببُطء، ثُمَّ اتَّكأ إلى الوراء. "ربَّما كنتُ أُصغي، وربَّما كنتُ لا أُصغي. لم أعُد أعلَم. كلُّ ما أعلَمُه فعلًا أنّي أحيانًا، سيِّدةُ عَزار، أشعرُ بالوَحدة والوحشة إلى حدٍّ أحنُّ عندَه إلى الحياة التي كانت لي مع پريمُس".

وهمَّت بالبُكاء. "أنا أشعرُ بالوَحدة والوحشة أيضًا، يا پروميثيوس".

"ولكنَّ في وُسعكِ دائمًا أن تَذهبي إلى الله، وهو يسمعُكِ".

فغمرَها الأسى حِيالَ ما كان الآخرون يفعلونَه به بِاسْمِ الرَّبّ، وقالَت دامِعةَ العينَين: "إنَّه يسمعُكَ

أيضًا. لا تُقارن اللّه بالإنسان. إنَّه **يحبُّك**. لقد ماتَ من أجلِك’’.

‘‘إذًا، لماذا يُعرِّضُني للتَّجرِبة مرَّةً بعد أُخرى، خُيِّلَ إليَّ أنَّها ولَّت إلى غيرِ رجعة، ولكنَّها باقية. لا أستطيعُ أن أُغلِقَ ذِهني دونَ الذِّكريات، مَهما حاولتُ جاهدًا. وبعضُ الأشياء حاضِرةٌ دائمًا لتَذكيري. أجدُ نفسي مُعتَقدًا أنَّ حياتي كانت أقلَّ تَعقيدًا بكثيرٍ لـمَّا لم أكُنْ مسيحيًّا’’.

‘‘إنَّ الرَّبَّ لا يُجرِّبُك، بل الشيطان. فهو ينتظرُ الوقتَ الملائم، ويعرفُ تمامًا أين تكونُ أكثرَ ضَعفًا. وبالنِّسبة إليك، نقطةُ ضَعفكَ هي اللَّذَّاتُ الحسِّيَّة التي اختبرتَها حينَ كُنتَ تُمارِسُ العلاقةَ الشاذَّة. أمَّا بالنِّسبة إلى الذين يضطَهِدونَك، فهي الكِبرياء. إنَّهم يظنُّون أنَّهم أفضَلُ منك، أو أنَّ خطاياهم أقلُّ خَطَرًا. لكنَّ اللّه لا يُفكِّرُ كما يُفكِّرُ الناس، يا پروميثيوس’’.

وأمسكَتْ يدَيه. ‘‘جاء في سِفر الأمثال أنَّ هنالِكَ سِتَّةَ أُمورٍ يُبغِضُها الرَّبُّ، وسبعةً مَكرَهةُ نفسه: نظراتٌ مُتكبِّرة، لسانٌ كاذب، أيدٍ تسفكُ دمًا بريئًا،

قلبٌ يبتكِرُ خُططَا خبيثة، أرجُلٌ سريعةٌ الجَرَيانِ إلى الشَّرّ، شاهِدُ زُورٍ يتفوَّه بالأكاذيب، وزارعُ الخصومات بين الإخوة. فكم خطيَّةً من هذه يرتكبُ أُولئك الذين يَضَعون أحجارَ عَثرةٍ تُعَرقِلُ مسيرتَكِ مع الرَّبّ؟ لا تنظُرْ إلى البَشَر طَلَبًا للفَهم، ولا إلى نفسك طلبًا لِما تحتاجُ إليه. إنَّ الله يرى ألمكَ وكِفاحَك، وهو سيُعطيك القوَّة للانتِصار. الله وحدَه يستطيعُ ذلك".

فَزفَرَ پروميثيوس نَفَسَه بِبُطء، وطأطأ رأسَه. وقال، شاعِرًا بكثيرٍ من الفَرَج: "أسمعُ الربَّ مُتكلِّمًا إليَّ بواسِطَتكِ". ثُمَّ رفعَ رأسَه وابتسمَ بحُزن. "أنتِ تُذكِّرينني بواحدَةٍ عرفتُها في الماضي. وقد كانَتْ واحِدًا من الأسباب التي من أجلها كدتُ ألَّا أرجعَ إلى هذا البيت". ورقَّت سِيماؤه. "وأيضًا بطَريقةٍ عجيبة، كانت هي جُزءًا من السَّبب الذي دفعني إلى الرُّجوع".

فحرَّكَ الرَّبُّ قلبَ هَدسَّة. لقد أسقطَ پروميثيوس قناعَ سعادتِه وكشفَ صراعًا يَحتدِمُ داخلَ نفسه. أفيُعقَلُ أن تفعلَ هيَ أقلَّ من ذلك؟

سحبَت يدَيها من يَدَيه، وقالَت برقّة: ‘‘بروميثيوس’’. ثُمَّ رفعَت نِقابَها.

فحدَّقَ إلى نُدوبِها بنُفورٍ وشَفَقة، ثُمَّ تغيَّرَت سِيماؤه.

وهمسَ بصَوتٍ أجشَّ- إذ عرَفَها- ‘‘يا الله، الله!’’ ثُمَّ جثا على رُكبتَيه ووضعَ ذِراعَيه حولَ وَرِكَيها، ورأسَه في حضنها. ‘‘لا يُمكِنُكِ أن تَعلَمي كم مرَّةً تُقتُ إلى التَّكلُّم معكِ مرَّةً أُخرى! لقد رأيتِ كيفَ عشتُ. وعَلِمتِ ماذا كنتُ. ومع ذلكَ أحببتِني كِفايةً بحيثُ بلَّغتِني البشارةَ السارَّة’’.

مسَّدَت هَدسَّة شعرَ بروميثيوس الداكن كما لو كانَ ما يزالُ ولدًا. ‘‘لقد أحبَّكَ الله دائمًا، يا بروميثيوس. لم يكُن من قَبيلِ الصِّدفة أنَّنا التَقَينا. ما عَلمتُ قطُّ إنْ كانت البُذور التي زرعتُها ستتأصَّل فيك، حتَّى رأيتُكَ من جديد قبلَ بِضعَةِ أسابيع. حقًّا، ما أعظمَ الفَرَحَ أن أعلمَ أنَّكَ قد قبِلتَ الربَّ يسوع في قلبِكَ أنتَ أيضًا!’’

واستقرَّت يدُها على رأسه. ‘‘لقد زرعتَ بُذورًا

آنتَ آيضًا، يا پروميثيوس. فليتَولَّ الرَّبُّ آمرَ صديقِك". ثُمَّ مسَّدَتْ شعرَه مُجدَّدًا، وأحسَّتْ عَضَلاتِه تَسترخي.

وقال: "آه سيِّدتي".

فابتسمَت بكآبة. "إنَّما أُريدُ منك أن تعلمَ أنِّي أتصارعُ معِ الماضي بقَدرِ ما تتصارعُ أنت". كم من البُذورِ زرعَتْ في جوليا؟ ومع ذلك لم تتأصَّلْ أيَّةُ بذرةٍ بعد.

لماذا، يا ربُّ؟ لماذا؟

رفعَ پروميثيوس رأسَه، وتراجعَ عنها، ناظِرًا في وجهِها. ثُمَّ التَقَطَ يدَيها وأمسكَهُما بإحكام. "لا تفقدِي الرَّجاء. إنَّ اللّٰه صالح، وقد بيَّنَ لي الآن أنَّه مُهَيمَن". وقد تكلَّمَ بيَقينٍ تامّ، ووجهُه يشعُّ فَرَحًا. "ها أنتِ هنا، حيَّةً. كيف يُعقَلُ أن يكونَ ذلك إلَّا بمشيئته؟"

عندئذٍ بَكَتْ، بعدَما اخترقَتْ حاجتُها الشخصيَّةُ إلى التشجيع سطحَ هُدوئها المفروض ذاتيًّا.

فقامَ پروميثيوس- وقد رُدَّت نَفسُه- لكي يُعزِّيَها.

٣٥

دخلَ مَرقُس دارَة والِدَتِه دونَ أن يقرعَ الباب. وما إنْ صَعِدَ الدَّرَج، حتَّى رأته عبدةٌ شابَّة، فأوقعَتِ الصّينيَّة التي كانت تحمِلُها، وصاحَت: ‘‘السَّيّدُ مَرقُس!’’ وتردَّدَت في البِريستايْل أصداءُ تحطُّمِ الخَزَف والبِلَّور. وإذ ذُعِرَت، خرَّتْ بسُرعة لِتلتَقطَ كِسَرَ الزُّجاج. وقالَت بعَينَين مُتَّسِعتَين: ‘‘أنا آسِفة، سيِّدي. أنا آسِفة. لم أتوقَّع أن أراك’’.

فقال- مُبتسِمًا لها من عَلُ- ‘‘مُفاجأةٌ سارَّة، كما أرجو’’. فتورَّدَ خدَّاها. وحاولَ أن يتذكَّرَ اسمَها، فلم يستَطعْ. كانت جميلة، وقد تذكَّرَ أنَّ أباه اشتَراها بُعَيدَ المجيء إلى أفسُس. ‘‘لم تكسِري شيئًا مُهمًّا!’’

أقبلَ إيوليوس راكضًا من الرّواق الأعلى. ‘‘ماذا جرى؟ هل تأذَّى أحَد؟’’ ورأى مَرقُس، فتوقَّف. ‘‘سيِّدي!’’

فقالَ مَرقُس: ‘‘مضى زمانٌ طويل، إيوليوس’’. ومدَّ يدَه.

ورأى أيوليوس أنّ خاتَمَ مَرقُس المنقوشَ غيرُ موجود، فتَساءَل. ثُمَّ تَناوَلَ يدَ سيِّده وبدأ يَنحني فَوقها، غيرَ أنَّ مَرقُس صافحَه بيَدِه مُصافحةَ النِّدِّ للنِّدّ. ففُوجئ إيوليوس وتراجَعَ مُرتبِكًا. إنَّ مَرقُس ڤاليريان لم يكُن قطُّ ممَّن يتخَطَّون الرَّسميَّاتِ مع العبيد، إلَّا مع الشابَّاتِ الأجمَلِ دون شكّ. ‘‘هل كانت سَفرتُكَ مُوَفَّقةً، سيِّدي؟’’

فقال مَرقُس مُبتَسمًا: ‘‘لكَ أن تقولَ ذلك. لقد عُدتُ إلى الدِّيار رجُلًا أغنى بكثيرٍ ممَّا كُنتُ عندما غادَرتُ’’. وبَدَت في عَينَيه شرارةُ سُرور. ‘‘عندي كثيرٌ أُخبِرُ به أُمِّي. أينَ هي؟’’

انزعَجَ إيوليوس. فما كان عليه أن يُخبرَ مَرقُس به لن يكون خبرَ تَرحيبٍ مُناسِبًا. وماذا سيَفعلُ السيِّدُ الشابُّ الآن بعد رُجوعه إلى الدِّيار؟ ‘‘إنَّها نائمة على شُرفةِ مَهجَعِها’’.

قال جَزِعًا: ‘‘نائمة؟ في هذا الوقت من النَّهار؟ أهيَ مريضة؟ لعلَّها أدوارُ الحُمَّى من جديد’’. فقد كانَت تأخذُها نَوباتٌ من الحُمَّى قبلَ رحيله.

‘‘لا، سيِّدي. ليسَتْ مريضة. ليس على وجه الدِّقَّة’’.

فتَجهَّمَ مَرقُس. ‘‘ما بها، على وجه الدِّقَّة؟’’

‘‘لا يمكنُها أن تمشيَ أو تتكلَّم. وهي تستعمِلُ يدَها اليُمنى قليلًا’’.

فتَخطَّاه مَرقُس مَرعوبًا، واجتازَ الرِّواقَ بخُطًى واسعة. وقاطعَه إيوليوس قبلَ وُصوله إلى الباب. ‘‘رجاءً، أصغِ إليَّ قبلَ أن تَراها، سيِّدي’’.

‘‘إذًا، تكلَّمْ بسُرعة، وفي صميم الموضوع!’’

‘‘رُغمَ ما تَبدو عليه، فهي غيرُ فاقدةٍ لِقواها العقليَّة. إنَّها تفهمُ ما يجري حولها وما يُقال. وقدِ ابتكَرنا طريقةً لمخاطَبةِ أحدِنا الآخر’’.

أزاحَه مَرقُس جانبًا، ودخَلَ المهجَع. فرأى أُمَّه جالسةً على كُرسيٍّ أشبهَ بعَرشٍ صغير. وقد كانت يدُها موضوعةً على ذِراع الكُرسيِّ بتَراخٍ، وأصابِعُها النَّحيلةُ ممدودة. وكان رأسُها مُلقًى إلى الوراء كما لو كانت تتشرَّبُ دِفءَ الشَّمس.

فتوقّفَ قلبُه عن التَّسارُع، إذ بَدَتْ في حالٍ جيِّدة.

ولم يكُن قبلَ اقترابه منها أكثرَ أنَّه عاينَ التغيُّراتِ البَدَنيَّةَ فيها. فقال برقَّة: ‘‘أُمِّي!’’ وقدِ انفطرَ قلبُه.

فتحَتْ فيبي عَينَيها. وكانت قد صلَّتْ لأجلِ ابنِها كثيرًا جدًّا بحيثُ لم تُفاجأ قطُّ لـمَّا سمعَتْ صَوتَه وأبصرَتِ رؤيا له واقِفًا أمامَها على الشُّرفة. وقد بدا مِثلَما كان، لكنْ مُختلِفًا. فإنَّه كان وسيمًا- مِثالَ الرَّشاقةِ والقُوَّة الرُّجوليَّتَين- لكنْ أكبرَ سنًّا، وبَشَرَتُه ذاتَ لونٍ برونزيٍّ من جرَّاء التَّعرُّضِ للشَّمس. ثُمَّ قال: ‘‘أُمِّي!’’ ثانيةً. ولـمَّا خرَّ على ركبتَيه أمامَها وأمسَكَ بيَدِها، عرَفَت أنَّه حقيقيّ.

‘‘ آه ه ه...’’

‘‘نعم، أنا هنا. لقد رجَعتُ إلى **البيت**’’.

أرادَت مُستَميتةً أن تُطوِّقَه بذِراعَيها، ولكنَّ كلَّ ما كانَتْ تَستَطيعُه هو أن تَبقى جالسةً وتبكي. وضايقَتْه دُموعُها كثيرًا جدًّا، فحاولَت حَبسَها. فقالَت: ‘‘آه ه ه...’’، ويَدُها اليُمنى تَرتَجِف.

قال: ‘‘ستكونُ الأحوالُ بخَيرٍ الآن’’، وقدِ اغرورقَت عَيناه.

ثُمَّ اقتربَ إيوليوس ووضعَ يدَه على كَتِفها. ‘‘لقد رجَعَ ابنُكِ’’.

فلاحَظَ مَرقُس الطَّريقةَ الوِدِّيَّة التي بها لمسَ إيوليوس أُمَّه. كذلك أيضًا رأى نِظرةَ عينَيِ الرجل. فارتفعَت حرارةُ الغَضَب.

وقال لها مَرقُس- ماسِحًا الدُّموعَ برِفقٍ عن خدَّيها- ‘‘لن أتركَكِ مرَّةً أُخرى. سأجدُ لَكِ أفضلَ طبيبٍ يُمكِنَ أن يشتريَه المال’’.

فقال إيوليوس: ‘‘لقد عاينَها أفضَلُ طبيبٍ فعلًا، سيِّدي. لم ندَّخِر أيَّة كلفة. كلُّ ما يُمكِنُ فعلُه قد فُعِل’’.

وإذ نظرَ مَرقُس في عَينَي إيوليوس، عَلِمَ يقينًا أنَّ العبدَ نطقَ بالحقيقة. غير أنَّه استاءَ أيضًا. فقد كان من الصَّواب أن يكونَ العَبدُ مُخلِصًا لسيِّدتِه تمامًا، ولكنَّ المشاعرَ التي أحسَّها لدى

إيوليوس كانت أعمقَ من ذلك بكثير. لَربَّما كانَ الإلهُ الصالح هو مَن أتى به إلى الدِّيار في هذا الحين.

أعادَ مَرقُس كامِلَ انتِباهه إلى أُمِّه، مُحدِّقًا بتركيزٍ داخِلَ عَينَيها. ورأى كيف تلقَّتْ حَملَقتَه بحِدَّةٍ مُماثِلةٍ. وقد كانت إحدى العينَين جليَّةً ومُتنبِّهة، أمَّا الأُخرى فغائمة وقاتمة. ‘‘أكُنتُ مُخطئًا إذِ اعتقدتُ أنَّكِ مسيحيَّة؟’’

فطرفَت بعَينَيها مرَّتين.

وقال إيوليوس: ‘‘لم تكُن مُخطئًا’’.

لم يُشِحْ مَرقُس بناظرَيه عنها. ‘‘قال لي رجُلٌ على شاطئ بَحرِ الجليل إنَّ هنالِك مؤمنين يُصلُّون لأجلي. لقد صلَّيتِ **أنتِ** لأجلي، أليس كذلك؟’’

فأغمضَت عَينَيها على مَهل، ثُمَّ فتحَتهُما ثانيةً.

وابتسمَ مَرقُس. لقد عرَفَ الأمرَ الواحدَ الذي سيؤتيها العَزاءَ الأعظم. ‘‘إذًا، اعلِمِي هذا، يا

أمَّاه: أنّ صَلواتِكِ قدِ استُجيبَت. لقدِ اهتدَيتُ إلى المسيح. وقد عمَّدني رجُلٌ اسمُه كُرنيليوس في بُحَيرةِ الجليل".

فتألَّقت عَيناها بالدُّموعِ من جديد. وقالَت: " آه ه ه ه!" وقد كانَت تِلكَ تنهُّدةَ حَمدٍ وشُكر. واختَلَجَتْ يدُها.

تَناوَلَ مَرقُس يدَ أُمِّه، وقبَّلَ راحتها، ثُمَّ ألقى كامِلَ يَدِها على خدِّه.

"لقد رجَعتُ إلى الدِّيار، يا أُمِّي. إلَيكِ... وإلى الله!"

٣٦

على مدى الأيَّام القليلة التالية، مكثَ مَرقُس بمَعيَّةِ أُمِّه كلَّ لحظةٍ كانت فيها مُستَيقِظة. فأخبرَها بشأن سَفرتِه ولقائه ساتَيرُس. وحكى لها عن رحلته إلى مدينة القُدس، ورؤيَته خِرَبَ الهيكلِ، والحَجَرِ الذي رِبَّما عليه مدَّدَ إبراهيمُ إسحاقَ لإصعادِهِ مُحرَقةً. كذلكَ أخبرَها بشأن اللُّصوصِ على الطريق إلى أريحا، وكيفَ قامَ عزرا بارياكين وابنتُه، تَفاثا، بإنقاذِ حياتِه. وحدَّثها بشأنِ العَجوز، دَبُورة، في قريةِ نايين، وكيفَ صرفته في طريقهِ إلى بحرِ الجليل. وتحدَّثَ باليأسِ والفراغ اللَّذَينِ شعرَ بهما، وبشأن مُحاولَتهِ الانتِحارَ. وأخيرًا، بتَوقيرٍ وتهيُّب، تحدَّثَ بشأن پاراكليتُسَ والرَّبّ.

"لستُ أدري هل غَرِقتُ، يا أُمِّي. إنَّما أعلَمُ أنِّي شعرتُ بأنِّي قد بُعِثتُ حيًّا". ثُمَّ أمسَكَ يدَها التي كانت ما تَزالُ رقيقةً ورشيقة، وأضاف: "وأنا أعلَمُ الآنَ أنَّ يسوعَ حَيٌّ. إنِّي أرى حُضورَه في العالَمِ حَوالَينا". وتذكَّرَ هَدسَّة إذ قالَت له ذلكَ

ذاتَ مرَّة. آنذاكَ حَسِبَ ذلكَ غَباوةً. أمَّا الآن، فبدا واضحًا بجلاء ولا مَفَرَّ منه. ‘‘إنِّي أراه أكثرَ الكُلِّ في قُلوبِ أشخاصٍ مِثلِ دَبُورة وكُرنيليوس وأكثرَ من عَشَرةٍ غيرَهما التقَيتُهم منذ ذاك الحين. ولكنّي رأيتُه قبلَ ذلكَ بِزَمانٍ طويل’’. لقد رأى الربَّ في حياةِ عَبدةٍ شابَّةٍ بسيطة.

‘‘ها... دا...’’

فطأطأ رأسَه ووضَعَ يدَه فَوقَ يَدِها.

‘‘ها... دا...’’

‘‘إنِّي أتذكَّرُها أيضًا، يا أُمِّي. أتذكَّرُ كلَّ ما يتعلَّقُ بها’’.

‘‘ها... دا...’’

‘‘وأنا أفتقِدُها أيضًا’’.

‘‘ها... دا...’’

ثُمَّ رفعَ رأسَه، مُكافِحًا الحُزنَ الذي ما زالَ

يستَولي عليه أحيانًا. وقالَ: ‘‘هيَ عندَ الرَّبّ!’’ مُتمنّيًا لو يشعرُ بالعَزاء من جرَّاء عِلمه بذلك. غيرَ أنَّ فُقدانَها كانَ كجُرحٍ لم يندَمِل قَطُّ. هَدسَّة: كَلِمةٌ كانَت عِندَه مُرادِفةً لِلحُبّ. كيفَ أمكنَ أنَّه كانَ مُغفَّلًا إلى ذاك الحدّ؟

‘‘آه ه ه’’.

فقال: ‘‘اشْشش!’’ مُحاوِلًا أن يُسكِّنَ قَلَقَ أُمِّه. وقد بَدَت عَيناها حادَّتَين جدًّا، وشِبهَ مُتَّقِدتَين غَضَبًا. ‘‘لن نتكلَّمَ بشأنها ثانيةً إذا كان الأمرُ يُزعجُكِ كثيرًا هكذا’’.

فطرفَت بعَينَيها مرَّتَين.

وقال إيوليوس، الدائمُ الحِرص. ‘‘ينبغي لها أن تَستَريح، سيِّدي. لقد قال الطَّبيبُ...’’

‘‘نعم، لقد قُلتَ لي’’. ثُمَّ رفعَ مَرقُس أُمَّه بذراعَيه وحملَها إلى غُرفةِ نَومها’’. وقال، مُقبِّلًا خدَّها: ‘‘سنتحدَّثُ مُجدَّدًا في ما بعَد’’.

ثُمَّ انتصبَ مَرقُس ونظرَ في وجهِ إيوليوس

مُباشرةً. وأومأ نحوَ الباب. فخرَجَ إيوليوس من الغُرفة.

وجلسَتِ الفتاةُ التي أوقعَتِ الصِّينيَّةَ في أوَّلِ يَومٍ عندَ رُجوع مَرقُس إلى البيت، على المقعدِ بقُربِ السَّرير لتَسهرَ على راحةِ أُمِّه. ‘‘ناديني عندما تستيقِظ’’.

‘‘نعم، سيِّدي’’.

أغلقَ مَرقُس وراءَه بابَ غُرفة النَّوم. وكان إيوليوس واقفًا عندَ الدَّرابزين المطِلّ على البَريستايْل. فنظرَ مَرقُس إلى الرَّجُلِ الأكبرِ سنًّا بعَينَين مزمومتَين. ‘‘بالضَّبط، ما العلاقةُ بينك وبين والدَتي؟’’

فامتُقعَ وَجهُ إيوليوس. ‘‘أنا عَبدُها، سيِّدي’’.

‘‘عَبدُها؟’’

‘‘لقد تولَّيتُ الاعتِناءَ بها منذُ أُصيبَتْ بالشَّلل’’.

‘‘وقبلَ ذلك؟’’

فقال إيوليوس بصَوتٍ هادئ: ‘‘لا تقُل آيَّ شيءٍ تندَم عليه’’.

وثارَ غضبُ مَرقُس سريعًا. ‘‘مَن أنتَ حتَّى تأمُرني؟’’

‘‘أنا أُسلِّمُ لكَ بأنِّي عَبدُكم، سيِّدي. ولكنِّي أقول لك هذا: إذا قُلتَ لي كلمةً واحدةً تَنعكِسُ بشكلٍ قاسٍ على خُلُقِ والدَتِك، فسأضربُكَ كما كان يُمكِنُ أن يفعلَ أبوكَ ذلك، وتَبًّا للعواقِب!’’

فحدَّقَ إليه مَرقُس مَذهولًا. وكان إيوليوس، شأنُه شأنُ مَرقُس، يعلَم أنَّ كلماتٍ كهذه كانت كافيةً للأمرِ بصَلبِه. ‘‘لقد أجبتَ عن سؤالي بكلماتِك المتَهوِّرة’’.

‘‘ليست مُتهوِّرةً، سيِّدي، بل صادرةٌ من القلب. إنَّها ألطفُ السيِّدات’’.

فصرَّ مَرقُس بأسنانه. ‘‘أتُحبُّكَ أمِّي بمِثلِ الطريقة التي بها تُحِبُّها أنت؟’’

‘‘بالتَّأكيد لا!’’

لم يكُن مَرقُس مُتيقِّنًا. فقد دخلَ الغُرفةَ بِضعَ مرَّاتٍ فيما كان إيوليوس وحدَه مع والدَتِه. واشتمَلَ صَوتُ العَبد على رقَّةٍ مُميَّزة عندَ التكلُّم إلى أُمِّه. ثُمَّ إنَّها ذاتَ مرَّة، بعدَما رفعَها إيوليوس عن الكُرسيّ، ألقَت رأسَها على كَتِفهِ راضِيةً.

فلم يكُن مَرقُس مُتيقّنًا بحقيقةِ شُعورِه حِيالَ عَلاقتِهما، ولا مُتيقِّنًا بأَنَّ له الحقَّ في أن يشعُرَ بأيِّ شيء. أينَ كان هوَ لـمَّا احتاجَت أُمُّه إلَيه؟ لقد كرَّسَ إيوليوس كلَّ لحظةٍ للاعتِناء بها، مُلبِّيًا كُلَّ حاجَةٍ لدَيها. وكانَ مُتنبِّهًا وحريصًا. فإنَّ تفانيَ إيوليوس لم يكُن مسألةَ واجب، بل كانَ فِعلَ محبَّةٍ مستمِرًّا.

وضعَ مَرقُس يدَيه على الدَّرابزين. لقد شعرَ بالخَجَل فجأةً. ومن ثُمَّ اعترَف: "أنا غَيورٌ بطَبعي. وليس هذا ممَّا أفخَرُ به".

"أنتَ تُحِبُّ أُمَّك".

"نعم، أنا أُحِبُّها، ولكنَّ ذلك لا يؤتيني عُذرًا لأسوقَ ضِدَّكَ أيَّة اتِّهامات. سامحْني، يا

إيوليوس. لولا اعتناؤكَ، ما كانت آمِّي حيَّة. آنا شاكرٌ لك!’’

ذُهِلَ إيوليوس حِيالَ التَّغيير الذي لمسَه لَدَى مَرقُس. فقد كان فيه تواضُعٌ لم يَسبِق أن رآهُ قَطّ.

‘‘لا داعيَ لأنْ تقلقَ بشأنِ أيِّ شيء، سيِّدي. فبالنِّسبة إلى والِدَتِك، أنا عَبدٌ، ولا شيءَ أكثر’’.

‘‘أنتَ بالنِّسبةِ إليها أكثرُ من ذلك’’. فإنَّه كانَ قد رأى النِّظرةَ الخاصَّةَ في عَينَي أُمِّه لـمَّا تحدَّثَ إيوليوس إليها. فوضَعَ يدَه على كَتِفِ إيوليوس، قائلًا: ‘‘أنتَ صديقُها الأعزُّ!’’

٣٧

مرَّتِ الأيَّام. وانتظرَ مَرقُس أن يذكُرَ أحَدٌ أُختَه، إلَّا أنَّ أحدًا لم يذكُرْها. أخيرًا، دفعَه الفُضولُ فسألَ عن آخر مرَّةٍ منذ زارتْهم جوليا آخِرِ مرَّة.

فأجابَ إيوليوس: "نحو سِتَّةِ شُهور، سيِّدي".

"ستَّةُ **شُهور**؟"

"نعم، سيِّدي".

"هل تَعرِفُ حالةَ والدَتي؟"

قال إيوليوس: "ما كنَّا لِنترُكَها في جَهل. أرسَلْنا خبرًا بضعَ مرَّات، سيِّدي. جاءتِ السَّيِّدةُ جوليا مرَّةً. وتَضايقَتْ كثيرًا حِيالَ حالَةِ والِدَتِك".

"تضايقَت جدًّا بحَيثُ لم تُكلِّفْ نفسَها عَناءَ المجيء ثانيةً". ثُمَّ تفوَّهَ بكَلِمةٍ نابيةٍ على أُختِه. **سامِحْها، يا ربّ؟** لقد أرادَ أن يخنُقَها بيَدَيهِ كلتَيهما. وشرعَ قلبُه يخفُقُ خَفقًا شديدًا، إذ

غمرَه الغَيظ.

نَدمَ إيوليوس على كَلِماتهِ الانتِقاديَّة، قَلِقًا من احتمالِ عَدَم عَكسِها لأحوال جوليا الحقيقيَّة. فرُغمَ كلِّ شيء، لم يكُن يَدري سببَ عدمِ رُجوعها، وكان بعيدًا عن الـمُوافِقِ له أن يلجأ إلى أيَّة افتراضات. والتمَسَ أسبابًا مُمكنةً وراءَ إهمالها. ‘‘لم تَبدُ بخَير، سيِّدي’’.

‘‘رُبَّما كانت تُعاني عواقبَ سُكرِها في الليلةِ السابقة’’.

كان إيوليوس قد طرحَ التَّساؤلَ عينَه آنذاك، ولكنَّه لم يُقِرَّ به. ‘‘لقد كانت نحيلةً جدًّا’’.

نظرَ إليه مَرقُس بفُتور. ‘‘أنتَ تُدافعُ عن إهمالِ أُختي؟’’

‘‘لا، سيِّدي. همِّي الوحيد هو السيِّدة فيبي. إنَّ والِدَتَكَ تَنتظرُ رُجوعَ ابنتِها’’.

فأشاحَ مَرقُس رأسَه، كالحَ الوجه.

‘‘إنَّها تَنتظرُ السيّدة جوليا مِثلَما انتظرَتكَ أنت، سيِّدي’’.

ارتعشَت عَضَلةٌ في خدِّ مَرقُس، وقالَ مُتَهكِّمًا: ‘‘شُكرًا لكَ على تَذكيرِكَ اللَّطيف’’.

‘‘قد يكونُ من الحِكمة أن نهتَديَ إلى السَّببِ الذي من أجلهِ لم ترجع جوليا، سيِّدي’’.

فقال مَرقُس بسُخريَةٍ لاذِعة: ‘‘في وُسعِي أن أُخَمِّنَ تخمينًا حصيفًا. لقد كانت كالاباه ضدَّ أُختي في أيِّ أمرٍ يتعلَّقُ بأُمِّي. فإنَّها خشِيَتْ أن يُصيبَ جوليا قليلٌ من اللِّياقة’’. وأطلقَ ضحكةً هَشَّة.

‘‘كالاباه شيڤا فُنتانيوس غادرَت أفسُس منذُ سنة’’.

ورفعَ مَرقُس نظرَه مُتعجِّبًا. ‘‘أمرٌ مُشوِّق. أيَّ شيءٍ آخرَ سَمعتَ عن أحوالِ أُختي؟’’

‘‘يُشاعُ أنَّ زَوجَ جوليا أيضًا رَحَلَ بعدَ سَفَرِكَ إلى فِلَسطين بأشهُرٍ قليلة. وعلى حدِّ عِلمي، لم يرجعْ’’.

فاستَغرقَ مَرقُس في التفكير. إذًا، جوليا المسكينةُ هُجرَت. لم يكُن ذلكَ أكثرَ ممَّا استَحَقَّته. أمَا حذَّرَها من كالاباه وپريمُس؟ في وُسعِه أن يخمِّنَ ما قد جرى. فلا بُدَّ أنَّ كالاباه استَعمَلَت جوليا حتَّى ملَّت منها. أمَّا پريمُس فقدِ انتهزَ كُلَّ فُرصةٍ لِسَلبِ جوليا منهجيًّا أيَّ مالٍ استَطاعَ أن يستَوليَ عليه.

تُرى، كيفَ حالُها الآن؟

ولماذا ينبغي أن يعنيَه الأمر؟

ربَّما جاءت جوليا إلى أُمِّهما مُستَغيثةً، وإذْ لم تَرَ أيَّ عَون غادرَت. إنَّ جوليا لم يَرُقها يَومًا أن تكونَ على مُقرُبةٍ من أيِّ شخصٍ مريض. وقد تذكَّرَ كيفَ فرَّتْ من الغُرفة لـمَّا استَدعى أبوهُما العائلةَ إلى فِراشِ احتِضارِه.

غيرَ أنَّه لم يتَمالَكْ نفسَه عن التساؤل.

"قُلتَ إنَّها بَدَتْ مريضةً؟"

"نعم، سيِّدي".

خالجَته مَشاعِرُ مُتضارِبة، الأقوى بينَها ضدَّ جوليا. لقد كان عَليمًا عِلمًا حادًّا بما يُريدُه الرَّبّ، وكان مُحتدًّا على السَّواء في مُكافحَتِه ذلك الأمر. لقد أرادَ أن يتذكَّرَ ما فعلَته جوليا، كي يكونَ له تُرسٌ ضدَّ المَزيدِ من المشاعِرِ الرَّقيقة. فهيَ لم تكُن تستحقُّ أيَّةَ رقَّة، بَلِ استَحقَّتْ فَقَطِ الإدانةَ.

ومن ثَمَّ قالَ، بوجَهٍ مُكفَهِرٍّ: ‘‘سِتَّةُ شهور! ربَّما ماتت في أثناءِ تِلكَ المدَّة’’.

انزعجَ إيوليوس من اللَّامُبالاة الفاترة في صَوتِ مَرقُس. أكان يتمنَّى حقًّا مَوتَ أُختِه؟ ‘‘وماذا إذا لم تكُنْ قد ماتت، سيّدي؟ من شأنِ والِدَتِكَ أن تنعمَ بمزيدٍ من راحةِ البال لو علِمَت أنَ السَّيِّدةَ جوليا سليمةً معافاة’’.

تصلَّبَ وجهُ مَرقُس. لقد علمَ أنَّ إيوليوس كان على حقّ. فإذا كانَت أُمُّه قد صلَّت لأجله، فهو عليمٌ بأنَّها صلَّت لأجلِ جوليا.

وما لَبثَ احتمالُ رؤيةِ أُختِه أن أثارَ المشاعِرَ الثَّقيلةَ التي كانت هاجعةً في غُضونِ الأسابيع

الماضية. فولّى هُدوءُ ما قبلَ العاصفة، وهبَّت عليه الآنَ عاصِفةُ العاطِفةِ العاتيةُ ضاجَّةً بمَيلٍ إلى الانتقام. كان قد أقسمَ إنَّه لن يَرى جوليا أو يُكلِّمَها مرَّةً أُخرى. ولَمَّا آلى على نفسِه ألَّا يفعلَ ذلك، قصَدَ أن يفيَ بقَسَمِه... إلى الأبَد. أمَّا الآن فقد علمَ أنَّ عليه أن يُنَحِّيَ مشاعِرَه الخاصَّة جانبًا، ويُفكِّرَ بالأحرى في حاجاتِ أُمِّه.

وقال مَرقُس بتَجهُّم: ‘‘حَسَنٌ جدًّا. سأكتشِفُ غدًا أينَ هي’’.

وصلَّى طالبًا من الله أن تكونَ قد ماتت ودُفِنَت، عسى أن تكونَ تِلكَ نِهايةَ أمرِها.

٣٨

مسَّدَت هَدسَّة شعرَ جوليا بتَربيتاتٍ بطيئة. ولاحظَتْ رُقَعَ الصَّلَعِ التي تُعادِلُ الواحِدَةُ منها حجمَ قطعةِ النَّقد، في تَجَلٍّ آخَرَ للمَرَضِ التناسُليّ. وما تزالُ جوليا مخضوضةً جدًّا اليوم، مُعانيةً ألَمًا مُبَرِّحًا من جرَّاء القُروح. كانت هَدسَّة قد أعطَتها جرعةً ضئيلةً من عُصارةِ اللُّفَّاح، وأضافَتْ تَوليفةً خاصَّةً من الأعشابِ الطبِّيَّة إلى حمَّامها. فالآن باتت جوليا ناعِسةً تحتَ شَمسِ عَصرِ النَّهار، مُستَرخِيةً بهُدوء. وهبَّ نسيمٌ فحرَّكَ أوراقَ الكرمَةِ المرفوعة على المعترَش، حاملًا الروائحَ القويَّة المنبَعِثة من المدينة المزدَحِمة.

بينَما هَدسَّة تمرِّرُ أصابعَها نُزولًا في الخُصَلِ الحريريَّة، أخذَتْ تضفِرُ شعرَ جوليا الطويلَ حتَّى خَصرِها. ولـمَّا فرَغَت، ألقَتِ الضَّفيرةَ على كَتِفِ جوليا، وقالَت: ‘‘سأُحضِرُ لكِ شيئًا تأكُلينَه، سيِّدتي’’.

أجابَت جوليا مُتنهِّدةً: ‘‘لستُ جائعة. لستُ

عطشانة. لستُ مُتعَبة. لستُ أيَّ شيء''.

''أتَوَدِّين أن أحكيَ لكِ قِصَّة، سيِّدتي؟''

فهزَّت جوليا رأسَها بالإيجاب، ثُمَّ نظرَت إلى هَدسَّة بِرَجاء. ''أيُمكِنُكِ أن تُغَنِّي، سيِّدةُ عَزار؟''

''آسِفة، سيِّدتي. لا يُمكِنُني''. فإنَّ الالتهابَ والصَّدمة أتلفا أوتارَها الصَّوتيَّة بحيثُ أمكَنَها فقط أن تتكلَّم بصَوتٍ أجَشَّ. ''يُمكِنُني أن أعزفَ بالقيثارة''.

أشاحَت جوليا بناظرَيها. ''ليسَتْ لَدَيَّ قِيثارة. كانتْ في البيتِ واحدةٌ، ولكنَّ پريمُس حطَّمَها قِطَعًا قِطَعًا ثُمَّ أحرقَها''. وقد ساورَها السُّرورُ آنذاك، لأنَّ الآلةَ كانت تُذَكِّرها بعَبدةٍ شابَّة كانت تنقرُ أوتارَها وتُرنِّمُ ترانيمَ عن إلهِها.

''سأطلُبُ من پروميثيوس أن يشتريَ واحِدةً أُخرى''.

فوضعَت جوليا يدًا مُرتَعِشةً على جَبينها. ''لا تُبَدِّدي مالكِ''. وأطلقَتْ ضِحكةً حزينة. كم بدَّدَتْ

هي في غضونِ السِّنينِ المنصَرِمة؟ ولـمَّا فكّرَت في المبالغِ التي أنفقَتها، لم تَكَدْ تُصدِّقُ أنَّها باتَتْ تَعيشُ هكذا.

وضعَت هَدسَّة يدَها على كَتِفِ جوليا. ‘‘هيَ الحُمَّى تجعَلُ رأسَكِ يؤلِمُكِ، سيِّدتي’’. وكان پروميثيوس قد وضعَ بجانبِ أريكتِها طاوِلةً صغيرة، عليها طَستٌ من الماءِ المعَطَّر وبعض الخِرَق مَوضوعةٍ بعضِها فوقَ بعض. فبلَّلَت هَدسَّة إحداها وعصرَتها. ومسحَتْ وجهَ جوليا. ‘‘حاوِلي أن تنامي’’.

‘‘ليتَني أستطيعُ أن أنام. أحيانًا، يشتدُّ عليَّ الوَجَعُ حتَّى يتعذَّرُ عليَّ النَّوم. وأحيانًا أُخرى، لا أُريدُ أن أنامَ لأنِّي أحلُم’’.

‘‘بِمَ تحلُمين؟’’

‘‘بأشياءَ شتَّى. أحلُمُ بأنُاسٍ عَرَفتُهم. البارحةَ حَلَمتُ بزَوجي الأوَّل، كلاوديُوس’’.

ومسَّدَت هَدسَّة جبينَ جوليا وصُدغَيها.

‘‘أخبِريني بشأنه’’.

‘‘كسرَ عُنُقَه لـمَّا سقطَ عن حصانه’’. واسترخَتْ تحتَ عِنايةِ هَدسَّة الرَّقيقة. فرغبَتْ في التحدُّثِ بالماضي اليومَ، مُحرِّرةً نفسَها من هُمومِه. ‘‘بادئ الأمر، لم يكُن يُجيدُ رُكوبَ الخيلِ كثيرًا، وقد سَمِعتُ في ما بَعد أنَّه شَربَ بِضعَ كؤوسٍ من الخمر قبلَ خُروجهِ للبَحث عنِّي’’.

وضعَتْ هَدسَّة الخرقةَ جانبًا. ‘‘أنا آسِفة’’.

فقالَت جوليا بصَوتٍ ينمُّ عن صراحة: ‘‘أنا لم أكُن. ليسَ آنذاك. كان ينبغي لي أن أكونَ آسِفة، ولكنِّي لم أكُن’’.

‘‘أأنتِ آسِفةٌ الآن؟’’

قالَت: ‘‘لستُ أدري’’. وقلبَتْ شَفَتَها. وما لَبِثَت أنْ قالَت بعدَ لحظة: ‘‘نعم... أحيانًا’’. هل تَدينُها عَزار؟ انتظرَت جوليا مُتوتِّرةً. ثُمَّ مدَّتْ عَزار يَدَها، وأمسكَت يدَ جوليا. فكانَت جوليا شاكرةً جدًّا، حتَّى تشبَّثَت بيَدِ المرأة الثابتة الصغيرة، ومَضَتْ

تقول: ‘‘كانَت غَلطَتي بطريقةٍ ما. فقد كان يبحثُ عنّي، كما تَعلَمين. وكنتُ قد ذهبتُ إلى **لودُسٍ** لأُشاهِدَ المحاربين يتدرَّبون. كنتُ مشغوفةً بهم، بواحِدٍ على وجهِ الخُصوص. سبقَ لي أن طلبتُ من كلاوديوس فوقَ عَشرِ مرَّاتٍ أن يأخُذَني إلى هناك، ولكنَّه أبى. فكُلُّ ما عُنيَ به كان دراساته عن الأديان في الإمبراطوريَّة. وأنا سئمتُ ذلكَ كلَّه، سئمتُ منه هو’’.

وتنهَّدَت. ‘‘ما كنتُ لأتزوَّجَ منه قَطُّ لو لم يُرغِمني والِدي. كان يكبُرُني بعِشرين سنة، غيرَ أنَّه تصرَّفَ كما لو كانَ أكبرَ من ذَلكَ بَعدُ’’. ثُمَّ مَضَت في حديثها، مُحاولةً أن تُبرّرَ أفعالَها. ولكنْ كلَّما أكثرَتْ من الكلام، ازدادَتْ شُعورًا بأنَّها غيرُ مُبرَّرة. تُرى، لماذا يُعذِّبُها الآنَ كثيرًا ما قد حدثَ منذُ عهدٍ بعيد؟ إنَّ الحادِثةَ التي جَرَت لِكلاوديوس لم تكُن إلَّا واحدةً بين حوادِثَ غيرَها كثيرةٍ جدًّا.

وضعَتْ هَدسَّة يَدَها فَوقَ يدِ جوليا. ‘‘كُنتِ صغيرةَ السنِّ جدًّا’’.

فقالَت جوليا: ‘‘أصغرَ من أن أُناسِبَه’’. وزَفَرَت

نَفَسَها في ضِحكةٍ حزينة. ‘‘أظنُّ أنّ كلاوديوس أحبَّني لأنّي شابَهتُ زوجتَه الأُولى، غير أنِّي لم أكُن مثلَها في أيِّ شيء. لا بدَّ أنِّي شكَّلتُ له صدمةً هائلةً بعدَ الأسابيع القليلة الأُولى من الزَّواج!’’

‘‘هل تعرِفين كيفَ كانت زوجتُه؟’’

‘‘لم ألتَقِها قطُّ، دونَ شكّ، ولكنّي استَخلصتُ أنَّها كانت لطيفة، وقد شاركَته في شَغَفِه بالتَّعلُّم’’. ثُمَّ رِفعَتْ رأسَها ونظرَت إلى النِّقاب، شاكرةً على كونها لا تَستطيعُ أن ترى أيَّ وجهٍ من ورائه. ‘‘لم أكُن أيَّ شيءٍ من ذلكَ كلِّه. أحيانًا أجِدُني مُتَمنِّيةً...’’ وهزَّت رأسَها مُشيحةً بناظرَيها. ‘‘لا يُجدي التَّمنِّي نَفعًا’’.

‘‘ماذا تتمنَّين، سيِّدتي؟’’

‘‘لو كنتُ ألطَفَ قليلًا، على الأقلّ’’.

أرادَت هَدسَّة أن تُعانِقَ جوليا، إذ كانت تلك هي أوَّلَ مرَّةٍ فيها تعترِفُ ولو بقليلٍ من النَّدامة على

شيءٍ ما.

قالَت جوليا: ‘‘لا أعني أنّي أتمنَّى لو أحبَبتُه. ما كان يُمكِنُني قَطُّ أن أُحِبَّه، ولكنْ لو كنتُ...’’ وهزَّت رأسَها. ‘‘آه، لستُ أدري’’. ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها. ‘‘لا نفعَ في ذلك، على ما أظُنّ. قيلَ لي إنَّ إطالةَ التفكير في الماضي أمرٌ عديمُ النَّفع، إلَّا أنَّ ذلك هو كلُّ ما بقيَ لَدَيَّ في ما يبدو: رؤى الماضي’’.

‘‘أحيانًا، علينا أن نرجعَ ونتذكَّرَ الأُمورَ التي فَعَلْناها، ونتطهَّرَ منها، قبلَ أن نتمكَّنَ من الـمُضِيِّ قُدُمًا’’.

فنظرَت جوليا إليها باكتئاب. ‘‘لأيِّ غَرَض، سيِّدة عَزار؟ ليسَ في وُسعي أن أُغيِّرَ ما حدث. لقد ماتَ كلاوديوس، وهذا هو الواقع. ولسوفَ تَبقى غلطتي جُزئيًّا في كلِّ حين أنَّه مات’’.

‘‘ليس من الواجب أن يكونَ الأمرُ هكذا’’.

فضحكَتْ جوليا ضحكةً خَشِنة. ‘‘ذلكَ تمامًا هو ما قالَته كالاباه’’.

وآجفلَت هَدسَّة. ‘‘كالاباه؟’’

‘‘نعم، كالاباه شيڤا فُنتانيوس. آه، يُمكِنُني أن أقولَ إنَّكِ قد سَمِعتِ بها. فالجميعُ قد سمعوا بكالاباه’’. والتَوى فمُها بابتِسامةٍ مُرَّة. ‘‘كانت تُقيمُ هنا عندي. أمضت هنا سنةً تقريبًا. لقد كانت عشيقَتي. أيصدمُكِ هذا؟’’ ثُمَّ سحبَتْ يَدَها نترًا.

فقالَت هَدسَّة بهدوء: ‘‘لا’’.

‘‘قالت كالاباه إنَّه ليس علينا أن نندمَ على الماضي. فكلُّ ما عَلَينا القيامُ به هو أن نُركِّزَ أذهانَنا على التمتُّع بالحاضِر’’. وأطلقَتْ ضِحكةً ساخِرة. ‘‘أخبرتُها بشأن كلاوديوس مرَّةً. فضحِكت وقالت إنِّي غبيَّةٌ إذا ساوَرَني أيُّ نَدَم’’. ولعلَّها الآن غبيَّةٌ إذ تُخبِرُ عَزار بهذا المقدار.

‘‘ولكنَّكِ فعلتِ ذلك’’.

‘‘فعلتُ ماذا؟’’

‘‘شعرتِ بالنَّدم’’.

‘‘إلى حين، بُعَيدَ مَوتِه. أو رِبَّما كان ذلك خَوفًا، أكثرَ منه نَدَمًا. فقد فزِعتُ أن يدسَّ أحَدٌ السُّمَّ في طعامي؛ إذ إنَّ كلَّ واحِدٍ من عبيدِ كلاوديوس كان يحبُّه. لقد كان لطيفًا جدًّا في مُعاملتِهِم’’. ثُمَّ سكتَت قليلًا، مُستَغرقةً في التفكير. إنَّ كلاوديوس كان لطيفًا تُجاهَها هي أيضًا. فهوَ لم يقُل لها قطُّ كلمةً فظَّة، رُغمَ افتِقارها إلى حُسنِ السُّلوك واللِّياقة من حيثُ كونُها زوجتَه. وقد جعلَها إدراكُ ذلكَ تشعرُ بالخزي. ‘‘منذُ عهدٍ قريب، دأبتُ في تذكُّرِ أشياءَ قلتُها له، تمنَّيتُ لو لم أقُلْها’’.

ثُمَّ قامَتْ مُتَثاقِلةً ومشَتِ الخطواتِ القليلةَ إلى الشُّرفة. وإذِ استَندَت إلى الحائط، نظرَتْ صَوبَ البحر. ‘‘كذلكَ أُفكِّرُ في كايُس أيضًا؛ زَوجي الثاني’’. واستَطاعَتْ أن تتذكَّر سِيماءَ وجهِه قُبَيلَ مَوتِه بالسُّمِّ الذي سبقَ أن أعطَتْه إيَّاَه. وكانت قد فعلَت ذلك ببُطء، على مدى أسابيع. ولم يكُن إلَّا قبلَ النِّهاية تمامًا أنَّه أدرك...

وحَنَت رأسَها. ‘‘أيُّ نفعٍ في النَّدَم؟’’

‘‘النَّدَم يدفعُنا إلى التَّوبة، والتَّوبةُ تَقتادُنا إلى اللّٰه’’.

فأكملَتْ جوليا، بنَترةٍ من ذقنِها: ‘‘واللّٰه يدفعُنا إلى النِّسيان’’. لماذا كانت عَزار دائمًا ترجعُ إلى اللّٰه؟ وما لَبِثَتْ أنَّ غيَّرَتِ الموضوع، قائلةً عمدًا: ‘‘هنالك ريحٌ دافئةٌ تهبُّ من البحر. تُرى، أيُّ سُفُنٍ مُقبِلةٌ إلى الميناء؟ لقد كان أبي يملكُ أسطولاً كاملًا. وكان يأتي بالبضائع من كلِّ ميناء في الإمبراطوريَّة’’. وكثيرًا ما كان هو ومَرقُس يتَجادَلانِ بشأنِ ما يُريدُه الناس. فيقولُ الوالِد: الحِنطةَ من أجلِ الجماهير الجائعة. ويقول مَرقُس: الرَّملَ من أجلِ ساحاتِ المحاربين. وقد أثبتَ مَرقُس أنَّه على حقّ، فكسَبَ استِعمالَ سِتٍّ من سُفُنِ الوالِد. وبتلك السُّفُن، راحَ يجمعُ ثَروتَه. فلا شكَّ أنَّ مَرقُس باتَ الآن واحِدًا من أغنى الرجال في الإمبراطوريَّة، في حينَ تراخَتْ هيَ هنا في فَقرٍ مُدقِعٍ نسبيًّا، مُعتمِدةً على إحسانِ غريبةٍ لأجلِ إعالَتِها كَفافًا.

أينَ كان مَرقُس الآن؟ أمَا زالَ في فلَسطين؟ أوَما زال يكرهُها؟

كانَ في وُسعِها تقريبًا أن تُحِسَّ ذلك عبرَ الأميالِ الكثيرة. فأينما كانَ مَرقُس، ومهما كان فاعِلًا، علمَت أنَّ كُرهَهُ لها يتوقَّدُ في داخلِه. فلَطالَما كان مَرقُس ماضيَ العزيمةِ في أيّ أمرٍ يَنوي أن يفعلَه. وهو قد نَوى أن يكرهَها إلى الأبَد.

أشاحَت بناظرَيها مُكتئبةً. لم تُرِدْ أن تُفكِّرَ في مَرقُس. ولم تُرِد أن تشعُرَ بالذَّنْبِ حِيالَ ما قد فعلَته. فهيَ إنَّما كانت تُحاولُ فقط أن تحميَه من نفسِه. ذلكَ أنَّ هَدسَّة، وهيَ مُجرَّدُ عَبدة، قد أخزَتْه برَفضِها الزَّواجَ به.

وفكَّرَت جوليا: **يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ هَدسَّة سبَّبَتِ الشّقاقَ في بيتي**. فإنَّ پريمُس كان قد كرِهَ هَدسَّة لأنَّ عواطِفَ پروميثيوس تحوَّلَت عنه هو. أمَّا كالاباه فلم تقُل قطُّ بالحقيقة لماذا كرِهَتِ العَبدةَ الشابَّة، غيرَ أنَّها كرهَتْها فِعلًا، كُرهًا شديدًا جدًّا. لقد تذكَّرَت جوليا غضبَها الشخصيَّ على العَبدة، دونَ السَّببِ الأساسيِّ له.

ولكنَّها ما كانت لِتَنسى البتَّةَ كَلِماتِ أخيها

الأخيرةَ إذ قال لها: **‘‘عسى أن تلعنَكِ الآلِهَةُ من أجل ما قد فعلتِ!’’**

وإذ أخذَها الارتعاشُ، قعدَت على أريكتِها من جديد وسحبَتِ البطَّانيَّة حَولَ كتِفَيها.

فقالَت هَدسَّة: ‘‘إنَّك تشعرين بالبرد، سيِّدتي. ربَّما ينبغي لنا أن نعودَ إلى الدَّاخِل’’.

‘‘لا! لقد سئمتُ البقاءَ في الداخل’’. ثُمَّ استَلقَتْ وانطوَتْ على جنبِها، ناظرةً إلى عَزار بتَرقُّب، كطِفلةٍ تنتظِرُ سَماعَ قِصَّةٍ قبلَ نومِها. ‘‘احكي لي قصَّةً أُخرى. قصَّةً من أيِّ نوعٍ كان. لا يهمُّني’’.

شرعَت هَدسَّة تحكي قصَّةَ السَّامريَّةِ عندَ البئر. ولـمَّا وصلَتْ إلى حيثُ يقولُ المسيحُ للمرأة إنَّه مُعطي الماء الحيّ، لاحظَت أنَّ جوليا نامَت، إذ هَدهدَها وَقعُ صَوتها. فقامَت هَدسَّة وسوَّتِ البطَّانيَّة عليها. ومسَّدَتْ خصلَ الشَّعرِ المبتلَّة عن صُدغِها إلى الوراء.

متى ستؤدِّي القصَصُ إلى فَتحِ عَينَي جوليا بَدَلَ

إطباقِهما؟ ولكنْ على الرُّغمِ منِ عمى المريضةِ الداخليّ، أحسَّت هَدسَّة بَصيصًا من الأمَلِ. فما قالَته جوليا عن كلاوديوس فاجأها. إذ كانَ ذلك أوَّلَ مؤشّرٍ إلى أنَّها كنَّتْ شيئًا من النَّدمِ والأسَف، أو شعرَتْ بمسؤوليَّةٍ عن أيِّ شيء، ولو جُزئيَّةً. في أثناء الأسابيع الماضية، كانت جوليا قد كفَّت عن أن تكونَ مُشاكِسة. أمَّا الآن، فقد كانت طِباعُها أكثرَ اكتئابًا وعُمقًا، وكأنَّ ذِهنَها كان يُفكِّرُ مَليًّا في أحداثِ الماضي... مُجريًا جَردةً قبلَ حُلولِ النِّهاية.

التقطَت هَدسَّة عُكَّازَها ورجعَت إلى داخِلِ المهجَعِ. وإذ ألقت العُكَّازَ جانبًا، رتَّبَتِ الأغطِيةَ على أريكةِ النَّوم، ثُمَّ التقطَتِ الثِّيابَ فاصِلةً الوَسِخَ منها عنِ المهمَلِ. وطَوَتِ الثِّيابَ النَّظيفة، ثُمَّ وضعَتها في مكانها. أمَّا الأُخرى فأبقَتها مُدلَّاةً على ذراعِها، فيما تَناوَلَتْ عُكَّازَها من جديد وغادرَتِ الغُرفة. ربَّما تأكلُ جوليا شيئًا عندما تَستَيقظ، وسيَعودُ پروميثيوس عاجلًا.

حملَت عُكَّازها تحتَ إبطِها، واتَّكأت على الدَّرابزين إذ نزلَتْ على الدَّرج. ولـمَّا وصلَتْ إلى

الأسفل، دارتْ لِتَعبُرَ البِريستايْل إلى المطبخ في ناحيةِ البيت الخلفيَّة.

وإذا بأحَدِهم يقرعُ البابَ الأماميّ.

فأجفلَتْ هَدسَّة، ونظرَت إلى الوراء. لم يكُنْ أحَدٌ قد جاء لرؤيةِ جوليا في أثناءِ جميع الأسابيع التي أمضَتْها عندَها. وأيضًا لم يكن ألِكسَندر وراشِد قَطُّ يأتيانِ في هذا الوقتِ من النَّهار، ولا كانا قطُّ يُكلِّفانِ النَّفسَ عناءَ قرعِ الباب. فعلمًا مِنهما بأنَّ هَدسَّة تكونُ عندَ جوليا في الطَّبقة العُليا ولن تسمعَ القَرع، كانا يدخُلانِ دونَ إعلام.

عرجَت هَدسَّة إلى الباب وفتحَته.

كانَ الطَّارقُ قدِ استدارَ توًّا ليَنصرفَ وباشَرَ هُبوطَ الدَّرَج. وقد كان الرَّجُلُ طويلَ القامة، قويَّ البُنية، أنيقَ اللِّباس. فإذ سمعَ البابَ ينفتح، دارَ بشَيءٍ من التَّباطؤ، ونظرَ إليها باكتئاب.

حبسَت هَدسَّة نفَسَها، وقلبُها يقفز. **مَرقُس**!

ونظرَ إليها بعَينَيه البُنِّيَّتَين الداكِنتَين من رأسِها

إلى قدمَيها. فتَجهَّمَ وجهُه قليلًا، وعادَ صاعِدًا الدَّرج.

‘‘لقد جئتُ لرؤيةِ السيِّدة جوليا’’.

٣٩

دُهِشَ مَرقُس إذ رأى امرأةً مُحجَّبة. فنظرَ إليها صعودًا ونُزولًا، ثُمَّ عبَّسَ لـمَّا لم تقُل شيئًا. ‘‘هذا المنزلُ ما زال يخصُّ جوليا ڤاليريان، أليس كذلك؟’’

أجابت بصوتٍ أجشَّ: ‘‘بَلى، سيِّدي’’. وإذ توكَّأت على عُكَّاز، تراجعَتْ حتَّى يتمكَّن من الدُّخول. فتَخطَّاها ودخلَ غُرفةَ الانتِظار، فصعقَه في الحال خُلُوُّ المكان. لقد بدا مهجورًا. واستَطاعَ أن يسمعَ النَّافورةَ عبرَ الأروِقَةِ ذاتِ القناطِر. فأغلقَتِ المرأةُ البابَ بلُطفٍ وراءَه، ثُمَّ عرجَت مُجاوزةً إيَّاه، وصدى نَقرِ عُكَّازِها الخفيف يتردَّدُ في المدخلِ الفارغ. لقد وجدَه أمرًا مُفاجئًا أن تَضُمَّ جوليا إلى بيتها امرأةً عرجاء. ثُمَّ لماذا النِّقاب؟

تقدَّمَته إلى الدَّرج قائلةً: ‘‘من هنا، سيِّدي’’.

لاحظَ الثِّيابَ مُلقاةً على كَتِفِها، فخمَّنَ أنَّها الغسَّالة. ‘‘أينَ العبيدُ الآخَرون؟’’

“ليسَ من عبيدٍ آخَرين، سيِّدي. پروميثيوس وأنا فقط. لقد تسلَّمَ عملًا في المدينة”. ووضعَتِ الثِّيابَ في كومةٍ مُرتَّبة عندَ أسفلِ الدَّرَج.

عرجاءُ ومأبون! فكَّرَ مَرقُس بسُخريَةٍ قاتمة. إلى أيِّ دَرْكٍ هَوَتْ جُوليا؟ لا بُدَّ أن الأحوالَ سيِّئةٌ فعلًا. وراقبَ الخادِمةَ تصعدُ الدَّرَج. كانت تخطو صعودًا برِجلِها السليمة، ثُمَّ تُصعِدُ السَّقيمةَ إلى جانِبِها، دَرَجةً دَرَجة. وقد بدا ذلك عملًا شاقًّا، وربَّما مؤلمًا أيضًا. فخالجتْه شَفَقةٌ ما لَبِثَ أن طغى عليها الفُضولُ بشأنِ لِباسِها الغريب. “أأنتِ أعرابيَّة؟”

“لا، سيِّدي”.

“فلِماذا إذًا الحِجاب؟”

“أنا مُشَوَّهة، سيِّدي”.

الأمرُ الذي أزعجَ جوليا، بلا شكّ. فهوَ لم يستَطعْ أن يتصوَّر أنَّ أُختَه تسمَحُ مُجرَّدَ سَماحٍ بوُجودِ خادمةٍ مُشوَّهة في البيت، ناهيكَ بوُجُودِها على

مَقرُبةٍ منها. وثارَ في ذِهنه اثنا عشر سؤالًا، وهو صاعِدٌ الدَّرَج، إلَّا أنَّه التزمَ الصَّمت. فكلُّ ما كان بحاجةٍ إلى معرفته سيَعرِفُه سريعًا من جوليا.

قالَتِ العَبدةُ بصَوتٍ مَهموس: ‘‘كانت نائمةً لـمَّا تركتُها’’. وتَبعَها مَرقُس إلى داخلِ المهجَع. ثُمَّ توقَّفَ تحت قَناطرِ الممرَّات، وراقبَ الخادِمةَ تعرُجُ خارجةً إلى الشُّرفة، وتتقدَّمُ إلى الأريكة فتَنحَني وتتكلَّمُ برِقَّة لئلَّا تُجَفِّلَ السيِّدةَ النائمة.

قالت جوليا بلَهجةٍ ناعِسة: ‘‘زائر؟’’ ودفعَتْ نفسَها إلى النُّهوض. ثُمَّ دارَت قليلًا وسمحَتْ للخادِمة بأن تُساعِدَها على الجُلوس.

تلقَّى مَرقُس مَذهولًا التغيُّرَ في مظهرِ أُختهِ الجسمانيّ. وحدَّقت جوليا إلَيه بعَينَين غائرتَين، مصعوقةً بالمثل، ووجهُها شديدُ الشُّحوب بحَيثُ بَدَت مَنحوتةً من رُخام. فذكَّرَته باليهودِ الجِياع الذينَ وصلوا إلى روما بعدَ المسيرة الطويلة الشاقَّة من مدينة القُدس في أعقابِ سقوطِها. وإذ تذكَّرَ ذلك، تذكَّرَ مرَّةً أُخرى هَدسَّة وما فعلَته أُختُه بها.

قالَت جوليا مُرتَعشةً: ‘‘مَرقُس!’’ ومدَّت يدَها. ‘‘جميلٌ منك أن تأتيَ وتزورَني’’.

هلِ افترضَت أنَّه قد نسِيَ كُلَّ شيء؟

أحسَّت جوليا كُرهَه. كانت قد رأتِ الصَّدمةَ في عَينَيه، وساورَها الرِّضى إلى حين، ظنًّا منها أنَّه ربَّما يشعرُ الآنَ بالأسَى حيالَها ويندمُ على جميع الأمور الفظَّة التي سبقَ أنْ قالَها. أمَّا الآن فرأتْ كم كانت عَيناه باردتَين، ووقفتُه جامدة. فأنزلَتْ يدَها، مُنزعجةً من طريقة تحديقه إليها، وفمُه مَشدود. لقد ألقى نظرَه عليها، دون أثرٍ للرَّحمة في عَينَيه، مُبصِرًا مظاهِرَ الإتلافِ التي خلَّفَها مَرَضُها.

‘‘يبدو أنَّكِ مريضة’’.

هل سَرَّه ذلك؟ رفعَتْ ذَقنَها قليلًا، مُخفيةً تأذِّيَها. ‘‘لكَ أن تقولَ ذلك، وإنْ كان يجبُ ألَّا يُفاجئَكَ الأمر’’. ولـمَّا رفعَ أحَدَ حاجبَيه، ابتسمَتِ ابتِسامةً هَشَّة. ‘‘ألا تتذكَّرُ كَلِماتِكَ الأخيرةَ لي؟’’

‘‘أتذكّرُها جيِّدًا، ولكنْ لا تُهدِري الوقتَ في إلقاء اللَّومَ عليَّ من أجل ما قد حلَّ بكِ. انظُري إلى نفسِكِ. إنَّ الخِياراتِ التي اتَّخَذتِها أكثرُ علاقةً بالوضع الذي تَجدينَ نفسَكِ فيه من أيِّ شيء كان مُمكِنًا أن أقولَه’’.

آذاها عدمُ اكتِراثِه. ‘‘إذًا، جئتَ كي تشمَتَ بي’’.

‘‘جئتُ كي أعرَفَ لماذا لم تُكلِّفي نفسَكِ عناءَ زيارةِ الوالِدة’’.

‘‘الآنَ عرَفتَ’’.

وقفَ مَرقُس صامتًا، والغضبُ يَسري في أوصالِه حِيالَ لامُبالاتِها الطارئة. حتَّى إنَّها لم تسألْ عن حالِ والِدَتِهما. فصرَّ بأسنانه، وتمنَّى لو لم يأتِ؛ لأنَّه لـمَّا رأى أحوالَها الآن، عرَفَ واجِبَه، وساءَه الأمر.

رفعَت جوليا نظرَها إلى المرأةِ المنقَّبة، وقالَت آمِرةً: ‘‘شالي!’’ ومدَّتْ ذِراعَيها قليلًا كي يُسدَلَ الشالُ عليها. وقد رَجَت أن تصفحَ عَزارُ عن

جفائها، غيرَ أنَّها كانت مُضطرَّةً إلى مُراعاةِ المظاهِر. فعليها أن تُنقِذَ كِبرياءَها في مُواجَهةِ ازدراءِ أخيها. إذ لم يتغيَّر أيُّ شيء، وبالأقلِّ هو.

بسطَت يدَها، فبذلَتْ لها عَزارُ المسانَدةَ المطلوبة للنُّهوض عن الأريكة. وابتسمَتْ لِمَرقُس ببُرودة، قائلةً: "أفضَلُ تَلَقٍّ للبُغض أن يلقاهُ المرءُ واقِفًا". ثُمَّ قالت لِعَزار: "لك أن تنصرِفي".

"سأكونُ في الخارج إذا احتَجتِ إليَّ، سيِّدتي".

راقبَ مَرقُس الخادِمةَ المحجَّبة تعرُجُ خارِجةً من الغُرفة. وإذ أغلقَتِ البابَ وراءَها، قال: "اختيارٌ غريبٌ لخادمةٍ شخصيَّة".

أجابت: "لِعَزار الحرِّيَّةُ في أن تجيءَ وتذهبَ كما تشاء". وأرغمَتْ شفتَيها على ابتسامةٍ ساخِرة. لقد أعوَزَها أن ترُدَّ له الضَّربةَ لِقاءَ إيذائها، وعرَفَتِ الطريقةَ الفُضلى للقِيام بذلك. "إنَّها مسيحيَّة، يا مَرقُس. ألا تَجِدُ ذلكَ مَدعاةً إلى السُّخرية على نحوٍ مُستَساغ؟"

فَخَفَقَ الألَمُ على سِيماءِ وجهِه.

ورأتْ أنَّها قد جرحَته، فأحكمَتِ الالتفافَ بالشَّال، إذِ ارتجفَت رُغمَ عَزمِها. لقد أسِفَتْ على تَلميحِها إلى الماضي، ولكنَّها برَّرَت نفسَها بسَبَبِ تصرُّفهِ حيالَها. إنَّه آذاها. فهل توقَّعَ منها أن تثبُتَ وتتلقَّى الأذى؟ ‘‘كيف حالُ الوالِدَة؟’’

‘‘جميلٌ مِنكِ أن تسألي أخيرًا’’.

ضمَّت شفتَيها إحداهُما إلى الأُخرى، مُكافِحةً قَوَّةَ مَوقفهِ الانتقاديِّ الشاحب. كم كان يكرهُها! ‘‘وأين كُنتَ **أنت** هذه الشُّهورَ كلَّها؟’’

لم يُجِبْها. ‘‘ستَكونُ الوالِدةُ أحسنَ حالًا حينَ تَراكِ’’.

‘‘أشكُّ في ذلك’’.

‘‘لا تشكِّي في أيِّ شيءٍ أقولُه لكِ’’.

‘‘هل اقترحَ إيوليوس أن تأتي؟ لا يُمكِنُني أن أتصوَّرَكَ آتيًا من تِلقاء إرادتِك’’. ثُمَّ ضَمَّتِ الشالَ

حولَها وذهبَتْ إلى الحائط.

‘‘أقنعَني إيوليوس بأنَّ الوالِدَة تفتقِدُكِ’’.

فقالَت بضِحكةٍ فظَّة: ‘‘تفتقِدُني؟ هي لا تعرِفُني مُجرَّدَ مَعرِفة. لقد جلسَتْ على ذلك العرش الذي صنعَه لها، سائلةَ اللُّعابِ ومُحدِثةً تلك الأصواتَ الكريهة. لم أستَطع احتمالَ رؤيتِها على تلك الحال’’.

‘‘يُمكِنُكِ أن تُحاوِلي التفكيرَ في ما تشعرُ به الوالدة وما تحتاجُ هي إليه، بدلًا من التفكير دائمًا في نفسِكِ’’.

‘‘لو كنتُ مكانَها، لتمنَّيتُ أن يُعطِيَني أحَدٌ جرعةً من سُمِّ الشَّوكران فيُنهيَ بؤسي!’’

جالَت حَملَقةُ مَرقُس القاتمةُ على جِسمِها النحيل، ثُمَّ رجَعَت إلى عينَيها الغائرتين. ‘‘أكُنتِ تفعلينَ ذلك؟’’

سحبَتْ نفَسَها حِيالَ ما رأتْه في وجهِه بجَلاءٍ تامّ. كانت مريضةً ومائتة، ولم يهُمَّها أيُّ شيءٍ

قَطّ. وفي الواقع أنَّه لم يُساوِرْها أدنى شكٍّ بأنّ مَرقُس كان يتمنَّى لها الموت. فكافحَتِ الدُّموعَ التي أحرقَت عَينَيها. ‘‘ما عَلِمتُ قطُّ أنَّ في وُسعِك أن تكونَ شديدَ البُرودةِ والقساوة هكذا، يا مَرقُس’’.

‘‘سيَكونُ عليَّ أن أقطعَ شَوطًا طويلًا كي ألحقَ بكِ!’’ ثُمَّ مشى إلى الحائط وأسندَ ذراعَه عليه. وإذ نظرَ إليها، التَوى فمُه بسُخرِيَة. ‘‘ماذا جرى لكالاباه وپريمُس؟’’

أمالت رأسَها إلى الوراء، وتظاهرَتْ بأنَّها تستَمتعُ بالنَّسيمِ اللَّطيف. وقالت- كما لو أنَّ الأمرَ لم يهمَّها- ‘‘لقد رحَلا’’.

‘‘في أيِّ حالةٍ من الدَّينِ ترَكاك؟’’

فقالت بمَرَح: ‘‘لا داعِيَ لأنْ تقلقَ عليَّ’’. لقد كان يتمتَّعُ بهَوانِها الكُلِّيّ.

وسرَّحَ بصرَه صوبَ الميناء، قائلًا: ‘‘لستُ قَلِقًا، بل يدفعُني الفُضولُ فحَسْب’’.

فتصلّبَت يداها، مُثبِّتةً نفسَها. ‘‘ما زلتُ أملِكُ هذه الدَّارة’’.

‘‘مُرهَقةً بالدَّين، دونَ شَكّ’’.

كانت كلُّ كَلِمة تفوَّهَ بها شوكةً حادَّة. فقالت بصراحة: ‘‘نعم. أأنتَ راضٍ؟’’

فقال مَرقُس مُصَوِّبًا: ‘‘هذا يُبسِّطُ الأُمور. سأُعنى بنَقلِ أشيائكِ وسَدادِ دُيونك’’.

وإذْ فاجأها ذلك، نظرَتْ إليه، آمِلةً أن يكونَ قد رقَّ تُجاهَها، رُغمَ كلِّ شيء. إلَّا أنَّ عَينَيه بَدَتا قاسِيتَين.

وقال مُتشَدِّقًا: ‘‘سيُفرِّجُ عن الوالِدَة أن تؤويَكِ تحت سَقفِها من جديد’’.

فأخذَتها قُشَعْريرةٌ حِيالَ تعبيره، وتمرَّدَت. ‘‘أفضِّلُ البقاءَ هنا’’.

‘‘لا يهمُّني ما تُفضِّلينَ فَعْلَه. قال إيوليوس إنَّ بالَ الوالدة سَيَستَريح إذا كُنتِ هناك. وهكذا

ستَكونين‘‘.

‘‘أيُّ نفعٍ لها فيَّ؟ أنا مريضة، وإنْ كُنتَ لا تهتمُّ كما هو واضح‘‘.

‘‘أنتِ على حقّ. لا أهتمُّ‘‘.

‘‘أنا مائتة. أتهتمُّ الآن؟‘‘

فضاقَتْ عَينا مَرقُس، ولكنَّه لم يقُل أيَّ شيء.

أشاحَتْ جوليا بناظرَيها عن وجهه الجافي، وتشبَّثَت بالسِّياج بأصابعَ مشحوبة. ‘‘عندَها **أنتَ**. إنَّها لا تحتاجُ إليَّ‘‘.

‘‘إنَّها تُحِبُّ كِلَينا، لسببٍ لا يعلَمُه إلَّا الله وحدَه‘‘.

حدَّقت إليه من خلال دموعها. ‘‘وإذا قلتُ إنِّي لن أذهب؟‘‘

‘‘قُولي لا بقَدْرِ ما تُريدين. لا يهمُّني. اصرُخي. هِيجي ومُوجي. ابكي. إنَّ ذلك لن يُغيِّرَ أيَّ شيء. ليس لك زَوجٌ بَعدُ، أم أنَّ لكِ واحدًا؟ ولا أبٌ

أيضًا. وهذا يُرسي عليَّ كامِلَ الحقّ القانونيّ عليك. لن تَدوسي عليَّ كما دُستِ على الآخرين. فسَواءٌ شئتِ أن أبَيت، سأُعنَى بأن تفعَلي مهما قرَّرتُ. والآن، قرَّرتُ أن أذهبَ بكِ إلى البيت".

ثُمَّ خطا مُبتعِدًا عن الحائط. "سأُرسِلُ شخصًا يحزمُ ما بقيَ لَدَيكِ من أشياء، وسأُعيّنُ خُدَّامًا لتَلبِيَة حاجاتك". واجتازَ الشُّرفةَ بخُطًى واسِعة.

فصاحَت وراءه: "عندي خُدَّامٌ خاصُّونَ بي!"

توقَّف مَرقُس والتفتَ إليها مُحدِّقًا، وقد شُحِبَ وجهُه من الغَضَب. وقالَ من بين أسنانِه: "لن أستقبلَ مأبونَ پريمُس تحتَ سقفي. لقد كُنتِ دائمًا بارِعةً في التَّخَلُّصِ من الخَدَم. فتخلَّصي منه أيضًا. بيعيه. أهديه. حرِّريه. لا يهمُّني ما تَفعَلين، ولكنْ لا تَصطَحِبيه. هل تفهمين؟ أمَّا الأُخرى..."

"أُريدُ عَزار. **أحتاجُ** إليها".

“ستكونُ لَدَيكِ خادِمةٌ أصغرُ سنًّا تُسرعُ عندَ أدنى إشارةٍ منكِ”.

غمرَ الخوفُ جوليا. كانت فكرةُ بقائها بِلا شفقةِ عَزارِ الرقيقة لا تُطاق. “أنا **أحتاجُ** إليها، مَرقُس رجاءً!”

“طالَما احتَجتِ إلى الكثير، أليس كذلك يا جوليا؟ سأهتمُّ بأن يُلبَّى لكِ كلُّ ما تحتاجين إليه”. ثُمَّ دارَ ليَمضي، ماشيًا نحو الباب بخُطًى واسعة.

“سأتوسَّلُ إليكَ إذا أردتَ. إنَّما لا تَصرِفها!”

وبقيَ مَرقُس ماشيًا.

“مَرقُس! **رجاءً**!”

فتحَ مَرقُس البابَ بقوَّة وسفَقَه خلفَه. كان قد سمعَ جوليا قبلًا تَبكي مِرارًا أكثرَ جدًّا من أن تجعلَ قلبَه يرقُّ حِيالَ توسُّلها الدَّامع الآن.

كانت المرأةُ ذاتُ الحجاب واقفةً تحت قنطرةٍ تُطِلُّ على البَريستايْل. فعبرَ إليها وأبلغَها قرارَه بحِدَّة:

‘‘احسبي نفسَكِ حُرَّةً في الذّهابِ إلى أيّ مكانٍ تختارينَه’’. ومشى مُبتعدًا خُطوةً واحدة، مُتلهِّفًا لأنْ يُغادِرَ فيَنتهيَ ذلك كلُّه.

‘‘أختارُ البقاءَ عندَ السيِّدة جوليا’’.

فنظرَ إليها مَرقُس مَدهوشًا. ربَّما كانت مسألةٌ أُخرى تُعرقلُها. ‘‘إذا كانت لَدَيكِ مُشكِلةٌ مُتعلِّقة بالمال، فسأعنى بأن تحصُلي على ما يَكفي لإعالَتِكِ طوالَ ما بقيَ من عُمرِكِ’’.

‘‘ليست مسألةَ مالٍ، سيِّدي. أنا امرأةٌ ذاتُ مَوارِدَ مُستَقِلَّة’’.

ففاجأه ذلك. ‘‘إذًا، أيُّ سببٍ لَدَيكِ للبَقاءِ عندَها؟’’

‘‘لقد قطعتُ لها وعدًا بذلك’’.

‘‘إنَّها لا تَفي بوُعودها’’.

‘‘أنا أفي بوُعودي’’.

كان ذلكَ أبسطَ الأجوبَة، وآخِرَ جوابٍ أرادَ أن يسمَعَه. فقال غاضِبًا: ‘‘افعلِي كما يروقُكِ!’’ ومشى مُبتَعدًا في الرِّواق بخُطًى واسعة.

حملقَتْ هَدسَّة وراءَه. ثُمَّ وضعَتْ يَدَها على قلبِها المتَسارع، وشعرَت بأنَّ في وُسعِها أن تتنفَّسَ من جديد. كان قد ظهرَ على غير توقُّع عندَ الدَّرَجِ الأماميّ. فلو بَعَثَ بَخَبرٍ بشأن قُدومه مُسَبَّقًا، لَربَّما أُتيح لها أن تُهيِّئَ نفسَها، ولَكانَ في وُسعِها أن تُهيِّئَ جوليا. إنَّ فِكرةَ الوُجودِ تحتَ سقفٍ واحِدٍ معَه من جديد غمرَتها بالفَرَحِ والألَم.

ذهبَت إلى الباب وفتَحَتْه. كانت جوليا مُستَلقِيةً على أريكةِ النَّوم تبكي. فجلسَتْ ومدَّتْ ذِراعَيها كطِفلةٍ تحتاجُ إلى العزاء أيَّ احتياج. ‘‘لا تَدَعيهِ يَصرِفكِ. رجاءً!’’

قعدَت هَدسَّة بجانِبها، وشدَّتها إليها بحَنان. ‘‘أنا هنا’’.

قالت جوليا باكيةً: ‘‘لا تتركيني. سأموتُ إنْ تَركتِني’’.

‹‹لنِ أترُكَكِ، سيِّدتي››. ومسَّدت لها شعرَها. ‹‹لن أتركَكِ أبدًا››.

‹‹إنَّه يكرهُني كُرهًا شديدًا جدًّا››.

علمَتْ هَدسَّة أنَّ جوليا كانت على حقّ؛ إذ إنَّها شعرَتْ بالكُره ينبعِثُ منه لحظةَ خطا إلى داخلِ مَهجَع جوليا. فقد رأتْ بَريقَ الكُره القاتمَ في عَينَيه. ‹‹لماذا يكرَهُكِ؟›› أيُّ شيءٍ يُمكِنُ أن يكونَ قد حدثَ فقلَبَ قَلْبَ مَرقُس على أُختٍ سبقَ أن أحبَّها بكُلِّ إعزاز؟

أغمضَت جوليا عَينَيها، وفمُها يرتَعش. ثُمَّ انكفأت، ماسِحةً دُموعها. ‹‹لا أُريدُ أن أتحدَّثَ بالأمر. حدثَ ذلكَ منذُ أمَدٍ بعيدٍ جدًّا، ولكِ أن تحسَبي أنَّه لا بدَّ أن يكونَ قد نَسِيَ الآن››. ثُمَّ تنَشَّقَتْ، والدُّموعُ ما زالَت مُنْسابةً. ونظرَت إلى عَزار، قائلةً: ‹‹لقد قالَ إنَّ عليَّ أن أتخلَّص من پروميثيوس››.

فبرَدَت هَدسَّة وجَمَدَت. ‹‹ماذا تعنينَ بقولكِ «أن أتخلَّص منه»؟››

‘‘أن أبيعَه، أو أفعلَ به ما يروقُني. ولكنَّ پروميثيوس كان لطيفًا تُجاهي. لا أُريدُ أن أفعلَ به أيَّ شيء. إنَّ أخي يحتقرُه لأنَّه كان مأبونَ پريمُس. وقد أبغضَ مَرقُس پريمُسٍ، كما أبغضَ كالاباه أيضًا. وهو يُبغِضُني مِثلَما أبغضَهُما’’.

فأمسكَتْ هَدسَّة يدَها. وقالَت بلُطف- راغبةً في أن تشدَّ اهتمامَ جوليا بعيدًا عن ذاتها- ‘‘سيِّدتي، لقد هيَّأ لكِ الربُّ فُرصةً للقيام ببادِرة إحسان’’.

هدَأت جوليا قليلًا، ونظرَت إليها دامعةً. ‘‘كيف؟’’

‘‘يُمكِنُكِ أن تُحرِّري پروميثيوس’’.

ففكَّرت في الأمرِ لحظةً ثُمَّ عبَّسَت. ‘‘إنَّه يُساوي مبلغًا ضخمًا من المال’’.

‘‘لن تكونَ بكِ حاجةٌ إلى المال الآن، ما دامَ أخوكِ سيتولَّى سَدادَ دُيونكِ وأنتِ ستَعودين إلى بَيتِ أبيكِ’’.

بطريقةِ إفصاحِ عَزارٍ عن الأمر، بدا الوَضعُ مُفعَمًا بالأمل، بَدَلَ أن يكونَ آخرَ الكوارثِ العديدة. فلاكَتْ

جوليا شفَتَها، قائلةً: ‘‘لستُ أدري. ربَّما لا يروقَ الأمرُ مَرقُس، على وجهِ الاحتمال’’. ثُمَّ ضَحِكت ضِحكةً كئيبة. ‘‘ولكنْ عندئذٍ لماذا ينبغي أن أُباليَ بما يعتَقِدُه ما دام لا يُبالي بي كما هو جَليٌّ تمامًا؟’’ ونظرَتْ إلى عَزار بعَينَين مُتألِّقتَين. ‘‘سأفعلُ ذلك. سأُحرِّرُ پروميثيوس’’.

‘‘ستُحرِّرينَ پروميثيوس بدافعِ عِرفانِ الجميل لقاءَ اللُّطفِ الذي أبداه لكِ في أثناء مرضِكِ، وليس لإغاظةِ أخيكِ. وإلّا، حُرِمتِ البَرَكة’’.

فاكفهرَّ وجه جوليا. ‘‘أنتِ مُستاءةٌ منّي’’.

‘‘ضَعي مشاعِرَكِ جانِبًا، وافعلي ما هو صائب’’.

استَولى الصَّمتُ الشديدُ على جوليا إلى حين. ‘‘لستُ أعلَمُ ما هو صائب. لعلّي ما عَلمتُ ذلك يومًا’’. ثُمَّ نظرَت إلى عَزار، فأحسَّتْ دِفءَ روحِها، وأضافَت: ‘‘غيرَ أنّي سأفعلُ ما تَقترحينَه’’.

٤٠

وصلَ خُدَّامُ مَرقُس بعدَ مُغادرَتهِ ببِضعِ ساعات. وأمضَتْ جوليا عصرَ النَّهار تكتُبُ وثيقَةَ إعتاقٍ مُناسِبةً لِپروميثيوس. وما إنْ رجعَ من عمله الذي كان قد وجدَه في المدينة، أيًّا كان، حتَّى دفعَتْ إليه الدَّرْج. ومرَّت لحظةٌ قبلَما أدركَ ما قد أعطَته. فقال مغلوبًا على أمره:"سيِّدتي".

أجابت جوليا ببسمَةٍ راعشة: "لقد كُنتَ خادِمًا صالحًا وأمينًا، يا پروميثيوس. أتمنَّى لكَ الخير". ومدَّت يدَها، فتَناوَلها وقبَّلَها بحَرارة. فشعرَت بسرورٍ لم يسبِقْ أن شعرَتْ بمِثله قَطُّ. "امضِ بسَلام".

رأتْ جوليا عَزار تنتَظِره خارجَ البابِ تمامًا. وبدا كأنَّه موشِكٌ أن يُعانقَها، إلَّا أنَّه تراجَع، إذ حانَتْ منه التِفاتةٌ مُترجرِجةٌ صَوبَها. فقالَ لِعَزارَ شيئًا أكثرَ خُفوتًا من أن تسمعَه جوليا، ثُمَّ غادَر. وقعدَتْ جوليا بوَهَنٍ على أريكةِ نَومِها.

أقبلَتْ عَزار وقعدَت إلى جانبِها.

"لقد فعلتُ ذلك!"

"نعم، فعلتِه". ووضعَت عَزار يدَها فوقَ يدِ جوليا. "كيفَ حالُكِ الآن؟"

"رائعة".

"لقد فعلتِ أمرًا صالحًا، سيِّدتي. إنَّ الربَّ قد رأى ما فعلتِ".

فقالت جوليا مَشدوهةً: "أمرٌ عجيب". وتنهَّدت تنهُّدةً خفيفة. "لا أستَطيعُ أن أتذكَّر أنِّي شعرتُ يومًا بمِثلِ هذه السعادة".

"مَغبوطٌ هو العطاءُ أكثرَ من الأخذ".

فهزَّت رأسَها. "يُخيَّلُ إليَّ إذًا أنَّه يحسُنُ بي أن أتمتَّعَ بهذا الشُّعورِ في أثناءِ المدَّة القصيرة التي سيَدومُ فيها، لأنْ ليس لَديَّ أيُّ شيءٍ بَعدُ أعُطيه. فقدِ انتُزعَ منِّي كلُّ ما لَديَّ".

"لَدَيكِ أُمورٌ تُعطينَها مِقدارُها أكبرُ بكثيرٍ جدًّا ممَّا تُدرِكين". وأرادَتْ أن تقولَ المزيد، إلَّا أنَّ واحِدًا من

خَدَمِ مَرقَس خرجَ إليهما.

قال الخادمُ لجوليا: ‘‘كِدنا نفرَغُ من حَزمِ أمتِعَتِكِ، سيِّدتي. لقد أُحضِرَتْ لك محَفَّة، وأُعِدَّت غُرفةٌ لاستِقبالكِ’’.

فتشبَّثَتْ يدُها بيَدِ هَدسَّة. ‘‘عَزارُ ستَذهبُ معي’’.

‘‘المحفَّةُ لا تتَّسعُ إلَّا لشخصٍ واحِد’’.

‘‘إذًا، أحضِرْ غيرَها!’’

‘‘آسِفٌ، سيِّدتي، ولكنَّ...’’

فقالَت هَدسَّة: ‘‘لا يهمَّكِ! حَسَنٌ جدًّا’’.

‘‘ليسَ حَسَنًا البتَّة! بل هذه مُجرَّدُ طريقةٍ أُخرى يُعاقِبُني بها مَرقُس. إنَّه يُريدُ أن يحولَ دونَ اصطحابي إيَّاكِ’’.

لدى إشارةِ هَدسَّة، انصرفَ الخادم. ثُمَّ التَفتَتْ إلى سيِّدتها. ‘‘سألحقُ بكِ، سيِّدتي. اذهبي،

ولا تَقلَقي’’.

فقالَتْ جوليا، مُتَّسِعةَ العَينَين: ‘‘هل تَعِدين؟’’

‘‘لقد سبقَ أن وعدتُ. كَوني مُطمئنَّة’’. ثُمَّ طوَّقتْ جوليا بِذراعَيها وضمَّتها لحظةً. ‘‘لن أتأخَّرَ كثيرًا’’.

وما إنِ انطلقَتْ جوليا في سبيلِها، حتَّى ذهبَتْ هَدسَّة إلى المختَلى المظلَّلِ الصَّغير في البَريستايْل، حيثُ قال پروميثيوس إنَّه سيكونُ بانتظارِها. فإذِ اقتربَتْ منه، قام.

وفيما هو مُطبِقٌ يدَه على الوثيقة المختومة، قال: ‘‘أنا أعلَمُ أنَّ هذا صنيعُكِ’’.

‘‘إنَّه صنيعُ الرَّبّ’’.

وإذ قعدَ معها، قال: ‘‘لَطالَما حَلَمتُ بالحصولِ على حُرِّيَّتي. أمَّا الآن، فلَستُ مُتَيقِّنًا. إنِّي أُريدُ أن أكونَ حيثُ أنتِ’’.

‘‘ذلك غيرُ مُمكِن، يا پروميثيوس. لقد أصدرَ السيِّدُ

مَرقَس أوامِرَ صارمة".

فبدا الحُزنُ على وجه پروميثيوس، وقال: "آه! أفهَمُ ذلك".

"لقد هيَّأ الربُّ لكَ هذه الفُرصة، يا پروميثيوس". وأخرجَتْ صُرَّةً صغيرةً من ثنايا زُنَّارِها. ثُمَّ أمسكَتْ إحدى يدَيه ووضعَتِ الصُّرَّةَ في كفِّه، قائلة: "هديَّةٌ لِمُساعَدتِكَ على بَدء حياتِكَ الجديدة". وأطبقَتْ يدَه على صُرَّة النُّقودِ الذهبيَّة. ثُمَّ زوَّدته بتَوجيهاتٍ عنِ المكان الذي فيه يَجِدُ الرسولَ يوحنَّا. "اعتَرِف بخطاياكَ الماضية وصِراعِكَ الرَّاهن. وهو سيُعلِّمُك سُلوكَ سُبُلِ الرَّبِّ كلِّها".

"كيف يُمكِنُ أن تكوني مُتَيقِّنةً هكذا؟"

"أُوه، أنا مُتَيقِّنةٌ جدًّا. إنَّ يوحنَّا سيُحِبُّكَ كما يُحِبُّكَ الله. فاذهَبْ إليه، يا پروميثيوس. وإنْ لم تستَطِعْ أن تُشكِّلَ حياتَك على مِثالِ المسيح، فشَكِّلْها على مِثالِ رجُلٍ مشى مع الرَّبِّ لـمَّا كانَ ما يزالُ على هذه الأرض. ولاحِظْ كيفَ يستمرُّ في القيام بهذا الأمر".

قال پروميثيوس: ‘‘سأذهَب، ولكنْ ماذا عنكِ؟’’

‘‘سأبقى عند السيِّدة جوليا ما دامت على قَيد الحياة’’.

‘‘أنا شاكرٌ لها من أجل حرِّيَّتي، سيِّدتي، ولكنَّ هذا كانَ مُجرَّدَ فِعلِ إحسانٍ مَعزول، بعدَ سلسلةٍ طويلة من الفَظائع. نزوةٌ، لا تغيُّرٌ في الخُلُق. فإنِ اكتشفَتْ يَومًا مَن أنتِ، أخافُ أن أُفكِّرَ في ما قد تفعلُه بكِ’’.

‘‘أيَّ خَطَرٍ فِعليٍّ أُواجِهُ، يا پروميثيوس؟ إنَّ نَفسي مِلكٌ لله. جَدِّد ذِهنَك، وتذكَّرْ ما تعلَّمتَه. لا شيءَ يُمكِنُ أن يفصِلَنا عن محبَّةِ الله التي في المسيح يسوع’’. ثُمَّ مسَّت وجهَه برِقَّة. ‘‘ولا شيءَ يُمكِن أن يفصِلنا نحنُ الذين في عائلةِ الله’’.

فوَضعَ يدَه على يَدِها. ‘‘أتمنَّى لو كُنتِ ذاهبةً معي’’.

وأنزلَتْ يَدَها إلى حِضنها. ‘‘أنا حيثُ يجبُ أن

أكون’’. ثُمَّ قامَت على مهل. ‘‘يجبُ أن أذهبَ إلى السيِّدة جوليا’’. وعرجَت نحوَ غُرفةِ الانتظار. فذهبَ پروميثيوس معها، وسار بخُطواتٍ حسبَ خُطواتِها. ورفعَتْ نظرَها إليه فيما عرجَت نحو الباب. ‘‘هل تبقى هنا حتَّى تُباعَ الدَّارة؟’’

قال: ‘‘نعم. ماذا عن أمتعَتكِ؟’’ مُلتمِسًا أيَّ طريقٍ يستَطيعُها لتأخيرِ رحيلها.

‘‘لقد حُزِمَت وأُرسِلَت مع أمتعَةِ جوليا. لم يبقَ لي شيءٌ أحملُه ما عدا هذا العكَّاز’’. ولاحظَتْ قلَقَه العميقَ، فحاولَتْ أن تُطَمئنَه. ‘‘ليسَتْ مسافةً بعيدةً، پروميثيوس. سأُدبِّرُ حالي حَسَنًا جدًّا’’.

‘‘متى سأراكِ ثانيةً يا تُرى؟’’

‘‘سأحضُرُ الاجتِماعاتِ كلَّما أمكَن. سنَرى بعضُنا بعضًا هناك’’.

وكان خائفًا من الانفصال، فقال: ‘‘ليس هذا كافيًا. لقد أبقَيتِني مسؤولًا’’. وعلمَت إلى ماذا لـمَّح.

‘‘قال سُليمان: «توكّل على الرَّبِّ بكُلِّ قلبك، وعلى فهمِكَ لا تعتمِد؛ في كُلِّ طُرُقكَ اعرِفه، وهو يُقوِّمُ سُبُلَك»’’.

‘‘سأُحاولُ أن أتذكَّر’’.

‘‘لا **تُحاوِل**. بَل كَرِّرْ هذا القَول مرَّةً بعدَ مرَّة حتَّى يُنقَشَ على قلبك. وتذكَّرْ هذا أيضًا’’. ثُمَّ تلَت مزمورَ الرَّاعي. ‘‘قُلهُ لي’’. وكرَّرَته معه حتَّى حَفِظَه. ‘‘قُلهُ صباحًا وظُهرًا ومساءً، وضَعه في ذهنِكَ نموذجًا للتَّفكير’’.

فتحَتِ البابَ وخرجَت. وساندَها پروميثيوس إذ نَزَلَتِ الدَّرَج. ولـمَّا وصلا إلى البوَّابة، فتحَها لها. فتمهَّلَتْ ورفعَت نظرَها إليه. ‘‘هل تعرِفُ ماذا جرى فجعلَ السيِّد مَرقُس يكرَه أُختَه كُرهًا شديدًا؟’’

فقال: ‘‘لا. كُنتُ أكثرَ انهماكًا في بؤسي من أن أُلاحِظَ بؤسَ أيِّ شخصٍ آخر. فضلًا عن ذلك، لم يكُن بعدَ زمَنٍ طويلٍ من إرسالكِ إلى ساحةِ المحاربين أنِّي هربتُ’’.

وتنهَّدَت هَدسَّة. ‘‘ليتَني علمْتُ ما جرى بينَهما’’.

‘‘رُبَّما كُنتِ أنتِ السَّبب’’.

فرمقَته بنِظرَةِ تعجُّب. ‘‘ماذا يجعلُكَ تظنُّ ذلك؟’’

‘‘لقد كان مُغرَمًا بكِ، ألم يكُن؟’’

أحزنَتها كَلِماتُه جدًّا، إذ أثارَتْ ذِكرياتٍ حادَّةً. هل أحبَّها مَرقُس فِعلًا؟ ‘‘أعتقِدُ أنِّي كُنتُ فقط مُختلِفةً عن النِّساء اللواتي سبقَ أن عرفَهُنَّ، فوجَدَ في ذلك تحدِّيًا في النَّوع. ولكنِّي لا أعتقدُ أنَّه أحبَّني يومًا بطريقةٍ كان من شأنها أن تَدوم’’. فلو كان قد أحبَّها، أمَا كانَ يُصغي إلى كلامِها عن الرَّبّ؟

تذكَّرَت بَوحَ مَرقُس لها بحُبِّه في مَهجَعِ جوليا. وتذكَّرَت غضبَه لـمَّا رفضَتْ أن تتزوَّجَ به. لقد جرحَت كِبرياءَه، لا قلبَه. وبسببِ ذلك، شتمَها وانصرف. ولم ترَه ثانيةً حتَّى يومَ اصطدمَ بها خارجَ الحمَّامات العموميَّة. وما خطرَ في بالِها قطُّ أنَّها ستَراه مرَّةً أُخرى بعدَ ذلك. أمَّا الآن، فهي ستُقيمُ

تحتَ سَقفِه. فاستَولى عليها الذُّعر... وتأثّرٌ مُقلِق. ربَّما لم يحبَّها مَرقُس قطُّ حقًّا؛ أمَّا هي فما تَزالُ مُغرَمةً به.

وقال پروميثيوس: ‘‘اعتقدَ پريمُس أنَّ مَرقُس ڤاليريان أحبَّكِ. وكان من عادته أن يسخَرَ من السيِّدة جوليا سُخريةً مُهينةً بشأنِ ذلك. فكان يقولُ إنَّ السيِّدَ مَرقُس قد جاء لرؤيةِ عَبدةٍ، لا أُختِه’’.

‘‘لم يكُن ذلك صحيحًا. لقد كان مُخلِصًا لجوليا. إنَّ مَرقُس أحبَّ أُختَه دائمًا. لقد أحبَّها حُبًّا شديدًا’’.

‘‘لم يعُد يُحِبُّها’’.

فلاذَت بالصَّمت، مُتسائلةً. ‘‘قد يُحبُّها من جديد’’. ثُمَّ مدَّتْ يدَها ومسَّت ذِراعَ پروميثيوس. ‘‘ستَشمَلُكَ صَلَواتي كُلَّ يوم. اثبُتْ في الرَّبّ!’’

‘‘سأثبُت’’.

‘‘هو سيَحميك’’. ثُمَّ مَطَّتْ قامَتَها وعانقَته. ‘‘أنتَ أخي العزيز، پروميثيوس. إنّي أُحِبُّكَ كثيرًا

جدًّا".

فأجابَ بصَوتٍ أجَشَّ- غيرَ قادرٍ أن يقولَ المزيد- "أنا أُحِبُّكِ أيضًا". وقدِ اغرَورَقَت عَيناه.

أفلتَته هَدسَّة وخرجَت من البوَّابة. فأغلقَها وراءَها، وأسندَ جبينَه إليها. "اللهُمَّ، احمِها. يا ربُّ، كُن معها". ثُمَّ دارَ ومَشى صاعِدًا الدَّرَجَ المؤدِّيَ إلى الدَّارة المهجورة، مُكرِّرًا ما قد علَّمَتهُ إيَّاه.

"الرَّبُّ راعيَّ؛ فلا يُعوِزُني شيء..."

٤١

بينَما كان مَرقُس خارجًا من التِّريكلينيوم مع إيوليوس، أدخلَ أحَدُ الخَدَمِ المرأةَ المحجَّبةَ إلى غُرفةِ الانتظِار. فقال إيوليوس هَمسًا ‘‘رافا!’’ بسُرورٍ مُقتَرِنٍ بالدَّهشة، ثُمَّ تقدَّم نحوها، تاركًا مَرقُس واقفًا وَحدَه.

كانتِ المرأة تتوكَّأُ بشِدَّة على عُكَّازها، إلَّا أنَّها مدَّت يدَها مُحَيِّيةً. ‘‘إيوليوس، أنت تبدو بخَير. كيفَ حالُ السيِّدة فيبي؟’’

‘‘كما كانت لـمَّا غادَرتِ. لم نتوقَّعْ حُضورَكِ هذا المساء. إنَّ السيِّدة فيبي قد أخلدَت إلى النَّوم’’.

‘‘أنا في خِدمَةِ السيِّدة جوليا’’.

‘‘أنتِ هي الخادِمة؟ لقد قالَتِ السيِّدةُ جوليا إنَّها تَنتظِر خادِمةً شخصيَّة، ولكنِّي لم أخمِّنْ قطُّ...’’

‘‘وما كانَ ينبغي لكَ ذلك’’.

‘‘كيفَ اتَّفقَ أنْ حصلَ هذا؟’’

‘‘لقد جمعَنا الربُّ معًا. أينَ هي؟’’

‘‘كانَت مُرهَقةً لـمَّا وصلَت. طلبَ السيِّدُ مَرقُس أن تُقدَّمَ إليها خَمر. لقد تفقَّدتُها قبلَ قليل، فكانَت نائمة’’.

ثُمَّ أقبلَ مَرقُس، مُبتَسِمًا ابتِسامةً ساخِرَة. ‘‘كما خمَّنتِ على وجهِ الاحتمال: لقد سكِرَت حتَّى دخلَت في غيبوبة’’.

تسارَعَ قلبُ هَدسَّة عندَ سماع صَوتِه ووَقعِ تقدُّمِه. وإذ وقفَ أمامَها، رفعَتْ نظرَها إليه. ‘‘مساءُ الخَير، سيِّدي’’.

فتأمَّلَها بفُتور. ‘‘لم أتوقَّع مجيئَكِ’’.

‘‘قلتُ لكَ إنِّي سأجيء’’.

‘‘نعم، أتذكَّر’’. وتجهَّمَ، شاعرًا بِوَخزةِ انزِعاج. ‘‘خِلتُ أنَّكِ ستَجيئين غدًا أو بعدَ غد’’.

‘‘من بَعدِ إذنِكَ، سأصعدُ إليها الآن’’.

‘‘كما تَشائين’’.

فعرجَت نحوَ الدَّرَج. وكان واضِحًا أنَّها كانت مُتعَبةً ومُتألِّمة.

قال إيوليوس: ‘‘رافا، مهلًا!’’ ثُمَّ ذهبَ إليها. وتكلَّمَ إليها بصوتٍ أخفَّ من أن يسمعَه مَرقُس. ووضعَتْ يدَها على ذِراعه. فهزَّ إيوليوس رأسَه والتَقَطَها بينَ ذِراعَيه. وراقبَه مَرقُس يحمِلُ المرأةَ على الدَّرَجِ صُعودًا.

وإذِ استاءَ مَرقُس من قُدومها، دخلَ البِريستايْل، حيثُ قعدَ في المختلى المظَلَّل الذي كثيرًا ما كان قد شاركَ هَدسَّة فيه، وأسندَ ظهرَه إلى الحائط. ثُمَّ أغمضَ عَينَيه، وأصغى إلى النَّافُورة. لقد حيَّرَه أمرُ المحجَّبة، إذ جعلَتْه مُنزعِجًا.

سمعَ وَقْعَ خُطًى على الدَّرَج نُزولًا. ففتحَ عَينَيه، وجلسَ إلى الأمام. ‘‘إيوليوس، أوَدُّ أن أُكلِّمَك’’.

عَبَرَ إيوليوس البِريستايْل بخُطًى واسعة. وما إنْ

وصلَ حتَّى قال: ‘‘لقد مَشَتْ إلى هنا’’. وقد كان في لهجته أثَرُ اتِّهام.

اِكفَهَرَّ وجهُ مَرقُس. ‘‘كانَ مَمكِنًا أن أُرسلَ محَفَّةً لإحضارِها غدًا’’.

‘‘سمِعتُ أنَّها تركَتْ أَلِكسَندر ديموسيدِس أماندينُس، ولكنْ لم تكُنْ لديَّ أدنى فكرة أنَّها كانت في خِدمة السيِّدة جوليا. أمرٌ مُذهِل!’’

‘‘لماذا؟ مَن هيَ حتَّى يهمَّ أيَّ شخصٍ أينَ تكونُ وماذا تفعل؟’’

‘‘هيَ رافا!’’ ثُمَّ أومأ لإحدى الخادِمات وطلبَ منها أن تصعدَ بصينيَّةِ طعامٍ إلى غُرفة السيِّدة جوليا.

فقالَتِ الفتاةُ بدَهشةٍ بهيجة: ‘‘أُوه! رافا هنا؟’’

ونظرَ مَرقُس إليها. هل كانَ أهلُ البيتِ جميعًا على عِلمٍ بأمرِ هذه المرأة؟

قال إيوليوس: ‘‘صحيح، وستَبقى مع السيِّدة

جوليا آمَدًا غيرَ مُحدَّد. لِتُنقَلْ آريكةُ نَومٍ إلى مَهاجِعِها، واهتمِّي بأن تتوافرَ أغطيةٌ مُدفِئةٌ كثيرة. لم تطلُبْ رافا كِماداتٍ ساخنةً، ولكنِّي أعتقدُ أنَّها تُعاني ألـمًا شديدًا من جرَّاء قَطعِها المسافةَ الطويلةَ من دارة السيِّدة جوليا مَشيًا".

فانزعجَ مَرقُس من ذِكرِ مَشيِها ثانيةً، وقالَ ببُرودة: "قولي لها إنَّ لها الحرِّيَّةَ في استعمالِ حمَّاماتنا".

قال إيوليوس: "شُكرًا لك، سيِّدي. أنا مُتَيقِّنٌ بأنَّها ستكونُ شاكرةً جدًّا".

فحدَّقَ مَرقُس إليه مَشدوهًا.

وقالَ إيوليوس للفتاة الخادمة: "أمرٌ واحِدٌ بعد، يا لاڤنِيا. لقد طلبَت ألَّا يُعلَمَ أيُّ غريبٍ بأنَّها هنا. قولي للآخَرِين. إنَّها لا تُريدُ أن يُعيقَ أيُّ شيءٍ عِنايتَها بالسيِّدة جوليا".

"سأقولُ للجميع". وأسرعَتِ الفتاةُ مُبتَعِدةً، وقد بدا عليها أثَرُ تأثُّرٍ بالغ لم يفُت مَرقُس.

قال مَرقَس بجَفاف: ‘‘يُخيَّلُ إلى المرء أنّ البُروقُنصُلَ قد دخلَ هذا البيتَ توًّا، لا عَبدةٌ عرجاءُ مُحجَّبة!’’

فنظرَ إيوليوس نِظرةً تنمُّ عن ارتباك. ‘‘أمِنَ الممكنِ ألَّا تكونَ قد سمِعْتَ بها قطُّ؟’’

‘‘لقد كنتُ في سَفرةٍ بعيدة، يا إيوليوس. هل تذكُر؟ ثُمَّ إنَّ لديَّ أسئلةً كثيرة. وهذا أوَّلُها: مَن تكون؟’’

‘‘إنَّها شافيَة. سَمِعتُ بها في السُّوق بُعَيدَ إصابةِ والِدَتِكَ بالشّلل. قِيلَ إنَّ رافا تستطيعُ أن تشفيَ بمُجرَّدِ لمسةٍ من يَدِها. فأرسلْنا إليها بِالْتِماسٍ نطلُبُ حضورَها’’.

‘‘منَ البَديهِيّ أنَّها ليسَت صانِعةَ المعجزات التي اشتُهِرَت بكونِها إيَّاها، وإلَّا كانت أُمّي قد قامَت وجالَتْ ماشيةً ومُتكلِّمةً’’.

فقالَ إيوليوس بسُرعة: ‘‘لم تدَّعِ رافا ادِّعاءاتٍ من أيِّ نَوع، سيِّدي. ولكنْ هي التي أقنعَتْنا بأنَّ

والِدتَكَ كانت تفهَمُ ما يجري حَوالَيها. أمَّا الأطبَّاءُ الآخَرون الذين حَضَروا، فقالوا كلُّهم إنَّ الحلَّ الأفضلَ هو إنهاءُ بؤسِها بجَرعةٍ من سُمِّ الشَّوكران".

وفَتَرَ انفِعالُ مَرقُس. "أكمِل".

"كذلك الطبيبُ الذي اصطحبَ رافا اقترحَ أيضًا القتلَ الرَّحيم. أمَّا رافا، فاعترضَت. لقد أصرَّت على أنَّ والدَتَك كانت **واعيةً**، أنَّ عقلَها ما زال ناشِطًا رُغمَ هُمودِ جسمِها. آنذاكَ واجَهَنا مأزِقٌ مُروِّع، سيِّدي. ماذا كان الأفضلَ لوالِدَتك؟ أفي وسُعِك أن تتصوَّر أيُّ عَذابٍ في أن يكونَ المرءُ حبيسَ جِسْمٍ لا يُجدي نفعًا؟ لقد لمحتُ في عَينَي والِدَتِك خَوفًا ويأسًا شديدَين، ولكنِّي لم أعلَمْ هل كانت تَدري ولو قليلًا بما يجري حَوالَيها. لقد أصرَّتْ رافا على أنَّها كانت تَدري، وأنَّه ينبغي أن تعيش. ثُمَّ طلبَتْ أن تُترَك وحدَها معها ولـمَّا أدخلَتْنا إلى المهجَع من جديد، كانت أُمُّكَ كما هيَ الآن. فمَهما كان ما قالَته رافا أو فعلَته، فقد أعطى والِدتك رجاءً. وعلى قَدْرٍ مُساوٍ في الأهمِّيَّة، أعطَتها رافا غايةً في الحياة".

فأذهلَ مَرقُس كلُّ ما سمعَه، وسأل: ‘‘أيَّ غاية؟’’

‘‘إنَّها تُصَلِّي. بِلا انقِطاع، سيِّدي. فمن لحظةِ استِيقاظِها وحَمْلِها إلى الشُّرفة، حتَّى المساء عندَ حملها إلى سريرها من جديد، هيِ تُصَلِّي. ودون شكّ، منذُ رُجوعِكَ إلى البيت، أمضتْ معَكَ أوقاتًا أكثر’’.

‘‘هل تُلَمِّحُ إلى أنِّي أتدخَّلُ في **عملها**؟’’

‘‘لا، سيِّدي. سامحْني إذا أسأتُ التعبيرَ عن مُرادي. فأنت هنا استِجابةَ صلواتٍ كثيرةٍ رفعَتْها والِدتُك. إنَّ رجوعَك إلى الدِّيار قد أسهم في تَوطيدِ إيمانِها وتشديدِه. أنتَ بُرهانٌ ملموس على أنَّ الله يسمَعُ صَلَواتِها ويستجيب’’.

نهضَ مَرقُس عنِ البَنكِ الرُّخاميّ، وسيماؤه مُلبَّدة. ‘‘هلَّا تُسامِحُني إذا كانتِ الشُّكوك ما تزالُ تُساوِرُني بشأنِ هذه المرأة المنقَّبة! لقد نادَتها السيِّدة جوليا باسمِ عَزار، لا رافا. فربَّما لم تكُن هي الشَّخصَ نفسَه الذي تتكلَّمُ بشأنه.

إنَّها مُمارَسَةٌ شائعةٌ إلى حدٍّ بعيد أن تتحجَّبَ بعضُ النِّساء، وأنا على يقين بأنَّ بينَهُنَّ بِضعَ عَرجاوات''.

''أنا مُتيقِّنٌ بأنَّك على حقٍّ، سيِّدي. ولكنْ لا شكَّ بأنَّها هيَ نفسُها. إنَّ هيئةَ رافا أقلُّ شأنًا ممَّا يشعرُ المرءُ به في حضورها''.

فعبَّسَ مَرقُس. ''بِمَ يشعُرُ المرء؟''

''صعبٌ أن أُفسِّر''.

فقال مَرقُس بتهكُّم: ''حاوِل''.

''الثِّقة. اليقين. العزاء''. ثُمَّ بسطَ يدَيه. ''بطريقةٍ عجيبة، يُعطي إيمانُها بالله المرءَ ثقةً به أيضًا، حتَّى لو كان من أُولئكَ الذين لا يؤمنون''.

''ألا تؤمِنُ أنت؟''

''بفَضلِ إيمانِ والِدَتِك، بِتُّ أُومِن. ولكنْ تمرُّ أوقاتٌ فيها يعتَريني الشَّكّ''.

فهِمَ مَرقُس القليلَ فقط. إنَّه يؤمنُ الآنَ بأنّ يسوعَ قد جاء إلى الأرض، وأنَّه سمحَ بأن يُصلَبَ كفَّارةً عن خطيَّة الإنسان، وأنَّه قامَ حيًّا مِن بينِ الأموات. غيرَ أنَّ مَرقُس واجهَ صُعوبةً في الإيمانِ بأنَّ المسيحَ يسودُ سيادةً تامَّة. فإنَّ العالَمِ مَشحونٌ شرًّا.

وهذه الشُّكوكُ ذاتُها أثارَت توجُّسَه الحذر.

"على الرُّغمِ ممَّا تقوله، يا إيوليوس، لستُ ميَّالًا كثيرًا إلى السَّماحِ بوُجودِ غريبةٍ في وسطِنا، ولا سيَّما واحدةٍ غامضة كهذه".

"أنا على يقينٍ بأنَّ لَدَيها أسبابًا وجيهةً لتغييرِ اسمِها".

"ماذا يُمكنُ أن تكونَ تلك الأسباب".

"إنْ أنتَ سألتَها، فيَقيني أنَّها ستَشرَحُ لك".

٤٢

راغَت من مَرقُس فُرصَةُ التكلُّمِ إلى رافا-عَزار. إذ كان خَبَرُ رُجوعِه إلى أفسُس قد بلغَ وُكلاءَه، فجاءوا كي يَرَوه، آتين بسِجِلّاتِ الصَّفقات التجاريَّة التي أجرَوها في أثناء غيابه. وأمضى الأيَّامَ القليلةَ التالية معهم من الصَّباح حتَّى المساء في البيبليوتيكا. وقد ناشدوه بإلحاحٍ أن يتولَّى إدارةَ الدَّفَّةِ من جديد.

قالَ واحِدٌ مِنهم: ‘‘إنَّ فُرَصَ كسبِ المال واسعةٌ الآن، سيِّدي، ولطالما أثبتَتْ قُدراتُكَ الطَّبيعيَّة أنَّها صائبةٌ كلَّ حين؛ حيث إنَّ الأشياءَ التي تفوتُنا تكون غايةً في الجلاء في نظرِك’’.

لقد أغرى مَرقُسَ طَبعُه ومَيلُه الخاصَّانِ بأن يتشبَّثَ بالفُرَصِ التي لاحَت له في التقارير المقدَّمة إليه. فَسيَكونُ سَهلًا عليه تمامًا أن يدخُلَ ميدانَ التِّجارة مُجدَّدًا ويُركِّزَ اهتمامَه على أُمورٍ أُخرى غيرَ المشكلات في عائلته. إنَّ مُجرَّدَ إصغائه إلى وُكلائه ومُراجَعته للتَّقارير جعلَ ذِهنَه

يَطِنُّ بأفكارٍ حول الطريقة التي يزيدُ بها ثَراءه.

غيرَ أنَّ صَوتًا خفيفًا ما في رأسه جعلَهُ يُقاومُ مَيلَه إلى الانكبابِ مُجدَّدًا على جَمع المال. ماذا كانَ دافِعُه؟ إنَّه يَملِكُ ثَروةً كافيةً للبَقاءِ عُمرًا بكامله. ثُمَّ إنَّ أُمَّه تحتاجُ إليه.

وما تزالُ هناك أيضًا مسألةُ جوليا غيرُ المحلولة.

لقد أقضَّ ضميرُه مَضجعَه باستِمرارٍ من جِهَةِ أُختِه، فيما أبقاهُ العَقلُ بعيدًا. فكلَّما صَعِدَ الدَّرَج، شعرَ بالحافزِ إلى رؤيةِ أُختِه، إلى محادثَتِها بشأنِ ما جرى له في فلسطين. وفي الوقت نفسِه، ذكَّرَه صَوتٌ آخَر ما فعلَت جوليا بهَدسَّة.

"هَه! قُضيَ الأمر". هكذا قالَت أُختُه، وقد شوَّهَ وجهَها الـمَرَحُ والبُغض. وإذا به يتذكَّرُ من جديدٍ جسمَ هَدسَّة مَطروحًا على الرَّمل.

كانَ مُتعَبًا اللَّيلة. لقد أمضى مُعظمَ عَصرِ النَّهار مع أُمِّه. وقد أتعبَه وَقْعُ صَوته بذاتِه، وأرهقَه أن يُفكِّرَ في أشياءَ سارَّةٍ يقولُها لتَسلِيَتها. وهي

حدَّقَت إليه بطريقةٍ جَعَلَتْه يتَساءلُ هل فَهِمَت مشاعِرَه الأعمق، تلكَ التي حاولَ مُستَميتًا أن يستُرَها.

وبينَما مرَّ بمَهجَعِ جوليا لِيهبِطَ الدَّرَجَ إلى التِّريكلينيوم لأجلِ عشاءٍ بسيط، إذْ أحسَّ الحافزَ يُخالِجُه من جديد. كان البابُ مفتوحًا، وسمعَ صَوتًا خافتًا. فتمهَّلَ، وألقى نظرةً إلى الداخِل.

كانت أُختُه جالِسةً بانحِرافٍ على أريكةِ نَومِها، فيما جلسَتِ المحجَّبةُ وراءَها، تُمسِّدُ لها شعرَها بتَربيتاتٍ طويلة ورقيقة. وكانت تتكلَّم إلى أُختِه. فأغمضَ عَينَيه بإحكام، لأنَّ المشهدَ ذكَّره بهَدَسَّة على نحوٍ مؤلم. ثُمَّ فتحَ عينَيه من جديد، وراقبَ عَزار تخدِمُ جوليا. لقد سبقَ له أن رأى هَدسَّة تُمسِّدُ شعرَ جوليا بمثلِ هذه التَّربيتاتِ المتأنِّية، مُرتِّلةً بعض مَزاميرِ بني شعبها. فتوجَّعَ قلبُه حنينًا.

اللَّهُمَّ، ألَن أنساها أبدًا؟ أهذه طريقتُك في مُعاقَبتي على دَوري في الأمر؟

وقفَ في مدخلِ الباب، وقد غمرَه الرُّعبُ حيالَ كونِ شيءٍ عاديٍّ كهذا قد أثارَ فيه وَجَعًا بالغًا على هذا النَّحو. كم من الزَّمن سيَستَغرِقُه الحبُّ حتَّى يؤول إلى الأُفول، والذِّكرَياتُ حتَّى يكون قادرًا على احتمالها؟ وهل شعرَتْ جوليا بأيِّ نَدَمٍ على الإطلاق؟

أدارَتِ المحجَّبةُ رأسَها قليلًا. وإذ رأتْه، أنزلَتِ الفُرشاةَ إلى حِضنها. ‘‘مساءُ الخير، سيِّدي’’.

والتفتَتْ جوليا بحِدَّة، فرأى كم كانت شاحِبة.

أجاب: ‘‘مساءُ الخير’’، مُحافِظًا على صَوته فاترًا وتحتَ السَّيطرة.

قالت جوليا- بعَينَين مُتَوسِّلتَين- ‘‘ادخُل، يا مَرقُس’’.

وأوشَك أن يُلبِّيَ دعوتَها، ثُمَّ أوقفَ نفسَه. ‘‘لا وقتَ لَدَيَّ هذا المساء’’.

‘‘متى سيتَوافَرُ وقتٌ لَدَيك؟’’

فرفعَ حاجبَيه حِيالَ لهجتِها المشاكِسة، وصرفَ انتِباهَه نحوَ خادِمَتِها. ''ألَدَيكِ كلُّ ما تحتاجينَ إليه؟''

''لمَ لا تسألُني **أنا**، يا مَرقُس؟ نعم، أيُّها السيِّد الأكرَم، لَدَينا جميعُ أسبابِ الراحةِ **المادِّيَّة** التي قد نحتاجُ إليها''.

فتَجاهَلَها وتكلَّم إلى عَزار ببُرودة. ''بعدَ أن تُغَطِّي سيِّدتَكِ في سريرها لِتنامَ ليلتَها، تعالَي إلى البِبليوتيكا لأراكِ؛ فعندي بِضعةُ أسئلةٍ تحتاجُ إلى إجابة''.

فاستَفسرَت جوليا: ''أيُّ أسئلة؟''

وتساءلَت هَدسَّة أيضًا، خافِقًا قلبُها بتَسارُعٍ أشدَّ بَعدُ. وقد وقفَ مَرقُس في البابِ جامِدًا، يُحدِّقُ إليها بعَينَين قاسِيتَين قاتِمتَين.

وأحسَّت جوليا تَوتُّرَ عَزار. ''ليسَ عليكِ أن تُخبِريه بأيِّ شيء، يا عَزار. ليسَ لكِ أدنى علاقةٍ بأخي''.

‘‘ستُجيبُني، أو تُغادِرَ هذا البيت’’.

وإزاءَ بُرودته، انهارَ انضِباطُ جوليا الطَّفيفُ، فصاحَت: ‘‘لماذا أعدتَني إلى هنا، يا مَرقُس؟ كي تجعلَ حياتي لا تُطاقُ أكثرَ ممَّا هي عليه أصلًا؟’’

فإذ غَضِبَ مَرقُس حِيالَ اتِّهامِها، غادرَ مدخلَ الباب وتوجَّهَ ليَمضِيَ في الرِّواق.

‘‘مَرقُس، ارجعْ! أنا آسِفة، مَرقُس!’’

إلَّا أنَّه ظلَّ سائرًا. كم مرَّةً من قَبلُ بَكَتْ حتَّى تجريَ الأُمورُ على طريقتِها؟ لكنْ ليسَ هذه المرَّة! لن يحصُلَ ذلكَ مرَّةً أُخرى. فأغلقَ قلبَه دونَها، ومضى هابطًا الدَّرَج.

كان الطبَّاخُ قد أعدَّ وجبةً شهيَّة، ولكنَّ مَرقُس لم تكُن له قابليَّة. فذهبَ إلى المكتبة مُنزعِجًا، وحاولَ أن ينصرِفَ بكُلِّيَّته إلى مُراجَعة السِّجِلَّات التي تركها وكلاؤه عندَه. أخيرًا. أزاحَها جانبًا بضِيقِ صَدْر، وجلسَ يُحدِّقُ أمامَه باكتئاب، جائشَ

المشاعر.

تمنَّى لو لم يُرجعْ جوليا إلى البيت. كان في وُسعهِ أن يسُدَّ دُيونَها، ويُعنَى بأن يكونَ لها الخُدَّامُ الذين تحتاجُ إليهم، ويتركها في دارتها.

‘‘سيِّدي؟’’

رأى مَرقُس المرأةَ المحجَّبة واقفةً في مدخلِ الباب. فصرفَ ذِهنَه عنِ الذِّكرَياتِ القاتمة إلى المشكلة الراهنة.

قالَ آمِرًا:‘‘اقعُدي!’’ وأشارَ إلى المقعَدِ المقابِل له.

فقعدَت. ووجدَ أنَّ الأمرَ مُفاجئٌ أن تتمكَّنَ عَرجاءُ من التحرُّكِ برشاقةٍ بالِغة. فقد جلسَتْ مُستَقيمةَ الظَّهر، مُميلةً جِسمَها قليلًا لِيُتاحَ لها أن تمدَّ رجلَها السَّقيمة.

وقالَ مُحدِّدًا: ‘‘قالَ لي إيوليوس إنَّ اسمَكِ رافا، لا عَزار’’.

فعضّت هَدسَّة شَفَتَها، وادَّةً لو تسنَّى لها أن تُسَكِّن الارتعادَ الذي يَعتَري مَعِدتَها كلّما كانت في حَضرة مَرقُس. كانت قد حاولَتْ إعدادَ نفسها لهذه المقابَلة، ولكنَّ جُلوسَها معه هنا في هذه الغُرفة الصغيرة على مسافةٍ قريبة غمرَها بالذُّعر.

‘‘رافا هو الاسمُ الذي كُنتُ أُدعى به، سيِّدي. ومعناه في العِبريَّة «الشَّافِية»’’.

تكلَّمتْ بصَوتٍ هادئٍ أجَشَّ ذكَّرَه على نحوٍ سارٍّ بِدَبُورة. أكانت هي اللَّهجة؟

‘‘أنتِ إذًا يهوديَّة. فَهِمْتُ من جوليا أنَّكِ مسيحيَّة’’.

‘‘أنا كِلتاهُما، سيِّدي. فمِن حيثُ الجِنس، أنا يهوديَّة. ومن حيثُ الاختيار، أنا مسيحيَّة’’.

ورُغمَ كَونه دفاعيًّا دائمًا، بادرَ إلى الهُجوم. وقدِ الْتَوى فمُه بابتِسامةٍ فاترة. ‘‘هل يضعُكِ هذا على صعيدٍ أعلى من مَوقعِ والِدَتي التي هي

مسيحيَّةٌ أمَميَّة؟’’

صعقَها سؤالُه الاتِّهاميُّ، حتَّى غمرَها الفَزَع. وما لبِثَت أن قالَت مُفَسِّرةً بسُرعة: ‘‘ليس في المسيح يهوديٌّ أو رومانيّ، ولا عَبدٌ أو حُرّ، ولا ذَكَرٌ أو أُنثى. فنحنُ جميعًا واحدٌ في المسيح يسوع’’. ثُمَّ مالت إلى الأمام قليلًا، وقد رقَّ صَوتُها كما لو كانت تبتَغي طمأنتَه. ‘‘إنَّ إيمانَ والدَتِكَ يجعلُها ابنةً لإبراهيم، شأنُها شأني تمامًا، سيِّدي. فأيُّ شخصٍ يختار، يصيرُ وارثًا للوعد. فالله لا يتَحيَّز’’.

سكَّنَت كلماتُها هواجسَه. ‘‘بقولِكِ «أيُّ شخصٍ» تَعنينَني أنا’’.

‘‘نعم، سيِّدي’’.

وأوشكَ أن يقولَ إنَّه قد قَبلَ الربَّ في الجليل، إلَّا أنَّ الكِبرياءَ منعَته. ‘‘قِيلَ لي إنَّكِ أنقذتِ حياةَ أُمِّي’’.

‘‘أنا، سيِّدي؟ لا!’’

‘‘قال إيوليوس إنّ الطبيبَ الذي صَحِبَكِ اقترحَ أن تُنهَى حياةُ أُمّي بجرعةٍ من سُمِّ الشَّوكَران. وقد توسَّطتِ من أجلها. أليسَ كذلك؟’’

‘‘إنَّ أُمَّكَ على قَيدِ الحياة لأنَّ مشيئةَ الله قَضَت بذلك’’.

‘‘ربَّما كان الأمرُ كذلك، ولكنَّ إيوليوس قال إنَّ أُمّي تغيَّرت بعدَما خَلَوتِ بها وحدَكِ’’.

‘‘لقد تكلَّمتُ إليها’’.

‘‘تكلَّمتِ فقط؟’’

كانت هَدسَّة شاكرةً من أجل الحِجابِ الذي أخفى الحرارةَ التي ارتفعَتْ إلى وجهِها. فعلى خِلافِ ما فعلَت أمامَ فيبي، علمَت أنْ ليسَ في وُسعِها بتاتًا أن تُريَ مَرقُس وجهَها. وإنَّها لَتُفضِّلُ أن تُرسَلَ إلى ساحَةِ المحاربين ثانيةً على أن تراهُ ينظُرُ إلى نُدوبِها نِظرةَ الاشمئزازِ ذاتها تلك التي سبقَ أن رأتها في وُجوه الآخرين.

ومن ثَمَّ قالَت: ‘‘لم أرقِ أيَّةَ رُقيَة، ولا تفوَّهَتُ بأيَّة

عباراتٍ سحريَّة’’، ظانَّةً أنّ ذلكَ يُجيبُ عن السؤالِ الكامنِ وراءَ كلماتِه.

فرفعَ يدَه، وقد استَطاعَ أن يُحِسَّ تَوتُّرَها المتزايدَ، إلَّا أنَّه لم يستَطعْ أن يستَجْليَ سببَه. ‘‘لستُ أسوقُ أيَّةَ تُهَم، يا عَزار. إنَّما أنا راغبٌ في المعرفة فحَسْب؛ لأنِّي أرُيدُ أن أعرف شيئًا ما عن الأشخاص الذين في بَيتي’’.

ظلَّتْ صامتةً إلى حين. ‘‘عَلمتُ لـمَّا نظرتُ في عَينَي والدَتِكَ أنَّها واعية. فقد سمعَتْ ما كانَ يُقالُ وفَهِمَت. وكانت خائفةً ومُتضايقةً جدًّا بشأنِ حالَتِها. أعتقِدُ أنَّه كان من شأنِها أن تشربَ بطيبِ خاطرٍ الشَّوكَران الذي قدَّمَه ألِكسَندر لا لِسَبَبٍ آخرَ سوى تَوفيرِ مسؤوليَّة الاعتِناء بها على الآخرين. وأنا إنَّما قلتُ لها ما كانَت تعرفُه أصلًا’’.

‘‘ماذا كانت تَعرف؟ ماذا كان ذلك؟’’

‘‘أنَّ الله يحبُّها، سيِّدي، كما هي. وأنَّها حيَّةٌ لِغايَةٍ ما’’.

أجرى مَرقُس يدَه على حافَةِ طاوِلَةِ الكِتابة، وأفكارُه في جَيَشان. لقد أرادَ أن يعرف المزيدَ عن هذه المرأة. ‘‘قالَ لي إيوليوس إنَّكِ كُنتِ مشهورةً في أفسُس’’.

فلَم تَنبِس هَدسَّة بكلمة.

‘‘لماذا تخلَّيتِ عن مَنصِبكِ؟’’

فاجأتها فَظاظةُ سؤاله. ‘‘اختَرتُ أن أكونَ معَ أُختِك’’.

‘‘هكذا فحَسْب! لماذا غيَّرتِ اسمَكِ؟’’ وقد خرجَ السؤالُ أقسَى ممَّا قصدَه.

أجابت: ‘‘لأنِّي لستُ أنا رافا. إنَّ يسوعَ هو الشَّافي، لا أنا!’’ قائلةً له ما سبقَ أن قالَته لألِكسندر، راجيةً أن يفهمَه بطريقةٍ أفضل.

‘‘وعَزارُ اسمُكِ الحقيقيُّ؟’’

‘‘مَعنى عَزار «مُعينة». ذلكَ هو الموقعُ الذي أشغَلُه، وكلُّ ما أرجو أن أكونَه’’.

فتنبَّهَ إلى طريقةِ جوابِها الحذِرَة. "لماذا اخترتِ جوليا؟"

"لا أستطيعُ الإجابة عن هذا، سيِّدي".

"لا تستطيعين أم لا تُريدين؟"

"أعلَمُ أنّي حيثُ يُريدُ ليَ الرَّبّ. ولا أعلَمُ لماذا يُريدُ لي أن أكونَ هنا".

وتجهَّمَ على نحوٍ قاتم، لأنَّ كَلِماتِها جرحَت مشاعِرَه، مُذكِّرةً إيَّاه بالاقتِناعِ الذي سبقَ أن أحسَّه في الجليل. ذلك أنَّ الله أرادَ له أن يكونَ هنا أيضًا... مع جوليا. وقد ثارَ على ما علمَ أنَّ الله أرادَه منه أكثر من ذلك.

"يُخيَّلُ إليَّ- حسبَ رأيكِ- أنَّ الله يحبُّ أُختي أيضًا، وأنَّ لدَيه غايةً لحياتِها، كما هيَ عليه". وقبلَ أنْ يُتاحَ لها أن تُجيب، أومأ بيَدِه قائلًا: "لكِ أن تنصَرِفي".

وما إنِ انصرَفَت، حتَّى نهضَ مُحبَطًا.

رُبَّما كان يحتاجُ فقط إلى الخروج من الدَّارة إلى حين. ومن ثَمَّ خرجَ إلى الرِّواق.

وإذ رأى إيوليوس العباءةَ التي أعطاها أحَدُ الخُدَّام لِمَرقُس، سأله: ‘‘هل تُريدُ المحفَّةَ، سيِّدي؟’’

أسدَلَ مَرقُس الرِّداءَ عليه، وقال: ‘‘أرغبُ في المشي’’، مُثبِّتًا الإبزيمَ الذَّهبيَّ على كتِفه. ‘‘إذا استَيقظَتِ الوالدَة وأرسلَت في طَلَبي، فقُل لها إنِّي ذهبتُ إلى الحمَّامات’’. ثُمَّ تقدَّمَ إلى الباب بِخُطًى واسعةٍ وفتحَه نَترًا. وبعدَما هَبَطَ الدَّرَج، سَفَقَ البوَّابة وراءَه.

ذهبَ إلى نادي الرِّجال، حيثُ كانَ يُمضي كثيرًا من وقته قبل مُغادَرتِه إلى أفسُس، ظانًّا أنَّه قد يَلقى بعضَ السُّلوانِ في تجديدِ صداقاتٍ قديمة. وبرَّدَ هواءُ اللَّيل غضبَه، حتَّى إذا بلغَ مَقصِدَه كانَ قدِ استَرخى. وقد لَقيَ تَرحيبًا مَقرونًا بالدَّهَش، إذ حفَّ به ستَّةُ رجالٍ كان يعرفُهم.

قالَ أحَدُهم: ‘‘سَمعْنا أنَّكَ رجَعتَ إلى أفسُس، ولكنَّنا لم نَرَ لكَ أثرًا’’.

‘‘أينَ كُنتَ مُختبئًا، يا مَرقُس؟’’

‘‘لا شكَّ أنَّه كان في مركَزه التِّجاريِّ مُنكَبًّا على دفاترِ حِساباته لِيرى كم من المال رُبحَ في أثناءِ غِيابه’’. وضَحِكوا جميعًا.

‘‘سَمِعتُ أنَّكَ ذهبتَ إلى فلَسطين’’.

قال أحَدُهم مُتعجِّبًا: ‘‘فلَسطين! وحَياةِ الآلِهة، لماذا يذهبُ شخصٌ في عقلهِ السَّليم إلى ذلكَ البَلَدِ البائس؟’’

أسهمَت صُحبَتُهم المرِحة جدًّا في إثارةِ أعصابِ مَرقُس، بَدَلًا من تهدِئَتِها. وقد تضاحكَ معهم، غيرَ أنَّ قلبَه كان مُنصَرِفًا عن ضَحِكِهم. لقد أحسَّ كما لو كانَ في روما من جديد مع أنتيغونُس، وتمنَّى لو أنَّه في أيِّ مكانٍ آخر. أكانَ هو الشَّخصَ الوحيدَ الذي تغيَّر؟ أكانَ هو الشَّخصَ الوحيدَ الذي لمسَ الفَسادَ البغيضَ يجتاحُ العالَم؟

‘‘ينبغي أن تأتيَ إلى الألعابِ غدًا’’.

‘‘سأصطَحِبُ پيليا’’.

وقالَ آخَرُ آنَّا: ‘‘آه، پيليا!’’ مُقَلِّبًا عَينَيه كأنَّه في نَشوة.

فضَحِكَ الباقون وأطلَقوا مُلاحَظاتٍ بذيئةً عن پيليا كيفَ تَنغَرِسُ في ذاكرةِ أيِّ رجُلٍ تُمضي ليلةً معه، ولا سيَّما بعدَ الألعاب.

وفكَّرَ مَرقُس في أرِيا.

كما فكَّرَ أيضًا في أُختِه.

ثُمَّ غطسَ في البِركة، شاكرًا إذ أطبقَ الماءُ على رأسِه وصدَّ وَقْعَ أصواتِ أصدقائه. أصدِقاء؟ لم يَعُد يَعرِفُهم قطعًا. فسَبَحَ إلى طَرَفِ البِركة البعيد، ثُمَّ طلَعَ من الماء. وإذ مشى بخُطًى واسعةٍ بينَ الأعمِدَة، دخلَ الكَلِداريوم، حيثُ بقيَ حتَّى أخذَ العَرَقُ يتصبَّبُ من جسمِه. ثُمَّ تخطَّى التِپيداريوم، وغطسَ في الفريجيداريوم، شاكرًا من أجلِ صدمة الماء البارِدِ التي طردَت كُلَّ فِكرٍ من رأسِه.

إنَّما إلى حينٍ فقط.

خضعَ لِتَدليكٍ قويٍّ قبلَ مُغادَرة النادي. ثُمَّ مشى

في الشارع، جسمًا إضافيًّا آخرَ بين جَلَبةِ الحُشودِ اللّاشخصيَّة إذ يطوفون في كُلِّ اتِّجاهٍ بقُربِ الأرطميسيون. وتوقَّفَ كي ينظُرَ إلى الهيكل. فوجدَ أنَّه جميلٌ جمالًا مُبَهرَجًا، نُصُبًا هائلًا لهندسةِ الإنسانِ المعماريَّة.

وبِذهنه الحادِّ الذَّكاء، رآهُ أكبرَ مَشروعٍ تجاريٍّ في أفسُسٍ لكسبِ المال. فقد أحاطَ صانِعو التَّماثيلِ بالمجمَّع الضَّخم، مُستَدِرِّينَ المالَ مُقابلَ التماثيلِ غيرِ المتقَنة للإلاهة التي افتُرِضَ أنَّها تسكنُ في الهيكل. وآخرونَ جَرَفوا إلى أكياسِهم نقودًا ذهبيَّة لقاءَ الأضاحيِّ القُربانيَّة. وآخَرونَ بَعدُ باعوا الطَّلاسِمَ والتَّمائمَ المدَّخَرة في عُلَيباتٍ غالِيَةِ الثمن. وكان البَخُور يُباعُ بالقَبضة، ولِقاءَ أثمانٍ تمتحنُ عُمقَ إيمانِ المتعبِّد. كذلكَ كانتِ الصَّلواتُ تُشتَرى.

وفي الداخل كان فاسِقو الهيكلِ وفاسِقاتُه بأسعارٍ تعلو وتدنو، تَبَعًا لغنى الرَّجُلِ أو المرأة اللَّذَين جاءا لتأديةِ الولاء للإلاهةِ أرطميس.

هزَّ مرقُس رأسَه بحُزن. كم يطلبُ الكاهِنُ هذهِ

الأيَّامَ لقاءَ بَرَكةٍ يمنحُها؟ كم يطلبُ مُقابِلَ أمَلٍ سيَتبيَّن أنَّه فارغ؟

وألقى مَرقُس نظرَه على شارعٍ اصطفَّت على جانبَيه خاناتٌ تتولَّى خِدمةَ مَن جاءوا لرؤيةِ الهيكل وعبادةِ أرطميس. وكان الأكثرون يأتونَ ويتعبَّدون ويَرحَلون، في حين يمكثُ آخرونَ شهورًا مُنَقِّبين في مُجلَّداتٍ كتبَها كهنةٌ عن الحُروف الأَفَسُسيَّة المقُدَّسة المنقوشة في خُوذَةِ أرطميس. هل عرفَ أحَدٌ حقًّا ما تَعنيه؟ وهل عَنَتْ أيَّ شيءٍ أصلًا؟

وقفَ يتأمَّلُ الأرطميسيون. ما عَدَدُ الذينَ جاءوا إلى هذا المبنى في محاولة أن يَجِدوا الرَّجاء ومضَوا يائسين، لا أسئلتُهم أُجيبَ عنها، ولا حاجاتُهم لُبِّيَت؟ وما عددُ الذين أحسُّوا تمامًا ما قد أحسَّه هو طويلًا من فراغٍ مؤلمٍ وحاجةٍ مُلِحَّة، وقُيِّضَ لهم أن يبقَوا على تلكَ الحال حتَّى الموتِ وما بعدَه؟

وفجأةً، في خِضَمِّ تأمُّله، شعرَ بشَخص يُحدِّقُ إليه. فالتَفَتَ، وإذا أعرابيٌّ يقفُ مُقابِلَه عبرَ

الشارع. وقد كان الناسُ يتَحرَّكون حولَه، مُتوجِّهِينَ بثَباتٍ نحو الأرطميسيون، أو داخلينَ الدُّكَّانَ الذي وراءَه. لم يتحرَّكِ الرجلُ ولا حوَّلَ حَملقَتَه. فتوجَّسَ مَرقُس خَوفًا من حَملَقتِه، وتساءلَ عن طبيعتها. لم يَعرِفِ الرجل، ومن ثَمَّ لم يستَطعْ أن يفهمَ حدَّةَ تحديقِه. ثُمَّ بدا أنَّ الأعرابيَّ اختَفى بين حَشدِ النَّاس.

استأنفَ مَرقُس سَيرَه حائرًا، مُحاولًا أن يُحدِّدَ مكانَ الرَّجُل وسطَ جُموع الذاهِبين إلى الأرطميسيون والراجعينَ منه. هل دخلَ دُكَّانَ أحَدِ صانِعي التَّماثيل؟

صَدَمَه أحَدُهم بقُوَّةٍ في جَنبِه، وكادَ يُوقِعُه أرضًا. فانبهَرَ نَفَسُه وتعثَّر، مُتماسِكًا قبلَ أن يَقَع. وعِلمًا منه بأنَّ ذاك فِعلٌ مُتَعمَّد- ربَّما بقَصدِ سَلبِه صُرَّةَ نُقودِه- أطلقَ شتيمةً. ثُمَّ التَفَتَ لِيَرى مَن صدمَه، فرأى الأعرابيَّ ثانيةً، مُبتَعِدًا بسرعةٍ في اتِّجاهِ الأرطميسيون. وسُرعانَ ما اختَلَطَ بالحَشْد، بحيثُ عَجَزَ مَرقُس عن إدراكه.

هزَّ مَرقُس رأسَه، ثُمَّ دارَ وسارَ في شارع

كوريتِس نحوَ بيتِه.

أخذَ جَنبُه يحرِقُه ألمًا. ولمَّا وضَعَ يدَه عليه، أحسَّ رُطوبةً. واتَّسعَتْ عَيناه إذ نظرَ إلى يدِه المضَرَّجةِ بالدَّمِ، فلَعَن. وإذ شعرَ بالدَّمِ يتقطَّرُ من جنبه، أسرعَ خطاه متَّجهًا نحو دارَته. ثُمَّ دفعَ البوَّابةَ مُجفِلًا، ففتحَها وصعدَ الدَّرَجَ. وما إنْ دخلَ الدَّارةَ، حتَّى خلعَ عَنه كابَه. وإذ صَرَّ بأسنانهِ حِيالَ الألَمِ، صَعدَ الدَّرجَ الداخليَّ.

خرجَ إيوليوس من مَهجَعِ السيِّدة فيبي. وحالَما رأى الدَّمَ مُضرِّجًا تُنكَ مَرقس، قال قَلِقًا: "سيِّدي!"

فقال مَرقُس مُتَجهِّمًا- وهو ينفُضُ سِنادَه- "لقدِ اعتُديَ عليَّ! إنَّه مُجرَّدُ جُرحٍ بسيط".

تلبيةً لاستِدعاءِ إيوليوس، أقبلَتْ لاقِنيا راكضةً. فقالَ لها، لاحَقًا بمَرقُس: "أحضِري ماءً وضَمائد. لقدِ اعتُدِيَ على السيِّد مَرقُس. تحرَّكي، يا بنت. بسُرعة!"

خرجَتْ هَدسَّة من مَهجَع جوليا، فشاهدَت إيوليوس يُساعِدُ مَرقُس على الوُصول إلى غُرفته. فتَبعَته خائفةً، ولكنْ لمَّا ظهرَتْ في باب الغُرفة، أومأ لها بيَدِه غاضبًا كي تَنصرِف. ‘‘اهتمِّي بجوليا. أنا سأهتمُّ بنَفسي’’.

إلَّا أنَّها تجاهَلَتْه. وفي الحالِ تراجَعَ إيوليوس قليلًا لِيَتسنَّى لها أن ترى الجُرح. وسَمِعَ مَرقُس شَهقتَها الخفيفة.

وإذ ترنَّحَت قليلًا، قال ضاحِكًا: ‘‘ليس هذا بِشيء. أيُقلِقُكِ مَنظَرُ الدَّم؟’’

أوشَكَت أن تقولَ: **فقط مَنظَرُ دَمِك أنتَ**. إنَّما قالَت: ‘‘ليسَ في العادة، سيِّدي’’. ثمَّ اقتربَتْ أكثر، فأخذَتها رجفةٌ إذ أبصرَتِ الشَّطبَةَ على طولِ أضلاعِه. ‘‘كيفَ حدثَ هذا؟’’

‘‘أعرابيٌّ، كما أعتقِد. الله يعلَمُ السَّبب’’.

فتراجعَتْ كما لو كانت قد صُدِمَت. ثُمَّ جاءت لاڤنِيا بقِدْرِ ماءٍ وضمائد. وحبسَ نفَسَه إذ باشرَتْ

هَدسَّة تنظيفَ الجُرح. وإذ لاحظَ كيفَ ارتجفَت يداها، قال: ‘‘فليَتَولَّ إيوليوس الأمر’’. ثُمَّ ضحِكَ ضِحكةً رقيقة، وقالَ مُتَسلِّيًا: ‘‘أظنُّ أنِّي أعرفُ سببَ مُغادَرتكِ لذلك الطبيب’’.

وإذْ تولَّى إيوليوسُ المَهمَّة، قال: ‘‘لو كانَتِ الضَّربةُ أدنى قليلًا، لَربَّما أصابَ المعتَدي عُضوًا حَيويًّا’’.

وشعرَتْ هَدسَّة بدُوارٍ يُقارِبُ الإغماء، فغادرَتِ الغُرفة.

٤٣

علمَ ألِكسندر أنَّ ثمَّةَ خَطبًا ما لحظةَ أُدخِلَت هدسَّة إلى أتريومِه. وقد كانت مُضطرِبةً جدًّا.

"أين راشِد؟"

أجاب مُتوجِّسًا: "ليس هنا. ماذا جرى؟"

"أينَ هو؟"

"لستُ أدري. لماذا تسألين؟"

"لأنَّ أعرابيًّا اعتَدى على مَرقُس هذا المساء، ويجب أن أعرفَ إذا كان هو".

لم يُحاوِلْ ألِكسندر قَطُّ أن يقترحَ أنَّ الفاعلَ كانَ شخصًا آخَرَ غيرَ راشِد. فإنَّ الأعرابيَّ لم يُخفِ أنَّه يعتقدُ أنَّ مَرقُس ڤاليريان يُشكِّلُ خَطَرًا على حياةِ هَدسَّة، وأنَّه ينبغي أن يُقتَل. وما كان راشِد إلَّا مُوطَّدَ العَزم في إخلاصِه لهَدسَّة، سواءٌ شاءت أم أبَت.

‘‘لقد مضى لِيَرى كيفَ يتقدَّمُ مَرَضُ جوليا...’’

فقالت هَدسَّة مُرتاعةً: ‘‘يتقدَّم؟’’ عالِمةً تمامًا كم يتمنَّى راشِد مَوتَ جوليا عاجلًا.

وتصلَّبَ فَمُ ألِكسَندر. ‘‘علمَ منٍ پروميثيوس أنَّها أُخِذَت إلى دارةِ أخيها. وهو أيضًا قالَ لراشِد إنَّكِ ذهبتِ معها’’.

‘‘بمَحضِ اختِياري. ماذا يعتقِد؟’’

‘‘ما كان لِيفعلَ أيَّ شيء لو لم يرَ في مَرقُس ڤاليريان خَطَرًا على حياتك’’.

لم يُؤدِّ تَملُّصُ ألِكسَندر إلَّا إلى ترسيخ اقتِناعها. ‘‘إنَّ مَرقُس لا يُشكِّلُ خَطَرًا عليَّ. ولا أحَدَ من آلِ ڤاليريان يُشكِّلُ خطرًا عليَّ’’.

‘‘راشِد يعتقدُ العكس’’.

‘‘إذًا، صَحِّحْ تفكيرَه!’’

دُهِشَ ألِكسَندر. ‘‘ما سَمِعتُكِ قطُّ تتكلَّمين بهذه

اللّهجة. أتظنّينَ أنّي أتَغاضى عن تصرُّفِ راشِد؟ لا تَلوميني على طبيعته المتعطِّشة إلى الدَّم. لقد كُنتِ أنتِ مَنِ اختارَه من بين جميع أُولئكَ المتروكين على دَرَجِ الهيكل. هل تذكُرين؟''

''الله اختارَه''.

''إذًا هوَ الله من يَهدي خطواتِه''.

''إنَّ الله لا يَهدي سبيلَ شخصٍ إلى القتل!''

دخلَ راشِد الغُرفة، فأدَّى ذلكَ فِعلًا إلى إسكاتِهما كِلَيهما. وما إنْ طَرَحَ عنه عباءَتَه، حتَّى أبصرَتْ هَدسَّة مِقبَضَ سِكِّينٍ مَشكوكٍ بِبراعةٍ في حِزامِه. فاكفَهرَّ وجهُ راشِد، وقد قدحَت عَيناهُ شررًا. ''ڤاليريان؟''

فارتعدَت إذ تأكَّدَتْ مَخاوِفُها. وقالت: ''هو حيٌّ، والحمدُ لله!''

أجابَ راشِد بوَعيدٍ قاتم: ''المرَّةَ التالية لن يكونَ سعيدَ الحظِّ هكذا''.

وتقدَّمَت هَدسَّة إليه. ‘‘إنْ كان لي أيُّ تقديرٍ عِندَك، يا راشِد، فلَن تُحاوِلَ الاعتداءَ على حياةِ مَرقُس مرَّةً أُخرى’’.

فتقسَّى وجهُه.

ووضعَتْ يدَها على ذِراعه. ‘‘رجاءً، يا راشِد. أتوسَّلُ إليك! أودُّ لو يضرِبُني الله الآنَ ضربةً مُميتة ولا تقتُلُ أنتَ إنسانًا آخَر’’.

‘‘قلتُ لكِ إنّي سأحميكِ، وسأفعلُ هذا’’.

‘‘بأيِّ كُلفةٍ لي، يا راشِد؟’’

‘‘لِيكُنْ دَمُه على **رأسي**، لا رأسِكِ’’.

‘‘إذا قتلتَ مَرقُس، فسيُكلِّفُني ذلكَ قلبي’’.

تجهَّمَ راشِد غيرَ فاهِم. ‘‘قلبَكِ؟’’

ووقفَ ألِكسَندر يُحدِّقُ إلَيها، ثُمَّ قال مَذهولًا: ‘‘أنتِ تُحبِّينَه’’.

وقال راشِد مَشدوهًا: ‘‘أنتِ **تُحِبِّينَه**؟’’

فقالَت بهدوء: ‘‘نعم، أُحبُّه. مُنذُ ما قبلَ ساحة المحاربين. وبعدَها. ما دُمتُ على قَيدِ الحياة’’.

أشاحَ ألِكسَندر بناظرَيه، والألَمُ يجتاحُه من جرَّاء كَلِماتها الحميمة.

ونفضَ راشِد يَدَها عن ذراعه، ثُمَّ دارَ ليَمضي. والتَفَتَ إليها بعَينَين أعشاهما الازدِراء. ‘‘المجنونةُ وحدَها يُمكِنُ أن تحبَّ رجُلًا دبَّرَ مَقتلَها!’’

‘‘لم أعلَم أنَّ مَرقُس كانَ له أيُّ دَخلٍ في الأمر. هي جوليا مَن فعلَت ذلك’’.

فقالَ ألِكسَندر بازدِراء. ‘‘المرأةُ التي تخدمينَها الآن!’’

أجابَت: ‘‘نعم’’.

فاستَفسَرَ: ‘‘كيفَ يُمكِنُكِ ذلك؟’’ وقد غمرَه الغَضَبُ الشديدُ على قد ما جرى لها، وعلَيها

هي لعدم رغبتها في العِقاب.

‘‘لقد أحبَّنا المسيحُ على هذا النَّحو. فبينَما نحنُ بعدُ خُطاةٌ، ماتَ من أجلنا لكي نخلُص. فكيفَ يُمكنُ أن أفعلَ أقلّ؟’’

‘‘أه، إذًا تتكلَّمينَ بشأن حُبٍّ من نَوعٍ آخر’’.

أجابَت: ‘‘أتكلَّمُ بشأن حُبِّ امرأةٍ لِرجُل أيضًا، يا راشِد. رجاءً! لا تفعلْ أيَّ شيء لإيذاءِ مَرقُس ڤاليريان’’.

وقفَ ألِكسَندر في طَرَفِ الغُرفةِ البعيد تحتَ الممرِّ ذي القناطر. وقال بصَوتٍ رَتيب- ناظِرًا إلى المدينة في الخارج - ‘‘افعلْ كما تقولُ هَدسَّة، يا راشِد. توكَّلْ على الله كي يُجريَ انتِقامَه الخاصّ’’.

مَطَّ راشِد قامتَه، ودَمُ المحارب يغلي في عُروقه. ‘‘ألم تقُلْ أنتَ نفسُكَ إنَّه قد جرى اختِياري لأحمِيَها؟’’

واستَدارَ ألِكسَندر. ‘‘أنت تعلَم، شأنُكَ شأني، أنَّ

اللّه قد مدَّ يدَه على الأمِّ والابنة. فكُن على ثِقة، يا راشد، بأنَّ الابنَ هو تحتَ يَدِ اللّه أيضًا".

وقف راشِد صامتًا، وعيناه الداكِنَتان تَنضحانِ غُموضًا.

فعرجَت هَدسَّة إلى مَقرُبةٍ منه مُجدَّدًا، وهمسَت: "رجاءً، صديقي. أعطِني وعدَكَ".

أزاحَ راشِد الحِجابَ عن وجهِها، وتأمَّلَ النُّدوبَ الرَّهيبةَ عَلَنًا. "أتلتَمِسينَ الرَّحمة لِلَّذينَ فَعَلوا بكِ هذا؟"

فقالَت مُتورِّدةً: "نعم".

وأرخى الحِجابَ كما لو كانَ قد أحرقَه. "أنتِ مَجنونة!"

"ربَّما، لكنْ عِدني على كُلِّ حال، يا راشِد. أنا أعلَمُ أنَّك إذا قُلتَ لي كلمةَ وَعدٍ منك لا تنكُثُها أبدًا".

وفَّرَتْ كلماتُها المعَبِّرةُ عن الثِّقة به والاعتماد

عليه فَسحةً له. ونظرَ إلى ألِكسَندر، فرأى على وجهِ الطبيبِ سِيماءَ كآبة. لقدِ اعتقدَ ألِكسَندر أنَّه يَعرِفُه أفضلَ من ذلك. ثُمَّ تقسَّى وجه راشِد إذ نظرَ من عَلُ إلى المرأةِ الضئيلة التي كانت واقفةً أمامه عرجاءَ ومُنَدَّبة. كانت عَيناها صافِيتَين وواثِقتَين. فلانَ قلبُه، رُغمَ إرادتِه. ولم يبدُ مُهِمًّا أنَّه لن يفهمَها أبدًا. فهيَ قد فهِمَته.

"أعِدُ بأن أكُفَّ يدي عنه إلى أن يرفَعَ يدَه عليكِ".

فأمسكَت هَدسَّة يدَه. "كنتُ أتمنَّى المزيد، ولكنْ سأكتَفي بهذا. ثُمَّ ابتسمَت، وقد رقَّت عَيناها عَطْفًا. "ستكونُ لله طريقتُه في مُعامَلتِك، يا صديقي". وأسدلَتِ الحجابَ على وجهها من جديد.

أعطاها ألِكسَندر الأعشابَ الطبِّيَّة التي تحتاجُ إليها لمداواةِ جُرحِ مَرقُس ڤاليريان. وطلبَ منها أن تكويَ الجُرحَ قبلَ أن تضعَ عليه كِمادةً وتُضمِّدَه. "أأنتِ مُتيقِّنة بأنَّكِ لا تُريدين منِّي أن أذهبَ معكِ؟"

‘‘أنا أعرِفُ ما ينبغي أن أفعل’’.

ثُمَّ مشى معها إلى المحفَّة، ورفعَها إليها، قائلًا لها: ‘‘خُذي حِذرَكِ!’’ وهوَ خائفٌ عليها. فأمسكَتْ يدَه بينَ يَدَيها وضغطتها على خدِّها من فوق الحجاب. ولـمَّا أرخَتْه، سحبَ الستائرَ مُغلِقًا إيَّاها، وخَطا إلى الوراء. فحملَها الخدَّام ومَضَوا بها. ولم يشعُرْ ألِكسَندر قطُّ في حياته بوَحدةٍ ووحشةٍ أكثر ممَّا شعرَ عندئذٍ.

لـمَّا رجَعَ، كان راشِد يُنظِّفُ سِكِّينَه. ‘‘هل تَنوي أن تفيَ بوعدِك؟’’

سكنَت يدُ راشِد. ثُمَّ رفعَ عَينَيه ببُطء وتفرَّسَ فيه. فشعرَ ألِكسَندر بقُشَعريرةٍ حِيالَ الأغوارِ القاتمة في تَينِكَ العينَين. ودونَ أن ينبِسَ راشِد بكلمة، عادَ إلى تنظيفِ سكِّينه.

٤٤

قالَت جوليا: ‘‘أينَ هي؟’’ مُتضايقةً من مجيء لاڤنِيا عند الاستِدعاء بدلًا من عَزار.

‘‘لقد غادرَتِ المنزل، سيِّدتي. لم تقُل إلى أينَ كانت ذاهبة’’.

‘‘متى ستَرجع؟’’

‘‘لم تقُل، سيِّدتي’’.

‘‘وحياةِ الآلِهة، ألَا تعلمينَ أيَّ شيءٍ بتاتًا؟ ماذا جرى حتَّى غادرَتْ؟’’

‘‘لقدِ اعتُدِيَ على أخيكِ، سيِّدتي’’.

اتَّسعَتْ عَينا جوليا. ‘‘اعتُدِيَ عليه؟’’ وأوشكَتْ على النُّهوضِ عن أريكتِها، ولكنِ اعتَراها الدُّوارُ فارتَمتْ قاعدةً من جديد، واضِعةً على جبينِها يدًا مُرتعِشة.

‘‘سيكونُ بِخَير، سيِّدتي. لا تَتضايَقي’’.

‘‘كيف يُعقَلُ ألَّا أتَضايَقَ؟ مَن يتَجاسَرُ على إيذاءِ أخي؟’’

‘‘قالَ إنَّ المعتَديَ كان أعرابيًّا، سيِّدتي’’.

‘‘هل عرفَه مَرقُس بِالاسْم؟’’

‘‘لا أظنُّ ذلك’’.

أرادَت أن تذهبَ إلى مَرقُس لِتَرى بعَينَيها أنَّه كانَ سليمًا، ولكنَّها كانَت أشدَّ دُوارًا من أن تفعلَ ذلكَ. حتَّى لو كانت قادرةً على الذَّهاب إليه، ما كانَ لِيأذَنَ لها بدُخولٍ غرفَتِه. فقالَت بحُزن: ‘‘لقد قالَتْ عَزار إنَّها لن تتركَني’’.

‘‘أنا على يقينٍ بأنَّها ستَرجع، سيِّدتي’’. وسوَّت لها لاقِنيا الأغطِيَة. ‘‘ربَّما ذهبَت إلى الطبيب’’.

قالت جوليا: ‘‘خِرقةً بارِدة! رأسي يؤلِمُني’’.

فغمسَت لاقِنيا خرقةً نظيفةً في طَستِ الماء،

وعصَرَتها قبل أن تَضَعَها برِفقٍ على جَبينِ جوليا وعينَيها.

قالت جوليا: "انظُري ماذا يُمكنُ أن تَعلَميه". ثُمَّ صرفَتها بإيماءةٍ من يدِها.

ولـمَّا لم ترجعْ لافِنيا في غُضونِ بضع دقائق، استَولى الاضطرابُ والقلَقُ على جوليا. فأزاحَتِ الخرقةَ جانبًا، وجلسَت ببُطء، مُتمسِّكةً بِحافَةِ أريكةِ النَّوم حتَّى يكُفَّ دُوارُ رأسِها. وما إنْ كَفَّ، حتَّى قامت ومَشَت مُترنِّحةً إلى مدخلِ الباب. فإذا البيتُ هادئٌ تمامًا. هل كانَ جُرحُ مَرقُس أخطرَ ممَّا قالت لافِنيا؟ هل ماتَ مَرقُس؟

خرجَت جوليا إلى الرِّواقِ المكشوف. واستندَت بتَثاقُلٍ إلى الحائط. ووجدَتْ أنَّ الرُّخامَ باردٌ. فتَمنَّت لو ألقَتْ عليها بطَّانيَّتها، غيرَ أنَّها ما كانَتِ الآنَ لِتُبدِّدَ قوَّتَها بالرُّجوعِ لإحضارها. لقد كان عليها أن تعرِف حقيقةَ حالِ مَرقُس.

زلَّقتْ جوليا يدَها على طُول الحائط، ماشيةً بتَرنُّحٍ في الرِّواقِ نحوَ مَهاجعِ مَرقُس. واستَطاعَتْ

أن تسمعَ أصواتًا. ولـمَّا وصلَتْ إلى مدخَلِ الباب، نظرَت إلى الداخل. فإذِا إيوليوس مُنحَنٍ فوقَ أريكةِ النَّوم. ورأتْ ساقَ مَرقُس نِصفَ مرفوعة. ورأتْ على الأرضيَّة تُنكًا مطروحًا، مُضرَّجًا بالدَّم.

قالَت بصَوتٍ مُرتعِش: ‘‘ما مدى سُوءِ الإصابة؟’’ ثُمَّ استجمعَت ما بقي لَدَيها من قُوَّة ودخلَتِ الغُرفة.

شاهدَ مَرقُس جوليا في بابِ مَهجعِه. بدا واضحًا أنَّها أقبلَت من سريرها، لأنَّها كانت مُرتديةً ثَوبًا مُغضَّنًا قلَّما سترَ جسمَها الهزيل. وقد ظهرَ وجهُها الشاحب في إطارٍ من كُتَلٍ مُتشابكةٍ من الشَّعر. وكانَت ترتجِف، إمَّا من خَوف وإمَّا من ضَعف، أمرٌ لم يُميِّزه مَرقُس.

ولا هَمَّه ذلك.

سألت: ‘‘أأنتَ بِخَير؟’’ مُحدِّقةً إلى الضِّمادة المبتلَّة بالدَّم على جنبه.

‘‘لن أموت’’.

‘‘لقد خِفتُ علَيك’’. وترنَّحَتْ قليلًا، واضِعةً يدَها النحيلةَ الشاحِبةَ على صَدرِها. ‘‘أتُريدُ منّي أن أقعُدَ معكَ بضع لحظات؟’’

استَلقى مَرقُس على الأريكة، وقال: ‘‘رافِقها إلى غُرفَتِها’’، رافِضًا أن يُلبّيَ طلبَها المرتَعِد. فمضى إيوليوس إلَيها. وكانَ مَرقُس قد تكلَّمَ بصَوتٍ عالٍ كِفايةً حتّى تسمعَه، فلم تحتجَّ لـمّا سندَها إيوليوس مُخرِجًا إيّاها من الغُرفة.

صرَّ مَرقُس بأسنانه، مُقاوِمًا انبعاثَ الشَّفقةَ عليها والنَّدمَ لِكَونهِ قد صرفَها بكُلِّ برودة. لقد كانت شاحِبةً وهزيلةً جدًّا، كما لو أنَّها تقلَّصَت كلَّ مرَّةٍ رآها فيها. لطالَما ثمَّنَت جمالَها دائمًا. فبماذا ينبغي أن تشعُرَ الآن حينَ تنظرُ في مرآةٍ وترى ذلك الوجهَ المهزولَ المشحوب؟ وكانت في ما مضى تتكلَّفُ عَناءَ ارتداء ثيابِها وضَفرِ شعرِها ولَفِّه قبلَ مُغادرة غرفتها أوِ استقبالِ الضُّيوف. غيرَ أنَّها الليلةَ خرجَت توًّا من سريرِ مَرَضِها لِترى ما قد جرى له.

ثُمَّ رجعَ إيوليوس. ولم يذكُرِ السيِّدةَ جوليا.

وأوشكَ مَرقُس أن يسأل، إلّا أنَّه حَبَسَ نَفَسَه إذ سَلَخَ الخادِمُ الضِّمادة المشبَعةَ بالدَّم عن أضلاعه. ‘‘ما زالَ الجُرحُ يَنزُّ، سيِّدي’’.

فقال مُنزَعجًا: ‘‘اغسلْهُ مُجدَّدًا بالخمر، ثُمَّ ضمَّدْه. وإذا متُّ، أموتُ’’.

أجابَ إيوليوس باكتئاب: ‘‘اشرَب شيئًا من الخمر، سيّدي’’، مُناوِلًا إيَّاه كأسًا ملأى. وإذ نهضَ مَرقُس ليَجلِس، بدأ الجُرحُ ينزفُ من جديد. فاستَلقى ثانيةً، وبلَّلَ إيوليوس خرقةً بالخَمرِ الحمراءِ الفاخرة. وتصلَّبَ جسمُ مَرقُس إذ غسلَ العَبدُ الجُرحَ ثُمَّ ضمَّدَه مُجدَّدًا. وناولَه كأسَ خَمرٍ أُخرى، مُلاحِظًا أنَّ عَينَيه كانتا قاتمتَين وغائمتَين.

قال مَرقُس ناعِسًا: ‘‘لا يظهر عليكَ فَرطُ القَلَق، يا إيوليوس. مهما كانَ السائلُ الذي نَزَّ خارجًا منِّي، فقد سكبتَه فيَّ من جديد’’. واستَرخى جِسمُهُ إذ أُغميَ عليه. فانحنى إيوليوس فوقَه، غيرَ مُتيقِّنٍ هل أثَّرَ فيه هكذا فقدُ الدَّمِ أوِ فَرطُ الخمر.

ودخلَت هَدسَّة، فهُرعَ إيوليوس إليها ليأخُذَ الصرَّة

الصغيرةَ التي حملَتها. ‘‘ما زالَ الجرحُ ينِزُّ، سيِّدةُ عَزار’’.

قالَت: ‘‘أحضِر الكانون’’، آخِذةً منه الصرَّةَ لدى بلوغِها السَّرير. وإذ مالَتْ إلى الأمام، مسَّت كَتفَ مَرقُس، فلم يُفِق. ووضعَتْ يدًا مُرتجفةً على صدره، فأحسَّتْ نَبْضَ قلبهِ البطيءَ الثابِت.

فتحَتِ الصرَّة، وبسطَتْ حُزَمَ الأعشابِ الصغيرةَ ومِيسَمًا (أداة للكَيّ). ثُمَّ دسَّت طرَفَ الميسَمِ في جَمرِ الكانون المتأجِّج. وقالت لإيوليوس: ‘‘يجبُ أن نختمَ الجُرحَ ونُضمِّدَه قبل وَضعِ الأعشابِ عليه. ستُضطرُّ إلى تثبيته مُمسِكاً به’’.

أخرجَتِ الميسَمَ من النَّار، ومرَّرَتِ المعدِنَ الحاميَ على الجُرح، خاتمةً إيَّاه بالحَرق. فأنَّ مَرقُس، ناهِضًا قليلًا، لِيَعودَ فيُغمَى عليه. وسبَّبَتْ رائحةُ اللَّحمِ المحترقِ الغَثيانَ لهَدسَّة، إلَّا أنَّها أعادَتْ إحماءَ الميسَم وأتمَّتِ المـَهَمَّة.

قالت: ‘‘أحتاجُ إلى طَستٍ صغير’’. فأحضَرَ لها

إيوليوس واحدًا. ومزَجَتِ الأعشابَ بالملح، ثُمَّ صنعَتْ كِمادةً ضمَّدَتْ بها الجُرح. وقعدَت على حافَةِ أريكةِ مَرقُس، ثُمَّ مرَّرتْ يدَها على جبينه قائلةً: ‘‘سأبقى معك’’.

‘‘جاءتِ السيِّدةُ جوليا لرؤيته. فأمرَني السيِّدُ مَرقُس أن أُعيدَها إلى غُرفتها’’.

‘‘هل تكلَّمَ إليها؟’’

‘‘لا، سيِّدتي’’.

قعدَت هَدسَّة تُفكِّر. ووضعَتْ يدَها على صَدرِ مَرقُس العاري، فأحسَّت نَبْضَ قلبِه الثابِتَ. ‘‘انظُر هل هي مُستَيقِظة، يا إيوليوس. وإنْ كانت كذلك، فأحضِرْها إلى هنا لِتَرى أنَّ أخاها نائم. إنَّ ذلك سيُريحُ بالَها’’.

‘‘نعم، سيِّدتي’’.

أقبلَت جوليا، متوكِّئةً على ذراعِ إيوليوس. فقامَت هَدسَّة عن حافَةِ أريكةِ مَرقُس. ثُمَّ أمسكَتْ بيَدِ جوليا، وأومأت لها برأسِها أنْ تقعُدَ حيثُ كانت

هي. فأمسكَتْ جوليا يَدَ أخيها. ‘‘إنَّه شاحِبٌ جدًّا’’.

‘‘لقد فقدَ دمًا’’.

‘‘هل يكونُ بخَير؟’’

فقالَت: ‘‘أظنُّ ذلك، سيِّدتي’’. ثُمَّ أضافَتْ لتُشجِّعَها: ‘‘لم يُصَبْ أيُّ عُضوٍ حيويّ. لقد كَوَينا الجُرح. وينبغي أن تمنعَ الكِمادَةُ تَلَوُّث الجرح’’.

وقالِت جوليا: ‘‘لم يُرِدْ أن أكونَ هنا’’، واضِعةً يدَها فوقَ يدِه، حيث بَدَت صغيرةً وبيضاءَ إزاءَ يَدِهِ الكبيرةِ القويَّةِ السَّمراء. ‘‘لقد طلبَ من إيوليوس أن يُعيدَني إلى غُرفتي’’.

اقتربَت هَدسَّة إليها، وطوَّقتها بذِراعَيها. ومسَّدَتِ الشَّعرَ المشَعَّثَ إلى الوراء عن وجهِها.

اتَّكأتْ جوليا على جَنبِ هَدسَّة، وأغمضَتْ عَينَيها، شاعرةً بالعَزاء. ‘‘خفتُ أن تكوني قد تركتِني، يا عَزار’’.

‘‘لا داعيَ لأنْ تخافي، سيِّدتي’’.

‘‘أعرِفُ ذلك في رأسي، أمَّا قلبي... وتنهَّدَت، مُكافِحةً الضَّعفَ الغازيَ. لقد كان هذا الجَهدُ اليسيرُ فوقَ طاقتِها تقريبًا. ‘‘أنا مسرورةٌ جدًّا بوجودكِ هنا معنا’’.

وأحسَّت هَدسَّة ارتجافَها. ‘‘يجبُ أن تستريحي الآن، سيِّدتي. سيكونُ أخوكِ بخَير في غضونِ أيَّامٍ قليلة’’. وانحنَتْ لتُساعِدَها على النُّهوض.

‘‘في وُسع إيوليوس أن يُساعِدَني على الرُّجوع إلى غُرفتي. اِبقَي أنتِ معَه. رجاءً! إنِّي مُطمئنَّةٌ إلى وُجودهِ في عُهدَتِكِ’’.

فمسَّت هَدسَّة خدَّ جوليا، قائلةً: ‘‘أنتِ تُفكِّرينَ في الآخَرين فوقَ نفسِكِ’’.

والتَوى فمُ جوليا بابتِسامةٍ ساخِرة: ‘‘أأُفكِّرُ كذلك فعلًا؟ أم أمَلي الأخيرُ يستقرُّ فيه؟’’ وتوكَّأت على إيوليوس إذ غادرَتِ الغُرفة.

بقِيَت هَدسَّة مع مَرقُس طَوالَ اللَّيل. وقدِ

استَيقظَ مرَّةً ونظرَ إليها بعَينَينِ مبهورتَين. وغَمغَمَ مُعَبِّسًا. فقامَتْ وانحنَتْ فوقَه، قائلةً: "ما بِكَ، سيِّدي؟" ثُمَّ وضعَت يدَها على جبينه، فإذا هو بارد.

تشبَّثَ بطَرَفِ حِجابها، وشدَّ بِوَهَن. فوَثَبَ قلبُها. ثُمَّ استَقامَتْ بسُرعة، وأرخَت أصابِعَه برِفق، وقعدَتْ من جديدٍ مُرتَجفةً.

تحرَّكَ ثانيةً، واستَرخى نائمًا، فأجالَتْ حَملقَتَها عليه. وغمرَها بالعَجَب، إذ كان قويَّ البنية وحَسَنَ التَّكوين. فخُيِّلَ إلَيها أنَّ في وُسعِها أن تقعُدَ هكذا إلى الأبد، مُكتفيَةً بالتَّفرُّسِ فيه. ثُمَّ وخَزَتِ الدُّموعُ عَينَيها، فأشاحَت بناظرَيها. وصلَّتْ طالبةً أنَّ يتحوَّلَ الشَّغَفُ الذي شعرَت به حِيالَه إلى مَحبَّةٍ مِعطاء (أغاپي). ما زالَتْ ذِكرى قُبُلاته التي قبَّلَها بها منذُ أمَدٍ بعيد تدفَعُ نَبضَها إلى التَّسارُع. فصلَّت أن يمحوَها الله من ذهنها. ذلكَ أنَّ الحنينَ ظلَّ مُقيمًا بَعد. ثُمَّ تحرَّكَ ثانيةً، مُضطرِبًا ومُتألِّمًا. فمدَّت يدَها وأمسكَتْ يدَه. ولدى مُلامسَتِها، غمرَه الهدوء.

وهمسَت مُوحِشةً: ‘‘لماذا، يا رَبّ؟ لِماذا تفعلُ هذا بي؟’’ فلَم يكُن جَواب.

إذ أرسلَ الفَجرُ أشعَّةَ الشَّمس على حائطِ الشُّرفة، استَيقظَ مَرقُس. وفي حالٍ من التَّكاسُلِ وفُقدانِ حسِّ الاتِّجاه، أدارَ رأسَه فرأى عَزارَ قاعدةً بجانبِ أريكةِ نَومه. فنَهضَ قليلًا وحَبَسَ نَفَسَه، مُتذَكِّرًا في الحالِ اعتِداءَ البارحة. ورفعَتْ هَدسَّة رأسَها.

وإذ جفَّلَهُ الألَمُ الحادُّ في جَنبِه، شتَمَ واستَلقى إلى الوراء.

وضعَتْ يدَها برِقَّةٍ على يدِه. ‘‘استَلقِ ساكِنًا، سيِّدي، وإلَّا فتحتَ الجُرحَ من جديد!’’

وإذ تراجعَتْ قليلًا، التقطَ مَرقُس يدَها وثبَّتَها تحتَ يده.

‘‘هل بقِيتِ معي الليلَ كلَّه؟’’

‘‘لقد قلِقَتْ عليكَ السيِّدة جوليا’’.

‘‘لا داعيَ لأنْ تَقلق. إنَّه جُرحٌ سطحيّ’’. وأرخى قَبضتَه عنها قليلًا، ماسِكًا يدَها بتَراخٍ، بدلًا من أسرِها أسرًا.

‘‘ربَّما كان كذلك، سيِّدي. ولكنْ لو كانَتِ الضَّربةُ أدنى قليلًا، لَرُبَّما أصابَ المعتَدي عليكَ عُضوًا حَيويًّا’’.

‘‘لو كانت أعلى قليلًا، لحَزَّ عُنُقي’’. وتجهَّم، قائلًا بفُضول: ‘‘أنتِ ترتَجفين’’. فسحبَت يدَها، وعبَّس.

تسارعَت دقَّاتُ قلبِ هَدسَّة إذْ حدَّقَ إليها مُتأمِّلًا. فيمَ كانَ يُفكِّر؟ ثُمَّ انتقلَتْ حَملَقتُه نُزولًا وتركَّزَت على يديَها المضمومتَين في حضنِها. فحاولَت أن تَسترخي. أمَا، وقد أفاقَ الآن، ينبغي لها أن تستَدعيَ إيوليوس لِيَعتنيَ به. وإذ أوشكَتْ على النُّهوض، كانت قد قعدَت وقتًا طويلًا جدًّا. فإذا برِجلِها السَّقيمةِ تتشنَّج، مُطلِعةً شهقةَ ألَمٍ من بين شَفَتَيها، قبلَ أن تتمكَّن من تمالُكِ نفسِها. فصرَّت بأسنانها، وخطَتْ خطوةً إلى الوراء، شاعرةً بالخَجَل من جرَّاء ارتباكها.

لاحظَ مَرقَسٍ ذلك، غيرَ أنَّه لم يُبالِ. وقال: ‘‘لَستِ ذاهِبة، أم أنَّكِ ذاهِبة؟’’ ثُمَّ نظرَ إلى الحجاب من جديد، مُتَجهِّمًا. تيسَّرَ له أن يرى شكلَ وجهِها وراءَه، ولكنَّهَ لم يستَطعْ أن يُلاحظَ أيَّةَ ملامَحَ مميِّزة. كان شِقٌّ رفيعٌ قد أُحدِثَ وطُرِّزَت أطرافُه لِتَتمكَّنَ من الرؤيةِ خِلالَه، غيرَ أنَّه لم يستَطِعْ أن يرى ما وراءَ ستارِ الشَّاشِ الملَوَّن ذاك. وطأطأتْ رأسَها وأشاحَتْ قليلًا، فعَلِمَ أنَّها كانت تتجنَّبُ تَفرُّسَه ولَمسَتَه، مع أنَّ تلكَ الإيماءة بَدَت طبيعيَّةً تمامًا.

‘‘ينبغي أن تأكُل، سيِّدي. سأطلُبُ من أحَدِ الخَدَمِ أنْ يؤتى إليكَ بطعام’’.

أرادَ مَرقُس لها أن تبقى. وأرادَ أن يعرفَ المزيدَ عنها. لقد تساءلَ عن سببِ إثارتِها لفُضوله. فإذ دارَتْ نحوَ الباب، التَمسَ أيَّةَ ذريعة. ‘‘يبدو أنَّ الضِّمادةَ تَنزلق’’. فدارتْ عَزار مُجدَّدًا، مُميلةً رأسَها قليلًا لِتتفحَّصَها بدِقَّة. وقال: ‘‘هل تَرَين؟’’ ثُمَّ شدَّها، صارًّا بأسنانهِ حِيالَ وَخزِ الألم.

‘‘ستبقى مُحكَمةً تمامًا، سيِّدي، إن توقَّفَت عن

شدِّها’’.

فكشَّر. ‘‘سأتوقَّفُ عن شدِّها إذا قعدتِ وتحدَّثتِ إليَّ’’.

‘‘لم تعُدْ صبيًّا صغيرًا، سيِّدي’’.

فلانت تكشيرتُه مُتَحوِّلةً إلى ابتِسامةٍ ساخِرة. ‘‘لا، لم أعُد، سيِّدةُ عَزار’’. وأشارَ إلى الكُرسيّ. ‘‘اقعُدي وتكلَّمي إليَّ بصفتي رَجُلًا، لا وَلَدًا’’. سيَستخدِمُ أيَّةَ وسيلةٍ مُتاحةٍ له لِكَي يُمضيَ معها مزيدًا من الوقت، حتَّى إصدارَ الأمرِ إليها بصِفَتهِ سيِّدَ أهلِ بيتِه. فهيَ قد أثارَتِ اهتمامَه أكثرَ ممَّا أثارَه أيُّ شخصٍ آخر على مدى زَمَنٍ طويلٍ جدًّا.

وقعدَتْ حيثُ كانت من قَبل، فأحسَّ المسافةَ التي أقامَتها بينَهما. ‘‘إنَّكِ تُكلِّمينَ جوليا على مَدارِ الساعة، ولكنَّكِ لا تقدرينَ- في ما يَظهَر- على احتِمالِ رِفقتي ولو بِضعَ دقائق!’’

‘‘لقد أمضَيتُ عندَك توًّا اللَّيلَ كلَّه!’’

فضَحِكَ. ‘‘كنتُ نائمًا’’.

‘‘أُختُكَ مريضةٌ جدًّا، سيِّدي’’.

وساورَه شُعورٌ بأنَّ اهتمامَه أربكَها. فقال بصراحة: ‘‘إنَّما أنا فُضوليٌّ بشأنكِ فحَسْب’’. ثُمَّ جلس. وحطَّ قدمَيه على الأرض، مُكشِّرًا من الألَم.

‘‘يجب أن تَستَريح...’’

‘‘استَولى عليَّ الكَسَلُ من الراحة’’. ثُمَّ إنَّ رأسَه آلمه من شدَّةِ الإفراط في شُربِ الخمر.

‘‘لقَد فقدَتَ كثيرًا من الدَّم’’.

‘‘ليس ما يكفي لإبقائي مُمدَّدًا على ظهري كمريضٍ عاجِز، مِثلَما تُصرِّينَ على مُعاملتي’’. سيَتركُ فَنَّ رثاء الذات لأُختِه.

لـمَّا أشاحَت عَزارُ بناظرَيها، تساءَلَ هل أزعجَها مَنظَرُه. فقد كان مُرتديًا مئزرًا، لا غير. وبالنَّظر إلى مهنتِها، استبعدَ هذا الاحتِمال، غيرَ أنَّه جرَّ الغِطاء فوق وسطِه تحسُّبًا. ‘‘إذا احتاجَتِ السيِّدةُ جوليا

إليكِ، فأنا على يقينٍ بأنَّها ستُرسِلُ لاقِنيا لإحضارِك’’.

ونظرَت إليهِ من جديد. ‘‘ماذا سبَّب هذا الجفاءَ بينك وبين أُختِك، سيِّدي؟’’

قال: ‘‘سؤالٌ جريء!’’ مُنزعِجًا منه. وأضاف: ‘‘سنتحدَّثُ بأُمورٍ أُخرى’’.

‘‘هذا الأمرُ يُقِضُّ مضجعَكَ أكثرَ الكُلّ’’.

فالتَوى فمُه في ابتِسامةٍ ساخِرة، قائلًا: ‘‘ماذا يجعلُكِ تَعتقِدينَ هذا؟ هل تظنّينَ أنَّكِ قادرةٌ على رؤيةِ ما في داخلي بعد فترةِ تعارُفٍ قصيرةٍ جدًّا؟’’

وتردَّدَت. ‘‘أأنتَ في سلامٍ حِيالَ حالَةِ الأُمور؟’’

‘‘في سلام؟ أُمّي مشلولة. وجوليا تحت سَقفي ثانيةً، تموتُ من جرَّاء مَرَضٍ خبيثٍ جلبَتْه على نفسها بعلاقاتِها الجنسيَّة المختَلطة وعيشَتِها الفاسدة. لا بدَّ أن تُقِرّي بأنَّ هذه لا تكادُ تكونُ أحوالًا تؤول إلى السلام، سيِّدةُ عَزار’’.

‘‘أأنتَ طاهِرٌ جدًّا بحيثُ تستطيعُ أن تَدينَها، سيِّدي؟’’

فغامَت عَيناه. ‘‘لِنَقُل فقط إنِّي قَصَرتُ تجارِبي على الجِنسِ الآخر’’.

ولم تقُل شيئًا.

‘‘هل تشكِّين في كلامي؟’’

‘‘لا، سيِّدي. ولكنَّ الخطيَّةَ خطيَّة’’.

أحسَّ الحرارةَ تغمرُ وجهَه. ‘‘ما مِقدارُ ما أخبرَتكِ به أُختي بشأن كالاباه؟’’

‘‘أعرِفُ أمرَ كالاباه’’.

‘‘الخطيَّة خطيَّة؟ هل قالت لكِ جوليا إنَّهما كانتا عشيقَتَين؟ ذلكَ وحدَه ينبغي أن يكشِفَ لكِ شيئًا عن أغوارِ فسادِها’’. ثُمَّ قوَّسَ حاجبًا مُتَغطرِسًا في استِعلاء. ‘‘هل كلَّفَتْ نفسَها أن تُخبِرَكِ بأنَّ زوجَها كانَ شاذًّا أيضًا، ذا مَيلٍ إلى الغِلمانِ الصِّغار؟ لقد كان پروميثيوس واحدًا منهم.

ذلكَ هو السَّببُ الذي من أجله لم أرِدْ أن يكونَ في بيتي’’.

فقالت برِقَّة: ‘‘إنَّ پروميثيوس تابَ وسلَّم حياتَه لله. وقد رجعَ من تِلقاء إرادتِه لِيَخدمَ السيِّدةَ جوليا. وهي قالَت إنَّه هربَ من پريمُس. لقد أصبحَ مسيحيًّا، ورجعَ إلى بَيتِ أخُتِك. ولولاه، سيِّدي، ما كانَ عِندَ أختِكَ أحَد. فإنَّ جميعَ خُدَّامِها هَجَروها’’.

أجابَ مُتَجهِّمًا: ‘‘أُسلِّمُ لكِ بذلك’’. ثُمَّ رمقَها بنظرةٍ حزينة. ‘‘ليس هذا هو الحديثَ الذي رجَوتُ أن أجرِيَه معكِ’’.

‘‘إنَّه الحقيقة’’.

‘‘وإنْ يكُن’’.

‘‘إنَّكَ مُتشَبِّثٌ بغضبِكَ عليها كما لو كان تُرسًا. لِماذا، لستُ أدري. لقد أردتُ لكَ أن تعرف أنَّ أُختَكَ كانت وحيدةً لولا پروميثيوس. فمهما كانَ من قَبل...’’

قالَ مُقاطِعًا إيَّاها، بضيقِ صَدر: ‘‘حَسَنٌ جدًّا. سأُرسلُ في طَلَبِه إذا سرَّكِ الأمر’’.

‘‘لم يكُن ذلك هو السَّببَ الذي دَفَعَني لأقولَ هذا. إنَّ پروميثيوس بِخَير. لقد أعطته السيِّدةُ جوليا حرِّيَّتَه. وكان ذلك فِعلًا إيثاريًّا مَحضًا من قِبَلِها. إنَّ جوليا هي مَن يَعنيني. وأنتَ أيضًا. عليكَ ألَّا تتخلَّى عنها’’.

جاشَتِ الحرارةُ في داخله. ‘‘لم أتخلَّ عنها. ها هي هنا، أليسَ كذلك؟’’

‘‘بَلى، هي هنا. لقد وفَّرتَ لها المسكَنَ والطَّعام، وخُدَّامًا يعتَنون بها. إلَّا أنَّك تمنعُ عنها ما تحتاجُ إليه أكثرَ الكُلّ’’.

فقالَ ساخِرًا: ‘‘وما هو؟’’

‘‘المحبَّة’’.

ونبضَت عَضَلةٌ في خدِّه. ‘‘سامحيني بِتَعويقكِ عن واجباتكِ، سيِّدةُ عَزار. لكِ أن تنصرِفي!’’

فقامَت هَدسَّة على مهل. والتَقَطَتْ عُكّازَها. "رجاءً، سيِّدي! لِخَيرِها وخَيرِكَ، سامحْها بأيِّ شيءٍ قد فعلَته".

قال: "لستِ تعلمينَ ما فعلَت". وقدِ استَشاطَ غضبًا وتمنَّى لو تَنصرِفُ على عَجَل.

"لا شيءَ أرهَبُ من أن يُمكِنَ تنحِيَتُه جانبًا بِاسْمِ المحبَّة، بِاسْمِ الله".

"إنَّما بسبَبِ الحبِّ لا يُمكِنُني أن أُسامِحَها".

جعلَت كلماتُه المشغوفةُ هَدسَّة أكثرَ حَيرةً من ذي قبل. لكنَّ شيئًا واحدًا فقط كان يقينيًّا في ذهنِها. "إلى أن تتمكَّن من مُسامَحتها، لن تختبِرَ بتاتًا مِلءَ ما يَعنيه أن تكونَ مُسامَحًا أنتَ نفسُك. رجاءً، فكِّر في هذا. لم يَتَبقَّ لديكَ وقتٌ كثير".

وبالفعل، فكَّر مَرقُس في الأمر طويلًا بعدَ انصرافِ عَزار. ورُغمَ تَصميمه على طَردِ كلماتِها من ذِهنه، ظلَّت تعودُ مِرارًا وتَكرارًا. وقد جرَّحتْه في الصَّميم. وتذكَّرَ الفَرَجَ والفرَح اللَّذينِ شعرَ بهما على

شُطوطِ بحر الجليل. وتاقَ لو تعودُ تلكَ المشاعرُ، لأنَّه في مكانٍ ما على طريقِ العَودة إلى الدِّيار زاغَ بَصَره عمَّا قد وجَدَه. وكانَ لا بُدَّ من كَلِماتِ عَرجاءَ مُحجَّبةٍ لتَذكيره بذلك مُجدَّدًا. غيرَ أنَّ الأمرَ لم يَرُقه.

ثُمَّ وقفَ وخرجَ إلى الشُّرفة، مُمشِّطًا شعرَه بأصابعِه. لم يَدرِ هل يستَطيعُ أن يُنحِّيَ الماضيَ جانبًا. ولم يَدرِ هل يستَطيعُ أن يُسامح، ناهيكَ بأن يَنسى. فهوَ ليس المسيح، بَل مُجرَّدُ إنسان، وقد كانَت الوحشةُ بعضَ الأحيان لا تُطاق إلى أقصى الحدود... إذ بدا الله بعيدًا جدًّا. كان قد أحسَّ بأنَّه قريبٌ منه في الجليل. أمَّا هنا فأحسَّ أنَّه وحيد.

لقد كانت عَزار على حقّ. سيَظلُّ السلامُ يروغُ منه حتَّى يُطيعَ الأمرَ الذي تلقَّاه في الجليل. وقد سبقَ أن شعرَ إلى حينٍ بفَرَحِ المسامحة العجيب على شطوط بحرِ الجليل. إنَّ المغفرةَ التي تُنالُ لا يُمكِنُ أن تُمنَع. فيجبُ عليه أن يُغدِقَها على أُختِه، شاءَ أم أبى.

غيرَ أنَّه ما يزالُ يُصارعُ رغبتَه في مُعاقبَتِها لقاءَ ما فعلَت، في جعلِها تُعاني كما جعلَتِ الآخرِينَ يُعانون.

‘‘لا أستَطيع...’’ ثُمَّ حَنَى مَرقُس رأسَه وصلَّى أوَّلَ مرَّةٍ منذُ رُجوعه إلى أفسُس، كلِماتٍ بسيطةً، من صميمِ قلبه.

‘‘يا يسوع، لا أستطيعُ أن أُسامِح. وحدَكَ تستطيع. رجاءً... ساعِدني!’’

٤٥

استلقَت جوليا على أريكةِ نومِها، وفوقَ عَينَيها خرقةٌ بارِدة. وكانت هَدسَّة قد مَضَت لتتكلَّمَ إلى الطبَّاخ بشأنِ إعدادِ مَرَقٍ لها يُمكنُ أن يُهدِّئَ مَعِدَتَها. لم تكُن قدِ استَطاعَتْ أن تأكُلَ مدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، مُنذُ أن أمرَ مَرقُس إيوليوس بإخراجِها من غُرفَته. فما استَطاعَتْ أن تكُفَّ عنِ التفكيرِ في مَرقُس والطريقةِ التي كانَ ينظرُ بها إليها.

وضعَت يدًا مُرتجِفةً على الخرقة، ضاغِطةً إيَّاها على رأسها النابِضِ بالألَم. وتمنَّتْ لو تموتُ الآنَ فتَستريحَ من ألَمِ حياتها وبؤسِها.

ثُمَّ سَمعَت شخصًا يدخلُ الغُرفةَ ويُغلِقُ الباب. فقالَت باكتئاب: "لستُ أشعرُ بالجوع، يا عَزار. رجاءً، لا تُلِحّي عليَّ أن آكُلَ. إنَّما اقعُدي معي واحكي لي قصَّةً أُخرى".

"لستُ السيِّدة عَزار".

جمَدَت جوليا إذ سمِعَت صَوت مَرقُس. فأنزلَتِ

الخِرقة، ظانَّةً أنَّها ربَّما كانت تتخيَّلَه حاضرًا. وقالَت مُحيِّيَةً بتَردُّد: ‘‘مَرقُس’’. وإذ رأتْ أنَّه حقيقيّ، أعدَّتْ نفسَها للهُجوم المحتوم.

شاهدَها تجلِسُ بارتعاش، وتُعيدُ تَسوِيَةَ الأغطيَةِ والوسائد. وكانت يَداها ترتَجفان إذ ردَّتْ شعرَها عن وجهِها. وقد بَدَتْ نحيلةً وشاحبةً كالموت.

قالت: ‘‘رجاءً، اقعُد!’’ مُومئةً بمَودَّةٍ نحوَ المقعد الذي كانت عَزارُ تَشغلُه عادةً.

إلَّا أنَّه بقيَ واقفًا.

لم يكُن في وُسعِ جوليا أن تَستَنتجَ شيئًا من سِيمائه. فقد كان وجهُه الحَسَنُ مثلَ واجهَةٍ من حَجَر. وبدا بصِحَّةٍ جيِّدة رُغمَ الاعتداء الحديثِ العهد على حياته. أمَّا هي، في المقابِل، فكانَت حالُها تسوءُ كلَّ يوم. وأرادَتْ أن تبكيَ إذ جالَتْ عَيناه القاتمتانِ علَيها. لقد عَلمَتْ كيف تَبدو بشَعرها المشعَّث المتَساقِط، وجسمِها المهزول، ووجهِها الشاحِب جدًّا حتَّى ليكادُ أن يكونَ شبه شفَّاف. وكانت قد أخذَتها الحمَّى

مُجدَّدًا، ومُذوِيةً قُوَّتها وجاعِلةً إيَّاها ترتعشُ كالعجوز.

ابتسمَت لهُ بِحُزن. ‘‘كُنتَ في ما مضى تفخرُ بجمالي كما فخرتُ أنا به’’.

فالتَوى فمُه بِبَسمةٍ كئيبة.

وأخذَ قلبُها يدقُّ بقوَّة هَلَعًا من صَمتِه. ‘‘هل غيَّرتَ رأيَك، مَرقُس؟ أتَنوي أن تُرسلَني بعيدًا إلى مكانٍ ناءٍ، حيثُ يتَسنَّى لك أن تنسى أنَّ لكَ أُخُتًا؟’’

‘‘لا. ستَبقَين هنا حتَّى تموتي’’.

تكلَّمَ بشأن موتِها كأمرٍ واقعٍ حتمًا، بحَيثُ اعترَتها البُرودةُ والجمود. ‘‘أنتَ توَّاقٌ إلى ذلك اليوم، أليس كذلك؟’’ وخفضَتْ حَملَقتَها لأنَّ حَملَقتَه باتَتْ ساخِرة. ‘‘أنا كذلك’’.

‘‘حيلةٌ لإثارَةِ شَفَقتي عليكِ؟’’

فرفعَت نظرَها نحوَه، مُتأذِّيةً منِ ازدرائه.

‘‘شفقَتُكَ تُفَضّلُ على ضغينتِك’’.

زَفَرَ مَرقُس نفَسَه، ومشى عبرَ الغُرفة. ثُمَّ وقفَ عندَ أسفَلِ أريكَتِها. ‘‘جئتُ لأقولَ لكِ إنّي عقدتُ عزمي على عَدَمِ بُغضِكِ’’.

‘‘قرارٌ صعبٌ، دونَ شكّ. أنا عارفةٌ بجميلِك جدًّا كلَّ حين’’.

وأثارَت لهجتُها غضبَه. ‘‘هل توقَّعتِ المزيد؟’’

لم تكُن قد بقِيَتْ لَدَيها قُوَّةٌ للدِّفاع عن النَّفس. ‘‘لماذا تأتي إليَّ الآن، يا مَرقُس؟ لِتَرى ما أصابَني؟’’

‘‘لا’’.

قالت- مُدافِعةً الدُّموعَ التي تعرفُ أنَّه يكرهُها- ‘‘أنا ملعونة. يُمكِنُكَ أن ترى كم أنا ملعونة’’.

‘‘الآلهةُ التي لعنتُكِ بِاسْمِها غيرُ مَوجودة، يا جوليا. إذا كُنتِ ملعونة، فذلكَ بسَببِ أفعالكِ الشَّخصيَّة’’.

فأشاحَت بناظرَيها. ‘‘إذًا، لهذا جئتَ: لتُذكِّرَني بما فعلتُ’’. وضحِكَ ضِحكةَ يأسٍ واهيةً خاليةً من المرَح. ‘‘ليس ثمَّةَ ما يدعوك إلى ذلك. فأنا أنظرُ إلى ماضي حياتي باشمئزاز. إنِّي أرى الأُمورَ البائسة التي فعلتُها كما لو أنَّ صُوَرًا رُسِمَت على هذه الجُدرانِ التي أُحدِّقُ إلَيها كلَّ يومٍ’’. وكوَّرَتْ يدًا نحيلةً شاحِبةً على قلبِها. ‘‘أنا أتذكَّر، يا مَرقُس. أتذكَّرُ الأُمورَ كُلَّها’’.

‘‘أتمنَّى أمام الله لو أنِّي لا أتذكَّرُها’’.

عندئذٍ رفعَتْ نظرَها إليه، بعَينَينِ أعشاهُما الكَرْبُ. ‘‘هل تعلَمُ لماذا أرسلتُ هَدسَّة إلى ساحةِ المحاربين؟ لأنَّها جعلَتني أشعرُ بأنِّي **نَجِسة**’’.

تدفَّقَتِ الحرارةُ في أوصالِه، من النَّوع الذي يدفَعُ الرجلَ إلى الغَضَبِ الشَّديد وأفعالِ العُنف. فصرَّ بأسنانِه. ‘‘أُريدُ أن أنسى ما فعلتِ بها’’.

‘‘كذلك أنا’’. وقد نمَّت الحَلَقاتُ الدَّاكِنةُ تحتَ عينَيها عن إتلافاتِ المرَض. ‘‘غيرَ أنِّي لا أظُنُّ ذلك

مُمكِنًا''.

''عليَّ أنا أن أنسى، وإلَّا جُنِنتُ''.

''آهِ، مَرقُس، سامحني! لم أعلَم ما كنتُ فاعِلة''.

فبرقَت عَيناه. وقالَ بِبُرودة- غيرَ قادرٍ على احتِمالِ أكاذيبها- ''كُنتِ تَعلَمين''.

أغمضَت جوليا عَينَيها، وفمُها يرتجف. ومرَّةً واحدةً كانت صادقةً تُجاهَ نفسِها. فقالَتْ بصَوتٍ مخنوق: ''حَسَنٌ جدًّا. كُنتُ أعلم. لقد كنتُ أعلَم، ولكِنّي كنتُ غارِقةً في البؤس أنا نفسي بحيثُ لم أُبالِ بما فعلتُه بشخص آخر. خُيِّلَ إليَّ أنَّه إذا ماتت هَدسَّة فسَيعودُ كلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه من قَبل''. ورفعَتْ نظرَها إليه يائسةً. ''أفي وُسعِكَ أن تفهمَ؟''

فحدَّق إليها ببُرودة. ''وهل تَمَّ ذلك؟''

''أنتَ تعرِفُ أنَّه لم يتمَّ قطُّ''. وأشاحَت بناظِرَيها عن وَجهِهِ البارد. ''لقد أحببتُها أنا أيضًا، يا مَرقُس.

غيرَ أنّي لم أدرِكْ ذلك إلّا بعدَ فواتِ الأوان’’.

فقال، وعَيناه تتوقَّدان: ‘‘أحبَبتِها؟ لقد أحبَبتِ كالاباه’’.

‘‘لقد خَدَعَتْني كالاباه!’’

‘‘دخلتِ تِلكَ العلاقةَ مفتوحةَ العَينَين. وأنا نفسي **حذَّرتُك**، إلَّا أنَّكِ لم تُصغي. فلا تقولي لي الآنَ إنَّكِ لم تَكوني مُتنبِّهة’’. ثُمَّ دارَ مَرقُس ومشى نحوَ الممرِّ ذي القناطر المؤدِّي إلى شُرفةِ جوليا الخاصَّة، غيرَ قادِرٍ على احتِمالِ الوُجودِ بقُربها.

نظرَت جوليا إلى ظَهرِه الجامِد، ورغبَتْ في البُكاء. ‘‘لا أتوقَّعُ منكَ أن تفهم. فكيف لكَ ذلك؟ بعدَما ماتَتْ هَدسَّة، شعرتُ بهذا الفراغ الرَّهيب. ليس فقط لأنَّكَ لعنتَني وانصرفتَ ذلك اليومَ، بل لأنَّ... لأنَّ هَدسَّة كانتِ الشَّخصَ الوحيد الذي أحبَّني حقًّا’’.

فعادَ مَرقُس يُهاجمُها. ‘‘إنَّ رِثاءَكِ لذاتكِ يُمرِضني، يا جوليا. ماذا عنِ الوالِدِ والوالِدة؟ أما أحبَّاكِ

كفايةً؟ وماذا عنّي؟’’

أجابَت برِقَّة: ‘‘لم يكُن ذلك حبًّا من النَّوع نفسِه’’.

فاكفهرَّ وَجهُ مَرقُس.

‘‘أنت تَعرفُ كيفَ كانت. لقد أحبَّتني هَدسَّة بالنَّظرِ إلى مَن كنتُ لا مَن رجَت أن أكون. فلا توقُّعات. ولا شُروط. لقد رأتَني في أسوإ حالاتي، رُغمَ ذلك...’’ وهزَّت رأسَها، مُشيحةً بناظِرَيها.

خيَّمَ السُّكون على الغُرفة.

ثُمَّ قالَتْ جوليا بكآبة: ‘‘لقد ساءَ كلُّ شيء. واكفهرَّتِ الحياة’’. ورفعَت نظرَها إليه، بعَينَين تتوسَّلان طَلَبًا لِلصَّفح.

‘‘لا أُريدُ أن أسمعَ هذا، يا جوليا’’. وأشاحَ بناظرَيه. ‘‘لا أستطيعُ أن أسمعَه’’.

‘‘لم أدرِ ما كانَ مفقودًا حتَّى جاءت عَزار. آهِ مَرقُس، إنَّها مِثلُ هَدسَّة. إنَّها...’’

واستَدارَ مَرقُس، فلمحَتِ الألَمَ في عَينَيه، والغضبَ الذي حاولَ جاهدًا أن يُنكِرَه. وعلمَتْ أنَّها كانَتِ المسؤولةَ عن وجودهما كِلَيهما فقالَت هامِسةً: ‘‘أنا آسفة. أنا آسِفة، مَرقُس... ماذا يُمكِنُ أن أقولَ بَعد؟’’

‘‘لا شيء’’.

فبلعَت ريقَها. ‘‘من شأني أن أُرجعَها لو استَطعتُ’’.

وظلَّ صامتًا بِضعَ لَحَظات. ‘‘لا يُمكِنُ أن أكونَ في هذه الغُرفة مَعَكِ إلَّا إذا توصَّلْنا إلى تَفاهُم. لن نتكلَّمَ بشأن هَدسَّة مرَّةً أُخرى. هل تَفهَمين ما أقول؟’’

شعرَت كما لو كانَ قد أصدرَ عليها حُكمَ الموت. فقالَت: ‘‘أفهمُ’’، وقلبُها ثقيلٌ جدًّا بحيثُ باتَ كحَجَر.

ولم يتكلَّما كِلاهُما بِضعَ لَحَظات.

ثُمَّ قال مَرقُس- رافعًا أحَدَ حاجِبَيه بفتور- ‘‘هل

رآيتِ الوالِدةَ منذُ عهدٍ قريب؟''

فأجابت جوليا بصَوتٍ غيرِ جَليّ: ''أخذَتْني عَزار إلَيها صباحَ أمس. كانَ جميلًا أن أقعُدَ معها على الشُّرفة وأُغمِضَ عينيَّ مُتصوّرةً أنَّ الأُمورَ قد عادَتْ إلى ما كانت عليه سابقًا''.

''إنَّها راضية''.

''هكذا يبدو. أمرٌ غريب، أليسَ كذلك؟'' وارتجَّ فَمُ جوليا إذ كافحَتِ المشاعرَ الجائشة. فرُغمَ حديثه الحياديّ، علِمَت هذا: أنَّه كانَ يُبغِضُها وسيَظلُّ يُبغِضُها مَهما قال. ثُمَّ لماذا لا يفعَلُ ذلك؟ علَيها أن تقبلَ الواقع. وكادَت تتمنَّى لو أنَّ أخاها لم يأتِ أصلًا. فإنَّ عدمَ رؤيته كان مؤلِمًا إلى حدٍّ مَعقول. أمَّا رؤيتُه ولَمسُ الجدارِ القائم بينَهُما فكانا كربًا وعذابًا.

انفتحَ البابُ مرَّةً أُخرى، ودخلت لاڤنيا حامِلةً صِينيَّةَ طعام. وقد كانت تبتسِمُ وتتكلَّم بصوتٍ خافتٍ إلى شخصٍ ما خلفَها. فتوقَّفَت في مدخَلِ الباب إذ رأت مَرقُس، وقد تورَّد خدَّاها.

عرِفَت جوليا تلكَ النِّظرة. فكم من خادِماتِ البيتِ الأُخَر سبقَ أن أُغرِمنَ بمَرقُس! ولم تكُن هَدسَّة إلَّا واحدةً من كثيرات. ‘‘ضعي الصِّينيَّةَ على الطاولِة، يا لاقِنيا، شكرًا لكِ’’. فأطاعَتِ الفتاةُ في الحالِ وانصرفَتْ، مُتخطِّيةً عَزارَ لدى دُخولِها الغُرفة.

قالت عزار: ‘‘سيِّدُ مَرقُس، نهارُكَ سعيد’’.

كان صوتُها دافئًا ومُرَحِّبًا، فاستدرَّ ابتِسامةً منه. ‘‘نهارُكِ سعيد، سيِّدةُ عَزار’’.

ثُمَّ عرجَت عبرَ الغُرفة، وألقَتْ عُكَّازها جانبًا. ومسَّتْ كتفَ جوليا. كانَت تلكَ أدنى تربيتَةٍ من أصابِع عَزار، ولكنَّ جوليا استَرخَتْ كما لو أنَّ الطُّمأنينةَ عاودَتها. فابتسمَت للمرأةِ المحجَّبة، ولمسَت عَزارُ جبينَها، فقالَت: ‘‘لقد عادَتِ الحمَّى، سيِّدتي’’. ثُمَّ رفعَتِ الخِرقةَ المبلَّلة من حيثُ كانت جوليا قد أسقَطَتْها، فوضعَتْها جانبًا والتقَطَتْ خِرقةً جديدة، وغمسَتها في طَستِ الماء البارد. وبعدَما عَصَرَتها مسحَتْ وجهَ جوليا برِقَّة.

استلقَتْ جوليا من جديد، وقد خرجَ منها التَّوتَّرُ الذي لم يكُن مَرقُسُ قد لاحظَه حتَّى ذلك الحينِ. ثُمَّ مدَّتْ يدَها، فتَناولتها عَزارُ إذ قعدَتْ على حافةِ أريكةِ النَّوم. ومسَّدتْ خصلَ الشَّعرِ المبتلَّة عن صُدغَي جوليا، ثُمَّ أدارَت رأسَها نحوَ مَرقُس.

''لقد تفقَّدتُ والِدتَك قبلَ بِضعِ دقائقَ، سيِّدي. وقد نَثَرَ إيوليوس بعضَ الحَبِّ لِلطُّيور. إنَّها تأتي وتحطُّ على الحائط، حيثُ يتسنَّى للوالِدَة أن تُشاهِدها''.

قال: ''لطالَما أحبَّتِ الطُّيورَ كلَّ حين''، شاكرًا على حُضورِ عَزار. فإنَّه هدَّأ التَّوتُّر بينَه وبينَ أُختِه.

''كان زَوجَا يَمامٍ يتفحَّصانِ مُنحوتاتِ الحَجَر. لعلَّهما سيُعشِّشانِ هناك''.

قالت جوليا مُتلهِّفةً: ''أتذكُرُ في روما، يا مَرقُس، كم أحبَّتْ والِدَتُنا أن تشتَغِلَ في حديقةِ الزُّهور وتتأمَّلَ الطُّيور؟ أُوه عَزار، أتمنَّى لو رأيتِ ذلك. لقد كان الـمُقامُ جميلًا جدًّا هناك. لا شكَّ أنَّه كانَ سيَروقُكِ''.

تذكّرَ مَرقُس هَدسَّة خارجةً إلى الحديقة التي تَرامى عليها ضَوءُ القَمَر لكي تسجُدَ أمامَ الرَّبّ.

ومَضَت جوليا تقول: ‘‘كان هُنالِكَ أشجارٌ تُزهرُ كلَّ ربيع، ومَمشًى حَجَريٌّ يتعرَّجُ حولَ مَساكبِ الزُّهور. حتَّى إنَّ الوالدَةَ طلبَت بِناء فانُمٍ بقُربِ السُّورِ الغربيّ’’. ثُمَّ نظرَتْ إلى مَرقُس. ‘‘هل كانَتِ الدارةُ على حالِها لـمَّا رجعتَ إليها؟’’

‘‘كانَت على حالِها، لكنْ خالية. قيلَ لي لـمَّا رجَعتُ من فلَسطين إنَّ الوالدةَ تنازَلَتْ عن حقوقها في الدَّارة لواحِدٍ من أصدقاء الوالِدِ القُدامى في مجلِسِ الشُّيوخ، بشَرطِ استخدامِ العائدات لإعانةِ الفُقراء’’.

قالت جوليا- شاعِرةً بألَمٍ عميقٍ حيالَ الخَسارة- ‘‘آه، كنتُ في طُفولتي سعيدةً جدًّا هناك. كان من عادتي أن أركُضَ في المماشي’’. لقد أزعَجَها أن تُفكِّرَ في إقامَةِ آخرِينَ هناك. غيرَ أنَّها رأتْ في ذلكَ أمرًا حَسَنًا. فلَرُبَّما خالجَ والِدَتَها الشُّعورُ المبهجُ عينُه ذاكَ الذي خالجَها هي لـمَّا أعطَت پروميثيوس حرِّيَّتَه.

وفيما مَرقُس يُصغي إلى جوليا، غمرَته الذِّكرياتُ أيضًا. فتذكَّرَ أُختَه صغيرةً ومُفعمَةً بالمرَح، راكِضةً إليه وواثبةً إلى ذِراعَيه. آنذاكَ كانت بريئةً من العالَم، توَّاقةً إلى سَماع مُغامراته بكُلِّ تفاصيلها. وقد تشرَّبتْ ثرثرةَ صديقتها أُولمپيا وتَملَّقَته لاصطحابها إلى الألعاب سرًّا. وهوَ وافقَ لأنَّه اعتقدَ أنَّ تقييداتِ أبيه كانت غيرَ معقولة آنذاك. أمَّا الآنَ فقد فكَّر في الوالد أنَّه رأى جوليا بوُضوحٍ أكثرَ ممَّا رآها هو. إنَّه لم يُفكِّرْ قطُّ في ما قد يكونُ من أمرِ قُدوتهِ الشخصيَّة المفتقِرة إلى الكمال.

وسألت جوليا: "هلِ عثرتَ على الرجلِ الذي اعتَدى عليك؟" فكانَ شاكرًا على تحويلِ أفكاره عن مَسارِها.

"لم يتَوافَرْ لي الوقتُ ولا الميلُ لاقتِفاءِ آثارِه".

"ولكنْ يجبُ عليك ذلك، يا مَرقُس. يُمكنُ أن يُحاولَ ثانيةً".

"سأعرِفُه عندما أراه في مرَّةٍ تالية. وسيكونُ ذلكَ إنذارًا كافيًا".

فقالت قَلِقةً: ‘‘وماذا لو لم تَرَه أوَّلًا؟ هنالِكَ احتِمالٌ آخر. فماذا لو كان هذا الأعرابيُّ مُجرَّدَ مُرتَزِقٍ استأجرَه شخصٌ آخَر؟ لا بُدَّ من وُجودِ سَبَبٍ وراءَ عُدوانه المسعور. يجبُ أن تعثُرَ عليه وتعلمَ حقيقةَ الأمر، ليتسنَّى لكَ أن تُهلِكَ أعداءَك قبل أن يُهلِكوك هم’’.

التفتَ مَرقُس إلى عَزار. ومع أنَّها لم تقُل شيئًا، ولا فعلَت شيئًا، أحسَّ أنَّها مُتضايِقةٌ من مجرى هذا الحديث. وإذ أرادَ أن يستَبعدَ ذلك الاحتمالَ بجُملَته، قال: ‘‘ربَّما كان سارِقًا، لا أكثر’’.

‘‘لستَ معدومَ المصادر، يا مَرقُس. في وُسعِكَ أن تعثُرَ عليه، إنْ أنتَ أردتَ ذلك’’.

فقالَ بجَلاء: ‘‘إنْ أنا أردتُ ذلك’’.

وتجهَّمَ وجهُها إزاءَ فَظاظتِه. ‘‘لم أقصِدْ أن أُجادِلَ، يا مَرقُس. إنَّما لا أُريدُ لكَ أن تتأذَّى مرَّةً أُخرى فحَسْب’’.

فابتَسمَ لها من عَلُ بالتواءةٍ ساخرةٍ من فَمِه. لا

أحَدَ قد آذاه يَومًا بمقدار ما آذَتْه هي.

وإذ فهِمَتْ جوليا تلكَ النِّظرة، بَرَدَ انفعالُها الداخليُّ. فطأطأت رأسَها.

وضعَتْ عَزارُ يدَها على يدِ جوليا، ورفعَت رأسَها. فتَسنَّى لِمَرقُس أن يُحسَّ أنَّها كانت تنظرُ إليه من خلالِ الحِجاب. ولم يستَطعْ أن يرى وجهَها، إلَّا أنَّه أحسَّ خيبَتها. فنبضَتْ عَضَلةٌ في حَنَكِه، وقال باقتِضاب: "لديَّ عَمَلٌ أقومُ به". وإذ أومأ برأسِه لعَزار مُودِّعًا، اجتازَ الغُرفةَ نحوَ الباب.

وقالَت جوليا باكتئاب: "أتَنوي أن تأتي لزيارتي ثانيةً، يا مَرقُس؟"

فمشى مَرقُس بخُطًى واسِعة خارِجًا من الغُرفة دونَ جواب.

٤٦

أخيرًا، نامت جوليا، وتركَتْ عَزارُ لاڤنِيا لِتَسهرَ عليها حتَّى يتَسنَّى لها هيَ أن تنزلَ إلى البَريستايْل وتُصلِّيَ في عُزلَةِ المختَلى المظلَّل. كان راشِد هو أوَّلَ ما شغلَ فِكرَها، ولكنَّها لم تكُن أكثرَ غَباوةً من أن تُدرِكَ الخطرَ علي نَفسِها إذا اقتَفى مَرقُس آثارَ الأعرابيّ. كما أنَّ فِعلةَ راشِد الطائشةَ قد تُعرِّضُ ألِكسَندر أيضًا للخطر.

فكَّرَت هَدسَّة في كشفِ هُوِيَّتِها لجوليا، وصلَّت طالِبةً إرشادَ الربِّ لها. وكان ما خطرَ في بالِها اليقينُ بأنَّ جوليا ستَفترِضُ وُجودَ مكِيدَةٍ ما على حياةِ أفرادِ أُسرَتها، إذا أعلنَتْ لها حقيقتَها وصِلَتَها بالأعرابيّ. حتَّى الإساءاتُ المتوهَّمةُ كانت كافيةً لدَفعِ جوليا إلى الانتقام في الماضي. فإذا أُثيرَتْ شُكوكُها الآن، يُمكنُ أن تنزِلَ المصائبُ عاجِلًا على كلِّ واحد. وإذا حدثَ ذلك، فماذا سيحلُّ بجوليا؟

كُفُّوا واعلموا أنِّي أنا الله! هكذا قالَ **الروحُ**

داخلَ هَدسَّة. ومن ثَمَّ أطاعَتْ، مُنتظِرةً الربَّ وهي كاشِفةٌ عن آمالِها.

سمعَتْ هَدسَّة خادمًا يفتحُ البابَ الأماميَّ ويُحيِّي مَرقُس. فاستَيقظَتْ حواسُّها. وكان مَرقُس قد غادرَ البيتَ بعدَ مُقابلَةِ جوليا، وبقيَ خارجًا طَوالَ المساء. فبَينَما هو يمشي عابرًا غُرفةَ الانتظار، أبصرَتْه ينظرُ صَوبَها ويتوقَّف. فجلسَتْ مُلصِقةً ظهرَها بحائط المختَلى المظلَّل الصغير، ودقّاتُ قلبِها مُتسارِعة.

فكَّ مَرقُس الإبزيمَ الذهبيَّ على كَتِفه، وتركَ الخادِمَ ينزِعُ عباءتَه عنه. وما إنْ دخلَ البَريستايْل، حتّى نهضَت هَدسَّة. فقال لها: ‘‘رجاءً، اقعُدي!’’ واحتلَّ الجانبَ الآخر من البنك الرُّخاميِّ ذي الشكلِ الهلاليّ. ثُمَّ اتَّكأ إلى الوراء مُتنهِّدًا، ويَدُه على جَنبِه.

تأمَّلَتْ هَدسَّة وجهَه الشاحبَ التَّعِب. ‘‘جُرحُكَ...’’

قالَ بِجَفاء: ‘‘جَيِّدُ الحال. لقد غيَّرَ إيوليوس

الضِّمادة قبلَ ذَهابي''.

''يجبُ أن تُتيحَ لنَفسِكَ وقتًا حتَّى تتعافى، سيِّدي''.

''لستُ رجُلًا مُعتادًا التَّبطُّلَ وقتًا طويلًا''.

''هكذا أرى''.

سمعَ الخَفْضَ في نَبرَتها، فابتسم. وأجالَ نظرَه في المختَلى الصَّغير، مُتذكِّرًا كم سبقَ أن قعدَ هُنا مع هَدسَّة. وهي غالبًا ما كانت تأتي إلى هنا في وقتٍ مُتأخِّرٍ مساءً، أو مُبكِّرٍ صباحًا، لكي تُصلِّي.

قالت هَدسَّة: ''شُكرًا لكَ على رؤيةِ جوليا''.

فانجذبَ راجعًا إلى الحاضِر، ونظرَ إلى عَزار، قائلًا بسُخرِية: ''لم تَجرِ الزِّيارةُ حَسَنًا جدًّا''. واستَغرَبَ أن يشعُرَ براحةٍ بالغة مع امرأةٍ قلَّما عرَفَها. لقد أسَرَته أكثرَ كلَّما رآها.

''إنَّها بَداية''.

‘‘تَعنينَ ضِمنًا أنَّه ينبغي لي أن أتابع’’. والتَوى فمُه على نحوٍ ساخِر. ‘‘لستُ على يقينٍ بأنّي أرغبُ في تَكرارِ الاختِبار’’. فإنَّ مشاعِرَه ظلَّتْ مجروحةً طَوالَ المساء. إذ ظلَّ يرى وجهَ جوليا، مَشحوبًا ومُتوتِّرًا، مُتوسِّلةً في طلبِ شيءٍ لم يشعُرْ بأنَّه يستطيعُ أن يبذلَه يَومًا.‘‘وقد يكونُ أفضلَ أن أدعَها وشأنَها’’.

‘‘أفضلَ بالنِّسبة إلى مَن؟’’

فقال بجَفاف: ‘‘أنتِ صريحة، أليس كذلك؟ أفضلَ لِكِلَينا. بعضُ الذِّكرَيات يُستحسَنُ جدًّا أن تبقى مدفونة’’.

فهِمَت هَدسَّة ذلك فهمًا كافيًا وافيًا. فقد كان عليها أن تُصَلِّبَ عَزمَها من البَداية لِتَضَعَ جانبًا بعضًا من الأمور التي فعلَتها جوليا بها وبغَيرها. ولم يكُن ذلك هيِّنًا. حتَّى في أثناء الاعتمادِ على الرَّبّ، مرَّتْ أوقاتُ جِهادٍ مَرير. ولكنْ أحيانًا- عندَما تتوقَّعُ هي الأمرَ أقلَّ توقُّع- كانت جوليا تُفاجئُها بعذوبتها. فمَرقُس في حاجةٍ لأنْ يرى ذلك ويُذكَّرَ به.

‘‘كيف كانت أختُكَ وهي فتاةٌ صغيرة؟’’

فابتسمَ مَرقُس بمرارة: ‘‘فاتِنةً جدًّا’’.

‘‘حدِّثني بشأنها’’.

ففعلَ ذلك، ناهلًا من حياتهما الباكرة في روما، ومن عَفويَّتِها وجوعِها إلى الحياة، وسُرعةِ مُبادَرتها إلى الضَّحك، وبهجَتِها ومرَحِها. وبينَما هو يتكلَّم، ترسَّخَ حُزنُه، لأنَّه كان قد أحبَّ أُختَه آنذاك، أحبَّها بفَخرٍ شديد وكان يودُّ حمايتها بضراوة.

وقال: ‘‘ثُمَّ التقَتْ كالاباه. وقد عرَّفَتهما أُوليمپيا إحداهُما إلى الأُخرى. وكُنتُ أعلَمُ بأمرِ كالاباه قبلَ زمَنٍ طويل من لقائهما. لقد كانت مشهورةً في روما. وكثُرتْ شائعاتٌ تقولُ إنَّها قتلَت زَوجَها، إلّا أنَّ شيئًا لم يُثبَت قَطُّ. وقد كان لها أصدقاءُ في الأوساطِ العُليا. فلَم تكُن جوليا أوَّلَ مَن أفسدَتهُنَّ بتأثيرِها الرَّديء، ولن تكونَ الأخيرة’’.

وسألت هَدسَّة برِقَّة: ‘‘هل تعتقدُ أنَّ فسادَ جوليا

كان كلّه من فِعلِ كالاباه؟’’

فنظرَ إليها، شاعرًا بتَحَدٍّ خَفِيّ. وما لبِثَ أن أذعَنِ، فزَفَرَ نَفَسَه وأرجعَ رأسَه إلى الوراء، واعترف قائلًا: ‘‘كان لي أنا دَورٌ فيه’’.

‘‘أيُّ دَورٍ، سيِّدي؟’’

‘‘لقد اصطحبتُ جوليا إلى الألعاب، الأمرُ الذي ساءَ والِدي جدًّا. وأعتقدُ أنَّه كانَ سيُسَرُّ بإبقاء جوليا بمنأًى من العالم. فإذ أنظرُ الآن إلى الماضي، يُخيَّلُ إليَّ أنَّه كان على حقٍّ رُغمَ كلِّ شيء. إنَّ بعضًا يَصِلون إلى حيثُ يُدركون فسادَ ما يَرَونه، فيتَحوَّلون مُبتعِدينَ عنه. وآخرون يُكوى إحساسُهم، فيُخدَّرون حيالَ مُعاناةِ الغير. وهم يحتاجون إلى أكثرَ فأكثرَ من الإثارة لإشباعهم، حتَّى لا يعودَ شيءٌ يُشبِعُهم. وجوليا على هذه الشاكلة’’.

‘‘ألَم تعُدْ تحضُرُ الألعاب؟’’

‘‘لم أحضُرْها مُنذُ أمَدٍ بعيدٍ بعيد. لقد فقدتُ مَيلي

إليها على نحوٍ مُفاجئٍ بالأحرى’’. تمامًا كما فقدَ الـمَيلَ إلى أُمورٍ كثيرةٍ كان قدِ استَساغَها في ما مضى.

كيف كان من شأنِ الحياة أن تكون لو أنَّ هَدسَّة بقيَت على قَيد الحياة؟ إنَّه الآنَ يشارِكُها في إيمانها...

ولكنْ لو بقِيَت حيَّةً، ما كُنتَ إطلاقًا لِتَنطلِقَ في مَهمَّةِ البحثِ عن الله.

أزعَجَتْه هذه الفكرةُ المفاجِئة.

‘‘تبدو حائرًا، سيِّدي’’.

‘‘تغيَّرت أشياءُ كثيرةٌ في داخلي منذُ ذهبتُ إلى الجليل’’.

‘‘الجليل، سيِّدي؟’’

فضَحِكَ. ‘‘لقد فوجئتِ. هذا أمرٌ مفهوم. الجميعُ اعتَقدوا أنِّي جُنِنتُ. لماذا يَعمِدُ رومانيٌّ بمَحضِ إرادته للذَّهاب إلى فلَسطين؟’’ وتلاشَتِ

ابتسامتُه. ‘‘كانت لديَّ آسبابي. سافرتُ بحرًا إلى قَيصريَّة على السَّاحل، ثُمَّ امتَطَيتُ حِصانًا إلى مدينةِ القُدس. يا لذَلكَ المكان من مَدينةِ مَوت! لم أمكُث هناكَ طويلًا. أمضَيتُ بِضعةَ أسابيعَ في أريحا عند عائلةٍ عبرانيَّة، ثُمَّ تابَعتُ السَّفَرَ إلى نايين’’. وابتسمَ بمَرَحٍ مُحبَّب، مُتذكِّرًا دَبُورة العجوز.

‘‘نايين؟’’

‘‘أسَمِعتِ بها؟ أمرٌ عجيب! ليست سوى بُقعَةِ تُرابٍ وقليلٍ عدا ذلك. وقد صَرَفَتني امرأةٌ عجوزٌ في الطريقِ إلى بحر الجليل’’. ورأى كيف حبكت عَزار أصابِعَها معًا بإحكام، فتساءلَ عمَّا خَضَّها جدًّا في قِصَّته.

قالت: ‘‘لِماذا ذهبتَ؟’’

فقال، ناظرًا حَوالَيه: ‘‘كان في ما مضى عَبدةٌ شابَّةٌ في هذا البيت. كانت تؤمن بيسوعَ المسيح على أنَّه ابنُ اللهِ الحيّ. وقد أردتُ أن أتبيَّن هل وُجدَ حقًّا’’.

‘‘وهل قُمتَ بذلك؟’’

‘‘نعم’’. وابتسمَ. ثُمَّ أضافَ: ‘‘تمامًا لحظَةَ تخلَّيتُ عن أملِ القيامِ بذلك. ظهرَ لي رجُلٌ اسمُه پاراكليتُس وجاوبَني عن أسئلتي. وطلبَ منِّي أن أذهبَ إلى كَفْرَناحوم، حيثُ سيكونُ رجُلٌ بانتظاري عندَ البوَّابة. وقد وجدتُ ذلك الرجلَ هناك، وكانَ اسمُه كُرنيليوس. وهو عمَّدني في بحرِ الجليل وقال إنَّ اللّه يُريدُ لي أن أرجعَ إلى أفسُس. وهكذا...’’ ثُمَّ ابتسمَ لها ابتسامةً كئيبة وبسَطَ يَدَيه تعبيرًا عنِ الاستِخفافِ بالذَّات. ‘‘أنا هنا’’.

قالت همسًا: ‘‘أُوه، ربَّاه!’’ فذكَّرَه دفءُ صَوتها وفَرَحُه بما سبقَ أن شعرَ به لما خرجَ من البحر خليقةً جديدة. ‘‘لم أعلَم’’.

فضحِكَ ضِحكةً جافَّة: ‘‘ولماذا ينبغي أن تَعلَمي؟ لستُ مسيحيًّا كاملًا’’.

‘‘لا بأس، ولكنَّ الربَّ أمينٌ، يا مَرقُس. سيُشكِّلك إناءً له’’.

وتلاشَتْ بَسمَتُه. ‘‘إذا لمِ آحطِّمه شظايا آوَّلًا’’. وانحنى إلى الأمام، شابكًا يَدَيه بين رُكبتَيه. ‘‘أنا أعلمُ ما يُريدُه الله منّي. غير أنِّي لستُ مُستَعِدًّا تمامًا للقيام به. ليس الآن. وربَّما البتَّة’’.

جَرَتِ الدُّموعُ على خدَّيها. ومالَتْ إلى الأمام فأمسكَت يَدَيه، ويداها ترتجفان. ‘‘من ذواتِنا، لا نستطيعُ القيامَ بأيِّ شيء. هو الله مَن يُتمُّ مقاصِدَه’’.

أدفأتِ المحبَّةُ في صَوتها كامِلَ جِسمِه. وقد كانت يَداها قويَّتين ورقيقتَين. فلم يُردْ أن يُرخيَها. واكتَوتْ عَيناه، لأنَّ جوليا كانت على حقّ: عَزار كانت تُشبِهُ هَدسَّة كثيرًا. فتَسارعَتْ دقَّاتُ قلبه، مُتمنِّيًا لو يَرى وجهَها.

وسحبَت هَدسَّة يَدَيها من يَدَيه على مَهل، واتَّكأت إلى الوراء.

راقبَ مَرقُس عَزار تشبكُ يَدَيها في حِضنِها. فاستَطاعَ أن يُحِسَّ توتُّرها، وتمنَّى لو تَسترخي وتتكلَّمُ إليه كما تكلَّمَت إلى أُختِه. فقالَ برِقَّة.

‘‘أودُّ أن أعرِفَ المزيدَ عنك’’.

‘‘أنتَ تَعرِفُني جيِّدًا تمامًا بالفعل، سيِّدي’’.

ابتسمَ ابتِسامةً خفيفة، مُميلًا رأسَه. إنَّ تلكَ الابتسامةَ عَينَها كثيرًا ما استمالَتْ وفطرَت قلوبَ نِساءٍ أُخَرَ لا يُحصَى عددُهنَّ. ‘‘أنا أعلَمُ أنَّكِ مارستِ مِهنةَ الطِّبِّ مع ألِكسَندر ديموسيدِس أماندينُس، لكنْ قليلًا غيرَ ذلك’’.

‘‘أنا هنا لأجل جوليا، سيِّدي’’.

‘‘أه، نعم. جوليا...’’ تنهَّدَ وأسندَ ظهرَه إلى الحائط، وقد سترَتِ الظِّلالُ وجهَه.

‘‘هل قُلتَ لها إنَّكَ قبلتَ المسيحَ مُخلِّصًا لكَ، سيِّدي؟’’

‘‘تحويلٌ بارعٌ للحديث’’. وضحِكَ ضِحكةً رقيقة. ‘‘لا’’.

‘‘لِـمَ لا؟’’

‘‘لأنَّها لن تُصدِّقَ ذلك أبدًا. وأنا لستُ مُتيقِّنًا بأنِّي أُصدِّقُه. ربَّما كان كلُّه حُلمًا، ولم يحدُثْ قطُّ في الواقع. فما شعرتُ به في الجليل لا أشعرُ به الآن يقينًا’’.

‘‘بِمَ تشعُر؟’’

‘‘بأنِّي في صِراعٍ مع الحياة’’.

‘‘ذلكَ لأنَّكَ لم تعُدْ من هذا العالَم’’.

فالتَوى فمُه بابتِسامةٍ ساخِرة. ‘‘لقد شعرتُ بأنِّي في صراعٍ مع الحياة قبلَ ذَهابي إلى فلَسطين بزَمَنٍ طويل، يا عَزار. إنَّ استِيائي يرجعُ إلى عهدٍ بعيدٍ بقَدْرِ ما يُمكِنُني أن أتذكَّر’’.

‘‘إنَّ الله اختارَ أولادَه قبلَ تأسيس العالَم. وأنتَ قد مُلِئْتَ بالعَطَش إلى الماء الحيِّ منذُ ولادَتِك، يا مَرقُس. فإلى أن طلبتَ المسيح، أخفقْتَ في العُثور على سبيلٍ لِمَلْءِ الفراغ في داخلِك. يسوعُ المسيح وحدَه يُشبِع. فصَلاتي أن تكونَ جوليا واحِدةً من المختارينَ أيضًا’’.

‘‘أشكُّ في ذلك’’.

‘‘لماذا إذًا ينهشُها الأسى الشَّديد؟’’

‘‘لأنَّها مائتةٌ بمرَضٍ جلبَتْه على نفسِها. لا تَغلطي بحسبانِ ذلكَ نَدَمًا على أيِّ شيءٍ آخَر فعلَته’’.

‘‘ألا يُحتمَلُ أن يكونَ الجوعُ الذي دفعَكَ في دُروبِ الحياة هو الجوعَ نفسَه الذي يدفعُ أُختَك؟’’

‘‘لِنَتباحَثْ في أمرٍ من الأُمور الأُخرى’’.

‘‘ليس من أمرٍ آخرَ أهمَّ من أن تُسامحَ أُختَك’’.

‘‘لا أُريدُ أن نتكلَّمَ بهذا!’’

‘‘هي لَحمٌ من لَحمِك. إذا كان حُزنُها حسَبَ مشيئة الله، فسيُنتجُ تَوبةً بِلا ندامةٍ تقتادُها إلى الخلاص’’.

فقالَ مُتحدِّيًا ببرودة: ‘‘وإذا لم يكُن؟’’ وقد أسخطَهُ عدمُ إذعانِها لإرادته.

‘‘عندئذٍ ستَموتُ دونَ أن تعرفَ المسيح. وستَقِفُ أمامَ اللّهِ القدير وتُدانُ من أجلِ خطاياها. أذلكَ هو ما تريدُه، يا مَرقُس؟ أن يَدينَها الله ويطرحَها في بُحَيرةِ النار إلى أبدِ الآبدين؟’’

فأشاحَ بناظرَيه مُتضايقًا، وعَضَلةٌ تهتزُّ في خدِّه.

وقالت عَزار بلُطف: ‘‘سيِّدي، لقد أرسلكَ الله إلى الدِّيار لكي تُبلِّغَ جوليا البِشارة’’.

‘‘إذًا، بلِّغيها أنتِ إيَّاها’’.

‘‘لقد فعلتُ ذلك. لقد أخبرتُها مِرارًا وتَكرارًا. ولَسوفَ أظلُّ أُخبِرُها ما سمحَ الله بذلك’’.

وأحسَّ دُموعًا في صَوتها. ‘‘إذا كانت جائعةً إلى الله، فستَهتَدي إليه كما اهتَدَيتُ أنا’’.

‘‘ليسَ بلا مُسامَحتِكَ، يا مَرقُس’’.

‘‘فليُسامِحْها الله!’’

‘‘سيُسامِحُها إنْ هي طلبَت، ولكنْ أحيانًا يحتاجُ

بعضُ الناس لأنْ يُمسَكوا باليَد ويُوَجَّهوا إلى تلك اللَّحظة لأنَّهم أشدُّ خَوفًا من أن يَخطوا تلكَ الخُطوةَ من تِلقاءِ أنفُسِهم. فقُدْها إليها مُمسِكًا بيَدِها''.

فكوَّرَ يدَه قبضةً. وقالَ همسًا: ''اللَّعنةُ عليكِ. اللَّعنةُ عليكِ لأنَّكِ فعلتِ هذا بي''.

وإذ شُدِهَت وجُرِحَت، لاذَت بالصَّمت.

فأحسَّ انكِفاءَها. وقالَ مُغمِضًا عَينَيه: ''أنا آسِف. ليسَ عَلَيكِ أنا غاضِب. إنَّ الله يطلبُ ما يفوقُ طاقتي''.

''أيفعلُ ذلك؟ لقد غفرَ المسيح لأُولئك الذين دقُّوا المساميرَ في يدَيه ورجلَيه. وقد غفرَ لِلَّذينَ استهزأوا به وهو مُعلَّقٌ على الصليب. حتَّى إنَّه سامَحَ تلاميذَه إذ خذلوه. ألَسنا كلُّنا على هذه الشاكِلة، يا مَرقُس؟ لامَعصومين، خائفين، ضُعَفاءَ في إيماننا. رُغمَ ذلك يحبُّنا المسيحُ ويدلُّنا على الطريق إلى الحرِّيَّة الحقيقيَّة وما تَعنيه''. وانحنَتْ إلى الأمام قليلًا، فأحسَّ جدِّيَّتَها. ''لقد

سامحَكَ اللّه لكي **تُسامِحَها** أنت’’.

نهضَ مَرقُس غاضبًا بسببِ عذابه الشَّديد. كان يرجو بِضعَ دقائقَ من الحديثِ المشَوِّق، لا كلامًا يُقَرِّحُ ضميرَه ويُجدِّدُ أساه.

‘‘أنت تعرفينَ جُزئيًّا، سيِّدة عَزار. أمَّا أنا فأعرِفُ الكُلَّ. لو عرَفتِ كُلَّ ما فعلَته جوليا، لَفَهِمتِ سببَ شُعوري بما أشعرُ به’’.

‘‘إذًا أخبِرني’’.

‘‘لا تُغيِّري ما هو حَسَنٌ كِفايةً!’’

‘‘أهوَ حَسَن؟’’

‘‘في وُسْعِ جوليا أن تُدليَ باعتِرافاتها الخاصَّةَ. وإذا كان الغُفران هو ما تحتاجُ إليه، ففي وُسْعها أن تذهبَ إلى اللّه طلَبًا له’’.

راقَبَتْه هَدسَّة يَمشي مُبتعدًا. وبقَلبٍ مُثقَلٍ بالأسى، حَنَتْ رأسَها مرَّةً أُخرى مُصلِّيةً. وبقِيَت في المختلَى المظلَّلِ الصَّغير إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ

جدًّا بعدَ إخلادِ الخُدَّامِ إلى النَّوم. ثُمَّ قامَتْ آخيرًا لِتأوِيَ إلى سريرها.

أمَّا مَرقُس، وحيدًا ومُوجَعًا، فوقفَ في ظِلال الرِّواقِ فوق، يُراقِبُها.

٤٧

قعدَ مَرقُس مع والِدَته على شُرفتها، مُحادِثًا إيَّاها بأُمورٍ دُنيويَّة، فيما كانت طيور اليَمام تقتاتُ بالخُبز الذي كان إيوليوس قد وضعَه لها على الحائط. ثُمَّ أمسكَ يَدَ أُمِّه، فربَّتها مُتمنِّيًا لو تستطيعُ أن تتكلَّمَ بِوُضوحٍ كافٍ لإفهامِه. لـمَّا رجَعَ إلى البيتِ أوَّلَ مرَّة، كرَّرت "ها... دا..."مِرارًا وتَكرارًا. وكانت تُحدِّقُ في عينَيه بحِدَّةٍ شديدةٍ جعلَتْه يتيقَّن بأنَّها تُحاوِلُ أن تقولَ له شيئًا ما. غيرَ أنَّ تذكيرَه الدائمَ بهَدسَّة لم يؤدِّ إلَّا إلى إيلامِه. ولا بُدَّ أن تكونَ قد أدركَتْ ذلك، لأنَّها- والحَمدُ لله- كفَّت عن ذِكرِ هَدسَّة نهائيًّا.

أمَّا اليومَ فقالت: "جُو... لِيبي".

أجاب: "لقد رأيتُ جُوليا وكلَّمتُها، يا أُمِّي". ولم يُضِفْ سوى: "عَزارُ تهتمُّ بجميع حاجاتها".

فأطلقَتْ صَوتًا خفيفًا. وكان مَرقُس واعِيًا كيفَ تبذلُ كُلَّ جَهدٍ لتُعبِّرَ له عن أفكارِها، وأنَّها لا تستريحُ إلَّا متى نجحَت في ذلك. وقد رآها

تَستَريحُ الآن، مُسنِدةً كتِفَيها إلى الوراء على ظَهرِ الكُرسيّ الموسَّد. كان فمُها مُرتَخِيًا قليلًا، فقبَّلَ مَرقُس يدَها، وقعدَ صامِتًا مطأطِئَ الرأس، غيرَ عالمٍ ما يقولُ.

كلَّما جاء لِيَقعُدَ مع أُمِّه، وجَدَ أُمورًا أقلَّ يتحدَّثُ بشأنها. ماذا يُمكِنُ أن يقولَ ليُوفِّرَ أيَّ عزاء؟ هلِ كان كلُّ شيءٍ بخَيرٍ في البيت؟ أم أنَّه كانَ سعيدًا؟ لا، لا شيئًا من ذلك. ولكنَّه رُغمَ ذلك شعرَ بأنَّ صراعاتِه كانَت تخصُّه وحدَه، والأفضلَ إبقاؤها لنفسه. فماذا كانَ في وُسعِ أُمِّه- وهي مُقيَّدةٌ بمرضِها على حالِها- أن تفعلَ لتُساعِدَه؟ إنَّه لن يزيدَها إلَّا همًّا وغمًّا.

راقبَت فيبي ابنَها وعلِمَت أنَّه لم يكُن بخَير. أحسَّت قلَقَه. لقد علمَتْ أنَّ صمتَه لم يكُن علامةً على الرِّضى، بل على قَلبٍ مُضطرِب. وهوَ لم يُدرِك كم أخبرَها إيوليوس بما كان جاريًا في عائلتها. إذ علِمَتْ أنَّ مَرقُس قد رأى جوليا. وعلِمَت أيضًا أنَّه لم يُسامِحْها. وقد قالَ لها إيوليوس إنَّ مَرقُس بلَّغَ جوليا أنَّه قرَّر أن يضعَ الماضيَ جانبًا. وعرَفَت فيبي السَّبب. إنَّه لم يُرِد

أن يُواجِهَه.

وكثيرًا ما صلَّتْ حينَ يكونُ جالسًا بقُربِها على الشُّرفة. **ماذا يُمكِنُني أن أفعلَ بَعدُ، يا ربّ؟ فليُعطِني الرُّوحُ الكلمات. أتضرَّعُ إليكَ من كلِّ قلبي لأجلِ وَلَديَّ. من شأني أن أبذلَ حياتي لأجلِهما، ولكنْ من يَعرفُ ذلك النَّوع من المحبَّة أفضلَ منك. فأنتَ قد بذلتَ حياتك لأجلِهما فعلًا. أيُّها الرَّبُّ الإله، ليتَهما يَرَيانِ الحقيقة، ليتَهُما يَعلمانِ ويُدرِكانِ تمامًا. ويا ليتَني أعيشُ لأرى ذلكَ اليوم...**

قال مَرقُس مُقاطِعًا صلاتها: "عَزارُ تخلُبُ لُبِّي. أودُّ أن أعرفَ المزيدَ عنها، ولكنَّها دائمًا- كما يبدو- تُحوِّلُ الحديثَ إلى شؤونٍ أُخرى".

"جو... لِيي..".

"نعم. جوليا. عَزار لا تُغادِرُ جانبَ السَّرير أبدًا قبلَ أن تنامَ جوليا. وقد فهِمتُ أنَّ عَزار تزورُكِ يوميًّا أيضًا".

فأغمضَت فيبي عينَيها وفتَحتهُما جوابًا.

‘‘يُخيَّلُ إليَّ أنَّها تُصلِّي معكِ’’.

ومرَّةً أُخرى، أغمضَتْ فيبي عَينَيها وفتحَتهُما.

فقالَ بابتِسامةٍ واهِية: ‘‘يبدو أنَّ الصلاةَ هي سَلواها الوحيدة. فهي تقعد في مُختَلي البِرَيستايْل وتُصلِّي. إنَّه ذاك الذي كان يروق هَدسَّة. وقد أمضَتِ الليلَ كلَّه هناك قبلَ بِضعةِ أيَّام’’. وتوقَّفَ ثُمَّ أضاف: ‘‘لقد أثَرتُ استِياءَها’’.

ثُمَّ قبَّلَ يدَ أُمِّه ووضعَها على فخذه إذ نهضَ مُتململًا. وطارَتِ اليَمامات. فوقفَ عندَ السِّياج ونظرَ إلى المدينةِ خارِجًا. ‘‘قد أذهبُ إلى الطبيب وأتكلَّمُ إليه. لا يبدو أنِّي أتلقَّى الإجاباتِ التي أُريدُها منها’’.

لم تُصدِرْ فيبي أيَّ صوت. فقد علِمَت منذُ أمَدٍ بعيد أنَّه لا بدَّ أن يكون لدى هَدسَّة سببٌ وجيهٌ لعدم كشفِ هُويَّتِها. ومهما كانتِ الأسباب، فلا بُدَّ أنَّها من الله. فإذا قَضَتْ مشيئةُ الله بأن يعرِفَ

مَرقُس أنَّ هَدسَّة حيَّة، وثِقَتْ به فيبي أنَّه سيَختارُ وقتَه الخاصَّ لِكَشفِها.

خرجَ إيوليوس إلى الشُّرفة. ‘‘يؤسِفُني أن أُقاطِعَكُما، سيِّدي، ولكنْ جاءَكَ زائران: عزرا بارياكين، وابنتُه تَفاثا’’.

فوجئ مَرقُس وسُرَّ، فانحنى مُقبِّلًا خَدَّ أُمِّه. ‘‘سأرجعُ في ما بعد. هذان هما الشَّخصانِ اللذانِ ذكرتُهما، من العائلة التي استَقبلَتْني في بيتِها بأريحا’’.

فأغمضَت عَينَيها وفتحَتهُما. لَولاهما، لَماتَ مَرقُس على الطريق إلى أريحا. وتاقتْ لأن تسمعَ بِما تكلَّما بشأنه. فإذ غادرَ مَرقُس الغُرفة، نظرَت إلى إيوليوس. وبدا قادرًا على قراءةِ أفكارِها، فقالَ مبتسمًا بفُتور: ‘‘سأخدمُهما بنَفسي’’. وأومأ للاقنِيا أن تبقى مع فيبي.

هبطَ مَرقُس الدَّرجَ على عَجَل. وضَحِكَ فَرحًا لـمَّا رأى صَديقَيه. وقد بدا عزرا مُغيَّرًا قليلًا جدًّا إذ وقفَ في ثيابِهِ وسطَ غُرفةِ الانتِظار. أمَّا الشابَّةُ بجانِبه

فكانت مسألةً أخرى.

صافَحَ مَرقُس اليهوديَّ باليَد في ترحيبٍ حارّ، قائلًا: ‘‘عزرا، جميلٌ أن أراك!’’

فأجاب عزرا مُمسِكًا بذِراعه: ‘‘وأن أراكَ أيضًا، يا مَرقُس’’.

ونظرَ مَرقُس محملِقًا إلى الفتاةِ الواقِفة وراءه تمامًا. ثُمَّ تقدَّمَ إليها مادًّا يَدَيه. فأمسكَتهُما ويداها ترتَجفانِ قليلًا. وقال: ‘‘تَفاثا، أنتِ أكثرُ جمالًا بَعدُ ممَّا أتذكَّر’’، مُبتَسِمًا إذِ انحنى لِيُقبِّلَ خدَّها مُرَحِّبًا.

قالَت: ‘‘لقد وصلتَ إلى ديارِكَ سالِمًا، سيِّدي. أرَدنا أن نَتيقَّن’’.

فأجابَ مُبتَسِمًا: ‘‘وصلتُ دُونَ مَزيدٍ من الحوادِث المؤسِفة. هيَّا إلى التِّريكلينيوم. إيوليوس، أحضِر بعضَ المنعشات. لا لحمَ خِنزير، وهاتِ أجودَ الخمر’’.

وراقبَ مَرقُس تَفاثا إذ جالَت حَملَقتُها في أنحاء

الغُرفةِ الأنيقة، بِما فيها من جرارٍ رومانيَّةٍ، وزُجاجٍ كُورِنثيّ، وأرائكَ فاخِرَةِ الأغطيَةِ، وطاوِلاتٍ من مَرمَر... ثُمَّ عادَتْ أخيرًا لِتَسَتقرَّ عليه باستِحْياء. لقد سبقَ أن رأى تلكَ النّظرةَ في عيونِ نِساءٍ أُخَرِ، وعلمَ أنَّها لم تتغلَّبْ على افتِتانها. فأحسَّ نَبضَه يتسارَع، وأدركَ أنَّ انجِذابَه إلَيها كانَ قويًّا.

قالَ مَرقُس- مُومئًا لِعَزرا أن يحتلَّ أريكةَ الشَّرَف- ‘‘بيتي بيتُكَ ما دُمتَ في أفسُس. هل زوجتُكَ مَعَك؟’’

فقالَ عزرا: ‘‘ماتت يَهوشيَع بُعَيدَ مُغادرَتكَ لأريحا’’. وجلسَ مُستَريحًا. ثُمَّ مدَّ يدَه لِتَفاثا، فقعدَت إلى جانبه.

قدَّمَ مَرقُس تعازِيَه، ثُمَّ تكلَّمَ باختِصارٍ بشأن زوجةِ عزرا. ‘‘ماذا أتى بكَ إلى أفسُس؟’’

فأجابَ عزرا ، مُبتسِمًا مرَّةً أُخرى: ‘‘عَمَلٌ بالغُ الأهمِّيَّة. قبلَ أن أُخبِرَك، هناكَ أُمورٌ يجب أن نتباحثَ فيها’’.

‘‘لقدِ افتقدتُ مُناقَشاتِنا، يا صديقي. يجبُ أن تمكُثَ هنا معنا. المكانُ واسعٌ جدًّا. في وُسعِكَ أن تأتيَ وتذهبَ قائمًا بعملِكَ كما تشاء’’.

وسألَ عزرا بِلا مُقدِّمات: ‘‘هل وجدتَ اللّٰه؟’’

لاذَ مَرقُس بالصَّمتِ إلى حين، لامِسًا كم أنَّ السؤال مُلحّ. ونظرَ إليه عَزرا وتَفاثا كِلاهُما بانتِظار، وقد علمَ أنَّ جوابَه سيُحدِّدُ هل يَبقَيانِ أو يَرحَلان، وهَل يثِقانِ به أو لا.

وقالَ مَرقُس: ‘‘أنت تتذكَّرُ بمَن تكلَّمْنا أغلبَ الأحيان على سَطح بيتِك’’.

أجابَ عزرا، مومئًا برأسِه إيجابًا: ‘‘يسوع’’.

وتحدَّثَ مَرقُس بشأن رِحلتهِ إلى نايين، وبشأن دَبُورة، وكيفَ صرفَته إلى بحرِ الجليل، حيثُ التَقى پاراكليتُس. كما تحدَّث بشأن إسراعهِ إلى كَفرَناحوم، حيثُ وجدَ كُرنيليوس بانتِظارِه. ‘‘آنذاكَ آمنتُ بأنَّ يسوع هو المسيح، ومن ثَمَّ تعمَّدتُ بِاسْمِه’’.

فضَحِكَ عزرا: ‘‘هذا خَبَرٌ طيِّب! أنا لم أتعمَّدْ لِلمسيح قبلَ وُصولي إلى الكنيسة في أنطاكية. آنذاك، كانَت تَفاثا قد قبِلَتِ الرَّبَّ أيضًا، ومعها بَرثُلماوُس’’.

قالَ مَرقُس، ناظِرًا إليها: ‘‘بَرثُلماوُس؟’’ فخفضَت عينَيها.

فقال عزرا: ‘‘شابٌّ من أريحا. وغالبًا ما كان يُرافقُ تَفاثا إلى البيت رُجوعًا من البئر. إنَّه مُكرَّسٌ لِلرَّبِّ من كُلِّ القلب. ولـمَّا قرَّرتُ أنَّه ينبغي لنا أن نُسافرَ إلى أنطاكية لنَتعلَّمَ المزيدَ عن يسوع من الكنيسة هناك، اختارَ بَرثُلماوُس أن يترُكَ أباه وأُمَّه ويُرافِقَنا’’.

وقالَ مَرقُس لِتَفاثا: ‘‘هل سأُقابِلُ فَتاكِ هذا؟’’

فقالَت تَفاثا بسُرعة بالغة: ‘‘لَسنا مَخطوبَين، سيِّدي’’. وتورَّدَ وجهُها.

أجابَ مَرقُس، مُبتَسِمًا بعضَ الشَّيء: ‘‘اعتِذاراتي! لقد خُيِّلَ إليَّ...’’ والتفتَ إلى عزرا.

فعلّق عزرا باقتِضاب: ‘‘لم يُرِد بَرثَلماوُس أن يتدخَّلَ بأيَّة طريقة في اجتماع شَملِنا’’. ثُمَّ لاذَ بالصَّمت، هوَ وتَفاثا.

أجالَ مَرقُس نظرَه من الأبِ إلى الابنة، ثُمَّ استَقرَّت عَيناه على تفاثا. فتَلقَّتْ عَينَيه باستِحياء، ووجدَ أنَّ عينَيها مُفعَمتان بالعاطفة العميقة... واللّايَقين. وأخيرًا قالَ مَرقُس، مُشيحًا بناظِرَيه عن تَفاثا: ‘‘قُلتَ إنَّك هنا في مسألةٍ مُهِمَّةٍ جدًّا’’.

‘‘قِيلَ لي في أنطاكية إنَّ الرَّسولَ بولُس كتبَ رسالةً إلى الكنيسة هنا. وقد سمعَها أحَدُ الإخوة، وقالَ إنَّها رسالةٌ بالغةُ الأهمِّيَّة. لقد جئتُ لكي أسمعَها تُتلَى أنا نفسي وأستأذِنَ بِنَسخِها وحَملِها إلى الكنيسة في أنطاكية’’.

‘‘ما كُنتُ لأعرِفَ بأمرِ رِسالةٍ كهذه، ولا بأمرِ الكنيسةِ هنا’’.

وبدا عَزرا مَدهوشًا: ‘‘ألَم تلتقِ مسيحيِّين آخَرين منذُ رُجوعِك؟’’

“لم يتوافَر لي الوقتُ ولا الـمَيل. والِدَتي وأختي كِلتاهُما مريضتانِ جدًّا، ولَدَيَّ أيضًا مسؤوليَّاتُ سُفُني ومركَزي التِّجاريّ”. ثُمَّ سكبَ إيوليوس الخمرَ التي كانت قد وُضِعَت أمامَهم. وناولَ عزرا كأسًا ذهبيَّة، وتَفاثا كأسًا أُخرى. ولـمَّا خُدِمَ الجميع، انسحبَ وأشرفَ على إحضارِ الطَّعام.

قالَ عزرا: “أجِدُه أمرًا يُقوِّي إيماني أن أتلقَّى التَّشجيعَ من إخوَتي المؤمنين. إنَّ إخوَتَنا وأخَواتِنا في أنطاكية يُصلُّون لأجلنا في أثناء هذه السَّفرة”.

تَحدَّثوا بسُهولة على غرار أحاديثِهم على السَّطح في أريحا. واستَمتَعَ مَرقُس بالمحادثة. لم تقُل تَفاثا الكثير، ولكنَّ حُضورَها كان مُبهِجًا، إذ زيَّنَ جمالُها الغُرفة. وفيما راقبَها مَرقُس بينَ الفَينَةِ والأُخرى، تذكَّرَ كيف فكَّرَ فيها كثيرًا في أثناء الأسابيع القليلة الأُولى بعدَ مُغادَرتهِ أريحا.

لَفَتَت حَركةٌ عينَيه، فنظرَ ليرى عَزار تهبِطُ الدَّرَج بِمَشقَّةٍ بادية. فقامَ عن الأريكة مُسرِعًا. وقالَ لِعَزرا: “ها هنا امرأةٌ أوَدُّ لَكُما كِلَيكُما أن

تُقابِلاها". ثُمَّ خرجَ إلى غُرفةِ الانتِظار. "سيِّدةُ عَزار، لَدَيَّ ضَيفانِ من فلَسطِين. رجاءً، انضمِّي إلَينا".

عرَجَت على مهلٍ نحوَ الممرّ ذي القَناطر، ثُمَّ دخلَتِ التِّريكلينيوم، حيثُ كانا بانتِظارها. وبسَطَ مَرقُسُ ذراعَه لها، فتردَّدَتْ ثُمَّ ألقَتْ يدَها عليه للاستِناد، داخِلةً الغُرفةَ إلى جانبِه. وتولَّى التَّعريف، آمِلًا في سِياقِ الحديث أن تكشِفَ شيئًا من ماضيها لِهذَين اللَّذَين من بَلَدِها. وبدا الدَّهَشُ والسُّرورُ على عزرا بارياكين لـمَّا حيَّتهُ عَزار بالآراميَّة. فكلَّمها باللُّغةِ عَينِها، وجاوبَت.

أقعدَها مَرقُس على الأريكةِ القريبةِ إليه. وقالَ لها آمِرًا بصَوتٍ مَهموس، قبلَ أن يعتدِلَ: "أُفضِّلُ أن تتكلَّمي باليونانيَّة".

"عُذرًا، سيِّدي! لقد سألَني صديقُكَ عن مركَزي في هذا البيت، فقلتُ له إنِّي أخدِمُ أُختَكَ جوليا". ثُمَّ رفضَتْ كأس الخمر التي قدَّمها إيوليوس إليها، وأدارتْ رأسَها نحوَ تَفاثا التي كانت تُراقِبُها بفُضولٍ ظاهِر.

قالَ مَرقُس لهما: ‘‘لكُما أن تتكلّما بحرِّيَّة. فالسيِّدةُ عَزار أيضًا مسيحيَّة’’. وابتَسمَ لهما ابتسامةً مائلة، مُضيفًا: ‘‘واحدةٌ أفضلُ منِّي، يا صديقي’’. والتَفَتَ نحوَ عَزار. ‘‘لقد جاء عزرا بارياكين وابنتُه إلى أفسُس للِقاء الكنيسة هنا’’.

أومأتْ هَدسَّة برأسِها دونَ كلام، وقعدَتْ تُصغي بشَوقٍ فيما أطلعَها عزرا على سببِ قُدومه إلى أفسُس.

‘‘لَولا السيِّدُ مَرقُس لكُنَّا ما نزالُ في أريحا عائشَينِ تحتَ ثِقلِ الشَّريعة’’.

‘‘لَولا هذانِ الاثْنان، لكانت عِظامي الـمُبَيَّضةُ مطروحةً في وادٍ على الطريق إلى أريحا’’. وتحدَّثَ مَرقُس بشأن اعتِداء اللُّصوصِ عليه وتَركِه لِيَموت. ‘‘لقد اعتَنَتْ بي تَفاثا حتَّى تعافَيتُ’’.

فقالَت تَفاثا برِقَّة: ‘‘هو الربُّ مَن هدانا إليك، والربُّ مَن عافاكَ’’.

شعرَت هَدسَّة بوَجَعٍ كَليلٍ في قلبِها إذ رأتِ

الطريقةَ التي بها رَنَت تَفاثا الحَسناءُ إلى مَرقُس. لقد كان واضِحًا أنَّها في أثناء الأسابيعِ التي أمضاها مَرقُس في بيتهِما وقعَتْ في حبِّه. فهل أحبَّها هوَ أيضًا؟

ما كانَت هَدسَّة يومًا واعيةً لِنُدوبِها وعَرَجِها أكثرَ منها في تلكَ اللحظة. ولم تستَطِعْ أن تنظُرَ إلى وجهِ مَرقُس، يقينًا منها بأنَّها سترى المشاعرَ التي شعَّت على وجهِ تَفاثا مُنعكِسةً على وجههِ كما في مرآة. كيفَ يُعقَلُ ألَّا يكونَ قد أُغرِمَ بفتاةٍ عَذبَةٍ وجميلةٍ إلى هذا الحدِّ الأقصى؟

أقبلَت لاقِنيا إلى الممرِّ ذي القناطر. فقال مَرقُس: ‘‘نَعَم؟’’ مُنزعجًا، لِكَونهِ مُتَيقِّنًا إلى حدٍّ بعيدٍ سَبَبَ حُضورِها.

‘‘لقدِ استيقَظَتِ السيِّدةُ جوليا، سيِّدي. وقد سألَتْ عن السيِّدة عَزار’’.

‘‘هلَّا تعذِرُني، سيِّدي!’’

فقال: ‘‘بكلِّ تأكيد!’’ مُخفيًا استِياءَه منَ

المقاطَعة. يُخيَّلُ إلى المرء أنَّ في وُسع جوليا أن تستَغنيَ عن المرأةِ ساعةً أو ساعتَين!

نهضَتْ هَدسَّة، مُتَنبِّهةً إلى أنَّ عزرا وتَفاثا ومَرقُس كانوا كُلُّهم يُراقِبونَها. فشعرَت بالارتباكِ والخَيبة حِيالَ اجتِذابِها انتِباهًا كثيرًا كذاك. وكلَّمَت عَزرا وتَفاثا باختِصار، قائلةً لَهما إنَّها سُرَّت بلقائهما، ومُتمنِّيةً لهما النَّجاحَ في مَهمَّتهما. ولـمَّا غادرَتِ الغُرفة، تكلَّمتْ إلى لاقِنيا بإيجازٍ عن إصعادِ وَجبةٍ لِجُوليا.

قال عَزرا: "لهجتُها جليليَّة".

أجابَ مَرقُس- مُراقِبًا عَزار تعرُجُ نحوَ الدَّرج: "لم تُخبِرْني بشؤون نفسِها ومسقطِ رأسِها إلَّا مقدارًا يسيرًا. والحقيقة أنِّي أحيانًا أحسَبُها مُراوِغةً".

فباتَ عَزرا مُفكِّرًا بمُراعاة. "لعلَّ لَدَيها سببًا".

وعبَّسَ مَرقُس، مُتسائلًا أيُّ سببٍ قد يكونُ لَدَيها.

وأدارَت تَفاثا وجهَها بعدَما راقبَت عَزار تصعدُ الدَّرج. ‘‘لماذا تتحجَّبُ هكذا؟’’

‘‘قالَت لي إنَّها مُشوَّهةٌ على نحوٍ رديء. ولم تكُن معروفةً بذاكَ الاسْم قبلَما جاءَتْ لخِدمةِ أُختي. فقد كانَ النَّاسُ ينادَونها باسْمِ رافا’’.

فقال عَزرا مُتَرجمًا: ‘‘الشافية’’.

‘‘لقدِ اعترضَتْ على هذا اللَّقب’’.

وارتفعَ حاجِبا عَزرا اهتِمامًا، إلَّا أنَّ الحديثَ ما لَبِثَ أن عادَ إلى مَهمَّتِه.

قالَ عزرا: ‘‘كنتُ مُتَشوِّقًا إلى قراءةِ أخبارٍ عن يسوع لـمَّا وصلتُ إلى أنطاكية أوَّلًا. على أنِّي عَلِمتُ أنَّ رَسولًا واحِدًا فقط كتبَ سِيرةً كاملةً عن حياةِ يسوع: لاوي أو متَّى، ولم تُتَح لي فُرصَةٌ لقراءتها بِنَفسي، بسببِ نُدرَةِ النُّسَخ. ثُمَّ إنَّ لوقا، الطبيبَ الذي رافقَ بُولُسَ في السَّفَر، دوَّنَ سَردًا تاريخيًّا. أمَّا يوحنَّا مَرقُسُ الذي رافَقَ بولسَ في سَفرتهِ التَّبشيريَّة الأُولى، فقد دوَّنَ ما

أخبِرَ به’’.

ومالَ عزرا إلى الأمام في جِلسَتِه. ‘‘خَطَرَ في بالي بأنطاكية أنَّ نُسَخًا يجبُ أن تُصنَعَ عن هذه الوثائق لأجلِ جميعِ الكنائس. ويجبُ أن تكونَ النَّسَخُ دقيقةً في كُلِّ حَرفٍ ونُقطة، حتَّى تبقى بِشارةُ الإنجيلِ نقيَّةً. فنحنُ في حاجةٍ إلى الأخبارِ التي كتبَها شهودُ عِيانٍ لأجلِ تعليمِنا’’.

فقالَت تَفاثا: ‘‘يعتقِدُ مؤمِنون كثيرون أنَّ الربَّ سيَرجعُ في أيِّ يوم، وأنْ لا حاجةَ إلى إنفاقِ كثيرٍ من الوقت والمال على هذه الـمَهَمَّة’’.

وخاطبَ عَزرا مَرقُس. ‘‘لذلكَ السَّبب أعتقدُ أنَّ هديَّتَكَ لي كانت مَنًّا من السَّماء، يا مَرقُس. فالذَّهَبُ الذي تركتَه في أريحا مَوَّلَ هذه السَّفرة ويُموِّلُ غيرَها. وإذا سَمَحَ لي الرَّسولُ يوحنَّا، فسأنسخُ رسالةَ بُولُس بِكامِلِها وأذهب بها إلى أنطاكية، حيثُ سينسَخُها ثانيةً اثْنانِ منَ الكَتَبةِ الذين يعمَلون بكُلِّ دِقَّةٍ وإتقان. ولسوفَ يتمُّ التَّدقيقُ في المخطوطات وتجري مُقارَنتُها للتَّيقُّنِ بأنَّ حرفًا واحِدًا أو كَلِمةً واحِدة لم يُغيَّرا. **فيجبُ**

علينا أن نحفظَ أخبارَ شُهودِ العِيانِ هذه للأجيالِ الآتية".

لم تَبدُ تَفاثا مُشاركةً أباها في قناعَتِه أو حماسَتِه. "قِيلَ إنَّ يسوع وَعَدَ بأنَّ هذا الجيلَ لن يمضيَ قبلَ أن يجيءَ ثانيةً".

فقال عزرا: "نعم، ولكنَّ الربَّ الإلهَ بَذَلَ ابنَه الوحيد، لِكي لا يهلِكَ كلُّ مَن يؤمِنُ به، بل تكونُ لهُ الحياةُ الأبديَّة. بذلكَ الوَعدِ وحدَه، يا ابنَتي، نعلَمُ أنَّ هذا الجيلَ من المؤمنين لن يمضيَ البتَّة".

ثُمَّ التفتَ إلى مَرقُس. "لقد جعلَ اللهُ في قلبي حماسةً لأجل **كلِمَتِه**، **الكَلِمةِ** التي أعطاها لأتْباعِ **الطريق** بواسِطَةِ رُسُلِه. يجبُ ألَّا نعيشَ لِيَومِنا كما يعيشُ الأُمَم. يجبُ أن نُفكِّرَ في الغَدِ وفي أولادنا وأولادِهم. إنَّ مكتوباتِ شُهودِ العِيان يجبُ أن تُنسَخَ وتُحفَظ".

رأى مَرقُس كيف تأجَّجت عَينا عَزرا عَزمًا وحماسَةً، فتحرَّكَ دمُه في داخله. "مهما أعوَزَكَ

بَعدُ لإتمامِ مَقصدِكَ، يا صديقي، فسأبذلَه بسُرور’’.

فأومأ عزرا برأسِه مُوافِقًا. وقال- مُبتسِمًا ابتِسامةً عريضةً ومُستريحًا- ‘‘لقد أعدَّك اللّٰه لهذا اليومِ. إذا أنجزَتْ هذهِ السَّفرةُ ما أرجوه، فأُريدُ أن أجِدَ كَتَبةً آخَرِينَ قُلوبُهم مُثقَّلةٌ بالـمَهَمَّةِ ذاتِها، وأُرسِلَهُم إلى كُورِنثوس وروما. يُقالُ إنَّ الكنيسةَ في كورِنثوس تسلَّمتْ أربعَ رسائلَ طويلةً من بُولُس. ويُمكنُ إرسالُ كاتبٍ آخَرَ إلى روما، حيثُ سَمعتُ أنَّ رسالةً مُوَجَّهةً إلى جميعِ الإخوة القدِّيسين هي في عُهدَةِ زوجَينِ مسيحيَّين تَجتمعُ الكنيسةُ في بيتِهما’’.

هزَّ مَرقُس رأسَه. ‘‘ليست رُوما مكانًا سليمًا لِمَن كان مسيحيًّا’’.

وقال عزرا: ‘‘ولا أفسُس أيضًا’’.

فقال مَرقُس- مُتَذكِّرًا مَوتَ هَدسَّة- ‘‘نعم، ليست كذلك. إنَّ أفسُس هي مركَزُ عِبادَةِ أرطميس، والثانيةُ تمامًا بعدَ روما في التعبُّد للإمبراطور

كإله’’.

‘‘اللّٰه لم يُعطِنا روحَ الخوف، يا مَرقُس. إنْ كان هذا العَمَل منَ الرَّبّ، فهو سيَحْمينا’’.

نظرَ مَرقُس مُضطرِبًا إلى تَفاثا. إذا سافَرت مع أبيها، فستَتَعرَّضُ لخَطَرٍ شديد. وقد بَدَتْ أقلَّ منه بكثيرٍ اقتِناعًا بهذه الـمَهَمَّة، إلّا أنَّها بقِيَت طائعة.

مثلَما كانَت هَدسَّة طائعةً كُلَّ حين.

ونظرَ مَرقُس إلى عزرا من جديد، فرأى الرجلَ الأكبرَ سِنًّا يتأمَّلُه بتَدقيق. لقد كان في ذِهن عزرا أمرٌ ما، ولكنَّه كما يظهَرُ لم يكُن مُستَعدًّا للتَّكلُّمِ بشأنه الآن بمَسمعٍ من ابنتِه.

وخالَجَ مَرقُسَ شعورٌ بأنَّه عرَفَ ذلك الأمر.

٤٨

بعدَ ساعاتٍ طويلةٍ لاحِقًا، على أثَرِ مُغادرَةِ عزرا وتَفاثا للمَبيتِ ليلًا، صعِدَ مَرقُس إلى الطَّبقَةِ العُليا. وبينما هوَ ماشٍ في الرِّواق، سمعَ عَزار تتكلَّم. فوقفَ خارجَ بابِ جوليا، مُصغيًا.

‘‘نعم، سيِّدتي. ولكنْ فكِّري في الفأرةِ التي تعيشُ في حَقلِ قَمح. إنَّها لا تُفكِّرُ في المستقبَل أدنى تفكيرٍ أيضًا. فالسَّنابِلُ العاليةُ تُوفِّرُ لها طعامًا ومأوًى، وهي لا تخافُ من الغَدِ أبدًا. إلَّا أنَّ الحَصادَ يأتي في ما بَعد، فيُنزَعُ عالَـمُها منها، وحياتُها مَعَه. لم تُفكِّرْ تلك الفأرةُ المسكينةُ مرَّةً في صاحِبِ ذلكَ الحَقل، ولا حتَّى اعترفَت بوُجودِه. غيرَ أنَّ يومَ الحَصادِ أتى على كلِّ حال’’.

فقالَت جوليا بتَنَهُّدةٍ واهِيَة: ‘‘وهو آتٍ. فَهِمْتُ ما تقولينَه، يا عَزار. أنا الفأرة!’’

أجابت عَزار بصَوتٍ مِلؤهُ الرَّجاء: ‘‘سيِّدتي...’’

‘‘لا. رجاءً، أصغي. إنَّه لأمرٌ حَسَنٌ أنَّ العدالةَ

ستَحلُّ ذاتَ يوم. ولكنْ ألَا تَرَين؟ ها العدالةُ تُجرَى الآن. فسَواءٌ اعترفَتُ باللهِ أم لم أعترِفْ، يا عَزار، لا يهمُّ الأمر. إنَّ مَصيري محتوم".

"لا، جوليا..."

فقالت جوليا باكتئاب: "فاتَ الأوان بالنِّسبة إليَّ. لا تُكلِّميني بشأن الربِّ بَعدُ. إنَّ سَماعي به يؤلِمُني فحَسب".

"إنَّه يستطيعُ أن يُزيلَ ألمكِ".

"سيتوقَّفُ الألمَ عندما أموت".

"لا حاجةَ لأنْ تموتي".

"بَلَى. بي **حاجةٌ** لأنْ أموت. أنتِ لا تعرفينَ الأُمورَ التي قد فعلتُها، يا عَزار. أُمورٌ لا تُغتفَر. كانَ مَرقُسِ يقولُ لي إنَّ كُلَّ شيءٍ يُكلِّفُ شيئًا ما. وقد كانَ على حقّ".

أغمضَ مَرقُس عَينَيه، وقدِ اخترقَه اليأسُ في صَوتِ جوليا. كانَ قد أرادَ أن يُعاقِبَها... وهكذا فَعَل.

والآنَ سَمِعَ كَرْبَها، فتردَّدَت أصداؤه في داخِله. هل أرادَ لأُختهِ أن تموت؟ لقد قَبِلَ هو المسيح، ونالَ الخلاص، وباتَ لَدَيه رجاء. أمَّا هي فماذا كانَ لَدَيها؟

وماذا أبقى هو لَدَيها؟

اللهُمَّ، سامِحني! وبينَما هو يُصلِّي بَعد، علِمَ أنَّ الله حاضِرٌ هناك... وعَلمَ ما وجبَ عليه أن يفعل. فدخلَ الغُرفةَ بهُدوء، غيرَ مُلاحَظٍ، ولكنْ لـمَّا اقتربَ رفعَتْ عَزارُ رأسَها. وكانَ وَجهُ جوليا مُشاحًا. فأرخَتْ عَزار يدَ جوليا، وتناوَلَتْ عُكَّازَها، ووقفَت مُنسَحِبةً له كي يقعُدَ مكانَها. فقالَت جوليا، مُديرةً رأسَها: "رجاءً، لا تَذهبي". وعندَئذٍ رأت مَرقُس.

جلسَ على الـمَقعدِ الذي أخلَتْه عَزارُ له. وكانت عَينا جوليا كَلِيلتَين وجامِدَتين، مُستَسلِمتَين تمامًا لأيِّ شيءٍ يأتي. فأمسكَ يدَها، وقال بصَوتٍ أجَشَّ: "جوليا، كنتُ مُخطئًا".

التَوى فمُها بحُزن: "لا، لم تكُن".

‘‘قلتُ أشياءَ في حالِ الغَضَب...’’

أجابَت: ‘‘كانَ لكَ كلُّ حقّ في أن تغضبَ عليَّ. ولكنْ فلنتَوقَّفْ عن الكلام بذلكَ من الآن. لا أستطيعُ أن أتكلَّم بشأنه’’.

فقرَّبَ يدَها إلى شَفتَيه. وقالَ، مفعمًا بالنَّدَمِ: ‘‘أنا آسِف، صغيرتي!’’ وأحسَّ يدَ عَزار على كتِفه، ضاغِطةً برِفق، فاغرورقَت عَيناه.

لفَّت جوليا أصابِعَها على أصابعِه. ‘‘هل تذكُرُ لـمَّا حصلَ لي الإجهاضُ، ذاكَ الأوَّلُ في روما؟ قالت كالاباه إنَّه سيكونُ هيِّنًا جدًّا، إنَّه ما إنْ تنتهي مسألَةُ حَمْلي حتَّى يعودَ كلُّ شيء إلى حالَه الحَسَنةِ من جديد. ولكنَّ ذلك لم يحصُلْ قَطُّ’’. ورفعَتْ نظرَها إلى السَّقفِ باكتئاب.‘‘أحيانًا، أجِدُني أرجعُ في الحساب إلى الوراء، مُفكِّرةً كم سيَكونُ عُمرُ الطِّفلِ اليومَ. وأتساءلُ أكان صبيًّا أم بنتًا’’. وطرفَت بعَينَيها حَبسًا للدُّموع.

ثُمَّ بلعَتْ ريقَها بتَشَنُّج، واشتدَّتْ أصابِعُها في يَدِ مَرقُس، مُتشبِّثةً به. ‘‘لقد قتلتُ طِفلي. كما

قتلتُ كايُس’’.

فقالَ مَرقُس برِقَّة، مشدوهًا: ‘‘ماذا؟’’

‘‘لقد قتلتُه. أعطَتني كالاباهُ السُّمّ، وأنا أعطيتُه إيَّاه في جرعاتٍ ضئيلة حتَّى يبدو موتُه طبيعيًّا’’. ونظرَت إلى أخيها بعَينَين قَلِقتَين. ‘‘إلَّا أنَّه علمَ ما كنتُ فاعلةً في الأخير. لقد تسنَّى لي أن أعرِفَ ذلك من طريقةِ نظرِه إليَّ. لم يُزعِجْني الأمرُ حتَّى ذلك الحين، يا مَرقُس. ومن ثَمَّ لم أستَطعْ أن أكُفَّ عن التفكيرِ فيه’’.

هزَّت رأسَها على الوسائد، وعَيناها مُعَذَّبتان: ‘‘دأبتُ في القَولِ لِنفسي إنَّ ذلك كان عدلًا. لقد خانَني مع نِساءٍ أُخريات، لا مرَّةً واحِدة بل عدَّةَ مرَّات. وكان قاسيًا وشرّيرًا. هل تذكرُ لـمَّا جئتَ إليَّ وسألتَني إن كنتُ نمتُ مع اليونانيّ الذي كان يملِكُ الأحصِنة؟ لقد فعلتُ ذلك. فعلتُه لأفيَ ديونَ كايُس. ولكنْ على الأغلب، فعلتُه لأرُدَّ لِكايُس ثمنَ إيذائي. وقد ضربَني من أجلِ ذلك. وكانَ مُمكِنًا أن يضرِبني حتَّى الموتِ لَولا...’’ ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها، مُتذكِّرةً كيف غطَّتها هَدسَّة

وتلقّتْ عنها الضّرَبات.

استَطاعَ مَرقُس أن يرى النَّبْضَ السَّريعَ في حَنجَرتِها. وكانت بَشَرتُها شاحِبةً وعليها قَطَراتُ العَرَق. "لا بأس، جوليا. أكمِلي".

"لقد غطّتني". وتفجَّرَت من عَينَيها دُموعٌ جَرَت خارجًا. وهمسَت مذهولةً: "**غطَّتني!**" كما لو أنَّها تذكَّرَتْ توًّا الحادثةَ التي جَرَت منذُ أمَدٍ بعيد. وتشنَّجَ وجهُها، فأشاحَت بِناظرَيها وقالَت بهدوء: "هل عَلمتَ أنّي طلبتُ من هَدسَّة أن تضعَ طِفلَ أتريتِس على الصُّخورِ هنا في أفسُس؟"

ثُمَّ أدارَت رأسَها مُجدَّدًا وتأمَّلَتْ وَجهَه: "لم تعلَمْ، أليس كذلك؟ أنا حافِلةٌ بالأسرارِ الرهيبة. لقد أحبَّني حُبًّا شديدًا، ثُمَّ أبغضَني لأنِّي تزوَّجتُ من پريمُس. تمنَّيتُ لو لم أفعلْ ذلك، ولكنْ لم تكُنْ بِيَدي أيَّةُ حيلة. إنَّ كالاباه أشارَت مَشُورةً رهيبة، ولكنَّ أتريتِس ما كان ليُصغي. فلمَّا تحوَّلَ مُبتعِدًا عنّي، أردْتُ أن أُؤذيَه أيضًا، واستَعملْتُ طِفلي للقيامِ بذلك. استعملتُ طِفلي..."

وضعَ مَرقُس يدَه على شَعرِها. ‘‘لا يُعقَلُ أنّ هَدسَّة لَبَّتِ الطَّلَبَ تمامًا’’.

‘‘قالَت لي إنَّ طِفلي كان صبيًّا، صبيًّا كامِلًا، وأنا أمَرتُها...’’

‘‘لقد أطاعَتِ اللهَ قبلَ كُلِّ شخصٍ وكُلِّ شيء، يا جوليا. وأنتِ تعلمِينَ أنَّ تلكَ كانت شيمتَها. إنَّ ابنَكِ على قَيدِ الحياة. وفي وُسعكِ أن تتيقَّني ذلك’’.

جَرَتِ الدُّموع على جانبَي وَجهِ جوليا، وتخلَّلَتْ شعرَها. وهمسَتْ بانكسار: ‘‘أُوه، أرجُو ذلك. اللَّهُمَّ، أرجو ذلك...’’ ثُمَّ سحبَتْ نفَسَها، مُلتَويةً قليلًا على جنبِها إذِ استَولى عليها الألَم. وبَكَتْ بهدوء، غيرَ قابِلَةٍ أن تتعزَّى.

مزجَتْ عَزار شيئًا من اللُّفَّاح في خَمرٍ مُخفَّفةٍ بالماء، وقدَّمَتِ الشَّرابَ إلى جُوليا لِتَشرَبه. واسترخَتْ جوليا على مَهلٍ إذ مسحَت عَزارُ العرَقَ عن جبينِها وكلَّمَتها هَمسًا، مُلامِسةً وجهَها برِقَّة. ثُمَّ قلبَتْ جوليا على جَنبِها مُتنهِّدةً،

وأمسكتْ يَدَ عزار على خدِّها.

قالَت عَزار: ‘‘ستَنامُ الآن’’. وبدأتْ تُنظِّفُ الغُرفَة.

استَطاعَ مَرقُس أن يرى أنَّ عَزار كانت مُرهَقة، لأنَّها- وهي تجمَعُ الثياب- باتَ عَرَجُها أكثرَ ظُهورًا. فأخذَ منها عُكَّازها، ووضعَه جانبًا. وقبلَ أن تتمكَّنَ من الاعتراض، رفعَها على ذِراعَيه، قائلًا: ‘‘كما ستَفعلينَ أنتِ أيضًا’’، وحمَلَها إلى أريكةِ نَومِها بمُحاذاةِ الجِدار.

لـمَّا حملَها، اشتمَّ أريجَها الخَفيَّ، فأخذَ قلبُه يدقُّ دَقًّا شديدًا. كانَت نحيلةً وخفيفة، فتذكَّرَ كيفَ حملَ هَدسَّة مرَّةً على ذِراعَيه بالطريقةِ ذاتها. وإذ ألقى عَزار على الأريكة، أحسَّ توتُّرَها. وكان الحِجابُ قدِ انزاحَ قليلًا، فرأى حَنجرَتَها والندوبَ التي عليها. وإذْ لم يتَمالَكْ نفسَه، مدَّ يدَه ليَمسَّ بَشرَتها برِفق، فتصلَّبَت، وامتدَّتْ يَداها بسُرعة لِتُسدِلَ الحِجابَ على وجهِها.

انكفأ مَرقُس على مهل، ودقَّاتُ قلبه تتسارع. تُرى، ما الذي يجري له؟ وقالَ بصَوتٍ أجَشَّ:

‘‘عَزار...’’

فقالَت: **‘‘اذهب!’’** والدُّموعُ تخنقُ صَوتَها: ‘‘اذهب من هنا، رجاءً’’.

وفعلَ مَرقُس كما طلبَت. إلَّا أنَّه بَدَلَ الذَّهابِ إلى مَهجَعِه لِيَبيتَ ليلتَه، نزِلَ إلى الأسفلِ من جديد. وإذ ألقى عباءةً على كَتِفَيه، خرجَ منَ الدَّارة.

كانَ علَيه أن يَعرِفَ عنها.

سارَ في الشارع بخُطًى واسعة، مُتوجِّهًا إلى وَسَط أفسُس. كان الوقتُ مُتأخِّرًا، وجموعٌ من الناس يجيئُون ويذهبون، مُتجمِّعينَ في الزوايا والمداخِلِ ليتَضاحكوا ويتحادثوا. فشقَّ طريقَه بينَهُم وواصلَ سيرَه مُهَروِلًا بعَزمٍ وَطيد. حتَّى إذا بلغَ مَقصِدَه، قرَعَ البابَ بقبضتِه. ففتحَ له خادِم. ‘‘ساعاتُ العيادة هي...’’

دفَعَ مَرقُس البابَ ففتحَه، ودخلَ غُرفةِ الانتظار. ‘‘قُل للطَّبيب إنَّ مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان هنا لِمُقابلَتهِ في مسألةٍ مُهمَّة’’.

وأخذَ يسيرُ في غُرفة الانتظار ذهابًا وإيابًا، بانتِظارِ الطبيب.

ثُمَّ دخلَ ألِكسَندر بسِيماءَ بارِدَة. ‘‘هل أرسلَتكَ رافا؟’’

فقالَ مَرقُس: ‘‘ما جئتُ لأسألَ عن أُختي’’. ولاحظَ عَينَي ألِكسَندر تَضيقان. ‘‘عندي بضعَةُ أسئلةٍ أُريدُ إجاباتٍ عنها’’.

والتَوى فَمُ ألِكسَندر بسُخرِيَة. ‘‘أسئلةٌ عن صِحَّتِك؟’’

‘‘أسئلةٌ عن المرأةِ التي أرسلتَها للاعتناء بأُختي’’.

‘‘أنا لم أُرسِلها، ڤاليريان. وبالحقيقة، لوِ استَطعتُ إلى الأمرِ سبيلًا، لَكانت رافا ما تزالُ هنا معي!’’ وإذ قالَ الطبيبُ هذا، استدارَ بسُرعةٍ ومشى مُبتعِدًا.

فتَبِعَه مَرقُس غيرَ هَيَّابٍ باتِّجاهِ الفِناء الداخليّ. والتفتَ ألِكسَندر ليُواجِهَه بعينَين مُكفهِرَّتَين

غَضَبًا. ‘‘إنّ رافا تُبَدِّدُ وقتَها على آختِك. وقد قلتُ لها ذلكَ أوَّلَ ما رأيناها. فليس من شيءٍ تستطيعُ القيامَ به، ما لم تتمكَّنْ من استِنزالِ مُعجزَةٍ أخرى من عند الله’’.

‘‘مُعجِزَةٌ أُخرى؟’’

‘‘أنتَ لا تعلَمُ أدنى عِلمٍ بما لَدَيكَ في بيتِك، أم أنَّك تَعلمُ يا ڤاليريان؟’’

‘‘إذًا، أخبِرني’’.

‘‘بدأ الأمرُ قبلَ عِدَّة شُهور، لـمَّا استُدعِينا إلى بيتِ صانع تماثيلَ كانت زوجتُه تتمخَّضُ على مدى يومَين. ولـمَّا فحصتُها، عَلِمتُ أنَّ الطِّفلَ لا بُدَّ أن يُزال، وإلَّا ماتَت هي والطِّفل. فقالت رافا: لا! ثُمَّ مَسَّت بَطنَ المرأة، فانقلبَ الطِّفلُ وخَرَج. هكذا تمامًا’’. وفرقعَ إصبعَيه أمامَ مَرقُس، ثُمَّ ضَحِكَ ضِحكةً قويَّة. ‘‘استَدعَتنا أُختُكَ لأنَّها سمعَت بصِيتِ رافا. لقد أرادَتْ مُعجِزةً، هي أيضًا، غير أنَّها لم تَنَلْها’’.

فضاقَتْ عَينا مَرقُس. ‘‘لَدَيكَ طريقةٌ بغيضةٌ بصُورةٍ استثنائيَّة في التَّكلُّم بشأن جوليا. لا شكَّ أنَّكَ تولَّيتَ مُعالَجةَ نِساءٍ أُخريات عِشنَ بحرِّيَّة كما عاشَتْ هي’’.

‘‘أكثرَ ممَّا يمكنُ عدُّه’’.

‘‘وهل تعهَدُ بهنَّ جميعًا إلى النِّسيان’’.

‘‘لِعِيشةِ الاختِلاطِ الجنسيِّ اللَّاشرعيِّ عواقِبُها الخاصَّة’’.

فزمَّ مَرقُس عَينَيه وتأمَّلَ الرجلَ الآخَر لحظةً، ثُمَّ هزَّ رأسَه. ‘‘إنَّ كُرهَكَ لأُختي يعودُ إلى ما هو أعمقُ من مُجرَّد نُفورٍ مُعَمَّم لنَمَطِ حياتها. إنَّه **شخصيّ**’’.

‘‘ما كنتُ قَطُّ قد رأيتُ أُختَكَ قبلَ يَوم استِدعائي معَ رافا إلى دارَتِها. ولكنْ بُعَيدَ تعرُّفي القصير إليها، وجدتُ أنَّها واحدةٌ من أكثر النِّساء أنانيَّةً بين مَن قابلتُهنَّ على الإطلاق. وبصراحة، كنتُ راغبًا فوقَ الحدِّ في تَركِها لِمَصيرِها’’.

‘‘ولكنَّ عَزار خطرَت لها أفكارٌ أخرى’’.

لَبِثَ ألِكسَندر صامتًا إلى حين. أرادَ أن يضرِبَ مرقُس- أن يستَدعيَ الأعرابيَّ لإنجازِ ما حاولَ فعلَه بسِكّينهِ المدَّخَرة. ولكنَّه علمَ أنَّ كِلا الخِيارَين كانا مُستَحيلَين. فإنَّه كان سامِحًا لمشاعِره بأنْ تقفَ حائلًا دونَ حكمه الراشد. وأرغمَ نفسَه على الإجابةِ بهُدوء. ‘‘لم تُرقْها الشُّهرةُ التي كانت تتلقَّاها. إذ بدأ الناسُ ينظرونَ إليها كما إلى إلاهة. وقالَت إنَّ الله هو الشَّافي، لا هي. لذلكَ غادرَت’’.

‘‘كانَ في وُسعها أن تذهبَ إلى أيِّ مكان. وكانَ مُمكِنًا أن تُغادِرَ أفَسُس كلَّها. فلماذا اختارَتْ أن تَرعى أُختي؟’’

‘‘ربَّما أشفقَتْ عليها، يا ڤاليريان. لماذا تشكُّ في حُسن حظّك؟ كانَت أُختُك مُفلِسة، وكانَ لدى رافا أكثرُ ممَّا يُعوِزُها’’.

فقالَ مَرقُس مَشدوهًا: ‘‘ماذا؟’’

‘‘لقد أعالت رافا أختَكَ حتَّى رَجَعتَ ونقلتَها إلى دارتك’’. وأدركَ ألِكسَندر أنَّ هذه المعلومةَ كانت جديدةً على مَرقُس، فتمنَّى لو بقيَ صامتًا. ‘‘المالُ لا يعني لرافا أيَّ شيء. فهيَ تُوَزّعُه بالسُّرعةِ التي تتلَّقاه بها’’.

‘‘لستُ أفهم. لماذا تُقدِمُ على مُساعَدةِ جوليا؟’’

‘‘لن تفهَمَ أبدًا، يا ڤاليريان’’. وضَحِكَ ضِحكةَ ازدراءٍ بالذَّات. ‘‘ولستُ أدري أنا هل يأتي يومٌ أفهَمُ فيه’’. فكَم في العالمِ من أُناسٍ يتخلَّون بطِيبِ خاطِرٍ عن الشُّهرة والثَّروة للاعتِناءِ بشَخصٍ حاولَ أن يقتُلهم؟

وبعدَ لحظة، غمغمَ مَرقُس بصَوتٍ مُضطرِب: ‘‘إنَّها تُذكِّرُني بامرأةٍ كنتُ أعرفُها’’.

سَرَتِ البُرودةُ في أوصالِ ألِكسَندر، ولذعَتْ عمودَهُ الفِقريَّ وخَزاتُ خَشيةٍ خفيفةٌ. وتأمَّلَ وجهَ ڤاليريان.

وقالَ مَرقُس: ‘‘أعلَمُ أنَّها من منطقةِ الجليل’’.

فازدادَت خَشيةُ ألِكسَندر. ‘‘كيفَ تعلَمُ ذلك؟’’

‘‘أنا أعرفُ اللَّهجة. ثُمَّ إنَّها مسيحيَّة’’. وهزَّ رأسَه ثُمَّ نظرَ إلى ألِكسَندر، وما لَبِثَ أن تجهَّمَ قليلًا حيالَ سِيماءِ الطبيبِ الشابّ. لقد خافَ الرجلُ! ‘‘أنتَ تعرِفُ شيئًا عنها، أليس كذلك؟’’

ثُمَّ دخلَ شخصٌ غُرفةَ الانتظار. وإذِ اقتربَ وَقعُ الخُطى من الفِناء، التَفَتَ مَرقُس قليلًا، فلَمَحَ رجُلًا في ثِيابٍ بيضاءَ طويلةٍ فَضفاضة. فتوقَّفَ الرجل، ونظرَ إلى مَرقُس بعَينَينِ سَوداوَين غيرِ طارِفتَين تحتَ كوفيَّةٍ حمراءَ ذاتِ عِقالٍ أسوَد.

قالَ مَرقُس: ‘‘أنت!’’ وقد عَرفَه أنَّه الرجلُ الذي اعتَدى عليه بقُربِ الأرطميسيون.

فسحبَ راشِد سكِّينَه.

وصاحَ ألِكسَندر: ‘‘أعِدِ السِّكِّينَ إلى مكانها، أيُّها المجنون!’’

فسألَ مَرقُس: ‘‘مَن هذا الرجلُ، يا أماندينُس؟ وما علاقتُه بك؟’’

وقال الأعرابيُّ بِبرودة: ‘‘أنا آمرافَل راشِد كَدَرْلَعَومَر’’.

فنظرَ إليه مَرقُس بازدراء. ‘‘أرى أن تُعلمَني بالسَّببِ الذي من أجله حاوَلْتَ أن تطعنَني أمامَ الأرطميسيون. ومن ثَمَّ يُمكِنُكَ أن تُحاولَ فعْلَ ذلكَ من جديد’’. وبرَقَت عَيناه. ‘‘ولكِنّي أُحذِّرُك، فأنا لا أُقتَلُ بسهولةٍ بالغةٍ حين أُهاجَمُ وجهًا لِوَجه’’.

وقال ألكسَندر: ‘‘راشِد، لا تكُن مجنونًا!’’

وما لَبِثَ أن ساد صَمتٌ قاتمٌ مُتَذبذِبٌ بعدَما تأمَّلَ راشِد مَرقُسَ. إنَّ شُبَّانًا كثيرين من الرُّومان كانوا يستَمتِعون برياضة التدرُّب على القِتالِ الالتِحاميّ. وقد كانَ ڤاليريان قويَّ البنية، ولم يلحَظ راشد أيَّ خوفٍ في عَينَيه.

فقالَ مَرقُس مُتَهَكِّمًا: ‘‘أمَا تُجيب؟’’ ووجَّهَ كلماتِه التاليةَ إلى ألِكسَندر، بعدَما اعترَضَ بينَهما. ‘‘مَن هذا الرَّجُلُ بالنِّسبَة إليك، يا ديموسيدِس؟’’

أجابَ ألِكسَندر: ‘‘مَجنونٌ مُتهوِّر’’. وقد أغضبَه أن يُوضَعَ في هذا الموقع. ‘‘أعِدِ السِّكِّينَ إلى مكانها، يا راشِد’’.

تجاهلَ راشِد الأمر. فإنَّ ڤاليريان قد عرَفَه. ويَكفي أن يقولَ ڤاليريان كلمةً واحدة، فيَصيرَ راشِد في عِدادِ الأموات، كما يعلَمُ الأخيرُ يَقينًا. فلَولا قَسَمُه لرافا، لقتلَ ڤاليريان الآنَ تمامًا. ‘‘ماذا يُريدُ هذا الخِنزيرُ الرُّومانيُّ؟’’

وقال مَرقُس آمِرًا بِغَطرسة: ‘‘أجوِبةً! الآن! مَن هذا الرجل؟’’

فقال ألِكسَندر: ‘‘لقد قالَ لكَ فِعلًا!’’ وقد أغاظَتْه عجرفةُ ڤاليريانَ الفِطريَّة. ربَّما باتَ مُتأصِّلًا داخلَ الرُّومان أن يحسَبوا أنَّ في وُسعِهم أن يأمُروا أيًّا كان. ورَمَقَ الأعرابيَّ بِحَملقةٍ غاضِبَة. ‘‘هل نسِيتَ قسَمَك؟’’

نَبضَت عَضَلةٌ قُربَ عَينِ راشِد اليُمنى. وحدَّقَ إلى مَرقُس تحديقًا تخطَّى وقتَ حَملقَتِه. ثُمَّ دسَّ السكِّينَ ببراعةٍ في الغِمدِ المربوط بحِزامهِ

القُماشـيّ. وبقيَتْ يدُه على القبضة بخِفَّة.

بدا واضحًا لِمَرقُس أنَّه لن يتلقَّى أيَّة أجوبةٍ من ألِكسَندر. فقد وقفَ الطبيبُ جانِبًا، ينظرُ إلى كِلَيهما بشـيءٍ من الانزعاج. وقالَ مَرقُس- مُوجِّهًا السؤالَ مُباشـرَةً إلى الأعرابيِّ المتَحجِّرِ الوجه- "ما شأنُكَ بي، يا كَدَرْلَعَومَر؟"

فظلَّ راشِد واقِفًا في مكانه، ناظرًا بازدراءٍ وصامِتًا، وعَيناه تتأجَّجانِ كالجَمر.

علمَ ألِكسَندر أنَّ أدنى حركةٍ يأتيها أيٌّ منهما قد تؤدّي إلى مَوتِ أحَدِهما أو كِلَيهما. "ولـمَّا كان راشِد أعنَدَ من أن يُفصِحَ عمَّا في فِكرِه، فسأقولُ لك أنا إنَّه قد أقسَمَ إنَّه لن يرفعَ يدَه عليكَ ثانيةً". ولم يُضِف ألِكسَندر الشُّروطَ التي على أساسها نالت رافا ذلك القَسَم.

على أنَّ مَرقُس كانَ ساخِرًا وغيرَ مُقتَنع. وقد بيَّنَت سِيماؤه بِوُضوحٍ أنَّه اعتقدَ أنَّ ألِكسَندر كان وراءَ الأمر.

‘‘اعتَقِدْ ما شئتَ، يا ڤاليريان، ولكنْ ليسَتْ لي أدنى علاقةٍ باعتِدائه عليك. إنَّ لِراشِد عقلًا خاصًّا به’’. قال أَلِكسَندرُ هذا، مُحدِّقًا إلى الأعرابيّ الجافي الوجه إذ وضعَه في وَضعٍ يتعذَّرُ الدِّفاعُ عنه. لقد كان لڤاليريان أصدِقاءُ في الأوساطِ العُليا. فإنَّ كَلِمةً واحدةً تُلقى في الأُذُنِ الصَّحيحة كفيلةٌ بأن تُؤدِّي به مع راشِد وهَدسَّة إلى ساحةِ المحاربين. وهذهِ المرَّةَ، لَن يخرُجَ أحَدٌ حيًّا.

ثُمَّ قال مَرقُس: ‘‘لـمَّا كنتَ قد وجدْتَ من الضَّروريِّ أن تَنتَزعَ قَسَمًا، فأنتَ تعرِفُ أكثرَ ممَّا تُخبِرُني به’’.

‘‘أنا أعرِفُ أنَّه ميَّالٌ إلى سَفكِ الدَّم وغيرُ عَقلانيّ! ولكنْ ربَّما كان هذا عائدًا إلى حقيقةِ كَونِ مالِكِهِ الرُّومانيِّ قد تركَه يُحتضَرُ على درجِ الأسكليپيون’’. وضحِكَ أَلِكسَندرِ ضِحكةً عابِرة. ‘‘من تَحسي أنَّ رافا اختارَته دونَ الآخرين جميعًا لأخذه إلى السَّقيفة، حيثُ باشرتُ مُمارَستي الطِبِّيَّة. هناكَ عالَـجْناه’’. ثُمَّ نظرَ إلى راشِد بنظرةٍ سَوداء. ‘‘وقد عاش، واأسفاه!’’

فرَدَّ مَرقُس: ‘‘ليسَ جميعُ الرُّومان مُستحِقِّينَ الازدراء’’.

وسألَ ألِكسَندر- لِتَشويشِ الأمر- ‘‘هلِ اقتنَيتَ أعرابيًّا مرَّةً؟’’

‘‘ما تركتُ قَطُّ في حياتي عبدًا لِيَموتَ على دَرَج الهيكلِ، ولن أفعلَ ذلك. وجوابًا عن سؤالك: لا، لم أقتَنِ قطُّ عبدًا أعرابيًّا’’. ثُمَّ نظرَ إلى راشِد مزدريًا. ‘‘ولستُ أنوي البتَّة أن أقتنيَ واحِدًا’’.

وكَشَّرَ راشِد بِبرُودة.

فقال ألِكسَندر لِراشِد: ‘‘قلتُ لكَ إنَّها كانت حالَةَ هُوِيَّةٍ مغلوطٍ فيها’’، آمِلًا أن يكونَ لذلك المجنونِ شيءٌ من الحِسِّ السَّليم بحيثُ يُبقي على الحيلة. وأضاف: ‘‘عسى أن تُصدِّقَني الآن!’’

أجابَ راشِد: ‘‘هل ينبغي لي أن أُصدِّقَ كَلِمةَ رومانيٍّ؟’’

فخَطا مَرقُس إلى الأمامِ قليلًا. ‘‘ماذا كانَ اسمُ مالِكِكَ هذا؟’’

ولـمَّا اتَّضَحَ جليًّا أنّ الأعرابيَّ لا يَنوي قَطْعًا أن يُشرّفَ مَرقُس بأيَّةِ إجابة عن أيِّ شيء يقولُه، قالَ أَلِكسَندر: ‘‘هو رجُلٌ حُرٌّ الآن’’.

فسألَ مَرقُس- دونَ أن يُديرَ ظهرَه لِراشِد- ‘‘بسُلطَةِ مَن؟ سُلطَتِكَ أنت، يا ديموسيدِس؟’’

‘‘بكُلِّ ما هو شريفٌ وعادِل! أينبغي لي أن أُنقِذَ رجُلًا ثُمَّ أرُدَّه إلى الأشخاص الذين كادُوا يُسَبِّبون مَوتَه؟’’

فُوجِئ مَرِقُس حِيالَ غضب ديموسيدس. لقد بدا حادًّا فوقَ كُلِّ حدّ، وشديدَ الشَّغَفِ جدًّا. فأيُّ سببٍ كانَ لَدَيه لمثلِ هذه العاطفة المشبوبة بشأنِ الرُّومان وعبيدهم؟ وتأمَّلَه، مُفكِّرًا في كلماته. ‘‘هل اعتَدتَ إنقاذَ الذين نُبِذوا بهذا الشكل الخَسيس؟’’

باتَ أَلِكسَندر شاكرًا لأنَّ الحديثَ تحوَّلَ بعيدًا عن هَدسَّة، فيما ضايقَه أن يُضطرَّ الآن إلى الدِّفاع عن مُمارساته الطبِّيَّة.

‘‘كنتُ بحاجةٍ إلى مَرضى لأمارِسَ مَهاراتي’’.

فقال مَرقُس بِنُفور: ‘‘تُمارِس؟’’

وأجابَ ألِكسَندر بغَضَب: ‘‘حالي حالُ مُعظَمِ الأطِبَّاء، أنا أستَخِفُّ بمُمارَسةِ تشريحِ الأحياء. ولكنْ بدا هذا الخِيارَ الآخَرِ الوحيدَ المتاحَ لدراسةِ التَّركيبِ البَشَريّ. فإذا فَقَدَ المرءُ عَبدًا مَنبوذًا، لا يُبالي أَحَدَ. ولـمَّا فعلتُ ذلك، كنتُ أختارُ بكلِّ حِرص، مُداويًا فَقَط الذينَ خُيِّلَ إليَّ أنَّ في وُسعي إنقاذَهُم. فإمَّا ذلك، وإمَّا تولِّي الحالاتِ المتَحدِّيةِ التي أتاحَتْ لي فُرصةً لِمُحاوَلةِ استعمالِ عِلاجٍ فعَّال’’.

‘‘ما عَدَدُ الذين ماتُوا من أُولئكَ الذين أجريتَ فيهم اختِباراتِك؟’’

فارتجَّتْ عَضَلةٌ في خدِّ ألِكسَندر، وقال: ‘‘كبيرٌ جدًّا، ولكنَّه أقلُّ من عدد الذين كانوا سيَموتون لَولا تدخُّلي. ربَّما كُنتَ مِثلَ الكثيرين جدًّا من الآخرين الذين لا يَدرون ما يجري خارجَ نِطاقِ مَمالِكهم الخاصَّة الصَّغيرة. فأيُّ شَخصٍ شَهِدَ

مُمارَساتِ الهيكل يستَطيعُ أن يُخبِرَك أنّ الكهنةَ لا يتولَّونَ الاعتناءَ إلَّا بمَن تكونُ فُرَصُ نجاتِهم جيِّدة. إنَّهم يعتَنون بالعبيد حتَّى يتَعافَوا، لكي يَبيعوهم ويدَّخِروا المال. أمَّا باقي النُّفوسِ المسكينة التي تُتركُ على الدَّرَج فالجميعُ ينبذونَها. وقد رأيتُ أقلَّاءَ ممَّن يُعانون أمراضًا مُثيرةً للاشمئزاز على نحوٍ خاصّ، يتخلَّصُ منهمُ الكهَنةُ قبلَ بُزوغِ الفجر. فبِتلكَ الطريقةِ يُمكِنُ أن تُزالَ جُثَثُهم قبلَ مجيء الجُموع بقَرابينهمِ النَّذريَّة". والتَوى فمُه بابتِسامةٍ ساخِرة. "رُغمَ كلِّ شيء، لن يكونَ مُفيدًا للمَصلحة التِّجاريَّة أن يرى المتَعبِّدون عددًا كبيرًا من الناس يموتون على دَرَج هَيكلٍ شُيِّدَ لإكرام إله مُختصٍّ بالصِّحَّة الجيِّدة والشِّفاء، أليس كذلك؟"

"أبهذِه الطريقة عثرتَ على رافا؟"

جَمَدَ ألِكسَندر إزاءَ هذا السُّؤال. وفكَّرَ بِسرعة، فاهتَدى إلى طريقةٍ لكتمانِ هُوِيَّتِها معَ التِزامِ قَولِ الحقيقة. فقالَ مُعترِفًا. "كانَت هيَ الأولى. ومنذ ذلك الحين لم أُعالِجْ أيَّ شخصٍ مُصابٍ إصابةً خطيرةً على غرارها. لقد عاشَتْ أصلًا بنِعمةِ الله،

يا ڤاليريان، لا بِمَهاراتي’’.

‘‘ما الذي جعَلَكَ تختارُها إذًا؟’’

‘‘هي تقولُ إنَّه اللّٰه. وربَّما كان كذلك. لقد عَلِمتُ تمامًا لـمَّا رأيتُها أنَّ عليَّ أن أفعلَ كلَّ ما في وُسعي لإبقائها حيَّةً. ولم يكُنِ الأمرُ سَهلًا. فقد عانَتِ شُهورًا من الألَمِ، وستَحمِلُ نُدوبَ ما جرى لها طَوالَ ما بقيَ من عُمرها. لذلك السَّببِ هي مُحَجَّبةٌ، يا ڤاليريان. فكلَّما رأى أحَدٌ وجهَها، أشاحَ بناظِرَيه’’. والتَوى فمُه بابتِسامةٍ ساخِرة. ‘‘هذه سِمَةٌ مؤسِفة من سماتِ البَشَر، أليسَت مؤسفة؟ إنَّ مُعظَمَ الناس لا يتخطَّون بنظَرِهم النُّدوبَ السطحيَّة لِيَرَوا الجمالَ الداخليّ’’. ثُمَّ حدَّقَ ببُرودة في عَينَي مَرقُس. ‘‘ومنهُم مَن يُريدون فقط إشباعَ فُضولِهم المرَضيّ’’.

فبرقَتْ عَينا مَرقُس. ‘‘هل تعتقدُ أنَّ ذلك هو كلُّ ما يخصُّ حضوري إلى هنا، أليس كذلك؟ أنِّي أُريدُ إشباعَ فضولي؟’’

‘‘أليسَ الأمرُ هكذا؟ مهما كان السرُّ الذي

تحسبُه مَوجودًا، يا ڤاليريان، فهو في ذهنِكَ أنت. إنَّ أسبابَ رافا لِتغطِيَةِ نفسِها بديهيَّةٌ وراسخةُ الأساس. وأيُّ شخصٍ لَدَيه قَدرٌ ضئيلٌ من اللِّياقة لا بدَّ أن يحترِمَ رغباتِها. فقد يكونُ من الخَيرِ لك أن تُفكِّرَ في مشاعِرِها، لا سيَّما أنَّها هي وحدَها تَقفُ حائلًا بينَ أُختِكَ ونيرانِ جهنَّمَ الأشدِّ اتِّقادًا!"

نقَّلَ مَرقُس نظَرَه بين الرجُلَين، وعَلِمَ أنَّه لن يُعرِفَ أيَّ شيءٍ بَعدُ في هذا المكان. فمشى بخُطًى واسِعة، عبرَ غُرفةِ الانتظار، نحوَ الباب.

ولـمَّا سُفِقَ البابُ، نظرَ راشد إلى ألِكسَندر مُجدَّدًا: "هل تعتقدُ أنَّه صدَّقك؟"

"لِـمَ لا يُصدِّقُني؟ لقد قُلتُ له الحقيقة".

"ليس كلَّها".

"ما يكفي". وباتَ صوتُه بارِدًا، مُفعَمًا بالغَضَب. "وأكثرَ بكثيرٍ جدًّا ممَّا استحقَّ أن يسمَع".

٤٩

ألقى مَرقُس نظرةً على جوليا داخلَ مَهجَعِها لدى رُجوعِه إلى الدَّارة. ولـمَّا رأى عَزار واقفةً على الشُّرفة في ضَوء القمر، رافعةً يدَيها إلى السَّماوات، أصابَته طعنةُ ألَمٍ حادَّةٌ. وراقبَها قليلًا، مُحاوِلًا أن يُهدِّئَ مشاعرَه. ثُمَّ هزَّ رأسَه صارفًا انتِباهَه عن عَزار، واقتربَ من سرير جوليا.

تجهَّمَ وجهه. لقد بَدَت جوليا مُضطربةً، حتَّى في أثناءِ نَومِها. ربَّما كان ذلكَ بسبب كَونِ الموتِ قريبًا جدًّا. ثُمَّ انحنَى ومسَّدَ برِفقٍ بعضَ خُصَلِ الشَّعرِ الداكن عن وجهِها الشاحب. وغمرَه الحُزن. كيفَ كانَ مُمكِنًا أنَّ الأُختَ التي فُتِنَ بِها قد آلَت إلى هذه الحالة؟ وكيفَ أمكنَه أن يظُنَّ أنَّه لم يعُد يُحبُّها؟

تحرَّكَت قليلًا عندَما مسَّها، ولكنَّها لم تَستَيقظ.

فاعتدلَ وخرَجَ إلى عَزار، وقد كانَتِ الآن واقفةً ويدُها مُلقاةٌ على الحائط لتَستريحَ قليلًا. وإذ وقفَ بجانِبِها، وقال: ‘‘تبدو نائمةً نومًا ثقيلًا’’.

خفَقَ قلبُ هدسَّة كجناحَي عُصفورٍ عالقٍ في فخٍّ. كانَت قد أمِلَت أن يُغادِرَ مَرقُس الغُرفةَ بعد تَفَقُّدِ جوليا، بدلَ أن يخرُجَ إليها هي. فقالَت: ‘‘إنَّه اللُّقَّاحُ، سيِّدي؛ لن تستيقِظَ حتَّى الصَّباح’’، ناظرةً إلى المدينة في الخارج، لأنَّها لم تستَطع احتِمالَ الأسى السَّاحقِ للقلب من جرَّاء النَّظرِ إليه. وكلَّما نظرَت إليه، تفكَّرَت في الشابَّةِ التي جاءت معَ أبيها لرؤيته.

شُحِبَت أصابِعُها على السِّياج وهي تُكافحُ عواطِفَها الجائشة. لقد كانَت ما تزالُ تُحبُّ مَرقُس. وقد عرفَتْ ذلك أوَّلَ مرَّةٍ رأتْ فيها مَرقُس من جديد. وكانَت قد حاولَتْ أن تُرغمَ نفسَها على مُقاوَمة ذلك، غير أنَّ حبَّها ما ازدادَ إلَّا قوَّةً كلَّ يوم. ولـمَّا رأتْ تَفاثا تقتربُ إليه بعَينَي الحُبّ، أرادَتْ أن تتفادى من الألم الذي اجتاحَ كِيانَها الداخليَّ.

ولَم يخطُرْ في بالِها كم يُمكِنُ أن يكونَ الشَّيطانُ ماكِرًا إلَّا لاحقًا، في أثناء صَلَواتِها. فإنَّ حُبَّها لِمَرقُس كان مُمكِنًا أن يغدوَ أداةً ضدَّها، لأنَّه حينَما انشغلَ قلبُها وعقلُها بمَرقُس انطرحَت

جوليا مَنسِيَّةً.

ما كانَ ينبغي أن يُلهِيَها أيُّ شيءٍ عن مَهمَّتِها هنا. ولا أيُّ شخص. فيَجبُ ألَّا تُبدِّدَ الوقتَ في الانتحابِ على ما كانَ يُمكِنُ أن يكونَ مع مَرقُس، ولا على طُغيانِ الحزنِ عليها إذا تزوَّجَ بأُخرى. لقد كان صَوابًا وطبيعيًّا أن يتزوَّج. فإنَّ الله قال إنَّه ليس حسنًا أن يبقى الرجُل وحدَه. ومرقُس كان وحدَه.

وأنتِ أيضًا وحدَكِ: فِكرةٌ ماكرةٌ راحَتْ تقرَعُ بابَ ذِهنِها. غيرَ أنَّها رفضَتْ أن تفتحَ ذاتَها لها.

اللَّهُمَّ، ساعِدني حتَّى لا أُبدِّدَ لحظةً واحدةً من وقتِ جوليا مُفكِّرةً في نفسي والأُمورِ التي كانَ يُمكِنُ أن تكون.

ومع ذلك، فإنَّ الألم استَولى على قلبها من جديد إذ جاء الرجلُ الذي أحبَّته لِيَقِفَ بجانبها.

قال مَرقُس بأسًى: ‘‘لقد قاربَت نهايتَها، أليس كذلك؟’’

‘‘بَلى’’.

‘‘لقد عقدَت عزمَها على عدمِ الإيمانِ **بمُخلِّص**، يا عَزار، أيِّ مُخلِّص’’. وهو قد علمَ ما يعنيه ذلك الأمر. أفَما فعلَ كذلك طِوالَ تلكَ الشُّهورِ كلِّها في أثناءِ سَفَرِه في أنحاءِ فلَسطين؟

‘‘لَن أيأسَ من مُحاولاتي معَها’’.

نظَرَ خارجًا إلى المدينة المظلمة النائمة. على الرُّغم من ثرائها وبَهائها، أحسَّ أنَّها كانت تُحتضَرُ من جرَّاء فسادِها، تمامًا كما كانت جُوليا تُحتضَرُ من جرَّاء فسادِها. ومع ذلكَ كان قد رأى لدى أُخته الجوعَ الذي سبقَ أن شعرَ به هو نفسُه. فلماذا لم يَعرِفْه على حقيقته قبلَ ذلكَ الحين؟

أغمضَ مَرقُس عينَيه. أيُّ قِسطٍ من رَفضِ جوليا أن تقبلَ المسيحَ الآنَ كان ناتِجًا من عَدَمِ مُسامَحته لها؟ في وقتٍ ما، خلالَ الأسابيع الأخيرة، انتقلَتْ من التَّمرُّد والدِّفاع عن النَّفس إلى عِيافِ النَّفس وتقبُّلِ مَصيرِها. غير أنَّ الخلاصَ يتطلَّبُ أكثرَ من النَّدامة. إنَّه يتطلَّبُ التَّوبة. كما يتطلَّبُ المسيحَ. فكانَ على جوليا أن تبقى سائرةً على الطريق، غير أنَّها باتَتِ الآنَ

قريبةً جدًّا من النِّهاية، حتَّى بَدَتْ غيرَ قادرةٍ على إدراكِ أيِّ سَبيلٍ آخَرَ مفتوحٍ أمامها سوى ذاكَ الذي قد مَهَّدَته لِنَفسِها: المَوت.

اللَّهُمَّ، كم مِن هذا هو صنيعي، لأنِّي لم أكُن راغِبًا في مُسامحتِها كما سامحتَني أنت؟

وهمسَت عَزارُ برِقَّة: "آه، سيِّدي، ليتَني أستطيعُ أن أجعلَها تُبصِر!"

هدَّأت كلماتُها أفكارَ مَرقُس من جِهة نفسِه. ولم يكُن مُتيقِّنًا أكانت تُصلِّي أم تتكلَّمُ إليه. فقال- مُبتغيًا أن يُعزِّيَها- "لقد حاولتِ، يا عَزار". لقد كان هو مَن لم يفعَلْ ما أرسلَه اللّٰه كي يفعلَه.

فطأطأت رأسَها. "أُريدُ لجوليا أن تعلَمَ أنَّ الموتَ ليس غُروبًا، بل شُروق. اللَّهُمَّ، كيفَ أفعلُ ذلك؟"

وإذ سمعَ مَرقُس الدُّموعَ في صوتِها، وضعَ يدَه على يَدِها. فارتفعَ رأسُها، وسحبَتْ يدَها من تحت يَدِه. ومع أنَّها لم تَبتعِدْ عن مَرقُس، فقد

أحسَّ الهوَّةَ الهائلة ما بينَهما. وقالَ بصوتٍ أجشَّ: ‘‘لماذا ينبغي أن تكونَ الحال على هذا المنوال؟’’ دونَ أن يتيقَّنَ حتَّى ماذا كانَ يطلُبُ أو ممَّن.

قالَت عَزار- مُكوِّرةً يدَها قبضةً على قلبِها- ‘‘عليكَ أن تُساعِدَ بالنِّسبة إلى جوليا. عليكَ أن تُساعِدَني’’.

‘‘كيف؟’’

‘‘سامِحْها’’.

فأخذَه الغضبُ دِفاعًا عن النَّفس، وقال: ‘‘لقدَ فعلتُ ذلك. أتعتقدينَ أنِّي أرُيدُ لأُختي أن تحترقَ بنارِ جَهنَّم؟’’ ثُمَّ أشاحَ بِناظرَيه خَجِلًا. ألَم يُرِدْ ذلكَ؟ حتَّى بِضع ساعاتٍ مَضت، أمَا كان ذلكَ تمامًا هو ما أرادَه؟

‘‘سامِحْها، يا مَرقُس. سامِحْها مِرارًا وتَكرارًا، مهما كانَ ما فعلَته لإيذائك. قُمْ بذلكَ المرَّاتِ اللازمةَ حتَّى تُصدِّقَ أنَّكَ تعني حقًّا ما تقولُه. لقد

قُلتُ أنا وفعلتُ كلَّ ما أعرِفُه، فلم أستَطعِ التأثيرَ فيها. لعلَّ اللهَ ينتظرُك لتَهدِيَها الطَّريق. رجاءً، مَرقُس، اهدِها الطَّريق!"

وأوشكَتْ أن تمضيَ مُبتعِدةً، إلَّا أنَّه أمسَكَ بمِعصَمِها. "لماذا تُحبِّينَها كثيرًا هكذا؟"

"أيجبُ أن يُوجَدَ سَبَب؟"

"نعم".

"المسيحُ يطلبُ منَّا أن نُحِبَّ بعضُنا بعضًا كما أحبَّنا هو".

"لا تُعطيني الجوابَ وصيَّةً، يا عَزار. ينبغي أن يكونَ أسهلَ عليَّ أن أُحبَّها. فهيَ أُختي. ومع ذلك، فأنتِ مَن أحبَّها. كلَّ حين، ما تزالين أنتِ مَن فعَلَ ذلك أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر". وأحسَّ تَوتُّرها، فتمنَّى لو يتسنَّى له أن يمزِّقَ الحجابَ عن وَجهِها، غيرَ أنَّ تحذيرَ ديموسيدِس كانَ ما يزالُ طَرِيًّا في ذهنِه. ماذا عَن مشاعِرها؟ وماذا عن جوليا؟

قالَت: ‘‘لا أستطيعُ إعطاءكَ أجوبةً وأنا نفسي لا أملكُ أيَّ جواب’’. وقد تقطَّعَ صوتُها برِقَّةٍ من جرَّاءِ المشاعِر، بحيثُ علمَ أنَّها رغبَتْ في بقائها طيَّ الكِتمان. لماذا؟ ‘‘كلُّ ما أعلَمُه هو أنّي أوَّلَ مرَّةٍ رأيتُ أُختَك أحبَبتُها كما أحببتُ أقرِبائي الأدنَين. لقد مرَّت أوقاتٌ تمنَّيتُ فيها لو يُخفِّفُ اللّه العِبءَ، غيرَ أنَّه أثقلَ قلبي بأن أُحِبَّ جوليا. ولَسوفَ أُحِبُّها حتَّى يُرشِدَني اللّه إلى خِلافِ ذلك’’.

أرخاها مَرقُس ببُطء. وإذ تحوَّلَت عنه، عرَجَتْ راجعةً إلى مَهجَع جوليا، وقعدَت على الكرسيِّ بجانِب سريرها. فأقبلَ مَرقُس ووقفَ وراءَها. لقد أعطته لمحةً عن كفاحِها الشخصيّ. وألقى يدَيه على كتِفَيها، فأحسَّها تتصلَّب.

لقد كانت تَفرُّ منه دائمًا. لماذا؟ ولِمَ أرادَ هو مُستَميتًا أن يكونَ الأمرُ خِلافَ ذلك؟ وإذِ اعتراه الارتباكُ والانزعاجِ، أدارَ ظهرَه لِيَنصرِف. فقال: ‘‘أرسِلي في طَلَبي عندما تستيقِظ’’، وغادرَ الغُرفة.

ولم تستيقِظ جوليا إلَّا لحظاتٍ في الصباح، ثُمَّ

دخلَتْ في غَيبوبَةِ سُبات.

٥٠

جاء عَزرا بارياكين ليتكلَّمَ إلى مَرقُس عصرَ ذلك النَّهارِ عينِه. وبينَما هُما مُختَلِيانِ في البِبليوتيكا، وصلَ ألِكسَندر ديموسيدِس أماندينُس تلبيةً لطَلَبِ رافا.

قالَت هَدسَّة: ''ما زالَتْ على هذه الحالِ طَوالَ النَّهار. لقد زالَ مَفعولُ اللُّفَّاح منذُ ساعات''.

رفعَ جفنَي جوليا وتراجَع، قائلًا بصراحة: ''لا يُرجَّحُ أن تُفيقَ من سُباتِها. هذِه هيَ آخِرُ مرحلةٍ قبلَ إتيانِ الموت''.

''لا يُمكِنُ أن تموتَ، يا ألِكسَندر! ليسَ الآن. يجِبُ أن تُساعِدَني على إخراجِها من هذه الحالة''.

''ذلك هو ما أُحاوِلُ أن أقولَه لكِ. ليسَ من شيءٍ **يُمكِنَنا** أن نفعلَه لإخراجِها منها. **قُضيَ** الأمر. انتهى! لقد فعَلْنا كلَّ ما يُمكِنُ فعلُه. فلتَمضِ في سبيلِها''.

“وهكذا تُفارقَ الحياةَ على هذه الحال؟”

“بسلام”.

فارتَمتْ هَدسَّة على الكُرسيِّ وبَكَت.

وعبَّسَ ألِكسَندر بشِدَّة. مهما كان السببُ الواهي الذي من أجله كرَّسَتْ هَدسَّة نفسَها لهذه الشابَّة الأنانيَّة الفظَّة، فقد فعلَتْ ذلك بإخلاصٍ قلبيّ. ووجدَ نفسَه مُتمنِّيًا لو أنَّ كلَّ شيءٍ جرى كما رَجَت هَدسَّة.

لقد ضايقَتْه دُموعُها. ومن أجلِها، أجرى لجوليا فحصًا آخَرَ دَقيقًا. كانت قد ذَوَتْ منذُ آخِرِ مرَّةٍ رآها فيها حتَّى باتَتْ جِلدًا وعَظْمًا تقريبًا. وكانت بُقَعُ الآفَةِ أسوأَ، ناشرةً العدوى في أنحاء جسمِها كلِّه. فأوَّلَ مرَّةٍ منذُ لقائه جوليا ڤاليريان، ثارَتْ لَدَيه الشَّفقة. فمَهما كانَت أو فعلَت، تبقى كائنًا بشريًّا.

وإذِ اعتَدلَ، رأى صِينيَّةَ الطَّعام الذي لم يُمسَّ. ولم يتنبَّهْ إلى أنَّ الطَّعامَ كان قد أُحضِرَ إلى

هَدسَّة، فقال: "إذا أفاقَتْ، فلا تُعطيها أيَّ شيءٍ صُلبٍ لِتأكُل، بل مَرَقًا أو ثَريدًا رقيقًا فقط. ولكنِّي أعتقدُ أنَّه يكونُ أحكمَ ألَّا نرجو".

ثُمَّ أخرجَ عُليبةَ دواءٍ من حقيبتِه، وناولَها إيَّاها. فقلَّبَتها في يَدِها، وعرَفَتِ النَّقش. فردَّتها إليه، قائلةً: "لَدَيَّ قليلٌ من اللُّفَّاح". فأخذَها، وأطبقَ يدَه عليها. ثُمَّ ردَّها إلى حقيبته مُتنهِّدًا، ووضَعَها جانبًا.

وقال: "يجب أن نتكلَّم!" واضعًا يدَه تحتَ ذِراعِها، وجاذِبًا إيَّاها بِثَباتٍ لِتَقِفَ على قدَمَيها. ولـمَّا خَرَجا إلى الشُّرفة أدارَها لتُواجِهَه. "لقد فعَلتِ كلَّ ما في وُسعِكِ، يا هَدسَّة. عليكِ أن تَدَعيها تمضي".

"لا أستطيع. ليس الآن".

"متى؟"

"عندما تقبَلُ المسيح..."

"إذا كانت لم تقبَلْه حتَّى هذا الحدِّ، فلَن تقبلَه

أبدًا’’.

‘‘لا تقُل هذا!’’

فاجتذبَها ألِكسَندر إلى ما بينَ ذِراعَيه، مُحتَضِنًا قَفا رأسِها بِراحتَيه. ‘‘لا يُمكِنُكِ أن تُخلِّصي العالَم، يا صغيرتي!’’

تشبَّثتْ بِتُنكِه، وقالَت مهزومةً: ‘‘لا يُمكِنُني أن أُخلِّصَ أحَدًا’’، مُلقيةً خدَّها على صدرِه. لقد كانت مُتعَبةً جدًّا بَدَنيًّا. وشعرَت بأنَّها مَغلوبةٌ وقلبُها حزين.

وقالَ ألِكسَندر على نحوٍ فُجائيّ: ‘‘لقد قرَّرتُ أن أُبحِرَ إلى روما وأُقدِّمَ خِدْماتي لِلجَيشِ الرُّومانيّ’’.

فانكفأت هَدسَّة مَشدوهةً.

ولم يكُن ألِكسَندر على استِعدادٍ لإطْلاعها على جميع أسبابه، فاختارَ فقط تلكَ التي تتقبَّلُها بسُهولة.

‘‘لَدى أطبَّاءِ الجيش قيودٌ أقلُّ ممَّا لَدَيَّ، والسَّفَرُ مع الفَيالِقِ سيُوسِّعُ مَعرِفَتي وخبرتي. وسيُتاحُ لي أن أجمعَ أعشابًا طِبِّيَّةً جديدة وأتعلَّمَ عنها. فكِّري في الاحتمالات، يا هَدسَّة. أنتِ تَعلَمين أنَّ نبتةَ بَربَرَمِ القابِضةَ اكتُشِفتْ على الحدود. وكذلكَ أيضًا **الجُذَيرُ البريطانيّ**[٣]. وقد أحرزَ نجاحًا في مكافحة آثارِ حَفْرِ اللِّثَة. فنحنُ بحاجةٍ إلى تعلُّمِ المزيد، ولا يمكِنُني القيامُ بذلكَ هنا في جَوِّ أفَسُس المريح’’.

ثُمَّ تشبَّث بِكَتِفَيها، وعَيناه تتأجَّجانِ حِدَّةً. ‘‘لقدِ انتهى عملُكِ هنا، يا هَدسَّة. أُريدُ منكِ أن تُرافقيني’’.

وإذ نظرَت إلَيه، فرأتْ محبَّتَه واهتِمامَه، أغرَتها التَّجربة. كانت قبلَ قُدومِ ألِكسَندر قد سمعَتْ لاڤِنيا عَرَضًا تُخبِرُ خادِمةً أُخرى بأنَّ مَرقُس كانَ يُكلِّمُ عزرا بارياكين. فباتَتِ الآنَ أكثرَ تيقُّنًا بعدُ بأنَّ عَزرا بارياكين قد جاءَ ليعرِضَ على مَرقُس أن يتزوَّجَ بابنتِه. وسيَكونُ من الأفضل لمرقس حتَّى يجدَ السَّعادةَ أن يوافِقَ على ذلك.

ولـمَّا كانت جِوليا لم تعُدْ تَعي حتَّى حُضورَ هَدسَّة، ساءلَتْ هَدسَّة نفسَها عن المقصِدِ الذي تُسهِمُ في إتمامه بِبَقائها بعدَ الآن. وتساءلت عن السَّببِ الذي من أجله أتى بها الله إلى هنا أصلًا.

قالَ ألِكسَندر: "تعالَي معي". وهي أرادَت ذلك. أرادَتْ أن تفرَّ ممَّا أغرقَها الآنَ من أذى الفَشَل والشُّعور به. وماذا بعدُ في وُسعِها أن تفعلَ لجوليا؟ ثُمَّ إنَّ حبَّها لِمَرقُس لم يجلبْ لها إلَّا الكَرْبَ، لأنَّه ما كانَ لِيُسفِرَ عن أيِّ شيء. إنَّ لَدى الله خُطَطًا له، خُطَطًا تشتمِلُ على شابَّةٍ مسيحيَّةٍ جميلة يهوديَّةِ الأصل من أريحا، لا امرأةٍ وعرجاء تحملُ الندوبَ في جسدها.

وتشجَّعَ ألِكسَندر باللَّايقينِ الذي لاحظَه في عينَي هَدسَّة، فمضى في مُحاوَلةِ إقناعها. "فكِّري في جميع الذين يُمكِنُك أن تُساعِديهم. إنَّك هنا منذُ شُهورٍ تعتنينَ بامرأةٍ واحِدَةٍ تُحتَضَر، في حينَ كان يَسَعُكِ أن تُساعِدي عَشْرًا أو أكثرَ لِكَي يَعِشنَ في أثناء تلكَ المدَّة. فلِماذا تبقَينَ بعدُ ما دامَ الوضعُ مَيئوسًا منه بكُلِّ جلاء؟"

وأغمضَتْ عَينَيها، مُرتَجفةً كما لو كانت واقفةً في وَجهِ ريحٍ عاتية.

"تعالي معي!" ورفعَ الحِجابَ، فاحتَضَنَ وجهَها براحتَي يدَيه. "رجاءً، هَدسَّة، تعالَي معي!"

آهِ، يا الله، لِماذا لا أستطيعُ أن أقولَ «نعم»؟ لماذا تُبقيني هنا؟ هكذا صرَخَ قلبُها. غير أنَّها عَلِمَت- مهما كان ما شعرَت به ومهما آذاها الأمرُ- أنَّها اتَّخذَتْ قرارَها منذُ أمَدٍ بعيد.

جالَ نظَرُها على وجهِه. وأنزلَ يَدَيهِ عنها. "أمُتَيقِّنةٌ أنتِ أنْ ليس مَرقُس قاليريان هوَ ما يُبقيكِ هنا الآن؟"

فأسدلَتِ الحجاب، دونَ جواب.

وما كان ألِكسَندر لِيَدَعَها تنصرِفُ عنه. فأمسكَ بذراعَيها وتشبَّثَ بها بشِدَّة. "ماذا تقولينَ، يا تُرى، إذا قلتُ لكِ **إنِّي** أُحبُّكِ؟ ذلك لأنِّي أُحبُّك فعلًا! هَدسَّة، أنا أُحبُّكِ! ألا يُحدِثُ ذلكَ فَرقًا؟"

"أنا أُحبُّكَ أيضًا، يا ألِكسَندر". فجعلَتْ كلِماتُها

الهادئةُ روحَه تُحلّقُ في الأعالي، لِتعودَ فتَهوِيَ مُحَطَّمةً في الثانيةِ التالية، إذ أضافَت: ''سأُحِبُّكَ دائمًا من أجلِ إحسانِكَ إليَّ، ومن أجلِ حُنوِّكَ على آخَرِين لا يُحصَى عددُهم، ومن أجلِ جوعِكَ إلى معرفةِ الحقّ...''

''لم أكُن أتحدَّثُ بشأن المحبَّةِ الأخَويَّة''.

مدَّتْ يَدَها، ومسَّت وجهَه برِقَّة، ولم تنبِسْ بكلمةٍ بِضعَ لَحَظات. ثُمَّ ابتسمَتْ بأسًى: ''آهِ ألِكسَندر، يا لَيتَني أستطيعُ أن أعُطيَكَ ما تُريدُه. غيرَ أنّي لا أحُبُّكَ مَثلَما أُحِبُّ مَرقُس''. فطعنَتْ هذه الكلماتُ قلبَه، وأرادَ أن يُشيحَ بناظرَيه، غيرَ أنَّها أبقَتْ يدَها على خدِّه، مُتوسِّلةً إليه أن ينظُرَ إلَيها. وفعلَ هكذا، فلاقَتْ عَيناه عينَيها الدافئتَين: ''ولا أنتَ تُحِبُّني مثلَما تُحِبُّ مهنتك الطبِّيَّة''.

وأراد أن يُنكِرَ ذلك، أن يُجادِل. غير أنَّه لم يستَطعْ. لقد عَلمَ أنَّها كانت على حقّ. فزَفَرَ نفَسَه بهُدوء وأشاحَ بناظرَيه. ''لَدَيكِ حقًّا طريقةٌ بارعةٌ في بُلوغ كَبِدِ الحقيقةِ مُباشرة''.

قالت: ‘‘ليسَ دائمًا’’، مُفكِّرةً في جوليا. لو أنَّها بلَغَتْ كَبِدَ الحقيقة، أمَا كان في وُسعِها أن تجِدَ سبيلًا إلى قلبِ جوليا؟ **اللهُمَّ، لولاكَ يا ربُّ لكُنتُ أشعُرُ بالوَحدةِ البالغة!**

وقرَّرَ ألِكسَندر أن يُخبِرَها بالباقي. فأفلَتَها، وقال: ‘‘قَصَدَ مَرقُس ڤاليريان إليَّ في زيارةٍ قصيرةٍ البارحة’’.

أخذَ قلبُها يدقُّ كالطَّبل. ‘‘ماذا كان يُريد؟’’

‘‘أرادَ أن يعرفَ المزيدَ عنكِ. إنَّه يُركِّبُ قِطَعَ الأحجيَّةِ معًا، يا هَدسَّة. وقد وصلَ راشِد في اللحظةِ غيرِ المناسِبة’’.

‘‘هل رآه مَرقُس؟’’

‘‘نعم، وكانت لُحيظاتٌ رأيتُ فيها من الضَّروريِّ أن أُذكِّرَه بِقَسَمِه. إنَّ مَرقُس سيُشبعُ فُضولَه عنكِ بطريقةٍ أو بأُخرى. أمَّا ما سيفعلُه حين يتبيَّنُ له مَن أنتِ، فأمرٌ لا أدريه. إنَّما لا تنسَي أبدًا أنَّ هؤلاء الأشخاص هُم أنفُسُهم مَن طرحوكِ

لِلأسود". ودسَّ يدَه تحتَ الحِجاب لِيُرَبِّتَ خَدَّها. "ستَكونينَ في أمانٍ أكثرَ معي".

"حتَّى لو كان الأمرُ كذلك، يجبُ أن أبقى هنا".

نظرَ إليها، راغبًا أن يقبلَ كلامَها ويحترمَ قرارَها. غيرَ أنَّه لم يستَطع. فألحَّ عليها، مُستَخدِمًا أيَّةَ وسيلةٍ في وُسعِه ليَثنِيَها مُقنِعًا إيَّاها بالبقاء. ولو كفَّ عن مُساءلة نفسِه عن السبب الذي من أجله كان عاقِدَ العَزم هكذا، لَخيّلَ إليه أنَّ مُجرَّدَ قَلَقه عليها هو الذي كان يدفعُه...

وما كان لِيَتصوَّرَ أو يُصدِّقَ بتاتًا أنَّ غَرَضًا أعمقَ وأشدَّ قَتامًا كان يعمَلُ عملَه.

فقالَ في تَحَدٍّ لَطيف: "وإذا غادرتُ أفسُس، فإلى أينَ تَذهَبينَ عندَ موتها؟ إنْ لم أكُن هنا بَعد، فماذا ستفعلين؟"

وهزَّت رأسَها، غيرَ قادِرةٍ على التفكير في ما يُجاوِزُ الوقتَ الراهن.

"ينبغي أن تُفكِّري، يا هَدسَّة. نحنُ ننتمي أحَدُنا

إلى الآخَر. فكِّري في ما يُمكنُ أن نتعلَّمَه وما يُمكِنُ أن نفعلَه لِخَيرِ الآخَرين. ما إنْ ترحَلُ جوليا حتَّى تُضطَرِّي إلى المغادَرة".

"متى ستُسافرُ أنت؟"

أجابَ: "في غُضونِ أيَّامٍ قليلة"، كاذِبًا عليها أوَّلَ مرَّة، دونَ أن يشعُرَ بأيِّ وَخزِ ضمير، لِأنَّه اعتقدَ أنَّ ذلك كانَ لِخَيرِها شخصيًّا. "سأُحيلُ جميعَ مَرضايَ على فليغون وتُرواس". وابتسمَ لها ابتسامةً ساخرة. "من الواضح أنَّ هَولَ المفاجأةِ سيَقعُ عليهما لدى سماع أخباري. إنَّنا لا نتَّفقُ في كثيرٍ من الأمور، ولكنَّهما ما يَزالانِ الطبيبَين الأمهرَينِ والأعلَمَينِ في أفسُس. فأنا أُفَضِّلُ أن أعهَدَ إليهما بالمرضى على تَركهم يلتَمِسونَ المعونةَ من كهنة الأسكليپيون".

فهزَّت هَدسَّة رأسَها قائلةً بصَوتٍ مَهموس: "لقد فعلتُ كلَّ ما أعرفُ أن أفعلَه هنا".

ولم يتيقَّنْ ألِكسَندر إنْ كان الكلامُ موجَّهًا إليه أم إلى نفسِها، غيرَ أنَّه أحسَّ تَراخِيَها. فحثَّته قوَّةٌ لم

يُدرِكَها على التَّشبُّثِ بالفُرصة. ‘‘لقد فعلتِ كلَّ ما هو معروفٌ عندَ البَشَر. فماذا يَسَعُكِ أن تفعلي سوى ذلك بَعد؟’’

‘‘أن أتوكَّلَ على الله’’.

فتراجَعَ خائبَ الأمل. ‘‘سأرحَل حالَما أُرتِّبُ أُمورَ العِيادة’’.

سألت: ‘‘وماذا بشأن راشِد؟’’

‘‘سيبقى هنا ليتولَّى الحراسة؟’’

‘‘خُذْه معك’’.

فنظرَ إليها مَدهوشًا. ‘‘حتَّى لو أردتُ اصطحابَه، ما كان لِيَقبَل. أنتِ تعرفينَ هذا. أمَا، وقد عَلِمَ مَرقُس الآن بشأن هجوم راشِد، يُمكِنُ أن تكونَ حياتُه مهدَّدةً حقًّا لقاءَ ذلك. فأنتِ تعرفينَ ما قد يفعلونَه بعَبدٍ يمدُّ يدَه على رومانيّ’’.

‘‘إذًا يجبُ أن يذهبَ معك’’.

“لن يذهَبَ إلّا إذا ذهبتِ أنتِ”.

فشعرَتْ هَدسَّة بأنَّها فيها ما يتمزَّق، إذ بدا أنَّ وَضْعَ راشِد يَطغى على الهموم التي ركَّزَتها على جوليا.

وكان ذلكَ هو ما رجاه ألِكسَندر، مُقتنِعًا أنَّه أحلَّها في المرتَبةِ الأُولى. “أرسِلي إليَّ بشأن ما تُقرِّرينَه”. وانحنى ليُقبِّلَ خَدَّها من خلال الحِجاب. “ليسَ في وُسعِكِ أن تَفعلي المزيدَ هنا بَعد. فَلْترقُدِ المسكينةُ بِسلام، يا هَدسَّة. فلتَمْضِ في سبيلها”.

راقبَته هَدسَّة يُغادِرُ الغُرفة، مُتَضايقةً ممَّا قالَه.**فلتَمضِ في سبيلها؟ فلتَمضِ إلى الجحيم؟** عندها توجَّهَت إلى الربِّ كما هي عادتها. ماذا ينبغي أن أفعَل؟ **أرِني ما هو الصحيح!**

علِمَت أنَّ ألِكسَندر قد تكلَّمَ بدافعٍ من قَلَقه الخالص عليها وعلى راشد. ولكنَّها إذ صَلَّت علِمَت أنَّ شيئًا ما لم يكُن صحيحًا تمامًا في كلِّ

ما قالَه.

ثُمَّ وافَتها الاستِجابة. فرأتْ بِجَلاء ما كان كامِنًا وراءَ شُعورها بعَدَم الرَّاحة؛ لأنَّ الرُّوحَ القُدُسَ في داخِلها كشفَ لها الأمر. لم يكُن كلُّ شيءٍ قد تبدَّد. فلا شيءَ يستحيلُ على الله. حتَّى الموتُ الوشيكُ لا يُمكِنُ أن يُحولَ بينَه وبينَ مَن هُم خاصَّته... ولعلَّ جوليا ما تزالُ واحِدَةً من خاصَّةِ الله. فإذا غادرَتْ هَدسَّة الآن، تكونُ قد تخلَّتْ عن جوليا حينَ تحتاجُ هذه إليها أشدَّ احتياج.

أيُّها الربُّ الإله، سامِحْني بسبب شكِّي، وأنعِش روحَكَ في داخلي حتَّى أُتمِّمَ مقصِدَكَ هنا. امنحني ألَّا أعتَمدَ على فَهمي، ولا على فَهمِ ألِكسَندر.

ولـمَّا قامَت، عَلمَت أنَّ ألِكسَندر لم يكُن مُدرِكًا القوى غيرَ المنظورة والعامِلةَ في ما كان قد حاولَ أن يفعَلَه توًّا. لم يكُن مُدرِكًا بُزورَ الزَّوان، ولا العَدُوَّ الشِّريرَ الحَقُودَ الذي وَسوَسَ إليه بالكَلِمات لكي يزرعَها في ذِهنِها، ومن ثَمَّ يُضعِفَها.

وكان مُمكِنًا أن يُفلحَ عَدُوُّ الخَير. كما كان مُمكِنًا أن تنجحَ مَكيدتُه. ولكنْ من أجلِ نعمَةِ اللهِ، عادَتْ هَدسَّة من جديد- مرتاعةً وشاكرةً- لِتَحتلَّ مكانَها بجانِبِ سريرِ جوليا، حامِدةً الله على حمايَته.

دخلَتْ لاڤنِيا حامِلةً صِينيَّةَ طعامٍ عندَ هُبوطِ اللَّيل. وأبصَرَتِ الطَّعامَ الذي لم يُمسَّ، ذاكَ الذي أتَت به عِندَ الظُّهر، فنظرَتْ إلى عَزار. "ألَم تكُنِ الوجبَةُ مُرضيةً لِذَوقِكِ، سيِّدتي؟"

"أنا على يقينٍ بأنَّ الوجبةَ رائعةٌ، يا لاڤِنيا، ولكنْ رجاءً خُذِي الصِّينيَّتَين. سأُرسِلُ في طَلَبِ شيءٍ عندما أكونُ مُستَعِدَّةً". ففعلَتِ الفتاةُ ما طُلِبَ منها، عالِمةً من كلماتِها أنَّ السيِّدةَ عَزار ستَصومُ وتُصلِّي إلى أن يحينَ الأجَل. ثُمَّ رجَعَتْ لاڤِنيا وأخذَتِ الصِّينيَّةَ الثانية. "هل أُحضِرُ لكِ خمرًا، سيِّدتي؟"

"لا بأسَ بِطَستِ ماءٍ باردٍ من النافورة".

وبِسُرعة، رجَعَت لاڤِنيا بِما طلبَتْه عَزار. "شُكرًا لكِ، يا لاڤِنيا". ثُمَّ غمسَتْ خِرقةً نظيفةً في الماء

وعصَرَتها. وغسَلَت وجهَ جوليا برِفق. إلّا أنّ جوليا لم تُفِق.

جاء مَرقُس عَصْرَ اليوم التالي. فقامَتْ هَدسَّة مُفسِحةً له إذ قعدَ بجانبِ السَّرير. وقد بدا مَشغولَ البال، فتَساءَلَتْ هَدسَّة ما إذا كان يُفكِّرُ في ما جاء عَزرا بارياكين لِيُباحِثَه فيه، كائنًا ما كان. ثُمَّ أمسكَ يدَ أُختِه المرتَخِيةَ بينَ يدَيه، وراقَبَ وجهَها. ولـمَّا تكلَّم، علِمَت هَدسَّة أنَّه كانَ يُخاطِبُها هي.

"يقولُ إيوليوس إنَّ الوالدةَ ترفضُ أن تأكُل. إنَّها تقعدُ على الشُّرفة مُغمَضةَ العينَين. وهو يقولُ إنَّه لا يعلَم أهيَ تصومُ وتُصلِّي أم تَنساقُ في غَيبوبة". فطأطأَ رأسَه، وقالَ بصَوتٍ في بحَّة الألم: "إلهي، أأنا على وَشْكِ أن أفقِدَهُما كِلَتيهما في آنٍ واحِد؟"

اغرَورقَت عَينا هَدسَّة، إذ بدا على وجهه الإعياء والأسى. وتألَّمتْ من أجلِه. "يجب ألَّا نتخلَّى عن الرَّجاء، سيِّدي". وقد عَنَتْ هذه الكلِماتِ بإخلاص، إلَّا أنَّها بَدَت فارغةً في الغُرفة الهادئة،

حيثُ كانَ شكلُ جوليا الهامِد مُنطَرِحًا على السرير.

فقال مَرقُس بحُزن: ‘‘الرَّجاء! حَسِبتُ أنِّي قد وجدتُ الرَّجاء، ولكنِّي لم أعُد أدري’’. ثُمَّ مالَ إلى الأمامِ ومرَّرَ أصابِعَه برِفقٍ في الشَّعرِ الداكن الـمُلقَى على الوِسادة. وما لَبِثَ أن وقَفَ على مهَل، وانحنى مُقبِّلًا جبينَ جوليا. ‘‘أرسِلي في طَلَبي إذا جرى أيُّ تغيُّر’’.

وحلَّت هَدسَّة مَحلَّه إلى جانبِ جوليا.

---

[٣]. الاسمان اللاتينيَّان للنَّباتَين المذكورَين هنا هما: بَربَرَم (Barbarum)، والجُذَيرُ البريطانيّ (Radix britannica)، نذكرُهما هنا للتَّوضيح (الناشر).

الإناء الذهبي

٥١

دخلَ مَرقُس الغُرفة إذِ انسابَ ضِياءُ الصَّباح على حائطِ الشُّرفة. ونظرَت هَدسَّة إليه فرأت كم بدا وجهُه مشحوبًا ومشدودًا. فقامَت عنِ الـمقعد بجانبِ سرير جوليا حتَّى يتمكَّن من الجلوسِ إلى جانبِ أُختِه.

قال: "أليسَ من تَغَيُّر؟"

"لا، سيِّدي".

فقالَ باكتئاب: "مَضَت ثلاثةُ أيَّام على هذه الحال. رجاءً، تكلَّمي إلى أُمِّي، يا عَزار. ما زالت تأبى أن تأكُلَ أيَّ شيء، وقد ظلَّتْ مُستَيقِظةً مُعظَمَ اللَّيل. أنا قَلِقٌ عليها. إنَّها ليسَتْ قويَّةً كِفايةً حتَّى تصوم".

"سأُصَلِّي معها، سيِّدي". وما كانت لِتَفعلَ غيرَ ذلك، لأَنَّه إذا شعرَتْ فيبي بأنَّ الله دَعاها إلى الصَّوم والصَّلاة، فليكُن كذلك، مَهما حَصَل. وجلسَ مَرقُس مُرهَقًا. فأحسَّت كُربَتَه، ووضعَت

يدَها على كَتِفه، ضاغِطةً بعضَ الشَّيء. "توكّلْ على الرَّبّ، يا مَرقُس. نحنُ جميعًا في يدَيه، وهو قد طمأنَنا بأنَّ جميعَ الأشياء ستتفاعَلُ في سبيل مقصِدِه الخَيِّر".

"ليس لي مِثلُ إيمانكِ، يا عَزار".

"لكَ إيمانٌ كافٍ".

وإذ أوشكَ أن يرفعَ يدَه ليَضعَها فوقَ يَدِها، تراجَعَتْ. وراقبَها تعرجُ نحوَ الباب، وتخرج. فأسندَ مِرفَقَيه مُكتئبًا على حافَةِ السَّرير. وأمسكَ رأسَه بينَ يدَيه، مُمرِّرًا أصابعَه في شَعره.

قالَ: "يسوع..."، ولكنْ لم تأتِه أيَّةُ كَلِماتٍ أُخرى. "يسوع..." لقد كان أشدَّ إرهاقًا واكتئابًا من أن يُصلِّي، أو يُفكِّرَ فحَسْب. ففي غُضونِ الأيَّام الثلاثة، منذُ دخلَت جوليا في السُّبات، بدا أنَّ أُمَّه أيضًا تَذوي. إنَّه سيفقِدُهما كِلَتيهما، وعليه أن يُسلِّمَ بذلك.

يسوع!... صاحَ قلبُه مرَّةً أُخرى بَعد.

دخَلَ نسيمٌ رقيقٌ من الشُّرفة، ومسَّ جبينَ جوليا كَهَمسةِ لُطف. فتنشَّقَت منه نَفَسًا خفيفًا، ثُمَّ زفَرَت، مُديرةً رأسَها نحوَه. وإذ فتحَت عَينَيها، أبصرَت مَرقُس جالسًا بجانبِ سريرها ورأسُه في يدَيَه. كان الاكتئابُ الشَّديد باديًا في هَيئته، فمدَّت يدَها بوَهَن، ومسَّته برؤوسِ أصابِعها، مُبتغِيةً أن تواسيَه. فأجفلَ مَرقُس قليلًا ورفعَ رأسَه. وقالَ بصَوتٍ أجَشَّ: "جوليا"، مُحَدِّقًا إليها.

قالت برِقَّة: "أنا مَسرورةٌ بِرجوعِكَ". فأمسكَ يَدَها، وتشبَّثَ بها مُقبِّلًا إيَّاها. فاغرَورقَتْ عَيناها حتَّى أعشَتِ الدُّموع عَينَيها عن رؤيةِ وجهه بجَلاء. لقد أحبَّها فعلًا رُغمَ كلِّ شيء. أُوه، يا اللهَ، لقد أحبَّها فعلًا!

لامسَ وجهَها نسيمٌ، مُنعشٌ على نحوٍ غريب. فشعرَت بأنَّها ضعيفةٌ وخفيفةٌ جدًّا، كما لو أنَّ تلكَ الرِّيحَ اللَّطيفةَ يُمكِنُ أن ترفعَها وتحمِلَها بعيدًا كورَقةِ خريف. غير أنَّها لم تكُن مُستَعدَّة. إذ خَشِيَت إلى أيِّ مكانٍ يمكنُ أن تحمِلَها تلك الريح. وبَدَا لها أنَّ ظُلمةً طاغيةً تُطبِقُ عليها وتُطوِّقُها، وأنَّ الثِّقلَ في قلبها لم يخفَّ، ولو لحظةً

واحِدة.

قالَتْ هَمسًا: ‘‘أنا آسفةٌ جدًّا من أجل كُلِّ شيء، يا مَرقُس’’.

‘‘أعرِفُ هذا. أنا أُسامحُكِ، يا جوليا. كلُّ شيءٍ قد نُسِيَ’’.

‘‘آه، ليتَ الأمرَ بتِلكَ السُّهولة’’.

‘‘هوَ كذلك، يا صغيرتي. أصغي إليَّ، يا جُوليا. لَطالَما كنتُ غبيًّا جدًّا، ولَدَيَّ أُمورٌ كثيرةٌ جدًّا أُخبِرُكِ بها’’. إنَّما كان الوقتُ الباقي قليلًا جدًّا. ‘‘هل تتذكَّرين كيفَ كانت هَدسَّة تَحكي لكِ قِصَصًا؟ أنا أُريدُ أن أحكي لكِ قِصَّة- **قِصَّتي**’’. ومن ثَمَّ بدأ يحكي، مُبتدئًا من أيَّام روما، حينَ مَلَكَ ثلاثةُ أباطِرة في غضون سنةٍ واحدة، وقُتلَ نِصفُ أصدقائه. وتكلَّمَ بشأن شهوته للنِّساء، وبشأن الولائمِ الطويلة جدًّا، والشُّربِ والسُّكر، والألعاب... كلِّ تِلكَ الأُمورِ التي استَعملَها لإشباعِ الجُوعِ في داخِله. لقد عاشَ بمُقتَضى القولِ المأثور ‘‘لِنأكُلْ ونشرَبْ ونمرَحْ، لأنَّنا غدًا نموت’’.

غيرَ أنّ أيَّ شيءٍ لم يُشبِعْه، ولا سدَّ الفراغَ المؤلمَ في داخلِه.

ثُمَّ دخلَت هَدسَّة حياتَهم، مَربوطةً بِحَبلٍ ضِمنَ ناجينَ آخرين من الإبادةِ الكامِلَة في مدينةِ القُدس. "لقدِ اشترتْها الوالِدةُ وأعطَتكِ إيَّاها. وكان فيها من البداية شيءٌ مُختلف. فعلى الرُّغمِ من كلّ ما كابدَته، فقد مسحَها سَلامٌ لافِت. وكم وجدتُها لَيلًا في الحديقة الـمُنارة بضَوء القَمَر تُصلّي إلى الله. لأجلِكِ. لأجلي. لأجلِنا جميعًا". ثُمَّ تنهَّدَ، ضاغِطًا يَدَ أُختهِ بينَ يَدَيه.

"لم تكوني أنتِ الشَّخصَ الوحيدَ الذي استَهزأ بها".

عرَجَت هَدسَّة في الرِّواق الأعلى آتيةً من مَهاجِع فيبي. وإذِ اقتربَتْ من باب جوليا المفتوح، سمِعَت مَرقُس يتكلَّمُ دونَ وُضوح. فدخلَت بهُدوء، ووثبَ قلبُها إذ رأتْ عَينَي جوليا مَفتوحتَين. وقد كانت جوليا تُصغي بانتِباهٍ إلى مَرقُس، وهو يُخبِرُها بشأن خَرابِ مدينة القُدس، وبشأن شَيخٍ وقفَ باكيًا بجانبِ الجُزء الأخير الباقي من جدارٍ

الهيكل.

رفعَ مَرقُس نظرَه إذ دخلَت عَزار الغُرفة. ثُمَّ استأنفَ الكلام، مُخبِرًا أُخته بِاعتِداء اللُّصوصِ عليه في الطريق إلى أريحا. وحكى كيف أنقذَ عَزرا بارياكين وابنتُه تَفاثا حياتَه. ‘‘لقد أخبرتُه بِما أخبرتْني هَدسَّة بشأن الرَّبّ، ورأيتُه يتغيَّر، يا جوليا’’.

سمِعَتْ هَدسَّة العاطِفةَ المتَزايِدَة في صوته لـمَّا أخبرَ أُختَه بسَيره في الطريق إلى قريةِ نايين. وشُحِبَت يدُها على عُكَّازِها.

‘‘عثرتُ على البيتِ الذي عاشَتْ هَدسَّة فيه، وأوَيتُ إليه. وكنتُ أطوفُ على جوانبِ التِّلال، ثُمَّ أشتري خمرًا وأشربُ حتَّى أثمَلَ وأنسى. لا بُدَّ أنَّ أهلَ القرية حَسبوني مجنونًا. فقد تركوني وشأني. ولم يجرؤ أيُّ واحِدٍ على مُساءلةِ رومانيّ. ما عدا امرأةً عجوزًا واحِدةً دأبَت في مُضايَقَتي...’’ وضَحِكَ ضِحكةً غَليظة. ‘‘دَبُورة’’.

جلسَت هَدسَّة مُتثاقِلةً على الجانبِ الآخَر من

سرير جوليا. ودُونَ أن تُحوِّلَ جوليا نظَرَها عن مَرقُس، بحثَتْ يدُها عن يدِ هَدسَّة حتَّى وجدَتها. أمَّا هَدسَّة فنظرَت إلى مَرقُس من خلالِ حجابِها... ودموعِها.

ومضى مَرقُس يحكي كيف اصطحَبَته دَبُورة خارجًا إلى جانبِ التَّلِّ وأرسلَته نُزولًا إلى بُحَيرة الجليل، حيثُ قابلَ پاراكليتُس، ثُمَّ كُرنيليوس لاحِقًا في كَفْرَناحوم.

وما لَبِثَ أن قال: ‘‘ما كنتُ قَطُّ قد عَرَفتُ شعورًا كالذي غمرَني ذلكَ اليومَ، يا جوليا. الحرِّيَّة. الفَرَحُ الذي يفوقُ كلَّ عَقل. لَكأنِّي كُنتُ مَيْتًا كُلَّ حياتي ثُمَّ فجأةً أُقِمتُ حيًّا’’. ووضعَ يدَه برِقَّةٍ على جَبينِها. ‘‘يُمكِنُكِ أن تُشعري بهذا الشُّعورَ، أنتِ أيضًا’’.

فقالت جوليا بحُزن: ‘‘أنتَ لم تفعَلْ ما فعلتُه أنا. أنت لم تُخطئْ قَطُّ كما أخطأتُ أنا’’.

وضغطَت هَدسَّة يدَها بِرِفق. ‘‘نحنُ كلُّنا نُخطئ، يا جوليا، وما من خَطيَّةٍ أكبرَ من أُخرى. إنَّ الله

ينظرُ إلى الخطايا كُلِّها نِظرةً واحِدة. لذلكَ أرسلَ يسوعَ ليُكفِّرَ عنَّا... عن كُلِّ واحِدٍ منَّا''.

فطرَفَت جوليا بعَينَيها حَبسًا للدُّموع ورفعَتْ نظرَها نحوَ السَّقف. ''لا تَستَطيعان كِلاكُما أن تفهما. أنتُما صالِحان. أمَّا أنا فشِرِّيرة''.

قالَت هَدسَّة: ''جوليا''. **اللَّهُمَّ، افتَحْ أُذنَيها حتَّى تسمَعَ بقلبِها!** ''هل تتذكَّرين المرأةَ السَّامِريَّة عندَ البئر؟ هل تتذكَّرينَ مريمَ المجدليَّة؟ لقد كانَتِ السَّامريَّةُ أوَّلَ شخصٍ عَرَفَ أنَّ يسوعَ هو المسيح، ومريمُ أوَّلَ شخصٍ عرفَ أنَّه قد قام من القبرِ حيًّا''.

وقالَت جوليا لأخيها: ''عَزارُ لا تفهم. إنَّها لا تعلَم. آهِ مَرقُس، أنا أعرِفُ أنَّكَ لم تُرِد منِّي قطُّ أن أتكلَّمَ بشأنِها مرَّةً أُخرى، ولكنْ لا أستطيعُ أن أتمالكَ نفسي. لا أستطيعُ أن أكُفَّ عنِ التفكيرِ في الأمر. لا أستطيع...''

''إذًا، قُولي ما يَجِب أن تقوليه''.

فرفعَت نظرَها إلى السَّقفِ من جديد، شاعِرةً بالبؤسِ والضَّياع. وهمسَت ‘‘لقد كانت صديقتي المفضَّلة’’. وأخذَ فَمُها يرتجِفُ إذِ اعترفَتْ بالخطيَّة التي أثقلَت قلبها على نحوٍ بالغ. ‘‘لقد أحبَّتني، وأنا بعثتُ بها إلى ساحة المحاربين لِتموت، لأنِّي كُنتُ غَيورًا. ولربَّما قتلتُ الحبَّ أيضًا لـمَّا قتلتُ هَدسَّة’’.

تراجَعَتْ عَزار، وكأنَّها مشدوهة. ونظرَ مَرقُس إليها، شاعِرًا باضطِرابها.

وطرفَت جوليا بعَينَيها حَبسًا للدُّموع إذ نظرَتْ إلى أخيها. ‘‘مَرقُس، لقد أحبَبتَها. سَمِعتُكَ تطلُبُ إليها أن تتزوَّجَ بك. قلتُ لك على المدرَّج إنِّي دبَّرتُ مقتلَها لأنَّها رفضَتْك، ولكنِ اشتَملَ الأمرُ على أكثرَ من ذلك. لقد قتلتُ هَدسَّة لأنَّها كانت كُلَّ ما لم أكُنهُ أنا. كانت أمينة. كانت لطيفة. كانت طاهِرة. وبصَرفِ النَّظَر عن كيفيَّةِ مُعاملَتي لها، أو عن كيفيَّةِ مُعامَلةِ كالاباه وپريمُس لها، لم تتغيَّرْ قطّ’’.

تلمَّسَت جوليا بحثًا عن يدِ مَرقُس وتشبَّثَت بها.

‘‘لقد شقَّ عليها أن تقول لك «لا»، يا مَرقُس. وأنا أعلَمُ أنَّك لم تعتقِدْ ذلك. فقد كُنتَ غاضبًا جدًّا حتَّى إنَّك لم تَرَني عند مُغادَرتِك. ولكنَّ ذلك حصلَ فعلًا. لقد نظرتُ إلى غُرفَتي، وإذا بها جاثيةٌ على رُكبتَيها تبكي. إنَّما لم أرِد أن أُخبِرَك’’.

طأطأ مَرقُس رأسَه.

وبكَت جوليا أيضًا إذ تذكَّرَت. ‘‘ليُسامِحْني إلهُها. لقد جلستُ هاتِفةً لـمَّا ماتَتْ، وحينَ قُضيَ الأمرُ وماتت، وكُنتَ أنتَ قد ذهبتَ، ما كان منّي إلَّا أن زَعَقتُ مِرارًا وتَكرارًا. ظلَلتُ أسمعُ زمجرةَ تلك الأسود، واستَطعتُ أن أراها مَطروحةً على الرَّمل. لقد عَلِمتُ ما فعلتُ. نعم، عَلِمتُ. آه، يا الله، أنا **أعلم**. وقدِ استهزأ بي پريمُس وكالاباه من أجل ذلك’’.

وكانت تَرتَعشُ مع البُكاء. ‘‘لا يُمكِن أن أُسامَحَ! كيف تطلبُ المسامَحة من شَخصٍ قتلتَه؟ هَدسَّة مَيْتة. آه، لقد رحلَت، والغَلطةُ غَلطَتي، غلطتي أنا’’.

نظرَ مَرقُس إلى عَزار مُغتَمًّا. وقال: ‘‘أعطيها جرعةَ لُفَّاح’’، غيرَ عارفٍ أيَّ سبيلٍ آخر لِتَعزيةِ أُختِه، ولا لِتَوفيرِ مزيدٍ من الألَمِ على نفسِه.

كانت هَدسَّة تَرتعِدُ بشِدَّة. ‘‘اترُكني وحدي معها، سيِّدي’’.

‘‘تبًّا لكِ، أعطيها **شيئًا ما!**’’

فقالت- وصوتُها الرَّقيق مُفعَمٌ بالإلحاحِ والأمر- ‘‘رجاءً، افعَلْ ما طلبتُ’’.

ولـمَّا أفلتَ مَرقُس يدَها وقام، قالَت باكيةً: ‘‘لا تترُكني. أنا خائفة’’.

‘‘اذهَبْ!’’

وانصرَف مَرقُس، كي يفرَّ من الحُزنِ بقَدْرِ تلبِيَته طلبَ عَزار. فخَرَجَ مُبتعِدًا وتشبَّث بالدَّرابزين مُقابِلَ غُرفةِ جوليا، مُحاوِلًا أن يستعيدَ السَّيطرةَ على عواطفِه. أيُّ قِسطٍ من هذا كانَ ما اقترَفَتْه يَداه؟

اللّهُمَّ العَزيز، أيُّ مِقدارٍ من الموتِ وجبَ أن يَنتجَ من عماه؟

جلسَت هَدسَّة على حافةِ السَّرير. وقالت- مُربِّتةً جبينَ جوليا- ‘‘يجِبُ أن تطمئنِّي الآن، سيِّدتي. سأدعو مَرقُس لِيَعودَ بعدَ قليل، ولكن يجبُ أن أُكَلِّمَكِ على انفراد’’.

تسارَعت دقَّاتُ قلبِها إذ أنزلَت يدَ جوليا. ‘‘أنا أُسامِحُكِ، يا جوليا’’. ولمحتِ العَبسةَ الضئيلةَ تخفقُ على جبين جوليا. فقالَت ثانيةً، وهي ترفَعُ الحِجاب: ‘‘أنا أُسامِحُكِ’’.

أوَّلَ الأمر، حَدَّقَت جوليا إليها، فلَم تعرِفْها، إذ رأت فقَط النُّدوبَ الرهيبةَ المشَوَّهة. ثُمَّ نظرَت في عَينَي عَزار، فاتَّسعَت عَيناها حتَّى هَيمَنَتا على وجهِها الشاحب. وإذ شهقَتْ نَفَسَها، انكمشَت مَرعوبةً.

كانت هَدسَّة قد عايَشَتِ الخوفَ هيَ نفسُها، وعرَفَتِ السُّلطانَ الذي له على الناس. فقالَت: ‘‘لا تخافي منِّي، يا جوليا. أنا لستُ شَبَحًا. أنا

حيَّةٌ، وأنا أحبُّكِ''.

وكان تنفُّس جوليا سريعًا. ''أنتِ مَيْتة. لقد رأيتُ الأسَد. لقد شاهدتُ دَمَكِ''.

''أُصِبتُ إصابةً بالغة. وتكلَّمَ الله إلى ألِكسَندر، فطلبَني عندَ بِاب الموت، لكي أعيش''. ووضعَتْ يدَها برِقَّةٍ فوق يدِ جوليا. ''أنا أُحبُّكِ''.

قالَت جُوليا: ''آه...''، وبأصابعَ مُرتعِشةٍ مدَّت يدَها ومسَّت وجهَ هَدسَّة. ''أنا آسِفة. آهِ هَدسَّة، أنا آسِفةٌ جدًّا''. وبَكَت مُجَدَّدًا. ''أنا آسِفة. أنا آسِفة''.

''أُوه، يا جوليا، لا تَكوني آسِفةً بَعدَ الآن''. وقد كان صَوتُ هَدسَّة جليًّا، رُغمَ ارتعاشِه بالتأثُّرِ العاطفيّ. ''لقد سامحتُكِ بكلِّ شيء قبلَ تقدُّمي إلى ساحةِ المحاربينَ أصلًا. لقد باركتُ اسمَكِ لأنَّه بواسطتِك، بواسطةِ إرسالي إلى ساحة المدرَّج، حرَّرني الله من خَوفي''. وحدَّثت جوليا بشأن خوفِها في مدينةِ القُدس ومِن الاضطهادِ إذا عَرَف أحَدٌ أنَّها مسيحيَّة. كما حدَّثتها

بشأن كِفاحِها لإيصالِ بشارةِ الإنجيلِ إلى جوليا وعائلتها، في حين كانَت خائفةً أن تُعلِمَ أيَّ شخصٍ بإيمانِها بالمسيح.

وقالت جوليا، خَجِلةً: ''ثُمَّ إنِّي ضربتُكِ. وأطلقتُ عليكِ ألقابًا مُهينة، وشتمتُكِ''. فكيفَ أمكنَ هَدسَّة بَعدُ أن تقولَ إنَّها أحبَّتها؟ كيفَ أمكَنَ ذلك؟

تَناولَتْ هَدسَّة يدَ جوليا، وقبَّلَت راحَتَها. ''لا تُفكِّري في ذلك بَعدُ! لَدَينا شؤونٌ أُخرى أهمُّ الآن. عليكِ أن تختاري. لقد صلَّيتُ لأجلكِ دائمًا. لقد تضرَّعتُ إلى الله أن يفتَحَ عينَيكِ وقلبَكِ. هل تؤمِنينَ بيسوع؟''

فقالت جوليا: ''أوه، هَدسَّة!'' شاعرةً بثِقلِ أحمالِها ينزاح. ''كيفَ يُمكِنُني أن أُنكِرَ وُجودَه، وهو وحدَه استطاعَ أن يُنقِذَكِ من الموت؟'' ثُمَّ لامسَتْ خَدَّها وشفتَيها. ''أنا مسرورةٌ جدًّا. أنا مسرورةٌ جدًّا لأنَّ يسوعَكِ أحبَّكِ كثيرًا جدًّا بحَيثُ لم يجعَلْكِ تموتين''.

غمرَتِ الدُّموعُ عَينَي هَدسَّة. ‘‘**لا يسوعي**، يا جوليا، بل **يسوعُنا**. ألا تَرَين؟ لم يُبقِ اللهُ على حياتي لأجلي أنا، بل أبقى عليها لأجلكِ **أنت**’’.

طرَفَت جوليا بعَينَيها مَشدوهةً، وأوَّلَ مَرَّةٍ استَطاعَت أن تتذكَّرَ، غمَرَها الرَّجاء.

ومسَّت هَدسَّة خَدَّ جوليا الشاحِبَ. ‘‘لأيِّ سببٍ آخَرَ يُمكِنُ أن يكونَ اللهُ قد صنعَ مُعجزَةً كهذه؟ أيَّ مقصِدٍ آخَرَ يُمكِنُ أن يوجَد؟ ولأيِّ سببٍ آخَرَ يُرسِلُني إلى هنا لأجلِكِ؟’’

فتحجَّرَ وجهُ جوليا. ‘‘رُغمَ كلِّ ما كان؟’’

ضحِكَت هَدسَّة برِقَّةٍ فَرَحًا. ‘‘أُوه، نعم! ذلكَ هو اللهُ القديرُ حقًّا!’’ وأمسكَتْ يَدَي جوليا بإحكامٍ بينَ يدَيها. ‘‘رُغمَ أنفُسِنا، هو يُحِبُّنا! لقد اعترفتِ بخطاياكِ، يا جوليا. فهل تَعترفين بإيمانكِ به؟ ما يزالُ الربُّ يقرعُ بابَ قلبِكِ كُلَّ حياتكِ. فأدخِليه، يا محبوبة. رجاءً، جوليا. أدخِليه!’’

قالت جوليا: ‘‘كيف يُمكِنُني ألَّا أفعلَ ذلك؟’’

مُتشبِّثةً بيَدِ هدسَّة، وناظِرةً المحبَّةَ تُشعُّ في عَينَيها. "يا الله، يا يسوع، رجاءً!" وبينَما هي تتفوَّه بهذه الكَلِمات بَعد، كانَ كأنَّ شيئًا ما دخَلَ كِيانَها مُسرِعًا، مالئًا إيَّاها، رافِعًا إيَّاها، غامِرًا إيَّاها. فإذا بِها تُحِسُّ أنَّها أخَفُّ. وإذا بها تُحِسُّ أنَّها حُرَّة. وقد شعرَتْ بأنَّها ضعيفة، ضعيفةٌ جدًّا جدًّا. وارتخَت يَدُها. ثُمَّ قالَت مُتنهِّدةً: "يا لَه من أمرٍ سَهلٍ جدًّا!"

ربَّتت هَدسَّة خدَّ جوليا، وابتسمَتْ: "استَيقِظْ، أيُّها النَّائم، وقُمْ منَ الأموات، فيُضيءَ لكَ المسيح".

وضمَّت جوليا يدَ هَدسَّة إلى قلبها. "يجب ألَّا يكونَ الأمرُ سَهلًا جدًّا هكذا".

"لقد عَمِلَ المسيحُ العَمَلَ كلَّه".

"يجب أن تُعَمَّد!" هكذا قالَ صَوتٌ من وراء هَدسَّة، فجمَدَتْ بعضَ الشَّيء، وقد قفَزَ قلبُها. إنَّه مَرقُس! فأفلتَتْ يدَ جوليا وغطَّت وجهَها بالنِّقابِ مُسرِعةً.

وقالت بصَوتٍ راعِش: ‘‘نعم،’’ ثُمَّ قامَت والألَمُ يَخِزُ رِجلَها السَّقيمةَ صُعودًا. وإذ أمسكَتْ بعُكَّازها، خَطَتْ مُبتعِدةً عن السَّرير. هل رأى وجهَها؟ لو رآه، ما أمكنَها أن تُطيقَ ذلك.

قالت جوليا: ‘‘هَدسَّة حيَّة!’’ مُبتسِمةً لِمَرقُسَ ابتِسامةً مُشرِقةً إذِ انحنَى نحوَها.

لم يسبِقْ له قطُّ أن رأى عَينَيها مُشرِقتَين كحالهما اليوم. ‘‘أنا أعلَم، جوليا. لقد سَمعتُ’’. ولم يستَطعْ أن ينظُرَ إلى هَدسَّة، إذ عَلِمَ أنَّهُ لو فعَلَ ذلك، لنَسيَ كلَّ شيء وأرادَ أن يعرِفَ سبَبَ إخفائها وجهَها عَنه. لقد دقَّ قلبُه بشِدَّةٍ فائقة، وجَفَّ حلقُه فجأةً. وجاشَ في داخِلِهِ الفَرَحُ والغَضَب، وصرَخَ ذِهنُه بكَلِمةٍ واحدة: لماذا؟

لماذا لم تكشِفْ نفسَها له؟ لماذا لم تقُل له إنَّها حيَّة؟ لماذا تركَته في يأسِه؟

ولكنِ الآنَ لم يكُن وقتَ الحصولِ على الأجوبة التي أرادَها مُستَميتًا. إنَّما كانَ الآنَ وقتَ التركيز على جوليا. فقد علمَ أنَّ نظرةً واحدةً إلى هَدسَّة

كانت كفيلةً بأن تجعلَه ينسى جوليا في حاجتِها الماسَّةِ جدًّا... ومن ثَمَّ لم يلتفِتْ نحوَها، ولا تكلَّمَ إليها، بل حمَلَ أختَه بذِراعَيهِ فحَسْب، ضامًّا إيَّاها إلى قلبِه. وقد كانت جوليا خفيفةً جدًّا، حتَّى بَدَت كطِفلةٍ على ذِراعَيه.

مدَّت جوليا يَدَها نحوَ هَدسَّة. ‘‘تعالَي معي’’.

فطمأنَتها هَدسَّة قائلةً: ‘‘سألَحقُ بكُما’’، دونَ أن تتمكَّنَ من النَّظرِ إلى وجهِ مَرقُس. وتردَّدَ هو عندَ الباب، ثُمَّ التَفَتَ نحوَها. فقالت: ‘‘لا تنتظِرني، سيِّدي. اذهَبْ. اذهَبِ الآن!’’

حمَلَ مَرقُس جوليا في الرِّواقِ الأعلى، ثُمَّ نُزولًا على الدَّرَج. وعبَرَ البِريستايْلِ الذي كان نُورُ الشَّمسِ يغمرُه، ثُمَّ هبَطَ رِواقًا آخَر يؤدِّي إلى حمَّامات العائلة عبرَ ممرَّاتٍ أُخرى تَعلوها القناطِر. ودونَ أن يخلعَ صَندلَه، نزَلَ الدَّرجاتِ الرُّخاميَّة. وقدِ ارتفعَتِ المياهُ الباردةُ حَول فَخِذَيه ووَرِكَيه، مُبلِّلةً رداءَ جوليا الرَّقيق.

قالَ مَرقُس بصَوتٍ عالٍ: ‘‘ليُسامِحْني الله إذا

تخطّيتُ حُدودي بقيامي بهذا الأمر، ولكنْ ليس هنا أحَدٌ غَيري''. ورفعَ جوليا قليلًا إذ حَنَى رأسَه وقبَّلَها. ثُمَّ أنزلَ أُختَه في الماء، مُغَطِّسًا إيَّاها. وقال: ''أُعَمِّدُكِ بِاسْمِ الآب والابن والرُّوح القُدُس''. ثُمَّ رفعَها، فجرَى الماءُ من وجهِها وشعرِها وجِسمِها. ''لقد دُفِنتِ مع المسيح، وأُقِمتِ ثانيةً في جِدَّةِ الحياة''.

قالت جوليا برِقَّةٍ، مُتعجِّبةً: ''أُوه، مَرقُس!'' وبَدَتْ عَيناها ناظِرتَين إلى ما وراءه، مُركِّزتَين على شيءٍ لم يستَطِعْ أن يراه.

ثُمَّ شقَّ مَرقُس طريقَه عبرَ المياه، راجعًا حتَّى وصلَ إلى الدَّرج. وصعدَ الدَّرَج، ثُمَّ قعَدَ على حافَةِ البِركة، وأُختُه مُستَقرَّةٌ في حضنه.

وسمعَ وَقْعَ خُطى هدسَّة، فرفَع نظرَه إذ دخلَتْ غُرفةَ الحمَّام. فدَقَّ قلبُه دَقًّا شديدًا. وتابعَتْ سَيرها نحوَه بعدَ تردُّد، قارعةً البَلاطَ الرُّخاميَّ بعُكَّازها. فقالَ بصَوتٍ أجَشَّ: ''قُضيَ الأمر!'' وتردَّدَ صَدى صَوته رقيقًا على الجُدرانِ المغشَّاةِ بالرُّسوم.

قالَت: ‘‘حمدًا للرَّبّ!’’ مُتنفِّسةً الصُّعداءَ على مهل.

وفجأةً تغيَّرَ تنفُّسُ جوليا. إذ غدا أسرَع، كما لو أنَّ شيئًا ما أثارَها. وانفتحَتْ عَيناها واسِعتَين. ‘‘أوه! أيُمكنُكَ أن تراهُم؟’’

قالَ مَرقُس: ‘‘أرى ماذا، يا صغيرتي؟’’ ضامًّا إيَّاها أقرَبَ، ومُحتضِنًا بيَده بعضَ الشَّيءِ وجهَها المبلَّل.

غَمغَمَت: ‘‘إنَّهُم فائقو الجَمال!’’ ووجهُها ملآنٌ رَهبةً. ‘‘فائقو الجمال’’. وطرَفَت بعَينَيها ناعِسةً. ‘‘أوه، مَرقُس، إنَّهُم يُرَنِّمون...’’ ثُمَّ رقَّ وجهُها وعادَ جميلًا. وأطلقَتْ تنهُّدَةً طويلةً عميقة، ثُمَّ أغمضَتْ عَينَيها. واسترخَى جِسمُها تمامًا على ذِراعَي مَرقُس، مُنكِّسةً رأسَها على كَتِفه.

قالت هَدسَّة: ‘‘الكلُّ خَير!’’ حانيةً رأسَها في رَفعِ الشُّكرِ إلى الله. ثُمَّ ضغطَتْ يَدَها على قلبِها، وأغمضَتْ عَينَيها. ‘‘لقد انتقلَتْ إلى الموطِن السَّماويّ’’.

وإذا بصَوتٍ مألوفٍ، راعِشٍ بالعاطفة، يقول: ‘‘شُكرًا لله!’’

ورفعَ مَرقُس نظرَه بحِدَّة، فرأى المرأةَ واقفةً في الممرِّ ذي القناطر، وإيوليوس وراءَها تمامًا.

“أُمَّاه!”

٥٢

تقدَّمَتْ فيبي دونَ مُساعَدة. وقالَت: "لقد علمتُ لحظةَ قبِلتِ المسيح"، ناظِرَةً إلى وجهِ ابنتِها... طفلةً جميلةً حُلوةً نائمة. "لقد عادَ الحِسُّ والقوَّةُ إلى جسمي".

رفعَ مَرقُس جوليا خارجًا من الماء، حامِلًا إيَّاها إلى أُمِّه. وكانتِ الدُّموع تجري على خَدَّي فيبي، غيرَ أنَّها كانت تَبتسمُ وعَيناها مُشرِقَتان. فقالت، مُقبِّلةً جبينَ جوليا. "آه، كم صلَّيتُ حتَّى أرى هذا اليوم. وقد رأيتُه. نعم، رأيتُه..." وشرعَتْ تَبكي. "آه، بُنَيَّتي... يا بُنَيَّتي..."

اقتربَ إيوليوس ليواسِيَها. ووضَعَ ذِراعَه حولَ خصرِها، فالتَفتَت إليه. وراقبَتهُما هَدسَّة يُغادِرانِ الغُرفَةَ مع مَرقُس، وهو ما زالَ يحمِلُ جوليا ضامًّا إيَّاها إلى قلبه. وبعدَ قليل، عرَجَتْ هَدسَّة إلى بَنكٍ رُخاميٍّ منحوتٍ بمُحاذاةِ السُّور، وقعدَتْ هناك. لقد كانت مُتعَبةً بعدَ سَهَرِها الطَّويل في الصَّوم والصَّلاة، فأسندَتْ رأسَها على ظَهرِ البَنكِ

الحَجَريِّ البارِد. أرادَتْ أن ترقُصَ وتَثِبَ وتُنشِدَ التَّسابيح، غيرَ أنَّها الآنَ قنِعَتْ بأنَّه ينبغي لها أن تستَريح.

ثُمَّ دخلَتْ لاقِنيا غُرفةَ الحمَّامات. ‘‘سيِّدتي؟ أأنتِ بخَير؟’’

‘‘مُتعَبةٌ فقط، يا لاقِنيا. كلُّ شيءٍ حَسَنٌ. أنا بخَير’’.

‘‘هل تودِّين أكلَ شيءٍ، سيِّدتي؟ مَضَت ثلاثةُ أيَّامٍ لم تمَسِّي فيها الطَّعام’’.

كانَ من شأنِ هَدسَّة أن تُفضِّلَ سريرَها على الطَّعام، ولكنَّها لاحظَتْ قلَقَ الفتاةِ العميقَ عليها، فقامَت مُتوكِّئةً على عُكَّازها. ‘‘انتهى أوانُ الصِّيام’’.

ابتسمَت لاقِنيا ابتِسامةً مُشرِقة. ‘‘سأقولُ للطَّبَّاخ’’.

‘‘كلِّمي إيوليوس أوَّلًا، يا لاقِنيا. لا بُدَّ أنَّ السيِّدة فيبي جائعةٌ أيضًا’’.

فقالَت، مُنحَنِيةً باحتِرام: ‘‘نَعَم، سيِّدتي’’. ثُمَّ انصرَفَت مُسرِعةً.

تمنَّت هَدسَّة لو تُغادِرُ الدَّارة فتتجنَّبَ رؤيةَ مَرقُس مرَّةً أُخرى، غيرَ أنَّها عادَتْ عَبدةً من جديد، مُنتَمِيةً إلى هذا البيت. فلم تعُد حرَّةً في الذَّهابِ والإياب كما كانت عَزارُ أو رافا.

فقامَت وعرجَت في الرِّواق، ثُمَّ دخلَتِ البَريستايْل. وإذ أوجعَتْها رجلُها، قعدَتْ في المختَلى المظلَّل الصغيرِ كي تستريحَ وتُحاوِل أن تُفكِّر. وقد بَثَّت شَمسُ الصَّباح الدِّفء في الفِناءِ الداخليّ. ولَطالَما أحبَّت هَدسَّة صوتَ النَّافورةِ المهَدِّئ. ثُمَّ شاهدَتْ لاقنِيا وخادمةً أُخرى تحمِلانِ صينيَّتَين على الدَّرَج. كان البيتُ ساكِنًا، سُكونًا مُقتَرِنًا بالسَّلام، مُختلِفًا عن ذاكَ الذي سادَ في الأسابيع الماضية. لقد توارَتِ الظِّلال، وزالَ الظَّلام!

وتذكَّرَتْ هَدسَّة شيئًا سبقَ أن قالَه أبوها منذُ أمَدٍ بعيد: الآخرون سيَكونون أوَّلين، والأوَّلون آخِرين. فها هي جوليا عندَ الرَّبّ، أمَّا هيَ فعلَيها

آن تنتظِر. وأغمضَتْ عَينَيها رافعةً الشّكر.

إنَّ اللّٰه **رحوم**. وقد كان فِداءُ جوليا بُرهانًا على ذلك. فشعرَتْ هَدسَّة بأنَّ غَرَضَها هنا قد تمَّ الآن، وأنَّ عملها قد أُنجِز.

يا ليتها تستطيعُ الآنَ أن تموتَ فتَصيرَ عندَ الرَّبِّ هيَ أيضًا. لقد كانت مُتعَبةً، جِسمُها يؤلِمُها، وقلبُها متألِّم.

ماذا أفعلُ الآن، يا ربّ؟ إلى أينَ أمضي من هنا؟

سمعَتْ وَقْعَ قدَمَين في الرّواق الأعلى، فأرادَتْ أن تقومَ وتهرُب. ودقَّ قلبُها دقًّا شديدًا جدًّا، ثُمَّ هدأ من جديد إذ رأت أنَّ الآتيَ كان إيوليوس، لا مَرقُس، وقد هبَطَ الدَّرَجَ وعبرَ البِريستايْل إليها.

"ترغَبُ السيِّدةُ فيبي في أن تنضمِّي إليها".

فنهضَت هَدسَّة وتَبِعَته.

والتَفَتَ إيوليوس إليها لـمَّا وصلَ إلى أسفلِ

الدَّرج. فإذا بكَلِّ خُطوةٍ تخطوها تنمُّ عن إعيائها. فقال: ‘‘سأحمِلُكِ’’. ولـمَّا رفعَها، سمعَ تعبيرًا خفيفًا عن ألمها.

كانت فيبي جالِسةً على كُرسيِّها الشَّبيه بالعَرش على شُرفَتِها، وعلى مَقرُبةٍ منها الأريكةُ التي يستَخدِمُها زُوَّارُها، وبينَهما طاوِلةٌ مُثقَلةٌ بالطَّعام والشَّراب. فأنزلَ إيوليوس هَدسَّة على قدمَيها، وانصرَف.

ابتسمَت لها فيبي. ‘‘رجاءً، اقعُدي يا هَدسَّة. يبدو عليكِ الإرهاقُ فوقَ الطَّاقة’’.

فقعدَتْ هَدسَّة، مُستَقيمةَ الظَّهر، مُطأطِئةَ الرأسِ قليلًا، ويداها مَطويَّتانِ بارتِخاءٍ في حِضنِها. وقد شعرَتْ بِدُوارٍ من جرَّاء صيامِها، وصرَّتْ بأسنانِها على الألَمِ إذِ انتَشَبَ صُعودًا إلى وَرِكها من فَخِذِها.

قالَت فيبي: ‘‘لقد كُنتِ خادِمةً صالحةً وأمينة’’. وابتسمَتْ فيما انبعث دفءٌ من عينَيها. ‘‘منذُ أمَدٍ بعيد، في روما، عَهِدتُ إليكِ بِابْنتي. طلبتُ منكِ

أن تحرسيها وتَعتَني بها. وطلبتُ أن تقِفي بجانِبها في جميعِ الأحوال. وقد فعلتِ أكثرَ من ذلك، يا هَدسَّة. فعلى الرُّغمِ من كُلِّ ما فعلَتْه جوليا بكِ، بقِيتِ صديقتَها". واغرَورقَتْ عَيناها. "أشكُرُ اللّٰه على الإتيانِ بكِ إلى حياتِنا، وسأظلُّ أشكرُه كلَّ يومٍ حتَّى أرحلَ عن هذه الأرض".

أطرقَت هَدسَّة رأسَها، إذ أربكَها الإطراءُ والوعدُ هذين. "الفَضلُ لِلرَّبّ، سيِّدتي، وليس لي". **أجَل، لكَ الفَضلُ يا ربّ!**

قالت فيبي بارتعاد: "أوَدُّ أن أطلُبَ بَعدُ شيئًا آخَرَ منكِ، يا هَدسَّة، ولكنّي أعلَمُ أنْ ليسَ من شأني أن أفعلَ ذلك. والحالُ كما شجَّعتِني قبلَ شُهورٍ لـمَّا حضَرتِ إلى هنا مع الطَّبيب. لقد تعلَّمتُ أن أتوكَّلَ على الرَّبِّ في كُلِّ شيء". فأيًّا كان ما شاءه اللّٰه لِمَرقُس، فلا بُدَّ أن يكون. وليس من شأنِ الأُمِّ أن تتدخَّلَ في خُطَّةِ اللّٰه بمُحاولَتِها ترتيبَ الأُمور بقوَّتِها الذاتيَّة. إنَّما في وُسعِها فقط أن تفعلَ ما علمَتْ أنَّه كان ينبغي أن يُفعلَ منذُ أمَدٍ بعيد، ثُمَّ تُصَلِّي لأجلِ ما تمنَّاه قلبُها. ففي وُسعِها أن تنتظِر.

وما لبثَت فيبي أنْ قالت: ‘‘كما أنَّكِ أنتِ قد أعطيتِنا، فكذلكَ أُعطيكِ أنا’’. ثُمَّ ناوَلَتها دَرْجًا صغيرًا. فتَناولَته هَدسَّة بأصابعَ مُرتعِشة. ‘‘وثيقةَ إعتاق، هَدسَّة. أنتِ حُرَّة. لكِ أن تبقَي، ولكِ أن تمضي، كما تشائين’’.

لم تُحِبْ هَدسَّة. وقد غمرَتها العاطفة، إلَّا أنَّها لم تكُن مبتهجةً، بل بالأحرى استَولى عليها الحُزن. لعلَّ هذه إذًا كانَت استِجابةَ الله. فهي الآن حُرَّةٌ في مُغادَرةِ آلِ ڤاليريان، حُرَّةٌ في الرُّجوع إلى ألِكسَندر والسَّفَرِ معه، حُرَّةٌ في دراسة الأعشاب والأدويَة عندَ الحُدود.

لاحظَتْ فيبي كيف جلسَتْ هَدسَّة، مُطأطِئةَ الرأس، ويدُها الصَّغيرة مُطبِقةٌ على الوثيقة في حِضْنِها. فغاصَ قلبُها. وقالت برِقَّة: ‘‘رجائي أن تبقَي، ولكنّي أعلَمُ أنْ مَهما فعلتِ فستَفعلينَه حسَبَ مشيئة الله’’.

‘‘شُكرًا لكِ سيِّدتي’’.

وقالت فيبي برَشاقة- طارِفةً بعينَيها حَبسًا

للدُّموع- ‘‘لا بدَّ أنَّكِ جائعةٌ مثلي’’. ثُمَّ كسَرَت خُبزًا، وناولَتْها نِصف رغيف.

غمسَت هَدسَّة الخُبزَ في الخمرة التي سكبَتْها فيبي لها. ورفعَتِ الحِجابَ بيَدِها قليلًا لتتمكَّنَ من الأكلِ دون كَشفِ وجهِها.

وتَناولَتا الطَّعامَ في عِشرَةٍ أنيسة.

ثُمَّ قالت فيبي: ‘‘سيَنضمُّ إلَينا مَرقُس، إلَّا أنَّه قرَّرَ أن يُجريَ بنَفسه جميعَ التَّرتيبات المتعلِّقة بدَفن جوليا’’.

‘‘سأُعِدُّ أنا جُثمانَها، سيِّدتي’’.

‘‘لا داعيَ، عزيزتي. لقد تَمَّ ذلكَ فعلًا. إنَّ لاڤنِيا وإيوليوس يَتولَّيانِ الأمر. يجب أن تَستَريحي أنتِ. لقد تمَّ عملُكِ، يا هَدسَّة. إنَّ جوليا هي عندَ الرَّبّ’’. ومدَّت يدَها قليلًا. ‘‘رجاءً، استَريحي هنا معي. استَلقِي على الأريكة كما لو كُنتِ تَزورينَ صديقةً. إنِّي أحسبُكِ واحِدةً من الصديقات’’. وقالَ قلبُ فيبي: **بل أكثرَ من ذلك. إنِّي**

أحسبُكِ ابنةَ! ‘‘سيَسُرُّني أن تمكُثي مُدَّةً’’. **يا ربّ، فَلْتَمكُثْ إلى الأبد!**

امتثلَتْ هَدسَّة، فاتَّكأتْ على الأريكة، وتنفَّسَتِ الصُّعَداءَ إذ تركَ الألَمُ ساقَها السَّقيمة. وإذ أُتخِمَت، دافعَتِ النُّعاسَ مُحاوِلةً أن تُصغي إلى فيبي مُتحدِّثةً بشأن جوليا في طفولَتِها. إلَّا أنَّها أحسَّت ثِقلًا في عَينَيها.

وقالَت فيبي: ‘‘لقد كان وقتًا طويلًا عصيبًا’’. ثُمَّ قامَتْ وفتَّتَتْ بعضَ الخُبز لِتضعَه على الحائط لأجل طُيورِ اليَمام. وحطَّ عُصفورٌ صغيرٌ على بُعْدِ أقدامٍ قليلةٍ ثُمَّ نَطَّ مُقتَرِبًا. وقد كان له رِيشُ أُنثى الدُّوريِّ غيرُ المزَخرَف. فإذ فُتِنَتْ فيبي، مدَّت يدَها، ولكنَّ العُصفورةَ لاذَت بالفرار، ثُمَّ جثَمَتْ على الكَرمَةِ المزهِرة في مكانٍ بعيدٍ بعضَ الشَّيء.

فتَساءَلَتْ فيبي هل تقومُ هَدسَّة بمِثلِ ذلك... تلوذُ بالفرار. والتفتَتْ إلى الشابَّة المستَلقِيَة على الأريكة، فوجدَتْها ساكنةً جدًّا ومُستَرخِيَة، وعلِمَت أنَّها قد نامت. فابتسمَتْ وأقبلَتْ إليها،

وانحنَتْ لِتُقبِّلَ جَبينَها من خِلالِ الحِجاب. **أيَّها الآبِ، لقد تخلَّيتُ لكَ عنِ ابنةٍ واحدة. فأرجو أن تَتركَ هذه تبقى!**

وإذ سمِعَتْ وَقْعَ خُطَى مَرقُس، استَقامَت. وما إنْ دخَلَ الغُرفة، حتَّى رأتْ وجهَه وتَصميمَه، فرفعَتْ يدَها بسُرعةٍ إلى شفتَيها طالبةً السُّكوت، ثُمَّ انضمَّتْ إليه تحتَ القَنطرة. وأمسكَتْ بذِراعِه، مُعِيدةً إيَّاه إلى داخلِ المهجَع.

"أُريدُ أن أتكلَّمَ إليها".

"لا بدَّ أن تنامَ هي، يا مَرقُس".

"لا أُطيقُ الانتِظار!"

"لقد أجهدَتْ نفسَها فوقَ طاقتِها. قالَت لاڤنِيا إنَّها قد صامَتْ منذُ دخَلَت جوليا سُباتَ الغَيبوبة، وأنتَ تعرِفُ جيِّدًا جدًّا كم من الوقتِ أمضَتْ جالِسةً بجانبِ جوليا".

"سأُكلِّمُها".

‘‘في ما بعد. ليس الآن، وأنتَ مُتعَبٌ وغاضِب’’.

فزَفَرَ نفَسَه، واجِدًا الصَّوابَ في ما قالت. وقالَ، مُتأذِّيًا في الصَّميم: ‘‘لماذا لم تقُل لي، يا أُمّي؟ مَضَت شهورٌ على وُجودِها هنا. وقد جلستُ معَها في المختَلى المظَلَّل. وأُتيحَتْ لها كلُّ فُرصةٍ لِتقولَ لي مَن هي. فلِماذا لاذَت بالصَّمت؟’’

‘‘لا بُدَّ أنَّها شعرَت بِضَرورةِ إخفاءِ نفسِها عنك، وإلّا ما فعلَتْ ذلك’’.

‘‘هل حَسِبَت أنّي أُشَكِّلُ خطرًا عليها؟’’

‘‘كيف كانَ يُمكِنُها ذلك؟’’

‘‘لقد حَسِبَني خادِمُها ذاكَ الأعرابيُّ كذلك. ولا بُدَّ أنَّها تعتقِدُ أنَّ لي دَورًا ما في إرسالِها إلى الأُسود. فالحقيقةُ الجليَّة أنَّها لا تثِقُ بي’’.

‘‘أكانَ لَدَيها سَبَب؟’’

‘‘طلبتُ مِنها أن تتزوَّجَ بي!’’

وذِكّرَته فيبي بلَطف: ‘‘وغادَرتَها غاضِبًا لـمَّا رفَضَت’’.

‘‘لستُ ذلكَ الصَّبيَّ السَّطحيَّ الذي كُنتُه في ما مضى’’.

فقالت فيبي بمزيدٍ منَ الحَزم: ‘‘إذًا، كُفَّ عن التصرُّف كواحِدٍ، يا مَرقُس. قَدِّمْ حاجاتِها على حاجاتِك’’.

مرَّرَ مَرقُس أصابِعَه في شعرِه رُجوعًا، وأشاحَ بناظرَيه مُرتبِكًا. وفكَّرَ في سِيماءِ الازدراءِ الفاتِر على وجهِ راشِد. وتذكَّرَ كُلَّ كَلِمةٍ قالَها أَلِكسَندر عن الشُّهورِ التي عانَت في أثنائها من جرَّاء الجُروحِ التي سبَّبَها سيِّدُها. فكِلاهُما كانا مُقتنِعَين بأنَّه كانت له يَدٌ في ما جرى لها. ومن أيِّ مكانٍ آخَر أمكنَهُما الحُصولُ على ذلك الانطباع إلَّا من هَدسَّة؟ ‘‘لا بُدَّ أنَّها اعتقدَت أنِّي أردتُ لها الموت كما أرادَتْه جوليا’’.

‘‘لعلَّه شيءٌ أقلُّ تعقيدًا من ذلك، شيءٌ إنسانيٌّ إلى أقصى الحُدود’’.

“ماذا؟”

“لستُ أدري، يا مَرقُس. كانت مُجرَّدَ فِكرة”. ولاحظَتِ الإجهادَ العاطفيَّ الذي كان يرزحُ تحتَه. “هل تذكُرُ أوَّلَ مرَّةٍ جاءت فيها هَدسَّة إلينا؟ لقد كانَت فتاةً هزيلةً مُثيرةً للشَّفقة، ذاتَ عَينَين كبيرتَين جدًّا على وجهِها، وقد بدأ شعرُها يطلُعُ من جديدٍ مُتفرِّقًا. وأنتَ قُلتَ إنَّها بَشِعةٌ جدًّا، وشاركَكَ أبوك وجوليا في الرأيِ عَينه. إنَّما لم أدرِ أيُّ شيءٍ فيها جَعَلَني مُتيِّقنةً جدًّا بأنَّها كانت مُناسِبةً لِجوليا. لقد عَلِمتُ ذلكَ فحَسْب. والآنَ أعلَمُ أنَّ اللّٰه يعمَلُ في حياتنا قبلَ أن نؤمِنَ أيضًا. إنَّه يُطلِقُ حَرَكةَ خُطَّتِه ويُتمِمُّها في حينِه”.

ثُمَّ دَنَت إلى ابنِها، ووضعَت يدًا مواسِيةً على ذِراعه. “لقد صدَّقتُها بشأنِ يسوع، يا مَرقُس. وأبوكَ صدَّقَ في الأخير. وأنتَ ذهبتَ كي تلعنَ اللّٰه لأنَّه سَلبَها حياتَها، ثُمَّ رجَعتَ مُسبِّحًا إيَّاه. ثُمَّ إنَّ جوليا، عزيزتَنا جُوليا المحبوبةَ المتمرِّدة، العنيدةَ حتَّى الرَّمَقِ الأخير، هيَ الآنَ عِندَ الرَّبّ. فكُلُّ واحِدٍ منَّا أقبلَ إلى مَعرِفةِ المسيح لأنَّنا شاهَدْناه عامِلًا في حياةِ هَدسَّة. لقد كانَت

هَدِيَّةَ اللهِ لنا".

"أنا أعرِفُ ذلك، يا أُمِّي". حتَّى حينَ اعتقدَ أنَّ هَدسَّة كانت مَيْتة، كانت دَومًا هي الهواءَ الذي يتنفَّسُه بِعَينه. ثُمَّ قال بصَوتٍ أجَشَّ: "إنِّي أُحِبُّها".

"كذلك أنا أيضًا". واشتدَّت يَدُها على ذِراعه. "ولأنَّنا نُحِبُّها، فسَنُعامِلُها بمِثلِ الاهتِمامِ والإحساسِ اللَّذَين أبدَتهُما لنا دائمًا". ثُمَّ تردَّدَت، عالِمةً أنَّ ما ستَقولُه له لا بُدَّ أن يقعَ عليه وُقوعَ المفاجأة. "لقد منحتُها حُرِّيَّتها".

فالتَفَتَ بِجَفاء. وقالَ مَرعوبًا: "كِتابةً؟"

"دونَ أدنى شَكّ".

وألقى نظرةً على هَدسَّة، فرأى الدَّرْجَ الصَّغيرَ الذي كان قد سقطَ على البَلاطِ الرُّخاميّ، فقال مُتَوجِّسًا، غاضِبًا من جديد: "ما كان لكِ حقٌّ، يا أُمِّي!"

"أمَا تُريدُ لها أن تكونَ حُرَّة؟"

‘‘ليسَ الآن’’.

ففهِمَت فيبي بوضوح. ‘‘أه، فهِمتُ. يجبُ ألَّا تَصيرَ حُرَّةً قبل أن تُجيبَ عن أسئلتكَ، وتُوافقَ على أيَّة مطالِبَ قد تطلُبُها منها’’.

‘‘هل تَحسبينَني قاسيًا جدًّا؟’’

قالت بحُزن: ‘‘أحيانًا، تكونُ غايةً في القسوة. أنا آسفةٌ إذا ضايقكَ هذا. لقد فعلتُ فقط ما شعرتُ بأنَّ الله يُرشِدُني إلى فعلِه، يا مَرقُس’’.

فقال- بلهجةٍ كثيرًا ما استعملَها في المعاملات التجاريَّة- ‘‘تلك الوثيقة لا تُساوي الرَّقَّ الذي كُتِبَت عليه... إلَّا إذا كان **تَوقيعي** عليها. فقانونيًّا، هَدسَّة ملكي أنا، لا ملكُكِ أنتِ’’.

إنَّ فيبي أرضعَته حليبَها لـمَّا كان طِفلًا، ولذلك لم تُثبِّطْ هِمَّتُها. ‘‘أبوكَ أعطاني هَدسَّة، وأنا أعطيتُها لجوليا. فعلى أثَرِ انتِقالِ جوليا إلى حضرةِ الرَّبّ، شعرتُ بأنَّ هناكَ ما يُبرِّرني في أن أحسبَها ملكي من جديد. وأنا قد أعطيتُها الحرِّيَّة

التي تستحقّها. فهل تودُّ أن تُلغيَ ذلكَ الآن. وماذا بشأن مشاعرها؟’’

‘‘ماذا لو غادرَت؟’’

فابتسمت فيبي تعبيرًا عن فهمِها الكامل، ومسَّت خَدَّه برِفق. ‘‘لكَ ساقان، يا مَرقُس. فليسَ من شيءٍ يُوقِفُكَ عنِ اللَّحاقِ بها’’.

٥٣

استيقظَتْ هَدسَّة تحتَ ضِياء القَمَر، وكانت ما تَزالُ مُستَلقِيةً على أريكةِ فيبي ڤاليريان. وكان الهواءُ مُنعِشًا بِبُرودته، والفضاءُ أزرقَ نِيليًّا غامِقًا مُرصَّعًا بالنُّجومِ المتَلألئة. فإذْ رفعَتْ هَدسَّة نظرَها، قالَت بصَوتٍ مَهموس: ''السَّماوات تُحدِّثُ بمجد الله، والفَلَكُ يُخبِرُ بعَمَلِ يدَيه...'' ثُمَّ رفعَت حِجابَها وتبسَّمَت، مُحدِّقةً إلى جَمالِ الفضاء فَوقَها في عَجَب، مُراقبةً الزُّرقةَ تَصيرُ أفتَحَ لَونًا. لقد كان الفَجرُ وَشيكًا.

نهضَتْ ورفعَتْ يدَيها إلى الرَّبّ، شاكرةً من أجلِ جوليا وفيبي، إذ رُدَّت نَفسُ كِلتَيهما. ثُمَّ أسدلَتِ الحجابَ على وجهِها من جديد. ولـمَّا دخلَتِ المهجعَ بهُدوء، رأت سِراجَ زيتٍ نُحاسيًّا صغيرًا مُوقَدًا على طاوِلة. لقد كانت فيبي نائمة.

غادرَتْ هَدسَّة الغُرفة. وعَرَجَتْ في الرِّواق الأعلى حتَّى دخلَتْ غُرفةَ جوليا. كان سريرُ جُوليا قد أُزيلَ، والغُرفةُ قد فُرِكت ونُظِّفَت. وكانتِ الغُرفةُ

خاليةً، إلّا من سرير هَدسَّة الّذي بقيَ بمُحاذاة الجدار، والمقتَنَياتِ القليلةِ التي كانت قد أحضرَتها معها، وطاوِلةٍ عليها طَستٌ وجَرَّةُ ماء.

وإذ شعرَتْ هَدسَّة بأنَّها مُشعَّثة، نزعَتْ حِجابَها وپالُسَها الدَّاكن. وصبَّت ماءً في الطَّست، واغتسلَتْ، ثُمَّ انتَقَتْ پالُسًا أزرقَ فارتَدَتْه، وغطَّتْ وجهَها بِنِقابٍ مُناسِب. ثُمَّ خرجَتْ إلى الشُّرفة لِتُشاهِدَ شُروقَ الشَّمس.

كانت فيبي قد قالت: "**لقد تمَّ عَمَلُكِ**". وعَلِمَتْ هَدسَّة أنْ لا سببَ يَدعوها للبَقاء. غيرَ أنَّ قلبَها انفطرَ حِيالَ مُجَرَّدِ فِكرَةِ المغادَرة. ثُمَّ إنَّ البقاءَ سيَكونُ أسوأَ بِلا حُدود.

"**إنَّها بَشِعة**". هكذا قال مَرقُس منذُ زمنٍ بعيدٍ جدًّا في حديقةِ دارة روما. وكانت تلك أوَّلَ مرَّةٍ رأتْه فيها، وهاتان أوَّلَ كَلِمتَين سمِعَته يتفوَّهُ بهما. "**إنَّها بَشِعة**". فإذا كان قد عدَّها قبيحةً آنذاك، فماذا سيَحسَبُها الآن وعلى وَجهِها نُدوبٌ بعدَما هَرَسَها ومزَّقَها أسَدٌ؟

وماذا سيُفكِّرُ الآخرون إذا كان لهم أن يَرَوا واحِدةً مِثلَها واقفةً بجانِبِ مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان؟

وإذ طأطأت رأسَها، كافحَت مشاعِرَها. إنْ لم تفعَلْ ما علمَتْ أنَّ عليها أن تفعلَه، فلا بُدَّ أن تتردَّد، ويحدُثَ غَمٌّ أسوأ. فاستَدارَت، وعبَرَتِ الممرَّ ذي القناطر إلى غُرفةِ جوليا. ودونَ أنِ تتوقَّف، توجَّهتْ إلى الرِّواقِ الذي فوقَ البَريستايْل. ثُمَّ هبَطَتِ الدَّرَج، وخرجَت من البابِ الأماميّ.

كانتِ المسافةُ إلى مُقامِ ألِكسَندر طويلةً، ولكنَّ هَدسَّة كانت تحتاجُ إلى وقتٍ لِتُهدِّئَ ذِهنَها وتضعَ وراءَ ظهرِها كُلَّ ما كان يُمكِنُ أن يكونَ مع مَرقُس. كثيرًا ما نصحَها أبوها، في الماضي البعيد، بأن تضعَ عَمَلَها في عُهدَةِ الرَّبّ. وقد كانت تُحاوِلُ جاهدةً أن تفعلَ ذلك تمامًا.

لـمَّا قرعَتْ، فتحَ لها البابَ رجُلٌ لا تعرِفُه. ‘‘هل لي أن أُكلِّمَ ألِكسَندر ديموسيدِس أماندينُس، من فضلِك؟’’

وبعدَ لَحَيظاتٍ رُدَّ البابُ إلى الوراء، فظهرَ راشِد، فقال لها: ''سيّدتي!'' ونادى ألِكسَندر. ''لقد عادت رافا، سيّدي!'' وحمَلها على ذِراعَيه.

أقبلَ ألِكسَندر راكضًا. وقال: ''مَشَيتِ طُولَ الطَّريق؟'' آخِذًا إيَّاها عن ذِراعَي راشِد، ومُنطلِقًا بها بخُطًى واسعة إلى الفِناءِ الداخليّ، حيثُ وضعَها على أريكةٍ مُريحة. ''لماذا لم تُرسِلي إليَّ بخَبَر، أو تأتي في محَفَّة؟''

قالَت بكَلالة- ورأسُها على كَتِفه- ''لم أُفكّر في ذلك، بل أردْتُ فقط أن أُغادِرَ بأسرع ما يُمكِن''.

فقالَ راشِد- مُكفَهِرَّ الوجه- ''تَرَى أنّي كُنتُ على حقّ!'' مُحدِّقًا إلى ألِكسَندر.

وقالَ ألِكسَندر: ''أحضِرْ لها قليلًا من النَّبيذ. سنتكلَّمُ لاحِقًا بما ينبغي أن يُعمَل''.

وسألَتْ هَدسَّة: ''مَن الرجلُ الذي فتحَ لي الباب؟''

فقالَ ألِكسَندر: ''شخصٌ انتَقَيتُه عن دَرَجِ الهيكل

قبلَ بضعةِ آسابيع’’. وآزاحَ النِّقابَ عن وجهِها لِيَرى هل كانت بِخَير. فقَتَمَتِ ابتِسامتُه. ‘‘كُنتِ تَبكين!’’

وضعَتْ يَدَها على ذِراعه. وقالَت مُتَّقِدَةَ العَينَين: ‘‘كلُّ شيءٍ بخَيرٍ الآن. انتَهى الأمر، ألِكسَندر. لقد رحلَتْ جوليا. وقد قبِلَتِ المسيحَ أخيرًا’’.

فابتسمَ ابتسامةً ساخِرَة. ‘‘سأكونُ مَسرورًا إذا كُنتِ أنتِ مسرورة’’.

‘‘أنا كذلك! إنَّها عِندَ الرَّبّ’’.

وناولَها راشِد كأسًا. ‘‘لقد نالَت عِقابَها العادل. فهي مَيتة، وهذا يُنهي المسألة’’.

فرمقَته هَدسَّة بِنِظرةِ عَتَب.

فقالَ بيَقين: ‘‘امرأةٌ أكلَت وشرِبَت حتَّى التُّخمَةِ منَ الدَّم، وعاشت حياةً مُنحَطَّة، لن تنالَ ثَوابًا’’.

‘‘لقد تابَت’’.

‘‘تَوبةٌ مَصلَحةٍ في النِّهاية لا تُغيِّرُ مَصيرَها’’.

‘‘ليست تَوبةَ مصلحةٍ، يا راشِد، بل هي تَوبةٌ حقَّة من القلب’’.

فقال بِبُرودة- وعَيناه السَّوداوانِ تَبرُقان- ‘‘وهل تظنِّينَ أنَّ ذلك يُحدِثُ فرقًا عندَ إلهٍ يُجري الانتِقام؟ أمَا فَعَلَ ذلكَ من قَبل؟ فما داموا طائعين، باركَهُمُ الله... أبناءُ إبراهيم’’. والتَوى فَمُه شماتةً. ‘‘انظُري صِهْيَون. لقد سُحِقَت مدينةُ القُدسِ من أجلِ إثمِها. وليسَتْ مَوجودةً بعَدُ، تمامًا كما أنَّ تلك الڤاليريانيَّة ليسَتْ مَوجودةً بَعد’’.

نظرَت إليه هَدسَّة فرأتْه كما كان بالحقيقة: ابنَ غَضَب! ‘‘لقد تابَت، يا راشِد. لقد أعلنَتْ إيمانَها بالمسيح. إنَّها مُخَلَّصة’’.

‘‘وهكذا، رُغمَ ما فعلَته بكِ وبغَيرِكِ، تنالُ ثَوابًا أبديًّا؟ كلماتٌ قليلةٌ تفوَّهَتْ بها مع نَفَسِها الأخير تُورِثُها السَّماء مع أمثالِكِ؟’’

فقالَت بِبَساطة: ‘‘نعم’’.

‘‘لا أعتقِدُ هذا. إنّ الله إلَهُ عَدالة’’.

‘‘آهِ راشِد، لو كان الله عادِلًا فقط، لَهَلَكْنا جميعًا، حتَّى آخِرِ كائنٍ بَشَريٍّ على وجهِ الأرض. أمَا تَرَى؟ ألَم تقتُلْ أنتَ في قلبكَ؟ وأنا قد أنكَرتُه لـمَّا أتاحَ لي فُرَصًا كي أُعلِنَه للآخرين، وقد سمَحتُ لِلخَوفِ بأن يسودَ عليَّ. شُكرًا لله أنَّه رَحُوم’’.

وانصرَفَ الأعرابيُّ، رافِضًا بِشارةَ الإنجيل.

وما لَبِثَ صَوتُ ألِكسَندر أنْ خَرَقَ الصَّمت قائلًا: ‘‘ها أنتِ قد عُدتِ’’. ثُمَّ وضَعَ يدَه على يدِها، وأضاف: ‘‘ذلك هو كلُّ ما يهمُّ’’.

عندئذٍ، دخَلَ أندرونيكُس. ‘‘مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان هنا، سيِّدي. وهو يطلبُ أن يُقابلَ السيِّدة هَدسَّة’’.

فشهقَتْ هَدسَّة شهقةً خفيفة، وغطَّت وجهَها بالحِجاب.

وقامَ ألِكسَندر فوقفَ قُدَّامَها. ‘‘قُولي له أن يذهبَ إلى الجحيم!’’

فقالَ مَرقُس- وقد خطا مُسرِعًا إلى الفِناءِ الداخليّ- ‘‘قُل لي ذلكَ أنتَ نفسُك’’. ورأى هَدسَّة تنهضُ عنِ الأريكة، فتمهَّلَ ثُمَّ تكلَّمَ برِقَّة: ‘‘لقد غادَرتِ دونَ خَبَر’’.

امتدَّت يَدُ راشِد إلى قبضَةِ سِكِّينه، وسحَبَها بِرَشاقةِ الشخص المعتاد إذ تقدَّمَ ليعْتَرِضَ في سبيلِ مَرقُس. ‘‘وأنتَ تُفكِّرُ في إرجاعِها؟’’

‘‘بالعَدل، ما زالَت تخُصُّ عائلتي’’. وجاءت كلماتُ مَرقُس هذهِ أكثرَ فظاظةً ممَّا نَوى.

‘‘سيِّدي، والِدَتُكَ منحَتني الحرِّيَّة’’.

‘‘أينَ الوثيقةُ التي تُثبِتُ ذلك؟’’

فنظرَ إليها ألِكسَندرُ وراشِد كلاهما. وهزَّت رأسها، قائلةً بِتلَعثُم: ‘‘لستُ أدري. أُخَمِّنُ أنِّي أضَعتُها’’.

فقالَ ألِكسَندر مَشدوهًا: ‘‘أضَعتِها؟ كيفَ يُعقَلُ أن تُضِيعي شيئًا مُهمًّا جدًّا هكذا؟’’

وأبرَزَ مَرقُس الدَّرْجَ الصَّغيرَ من زُنَّارِه. ‘‘لقد تركَتْها مُلقاةً على الشُّرفة’’. ومدَّ يدَه بِها إلى هَدسَّة.

حدَّقَ راشِد إلى الرُّومانيّ مَدهوشًا، كما لو كانَ يُشاوِرُ نفسَه، ثُمَّ تنحَّى جانِبًا على مَهل، وسمحَ لِمَرقُس بأن يُواجِهَ هَدسَّة. وصعَقَتْ ألِكسَندرَ النِّظرةُ الرقيقةُ في عَيني ڤاليريان.

ففكَّر: **إنَّه مُغرَمٌ بها!** وقد أذهلَه هذا الإدراك. **ثُمَّ إنَّه لا يهمُّه مَن يَرى ذلك.**

قال مَرقُس، بصَوتٍ ناعِم أيضًا: ‘‘لقد غادَرتِ دونَ أن تقولي «وداعًا» على الأقلّ. لِلاڤنِيا أو إيوليوس. أو حتَّى لأُمِّي!’’

‘‘أنا آسِفة’’. ولم تكَدْ تَقوى على التنفُّس مُتخطِّيةً تسارُعَ قلبِها.

‘‘هل كُنتِ تهرُبينَ منِّي؟’’

فأطرقَت رأسَها، غيرَ قادِرةٍ على النَّظرِ إليه.

‘‘لقد حاولَتْ أُمِّي أن تقولَ لي إنَّكِ حيَّة، ولكنِّي

لم أفهَم’’.

‘‘اعتقدتُ أنَّ من الأفضلِ ألَّا تعلَم أنتَ’’.

فقال بصَوتٍ مُتهَدِّج: ‘‘لماذا، هَدسَّة؟ هلِ اعتَقدتِ أنَّ لي أدنى علاقةٍ بما جرى؟ هلِ اعتقدتِ أنِّي عَلِمتُ بأنَّ جوليا أرسلَتكِ إلى ساحة المحاربين؟’’

وإذْ غمرَتْ هَدسَّة المشاعر المشوَّشة، هزَّت رأسَها إيجابًا بصَمت. وغمرَها حبُّها له إزاءَ الأسى اليائس في صَوته... غيرَ أنَّ حُبَّها إيَّاه جعَلَ بقاءَها أصعبَ جدًّا إلى أقصى الحدود.

‘‘أُقسمُ لكِ إنِّي لم أعلَمْ بأنَّكِ أُرسِلتِ إلى ساحةِ المدرَّج. يَشهدُ الله إنِّي لم أعلَمْ قبلَ أنْ كنتُ جالِسًا على المدرَّج مع جوليا...’’ وتوقَّفَ فجأةً، إذِ انقَبَضَ وجهُه من الذِّكرى.

والتَفَتَ ألِكسَندر إلى راشِد.

ومَضى مَرقُس يقولُ بنَبَرات مُهاجة: ‘‘لـمَّا رأيتُكِ، لم يكُنْ من شيءٍ أستَطيعُ أن أفعلَه. كنتُ

جالسًا مع جوليا على مدى ساعات، أشرَبُ الخمرَ وأضحكُ على نِكاتِ پريمُس الفجَّة، مُتظاهِرًا بأنّي أستمتعُ لأنّي أردتُ أن أنساكِ". وأطلقَ ضِحكةً خَشنةً مُنتقِصةً لِلذّات. "ثُمَّ جيءَ بالمسيحيِّين لِمُواجهةِ الأُسود". وشهَقَ نَفَسًا متألِّمًا، إذ رأى نفسَه كما كان آنذاك، خَجِلًا.

"سبقَ لي أن شاهَدْتُ ناسًا يموتون طَوالَ النَّهار دونَ أن أشعُرَ بأيِّ شيء، ولكنِّي لم أستَطِعْ مُشاهَدةَ المسيحيِّين يموتون. لقد عَلِمتُ أنَّ أيَّ واحِدٍ منهم كان يُمكِنُ أن يكونَ أنتِ". وتنهَّدَ تنهُّدةً كئيبة. "استأذَنْتُ لأشتريَ لي مزيدًا من النَّبيذ. أردتُ أن أسكَرَ وأنسى. فأوقَفَتني جوليا. قالَت إنَّها أعدَّت لي مفاجأة. قالت إنَّها فعلَتْ شيئًا سيُصلِحُ كلَّ شيءٍ من جديد. ولـمَّا رأيتُ النَّظرةَ في عَينيها، عَلِمتُ". واستَطاعَت هَدسَّة أن ترى ألَمَ ذلكَ الإدراكِ مُنعَكِسًا بَعدُ على وجهه، في عَينَيه المعذَّبتَين. "آه، يا الله، عَلِمتُ في قَرارةِ نفسي ما قد فعلَتْه، ولكنِّي لم أُرِدْ أن أُصدِّقَه! ثُمَّ رأيتُكِ. مَشَيتِ مُبتَعِدةً عن الباقين إلى وسطِ الساحة. هل تَذكُرين؟ لقد وَقَفتِ وَحدَكِ". وتلَوَّتْ قَسَماتُ وجهه مُجدَّدًا من الكَربِ

الذي تذكّرَه.

ثُمَّ اقتربَ منها أكثرَ، مُتمنِّيًا لو يستَطيعُ أن يُبصرَ من خلال الحِجاب، مُتمنِّيًا لو يستَطيعُ أن يرى عَينَيها ويعرف في ما كانت تُفكِّر. ‘‘هل تُصدِّقينَني، أم ما زِلتِ تَعتقدينَ أنَّه كانت لي يَدٌ في الأمر؟’’

‘‘أُصَدِّقُكَ’’.

‘‘ولكنَّكِ كُنتِ خائفةً، غيرَ مُتيقِّنةٍ بما قد أفعلُه إذا تبيَّنَ لي أنَّكِ حيَّة’’.

فأومأت برأسِها بالإيجاب.

وقال، مُجتاحًا بحَملَقتهِ ألِكسَندر والأعرابيَّ: ‘‘وآخرونَ خافوا عليكِ. وقد كانوا على حقٍّ في أن يخافوا عليكِ. فربَّما ردَّتكِ جوليا أوَّلَ الأمر’’.

‘‘عَلِمتُ ذلك’’.

فقال بحُزن: ‘‘ولكنَّكِ لم تعلمي ما قد أفعَلُ أنا، أعَلِمتِ؟’’ ولـمَّا لم تقُل شيئًا، افترضَ أنَّ ما

خمَّنَه صحيح. ‘‘هل تذكرِينَ أنَّكِ قُلتِ لي مرَّةً إنَّكِ صَلَّيتِ راجيةً أن يفتحَ اللّٰه عَينيَّ؟ لقد فعلَ ذلك، يا هَدسَّة. بانتِقامٍ مُقدَّس. فقد أبصرتُ في ذلكَ اليوم... كلَّ شيء. أبصرتُ جوليا وأصدقاءَها ونفسي، كما لو أنَّ مصباحًا أُوقدَ في غُرفةٍ مُظلمةٍ فأُنيرَ كلُّ شيءٍ فجأةً’’. وكوَّرَ قبضتَه.

‘‘لـمَّا صرَعَكِ الأسَد، أحسَسْتُ أنَّ حياتي ذاتَها تخرُجُ منّي. فكلُّ ما كان يَعني أيَّ شيء- كلُّ ما كان يَهُمُّ- تبدَّدَ تمامًا كغُبارٍ أمامَ ريح. وقد لُمتُ جوليا. ولُمتُ نفسي. ولُمتُ المسيح’’.

لم يتَزحزحْ ألِكسَندر عن جانب هَدسَّة. ونظَرَ مَرقُس إليه، فعَلمَ أنَّه أحبَّها هو أيضًا. لقد كانَ هذا الرجلُ هو مَنِ اهتمَّ بها لـمَّا احتاجَتْ إلى العَونِ أشدَّ الاحتياج. وعلى مَدى لحظات، حدَّثتْ مَرقُسَ كِبرياؤه بأنَّه ينبغي له أن يُغادِرَ الآن، ولتَبقَ هَدسَّة مع ألِكسَندر. فلماذا يكشِفُ عن دخيلةِ نَفسِه لِيَلقى الرفضَ ليس إلَّا؟ ولكنَّه لم يستَطِعْ أن يُغادِر. مهما كانَتِ المشاعِرُ القائمة بين هَدسَّة والطبيب، وَجَبَ على مَرقُس أن يقولَ لها كلَّ شيء، واللَّعنة على كبريائه!

فَشَهَقَ نَفَسًا مُهَدِّئًا، وأضاف: ‘‘ذهبتُ إلى فلَسطين كي ألعَنَ الله لأنِّي اعتقدتُ أنَّه قد خذَلَني كما خذَلتُه أنا. ذهبتُ لأنِّي أحببتُكِ. وما زِلتُ أُحِبُّكِ’’.

تجهَّمَ ألِكسَندر. وإذ نظَرَ دونَه، رأى كيف كانت هَدسَّة ترتجِف. إلَّا أنَّها، لـمَّا مدَّ مَرقُسٍ يدَه ليلمُسَها، انكمشَت. فماذا أبقاها مُبتعِدةً عن الرجل؟ أكان الخوف؟ أم هو شيءٌ آخَر؟

وكان راشِد مُتَجَهِّمًا أيضًا، وقد ضايقَه وأربكَه تَودُّدُ القاليرِيانيِّ المشغوف. فالرُّومانيُّ لم يكُن لِيَخجلَ من الكشفِ عن قلبهِ أمامَ امرأة. غيرَ أنَّ تلكَ الحقيقة بعَينها أوضحَتْ بِجَلاءٍ أمرًا واحدًا: أنَّه غالبًا لم تكُنْ لهذا الرجل يَدٌ في إرسالِ هَدسَّة إلى ساحة المحاربين. وإلَّا كانَ مُمكِنًا أن يُواجهَ هو الأسودَ عاجلًا إذ مدَّ يدَه على رومانيّ.

خيَّمَ الصَّمتُ على الفِناء، سُكونًا مُتَذَبذِبًا.

ثُمَّ زَفَرَ ألِكسَندرُ نفَسَه على مَهل، مُلتَوِيًا فَمُه باكتئاب. والتقَتْ عَيناه عَينَي مَرقُس، ثُمَّ خطا

مُتراجعًا. ‘‘سنتركُكَ وحدَك معها’’.

وعلى مَضَض، دسَّ راشِد سكِّينَه في مكانِها داخِلَ حِزامِه.

وتشبَّثَتْ هَدسَّة بذراع ألِكسَندر، هامِسةً: ‘‘رجاءً، لا تذهبْ!’’

فوَضَعَ يدَه فَوقَ يَدِها. وقالَ برِقَّة: ‘‘تعلَمينَ أنّي أُحِبُّكِ. ولكنْ أفضَلُ لكِ أن تَسمَعي ما يوَدُّ قولَه، وتُقرِّري ما تُريدينَه حقًّا’’.

فقالَت دامعةً: ‘‘لن يُغيِّرَ ذلكَ أيَّ شيء. لا يُمكنُ أن يُغيِّر’’.

‘‘لا يُمكِن؟ هل نَسِيتِ دَعواكِ، يا هَدسَّة؟ أنَّ في وُسع اللّه أن يُتِمَّ المستَحيل’’. ومَسَّ نِقابَها برِفق. ‘‘أهي مشيئةُ اللّه العاملة ما يكبَحُكِ، أم مشيئتُكِ أنتِ؟’’ ولمَّا لم تُجِبْ، أمسَكَ بيَدِها. ‘‘خيرٌ لكِ أن تتبيَّني’’. وإذ قبَّلَ راحةَ يَدِها، أرخاها وأومأ لِراشِد.

خفقَ قلبُها بشدَّة إذ غادرَ ألِكسَندر وراشِد

الغُرفة. ووقفَ مَرقُس ينظَرُ إليها من عَلُ بحِدَّةٍ جعلَتْ أحاسيسَها تَهيم.

ثُمَّ قالَ ثانيةً: "أنا أُحِبُّكِ. أحبَبتُكِ آنذاك، وأُحبُّكِ الآن. ألا تُدرِكينَ أنّي بدأتُ أُغرَمُ بكِ من جديدٍ تمامًا، حتّى حين ظَنَنتُ أنَّكِ واحِدةٌ أُخرى، واحِدةً اسمُها عَزار؟"

أحسَّت أنَّها ضعيفة. وقالت بارتعاد- والدُّموعُ تحرقُ عَينَيها- "أنتَ تُشرِّفُني، يا مَرقُس".

فقال: "أُشَرِّف؟ كَلِمةٌ خاوِيةٌ حين يكونُ الحبُّ هو ما أُريدُه".

فانقبضَتْ مَعِدَتُها.

وقالَ مُتثاقِلًا: "لم أدرِ ما يكونُ معنى المسامحَة حتّى كشَفتِ نفسَكِ لِجُوليا. لـمَّا قبِلتُ المسيحَ في الجليل، شعَرتُ بأنِّي مُسامَح، ولكنْ كانَ لا بدَّ منكِ أن تُعلّميني ما يَعنيه أن أُسامح". تُرى هل تُسامحُه أنَّه لم يَحمِها؟

"أنا لم أُعُلِّمْكَ، مَرقُس، بلِ الله علَّمَك".

‘‘كَنتِ أنتِ أداتَه. ما تزالين كلَّ حينٍ النُّورَ في بَيتي، حتَّى حينَ كُنتِ تَخافينَ منِّي جدًّا بحيثُ ترتَجفين. كانَ ينبغي لي أن آخُذَكِ من دارة جوليا ذلكَ اليوم، مَهما قُلتِ’’.

‘‘وماذا كانَ ليَحصُلَ **لنا** حينها؟ ماذا كانَ ليحصُلَ **لها**؟’’ لقد كانَ توقيتُ الله مُمتازًا.

سَمعَ الدُّموعَ في صَوتها، وتقدَّمَ الخطواتِ الأخيرةَ القليلة الفاصِلةَ بينَهُما. وبقَلبٍ مسحوق، ناوَلَها الدَّرْجَ الصَّغير. فارتَعشَتْ يدُها إذ تَناوَلَتْه. وأبقَتْ رأسَها مُطرَقًا. ‘‘طلبتُ منكِ مرَّةً أن تتزوَّجي بي، فرفَضتِ. وقُلتِ إنَّ سبَبَ ذلكَ كانَ لأنِّي لم أُومِنْ بالله. أنا الآن أُومِنُ، يا هَدسَّة’’.

‘‘كانَ ذلكَ منذُ زمانٍ بعيد، يا مَرقُس’’.

‘‘كانَ أمسِ بالنِّسبةِ إليَّ’’.

فتَباعَدَتْ عنه. ‘‘لستُ الفتاةَ ذاتَها’’. وقد كانَ جسمُها كلُّه يرتعِش، وركْبَتاها تصطكَّان. وأرادَت له أن ينصرِف... ولكنْ لو فعلَ ذلك، لربَّما تموتُ،

كما تيقّنت.

‘‘قُولي لي إنَّكِ لا تُحِبِّينَني، هَدسَّة. قُولي لي بصراحةٍ إنَّكِ لا تشعُرينَ بأيِّ شيءٍ تُجاهي، فأدَعَكِ وشأنَكِ’’.

طرَفَتْ بِعَينها حَبِسًا للدُّموع. ‘‘أُحبُّكَ مثلما أحبُّ أخًا مسيحيًّا’’.

ومرَّرَ أصابِعَه برِفقٍ على حِجابها، فنَفَرَت في الحال. ‘‘احلفي لي إنَّ ذلكَ فقط هو الواقع’’.

‘‘المسيحيُّون لا يحلِفون على أيِّ شيء’’.

‘‘إذًا، قولي ذلك بصَريح العبارة. قولي لي إنَّكِ لا تُحِبِّينَني كما أُحِبُّكِ أنا’’.

فهزَّت رأسَها، غيرَ قادرةٍ أن تتكلَّم.

‘‘أُريدُ أن أتزوَّجَ بِكِ، هَدسَّة. أُريدُ أن أُرزَقَ أولادًا مِنكِ. أُريدُ أن أشيخَ معكِ’’.

فأغمضَتْ عَينَيها. ‘‘رجاءً، لا تقُل أيَّ شيءٍ بعد. لا

يُمكنُ أن أتزوَّجَ بك’’.

‘‘ولِمَ لا؟’’

‘‘ستتزوَّج، ولكنَّكَ لن تتزوَّجَ بواحِدَةٍ مثلي، يا مَرقُس. ستتزوَّجُ بشابَّةٍ جميلة من أريحا’’.

ووضعَ يدَيه على كتِفَيها، فأحسَّ توتُّرَها. ‘‘هنالِكَ امرأةٌ واحدةٌ فقط أردتُ يومًا أن أتزوَّجَ بها. أنتِ. وهُنالِكَ امرأةٌ واحِدةٌ فقط سأتزوَّجُ بها ذاتَ يوم.أنتِ’’.

‘‘تَفاثا مُغرَمةٌ بك’’.

فقال بِلا تكبُّر. ‘‘يُخيَّلُ إلَيها ذلك. ستَتغلَّبُ على الأمر’’.

فدارَت واقتربَت منه. ‘‘عليكَ أن تُعيدَ النَّظر. إنَّها جميلة ولطيفة، وهيَ تُحِبُّ الرَّبّ’’.

‘‘سبقَ لي أن قُلتُ لِعَزرا «لا». إنَّ بَرثُلماوُس مُناسِبٌ أكثرَ جدًّا لأنْ يكونَ زوجًا لِتَفاثا’’.

‘‘بَرثُلماوُس؟’’

‘‘شابٌّ لَحِقَ بِهِما من أريحا. لم يحسبْه عَزرا وارِدًا لأنَّ أباه يونانيٌّ’’. وضَحِكَ ضِحكةً خفيفة. ‘‘ذكَّرتُه بأنّي رومانيّ’’.

‘‘لا يَهُمُّ الآنَ ما دُمتَ في المسيح. نحنُ جميعًا واحِدٌ...’’

‘‘بَرثُلماوُس مسيحيٌّ. إنَّه ثاني شخصٍ اهتَدى على يَدِ عَزرا. ولا يحتاجُ عِزرا إلَّا إلى وَضع التَّحامُلاتِ القديمةِ جانبًا. فالفتى يُحبُّ تَفاثا كما **أُحِبُّكِ** أنا’’. ومَسَّ حِجابَها، فتراجعَتْ مُتحوِّلةً عنه. فعبَسَ قليلًا.

‘‘هَدسَّة، هل تذكُرينَ لـمَّا طلبتُ منكِ أن تتزوَّجي بي أوَّلَ مرَّة؟ قُلتِ إنَّكِ لا تَستَطيعين أن تكوني تحتَ نِيرٍ واحِدٍ مع شخصٍ غيرِ مؤمن. وقُلتِ إنّي كنتُ أقوى منكِ. لقد خَشِيتِ أن أجُرَّكِ بعيدًا عن الله. هل تَذكُرين؟’’

‘‘أتذكَّر’’. لقد قالت له آنذاكَ إنَّ رغبتَها في إرضائه

ستَصيرُ في الأخير أهمَّ من إرضاء اللّٰه.

‘‘سنجرُّ المحراثَ معًا الآن، يا هَدسَّة. إنِّي أُومِنُ بأنَّ يسوعَ هو المسيح، ابنُ اللّٰهِ الحيِّ’’.

كانت تتوقُ لأنْ تسمَعَ منه هذه الكلمات. وكانت تُصَلِّي بِلا انقِطاعٍ لأجلِ ذلك على مدى السِّنينَ المنصَرمة. وكانَت قد وجَّهَت قلبَها بِثَباتٍ إلى هذه الغاية منذُ زمنٍ بعيدٍ في حديقة دارة روما. والآن لم تستَطعْ أن تتكلَّمَ مُتخطِّيةً الدُّموعَ التي تخنُقُها.

وقال مَرقُس: ‘‘كُنتِ مُغرَمةً بي آنذاك. ولقد شعرتُ بذلك كلَّما لمستُكِ. وشعرتُ به من جديدٍ منذ بضعةِ أيَّامٍ لـمَّا كنَّا قاعِدَينِ في المختَلى المظَلَّلِ وأمسكْتُ يدَكِ’’. ورأى رَفرَفةَ الحِجابِ الخفيفةَ معَ كلِّ نَفَسٍ أخَذَتْه، فشرعَ قلبُه يخفُقُ أسرَع. ‘‘أريدُ أن أراكِ!’’

فقالت مَكروبةً: ‘‘لا!’’ وضغطَتِ الحِجابَ على وجهِها، مُشيحةً بناظرَيها عنه. ‘‘لا!’’

عندَئذٍ علِمَ ما كان يكبَحُها.

‘‘أذلكَ هو ما يحولُ بينَكِ وبيني؟ نُدوبُكِ؟’’ ثُمَّ أدارَها بثَبات وأمسكَ مِعصَمَيها، مُنزِلًا يدَيها عَنوةً.

‘‘مَرقُس، **لا!**’’

‘‘أتعتقِدينَ أنَّ الأمرَ يَهُمُّني؟’’

‘‘رجاءً، لا تفعَلْ هذا!’’

فتجاهلَ اعتِراضَها، ونَزَعَ الحِجابَ تاركًا إيَّاه يسقُطُ أرضًا بِلا مُبالاة. وأشاحَت هَدسَّة بناظرَيها، باكيةً. فأمسكَ بِذَقنِها ورفعَ رأسَها قَسرًا، حتَّى يتسنَّى له أن ينظُرَ إليها. فأغمضَت عينَيها بإحكامٍ.

‘‘آهِ، يا مَحبوبة!’’ كانَتِ الجُروحُ عميقة، والنَّدوبُ مُمتدَّةً من جبينِها إلى ذقنِها وحَنجَرتِها. ثُمَّ أرخى مِعصَميها، ولامَسَ وجهَها برِقَّة، ممرِّرًا أصابِعَه على علامةِ الأسَد. ‘‘أنتِ جميلة’’. ثُمَّ احتضنَ رأسَها بين يدَيه، وقبَّلَ جَبينَها، وخدَّها، وذقنَها، وفمَها. ‘‘أنتِ جميلة’’.

فتحَتْ عَينَيها إذ تراجَعَت عنه قليلًا، فنظرَ داخِلَهُما. وإذا بِما رآه يُذيبُ كلَّ مُقاوَمة، ويُزيلُ كُلَّ خَجَل.

وقال بصَوتٍ أجَشَّ: ‘‘أنتِ عندي أجمَلُ امرأةٍ في الدُّنيا، وأثمَنُ من ذَهَبٍ تحمِلُه ألفُ سفينة’’. ثُمَّ مسحَ بالقُبَلِ الدُّموعَ عن خدَّيها وأدنى فمَه ليُقَبِّلَ فمَها. حتَّى إذا استرخَت بينَ ذِراعَيه، جذبَها أقرَبَ إليه. ولـمَّا انزلقَتْ ذراعاها فطوَّقَتاه، خُيِّلَ إليه أنَّه دخَلَ السَّماء.

قال: ‘‘آهِ هَدسَّة!’’ مُتَنشِّقًا عبيرَها الـمُسكِر. ثُمَّ انكفأ مرتجفًا، ومشَّطَ شعرَها بأصابعِه، قائلًا: ‘‘تزوَّجي بي؛ تزوَّجي بي **الآن**’’.

اقتربَتْ منه مُبتَسِمةً، وعَيناها مُشرِقَتان من وراء دُموعِها. ومرَّةً أُخرى أوقفَها الله وجهًا لوجهٍ أمام خَوفها الأعظم: أنَّ مَرقُس قد رأى وجهَها. إنَّه قد رأى نُدوبَها. وما ازدادَ الحبُّ الذي في عَينَيه إلَّا رقَّةً.

آه، يا الله، كم أنتَ عجيب! هكذا هَتَفَ قلبُها فَرَحًا

إذ نَطَقَتِ الكَلِماتِ التي كثيرًا ما تاقَتْ لأن تنطَقَها لِمَرقُس على مرِّ السِّنين.

''سأتزوَّجُ بكَ، سيِّدي!''

وضحِكَ، مُتشرِّبًا الحُبَّ البادِيَ في عَينَيها. ثُمَّ قال- مُرَبِّتًا وجهَها بلُطف- ''أوه، يا مَحبوبة! أشعُرُ الانَ مِثلَما شعرتُ لما قَمتُ من بُحَيرَةِ الجليل''. ذلك أنَّ الفَرَحَ الذي شعرَ به آنذاك غمرَه الآن مَوجةً على مَوجة. وبلَّلَتِ الدُّموعُ عَينَيه، دونَ أن يعلَمَ أنَّه كان يَبكي. ''لقَدِ افتَقدتُكِ... افتَقدتُكِ وكأنَّ نِصفَ ذاتي قد سُلخَ عنِّي!''

ومدَّت يدَها إلى فَوقُ فلمَسَتْ وَجهَه مَشدوهةً. ''كما افتَقدتُكَ أنا''.

فقبَّلَها أيضًا، ورغبَتُه فيها حادَّةٌ كما سبقَ أن كانَتْ، بَل أقوى، ومُتَزايِدة. لقد أحبَّ مَلمسَ بَشَرَتها الحريريَّ الناعم. وأحبَّ نِظرةَ عَينَيها لـمَّا مسَّها، انعِكاسةً لِما أحسَّه مِن عَجَبٍ وسُرور. وقد غمرَه الحبُّ إلى التَّمام حتَّى إنَّ روحَه في داخِلهِ ترنَّمَتِ احتِفالًا. وعلِمَ أنَّ ذلكَ كانَ هديَّةً-

هديَّةً من آبٍ مُحِبٍّ ما يزالُ ينتظِرُه حتَّى يعودَ إلى البَيت!

إنَّ الصَّدى في الظَّلامِ ما كانَ قطُّ صَوتَ هَدسَّة، بل كان صَوتَ الله مُنادِيًا إيَّاه، غير تارِكٍ إيَّاه يرحَل.

يا ربِّ، أيَّ أمرٍ عَجَبٍ قد فعلتَ؟ لقد وهَبتَني مُنيةَ قلبي، أنا أقلَّ الناس استِحقاقًا. أيُّها الرَّبُّ الإله، إلهي، إنَّ محبَّتَكَ تُذهِلُني. أبا، أنا أحُبُّكَ. أنا أشكُرُكَ. أيُّها الرَّبُ يسوع المسيح، أيُّها الآب، سأحمَدُكَ وأتعبَّدُ لكَ ما دامَ بي نَفَسٌ على هذه الأرض. وبعدَ ذلك، جاثيًا على ركبتَيَّ أمام عرشِكَ في السَّماء.

ثُمَّ ضمَّ هَدسَّة بشِدَّةٍ إلى صدره، وقلبُه فيَّاض. ها هوَ أخيرًا... بعدَ تأخُّرٍ طويل، قد عادَ إلى البيت!

خاتمة

“لكنْ عندي عليك: أنَّكَ تركتَ محبَّتكَ الأُولى. فاذكُر من أين سقَطتَ! وتُبْ واعمَلِ الأعمالَ الأُولى. وإلَّا، فإنِّي آتيكَ عن قريبٍ وأُزَحزِحُ منارَتَكَ من مكانِها، إنْ لم تتُب” (رؤيا يوحنَّا ٢: ٤ و٥).

استمرَّ أهلُ أفَسُس يتحدَّثونَ أشهُرًا بشأن زواجِ مَرقُس لوشيانُس ڤاليريان بِهَدسَّة، الشَّابَّةِ الحرَّة، وقد أجراهُ وباركَه الرَّسولُ يوحنَّا. فرُغمَ كُلِّ شيء، مَتَى كانتْ آخِرُ مرَّة فيها تزوَّجَ وارِثُ واحِدَةٍ من أكبَرِ عائلاتِ التُّجَّارِ في روما بعَبدَةٍ يهوديَّةٍ سابقة؟ ومتَى عَمَدَ القادةُ العَسكريُّون والبرُوقُنصُل الحاليُّون والمتَقاعِدون إلى الحضور عَلَنًا في مُناسَبةٍ اجتِماعيَّة معَ عمَّالِ سُفُنٍ وعَبيدٍ سابِقين وبَغايا سابِقات؟ فإنَّ ذلكَ هو ما قد أمَرَ بهِ مَرقُس في نهايةِ احتِفالاتِ العُرس: أن يُحَرَّرَ عَبيدُه ويُدعَوا إلى المشاركة في حفلِ الزِّفاف معَ باقي الضُّيوف.

وقفَتْ هَدسَّة بجانب مَرقُس، ووجهُها مُشرِقٌ فَرَحًا، وتعهَّدَت له بحياتِها وحبِّها. ولم يتَمالَكْ أولئك القريبونَ إليها كفايةً بحيثُ يَرَون وجهَها عنِ التأثُّرِ بالحُبِّ المتألِّقِ عليه. وكانَ اثنَينِ مِنهُم ألِكسندرُ وراشِد. فمع أنَّ ألِكسَندر أحَسَّ قلبَه فارِغًا على نحوٍ غريبٍ إذ شاهدَ هَدسَّة ومَرقُس يَقترِنان، كان راضيًا بأنْ يعلَمَ أنَّ هَدسَّة مسرورة. وبعدَ الزِّفافِ بوَقتٍ قصير، أغلقَ ألِكسَندر عِيادتَه وتطوَّعَ بِخدماتهِ لِفَيلَقٍ رومانيٍّ كانَ على وَشكِ الإبحار إلى بريطانيا. وقد بعَثَ إلى هَدسَّة برِسالةِ وَداعٍ قصيرة... ولم يعُد قَطُّ إلى أفسُس.

أمَّا راشِد، فاختَفى عن الأنظار حالًا بعدَ الزِّفاف. وبعدَ مُدَّةٍ طويلة، روى بعضُهم أنَّه رجَعَ إلى سوريَّة، حيثُ تزوَّجَ وأنشأ أُسرة. غيرَ أنَّ آخَرِين كانوا على يقينٍ بأنَّهم، بينَ حينٍ وآخَر، شاهَدوا أعرابيًّا في ظِلالِ أفسُس، على مَقرُبةٍ من منزلِ مَرقُس وهَدسَّة، يُراقِبُ الآتينَ والذَّاهِبين، حارِسًا في الخَفاءِ هَدسَّة وعائلتَها. وقد باتَت ثمَّةَ عائلةٌ حقًّا، حيث إنَّ هَدسَّة ومَرقُس بُورِكا بسَبعةِ بَنين وثلاثِ بنات! جميعُهم أتَوا بفَرَحٍ لا ينتهي لفيبي في أثناء سَنَواتِ عُمرِها القليلةِ الأخيرة. غير أنَّ

فيبي لمِ تستَطعْ أن تُنكِرَ محبَّتها الخاصَّة لحفيدةٍ واحدةٍ: فَتاةٍ صغيرةٍ جميلةٍ ضَحوكٍ داكِنَةِ العينَين، سمَّاها أبَواها جوليا.

ولـمَّا اشتدَّت حِدَّةُ الاضطِهادِ على المسيحيِّين، نُفيَ الرسولُ يوحنَّا إلى جزيرةِ بَطمُس. وشرَعَ مَرقُس يستخدِمُ جميعَ علاقاته السِّياسيَّة والماليَّة لِحمايةِ عائلتِه. وعِندَما دفَنَ والِدتَه، صلَّى هَمسًا صلاةَ شُكرٍ لأنَّها أعُفِيَت من النِّزاع المقبِل. وبعدَ مُدَّةٍ قصيرة، أضاف إلى سُفُنه حُمولةً جديدة: مَسيحيِّين مُشَرَّدين يحتاجُونَ لأَنْ يُنقَلوا إلى بَرِّ الأمان.

ومع كُلِّ يَومٍ يمرُّ، ارتدَّتِ الكنيسةُ في أفَسُس أكثرَ فأكثرَ إلى العقائدِ والممارَساتِ الدُّنيويَّة. أخيرًا، أعلنَ الربُّ ليوحنَّا المستَقبَل. وأنذَرَ يوحنَّا في رؤياه المكتوبة، مؤمِني أفسُس بِما سيَحدثُ إنْ كانوا لا يتوبون ويرجعونَ إلى محبَّتِهم الأُولى للِرَّبِّ وتَكَرُّسِهمِ الأصليِّ له.

أمَّا مَرقُس، بعدَما عَمَدَ إلى تمضِيَة وَقتٍ مُتزايدٍ في الصلاة مع هَدسَّة، فقدِ استَيقظ ذاتَ صباحٍ

وفي قلبه وعقله رِسالةٌ واضِحة: غادِر! ودونَ تَردُّد، سَيَّلَ جميعَ موجوداتِ العائلة في إيونيا، وحَمَّلَ هَدسَّة والأولادَ على مَتنِ سفينتهِ المفضَّلة، ثُمَّ أبحَرَ مُستخدِمًا ملَّاحِينَ انتَقاهُم بنفسه. ولم يعلَمْ أحَدٌ على الشاطئ المكانَ الذي يقصِدونَ إليه.

ثُمَّ قبلَ مُضِيّ قَرنَين، سنةَ ٢٦٢، سقطَت أفَسُس. فتِلكَ التي كانت ثانِيةَ المدُن الكُبرى في الإمبراطوريَّة الرُّومانية دمَّرَها القُوطيُّون. حتَّى إنَّ الأرطميسيون- إحدى العجائبِ السَّبع في العالَم القديم- أُحرِقَ وسُوِّيَ بالأرض. وإلى هذا اليوم، لم تَبقَ من تِلكَ المدينة الكوزموپوليتانيَّة، المجيدةِ في ما مضى، إلَّا خِرَبٌ مُبَعثَرة.

لقد زَحزحَ الرَّبُّ المنارةَ من مكانِها!

مسردٌ ألفبائيٌّ

(شَرحُ ألفاظ)

أباتون:

مَهجَعٌ (غُرفَةُ نَوم) مُقدَّسٌ مُجاورٌ للأسكليپيون (معبدِ إلهِ الصِّحَّة والشِّفاء). كان طالِبو الشِّفاء ‘‘يُحضَنون’’ هناك لتَمضِيَة اللَّيل.

أپولو:

عند اليونانيِّين والرُّومان، هو إلهُ نور الشَّمس والنبَّوة والموسيقى والشِّعر. وهو الأجمَلُ بينَ الآلِهة.

أتريوم:

الفِناءُ المركزيُّ في المسكن الرومانيّ. وقد كانت مُعظمَ المنازل الرُّومانيَّة تتكوَّن من سلسلة غُرَف مُحيطة بفِناءٍ داخليّ.

أرطَميس:

إلاهةُ القَمَر اليونانيَّة. كان هيكلُها الرئيسيُّ في أفسُس، حيثُ سقطَ نَيزك (حُفِظَ لاحقًا في الهيكل) مُسَمِّيًا- على ما يُفترَض- أفسُس مَقامًا للإلاهةِ أرطَميس. ومع أنَّ الرُّومان ساوَوا أرطميس بدِيانا، فقدِ اعتقدَ الأفسُسيُّون أنَّها أختُ أپولو وابنةُ ليتو وزَفس (زيوس)، حاسِبينَ إيَّاها إلاهةً/أُمًّا للأرض تُبارِكُ البشرَ والبهائمَ والتُّربة بالخِصْب. وعلى خلافِ دِيانا التي كانت إلاهةَ الغاباتِ والإنجاب، كانت أرطميس شهوانيَّةً ومُولَعةً بالعَربدة.

اسْتاشيو (الجَمع: استاشيونِس):

مكانُ استِراحةٍ على الطُّرُق، حيثُ أمكنَ استِبدالُ الأحصِنة واستئجارُها، وتركَّزَت مَخافِرُ لِحراسةِ الطُّرُق ينطلِقُ منها جُنودُ الدَّوريَّات ويعودون إليها. وعمومًا، كانت المسافةُ الفاصِلة ما بين اسْتاشيو وآخَر ستَّة عشر كيلومترًا.

أسكليپيوس:

إلهُ الشّفاء عند اليونانيّين والرُّومان. وتزعُمُ الميثولوجيا أنَّ أسكليپيوس كان ابنَ أپولو وحوريَّة (هي كورونِس)، وقد تعلَّمَ الشّفاء على يَدِ قَنطُور (هو شيرون).

أسكليپيون:

هيكلُ أسكليپيوس.

أفروديت:

إلاهَةُ الحُبِّ والجمال عند اليونانيّين (أُمُّ إروس). هي الإلاهةُ ڤينوس عندَ الرُّومان (نظيرَتُها عشتروت عند الفينيقيّين والزُّهَرة عند العرب).

أليمَنتا:

حِصَّةٌ من المال تُخصَّص لمساعدة الفُقَراء.

الإنفَحَة:

الغِشاءُ المبَطِّنُ لِمَعِدة العِجل أو نَحوِه، أو لواحِدَةٍ من بُطَيناتِها.

أوريوس (الجمع: أورِيايِ):

قِطعَةُ نَقدٍ رومانيَّةٌ من ذَهَب، تُساوي خمسةً وعشرين دينارًا، وزنُها بينَ خمسةِ غرامات وأحَدَ عشَرَ غرامًا.

برُوقُنصُل:

حاكِمٌ، أو قائدٌ عسكريٌّ، لِولايةٍ رومانية، مسؤولٌ أمامَ مجلسِ الشُّيوخ.

بِبَليوتيكا:

غُرفَةُ المكتبة في المسكن الرومانيّ.

پالُس:

رِداءٌ كالعَباءة، كانت نِساءُ الرُّومان يَرتَدينَه فَوقَ السُّتولا.

پُروپيلون (يُدعى أيضًا پُروپيلايوم):

لفظةٌ مِعماريَّة تُشيرُ إلى مدخل بوَّابةٍ أو قَنطرةٍ أو

رِواقٍ مُتَّسِمٍ بالفَخامة خارجَ الدَّارات الرُّومانيَّة.

پَريستايْل:

البَهوُ ذو الأعمِدَة. قِسمٌ من المسكن الرومانيّ (كان في الغالب قِسمًا ثانويًّا) يُحيطُ بالفِناءِ الداخليّ وتُحيطُ به الأعمِدَة من الداخِل. وكانت مَهاجعُ العائلة (غُرَفُ نَومِها) تقعُ في البهو ذي الأعمدة، وأيضًا المَزارُ العائليُّ (لاراريوم)، والموقِدُ والمطبخ، وقاعَةُ السُّفرة (تريكلينيوم)، والمكتبة (بِبليوتيكا). وفي بيوتِ الأغنياء كان فِناءُ البَهوِ ذي الأعمِدة يُحوَّلُ إلى حديقة.

پَكيوليوم:

حصَّةٌ من المال ينالُها العبيد من مالِكيهم. وكان في وُسعِ العبيد أن يتصرَّفوا بالپَكيوليوم كما لو كانَ مِلكَهُم الشَّخصيّ. ولكنْ في أحوالٍ مُعيَّنة، كانَ يحقُّ للمالِكِ أن يستردَّه مِنهُم.

پُوسْكا:

شَرابٌ مَصنوعٌ من الأسيتوم (كُحولٍ كالخَلّ)

والماء.

تَپيداريوم:

غرفةٌ في الحمَّامات، الماءُ فيها دافئٌ ومُهَدِّئ.

التُّوجَة:

الرِّداءُ الخارجيُّ الذي كان الرُّومان يرتَدونَه (مع أنَّ استِعمالَه بَطُلَ بالتَّدريج). وهو قطعةُ قُماشٍ بيضَويَّة واسِعَة، تُسدَل على الكتِفَين والذِّراعَين. وكان لَونُ التُّوجَة وشكلُها مُحدَّدين على نحوٍ حاسم: إذ كان لكُلٍّ من أهل السياسة، والحادِّين على مَيْت، والرِّجال، والصِّبيان، تُوجَةٌ مُختلِفة. وكانَ الصِّبيان يَلبَسون تُوجةً أُرجوانيَّة الحواشي، ولكنْ عند بلوغهم سنَّ الرُّشد كان يُسمَح لهم بأن يرتَدوا توجا ڤيريلِس، أي تَوجةَ الرَّجُل، وهذه كانت بسيطةً وغيرَ مُزَخرَفة.

تريكلينيوم:

قاعة السُّفرة في المسكن الرومانيّ. وكان التريكلينيوم عادةً فخمًا ومُزَخرفًا، وله عدَّةُ

أعمدة، وفيه تشكيلةٌ من التَّماثيل.

جِلفاط (ستُپاتر):

عاملٌ عند أحواض السُّفن كان يقفُ مُتَوازِنًا على سِقالة كي يسدَّ حُزوزَ السُّفُن وتُروسَها بالقار بعدَ رُسُوِّها.

جوپيتر:

الإلهُ الأعلى عند الرُّومان وزَوجُ يُونو (جُونو). كان جوپيتر أيضًا إلهَ النُّور والفضاء/الـمُناخ والدَّولة (رَغَدِها وقوانينِها). وكان جوپيتر يُماثِل الإلهَ زَفْس (زيوس) عندَ اليونانيِّين.

حادِس (هادِس):

إلهُ العالَم السُّفليِّ (الجحيم) عندَ اليونانيِّين.

حِجاب:

عُلَيبةٌ من جِلدِ العِجل، سوداءُ مُرَبَّعة، تَحوي شرائحَ من الرَّقِّ مكتوبًا عليها أربَعةُ مَقاطعَ

مُختارة، اثنانِ من سِفرِ الخُروج واثنان من سِفر التَّثنية. وكان الحِجابُ يُربَطُ بواسِطةِ سُيورٍ جلديَّة طويلة على باطنِ ذِراعِ اليهوديِّ الوَرع، ما بينَ المرفَقِ والكَتِف، أقربَ ما يكونُ إلى القلب. كذلك كان يُربَطُ حِجابٌ آخر على الجبين في أثناء الصَّلاة. وقد كان ذلك تَجاوُبًا مع كلام الله في سِفرِ التَّثنية ٦: ٦ و٨ "ولْتكُن هذه الكلمات التي أنا أُوصيكَ بها اليوم على قلبِك... واربُطها علامةً على يدِك، ولتكُن عصائبَ بينَ عينَيك".

حِيرا (هِيرا):

مَلِكةُ الآلِهَة عند اليونانيِّين. كانت حِيرا هي أُختَ زَفْس (زيوس) وزوجتَه، وقد تماهَت بِيُونو (جُونو) عند الرُّومان.

خيمة:

مَكانٌ صغيرٌ مَسقوف كان يُقامُ عُمومًا على سَطح البيتِ العِبرانيّ.

دينار (ديناريوس، ج: ديناريي):

وَحدةٌ من العُملة عند الرُّومان، تُعادِلُ أجرةَ يومٍ واحد للعامِلِ العاديّ (راجع أيضًا: أوريوس، سَستَرس، كُوادرَنس).

زَفس (زيوس):

مَلِكُ آلِهَةِ اليونان وزوجُ حِيرا (هيرا)؛ يُماثِلُ الإله جوپيتر (راجع: جوپيتر).

ستولا:

ثوبٌ طويل، يُشبِه التنُّورة، كانت النِّساء الرومانيَّات يرتَدينَه.

سَسْتَرس:

عُملةٌ رومانيَّة، قيمتُها رُبعُ دينار.

سُفِريم:

لَفظةٌ عِبريَّة أُطلِقتْ على كاتِبٍ كان يتولَّى نَسْخَ آياتِ الأَسفارِ المقدَّسة لاستعمالها في الأحجِبَة والميزوزوث (راجع: حجاب، مِيزوزاه).

سَكراريي:

عُمَّالٌ عندَ أحواضِ السُّفُن يُنزِلونَ الحُمولةَ من العَرَبات ويَضَعونَها على ميزانٍ ضخم.

سيبيل:

إلاهةُ الطبيعة عند أهل فريجيَّة، وقد عُبِدَتْ في روما. في الميثولوجيا، كانت سيبيل عشيقةَ أتيس (إلهِ الخِصب)، وقد مثَّلَتِ الأُمومةَ الكَونيَّة. اقترنَتْ عِبادتُها باحتِفالاتٍ صاخِبة ومُجونٍ فاحش. وقدِ انطَوى جُزءٌ من اتِّباعِها على رجاءٍ قويٍّ بحياةٍ بعدَ الموت.

سِيكاريي (المُفرَد: سيكاريوس):

وَطَنيُّون مُتحمِّسون تحوَّلوا إلى قُطَّاعِ طُرُقٍ يُهاجِمون المسافِرين على طُرُقِ مِنطَقة اليهوديَّة.

سيميتار:

سَيفٌ أحدَب ذو شَفرةٍ مُقوَّسة، حدُّها القاطعُ

في الجانب الخارجيِّ المحَدَّب.

سيڤيتاس (الجَمع: سيڤيتاتِس):

مدينةٌ أو قريةٌ صغيرة.

شارُن:

في ساحةِ المحاربين الرومانيَّة، كان شارُن أحَدَ "دليلَي الموتى" (ليبِتناريي)، وقد مثَّلَه شخصٌ يَرتَدي قناعًا ذا مِنقار ويستَخدمُ مِطرَقةً كبيرة. هذا التمثيل كانَ مزيجًا للمُعتَقدات اليونانيَّة والإترُسكيَّة. فعندَ اليونانيِّين، كان شارُن رمزًا للمَوت والنُّوتيَّ الذي يُقِلُّ الموتى عبرَ نهرَي أُسطُقس وأكيرون في الحادِس، أوِ الجحيم (إنَّما فقط مُقابِلَ أُجرَة، وإذا كان لهُم دَفنٌ لائق). وعندَ الإترُسكان، كان شارون (شارُن) هو مَن يضرِبُ ضربةَ الموت.

الطريق:

لفظةٌ تُستعمَلُ في الكتاب المقدَّس (سِفر الأعمال) للدلالة على الإيمان المسيحيّ. وربَّما

سمَّى المسيحيُّون أنفُسَهم ”أتباع الطريق“، أو ”أهلَ الطريق“. ومعلومٌ أنَّ الطريق هو لَقَبٌ استخدمَه المسيح بالإشارة إلى شخصه.

الطَّليس:

وشاحٌ يُلقَى على الرأس أو حولَ الكَتِفَين، كان رِجالُ اليهود الراشِدون والمحافِظون يلبسونه في أثناء صَلَواتِ الصَّباح. وهذا الوِشاحُ (أوِ الشَّال) مصنوعٌ من الحرير أو الصُّوف، وهو مُستطِيلُ الشَّكل ولَه شَراريبُ عندَ الزوايا.

فانُم (الجمع: فانا):

مَعبَدٌ كان أكبَر من مَزار، لكنْ أصغرَ من الهياكل المعتادة.

فريجيداريوم:

غُرفةٌ في الحمَّامات، الماءُ فيها بارِد.

قُربيطة:

سفينةٌ تجاريَّة بطيئةُ الإبحار.

كَتامَيت:

مأبون؛ غُلامٌ يُتَّخَذُ لأغراضٍ جنسيَّة شاذَّة عند المثليّين.

كَلِداريوم:

غُرفةٌ في الحمَّامات كانَتِ القُربى إلى المراجل، ومن ثَمَّ كانتِ الأكثرَ سُخونةً. لعلَّها تُشبِه الجاكوزي أو غُرفةَ البُخارِ اليوم.

كُوادرَنس (الجمع: كُوادرانتِس):

قِطعةُ نَقدٍ رومانيَّة بُرونزيَّة. وكانت أربَعٌ من هذه تُساوِي قِطعةً نُحاسيَّة واحِدة، وستَّ عشرةَ تُساوي سَسْتَرسًا واحِدًا، وستٌّ وأربعون تُساوي دينارًا واحِدًا.

لاراريوم:

جُزءٌ من المسكن الرومانيّ، كان غُرفةً خُصوصيَّة

تُنصبُ فيها الأوثان والأصنام.

لُفَّاح (يَبروح):

نباتٌ عُشبيٌّ من الفصيلة الباذنجانيَّة، مَوطِنُه الشَّرقُ الأوسَط، كانَ يُستعمَلُ على نحوٍ خاصّ لتَعجيلِ الحَمْل، واستُعملَ أيضًا بِوَصْفه مُسهِلًا، أو مُسَكِّنًا، أو مُبيدًا للأبواغ.

مارس:

إلهُ الحَربِ الرُّومانيّ.

مِنسُر (الجمع: مِنسُريس):

عاملٌ عندَ أحواضِ السُّفُن، كان يَزِنُ الحُمولة ثُمَّ يُقيِّدُ الوزنَ في سِجِلٍّ أساسيّ.

مِيزوزاه (الجَمع: مِيزُوزوث):

أصلًا، الكَلِمةُ العِبريَّة لِقالِب الباب. ثُمَّ باتَتْ تُشير أيضًا إلى عُلَيبة تُثبَّتُ على قائمة الباب، أو بصُورةٍ أهمَّ إلى الرَّقِّ المحفوظ داخِلَ العُلَيبة. وكانت

تُكتَب على الرِّقوق آياتٌ مِفتاحيَّة من الكتابِ المقدَّس (مَقطعان من سِفر التَّثنية) وأيضًا ‘‘شَدَاي’’ اسمُ اللهِ القدير. وقد أوصى الله العبرانيِّين (ربَّما مجازيًّا) أنِ ‘‘اكتُبها على قوائمِ [ميزوزوث] أبوابِ بَيتِك وعلى أبوابِك’’. وبعدَ مُدَّةٍ من الزمان، كانَتِ الرُّقوقُ تُستَبدَل، ويأتي كاهِنٌ لِمُبارَكةِ المِيزوزاه وأهلِ البيت. (راجع أيضًا: حِجاب).

نِپتون:

إلهُ البحرِ (أو الماءِ) عندَ الرُّومان. كانت تُرافقُ صُوَرَه أغلَبَ الأحيان سبعةُ دَلافين مُقدَّسة. وهو يُماثِلُ الإلهَ پوسيدون عند اليونانيِّين.

هارُسَپكس (الجَمع: هارُسپيس):

شخصٌ في أحَدِ الهياكل افتُرِضَ أنَّه يَستَطيعُ أن يُفسِّرَ العلاماتِ الخارقة للطبيعة بِفَحصِ الأعضاءِ الحيويَّة في الحيوانات التي يُضحِّي بها الكهَنة (عَرَّاف).

يِشُوَع:

اللفظ العبرانيُّ لاسم ‘‘يسوع’’.

يوسُس:

أقلُّ أشكال الزواج إلزامًا عندَ الرومان. ربَّما كان شبيهًا بما يمكنُ أن نَدعوَه اليوم ‘‘المساكَنة’’ (أي العيشَ عيشةَ زَوجَين دون عَقدٍ أو عَهد).

يُونو (جُونو):

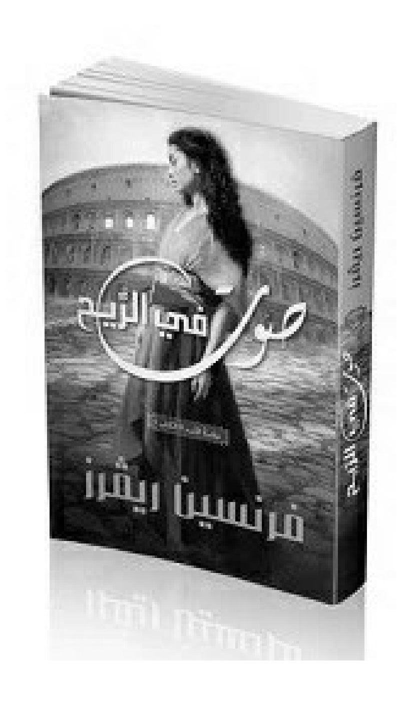
إلاهةٌ رومانيَّة، تُماثلُ الإلاهة اليونانيَّة حِيرا (هِيرا). كانت يُونو إلاهةَ النُّور والإنجاب والنِّساء والزَّواج. ومن حيثُ كَونُها زوجةً لجوپيتر، كانت هيَ مَلِكةَ السَّماء.



فرنسين ريفرز

كتبَتْ أكثر من عشرين روايةً من أكثر الكتب مبيعًا، وقد نالَتْ عدَّة جوائز، بينها جائزة ‘‘الناقد لصفوة الآثار’’ (Critic’s Choice Award) وجائزة ‘‘RITA’’ لكَتَبة قصص الحبِّ في أميركا للأعوام ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧م على التوالي عن أفضل الروايات الرومانسيَّة الملهمة، ممَّا أدخَلَها قاعة مشاهير الروائيِّين، كما أنَّها نالَتْ ميداليةً ذهبيَّةً تقديريَّة نظيرَ روايتها **“آكل الخطيئة الأخير”** (The Last Sin Eater).

ومن مؤلّفاتها في العربيَّة، الكتاب الأوَّل من سلسلة علامة الأسد بعنوان **"صوت في الريح"** ورواية **"الحب المحرِّر"** من منشورات أوفير للطباعة والنشر. وللمزيد عن هاتَين الروايتَين، انظُرِ الصفحات التالية:



الكتابُ الأوَّل من ثلاثيَّة علامة الأسد

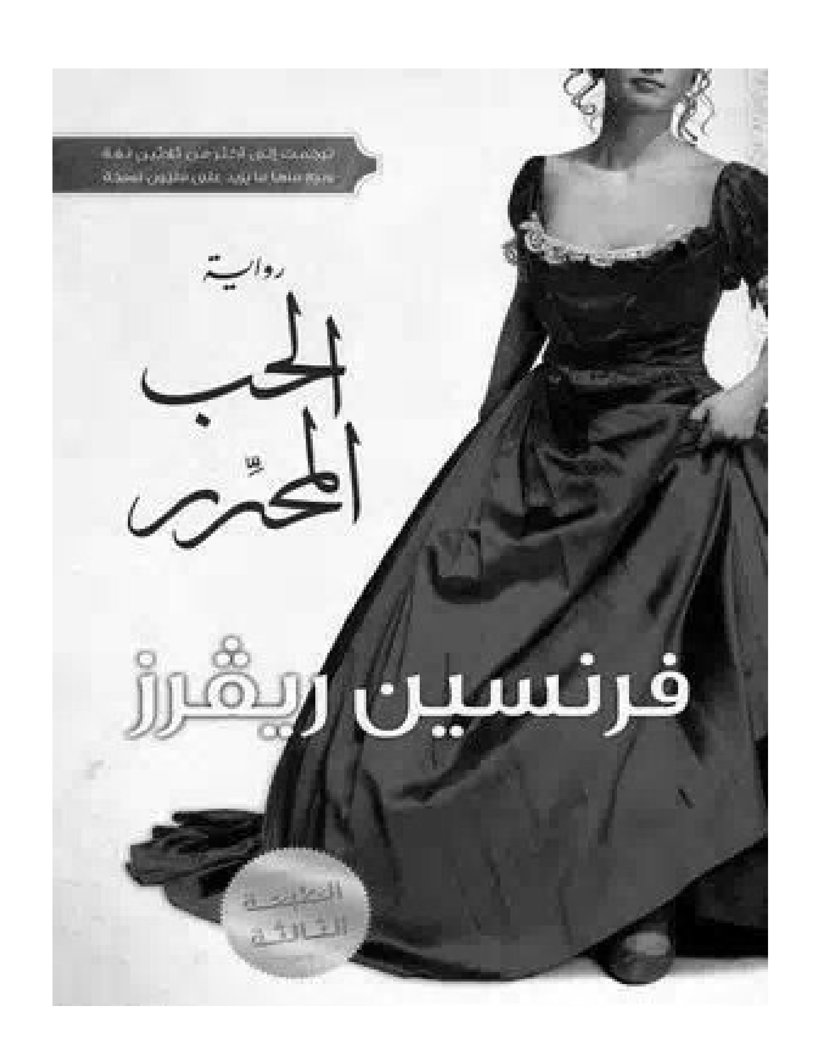
صوت في الرِّيح

فرنسين ريڤرز

ستـرحلُ بك هذه الرواية عبر الزمن إلى القرن الأوَّل الميلاديّ، وتحديدًا إلى مدينة القدس عندما كانت تحت حُكْمِ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وستعرّفُك إلى شخصيَّةٍ لن تنساها ما حييت: هَدسَّة.

فبعدَ أن نجَتْ من مجزرةٍ كان من بين ضحاياها أهلُها؛ وبعد أن دمَّرَ الرومان مدينة القدس، سُبيَت هَدسَّة وبيعَتْ عبدةً إلى عائلةٍ أحدِ التُّجَّار.

ومع أنَّ قلبَها قد تمزَّقَ بسبب حبِّها لشابٍّ أرستُقراطيّ، فإنَّ تلك العبدةَ الشابَّة تشبَّثتْ بإيمانها بإلهها الحيّ لتَتَحرَّرَ من عبوديَّة قوى روما المنحطَّة.



هل تقدرُ المحبَّة أنْ تُخلِّصَ أيَّ إنسان؟

الحب المحرِّر

فرنسين ريڤرز

تُرجِمَت إلى أكثرمن ثلاثين لغة، وبِيعَ منها ما يزيد على مليون نسخة

بلادُ الذهب الجبليَّة في كاليفورنيا، سنة ١٨٥٠م. زمانٌ فيه كان رجالٌ يبيعون أنفسَهم لأجل كيسٍ من الذهب، ونساءٌ يَبِعْنَ أجسادَهنَّ لأجل مكانٍ يَبِتْنَ فيه.

الحب المحرّر رِوايةٌ بارعةٌ مغيِّرةٌ للحياة، محورُها المحبَّة غير المشروطة التي تخترقُ جميعَ الحدود والسُّدود، وتحطِّمَ أعتى القيود.

محاكاةٌ قصصيَّةٌ بارعة لسفر هوشع.